يوميات من بغداد

مشاهد صحفية من بغداد خلال الحرب



ترجمة

الأهلية للنشر والتوزيع

روبرت واينر

مراسل شبكة "سي. ان. ان" C.N.N في بغداد

يوميات من بغداد

مشاهد حية من بغداد خلال الحرب

روبرت واينر

مراسل شبكة "سي. إن. إن." C.N.N في بغداد

يوميات من بغداد

مشاهد حية من بغداد خلال الحرب

ترجمة :
عمّار جولاق
عبد الرحيم الفترا
مراجعة : علي رمّان

الأهلية للنشر والتوزيع

الطَّبعَة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

الكتاب: يوميات من بغداد

المؤلف : روبرت واينر

ترجمة : عمار جولاق

عبد الرحيم الفرّا

مراجعة: علي رمان

الناشر : الأهلية للنشر والتوزيع

عمان - الأردن

ص. ب ٧٧٧٢

ت: ٦٥٧٤٤٥ - ٦٣٨٦٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة الترجمـة

يعمل مؤلف الكتاب «روبرت وينر» منذ ما يزيد على عشرين عاما كصحفيّ في مجال المطبوعات والإذاعة، وقد غطى أحداث حرب فيتنام لأكثر من عام خلال عمله مع شبكة "C.N.N"، كما غطى سقوط عاصمة فيتنام الجنوبية لصالح شبكة "C.N.N".

انضم «وينـر» إلى شبكـة "C.N.N" عام ١٩٨١، وعمل كرئيس لمكتبي شبكة "C.N.N" في لوس أنجلوس، وفلسطين «المحتلة»، وأدار عملية تغطية أخبار «الثورة» التي أطاحت بالشيوعية في أوروبا الشرقية، وتغطية إطلاق سراح مانديلا، . . وبذلك فازت شبكة "C.N.N" بجائزة أفضل تغطية إخبارية. . أما حاليا فإن «وينر» يعمل في منصب كبير «مسؤولي» الشبكة في أوروبا حيث يعيش مع عائلته في باريس.

يقـول «وينر»: «إن العمل في مجال الأخبار التلفزيونية المصورة هو بطبيعته مغامرة جماعية، ويمكنك أن تحظى بأفضل رجل في العالم من حيث كونه مراسلا وكاتبا في آن واحد، ولكن تقريره الإخباري سيؤول إلى السقوط ما لم تتوافر له الصور المناسبة، وقد تكون لديك أفضل الصور وأجودها، لكنها بدون صوت فاعل ومؤثر ستعاني من نقاط الضعف، ولربما تكون الكلمات جيدة والصور مناسبة، ويكون الصوت مؤثرا. . إلا أنّ أسلوب تحرير الخبر هو الذي يحدد في النهاية نجاح أو فشل التقـرير الإخبـاري، إن كل شيء يؤثـر على الخبـر، وما لم يكن المخرج متيقظا ومتحسبا للأمور فلن يستطيع بث ذلك الخبر».

إن ما قاله «وينر» صحيح، لكنه تناسى أنه ما لم يتوفر لدى أمثال أولئك دعم ورعاية الدوائر الأمنية الغربية فلن يستطيعوا القيام بتلك الأدوار. . وندلل على ذلك بالـرسالة «المشَفّرة» التي بثتها واشنطن للإعلاميين الغربيين المتجمعين في فندق الرشيد وذلك عشية هجوم الحلفاء. . قالت الرسالة: «إن الأولاد مصابون بالزكام». .

وفُهم المقصود، وعمّ الذعر الشديد فندق الرشيد، وخلال ساعات استعدت جميع شبكـات الكوابل الإخبارية التلفزيونية . . لمغادرة بغداد . . إلا شبكة "C.N.N" فقد قررت البقاء ببعض من «شجعانها»، وقام مراسلوها؛ «بيتر آرنت»، و«برنارد شو»، و«جون هوليمان» ببث حي ومباشر أثناء تعرض العاصمة العراقية للهجوم . . وكانت تحت تصرفهم «شاحنة» تحمل علامات الـ "C.N.N" بخط كبير على جوانبها مما وفر لها حماية أكيدة من قصف الحلفاء .

يبالغ «وينر» في ادعاء الشجاعة وبنفس القدر يبالغ في ازدراء العراقيين رغم المعاملة الحسنة، و«الضيافة» التي وفّرها العراقيون لهؤلاء . . ولا يتردد «وينر» ولا زملاؤه في وصف العراقيين بالعدو . . ورغم أنه أقام في العراق خمسة أشهر ينعم وزملاؤه بكل التسهيلات إلا أنه لم يستطع أن يكون محايدا . . حتى أثناء مقابلته لكبار المسؤولين هناك . . ولا تعجب حين تراه يدقق في «ماركة» ربطة العنق لطارق عزيز أو يحدّق في قدمي الرئيس العراقي . .

ومع كل ذلك يعطي الكتاب ملامح واضحة حول أداء فريق متخصص ذي خبرة واسعة وإمكانيات بالغة . . تفردت بها شبكة الـ "C.N.N" بينما غابت التغطية العربية الجادة لأسباب ليست بخافية .

بقي أن نشير إلى أننا حاولنا الإبقاء على «روح» الكتاب مـع ما تضمنه ذلك من سقط الكلام أحيانا ولم نحذف إلا القليل جدّاً بما لا يخلّ بالشكل أو المضمون، ونستميح القارى عذرا عن أيّة هنة .

علي رمان
١٩٩٢/٩/٢١

الجزء الأول

١٦ ـ كانون الثاني ـ ١٩٩١

مقدمة

لقد كان القرار الأكثر صعوبة الذي كان عليّ اتخاذه ولم يسبق لي أن واجهت مثله.

في الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق من صباح السادس عشر من كانون ثاني(يناير)/ ١٩٩١ بالتوقيت الغربي دخل الناطق الرئاسي «مارلين فتزووتر» غرفة الإيجاز الصحفي في البيت الأبيض وحث المراسلين الصحفيين وللمرة الثانية خلال اسبوع على مغادرة بغداد فورا. جاء تحذيره الأول قبل الموعد النهائي الذي حددته الأمم المتحدة وتم تجاهله على نطاق واسع. أما هٰذه المرة فقد جمدت الأخبار الصحفيين في فندق الرشيد كالأرانب التي حوصرت بأنوار سيارة تقترب منها، فكانوا يهرولون في ممرات الفندق والرعب بادٍ عليهم وقرر العديد منهم مغادرة العراق، وخلال ساعات قررت معظم المؤسسات الأخبارية الرئيسة مغادرة العاصمة العراقية وفي بعض الحالات جاءها الأمر بالمغادرة من قبل مكاتبها الرئيسة في بلادها.

- «الأمر واضح . . . لقد حوصرنا هنا»، قالها «لاري دويل» منتج محطة الـ «C.B.S» المخضرم بصوت عال، وقد دخل فجأة إلى مكتبنا. «لقد تلقى مكتب نيويورك المكالمة للتو من واشنطن . . وكذلك مكتب «A.B.C». لقد كانت شيفرة خاصة: (الكل بخير في البلد باستثناء أن الأولاد يعانون من زكام مصحوب بسيلان الأنف). وذلك يعني أن الهجوم سيتم هٰذه الليلة. إننا نستعد للرحيل. هل علمت جماعتكم في أتلانتا بالأمر؟».

لم يذكر لي أحد من مكتب الـ سي. إن. إن في أمريكا أي شيء يتعلق بالشيفرة. (الأولاد يعانون من زكام مصحوب بسيلان الأنف؟)، لم أسمع بشيء من هٰذا القبيل باستثناء حمار الحلوى إن كانت تلك تعتبر شيفرة. من الذي يأتي بهذه الأخبار؟! في فيتنام كانت إشارة الانسحاب «عيد ميلاد أبيض» وبثت عبر إذاعة القوات المسلحة. وقيل لنا إذا سمعتم تلك الإشارة توجهوا إلى السفارة الأمريكية لأن ساعة الرحيل النهائي قد حانت.

طوال فترة الأزمة كانت الـ سي. إن. إن تبذل كل ما في وسعها لإبقائنا على اطلاع بكل التطورات وكل شيء قد يؤثر على سلامتنا، إلا أن الشيفرة كانت أمراً جديداً. يا إلهي، هل «تيّسوا» في أتلانتا؟ قلت لـ دويل:

ـ «لا، لا أعلم شيئا عن ذلك، إذن أنتم والـ «A.B.C» أصبحتم تاريخاً، ماذا عن الـ «N.B.C» أو البريطانيين؟».

ـلم يقرروا بعد، إلا أننا نحاول تجهيز السيارات والمغادرة هٰذه الليلة بطريق البر إلى عَمان».

لقد جن جنونهم في الصالة» قالها مصور الـ سي. إن. إن «مارك بيلو» أثناء دخوله إلى مكان «الكل يريد أن يعرف ما إذا كانت الـ سي. إن. إن ستبقى في بغداد».

ا تقصد بـ «الكل». فلم يبق الكثير منا نحن الصحفيين. معظم وسائل الإعلام المطبوعة حاب الخرابيش» كما نسميهم غادروا بحلول الخامس عشر، النيويورك تايمز، والواشنطن ، والوول ستريت جورنال، ولوس أنجلوس تايمز ـ كلهم غادروا. فقط الـ يو. أس. توداي ا مندوب في بغداد وهو يتحدث الكثير عن حالة الصحافة الأمريكية هٰذه الأيام. أما مجموعة يين الأوروبيين فقد غادرت منذ وقت طويل وقد ذهبوا مع اليابانيين عند انتهاء المدة التي ا الأمم المتحدة.

«لا أعرف بعد يا «مارك». نحن نخطط للمكوث، ولكن دعنا نأخذ الأمور خطوة خطوة. لقد ، هٰذه الأمر مع «بيتر» من قبل. فمجرد أن الكل يحاول أن يهرب بجلده لا يعني أن نكون . لسنا مضطرين لاتخاذ قرار في الحال».

قاطعنا بيتر آرنت قائلاً:

ـ «اسمعوا يا شباب، لم يتغيّر شيء إطلاقا بين الأمس واليوم باستثناء إعلان «فتزووتر». من ح أن البيت الأبيض لا يريد لنا البقاء هنا، لا يريدون أي مراسلين هنا، لكن ذلك لا يعني صاب بالهلع. أقول إن علينا أن نبقى وهٰذا ما سيكون!».

لقد أعجبتني ثقة «بيتر» بنفسه، إلا أن مسؤولياته تختلف عن مسؤولياتي. «لحظة من فضلك بتر»، نحن هنا ثمانية أشخاص وقرار البقاء أو المغادرة هو قرار فردي. هناك عدة عوامل علينا اخذها بعين الأعتبار ليس أقلها ما إذا كانت تتوفر لدينا وسائل ممارسة الصحافة، فليس ثمة ، لبقائنا هنا. إلا إذا استطعنا ممارسة مهنتنا. أظن أننا نستطيع ذلك ولكني أريد تأكيد الموضوع الإمكان».

ـ «نعم أنت على حق يا «روبرت» فيما تقول. كل ما أريد قوله هو أنني مررت بتجربة الخوف ع هٰذه من قبل ومن السهل أن يصاب المرء بعدواها».

في هٰذا الوقت كنا نحن الثمانية في الغرفة رقم (٩٠٦) من مكان عملنا وهي واحدة من خمس

غرف تشكل جناح مكتب الـ سي . إن . إن . نظرت حول الغرفة محاولاً قراءة ما يدور بخلد زملائي . كان وجه «بيتر» هو الوحيد الذي لا يخالجه أي نوع من الشك . ولكن ما المانع؟ ففي السادسة والخمسين كان «آرنت» هو المراسل الحربي الأساسي ، وهو كمراسل سابق كان يرسل تقاريره بالاتصالات السلكية عن العظام البارزة ، واللحم مع البطاطا ، استخدمته الـ سي . إن . إن في بداية عهدها ويأمل أن تضيف شهرته وجائزة «بوليتزر» التي سبق أن أخذها هيبة إلى عملية استخفها معظم من يعمل بهذه الصناعة على أنها غير ذات فائدة أو فعالية . لقد عرفت «بيتر» في فيتنام وعملت معه في محطة الـ سي . إن . إن سنة ١٩٨٥ عندما قمنا بإنتاج تغطيتنا لزلزال مدينة المكسيك . كان مندفعا ، ومتألقا ولا يخاف إطلاقا وقد وصفه «موولي سيفر» ذات مرة بأنه «ربما يكون الأكثر صلابة وكياسة وثباتا وانسجاما فيما يقول بين مئات المراسليين الذين قاموا بتغطية حرب فيتنام . إنه مليء بالطاقة والعنفوان ولكنه متواضع» وكتب «سيفر» أيضا «له وجه ملاكم تلقّى من اللكمات بعدد ما أعطى» .

«ماذا يعني بوجه ملاكم؟» انفجر «بيتر» صارخاً عندما قرأت عليه ذلك النص ، وصار يردد «وجه ملاكم؟!» .

بالإضافة إلى «بيتر آرنت» كان لدى الـ سي . إن . إن مراسلون آخرون على الأرض ، «بيرنارد شو» ، وهو منسق عملنا الرئيسي في واشنطن ، لم يأت إلى بغداد لتغطية حرب ، فقد وصل يوم ١١/كانون الثاني خصيصا لإجراء مقابلة مع الرئيس صدام حسين . إلا أن «بيرني» كان لا يزال مراسلاً في صميم نفسه . كان بطلاه المفضلان «والتر كرونكايت» و«إدوارد ر. مورو» . لقد أظهر «بيرني» شجاعة فائقة بالقدوم إلى بغداد ومكوث المدة التي مكثها ، إذ كان بإمكانه المغادرة مع انتهاء موعد الأمم المتحدة إلا أنه تمسك بالوعد الذي أُعطي بأنه سيسمح له إجراء مقابلة مع صدام يوم السادس أو السابع عشر ، الأمر الذي أدى إلى الكثير من صك الأسنان على جبهة الوطن حيث كانت عائلته خائفة بكل معنى الكلمة . كان «بيرني» جنتلماناً حقيقياً وكان يهمه دائماً الاطمئنان على راحة موظفي الـ سي . إن . إن ويسأل إن كان فلان أخذ قسطاً كافياً من النوم أو أكل جيداً أو إن كان المكتب على اتصال مستمر مع عائلاتنا . كان في قمة عطائه المهني . حسن الانتباه ، محترسا في اتخاذ القرارات ، ذكيا ، واثقاً من نفسه ، وكان صلباً كالصخرة . . كان المنسق الأمثل لعملنا .

كان الثالث هو «جون هوليمان» وكانت هٰذه هي المرّة الثانية التي يأتي بها إلى بغداد وكان متشوّقاً للعمل بشكل كبير إلا أنه كان أيضاً يغامر في مياه مجهولة .

كان «هوليمان» هو الأقل خبرة في العمل وراء البحار ولكن موقفه من العمل ربما كان الأفضل. وكان في مرات عديدة يقول لي: «فقط قل لي ماذا أفعل يا «روبرت» وأنا سأقوم به، هٰذا كل جديد بالنسبة لي لذلك أنا أعتمد عليك لترشدني إلى الاتجاه الصحيح». كان «جون» دائماً متحمسا لقطع الميل الزائد، ولحفظ تقرير آخر زيادة، ولأخذ آخر لقطة حية. وعمله الذي قام به بدون فتور عند إطلاق سراح كل الرهائن الشهر الماضي ترك انطباعاً طيبا لدينا كلنا، كما كان مذياعا متنقلا من الطراز الأول.

ـ «تذكروا، القاعدة الأولى في التلفاز هي إبقاء وجه «هوليمان» بعيدا عن الشاشة». كان يقول مازحا عندما يحين وقت التحرير، ويضيف: «إذا كانت الصور معكم، ما عليكم سوى تغطية صورتي».

كان «جون» يحب من حين لآخر أن يمثّل دور الأبله، إلا أنه كان يمكن أن يكون أي شيء عدا ذلك. كانت به صفة الانفتاح والإخلاص. باختصار كان «جون» بالنسبة لنا «رجل كل شيء».

كان الفريق الفني يتألف من المصور «مارك بيلو»، ومحررة أشرطة الفيديو «كريس كريزمانيخ»، والمهندس «دومينيك (نك) روبرتسون». كان مقر عمل «مارك» في ألمانيا وقدم أعمالاً مميزة في مناسبات لا تحصى أثناء الثورات في أوروبا الشرقية. وسواء كان «مارك» يعمل كمصور أو محرر أو أمين مكتبة الأشرطة أو منسق تلقيم الأفلام أو كان يلبس الطواقي العديدة الأخرى التي كان يختارها حسب ما تتطلبه الأحداث فإن بإمكانك الاعتماد عليه ليعطي الموضوع حقه من الاهتمام ويشرف عليه بكليّته. لقد تطوع راغباً للقدوم إلى بغداد معي في الموجة الأولى في شهر آب. «أوّل من يذهب آخر من يعلم» كان يقول مازحا ويضيف: «إذن نحن أولئك الرواد الذين سيكتشفون الطريق أليس كذلك؟». كانت صرخته في المعركة الأخيرة: «جي ي ي هااد . . !». وكان عدد لا بأس به من الأفراد يظن أن «مارك» به بعض الخبل.

«كريس كريزمانيخ» التي عاشت في أتلانتا كانت أيضا في مكان قريب. لقد عملت في أفغانستان والاتحاد السوفياتي وجاءت إلى العراق في بداية الأزمة، وكمحررة أشرطة فيديو لم تكن «كريس» مسؤولة فقط عن تحرير تقاريرنا، ولكنها كانت تأخذها إلى التلفزيون العراقي كل ليلة لإرسالها عبر الأقمار الصناعية.

لم يكن مقرراً بالنسبة لـ «كريس» أن تكون في بغداد عند مرور الموعد النهائي المحدد في ١٥/كانون ثاني ولكنها تطوعت لتحل محل أحد الزملاء الذي شعر أن من الحكمة أن يغادر. قالت كريس: «سأسلم نفسي لهذه المهمة بعد مرور اسبوع على الموعد النهائي، وبعد ذلك سأتعهد بالمهمة كل يوم على حدة».

كان «نـك روبرتسون» مهندسنا الميداني أو كما كان يسمّيه «جون هوليمان» «خبير الأقمار الصنـاعية». كان رائعـاً في مجالات عديدة. ومعظم الأشخاص الذين يكونون في مكان «نك» يطيرون من الفرح إذا قلت لهم إن الكثير من مكيفات الهواء والطعام قادم إليهم، إلّا «نك»، فهو بارع من النـاحية الفنية فقط والمهندس الوحيد الذي يقبل أن يعين للعمل في بغداد وإنما كان صحفيا بالفطرة. «أي جزء من العمل سنقوم به غدا» كان نك يسأل: «هل حدد «بيرني» الأسئلة التي سيوجهها إلى صدام؟ ما هو السؤال الأول الذي سيطرحه؟ هل تعتقد أنهم سيأخذوننا إلى الكويت؟» لقد سبق لـ «نك» أن عمل معاونا في رومانيا والاتحاد السوفياتي والشرق الأقصى. كان عقـد عمله ينص على أنه هناك لتوفير التقنية اللازمة لتوصيل الموضوع إلى الخارج ولكن ككل الصحفيين الجيدين كان هناك لمشاهدة التاريخ أولاً بأول.

ثم كانت هناك رفيقتي في السلاح، «أنغريد فورمانك»، وهي منتج في مكتبنا في روما، لقد تسكعنا أنا و«أنغريد» حول العالم ودفعناه ليصل إلى الحافة لعدد من المرات أكثر مما اهتم بتذكره ولكني لن أُضحي بثانية من تلك الأوقات. وأي شخص سبق له أن عرف «أنغريد»، وهي من النوع الذي إذا قابلته لن تنساه بسرعة، ستكون له «قصة أنغريد» أخرى. مثل ذلك الوقت عندما أيقظت السفير البولندي من سريره مذعورا لتأمين بضعة زجاجات من مشروب الوايبوروا من مكان حفظ الطعام في سفارته لحفلة بمناسبة رأس السنة. إن «أنغريد» كمنتج ميدان بارعة وكلغوية ضليعة تعتبر واحـدة من تلك الشخصيات الـرومـانسية التي يجد الروائي نفسه مجبرا على اختراعها. كانت الآنسـة، كمـا كان يدعـوهـا بعضنـا، والتي ترتـدي دائما اللباس الأسود مع أساور فضية حول معصميها، لها حيوية الفرس البري الصغير وشخصية الطفل البريء. وكانت «أنغريد» دائما تحاول أن تحقق الكمال في عملها بإضافة لقطة أخرى أو جزء من تسجيل صوتي أو إجراء تغيير أخير في التحـرير الـخ. وأحيانـا، وخـاصـة عنـدما تعمل مع شاعر الـ سي. إن. إن، المراسل «ريتشارد بلايستون» كانت تحقق ذلك. ومهما كان الإنجاز الذي حققته الـ «C.N.N» في بغداد فإن جزءا كبيراً من ذلك يعود إلى درجة كبيرة لنشاط وثبات وحساسية هٰذه المرأة العجيبة.

سأل بيرني بطريقة جافة:

ـ «حسنا، يا سيد «روبرت»، ما هي الخطة؟».

ـ «سيذهب عدد قليل منـا إلى الـوزارة قريبـا. من الواضح أنهم مهتمون أيضا بعدد الذين سيكونون على متن الطائرة؟».

ـ «حسنا يا أخي إجعلني على اطلاع بما يحدث. أظن أنك ستسأل عن المقابلة، إن لم تكن غدا فإني أريد تلك الطائرة هنا مع بزوغ أول النهار».

ـ «إني أخطط لإحضارها على أية حال يا «بيرني»، وستكون بها معدات الإرسال على الأقل».

معدات الإرسال هي محطة التلفزة الأرضية المتنقلة الخاصة بشبكة ال سي. إن. إن، هذه المعدات تجعلنا نرسل بثاً حياً من بغداد كما فعلنا من العديد من الأماكن حول العالم. لقد مرّت شهور ونحن نتفاوض مع العراقيين للسماح لنا بإدخالها إلى العراق وكان طلبنا دائما يرفض «لأسباب أمنية». وقبل يومين فقط لانت السلطات المعنية وطلبوا منا أن نجهزها للشحن. والمشكلة أن معدات الإرسال كانت مشحونة أصلاً إلى بغداد وبعد أن رفض العراقيون السماح بجلبها، أُرسلت إلى مكان آخر. والآن تجد الـ سي. إن. إن نفسها في وضع لا تحسد عليه بحصولها على الإذن بإرسال صور حية بصورة مستقلة من بغداد ـ تلفزيونية في البداية ـ دون توفر المعدات اللازمة.

ـ «هل ذلك أكيد؟» سألني «أيسون جوردان»، نائب الرئيس، للمجموعة الإخبارية الدولية، «لأن عليّ أن أخبرك أنه لا يوجد لدينا معدات إرسال في أي مكان نستطيع أن نوفرها. لدينا التزامات في السعودية ولا نستطيع فك معداتنا في عَمان. أقصد، هل الجماعة جديون فيما يقولون؟».

ـ «ماذا أقول لك؟ لقد طلبوا أن نجّهزها للشحن. إسمع، أنا متأكد من توفرها في مكان ما حيث نستطيع شراءها».

قال أيسون معارضاً:

ـ «مصيبة! تكلفتها حوالي أربعمائة ألف دولار عدا عن تكاليف نقلها إلى عَمان ثم إليك هنا».

ـ «حسنا، أظن أن علينا أن ندبّر أمرنا ونتحمل».

ـ «فهمت، حسنا سأعود إليك».

وخلال أقل من ساعة أبلغني «أيسون» أن الـ سي. إن. إن ستشتري فعلاً معدات إرسال ويتوقع وصولها خلال اثنتين وسبعين ساعة، وعندما أبلغت «أنغريد» عن ذلك قامت بتقليب عينيها.

بعد حديثي مع «بيرني» بلحظات دخل «توم جونسون»، رئيس الـ سي. إن. إن على خطنا المفتوح وطلب مني أن أتصل به من غرفة حيث نستطيع أن نتكلم دون أن يسمعنا أحد. وسألني بصوت قوي ولكنه مجهد:

«ما رأيك يا «روبرت»؟».

ـ «لا أستطيع إلا أن أُعيد لك يا «توم» ما سبق أن قلته لك، العراقيون يريدوننا أن نبقى ويقولون أنهم سيبذلون قصارى جهدهم لحمايتنا، ونحن نتمتع بعلاقة مهنية جيدة معهم. لا أستطيع أن ارى أنهم يحتجزوننا كرهائن أو أسوأ من ذلك كأسرى حرب. كما قلت لك يا «توم» لا توجد ضمانات

ولكن هٰذا ما تحدثني به نفسي».

ـ «روبرت . . أريد أن أؤكد لك ثانية، أي شخص يريد أن يغادر فهو حر في ذلك».

ـ «عُلِمْ».

كان ثمة صمت على جانب «توم» من الخط، وكنت أعلم أن عليه ضغوطات هائلة لم أعلم حجمها إلا فيما بعد، حيث اتصل به رئيس الولايات المتحدة شخصياً وناشده أن يقفل محطة الـ سي. إن. إن في بغداد.

ـ «روبرت . . قل لي ثانية: أي المؤسسات الإخبارية ستبقي وأيها ستغادر؟».

فقرأت القائمة ذاتها.

ـ «هل ستأمرنا بالمغادرة يا «توم»؟» سألته ذلك وتمنيت في نفسي أن يفعل. سأتخلص من عبء كبير على كاهلي. في تلك اللحظة شعرت أن مهنة الصحافة ملعونة. أُريد أن أرى «إلين» والأولاد. إلا أن «توم جونسون» لم يقرر بعد.

وسألني:

ـ «هل يمكنك الاتصال بي ثانية بعد مقابلتك في وزارة الإعلام؟». عندما وصلت بالسيارة إلى وزارة الإعلام شعرت أن رأسي مضغوط داخل ملزمة. الخوف داخل الفندق، ومقابلة صدام، ومعدات الإرسال واحتمالية أن يتورط «بيرني» في هٰذه اللخمة لشهور قادمة . . يا إلهي، أكاد أرى العنوان الرئيسي جاهزاً: احتباس منسق الـ سي. إن. إن في تسوية الفندق من غير اتصال بالآخرين بينما الحرب يشتعل أوارها في الخليج العربي. سيصبح مضحكة، والناقد التلفزيوني «توم شيلز» سيطير من الفرح. كانت الأفعوانية (سكة الحديد المرتفعة في الملاهي) تقترب من قمة الحلقة الدورانية الأولى، وكان الهبوط سيجعل الإعصار الحلزوني الهائل يبدو كرقصة زنجية. وهٰذه العربة في الملاهي لم تأت مزودة بحزام أمان.

سأل ناجي الحديثي بطريقة جافة:

ـ «إذن . . هل ستخضعون لرغبات حكومتكم وتغادرون؟ أم إنك ستبقى وتنقل القصة الموضوعية وعدم تحيز؟».

ناجي الحديثي كان المدير العام لوزارة الثقافة والإعلام، الرجل الثاني في الوزارة، وهو دبلوماسي سابق عمل في لندن ويتحدث لغة إنجليزية سليمة وعنده روح دعابة بطريقة جافة. كما كان محرر «بغداد أوبزيرفر» وهي الصحيفة العراقية الوحيدة التي تصدر بالإنجليزية، وعنده أكثر من

معلومة عابرة عن موقف الصحافة الغربية وتصرفها تجاه الأزمة وعن ضغوط الموعد النهائي الذي بدأ كوهم العفاريت. وقد وجه هٰذا السؤال لأربعة منا يجلسون قبالته: مراسلَيْن من الشبكات البريطانية ومنتج يعمل مع الـ إن. بي. سي. نيوز، وأنا.

- «طبعا نريد أن نبقى يا ناجي ولكن يجب أن تتوفر لمكاتبنا ضمانات وتأكيدات أن بإمكاننا الاستمرار في ممارسة عملنا».

انضم -جون سمبسون من هيئة الإذاعة البريطانية إلى المجموعة: «أعتقد أني اتحدث بالنيابة عن كل زملائي هنا عندما أقول أننا ملتزمون بتغطية ما يحدث ولكن يجب أن تتعاونوا معنا. أقصد هل سيكون بإمكانكم توفير الخدمات الهاتفية والإرسال عبر الأقمار الصناعية؟».

أجاب ناجي: «سبق وأخبرتكم أننا سنوفر الخطوط الهاتفية في فندق الرشيد وهنا في الوزارة. كما سنعقد مؤتمرات إيجاز صحفي يومية في الوزارة. سنفعل كل ما نقدر عليه وهٰذا التزام من طرفنا. كما أنني أحاول أن أوفر سيارات يومياً إلى عَمان لتسليم أشرطة الفيديو. ولكن إن كان ذلك غير مقبول وتشعرون بالرغبة في المغادرة أو أن عليكم أن تطيعوا حكومتكم عندها طبعاً أنتم أحرار في أن تغادروا. لن نضع إسم أي شخص على القائمة السوداء. «ثم أضاف مبتسماً»: «وما هي خطط الـ سي. إن. إن يا «روبرت»؟».

فقلت له:

- «من حيث المبدأ نحن هنا لنبقى يا ناجي» وأضفت: «ولكن ثمة أمور تقلقنا وأفضل مناقشتها معك على انفراد إن لم يكن لديك مانع».

فقاطعني سمبسون قائلاً:

- «أعتقد أن هٰذه المقابلة تهمنا جميعنا فكلنا في نفس المركب».

فقلت له:

- «أنظر يا «جون»، دعنا نكون واقعيين.

أولا: لا توجد طريقة يستطيع بها أحد أن يضمن أي شيء وخاصة في حالة الحرب. أنا أصَدّق ناجي عندما يقول أنه سيبذل قصارى جهده لتوفير الخدمة الهاتفية ولكن كلنا نعلم أن الشبكة الهاتفية ستكون من أول الأهداف التي تضرب بمجرد القصف القوي. لهذا السبب يوجد معي ومعك «INMARSAT» (هاتف أقمار صناعية بحجم شنطة اليد).

ثانيا: أعتقد أن إرسال الأشرطة إلى عَمان بالسيارة فكرة جيدة وآمل أن تنجح، ولكن لا أحد يعرف على وجه التأكيد كيف سيكون الوضع فعلا: هل ستقصف الطرق؟، هل ستكون هناك

فوضى على الطرق؟، أنت لست بحاجة إلى من يقول لك يا «جون» إن الوضع سيكون عائماً».

قاطعنا ناجي قائلاً:

ـ «لماذا لا نذهب كلنا لرؤية الوزير».

وعندما مشينا إلى المصعد وقفت مع ناجي للحظة وسألته: «ماذا بالنسبة للمقابلة مع الرئيس؟» وقلت له: «سأحتاج إلى مساعدة وإلى مرافق لإدخال محطتنا التلفزيونية، الطائرة ستصل غداً صباحاً».

فرد ناجي هامساً:

ـ «أذكر هٰذه الأشياء للوزير».

كان لطيف نصيف جاسم وزير الثقافة والإعلام ورفيق الصبا للرئيس صدام حسين، يلبس معطفاً حربياً أخضر غامق اللون فوق بزته العسكرية الخاصة بمجلس قيادة الثورة. «أهلاً، أهلاً»، بهذه الكلمات الترحيبية استقبلنا ونحن ندخل إلى الغرفة ثم قال: «أريدكم جميعاً أن تعلموا أنكم موضع ترحيبنا هنا. ربما يكون عملكم في بغداد ونحن سنساعدكم». ثم تكلم للحظات بالعربية مع ناجي ثم فجأة بدأ ثانية حديثه بالإنجليزية قائلاً: «طابت ليلتكم» وصافحنا واحداً واحداً.

وكما أشار غيري من الصحفيين فقد أمسكني الوزير من ذراعي وقال: «أنتم ستمكثون يا «روبرت»، أليس كذلك؟»، كان سؤاله بحزن.

أجبته قائلاً: «نعم سيدي الوزير، نحن نخطّط للبقاء هنا، ولكن هناك بعض الأمور التي يجب أن أبحثها معك. فكما تعلم محطتنا التلفزيونية ستأتي غداً صباحاً على طائرة مستأجرة، وسأحتاج إلى شاحنة ومرافق لإنهاء إجراءات التخليص الجمركي وأريد أن أتجنب قضاء ساعات في المطار».

فأجاب:

ـ «نعم، سنرى، نحن نعمل على إنهاء إصدار كل الأذونات وخلال بضعة أيام سيكون كل شيء جاهزاً».

صعقتني إجابته بشدة، وسألته غير مصدقاً: «بضعة أيام؟». مع احترامي الشديد يا سيدي فقد بلغني أننا منحنا الإذن، ولهذا السبب أنفقنا أكثر من أربعمائة ألف دولار لشراء المعدّات، ويجري الآن تحميلها على الطائرة، بالإضافة إلى ذلك فإن الكثير يمكن أن يحدث خلال بضعة أيام.

فقال جاسم:

- «من حيث المبدأ مسموح لكم، ولكن علينا ببساطة . . أن نتأكد أن كل شيء على ما يرام».

- «هل توجد ثمة وسيلة بحيث يمكنكم العمل على إنهاء ذلك الليلة؟ فالوقت حيوي جداً».

- «نعم، نعم. سيساعدكم ناجي في ذلك».

ثم قلت له:

«مسألة أخرى يا سيدي. هل سمعتم شيئا من مكتب الرئيس بخصوص المقابلة مع السيد «شو»؟ غداً هو السابع عشر كما تعلم».

- «نعم، ستتم المقابلة في نهاية الشهر أو الأسبوع الأول من شباط، الرئيس مشغول جداً هٰذه الأيام».

هكذا إذن، قلت في نفسي. إنها الحرب! كل التوقّعات بأن يغير صدام موقفه خلال ثمانية وأربعين ساعة من الموعد النهائي كانت عبارة عن هراء. لأسابيع مضت كان العراقيون يقولون إن ١٥/كانون الثاني، وهو الموعد النهائي الذي حددته الأمم المتحدة لم يكن سوى يوم عادي من أيام التقويم وكان ثمة شعور بين المراسلين والدبلوماسيين في بغداد وغيرها أن صدام عند حلول الموعد النهائي سيحك أنفه متحدياً في البداية إلا أنه سيقدم تنازلاً دراماتيكيا خلال يومين. وكنت آمل في قرارة نفسي أن يكون ذلك هو القنبلة التي سيفجرها صدام أثناء مقابلته مع «بيرني». الآن تبخّر كل شيء.

- «هٰذه أخبار مخيّبة للآمال جداً سيدي الوزير، أخشى أن السيد «شو» لن يتمكن من البقاء في بغداد».

فأجاب الوزير:

- «يمكن أن يجري المقابلة شخص آخر، فلديكم مراسلون آخرون هنا وأنت يا «روبرت» طبعاً موجود هنا»، فقلت في نفسي: نعم أنا هنا، كان الله في عوني. ودعت الوزير ورافقني ناجي عبر الممر.

- «يجب أن أخبرك يا ناجي أن هٰذه الأخبار أخبار غير سارة، إنها أسوأ من ذلك، لا أصدق أن رئيسكم حقيقة ذاهب إلى الحرب. هٰذا جنون. إنها خسارة!» لم يقل ناجي شيئا سوى أن هز كتفيه.

ثم قلت له:

- «إسمع، أمرٌ أخير؛ يجب أن تعدني بأن بإمكاني الحصول على تأشيرات خروج لحمايتي

في أي وقت إذا ما أرادوا المغادرة. موافق؟».

فصافحني قائلاً:

- «طبعاً يا «روبرت»، طابت ليلتك، إن شاء الله تكتب لنا السلامة». شعرت بالغثيان عندما عدت إلى الفندق، كنت فاقد الحس، ومرعوباً، ومحزوناً. في الردهة كان رجال الصحافة يقفون طابوراً أمام مكتب وزارة الإعلام عند المدخل المشغول كالعادة بالموظفين إلا أنهم لم يكونوا يبتسمون أو يضحكون فيما بينهم. كنت أُلقي التحيات والمصافحات المعتادة وأنا في طريقي إلى المصعد حيث حملني إلى الطابق التاسع.

كان الجميع في مكان العمل وكان «بيرني» يجثم أمام الهاتف المفتوح الرباعي الأسلاك.

قالت أنغريد:

- «سيجري «بيرني» مقابلة مع «كرونكايت» خلال دقائق. ماذا قال ناجي؟».

فأجبتها:

- «الأخبار غير سارة. أولاً لن تكون هناك مقابلة، وربما ستتم في نهاية الشهر أو بداية شهر شباط . . ». فصاحت أنغريد مندهشة:

- «يا إلهي»!

- «وبالنسبة لمعدات الإرسال فهم يعملون على إصدار الإذن لإدخالها وسيصدر ولكن الله أعلم متى».

قاطعنا بيرني وقال بينما هو يشعل سيجارته:

- «حسناً، أنا مسافر غداً، في أي وقت ستأتي الطائرة؟».

- «سأقوم بالترتيبات اللازمة وأُعلمك عن ذلك. أُريد أولاً أن أتصل مع أتلانتا وأتحدث مع «توم». أنظر هناك بعض الأخبار الجيدة. سيحاول ناجي توفير حركة سيارات ذهاباً وإياباً إلى عَمان لتسليم الأشرطة وقد وعدني بمنح تأشيرة مغادرة فوراً في أي وقت لأي شخص يرغب بالمغادرة».

قال بيتر:

- «هٰذا عظيم، هٰذه أخبار سارة جداً يا «روبرت». اسمعوا يا شباب موضوع المقابلة مخيّب للآمال ولكن ما زال بإمكاننا أداء عملنا. «بيرني»، لقد أتيت أنت إلى هنا لغرض محدد ونحن نحييك على ذلك وأظن أن معك الحق أن تغادر، عليك أن تغادر. وبالنسبة لبقيتنا فبإمكاننا

الاستمرار في أداء عملنا، صحيح يا شباب؟».

قالت كريس بنعومة:

- «لا أعرف، أعني أنهم إذا كانوا سيرسلون الأشرطة إلى عَمان فسيتم تحريرها في عَمان. فماذا سأبقى أفعل هنا. لن يكون هناك إرسال من التلفزيون العراقي».

فقاطعتها قائلاً:

- «انتظري لحظة، سنتحدث كلّنا عن هٰذا الموضوع بعد قليل أريد أن أؤكد أن أي شخص يُريُد أن يغادر مع «بيرني» في الصباح فله أن يفعل ذلك. لا أريد من أحدٍ أن يشعر بأي نوع من الضغط أو الإحراج وأُريدكم جميعاً أن تبحثوا في أنفسكم وتستخدموا عقولكم وقلوبكم لاتخاذ قرار، سأذهب الآن إلى الغرفة الأخرى للاتصال مع أتلانتا. هل توجد صعوبة للبدء بمقابلة «كرونكايت»؟». قال «بيرني»: «إنهم يحاولون البدء الآن».

أثناء ذهابي إلى الغرفة الأخرى رافقني مارك وقال لي: «كما تعلم فإن «فابريس» سيغادر» كان «فابريس» مؤسّس مصور إسطوري مع شبكة آي. بي. سي. نيوز. وهو الذي قام، بين أشياء أُخرى بتصوير عملية اغتيال أنور السادات المثيرة. كان «فابريس» صديقاً لـ «مارك» وأحد الأسباب التي جعلت «مارك» لا يزال موجوداً في بغداد، فوجود «فابريس» قريباً منه يعطيه نوعاً من الطمأنينة. وتابع قائلاً: «لا أعرف يا «روبرت». إنني غير مرتاح لذلك، أنت تفهمني أليس كذلك؟».

- «طبعاً أفهمك، وأنا لدي الكثير من الظنون أيضاً ولكن دعنا نتحدث عن ذلك فيما بعد، حسناً؟».

- «هل تعتقد أن «آرنت» مجنون؟».

فضحكت قائلاً:

- «لا، لو كان «بيتر» مجنوناً لما كنت طلبت منه أن يأتي هنا منذ البدء، هو مجرد . . .، متحمس إسمع أريد أن أُجري هٰذه المكالمة سنبحث ذلك فيما بعد».

- «حسناً، في غضون ذلك سأقوم بتركيب بعض الكاميرات على الشبابيك. سأضعها على كلا جانبي الفندق وسأثبت الكاميرات اليدوية في غرفة التحرير وغرفة الطاقم حتى نكون في وضع تغطية من كافة الزوايا».

حاولت جاهداً أن أسيطر على عواطفي، بينما كنت في الفندق أنتظر عامل الهاتف ليصلني بخط أتلانتا، فلقد أتيت إلى بغداد منذ شهر آب الماضي وأعلم خطورة الموقف. وخلال أزمة

الخليج لم يعترني أدنى شك أن هٰذا المكان هو المكان الوحيد الذي يجب أن أكون متواجداً فيه. إن عملية التغطية الإعلامية للحرب من خلف خطوط القتال هو عمل صحفي رائع. وسنتمكن من إرسال التقارير الإخبارية حية على الهواء لفترة قصيرة وذلك بفضل خطنا الهاتفي الرباعي المفتوح مع الولايات المتحدة وذلك على الأقل قبل أن يتحكم برج الاتصالات. لقد أخبرني الزملاء أنه قد اعتبر مجنوناً، أي أنني مصاب بوهم كبير إذا كنت أظن أن العراقيين سيسمحون بأي تغطية حقيقية للأحداث. حتى أن بعض زملائي في شبكة الـ سي. إن. إن اعتقدوا أنني بدأت أسير نحوَ مرحلة الانحدار. ولكني لم أجد من شبكة الـ سي. إن. إن سوى المؤازرة، وكذلك فقد عَرَّض سبعة من الفريق حياتهم للخطر ويعود ذلك إلى حد ما لإلتزامي بالموضوع. ويبدو الآن أن معظم، إذا لم تكن جميع المؤسسات الصحفية قد غادرت، وسنبقى نحن هنا، بمفردنا نعم بمفردنا. جلسنا على الأرض الجرداء والتي ستشهد بالتأكيد أكبر وأعتى عاصفة في تاريخ القصف اللجوي. كنت تقريباً متأكداً أن قاذفات القنابل سوف لن تذهب إلى فندق الرشيد. حيث أن فندق سكن المدنيين لن يكون هدفاً إطلاقاً. كان ذلك كلاماً فارغاً. فقد عمد الطيارون في إحدى حاملات الطائرات الأمريكية إلى القيام برحلتين استكشافيتين عندما أعلمهم أحد الزملاء أننا سنمكث هنا.

سأل أحدهم:

- «هل أنت جاد فيما قلت؟ نحن نستخدم هٰذا الفندق كعلامة عندما سنذهب إلى الجسور. سنقوم بالتحليق فوقه تماماً».

وعلى أية حال فلقد يرى كل شيء وكأنه لعبة، مباراة صغيرة على حين إعلان «فيتزووتر» ولكن الأخبار التي كانت تصدر من قبل الوزير جاسم لم تكن لتعني أن الرئيس صدام حسين سيقبل الهزيمة. تباً! لا أريد، أريد أن أكون هنا. كانت هٰذه نفس المشاعر التي احتبست بها عندما كنت في فيتنام أسير في الطريق العام رقم (١٣) إذ حدث وأن وقفت أنا و«ديف كيزلي»، و«آرت هيبقي» في حفرة قذيفة تحت قصف فيتنام الشمالية، كان إطلاق النار قريباً ومكثفاً جداً لدرجة أنك تستطيع تقريباً سماع صوت الأعداء وهم يجهزون مدافع الهاون. كانت هٰذه نفس المشاعر التي أحسست بها. عندما كنت في رومانيا أثناء الثورة فلقد تم إخراجنا عنوةً من سيارتنا أكثر من اثنتين وثلاثين مرةً بينما كان المحاربون يقومون بتسديد البندقية لرأسي، خلال التأكد من الأوراق. كانت هٰذه نفس المشاعر التي أحسست بها عندما كنت أقوم بنزول الطوابق التسعة لفندق الشيراتون في مدينة المكسيك بينما كانت الهزة الأرضية تقوم بشطر الفندق إلى شطرين ونسف نوافذه. وعلى أية حال كان هٰذا أسوأ ما مر بنا من أحداث. كانت رومانيا في وقت من الأوقات مخيفة، ولكن كان لدى الصحافة الحماية والدعم اللازمان. كانت رومانيا محفوفة بالمخاطر وغير آمنة، ولكن كان لدى

المحاربين الترحيب والاستضافة. كانت الهزة الأرضية شيئاً مرعباً ولكنها بدأت وانتهت. لحظة من لحظات جهنم وانتهت. ولكن الأمر هنا كان مختلفاً تماماً. إذ لم أكن خائفاً إطلاقاً من العراقيين ولكني كنت خائفاً من القنابل الأمريكية. فماذا لو ضرب الرئيس صدام حسين تل أبيب بالمواد الكيميائية؟ هل سأجلس في فندق الرشيد تحت سحابة مشرومية آتية من إسرائيل؟

أشعر وكأن ساقاي قد تخدّرتا. وفي نفس الوقت أعلم أن شبكة الـ سي. إن. إن يتوجّب عليها أن تمكث في بغداد. ليس باستطاعتنا أن نتخلّى عن التزامنا بالموضوع، خصوصاً إذا ما قررت شبكة إن. بي. سي والبريطانيون المكوث في بغداد.

استطيع أن أتخيل صحيفة النيويورك تايمز تعلن على صفحة كاملة وبوجود الطاووس بكامل ريشه: (شبكة الـ إن. بي. سي. نيوز هي الشبكة الأمريكية الوحيدة التي ترسل بتقاريرها الإخبارية من العاصمة العراقية حيّة على الهواء). يا إلهي ما هٰذا الكابوس! كل ما حاولت شبكة الـ سي. إن. إن تحقيقه خلال السنوات العشر الماضية كان مرهوناً بنجاحنا في هٰذا الأمر. طبعاً إلا إذا أُمرنا بالمغادرة وقلت في نفسي؛ والآن ستكون هناك طريقة ما لحفظ ماء الوجه.

ـ «.. حسناً، لقد أعددنا أنفسنا للبقاء هنا»، وكنت أتخيل نفسي محدّثاً لزملائي:

ـ «ولكن طلب منا أن نغادر» عشاء فاخر برفقة الزملاء في عَمان، اعتراف الشبكة القديرة بأننا قمنا بواجبنا على أكمل وجه ومرحباً بكم في وطنكم! كل ذلك يبدو في غاية السهولة».

في عام ١٩٧٥ طلبت مني شبكة أخرى كنت أعمل لديها آنذاك مغادرة مدينة سين، وأنا الآن نادم على ذلك. ولقد تحدثت في ذلك الموضوع مع «بيتر» قبل ذلك ببضعة أيام.

قال لي بيتر: «إنك تعلم يا «روبرت» أنني متواجد هنا من أجلك وأنا هنا لكي أبقى» «إنني أتمنى فقط أن لا يرغمونا على ترك المدينة، آمل أن يكون لديهم الوقت الكافي ليتركوا لنا موضوع اتخاذ القرار ما رأيك؟».

ـ «اعتقد أنهم سيتركون لنا الخيار يا «بيتر»، لقد أمضينا وقتاً طويلاً هنا، وأنا اعتقد أن «توم» و «إد» سينقلون نصائحنا».

ـ «حسناً، إذا أرغمونا على ترك المدينة، فسوف لن أتركها. ماذ تعتقد سيحصل إذا ما «فاتتنا الطائرة»؟».

فلقت ضاحكاً:

ـ «لا اعتقد أننا سنصاب بعيار ناري إذا بقينا نرسل بتقاريرنا الإخبارية من بغداد. إذا كان هٰذا ما تقصده سنعالج ذلك فيما بعد. «فيما بعد كان، بالطبع الآن!».

«الولايات المتحدة على الخط»، تفوّه عامل هاتف الفندق بلهجة لا تخلو من الحدة. وفي الحال تجمّع حول سماعة الهاتف كل من «توم جونسون»، و«إدْ تيرنر»، نائب الرئيس التنفيذي لشبكة الـ سي. إن. إن، «أيسون جوردان»، ورئيسي المباشر.

قال توم بصوت أجشّ: ««روبرت» أنا لن أكرر، لن أطلب منكم المغادرة. أي شخص يرغب في المغادرة فله ذلك، ولكني لن آمركم بهذا. هل تفهمون؟».

- «نفهم سيدي. هل وصلتكم أية إشارة بخصوص ما ستقوم عليه كل من شبكة الـ إن. بي. سي والشبكة البريطانية؟».

- ««روبرت»، إيسون يتحدّث.. إن شبكة الـ إن. بي. سي قد تركت أمر القرار إلى الزملاء في بغداد، ولكن يبدو أن شبكة الـ سي. تي. إن (أخبار تلفزيون لندن المستقل) التي هي تماماً كإذاعة إن. بي. سي قد بدأت بسحب موظفيها. بعد مقابلة «كرونكيت»، تود شبكة الـ آي. تي. إن أن تستخدم هاتفنا ذي الخطوط الأربعة للاتصال مع لندن لبحث الترتيبات اللازمة. لقد أخبرتهم أنه لا مانع لدينا طالما كان الأمر ميسوراً. لن يستخدموا الهاتف لنقل الأخبار. ولكن فقط للتحدّث مع مكاتبهم في لندن».

- «فهمنا».

- ««روبرت»، إدْ يتحدث. ماذا قالوا في الوزارة بشأن المقابلة مع «بيرني»؟».

- «سوف لن تتم هٰذه المقابلة الآن، ولكن ربما تتم في نهاية هٰذا الشهر، أو في شهر فبراير، إن شاء الله. لديّ أيضاً بعض الأخبار السيئة بخصوص معدّات الإرسال. إذ أنهم لا يزالون بصدد إصدار الإذن لنا بإدخالها، لذلك فأنا أقترح عليكم أن تقوموا بعقد هٰذه المقابلة في عَمان وذلك في الوقت الحاضر. فأنا لا أريد أن أضيّع وقتي في المطار باصطدامي مع الجمارك. بينما أنا متأكد أن «بيرني» أو أي واحد آخر يريد المغادرة باستطاعته الصعود على الطائرة بسهولة».

قاطعه أيسون قائلاً: «حسناً، فنحن لا نريد الخوض بموضوع الطيران».

وسأل إدْ: «من سيغادر مع «بيرني»»؟.

- «لا أعلم إلى الآن. سنقوم بعمل اجتماع في الحال وعلى ضوئه سنقرر. إحساسي أن بعض الزملاء يودون المغادرة».

وسأل إدْ: «ماذا ستفعل؟».

- «لم أُقرر بعد، بصراحة إنه قرار قاسٍ، لا زلت أبذل قصارى جهدي محاولاً الوصول إلى قرار».

- ««روبرت»، توم يتحدث، من قابلت في الوزارة؟ هل قابلت ناجي أم الوزير؟»

- «قابلت كليهما يا «توم». ولقد أصبح واضحاً أنهم يريدون أن نبقى، حتماً إنهم يريدون منا أن نقوم بتزويد السيارات بالأشرطة لنقلها إلى الأردن».

وقال متوسلاً: «أخبرني مرّة أخرى عن الفندق».

- «حسناً، كما قلت مسبقاً، لدى فندق الرشيد مظلة ممتازة تقي من القنابل وبالنسبة لبناء الفندق نفسه فهو حينها كالقلعة . . ».

- «دعني أقاطعك يا «ربروت». أعتقد أن هٰذه المكالمة مراقبة، لذلك سأحاول أن أكون حذراً قدر المستطاع. أنت تعلم أنه يوجد العديد من . . الدعوات . . حسناً، هناك العديد من المناطق حول الفندق يهتم بها التحالف جداً. هل هناك إمكانية للذهاب إلى آخر؟».

- «لقد بحثت هٰذا الأمر قبل قليل مع السلطات، وانتهينا إلى أننا باستطاعتنا الذهاب لأي موقع آخر، ولكن في نظري أن ذلك لا يُجدي لسببين اثنين:

أولهما: أن هاتف الخطوط الأربعة موجود هنا، ولا أعتقد أن هؤلاء الزملاء سيجدون الوقت الكافي ليقوموا بعملية تمديد للخطوط في موقع آخر.

وثانيهما: لقد قمت بعملية استكشاف لفندق الشيراتون وبينما كنا نبحث موضوع أخذ غرفة هناك كغرفة بديلة وجدنا أن المكان ليس آمناً وقوياً كفندق الرشيد. بالإضافة لذلك فلقد ننقطع عن الجهة الأخرى للمدينة، إذا أُزيلت هٰذه الجسور. أعلم ما ترمي إليه يا «توم»، ولكن ببساطة إنه ليس خياراً يسهل تطبيقه».

- «إنني أفهم ذلك. هل هناك شيء نستطيع فعله لكم؟».

- «حسناً، سأقوم بالتأكيد بالتحدّث مع «ليندا» وأطلعها على خبر قدوم «بيرني» في الغد. أعلم أنها ستكون مرتاحة بعض الشيء».

قال توم: «نحن سنبقى على اتصال دائم مع جميع عائلاتكم وسنبقى على اتصال دائم بهم». ثم قال: «حسناً أيها الرفاق، سأقوم بالتحدث معكم مرة أخرى عقب اجتماع . . ».

وقال إذْ مقاطعًا: ««روبرت»، سأقوم بنقل هٰذه المكالمة لمكتبي. هل بإمكانك أن تنتظر لحظة؟».

بينما كنت انتظر نقل المكالمة، خطر ببالي أنهم يمرّون بظروف قاسية، تماماً كما نمرّ نحن. وكانوا على درجةٍ كبيرةٍ من التكتم والسّرّية واتباع التعليمات الضرورية، بحيث كنت واثقاً أنه لو

كان باستطاعتهم إشراكنا بأمورهم لفعلوا دون تردد. ولكنهم لا يستطيعون قول أكثر مما قالوا، إذ أن جميع مكالماتنا تخضع للمراقبة. حتى إن البعض منا يعتقد أنه تم تركيب أجهزة تنصّت لسياراتنا. لم يحصل إطلاقاً أن قابلت «توم جونسون» وجهاً لوجه، لقد انضم لشبكة الـ سي. إن. إن حديثاً، وقبل أن أغادر إلى الشرق الأوسط. ولكن «إدْ» و«أيسون» كانا صديقين قديمين ووفيين. وكلاهما عرّض حياته للخطر من أجلي أكثر من مرّة. وكان «إدْ» بالتحديد يعمد إلى أن يكون عمله واضحاً للعيان وعلى خط القتال عندما يعلم أنني قد ذهبت وحيداً وبغير حماية لازمة أنه قد يُصاب بالرصاص بسهولة. ليس هناك أفضل ولا أذكى من «إدْ تيريز» كصديق وقت الضيق. ولكوني دائم الخوف، شعرت أن الوقت قد حان لسداد ما عليّ نحوّه.

قال إدْ عندما التقط الخط: «مرحباً يا «روبرت»، كيف حالك يا صديقي؟ هل نستطيع العودة لبلدنا الآن؟».

قلت ذلك مازحاً محاولاً أن أحث إدْ على نوبة من الضحك المتوقع: «إسمع يا «إدْ» إنني فعلاً أشعر أن عقلي اللعين سينفجر خارج جمجمتي، لقد مررنا معاً يا «إدْ» بمثل هٰذه الظروف العصيبة من قبل ولكنها لم تكن على تلك الدرجة التي نَمر بها الآن. عزائي الوحيد هو معرفتي أنه إذا قمت بشراء المزرعة، فإن ذلك من شأنه أن يطير صواب قسم المحاسبة لسنوات قادمة».

ـ «إن لديهم ما يكفي من المشاكل بخصوص حسابات نفقاتك باللغة الإنجليزية. نستطيع تحويلهم إلى اللغة العربية».

ضحك إدْ وسأل بجدّية: «إذن، ما الذي يحدث عندكم؟».

ـ «حسناً إن «بيتر» هنا، ويريد البقاء، ولكني لا أعلم شيئاً بالنسبة للآخرين. فإعلان «فيتزووتر» أصاب العديد من الأشخاص بالذعر والخوف الشديدين، إن الجو مليء بالهلع والرعب يا «إدْ»، الأمر ليس سارّاً».

ـ «ماذا قررت؟».

ـ «لم أتوصّل لقرار حاسم بعد. أميل للبقاء ولكني بحاجة لأتكلم مع البيت». وقال بتأنٍّ وببطء شديدين: «أنت تعلم أن كل شخص هناك يعلم أنك تمثّل شبكة الـ سي. إن. إن في بغداد. فإذا غادرت بغداد، سينهار الموقع، تماماً كالبيت الورقي».

ـ أعلم ذلك يا «إدْ». لا أزال أحتاج للحديث مع البيت، ولكن باستطاعتي أن أؤكد ما يلي: أتعهّد أن أحافظ على شبكة الـ سي. إن. إن في وضع منافس في هٰذا الموضوع، لا أعلم عدد الزملاء الذين يمكثون هنا، ولكن طالما أن ذلك ممكنٌ، سيكون لنا حضورٌ. لقد تكلّمت أنا و«بيتر»

في هٰذا الموضوع قبل عدّة أيام. سيكون شيئاً مخزياً إذا قمنا بالتخلي عن هٰذا الأمر لمنافسينا».

وقال إدْ موافقاً: «تماماً».

بعد ذلك مباشرة أتى «جون هوليمان» ميّمماً صوب الغرفة وقال: «سيقوم «بيرني» بإجراء المقابلة مع «كرونكيت»، مع من تتحدّث؟».

قلت له: «إنه إي تي».

أخبرْ «إدْ» أنني قد وصلت لقرار. إذا كان «روبرت» سيمكث، فسأمكث معه وإذا كان «روبرت» سيذهب، فسأذهب معه، تعال واستمع لـ «كرونكيت».

قمت بإيصال ملاحظات «هوليمان» فأضفت: «كما قلت يا «إدْ» إنه منزل من ورق».

طلبت مكالمة لأتحدث مع «إيلين»، ثم سرتُ للغرفة المجاورة لأستمع للمقابلة. كان «بيرني» و«ولتر» يتحدثان لفترة بسيطة بشأن تحذير «فيتزووتر»، ودور الصحافة والحكومة. ثم وعُقب ذلك جعل «كرونكيت» المقابلة شخصية. وقال: «إن قرار البقاء في مكان يعتبر منطقة خطرة رئيسة بحيث يتقرّر مصير الشخص من خلال خط القتال، يعتبر من أصعب القرارت التي يتّخذها أي صحفي أو مراسل في حياته». نظرت إلى زملائي المتجمّعين حول هاتف الخطوط الأربعة، لقد كان لكلمات «وولتر» المؤثرة وقع كبير على كل شخص منّا. وقلت لنفسي: هٰذا تماماً ما نفعله خصوصاً إننا وصلنا لموضوع المصير. لقد تحدث «وولتر» عن الصحافة وأنها الخط الأمامي لحقّ المواطنين

أخبرْ «إدْ» أنني قد وصلت لقرار. إذا كان «روبرت» سيمكث، فسأمكث معه وإذا كان «روبرت» سيذهب، فسأذهب معه، تعال واستمع لـ «كرونكيت».

قمت بإيصال ملاحظات «هوليمان» فأضفت: «كما قلت يا «إدْ» إنه منزل من ورق».

طلبت مكالمة لأتحدث مع «إيلين»، ثم سرتُ للغرفة المجاورة لأستمع للمقابلة. كان «بيرني» و«ولتر» يتحدثان لفترة بسيطة بشأن تحذير «فيتزووتر»، ودور الصحافة والحكومة. ثم وعُقب ذلك جعل «كرونكيت» المقابلة شخصية. وقال: «إن قرار البقاء في مكان يعتبر منطقة خطرة رئيسة بحيث يتقرّر مصير الشخص من خلال خط القتال، يعتبر من أصعب القرارت التي يتّخذها أي صحفي أو مراسل في حياته». نظرت إلى زملائي المتجمّعين حول هاتف الخطوط الأربعة، لقد كان لكلمات «وولتر» المؤثرة وقع كبير على كل شخص منّا. وقلت لنفسي: هٰذا تماماً ما نفعله خصوصاً إننا وصلنا لموضوع المصير. لقد تحدث «وولتر» عن الصحافة وأنها الخط الأمامي لحقّ المواطنين
بالمعرفة بغضّ النظر عن المخاطر التي تكتنف هٰذه المهمة. ثم أضفت هٰذا التوضيح. وتابع قائلاً:

«أعتقد أن هناك نقطة يعتبر الوصول إليها حماقةً ألا وهي أن نقوم بتعريض حياة شخص منا للخطر في سبيل أداء عمل ما، وخصوصاً إذا كان نهاية هٰذا العمل الموت المحقق. ولكني لا أستطيع أن أقول ذلك لأي شخص اليوم».

هل يعتقد «كرونكيت» أننا سنموت؟ هل كان يريد أن يبعث برسالة ما؟ لا أعتقد ذلك، ولكن كان هناك البعض في الغرفة ممن يبدو عليهم الإضطراب مما سمعوه.

ونصح بيتر قائلاً: «لا تدع ذلك يؤثر عليك، إرحم نفسك». عند انتهاء المقابلة، تحدثت مع «إيلين». كانت تشاهد تلفزيون الـ سي. إن. إن وكان يبدو عليها القلق. لم يؤثر بي إطلاقاً أن يقوم أحد زملائي بمحادثة «إيلين» متوسّلاً إليها أن تقوم شبكة الـ سي. إن. إن بالسماح لهم بمغادرة المكان.

ـ «حسناً، يا عزيزتي لا أستطيع أن أتكلّم طويلاً. فنحن نستعد الآن للاجتماع في الوقت الحاضر، سيغادر «بيرني»، ولا أعرف من سيغادر أيضاً.

وسألت: «ماذا ستفعل أنت؟».

ـ «لا أعلم. لا أعلم، فإحساسي الداخلي يودّ المغادرة، ولكني أشعر أنه يتوجب عليّ أن أبقى، الجميع يضعون أملهم بي، لذلك فالضغط عليّ أصبح لا يطاق. ولكني لم أتوصل لقرار نهائي بعد. أردت فقط أن أسمع صوتك. كيف حال الأولاد؟».

قالت: «الجميع بخير، يا لهم من أطفال ظرفاء. إسمع لا تقلق علينا فنحن بخير، وأي قرار ستتخذه سيكون مناسباً لي. ولكن أرجو منك أن تحاول إعطاء نفسك بعض الراحة قبل أن تذهب للاجتماع يا عزيزي» وأضافت بشيء من الرّقة: «أعلم أنك ستتخذ القرار الصائب».

لم تكف «إيلين» أبداً عن إثارة حيرتي. أعلم أنني أقذف بها في جهنم، ولكنها فتاة طيِّبة. يعلم الله، أن زواجها مني لم يكن أمراً سهلاً أبداً. لا أعلم، كيف تحّملت كل هٰذا؟.

قدم طاقم شبكة الـ سي. إن. إن إلى موقع العمل وذلك لاستخدام هاتف الخطوط الأربعة للتحدث مع مكتبهم. وسأل برنت ساوبر:

ـ «ماذا ستفعل شبكة الـ سي. إن. إن إذن؟».

قلت له: «لم نقرّر بعد، نحن الآن نستعد لعقد اجتماع».

أجاب برنت: «لقد طلبوا منا المغادرة».

ـ «سنقوم بعمل الترتيبات اللازمة، سنقوم على الأقل بالاحتفاظ بمصور أردني هنا».

ـ «قمت بفحص جهاز الهاتف وأغلقت الباب خلفي، ثم دخلت غرفة رقم (٩٠٤) ـ الجناح

الخاص بالتحرير. كان جميع الأعضاء قد تجمعوا هناك.

وسأل بيتر مخاطباً الجميع: «هل أستطيع قول شيء واحدٍ فقط؟ إذا قمتم بالذهاب إلى عَمان، ففي غضون أيام قلائل ستودون العودة. ضعوا ثقتكم الكاملة بي. لقد مررت بمثل هٰذه الظروف من قبل عندما كنت في فيتنام، أقصد هٰذا الرعب والذعر. لقد قام «روبرت» بتقديم عمل عظيم. كل شيء في موضعه. هٰذه فرصة مدهشة».

وقاطعته: ««بيتر»، هٰذه ليست الطريقة التي أود أن أدير لها الاجتماع. كل شخص لديه أو لديها اهتمامات، وجميع هٰذه الإهتمامات تعتبر بنظري شرعيّة. ليس لي ولا لغيري الحق باستجوابهم. نحن هنا جميعاً في بغداد بمحض اختيارنا، ونحن على درجة كبيرة من الصراحة والأمانة مع بعضنا البعض وكل واحد منّا يحب الخير للآخر. منذ شهر أغسطس، ونحن نقوم ببناء الأساس لعملنا هنا. أريد أن أسمع من كل شخص على حدة، ولا أريد أن يشعر أيّ واحد منكم بالضغط بطريقة أو بأخرى. يجب عليكم أن تشعروا بالفخر، بغض النظر عن القرارات التي تمّ اتخاذها. لقد قمتم بتقديم خدمة جليلة لأنفسكم وللصحافة على حدٍّ سواء».

وقال بيتر: «حسناً، لقد قمت باتخاذ قراري»، ثم انتصب واقفاً: «سأمكث هنا»، وبهذه العبارات غادر الغرفة.

قمت بأخذ نفس عميق: «حسناً. سأقول لكم أين أقف الآن». توقفت برهة، وقلت لنفسي: «هٰذا ليس عدلاً»، ثم قلت: «أريد أن أرجع عما قلت». «أريد أن أسمع أولاً من كل شخص منكم». نظرت حولي في الغرفة والتقطت عيني «بيلو».

ـ «مارك؟».

ـ «إن الأمر يكمن في أنني في الواقع لا أعلم ما الذي باستطاعتنا عمله، وإلى أي درجة، إذا كان باستطاعتنا عمل أي شيء، سيسمحون لنا بإطلاق النار. أنتم تعلمون أن «فابريس» سيغادر، وكذلك جميع المصورين الغربيين. لقد تكلّمت مع «اليسون» ولكنها كانت حقيقة غريبة الأطوار، أقصد أنني سأعود بعد فترة، ولكن في الوقت الحاضر لا أشعر بالطمأنينة في هٰذا المكان».

ـ «هٰذا مفهوم وواضح، يا «مارك». إذن فسوف تغادر غداً بصحبة «بيرني»؟»، فأومأ بالإيجاب. وسألتُ: «بماذا تشعرين يا «كريس»؟».

أجابت كريس: «أنا هنا بصفتي محررة، ومن خلال ظواهر الأمور يبدو أنه ليس هناك ما سنحرّره، فالإمدادات قليلة وشحيحة، لقد قلتم إن معدات الإرسال لن تعود ثانية، وكلّنا يعلم أن محطة التلفزيون ستفجرّ بالقنابل، فما الذي سيكون باستطاعتي عمله؟ كل الأشرطة ستشحن إلى

عَمان، أليس كذلك؟».

ـ «لا أعلم بالتأكيد ولكن ليس هٰذا هو صلب الموضوع».

ـ «حسناً، لقد أتيت إلى هنا لأداء مهمة ما، ولا أعتقد أنني أستطيع أداء تلك المهمة، لذا يبدو أنه ليس هناك هدف من بقائي هنا. أود المغادرة».

ـ «هٰذه ليست مشكلة يا «كريسي». لا أستطيع أن أفيك حقّك من الشكر لمجيئك الإرادي وتقديمك لنا يد المساعدة. إن هٰذه الشبكة تدين لك بالكثير يا «أنغريد»، أنت تبدين غير سعيدة».

ـ «حسناً يا «وينريش»، أنت تعلم أنني أعددت نفسي للبقاء وأنت تعلم كذلك أنني أُحب العمل معك، ولكن أجد نفسي مضطّرة لإخبارك أن موضوع مغادرة «بلايستون» غيّرت الكثير بالنسبة لي».

كان «ريتشارد بلايستون» مراسلنا في مكتب لندن، ولقد جاء لبغداد كجزء من عملية «الدوران النهائية. ولأسباب عائلية، لم يكن باستطاعته أن يغامر ويبقى في العراق ولقد جاء «آرنت» لينوب عنه.

وقلت لها: «أعلم الذي تشعرين به تجاه «بلاي» يا عزيزتي، فكلنا نحبّه».

وقالت أنغريد: «أنظروا سأعود، ولكن فقط أعتقد أنه من الأفضل البقاء في عَمان لعدّة أيام. بالإضافة لذلك يا «وينريش» هنا ضحكتْ وأضافت: «فإن أي شيء أفضل من الموت!».

كان «نك روبرتسون» يستمع بدقة لكل ذلك، وفي الحقيقة كنت لا أعلم أي طريق سيختار.

وناديته: ««نك»، ما رأيك؟».

ـ «حسناً، لقد أتيت هنا بسبب معدات الإرسال، ومَن يدري؟ فلربما نحصل عليها قريباً. إن من المؤسف أن تتوفر معدات الإرسال لدينا هنا ولا نستطيع استعمالها، وبالإضافة لذلك أعتقد أنه باستطاعتي المساعدة في الـ «INMARSAT» وفي المعدات الأخرى، خصوصاً وإن «مارك» سيغادر الآن إلى العراق. أشعر بالراحة مع «بيتر» ومع أي شخص آخر يقدر البقاء، لذلك قررت البقاء والقيام بأداء دوري يوماً بعد يوم».

ـ «هٰذه أخبار رائعة يا «نك». شكراً».

التفتُّ إلى جون الذي كان يقف بجانب النافذة: «مستر «هوليمان»، أعتقد أن قرارك لا يزال كما هو؟».

ـ «بالتأكيد.. إذا بقي «روبرت» فسأبقى معه وإذا ذهب «روبرت» فسأذهب معه. وكما قلت

فأنت تملك غريزة فطرية قوية، ولكني أنا لا أملك أية غريزة على الإطلاق، لذلك فسأقوم باتباعك».

تركّزت جميع الأنظار عليّ. «حسناً، كان هٰذا صعباً عليَّ تماماً كما كان الحال معكم. يتوجّب عليَّ أن أخبركم أنه تملكني الكثير من الريبة بهذا الشأن، لم يكن أقلها شأناً قلقي على عائلتي. أنتم تعلمون أن «ألين» لديها بالطبع المقدرة على التحمّل، وأسال الله أن يمنع السوء عنيّ . . فأنا لا أتخيّل أن يحرم «جيسي» و«جاك» من والدهم». حاولت أن أختبر عواطفي، ولكن التوتر كان مسيطراً عليّ تماماً، وأخذت نفساً عميقاً وتمنيّت أن تتوقّف تلك الضربات التي بداخل صدري.

إنني أعلم حقيقة وجود معظمكم هنا، والذي يكمن في كوني طلبت أنا شخصياً منكم ذلك، وهٰذا ينطبق على «بيتر» و«نك»، اللذين وصلا هنا في الدقائق الأخيرة، سأكون أميناً معكم، لم أكن بالتحديد أريد أن أكون هنا الآن، ولكن سأكون فاقداً للضمير إذا أحضرتكم إلى بغداد، ثم تخلّيت عنكم، لذلك فأنا أيضاً سأبقى، أشكركم جميعاً عظيم الشكر، وإنني لأحبكم جميعاً أشدّ الحب».

كان ذلك كل شيء. مشيت عبر الردهة لأصل إلى «بيتر». وناديته: ««بيتر»، سأمكث أنا و«جون» و«نك» معك، بالنسبة للآخرين فسيغدرون برفقة «بيرني» في الصباح».

ـ «ذلك رائع يا «روبرت»! كنت أعلم مسبقاً أنكم ستمكثون. ولا تستطيعون أن تحيوا حياة غير التي اعتدتموها. هٰذا هو الأمر الصحيح ووجود «نك» ضروري في موضوع المعدّات. رائع جداً» قال ذلك بنشاط وقوة، وصافحني قائلاً: «لن تندم على ذلك أبداً».

وضحكت وقلت له: «نعم، يا صديقي، أعلم ذلك. سيكون أمراً خرافياً». مشيت إلى الغرفة رقم (٩٠٦) وجلست بجانب الهاتف. واتصلت بالهاتف قائلاً: «من بغداد إلى أتلانتا . . من بغداد إلى عَمان».

ـ «أتلانتا معك أكمل يا «روبرت»، معك «إيسون»».

ـ «عَمان معك».

وببطء شديد وبسرعة الكتابة الإملائية، قمت بالتقاط خط المكالمة التي أعلم أنهم بانتظارها «الأشخاص التالية أسماؤهم سيغادرون بغداد غداً: « بيرنارد شو، مارك بيلو، كريس كريسمانخ، وأنغريد فورمانك»، أمّا التالية أسماؤهم فسيمكثون في بغداد: «بيتر آرنت، جون هوليمان، نك روبرتسون، وروبرت وينر»».

خيّم الصمت على الجهة الأخرى من الخط الهاتفي «أتلانتا . . عَمان، هل تسمعني؟».

ـ «أتلانتا أسمعك».

ـ «عَمان أسمعك».

قلت لكبير منتجينا في عَمـان «بيتر هومي»: ««بيتر»، سأعود إليكم بعد قليل لنتكلّم بشأن الترتيبات اللازمة بالنسبة للطائرة، ولكن حاول أن تكون في المطار في الصباح الباكر». وأجاب: «حسناً يا «روبرت» سأكون هنا».

وقلت في نفسي: «لقد سبق السيف العذل، وتمّ توفير طاقم الشبكة، وقمت بإشعال سيجارة ونظرت إلى «بيرني» وقلت: «إنها ليلة كالجحيم» واتصلت بغرفة الخدمة وطلبت بعضاً من الثلج».

قال بيرني موافقاً: «إنها بالفعل كذلك وأكثر» ثمّ رددها ثانية: «إنها بالفعل كذلك وأكثر».

وقلت مغامراً: «حسناً، أعتقد أننا سنكون على ما يرام، ما عليك إلّا أن تشير بأصابعك وسيبقى المطار مفتوحاً لبضع ساعات أخرى».

وبعد ذلك وبأقل من تسعين دقيقة، كانت بغداد تتعرّض للهجوم.

الجزء الثاني
آب - أيلول - ١٩٩٠

١

لو أمكنتنا العودة إلى الوراء، في محاولة لاستعراض تغطية حيّة لأخبار حرب حقيقية من خلف خطوط القتال، ومن عاصمة العدو، فإنها تساوي رحلة صحفية إلى سطح القمر، حتى لو قام بها «مرو». ويمكنني أن أتخيل بسهولة ما سيحدث لشفتي «إدوارد. ميكلين» خلال المشهد.

لقد قامت شبكة سي. إن. إن عام ١٩٨٩، بتغطية حيّة في كانون أول/ ١٩٨٩ للثورة الدموية في رومانيا وشدّت المشاهدين لمتابعة كيف ثار شعب بوخارست وأسقط الديكتاتور «نيكولاي شاوشيسكو». كنا نجلس في صالة الدخول لفندق الأنتركونتيننتال في وسط العاصمة نتابع الصور التي تبثها الأقمار الصناعية لطوابير الدبابات المتجهة نحو قصر «نيكولاي شاوشيسكو» الذي تغطيه الثلوج.

كانت تلك أيام مثيرة لنا جميعاً ـ لكن الأمر الآن يتعلق بتغطية حرب على نطاق واسع، وهو شيء مختلف عما سبق. فكيف سنتمكن من الحصول على الإذن بالسماح بالتغطية على الأرض؟ ولو حصلنا على ذلك فمن الذي سيتولى تنفيذ ذلك.

انتزعني من ذكرياتي الإعلان الصادر من حجرة القيادة والذي يقول: «سيداتي .. ساداتي .. اربطوا الأحزمة من فضلكم .. نحن على وشك الهبوط في مطار صدام الدولي بمدينة بغداد. كانت الساعة الثانية بعد الظهر من يوم ٢٣/آب.

استغرق هٰذا العمل مجهوداً جباراً ـ فقبل ثمانية أيام وصلت إلى عَمان عن طريق رحلة خاصة مستأجرة قادماً من القاهرة ـ وأمضيت كل دقيقة من وقتي أمام السفارة العراقية في عَمان. كان هناك

مئات الصحفيين الذين يحاولون الحصول على تأشيرات لدخول بغداد. لكن لم يسمح لهم العراقيون. سبق أن سمح لـ «تيد كوبل» و «دان راذر» بمقابلة طارق عزيز. إن الحصول على تأشيرة لدخول العراق كان أكثر من مستحيل في أحسن الأوقات، ولكن منذ غزو الكويت فإن العراق أغلق أبوابه تماماً وأحكمها. ولقد حاولنا بكل الوسائل، عن طريق محطة اتصالات أتلانتا حاول المسؤولون عبر قنوات اتصالاتهم، كما وسطنا الملك حسين ملك الأردن، الذي هو صديق لـ «تير تيرفر» . . لكن ذلك كله لم يفلح. حتى أن محررنا أخذ يوجه كلامه بأسلوب القذائف بقوله لا بد لنا من الوصول إلى هناك أي «بغداد».

كان إيسون جوردان يصرخ عبر الهاتف عندما حادثنا بعد الظهر بعصبية قائلا: «إن وكالة« A.B.C » و « C.B.S » تمكنتا من الوصول إلى بغداد . . فكيف لا نستطيع ذلك . . لقد نطحونا بقرن ثور واقتلعونا وألقوا بنا خارجاً.

فرددت عليه: «عزيز دعاهم . . يا «إيسون» . . المسألة أصبحت سهلة . . ألا نعرف أحداً يتوسط لنا عند عزيز» (المقصود طارق عزيز وزير الخارجية العراقي).

لقد علمت أن «رولاند إيفانز» يعرف . . وسوف نقوم بإشراكه في عملنا. إن «رولي إيفانز» يعتبر من المعلقين المشهورين الذي تنتشر أعماله في عدة شبكات ويعتبر الضمير المتحرر لوكالة « C.N.N ». عاد «إيفانز» و «نوفاك» لتوهما إلى واشنطن بعد أن أجريا مقابلات شاملة مع كل من الملك حسين والرئيس المصري حسني مبارك. وكما علمنا في وقت لاحق فإن طارق عزيز كان يريد محادثة «إيفانز» قبل مقابلته مع «كوبل»، لكن «رولي» كان يتنقل في الشرق الأوسط ومن الصعب العثور عليه. وعلق «إيسون» على ذلك بقوله سوف أحادثك عندما نتمكن من الاتصال به.

أخيراً تمكن «إيفانز» من الحصول على تذاكرنا إلى بغداد على الرغم من أن أمامنا يومين لإنهاء الإجراءات البيروقراطية. كان من المقرر أن يصل «إيفانز» إلى عَمان للحاق بنا يوم ٢٤/آب، وعندما أخذنا في الاعتبار أن بعض وكالات الأنباء قد تحصل على تأشيرات دخول إلى بغداد، لذلك قررنا السفر بأقصى سرعة ممكنة. قبل عدة ساعات من مغادرتنا عَمان استوقفني فريق الـ « C.B.S » الموجود في فندق الأنتركونتننتال لاستلام بعض المعلومات التي أرسلها «توم بيتاج» المدير التنفيذي لنشرة أخبار المساء في وكالة« C.B.S » بالاشتراك مع «دان راذر». كان «بيتاج» قد عاد قبل عدة أيام قليلة من بغداد. وغالباً فقد كان التعاون بيننا قائماً.

قال لي توم: «اتصل مع «جوي ويلسون» في السفارة الأمريكية ببغداد، فهو رجل جيد، ويحب المساعدة ولديهم تليفونات مباشرة للاتصال مع الولايات المتحدة حيث يمكنك الاستفادة

من هٰذه الخـدمـة. ولا تعول كثيراً على الاتصال من فندقك الذي ستنزل فيه. كما أن «ستيف ثابيلوت» الملحق الصحفي شاب جيد ومعـه الكـولـونيل «جيم رتشي» الملحق العسكري. من الممكن أن يكون تعاملك مع «ويلسون» و «ثابيلوت». وإليك أرقام بعض هٰذه التليفونات».

وأثناء كتابتي للأرقام على عجل سألت «توم» عن إمكانيات السفارة في تقديم بعض الخدمات الخاصة لهم . .

فأجـابني: ««ويلسـون» يدخن السيجاره وكذلك «رتشي» حيث يمكنك شراء سيجار هافانا الجيد من المنطقة الحرة بالمطار. وها هو إسم آخر ستحتاجه إنها السيدة عواطف سمير التي تشرف على تقديم البرنامج في التلفزيون العراقي».

ثم سألته: «كيف يتم إرسال البرامج من هناك؟».

فأجاب: «فوضى . . وعذاب مرير ومثبط للهمة. ودعوت الله أن ينقذنى ويساعدنى من عملية البث من دول العالم الثالث . . وأؤمن أن كل منتج في هٰذا المجال لديه على الأقل قصة رهيبة عن عملية البث والإنتاج في بلد من هٰذه المجموعة. تتم ملاحظة هٰذه الفوضى والتشويش عندما يقوم رجال الصحافة من العالم الحر بالإرسال عبر محطات تلفزيونية قديمة ويتعرض للسؤال: ماذا ستبث وإلى أين . . ومتى . . كل ذلك يرسم صورة لا يُنصح لمرضى القلب بمشاهدتها. وعلى سبيل المثال في العاصمة براغ، فإن أحد كبار المسؤولين في التلفزيون التشيكي طلب مني العفو مقابل ما لقيته من عذاب.

سألنى توم: «كم يوماً تنوي البقاء هناك؟».

فأجبته: «إن صلاحية التأشيرة تعطيني فترة (٣٠) يوماً».

فرد: «أرجو أن تدخل وتخرج من هناك بسرعة لأنه يبدو أن الحرب وشيكة».

وبعد أن غادرت فريق الـ «C.B.S» ـ أسرعت لمقابلة «جون ريد» وهو منتج مسؤول عن فريق خاص لتغطية الأحداث. يعتبر «جون» من أمهر الفنيين في هٰذا المجال. من حيث الاقتراب أو الابتعاد عن الأماكن حين تغطية أخبار رحلات الرئيس أو تغطية حدث مهم. أوقفته.

سأل روبرت: «ما الذي يجرى هنا؟».

فأجبته: «إننى مسافر الآن إلى بغداد».

ظهـر على وجه ريد انطباع مزدوج. فقد أبدى اهتماماً ملحوظاً وقال: ««روبرت» أرجوك لا تذهب . . إن فكرة السفر ليست جيدة، حقيقة لا تفعل ذلك».

ـ «أوافقـك الرأي . . ولكن أنتم تمكنتم من أخذ لقطات لوكالاتكم وأنوي أن أجعل وكالة

الـ «C.N.N» على الشاشة، لكن إذا كان هٰذا شعور «جون» فإنني اعتقد بأن هٰذا لا يبشر بخير وفأل سيء».

كنت أفكر في هٰذا وأكثر منه عندما بدأت طائرة الخطوط الجوية العراقية (٧٤٧) تتجه إلى منطقة الإقلاع. كان هناك أربعة من شبكة الـ «C.N.N» على الطائرة وهم المراسل: «جيم كلانس» و«مارك بيللو» و«تراى هاني» المحرر وفنيّ الصوت. سبق لنا أن عملنا جميعاً في أماكن سابقة، ولكن يبدو أننا مقبلون على تجربة جديدة. وفي النهاية يمكن القول حقيقة أنها تستحق تسميتها بـ «القرار العراقي التافه». بدأ ذلك بمجرد أن قررنا مغادرة عَمان حيث كنا قد حجزنا تذاكر درجة أولى ـ لكن مسؤول الخطوط الجوية العراقية أعلمنا أن نجلس في كراسي الدرجة السياحية، لأن هناك وفداً رسمياً سيكون على الطائرة وبالتالي فهم الذين سيستخدمون كراسي الدرجة الأولى.

أجبته: «أرجوك سبق لنا تأكيد حجزنا على الدرجة الأولى». لكنه أصر على رأيه وقال اتجهوا إلى الدرجة السياحية. وكما ترى بوضوح لنا حجز على كراسي الدرجة الأولى ـ ومع كل احترام لكم فإننا سنسافر على الدرجة الأولى».

فرد عليّ: «لا . . عليكم التوجه إلى كراسي الدرجة السياحية».

وسألته: «هل تنوي إعادة ثمن فرق التذاكر لنا؟».

فكرر رده: «عليكم التوجه إلى الدرجة السياحية».

أدى موقفنا إلى خلق ما يشبه عنق الزجاجة للدخول إلى الطائرة، وأصبح باقي الركاب خلفنا متضايقين وغاضبين، وتطلّب الأمر اتخاذ قرار سريع.

أشرت إلى «جيم كلانس» وقلت للمضيف: «إن هٰذا الرجل مصاب بمرض القلب، وإذا كانت لديك مشاعر إنسانية فإنك ستسمح له ولرفاقه بالسفر على الدرجة الأولى».

نظر المسؤول وتفحّص «جيم» الذي يزن أكثر من (١٠٠)كغم ويضع حزاماً ثقيلاً. كان «كلانس» يتصبب عرقاً كالخنزير وينحني إلى أسفل بسبب ثقل ما كان يحمله معه، شنطة يد وجهاز كومبيوتر شخصي وبعض أكياس تحتوي على مشتريات من السوق الحرة.

بعد ذلك قال الموظف: «أوافق وسأتدبر أمر الوفد الرسمي بإيجاد مقاعد أخرى لهم، يمكنك ورفاقك الجلوس في الدرجة الأولى».

إنهالت عليّ التهاني من زملائي الذين اتجهوا لأخذ مقاعدهم على القسم العلوي، ولاحظت أننا لم نكن الصحفيين الوحيدين الذين تمكنوا من الحصول على تأشيرات. كان معنا على الطائرة «جون سمبسون» من هيئة الإذاعة البريطانية، ومحمد أمين مصور تلفزيوني يعمل لدى وكالة (فيز

نيوز «Vis News») التي تزود المشتركين فيها بأشرطة في أرجاء العالم، ولم يكن لدى علم بأن «جون» أو محمد يعانيان من أزمة قلبية، لكنهما تجنبا استخدام المقاعد الرخيصة أثناء سفرهما.

وصلنا إلى مطار صدام الدولي الذي كان مفاجأة سارّة لنا، من حيث حداثته ونظافته وحسن ترتيبه وتقدمه على مطارات العالم الثالث. عندما اتجهنا إلى الوقوف في طابور أمام شباك (الأجانب) تقدم منا شخص وقال:

«معذرة.. أنت صحفيون؟».

فأجبته: «نعم، مرحباً نحن نعمل مع فريق شبكة الـ «C.N.N»»..

وبدأ الرجل يدقق في ورقة بيده قائلا: «C.N.N» لا «B.B.C».

فرددت عليه: «إن فريق الـ «B.B.C» أيضاً معنا هنا على نفس الطائرة».

فقال: «أرجو الانتظار»، ثم اختفى عن أعيننا لفترة طويلة.

سبق لـ «جيم» أن زار بغداد وقال بأن تجربته في بغداد لم تكن مريحة. في آخر مرة بقيت في المطار لمدة ثماني ساعات مريرة. ألا تلاحظ أنهم لم يتوقعوا وصولنا اليوم. كان المفروض أن نحضر مع «إيفانز» الذي له صلة مع «جوليس بلوند».

التحق بنا الآن الفريق البريطاني فقال كلانس موجهاً كلامه إلى «سمبسون»: «ذهب الرجل المكلف لمحادثة تليفونية مع الوزارة. وعليك أن تهيء نفسك لفترة انتظار طويلة». فأخرج «سمبسون» مفكرته وبدأ يشغل نفسه بها.

سألت جون: «هل كنت هنا سابقاً.. أليس كذلك؟».

أجاب: «نعم منذ ستة شهور حيث قمنا بتصوير أفلام وثائقية، وعندما قررت المغادرة فإنهم صادروا الأشرطة في المطار».

فتساءلت: «جميعها».

أجاب: «أربعين منها حقيقة».

بعد أن جاء ثامر ـ الموظف بالوزارة ـ وطلب منا تعبئة إقرارات ما نحمل. كان مئات من المسافرين يلتفون حول الحزام المتحرك الذي ينقل حقائب الأمتعة وينقلون أمتعتهم في عربات كبيرة الحجم. كان لدينا (٣٠) شنطة كبيرة الحجم تحتوى على المعدات التي لا تدخل في الأمتعة الشخصية، ولا بد لنا من الحصول على من يساعدنا..

فسألت ثامر: «ألا يوجد حمالون؟ لدينا معدات ثقيلة».

رد ثامر: «لا يوجد حمالون.. يمكنك استخدام العربات»، وأشار إلى نهاية الصالة حيث

بدأت العربات تنفذ بسرعة.

فقلت لـ «مارك»: «نحن بحاجة إلى (١٢) عربة». وقد استغرق تحميل الأمتعة أكثر من ساعة ـ ثم قلت: «علينا الآن التوجه إلى الجمارك».

فقاطعني ثامر: «المسافرون أولاً . . وعليكم الانتظار».

بدا «تري TREY» غير مرتاح . . ولكن لم يكن بيدنا حيلة إلا الانتظار . .

وسألته: «هل أنت مبسوط».

فقال هامساً: «إن ذلك الشاب (يقصد ثامر) أثار اشمئزازي».

لاحظت في الصالة ركناً للتليفونات فذهبت لمحادثة السفارة. [لا تحتاج لوضع عملة معدنية لتحريك القرص]. كان التوفيق حليفي فرد على الخط «جو ويلسون»، وقلت له: «إذا لم تمانع سأحضر إليك الليلة».

فرد جو: «سنكون موجودين ولكن ضع في اعتبارك أننا مشغولون».

أخبرته: «لقد أحضرت معي علبة من السيجار (سيجار هافانا) باسمك».

فضحك قائلاً: «لقد نطقت بالكلمة السحرية، أحضر في أي وقت». مضت ساعتان ولم ينته رجال جمارك الجمهورية العراقية من تفتيش حقائب باقي المسافرين. بعد ذلك جاء ثامر وأعاد إلى كل منا جواز سفره بعد وضع ختم الدخول عليه . . إن بقاءنا داخل المطار لم يكن شيئاً مريحاً لأي منا.

وقال: «يمكننا الآن تكملة الإجراءات». قال ثامر وقدرت أن الأمر سيكون كابوساً لنا.

كان العراقيون يريدون فحص كلّ شيء. وبدأوا بالمعدات . . وبالنسبة لأجهزة ومعدات تصوير تلفزيونية لا يوجد ضوء أخضر كباقي المسافرين . . فعلى الأقل لديك كاميرا . . وجهاز للصوت، وجهاز للإضاءة وعلى الأقل صندوق أو إثنان من أشرطة التسجيل وحامل ثلاثي. فإذا كنت تنوي التصوير والبث من موقع، فأنت بحاجة للبث عبر جهازين، ولو رغبت في الإقامة والتسجيل ثم بث المادة خلال أسبوع أو اثنين فلا بدّ لك من آلة أخرى بالإضافة إلى الملحقات الأخرى مثل الأسلاك ـ والبطاريات واللمبات وقطع الغيار والأدوات، ولو كنت تريد إقامة مكتب مؤقت فأنت بحاجة إلى معدات وقرطاسية وحتى الساعات، ولا تنسى حقائب السفر وقمصان التي شيرت «Tee Shirt» والقبعات التي ستوزعها على العاملين المحليين الذي سيشتغلون معك، فمثلاً لو كان سائق يعمل مع شبكة تلفزيونية ويرتدي قبعة على رأسه بينما السائق العامل معك لا يرتديها فإن هذه الملاحظة ستسمعها حالاً.

كل ذلك وأكثر لا بد أن نضعه في اعتبارنا، لأن مقابلة «إيفانز» مع طارق عزيز سيتم تصويرها

باستخدام كاميرتين، وبالفعل فقد كان لدينا زوج من كل شيء علاوة على كمية كبيرة من الأشرطة وآلة صغيرة من إنتاج سوني لشحن المخزن الثابت والتي بواسطتها يمكننا أثناء الحرب أن نبعث بصور أشرطة الفيديو في نفس الوقت عبر جهاز تليفون بسيط. ولم تكن المرة الأولى وبالرغم من طلباتي المتكرّرة فإن المكتب الرئيسي لنا نسي أن يرسل كتيّب التعليمات لهذه الآلة ذات التقنية العالية التي تساوي (٢٠) ألف دولار. لكنها جعلت رجال الجمارك العراقيين ينشغلون لمعرفة كنهها عدة ساعات، وهكذا لم يضع ذلك سدى. فعندما بدأت بتحرير هٰذا الكتاب سألني أحد زملائي هل سأذكر إسمه، لكن كل ما استطعت أن أجيبه هو لا تنسى أن ترسل كتيب التشغيل.

طريقة تشغيل الأجهزة وموديلاتها لسبب ما كان العراقيون يهتمون بمعرفتها، ولم يقتصر الأمر على جهاز كومبيوتر يعود إلى «كلانسي Clancy» ولكن حتى أجهزة الراديو ذات الموجات القصيرة وأجهزة التشغيل. وفي النهاية بعد أن تدفق على بغداد عشرات الصحفيين والمراسلين ازداد العراقيون خبرة بمعرفة الأجهزة الحديثة وزاد هوسهم لمعرفة أسرارها.

إضافة إلى ذلك أصيبوا بضربة من (شنطة العالم الثالث) الخاصة بـ «تري Troy»، وهي شنطة ضخمة برتقالية اللون تحوي علب التونة والعنب والمكسّرات والجبنة والشوكولاتة والمياه المعدنية. أخذ أحد المفتشين يضحك وهو يفحص زجاجة المياه المعدنية قائلاً: «انظر إلى هٰذه، كأنك في بلاد الحضارة وعلى شواطىء دجلة لن تجد لك كوب ماء تشربه!!» وأخيراً ظهر أن ملابس «مارك بيلو Mark Biello» الداخلية ليست خطراً على الأمن العام فتم السماح لنا بالمرور.

قال ثامر: «علينا أن نسرع ـ فأنتم لديكم موعد مع وزير الإعلام».

فقلت: ««جيم» والآخرون يمكنهم مقابلة وزير الإعلام ـ ولكني عليّ التوجه إلى الفندق لتأمين المعدات والآلات . . أين سيارات التاكسي يا سيد ثامر؟».

فرد ثامر: «لا يوجد سيارات تاكسي. ألا يوجد لديكم أنتم سيارات؟».

فأجبت: «لا يوجد . . ألا يمكننا أن نستأجر سيارة أو فان أحسن» قلت بعفوية . .

فرد ثامر: «لا . . خذ تاكسي».

كل ذلك جعلنا متأخرين وبدت التوقّعات غير مشجّعة ـ فقد كنا آخر من غادر المطار، ونظراً لأنه لم يُنتظر وصول طائرات أخرى . . فلم يعد هناك أحد في المنطقة غيرنا. إن التاكسي الوحيد الذي يمكن أن نعثر عليه هو تاكسي سائقه مجنون ينتظر طائرة لن تحضر! وأخيراً لمحتُ سيارة باص يتم دفعها اتضح أنها مخصّصة لعمال تنظيف المطار. ووجهت كلامي لثامر: «لدي فكرة . . إنني أرغب في استئجار هٰذا الباص».

فقال: «الباص . . لا يجوز لك استعماله أنت يمكنك الركوب في تاكسي أجرة. سأجرى

مكالمة تليفونية لأحضره لك».

فأجبته: «إننا بحاجة إلى سبعة».

بينما بدأ ثامر يتوارى عن نظري إلى صالة المطار . . بعد خمس دقائق رجع ثامر منشرحاً وقال: «السيارات قادمة حالاً».

وبدأت أتحدث معه في فترة الانتظار، وسألته: «هل يتوقع الناس هنا الحرب؟».

فأجاب: «كل شيء ممكن».

وقلت له: «وأنت ما رأيك؟» فهز كتفيه . . وبدأت السيارات تلف حول الدوار واحدة تلو الأخرى . . ثلاث برتقالية، وواحدة بيضاء من طراز هوندا.

وصاح السائقون: «ألم تطلبوا تاكسي؟».

فقلت لثامر: «نحن بحاجة إلى ثلاثة أخرى».

فقال: «السيارات الباقية قادمة». عليك تحميل عفشك بسرعة . . يجب ألا تتأخر عن موعد مقابلة الوزير».

استغرقت عملية التحميل تسعين دقيقة، وتم تحميل المعدات والأجهزة في ست سيارات. «كلانسي» وثامر وأنا ركبنا في السيارة السابعة متوجهين نحو الوزارة. وصحت: «سأرتب هٰذه الأشياء في الشيراتون. قابلوني على قدر استطاعتكم». جلست في مقعد السيارة الأولى التي تقود القافلة في طريقنا نحو المدينة. وبدت الحرارة متعبة رغم إنزال زجاج السيارة، وأحسست كأنها نيران فرن ملتهب . . هناك لوحات ضخمة مرسومة باليد لصور الرئيس صدام حسين مثبتة على طول الطريق السريع . . ولم يكن في ذلك الطريق سوى سيارتنا نحن، ثم ظهرت لوحة مكتوب عليها «أهلاً وسهلاً في بغداد عاصمة صدام العرب»، ونظرت من فوق كتفي لأتثبت من أن بقية السيارات تتبعنا.

وعندما اقتربنا من المدينة بدأت حركة السير تزداد صعوبة والقيادة تتسم بالتهور، وبدلاً من استخدام الإشارات عند المنحنيات لاحظت أن البغداديين يكثرون من استخدام أبواق السيارات، هز سائقي رأسه عندما سألته: «هل يجيد اللغة الإنجليزية؟».

ـ «الشيراتون؟» . . هٰذا كل ما أجاب به. كنت أتوقع أن أرى الجنود في كل مكان، لكن كل ما لاحظته هو وجود مجموعات مبعثرة هنا وهناك . . لكن من ناحية أخرى كان صدام في كل مكان، على كل زاوية وفي كل شارع وكل ناحية . . في مداخل المباني الحكومية . . عند التقاطعات . . صور القائد العراقي العظيم ينظر من أعلى إلى الشعب . . صدام ببذلة العمل . . ثم بالزي العسكري المهيب . .

وصورة راكعاً على قدميه يصلي . . وأخرى على ظهر حصان . . وواحدة يرتدي بالطو، وغيرها ببذلة، وتجدوه من أعلى بناية يشير . . وصور أخرى يلوح بيده . . صور صدام لا تحصى حيث يبارك ويحيّي . . كانت الصور قوية ومظهراً من مظاهر العظمة.

قال لي أحد المرافقين يوماً: «السيد الرئيس لم يطلب منا رسم هٰذه الصور. فهو رجل متواضع، لكن الناس تحبه. ولذلك تتسابق لرفع صوره» . . بعد عدة أشهر تم إعلامنا أن صدام حسين قد أعجبه هٰذا العمل الفني . . وحقيقة لم أر سابقاً مثل هٰذه الثقافة الشخصية المعتمدة.

يطل فندق عشتار ـ شيراتون على شارع أبي نواس ويتألف من (١٦) طابقاً، ومقابله فندق فلسطين ـ مريديان. كان الفندقان يغصّان بمئات الرهائن الأجانب الذين احتجزوا في بغداد منذ ٩/آب. ويؤكد العراقيون على أنهم ليسوا رهائن، ولكنهم ضيوف العراق. وقد عبّر عن هٰذا الرأي طارق عزيز عند توقفه في القاهرة قائلاً: «إن الرهائن لا يقيمون في فنادق ولا يشربون البيرة ولا يستمتعون بأوقاتهم».

في الحقيقة مرت فترة أحد عشر يوماً على الموضوع، وحتى الرئيس بوش لم يذكر أو يصف المحتجزين (بالرهائن) قائلاً: «إنه لا يريد تصعيد الموقف». لكن في النهاية وعلى وجه التحديد يوم ٢٠/آب استخدم بوش لفظ «الرهائن» وذلك للمرة الأولى حيث قال: «مهما تعددت التسميات عن هؤلاء الأبرياء . . فهم في الحقيقة رهائن».

أخبرت السائقين أنني لن أدفع لهم أجرتهم قبل تنزيل المعدات وتأمينها داخل الفندق. كانت صالة الاستقبال بها صورة ضخمة لشخص أنت تعرفه!.

قلت لموظف الاستقبال: «مساء الخير . . إسمي «روبرت وينر» من شبكة «C.N.N» الأمريكية. لدي حجز مسبق لخمس غرف وجناح، وإنني أفضل الواجهة المطلة على الجامع». بدأ الموظف يقلّب بين أوراق ملفه.

ثم قال لي: «آسف . . انت قلت إن لك حجزاً؟».

«نعم، . . » وكنت كاذباً في قولي. ثم قلت له: «إذا لم تجد بإسم «وينر»، إبحث تحت إسم «C.N.N» . . وهٰذا ما يحدث لي دائماً». ثم أضفت قائلاً: «وأنا بحاجة إلى حمالين لنقل المعدات» . . وبدأ الموظف يحملق في الأدوات التي تنقل لداخل الفندق.

ـ «أنا آسف . . لا أجد حتى الآن حجزاً لك».

ـ «أرجوك أن تدقق ثانية». بعد أن أنزلت ورقة بعشرين دولاراً له.

ـ «حسناً، سأدبر لك الأمر». قال لي، وقدم لي طلب تسجيل الزبائن في الفندق . . «كيف

تود أن تكـون طريقة الدفع نقداً أم على الحساب؟». وكانت توجد على كتف الموظف الإشارة الزرقاء والبيضاء التي تستخدمها أميركان إكسبريس.

فقلت له: «على الحسـاب». وقدمت له بطاقتي. ثم حملق فيَّ ثانية وكأنه نسي شيئاً، ثم استدار فجأة، وفي لحظة قام أحد المساعدين بنزع إشارة أميركان إكسبريس عن كتفه.

ثم قال لي: «نحن لا نقبل بطاقات الإئتمان، أرجو أن تقدّر موقفي، فالأمر صعب بالنسبة لاستلام المدفوعات، وتسديد الحساب نقداً سيكون هو المتبع عندنا».

ـ «سيكون الدفع نقداً . . يا صديقي».

أصبـح العفش داخـل الصالة، وأخذ السائقون يدورون انتظاراً لدفع أُجرتهم. فطلبت من موظف الاستقبال أن يكون مترجماً بيني وبينهم.

فقال لي: «إن الدليل الخاص لي بالمطار اتفق معهم على (٢٥) ديناراً لكل سيارة تاكسي».

فسألت: «كم تعادل هٰذه القيمة بالدولار؟».

أجابني: «إن كل دينار عراقي يساوي ثلاث دولارات».

ـ «يا للهول، هل سأدفع (٧٥) دولاراً مقابل استخدام سيارة لفترة (٢٠) دقيقة من المطار . . إني كنت أفضل لو بقيت على الطريق، بدلاً من القدوم للفندق».

فقال لي: «هٰذا هو السعر الرسمي، إن بنك الرشيد على زاوية الصالة».

ثم طلبت المساعدة في فصل المعدات عن الأمتعة الشخصية للصحفيين، وكلّفت الحمالين بنقلها إلى الغرف الشخصية. وقلت: «سأجد غرفة النوم الخامسة مخصصة «لإيفانز» . . وسوف يصل غداً». ثم دفعت للسائقين مبلغ (٤٥٠) دولاراً والذي بلا شك سيؤدي إلى محاسبة المكتب لنا. ثم ناديت على المكلف بتنسيق الغرفة: «هٰذا هو المستر «وينر» من الجناح رقم (٥٠١)»، ثم طلبت مساعدتهم حالاً وقلت: «إنني أرغب في رفع السرير من الغرفة وإضافة كراسي وطاولات وأضواء أخرى . . وأرجو أن تخبر قسم الخدمة أنني بحاجة إلى سطل من الثلج و(٦) زجاجات بيبسي كولا وسندويش دجاج. وسأكون شاكراً لو تم تجهيزها بسرعة».

ثم أجريت مكالمة مع عاملة التيلفون وطلبت حجز مكالمة إلى الولايات المتحدة. فأجابت: «لا خطوط مع الـولايات المتحـدة». لقـد تذكـرت ما قالـه «بيتاج» وكان محقاً. كان الحمالون يجاهدون في نقل الأمتعة الثقيلة وقدّمت لهم المكافآت ـ لأن مثل هٰذه المكافأة (البقشيش) لها مفعولها . . فإن عشرات الدولارات قد توفر لك آلاف، خاصة إذا كنت تتعامل في الخارج مع حمال أو تاكسي أو في المطار. تقدمت نحو الشرفة وفتحت الأبواب. وكما طلبت فقد كان الجناح يطل

على جامع جميل المنظر والذي يطل على ميدان مزين بصورة كبيرة للرئيس العراقي . . ويعتبر جاهزاً للّقطة الحيّة الأولى .

وفتحت جهاز التلفزيون وعندما ركّزت نظري على الصورة لم أصدّق عيني ، كان المشهد لصدام حسين يتحدث مع مجموعة من الرهائن البريطانيين : نساء ، رجال ، أطفال ، وعبر المترجم ، فقد قال لهم صدام : «إن وجودكم القصد منه منع نشوب حرب . . إن وجودكم على هٰذا الحال ليس مبعث رضى بالنسبة لنا . . إن مصدر سعادتنا يكمن في عودتكم إلى بلادكم أو قدرتكم على التجول في شوارع بغداد في ظروف حياة عادية» .

كان العديد من الرهائن يبدو عليهم القلق والعصبية . فقال أحدهم إنه يقدّر مجيء صدام بنفسه للحديث معهم . وسأل آخر عن مصير الطلاب المسجلين في المدارس .

رد صدام : «سنبذل قصارى جهدنا ألا يحرم أبناؤكم من دراستهم . . إذا بقوا هنا حتى بداية الفصل الدراسي» . وقال إنه سيعامل الرهائن بنفس الطريقة التي يعامل بها العراقيين . وأصرَّ الرئيس العراقي أنه لم يأخذ شيئاً من الولايات المتحدة أو بريطانيا بدخوله الكويت . «إن العرب أمة واحدة ، وإن الذي قسّمها هو الاستعمار البريطاني ، وإن الكويت رجعت إلى الوطن الأم . نحن لا نريد الحرب رغم أننا نعرف بأننا قادرون على سحق العدوان» . وأضاف صدام : «للأسف لم يجر أي حوار معنا» . ووصف أي حوار وفق شروط مسبقة للانسحاب من الكويت بأنه «إبتزاز» .

كان الرهائن محتجزين في مكان مجهول ، وكان بعضهم يلبس بنطلونات قصيرة ، كما كان أحدهم عاري الصدر تماماً . وخلال اللقاء كان بعض الأطفال يلعبون . ودونت ملاحظاتي عن هٰذه المقابلة التلفزيونية . قال صدام : «إن «بوش» والآخرين سيتعلمون الكثير من العراق على المستوى الإنساني ، وإن العرب والعراق سيعلّمونهم كيف يكونون أكثر قرباً إلى الله» .

صافح صدام عدداً من الرهائن ووعدهم بإرسال أشرطة الفيديو والرسائل الصوتية لتصل إلى عائلاتهم . ثم وقف معهم لالتقاط صورة جماعية ، والتي بالطبع ستغطي الصفحات الأولى والغلاف للمجلات والصحف العالمية ، ثم وضع يده على كتف الطفل الخائف «ستيورات لوكوود» وعمره خمس سنوات . وقال الرئيس مبتسماً : «أنا واثق من أن «ستيوارت» سيكون فخوراً وهو يلعب دوراً في حفظ السلام» .

لقطة نادرة ، وتساءلت هل يمكن لنا في أتلانتا بثها وتوصلت إلى استنتاج أن ذلك ممكن . ومنذ بداية الأزمات كانت وكالة الـ «C.N.N» تتابع باستمرار ما يبثّه تلفزيون بغداد لنقل ما يصلح وإعادة بثه .

كان المشرفون على ترتيب الجناح يقومون بإعداده ليصلح للعمل. وحتى الآن لم أسمع «كلانسي». ثم رن جرس الهاتف. قال المتحدث: ««روبرت وينر»: أنا فايز من وزارة الخارجية - وأنا موجود في صالة الاستقبال، أرغب في الحديث معكم»، فدعوته إلى مكتبي، وخلال خمس دقائق طرق الباب، فرأيت شاباً في الأربعينات من عمره، أصلع الرأس تتخللها شامة كبيرة ثم صافحني وقَبِلَ شُرب القهوة معي.

قال فايز: «أنت هنا لمقابلة وزير الخارجية طارق عزيز، لكن لا تتوقع ذلك قبل الغد، أين مستر «إيفانز»؟». فأوضحت له أن «رولي Rollie» سيصل غداً أو بعد غد حسب الاتصالات. رد فايز: «أثناء وجودك هنا لا تحاول التقاط صور بدون أن يكون معك مرافق عراقي. هٰذا أمر، كما لا تحاول التقاط صور من الفندق عبر النهر أو المباني المجاورة».

فقلت له: «هل يمكن تثبيت حامل ليكون جاهزاً من الناحية الأخرى جهة الجامع».

فقال لي: «إنها ليست مشكلة».

ثم أضاف فايز: «انتظر الليلة في الفندق وسأتصل بك في الصباح».

ثم وجهت كلامي إلى فايز: «إن مراسلنا يجري حالياً مقابلة مع وزير الإعلام لذلك أنا بحاجة للذهاب إلى مبنى التلفزيون حيث نود إرسالها بالقمر الصناعي إلى وكالة «C.N.N».

رد عليّ فايز: «سأتصل بالتلفزيون». وبعد أن أجرى المكالمة قال: «إنهم في انتظارى بين الساعة الحادية عشرة والحادية عشرة والنصف. ويقولون إن لديهم تلكس من الـ C.N.N».

- «هل الموعد مع السيد طارق عزيز محدد التوقيت واليوم؟» إن سؤالي لإجل إعلام الـ «C.N.N».

فقال: «سنكمل حديثنا غداً عندما اتصل بك لكن تذكّر: لا تصوير في الخارج». وافقت ثم ودعته.

كانت الساعة الآن الساعة التاسعة وبقى من الوقت ساعتان قبل الموعد؟ أين اللعين «كلانسي». ثم قضمت كسرة من سندويش الدجاج. كان صلباً ويخلو من المقبلات. اتجهت نحو الشرفة. كان ليل بغداد حاراً، وحركة المرور كثيفة عند الدوار، وأصوات أبواق السيارات تزيد من ضجة الشارع . . وأثناء تدخيني سمعت أصوات فريقنا قادماً من الصالة. صحت قائلاً: «تباً للوزير لن تصدقوا أننى أعاني الأمرين مع التلفزيون». هل لدينا مصور. سألوني . . قلت: «نعم وليس لدينا وقت طويل». بدأت مع «كلانسي» نعد النص، وبدأ باقي الفريق بإعداد الأغراض لتكون جاهزة حالاً. إنني أعتقد أن أتلانتا ستلتقط الصور. وسوف نبث مناظر داخلية وخارجية مع الأصوات المسجلة.

قال جيم: «أخبرني جاسم أنهم لن ينسحبوا من الكويت».

فقلت: «وما الجديد في ذلك».

قال كلانسي: «من المفيد إجراء مقابلة مع الرهائن. فالفندق مليء بهم».

رردت عليه: «ليس لدينا وقت الليلة . . ويمكن وضعها في قائمة أعمال الغد».

بينما كان «كلانسي» يجهز جهاز الكومبيوتر . . تفحصت ساعتي . . التي بدأ أنها توقفت، ولكن يمكن أن نعول على إنجاز «كلانسي». كان «كلانسي» واحد من أربعة مراسلين لنا يعملون على خط المواجهة. لقد عمل مع وكالة الـ «C.N.N» منذ بداية عملها المتواضع. كما عمل في المكاتب المحلية للوكالة وفي فروعها الخارجية ومن ضمنها مكتب بيروت. كان «كلانسي» يحب الـ «C.N.N» ـ ولكنه يشكو من قلة ما يصرف له أسوة بزملائه. فعندما ينتهي العمل ويتم بث اللقطات الطويلة ولا يبقى إلا القليل عند «جيم»، تجده في النهاية يتسلل ليشرب مرطباً مثلجاً ـ كما يفعل مراسلونا في واشنطن الذين لاهم لهم إلا الوقوف أمام البيت الأبيض أو وزارة الخارجية يرتشفون هٰذا المشروب «الأسكيمو». ثم قال: «أود أن أعرف ما سيفعله هؤلاء لو تم إنفاذهم إلى بلغاريا في منتصف الليل وبدون منتج، وطُلب منهم إعداد تقرير عن الأحداث هناك خلال أربعين دقيقة. إنني واثق من أنهم سيرتشفون عدة أكواب من مشروب الأسكيمو فقط».

انتهيت من إعـداد الأشراطة ونص التقرير ثم طلبت من «جيم» التوجه إلى سفارة الولايات المتحدة ومحادثة أتلانتا. قلت له: «سنقوم بإرسال ما يمكننا إرساله من هنا. لكن علينا أن نتقيد ببعض التعليمـات المكتـوبـة. وليس لدي علم عن إمكانية إجراء المحادثات تليفونياً من مبنى التلفزيون العراقي. إنني أفضل ذهابك إلى سفارة الولايات المتحدة فلدي اقتناع أن أتلانتا تنتظر بشغفٍ التقارير الحيّة منا . . وهناك أمر مهم، خذ معك السيجار»، أسرع «جيم» نحو الباب ـ في وقت قمت أنا و«تيري» بالاحتفاظ بجزء من السيجار. وقام «مارك» بتنظيم عملية تنظيم الأجهزة ثم قام ثلاثتنا معاً يلفنا الليل بالتوجه نحو مبنى التلفزيون.

٢

قطعنـا المسـافة إلى التلفزيون العراقي بالسيارة في عشر دقائق واحتجنا إلى عشرين دقيقة لدخول الباب. حيث قامت أجهزة الحراسة بالتدقيق والتفتيش في المعدات. بقي لدينا (١٢) دقيقة على الموعد المحدد للإرسال مما زاد في انفعالي. بالنسبة لي كان الأمر يدعو إلى الفخر، [ليس من وجهة نظر اقتصادية] بأن تتمكن من البث وتبدأ من القمة «أي التلفزيون» على طائر ميمون،

فعندما تحجز للإرسال عبر القمر الصناعي ـ فإنك تدفعُ رسماً معيناً لأول عشرة دقائق ثم تدفع رسوماً إضافية إذا زاد البث عن الفترة المحجوزة عن كل دقيقة. لمدة عشر سنوات مع وكالة الـ «C.N.N» تم تصنيفي مع المدرسة التي لا تبدو والتي لا تريد شيئاً غير ذي أهمية، وكم كان يدهشني ويحيرني كيف تقوم شركات تلفزيونية أخرى بحجز فترات تكلف الآف الدولارات دون حاجة إلى تبريرها عبر البث.

هٰذا كان قراري عندما وضعت معداتي ونقلتها من مبنى لآخر على ارتفاع طابقين في غرفة المراقبة الرئيسة . . وبينما كان «مارك» و «تري Trey» يجهزان معاً تلقيم الأجهزة حضرت إلى الصالة لأبحث عن الشخص المسؤول. كانت هناك سيدة نحيفة في منتصف عمرها والتي ارتدت ملابس أنيقة على غير العادة استعداداً للتصوير، قادتنى إلى مكتبها باعتبارها مسؤولة الإرسال، مددت يدي قائلاً: «مرحباً أنا مستر وينر من شبكة «C.N.N» ».

ـ «أهلاً مستر «وينر» أنا السيدة عواطف».

كانت السيدة عواطف سمير كما علمت أكثر من منسّقة للإرسال . . فهي مسؤولة القسم الدولي في التلفزيون العراقي وتقبض على الأمور بيد من حديد. ففي خلال هٰذه الأيام الأولى كانت هي المراقبة الرئيسة. وباستمرار الأزمة ازداد الضغط على الجميع ومن بينهم السيدة عواطف التي زادت حدتها، لدرجة أن البعض أصبح ينعتها بلقب «السيدة التنين» أو أسوأ من ذلك. كانت الـ «C.N.N» تقع تحت المراقبة بسبب صورها مما جعلني أتوقع مواجهة مع هٰذه السيدة يوماً ما. لكن السيدة عواطف كانت تعاملنا باحترام ولياقة ـ وحاولنا من جانبنا أن نرد لها المعاملة بالمثل.

أخبرتني السيدة عواطف: «وصل تلكس من «إيسون جوردان EASON JORDAN» بأنكم ستبثون عبر إنتلسات».

فأجبت: «جميل، هل يوجد تليفون في غرفة البث بحيث يمكنني استخدامه لمهاتفة لندن؟».

سألتني السيدة عواطف: «لا . . سأتصل مع لندن من هنا . . ما هو الرقم المطلوب».

بينما كانت السيدة عواطف تجري المكالمة، ذهبت إلى الممر للبحث عن «مارك» حيث كان هو و «تري» يمدان ويوصلان الأسلاك. فقالا: «سنكون جاهزين خلال دقيقتين». انضمت إلينا السيدة عواطف لمشاهدة الشريط ولم تجد شيئاً مخالفاً في المادة.

قلت لهم: «سأقوم بمتابعتكم من الصالة . . حيث سنكون على اتصال مع إنتلسات إلى لندن وابدأوا بالعد التنازلي عندما تودون الإرسال».

ضاعفت الوقت في طريق عودتي إلى المكتب عندما بدأ جرس الهاتف يدق.

«المتحدث إليكم روبرت من بغداد، من الذي سيستلم البث؟». وبعد لحظة كنت على اتصال مع «رود هنترز» الذي أخبرته: «علينا أن نكون جاهزين خلال دقيقة واحدة ـ و . . أعْلمني عندما ترى الرقم (١٠) على الزاوية الجانبية للشاشة. وهل تمكن «كلانسي» من الاتصال مع أتلانتا؟».

قال رود: «نعم، إنهم سينفذون جميع الإرشادات، كان الإرسال يصلهم مباشرة . . كيف تبدو بغداد؟ سأعلمك بعد تلقي الإرسال . . حتى الآن لا شيء يظهر».

أرى أمامي الآن العد التنازلي، ولكن لا يزال هناك تشويش وتقطيع في الصورة، يبدو الأمر كالذي ينتهي من العمل.

يا الله . . انتظر لحظة . . ثم جريت إلى الصالة ثانية. أخبرت فريقنا: «إن لندن ترى العد التنازلي ولكن الصورة ليست واضحة. هل أنتم متأكدون من سلامة التوصيلات».

قام «تري» بإعادة الكشف على الأسلاك وتأكد أن كل شيء تامّ. أسرعت في الرجوع إلى المكتب ثانية وكنت على يقين بأنه بعد تأدية عمل (٣) رجال فمن المفروض أن أصل إلى نتيجة، وأخبرت السيدة عواطف بالمشكلة، فأمسكت بجهاز هاتف آخر.

ـ ««رود» . . لقد أعدنا الكشف مرتين وأُخبرت أن كل شيء في النهاية كان جيداً.

حسناً لا زلت أرى التشويش ولكن دعنا نتأكد من المستويات . . ربما أصبحت الآن واضحة وصافية. تباً لهذا العمل . . اقتربت من حجرة المراقبة الرئيسة ثم تابعت وقلت: «توقف إن هذا العمل لن يتم. «مارك» قم أنت بالتلقيم. «تري» تعال معي وانتظر في منتصف الطريق المؤدي إلى الصالة وإلا سأصاب بنوبة قلبية».

دخلت إلى مكتب السيدة عواطف وقلت لها: «لدينا مشكلة مع إنتلسات».

فردّت عليّ: «إنه نتيجة للحصار الاقتصادي الذي تفرضه الأمم المتحدة فهم لا يتلقون طلباتنا، لماذا لا تبث عبر عربسات إلى الأردن؟». فكرت لحظة ثم أمسكت السمّاعة للحديث مع لندن.

ـ «اسمعني يا «رود» . . إن العمل لن يتم عبر إنتلسات، لن أحدثك تفصيلياً. اتصل مع أتلانتا ثم دعهم يتصلون مع مكتب الـ«C.N.N» في عَمان. عندها مكتب عمان سوف يتصل مع التلفزيون الأردني ودعهم يكونون على اتصال معنا عبر فندق الأنتركونتننتال، من جهتنا سنبث عن طريق عربسات. هذه هي الطريقة الوحيدة لإتمام عملنا». وضعت سماعة التليفون ثم خرجت إلى الباب . . ناديت على «تري» وقلت له: «دع «مارك» يتوقف عن الإرسال وأعد الشريط والعد إلى (١٠)، سنقوم بالإرسال عن طريق قناة أخرى».

استغرق ذلك عدة دقائق . . قال بعدها رود: «إنهم يرونك في عَمان، ولديهم السرعة. أرسل».

وناديت: «أرسل، حاول، أرسل». وسألت «رود» كيف تبدو الصورة فقال: «إن فريق عَمان يقول بأن كل شيء جيد. استمر في الإرسال. هل لا يزال لدينا الوقت الكافي؟»، وناديت:

ـ «تشبث بهم. استمر. كل شيء جيد. ليس لدي وقت محدد».

قال رود:

ـ «على أية حال علينا أن نبث ولكن بدون صوت المذيع التلفزيوني».

فقلت له:

«عندما تقوم عَمان بالتأكيد من صلاحية التسجيل . . سأقول لك مع السلامة». في الدقيقة الثالثة والثلاثين. وتصبح على خير.

فقلت له: «شكراً سأحدثك في وقت لاحق . . ليلة سعيدة».

سألت السيدة عواطف: «هل كل شيء يسير على ما يرام؟».

فأجبت:

ـ «نعم شكـراً. أو كمـا نقول قطعة جاتوه» ثم استخدمت جهاز الهاتف من عندها لأجري المكالمة الأخيرة مع أتلانتا.

قال إيسون: «إنه عمل رائع سنقوم بالحجز عن طريق عربسات في الأسبوع القادم من الساعة (١٠,٤٥) والساعة (١١,١٥) مساء بالتوقيت المحلي. لقد سمعنا أن الدبابات العراقية ستحاصر السفارات الغربية في الكويت غداً. وبصراحة فإن إحساسنا بأن هٰذه قد تكون الشعلة التي تولد الاشتعال».

ـ «هٰذا أسوأ عمل قمت به في مجال البث» . . قلت لـ «مارك» بينما نحن عائدون إلى الفندق. لقـد سألت السيدة عواطف هل يمكن تركيب تليفـون في غرفة البث، وقالت إنها ستحاول قدر المستطاع، ولشخص في مثل سني لا يمكن القيام بهذا العمل كل ليلة . . رغم أن الوقت تجاوز منتصف الليل فإن الصـالـة كانت مزدحمـة وصـاخبة مثل محطة المركزية في نيويورك «GRAND CENTRAL STATION». عشرات من الرهائن كانوا ممدين على الكنب بينما عشرات آخرون يرتشفون البيرة العراقية في البار.

تقدّم مني طبيب سويسري وقدم نفسه لي قائلاً: «ألست صحفياً؟ لقد كنت أعمل مع فريق

رعاية في منطقة الأكراد، لقد سمعت أن الرعايا السويسريين سيسمح لهم بالمغادرة. لكن سفيرنا ليس في بغداد. هل هٰذا صحيح؟». فقلت له:

ـ «أخشى أنني لا أتمكن من إعطائك الرد. لكن أعطني رقم غرفتك وسأقوم بالاتصال إذا سمعت شيئاً حول هٰذا الموضوع». إضافة إلى الأوروبيين . . كان يوجد في الفندق عدد من رعايا العالم الثالث: لاجئون من الهند، والباكستان، وبنغلادش، والفلبين. عائلات بأكملها كانت تشغل غرفة واحدة بينما أولادهم يجرون في الممرات لاهين.

كان «جيم» لا يزال في السفارة بينما تضور فريق الـ «C.N.N» من الجوع. قلت وأنا أنادي مسؤول خدمة الغرف: «دعونا نتوقف عن إعداد حقيبة التلقيم، ولا تفكروا بالأسعار . . لا توجد إمكانية للاعتماد على ما لدينا من عملات بسيطة . . ، وعندما نكلّم أتلانتا سأوضح لهم الأمر في الصباح»، وبينما نحن في انتظار السندويشات كسرت زجاجة أثناء محاولة فتحها. وقد كان الفندق خالياً من الصودا.

ظهر كلانسي حوالي الساعة الثانية والنصف . . كان متعباً ولكن يبدو عليه السرور، فقال: «لقد أعجبوا بما أرسلناه. ألا تصدق أننا أعددناه سريعاً ثانية، لقد كانوا يقومون بالاتصال تليفونياً كل ساعة، وعلى فكرة فإن «ويلسون» يشكركم على السيجار، وسوف يراك غداً. ألا نمتلك ثلجاً؟» . .

واستمر حوارنا لمدة ساعة أخرى ثم قررنا الخلود للنوم، قال جيم بينما نحن سائرون إلى غرفته: «أشعر بالارتياح مما قمنا به يا «روبرت». كنت أود أن أرى زملاءنا في واشنطن يفعلون ما نفعل نحن اليوم . . إنهم لا يفعلون شيئاً سوى شرب المرطبات الباردة الأسكيمو».

بدت الأمور مثيرة للعصبية لعدم توفر العصير في الفندق. قلت: «هل لكم بفنجان من القهوة؟» وكما وعدنا فقد حضر فايز إلى مقر عملنا بالفندق ومعه صديق آخر.

ثم قدم لنا صديقه مازن وقدمنا إليه، وقال: «سأكون أنا ومازن مرافقين لكم، وإذا لم أحضر فإن مازن سيقوم بعملي». هٰذا ما أستطيع أن أقول أنه خدمة غير قابلة للتصديق!

وسألته: «هل تعمل أيضاً مع وزارة الخارجية؟».

قال مازن وهو ينظر لي بشك وريبة: «أنا أعمل في قسم البروتوكول»، ثم واصل حديثه متسائلاً: «هل هي المرَّة الأولى التي تصل فيها إلى بغداد؟».

ـ «أنت على صواب تماماً فهي زيارتي الأولى» . . وسألته: «كم مضى عليك في العراق؟».

قال مازن: «أنا أعيش هنا ألا تعلم أنني عراقي؟».

ـ «كنت أظن أنك» . . وضحكت . . «ولكنني رجل صحفي أُحب أن أتثبت من كل شيء» .

لقد كان هناك شيء ما أثار تساؤلي في شخصية مازن، ولكن لم أضع يدي عليه بعد، ولكن إحساسي جعلني أقدر أنه شخص لطيف المعشر، وأنني سأتعامل مع شخص جيد. قاطعني فايز: «ما هو برنامجك اليوم؟» .

فرددت: «كما تعلم، تحدثنا بالأمس مع وزارة الإعلام ولذلك فإنني أود أن أقوم بجولة في بغداد، وألتقط بعض الصور ثم أجرى مقابلات مع عدد من البغداديين. كما أود أن أقابل بعض الرهائن . . الضيوف هنا في الفندق. هل سيكون ذلك ميسوراً؟» فوافق فايز ومازن.

سألني مازن: «أين تود الذهاب بالضبط في بغداد؟» . فأجبت: «اليوم الجمعة، وربما نتوقف قرب أحد الجوامع الكبيرة ونلتقط صوراً للمصلين ساعة صلاة الجمعة . . فهل لديك مكان محدد يذهب إليه الناس اليوم؟» .

ـ «هناك سوق للطيور الأليفة يقام كل جمعة . . وهو سوق قديم ومشهور» .

ـ «سوق الحيوانات . . كان «إيلان ELAINE» يصرخ في أذني: سوق للطيور ونحن في دوامة أزمة! هل ستذهب لسوق الطيور؟» .

فقلت: «متى سنتحرك؟» .

فقال فايز: «إن السيد مازن سيقابلك الساعة (١١,٣٠)، وبعد الظهر، أود معرفة شيء عن مقابلة السيد طارق عزيز» .

اتصلت تليفونياً مع «كلانسي» وأعطيته المعلومات المتوفرة وأخبرته: «أنني سأتجه إلى السفارة. وفي نفس الوقت يمكنك إجراء مقابلات مع بعض الرهائن» . ثم أعطيته رقم غرفة الطبيب السويسري وقلت: «سأقابلك في وقت لاحق» .

ثم ناديت على سيارة تاكسي. وسألني السائق: «إلى أين الذهاب؟» .

قلت للسائق السمين: «من فضلك للسفارة الأمريكية؟ أرى أنك تتحدث اللغة الإنجليزية . . ما إسمك يا صديقي؟» .

فردّ: «أنا جاسم، سأتقاضى منك أجراً مناسباً» .

وفي طريقنا للسفارة الأمريكية أعطاني جاسم المجال للحديث معه فقال: «أستطيع أن آخذك إلى أي مكان في بغداد، إلى الحدود الأردنية . . إلى الحدود الإيرانية . . إنني سائق ماهر، وتستطيع . أن تحادثني تليفونياً في البيت» . ثم أعطاني بطاقته، وقال: «لديّ سيارة أخرى خاصة، ليست تاكسي أجرة. إنها سيارة ممتازة وبها مكيف للهواء، إذا أردت فأنا جاهز» .

فرددت: «دعني أفكر في الأمر، كم ستتقاضى لذلك؟».

فقال: «أنت تدفع بالدولار أليس كذلك . . سأتقاضى مائة وخمسون دولاراً وسأبقى معك طيلة النهار والليل، وعندما تحتاجني فأنا موجود هنا أقف بجانب الفندق، أعتقد أنه أجر مناسب».

فعرضت عليه مائة دولار الأجرة المعتادة.

لكنه قال: «إن مائة دولار مبلغ قليل وهي تعادل (٣٥) ديناراً عراقياً. ولو استخدمت سيارة الفندق فإنك ستدفع (٢٥) ديناراً في كل مرَّة لمشوار أقل من هذا. وإذا ما دفعت لي مبلغ (١٥٠) دولار فأنا على استعداد لأن آخذك لأي جهة تريدها. تجدني موجوداً هنا طيلة اليوم نهاراً وليلاً» . .

أكمل جاسم حديثه: «سنكون في السفارة خلال خمس دقائق، وكما ترى فأنا سائق ماهر».

قلت له: «يا سيد جاسم أنت تعرض صفقة عليّ . . انتظرني أمام السفارة ولن أتأخر عنك».

كان مجمع السفارة مكوناً من مبنيين رئيسيين: القسم الأول يضم مقر السفير، والآخر يضم مكتب الاستعلامات. وهناك فاصل بين المبنيين. كان هناك عدد قليل من الدبلوماسيين الأمريكيين الباقين في السفارة. حتى وحدة الحراسة البحرية الأمريكية غادرت بغداد، ويوجد عدد قليل من الحراس العراقيين أمام مجمع السفارة. ولكن المبنى الذي يضم مقر السفير كان مفتوحاً وخالياً من الموظفين. واصلت طريقي نحو الطابق الأرضي ومررت من أمام (٣) أكياس بلاستيكية ضخمة تحتوي على وثائق ممزقة، كانت السفارة تمر بمرحلة «إقرأ واحرق». ثم صعدت السلالم وقدُّمت نفسي إلى سكرتيرة السفير وسألت عن القائم بالأعمال.

كان «جوزيف شارلز ويلسون» الرابع نائب رئيس البعثة الدبلوماسية في بغداد بعد سفر السفيرة «أبريل جلاسبي» التي تم استدعاؤها للاستشارة يوم ٣٠/تموز. وقد سبق له العمل في برازفيل، وبورندي، وجنوب أفريقيا حيث كان يعمل كمدير إداري. يواجه الدبلوماسي البالغ من العمر (٤٢) عاماً تحدّياً خطيراً. كان «ويلسون» هو رجل أمريكا المكلف بالتفاوض حول مصير وإطلاق سراح مئات إن لم يكن الآف الأمريكيين المحتجزين في العراق والكويت . . بدأ عليه الإجهاد حيث لم يذق طعم النوم منذ ثلاثين ساعة.

استقبلني في المكتب الخاص بالسفير وقدّم نفسه: ««جو ويلسون»، على أية حال فأنا آسف، ولم يكن لدي وقت هذا الصباح، فقد كنا نحضر مجموعة من الدبلوماسيين والرعايا الأمريكيين من سفارتنا في الكويت».

فسألته: «كم يبلغ عددهم؟».

أجاب: «أكثر من مائة بقليل، ونسعى لإخراجهم».

فقلت: «هل سيسمح لهم بمغادرة بغداد؟» . .

فأجاب: «نعم هٰذا ما أعلمتنى به وزارة الخارجية، ولكنك لا تستطيع أن تعول على شيء هنا قبل أن يُصبح أمراً واقعاً».

سألته: «ما آخر الأخبار التي سمعتها عن الوضع في الكويت؟».

فأجاب: «كما تعلم فإن العراق أمر جميع السفارات بالتوقف عن أنشطتها الدبلوماسية بحلول منتصف الليلة، وهددوا بقطع الكهرباء والماء. ولدينا معلومات بأن الدبلوماسيين الذين يبقون هناك في الكويت سيفقدون حصانتهم الدبلوماسية».

فقلت له: «لكننا سنبقى سفارتنا هناك مفتوحة».

فأجاب: «بالتأكيد سيبقى السفير «هاويل HOWELL» مع عدد قليل من الموظفين».

ثم قلت له: «إنني أعلم أن الدبابات العراقية ستحيط ببعض السفارات هناك.. فلو قام العراقيون بدخول سفارتنا بالقوة ماذا سيحدث؟».

أجاب جو: «ذلك لم يقرره الرئيس، ولكن لو سألتني فأنا أعتقد أن ذلك يؤدي إلى الحرب».

ثم قال: «يمكنك الاستفادة من المعلومات التي أعطيك إياها لكن قدّم لي معروفاً وانسبها إلى (مصادر غربية) فلا أود في هٰذه المرحلة أن يَرد ذِكر لي».

ثم سألته: «وماذا عن مصير الدبلوماسيين الغربيين؟.. إن ذلك يكسو العظم مزيداً من اللحم».

كان «ويلسون» مشغولاً وشعرت بأن عليّ أن أطوى أوراقي ثم سألت: «هل يمكن استخدام الهاتف من هنا؟».

فأجاب: «نعم، ولقد أخبرت «كلانسي» بذلك وسنقدم الإمكانيات إلى الـ«C.N.N» كما قدمناها إلى «C.B.C» و«A.B.C»، سأواصل عملي في الصالة ويمكنك استخدام تليفون المكتب، ولدينا بعض التليفونات في مكتب الاستعلامات الأمريكي. وبإمكانك إجراء وتسجيل المكالمات، وسنرسل لك الفاتورة في وقت لاحق. لا يُسمح بالتصوير داخل مبنى السفارة وبالطبع هنا وكذلك في محل سكن السفير. سأعطيك رقم هاتف المنزل، لكن رجاء لا تتصل بي إلا في الحالات الطارئة. إنني مشغول لمدة عشرين ساعة في اليوم ووقتي في البيت ثمين جداً».

قلت له: «لك ذلك»..

ثم قدمت له السيجار. فضحك ويلسون وقال: «لقد دخّنت بالأمس واحدة مع كاس من البيرة الباردة».

ذهب «جو» لمتابعة عمله، وبدأت أحاول الاتصال مع أتلانتا، وبدأ الأمر سريالياً غير قابل للتصديق، حيث وجدت نفسي أجلس على مكتب السفير الفخم المصنوع من خشب الماهوجني

وخلفي علما الولايات المتحدة ووزارة الخارجية. ثم دوّنت ملاحظة بضرورة أخذ صورة يوماً ما. ثم تقدّمت نحو مكتب الاستعلامات الأمريكي لمقابلة «ستيف ثايبولت Thibault » والذي يحمل لقب مساعد الملحق الصحفي. ولكن نظراً لعدم وجود صحافة يتحدث إليها وبغياب متطلبات العناية والتلقيم والبث فقد أشغل وقته بتقديم الخدمات القنصلية إلى الرعايا الأمريكيين ومن بينهم الرهائن. وقبل أن يلتحق بالقسم الأجنبي، عمل في المكتبة العامة بمدينة بوسطن وهو يجيد اللغة العربية. وكان أيضاً يتطلع للعمل في الشرق الأوسط. كان «ستيف» يتميز بالدماثة وحب المساعدة، ولكننى اكتشفت سريعاً أن فن الدبلوماسية ليست من مزاياه».

«هٰذه الحكومة حقيرة» . . أجاب عندما سألته أن يوجز الموقف . .

«وإذا ما ساءت الأمور فإننا سوف نضرب «كلام قبيح». إنهم يظنون أنها لعبة كبيرة . . لكننا لسنا هنا لنلعب» . . هٰذا ما قاله ستيف.

ثم سألته: «كيف تسير الأمور هنا؟ هل العقوبات الاقتصادية بدأت تؤذيهم؟».

فأجاب: «نعم، لقد بدأوا يشعرون بوطأتها . . تضاعفت الأسعار في كثير من المحلات، ونفذ الدجاج والأرز من الأسواق. لا يوجد تموين من المعلبات الغذائية إلا لشهرين. نفذت المشروبات والمرطبات من بعض الفنادق. سمعت بأن المياه المعدنية أيضاً أصبحت نادرة، إنهم لا يفهمون بأن الأمور ستزداد سوءاً. كل يوم نشاهد المظاهرات المؤثرة تسير أمام السفارة . . أقصد أنها مثيرة للضحك . . ففي الأسبوع الماضي أرسلوا إلينا من أسموهم بالشعراء والكتاب، وبالأمس حضر حوالي مائة طفل تتراوح أعمارهم بين الخامسة والسادسة؟

إني في عجب من أمرهم . . ماذا يفهم هؤلاء الأطفال؟ وكما تعلم يقفون في الخارج ويهتفون: يسقط . . يسقط «بوش» . . يسقط . . يسقط «بوش» . . وكأن ذلك سيؤدي إلى أن نغير موقفنا، فنحن جادون في الأمر . . عليهم الخروج من الكويت وعليهم إطلاق سراح الرهائن».

سألته: «كم يبلغ عدد الأمريكيين الذين نتحدث عنهم؟».

فأجاب: «نحن نقدّر عددهم في العراق بـ ستمائة وفي الكويت بـ مائتين وخمسين أمريكياً».

ثم سألته: «كم يبلغ عدد الأمريكيين المحتجزين في أماكن استراتيجية حسّاسة؟».

فردَّ: «يُقدَّر عددهم بواحد وأربعين. تم إحضار معظمهم من الكويت خلال الأسبوع الأول من شهر آب ونقلوا إلى فندق المنصور. بعد ذلك اختفوا».

وسألته: ««ستيف» . . أعرف أن بعض الأمريكيين لجأوا إلى أماكن دبلوماسية، وإذا كان من الممكن فإنني أود إجراء بعض المقابلات معهم».

فأجاب: «حسناً، يعود الأمر لهم. فقد كانت لهم تجربة مريرة مع وكالة «C.B.C » ـ وعادت

عليهم بالأذى، لكن دعني أبحث الأمر ثانية. فلماذا لا تحادثني بعد الظهر».

سألته: «ماذا حدث مع وكالة «C.B.C»؟».

قال ستيف: «عندما كان «راذر» هنا . . قال العاملون معه إنه يمكنهم حمل أشرطة فيديو من الرهائن إلى ذويهم في الخارج، ووافق بعض الرهائن على ذلك. لكن الصور عرضت في نشرة أخبار المساء، فأحسوا أنهم استغلوا في الأمر».

سألت: «أين كنت في ذلك الوقت؟ ما الذي حدث حقيقة؟».

أجابني: «كنت هناك. هٰذا ما حصل. ولكن لا أعرف بالتأكيد المهم أنه ترك طعماً مراً في فم كل واحد منهم».

ثم قلت: «حسناً . . دعنا نفكرّ بما تستطيع أن تفعله . . نحن بحاجة لنتحدث لهؤلاء الناس وسوف نحضر بدون آلات تصوير، وسيقتصر الأمر على تسجيل الحوار محادثة».

وافق «ثايبولت Thibault ، وشكرته على الوقت الذي خصصه لي. ثم قال: «أظن أن «جونز» أخبرك بأن الاتصالات التليفونية من هنا ممكنة دائماً. وأن باب مكتب المعلومات دائماً مغلق وعليك أن تضغط الأرقام ١، ٣، وبعدها تحرك يد الباب لينفتح.

أثناء العودة مررنا بمنطقة الكرادة، حيث محلات البقالة الصغيرة، وكثير منها يعمل فيها هنود، وتبدو مليئة بالبضائع والواجهات بها تعرض المشروبات المستوردة والبيرة، وقد تم ترتيبها بصورة فنية على شكل الهرم . . وبين كل مجموعة من التجمعات السكنية تشاهد صفاً صغيراً لشراء الخبز . . لكن الناس الذين ينتظرون كانوا في انتظام وصبر. لم يكن ما يوحي بالمعاناة. وبالقرب من ميدان علي بابا حيث النافورة الرائعة التي صمّمها محمد غني، والتي استلهمها من ليالي ألف ليلة وليلة.

تمكن «جيم» ومن معه من مقابلة بعض الرهائن البريطانيين، لكن الأمر لم يكن سهلاً، وكثير منهم كان خائفاً من إعادة تصويرهم والاهتمام بهم وأبدوا ملاحظات ممزوجة بالعصبية. جذبت مقابض الصوت، بينما ذهب «كلانسي» إلى السفارة من أجل تدبير بث رسالة حية. حوالي الظهر قدم إلينا في مقرنا فايز ومازن. وبدأ على فايز الاهتمام حين رأى أننا لسنا مستعدين بالنسبة لحلقات الأشرطة، كما أن «جيم» ذهب ثانية إلى السفارة. سأل فايز: «لماذا تذهبون كل هٰذا الوقت للسفارة الأمريكية؟» بدأ الأمر أكثر من مجرد تخويف ثم قال: «هل تعملون سوياً هنا؟» وعلى الفور استنتجت أن ملاحظته محسوبة بدقة إن لم تكن تهديداً مبطّناً. وعلى أي حال سبق للعراق أن شنق صحفياً بريطانياً بعد إدانته بالتجسس . . نحن نفضّل أن نعرف حقيقة العمل وأحسن سياسة هو أن يكون الشخص مستقيماً وصريحاً.

فقلت له: «ربما تعلم أنه توجد خطوط للهاتف في السفارة ومنها يمكننا محادثة الولايات المتحدة، كما أننا نحصل على تقارير موجزة من الموظفين هناك. إن هٰذه الأزمة ـ وأنا متأكد أنك تعرف ذلك هي كشارع باتجاهين . . ونحن يهمنا معرفة رأي حكومتنا وحكومتكم».

قال فايز بحدة: «إن هٰذه الأزمة ستكشف لكم أن حكومتكم ليست بهٰذه القوة التي تظنونها». وسأل: «لماذا تساعدون الشيوخ الفاسدين؟» إنهم لم يفعلوا شيئاً لشعوبهم، إنكم لا تهتمون إلا بالنفط».

فقلت له: «مع كل احترامي أنا هنا لست لأقرر سياسة خارجية، ولكن يجب عليّ أن أخبرك أنه في حال قيام الدبابات العراقية مهاجمة السفارة الأمريكية في الكويت فإن الأزمة ستتسع وتتفاقم وأن ذلك سيعود علينا جميعاً بالضرر، ولكن في نفس الوقت ـ وقد لاحظت أن «جيم» عاد ـ لماذا لا نصوّر في الشارع؟».

أشار جاسم إلى تاكسي آخر ثم اتجهنا إلى شارع السعدون، وهو من الشوارع الرئيسة في بغداد . . وكان يعج بالمشترين والمتفرجين ومن بينهم جنود. وقال فايز: «تصوير الجنود ممنوع».

بينما كان «مارك» يلف الشريط خارج إحدى محلات الموسيقى حيث تصدر موسيقى طبيعية تصلح بداية للتقرير، كنت أبحث عن أناس أقابلهم ومن الأفضل ممن يتحدثون باللغة الإنجليزية، في المحلات والمطاعم كانت الإجابات محددة بوضوح، قال الناس لـ «كلانس»: «نحن لا نرغب في الحرب، لكن إذا فُرضت علينا الحرب فنحن مستعدون لها، فلا معنى للتباهي أو الاستسلام والتراخي، لقد تحملنا حرباً مع إيران مدتها ثماني سنوات، وكانت حرباً مخيفة فقد سقطت الصواريخ على بغداد، وسنقوم بهٰذه الحرب مرة ثانية إذا تطلب الأمر ذلك».

قال أحد الرجال: «نحن جميعاً نكن الإعجاب والإخلاص لصدام حسين . . إنه البطل الذي يقف دفاعاً عن حقوق العرب». كان مازن وفايز متواجدين في كل مقابلة، ويقومان بتنظيم حركة الجمهور حولنا . . فأينما سرنا تجمع الناس خلفنا.

ومن شارع السعدون اتجهنا إلى جامع الإمام الأعظمي لندرك صلاة الجمعة قبل انقضائها. وفي ميدان صغير بالقرب من الجامع أجرينا مقابلة مع بائع فواكه، ولا أعلم هل هو بسبب الخوف أو التجاهل، كان الرجل ينظر إلى فايز عند إجابته على كل سؤال. برغم إنّه يعبّر عن إخلاصه لصدام. إن إجاباته سوف تترك في غرفة التقطيع.

كان الجو حاراً بصورة قاتلة عندما اتجهنا إلى سوق الطيور، وكان جاسم يحتفظ بماء بارد في براد ملأه بالمياه المعدنية والمرطبات. لكن الحرارة تجاوزت درجتها المائة ولذلك كنت أحس بالجفاف. وفي زيارة ثانية للسوق بعد عدة أسابيع اقترح أحد المرافقين عليّ شراء طائرين من طيور

الببغاء ووضعهما في السيارة بينما يقوم باقي طاقمنا بالتصوير. وعندما رجع كانت الطيور قد نامت، لم يكن سوق الطيور شيئاً مثيراً: طيور وسمك وأرانب ودجاج وكلاب وديوك. لكن أحسن ما يمكن شراءه وتقديمه كهدية هي الأقفاص الخشبية المصنوعة باليد، وبعضها مصنوع من الصفيح أو أعواد الخيزران، ويجذب السوق الأطفال كما تجذبهم آلة تصويرنا. كان «مارك» مثل نافخ البوق عندما كان الأطفال يصيحون ويتراكضون أمام عدسة الكاميرا. لم يكن من الممكن التقاط صورة جيدة. قام فايز ومازن بدور رجال المرور لإفساح المجال أمامنا لكنهما كمن يسبح ضد التيار، فما أن يبعدا مجموعة معينة حتى تندفع وتحل محلها مجموعة أخرى. وفر السوق لنا الحصول على عنصر مثير بتسجيل الأصوات التي يمكن استغلالها حين تقديم تصوير «كلانسي».

قال لي إيسون عندما حادثته من السفارة: ««رولي» سيصل الليلة»، ثم تساءل: «هل بقي لنا وقت لمقابلة عزيز؟».

أجبته: «لا، لم يحن الوقت»، ثم سألت: «ما آخر أخبارك؟».

- «الموقف، ثابت على حاله أمام السفارات في الكويت بعد وقوف الدبابات العراقية أمامها، ويبدو أن مجلس الأمن سيصدر قراراً يخول استخدام القوة لتنفيذ الحصار البحري على العراق».

ثم سألت مرة ثانية: «هل لا يزال الشعور بنشوب الحرب أمراً غير مستبعد؟».

قال إيسون: «أنا خائف.. هناك نقطة أخرى. سمعت أن «كورت فالدهايم» سيتجه إلى بغداد وسيقابل صدام حسين. ويبدو أنه يسعى لإطلاق سراح مجموعة من النمساويين. فهل نستطيع الوصول بآلة تصوير إلى هناك وتصوير اللقاء.. ونطرح بعض الأسئلة على صدام حسين؟».

ركضت سريعاً لمراقبة أجهزة «كلانسي» لأنه كان لدي معلومات سابقة بأن الشريط قد ينزلق من مجراه عندما ينقل معلومات من وجه لآخر، وأردت أن احتفظ بما قاله «إيسون».

ثم سأل: «ماذا عن الرهائن الأمريكان؟ نحن حقيقة بحاجة إلى أن نسمع منك».

قلت له: «أرجو لك حظاً جيداً، وأعتقد أنك تودُّ أن يبث «كلانسي» رسالة حيّة الليلة، سيتم ذلك قدر الإمكان».

- «مؤكد رأيك.. حظاً سعيداً».

«كانت رحلة شاقة كأنها الجحيم».. هٰذا ما قاله «رولي Rollie» ضاحكاً عندما بدأ يفك امتعته. «ولسبب ما، لم أتوقع أن تكون الطائرة مزدحمة - ولكنها امتلأت إلى أقصى طاقتها». لم يُطل «إيفانز» في الحديث، كما كنت في حالة عدم في الحديث. مقابلة عزيز، معدات «كلانسي»

رسالة البث هنا الليلة، تحديد وضع الرهائن الأمريكان، زيارة «فالدهايم» - هموم شبكة التلفزيون ألقيت على كاهلي ثانية.

قال إيفـانز: «أود إجراء مقابلة عزيز ثم المغادرة حالاً، حيث لا أحتمل أن أكون بعيداً عن واشنطن لفترة طويلة، واشترك مع رفيق لي في كتابة عمود، وليس لدي فكرة عن المدة التي أبقاها هنا، في هٰذه اللحظة». لقد أحضرت «رولي» في اليوم المناسب لتطور الأحداث.

وقال بعد تفكير عميق: «إن إدارة الرئيس «بوش» على استعداد للموت على رمال السعودية، إنها خطوة جريئة ولكنها لعبة خطرة .. ماذا تظن؟».

فأجبت: «حتى أكون صادقاً يا «رولي» بعد أن أمضيت سنتين في فيتنام، ليست لدى ثقة كبيرة في الجيش الأمريكي، أنظر إلى ما حدث في بنما. لقد كانت نصف خسائرنا نتيجة إطلاق قواتنا النار على بعضها. ربما يكون أداء سلاح الطيران أفضل، إن الأمر كله تحول إلى جهنم، ولم يعد أمام القوات شيء تستطيع فعله. لكني لست متفائلا. وإذا ما نشبت الحرب فإننا سنضرب على قفانا».

فقال لي: «إن فيتنام تعتبر جنة بالنسبة للسعودية التي لم أشاهد مثلها سابقاً، فأنت لا تستطيع الشرب، ولا توجد نساء، ولا نواد ليلية. حتى لو كسبنا ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ هل سيضع «بوش» (٤٠) ألف جندي أمريكي في العراق بصفة دائمة .. إنني لست مقتنعاً أنه سيمضي قدماً في الأمر».

قلت له: «دعني أخدمك .. لعلك سمعت الكثير مما يقال حول السياسة المزدوجة أو الكيْل بمعيارين فيما يتعلق بإسرائيل .. والحقيقة أن العرب أمسكوا بالنهاية القصيرة للعصا، فإن الكلمة التي تتردد في الشوارع وتثيرهم هي «الكرامة»، ويؤمن كثير من العرب بأن صدام هو الذي يحقق لهم ذلك».

قال رولي: «أوافقك الرأي، هناك معياران لسياستنا. ولكن هٰذا لا صلة له بالكرامة والسيادة، أو حقوق الإنسان أو القانون الدولي. لو قامت الكاميرون بغزو الجابون، هل تعتقد أننا سنرسل مئات الألوف من الجنود للدفاع عن السيادة الإقليمية للجابون؟ إن الأمر يكمن في النفط والمصالح الاستراتيجية».

كان «رولي» بحاجة إلى أن يغفو لفترة قصيرة قبل أن يزور نزار حمدون وكيل وزير الخارجية. كان حمدون يوماً ما سفيراً للعراق في واشنطن، ولذلك نشأت بين الأثنين صداقة قديمة. مشيت إلى الصالة لرؤية «كلانسي Clancy» ومراجعة نص رسالته، وقام مازن بالترجمة أثناء مشاهدة نشرة الأخبار المحلية في التلفزيون.

تبدأ النشرة كما هو معلوم دائماً بالتحية إلى الرجل الأول: صدام حسين مبتسماً وهو يستقبل مؤيديه المتحمسين. كان الرئيس يرتدي الملابس العسكرية بزي المهيب أو «الفيلد مارشارل»، حيث يعكس مظاهر القوة وهو يستعرض عرضاً عسكرياً يتضمن الدبابات والصواريخ البالستيكية على طريق معرض بغداد، بعد لحظات بدأت الموسيقى وتغيرت النغمة عندما ظهر صدام وهو يلبس بدلة بيضاء وحوله مئات من أطفال المدارس ينشدون ويلتفون حوله.

قال مازن: «إنه يوم ميلاد السيد الرئيس صدام حسين». ظهر المشهد الثالث لصدام أثناء زيارته لمكة المكرمة . . حيث فريق من التابعين يلبسون الملابس الفضفاضة التي تبدو وكأنها مفارش أسرة النوم حيث قاموا بالطواف حول الكعبة . . لعلها المرة الأخيرة التي سيرى فيها السعودية في الفترة القادمة. بعد ذلك بدأت الأخبار.

أغلقت عدة دول سفاراتها في الكويت وهي: الأردن، سويسرا والفلبين. قالت وكالة الأنباء العراقية بأن عائلات الدبلوماسيين التي بقيت مفتوحة في الكويت سوف يسمح لها بمغادرة البلاد، وأما الموظفون الذكور فلن يسمح لهم، حتى تغلق دولهم بعثاتها الدبلوماسية في الكويت. انتهت النشرة بإعادة لقاء صدام مع الرهائن البريطانيين الذي عرض في الليلة السابقة.

قال جيم: «أريد معلومات من الكويت . . هل تعلم ماذا يوجد لديهم؟».

قلت: «بالطبع يوجد في السفارة الأمريكية هناك، يمكن أن نكتب لهم عن ذلك».

بينما كان جيم يواصل الكتابة، اتصلت بغرفة الخدمة وطلبت من مازن أن يلحق بي هناك، فوافق لكن سألني: «مستر «روبرت» لماذا لا تنزل إلى البوفيه أفضل وتأكل هناك؟ إنه ليس مناسباً لك أن تجعل طعامك دائماً ساندويشات». فشرحت له الأمر، أنني مرتبط بمكالمات سأجريها وخطط وبرامج عليّ تنفيذها. وأخبرته عن زيارة «فالدهايم» ثم سألت هل توجد إمكانية لتصوير اللقاء.

فردَّ: «إن ذلك لا أستطيع تقريره . . إنه بأمر السيد الرئيس».

وسألته: «حسناً. كيف يمكن الاتصال بديوان الرئاسة؟».

فضحك وقال: «لا يمكنك الاتصال بالسيد الرئيس. من تظن نفسك؟ إن مستر «إيفانز» سيقابل السيد طارق عزيز، والآن أنت تريد مقابلة السيد الرئيس؟ ما الأمر هل تتصور أن الـ «C.N.N» بإمكانها مقابلة جميع أركان الحكومة؟ إن أعضاء الحكومة مشغولون كما تعلم».

قلت: «أنظر يا مازن . . إنني لا أعتقد أنه طلب غير معقول. إنني متأكد أنك لو كنت في واشنطن فإن الرئيس الأمريكي والإدارة سوف تغير من برنامجها».

ضحك مازن وقال: «أمجنون أنت هل تعتقد أن «بووش» يرغب في مقابلة مازن».

قلت له: «إنه «بوش Bush » وليس «بووش Boosh » .

قال مازن: «أعرف اسمه، أتعلم ما معنى «بووش» بالعربية إنها تعنى لا شيء». وضحك مازن بصوت عالٍ، وقال: «إنه الرئيس لا شيء».

ـ «حسناً، سأكون أنا (المنتج لا شيء) إذا لم أحضر لقاء «فالدهايم» ـ هل أنت متأكد أنك لا تستطيع فعل شيء».

ـ «حسناً» . . ثم نهض وتركني قائلاً: «سأجري مكالمة تليفونية وأبذل جهدي».

أصبح شيئاً روتينياً: حيث فتش «جيم» عن أدواته ثم أخذ سيارة تاكسي للسفارة، وبقيت لأساعد في كتابة وتجهيز الشريط. كانت الحرارة شديدة الوطأة على كل منّا، خاصة باقي الفريق الذين يحملون الأجهزة. «مارك» و «تري» كانا كالجنود وقررت أن «تري» لم يكن مرتاحاً.

سألته: «ماذا هناك؟».

فقال برقة: «إن الأمر يتعلق بهذا المكان . . ببساطة أنا لا أحب هؤلاء المرعبين الموجودين في الصالون إنهم يسببون لي الهلع والخوف . . كم ستطول إقامتنا هنا».

فقلت: «ليس لدي علم . . ربما فترة بسيطة ولكن دعنا نناقش الأمر، سوف نتم مقابلة عزيز ثم نستمع إليها».

وتمتم قائلاً: «أسكت».

لم يتغير النظام والروتين في مبنى التلفزيون. ومرّة أخرى عُرضنا على جهاز الحراسة والأمن للتدقيق في أجهزة البث. كانت السيدة عواطف في غرفة المراقبة الرئيسة أفضل الجميع، وعندما سمعت صوتها على التليفون شكرتها، وحمدت الله على هٰذه النّعم الصغيرة.

قالت لي وهي تصافح يدي: «أشكرك مستر «روبرت»، كما ترى فإن كل شيء جاهز للبث». وبينما كان فريق العمال يثبت الأجهزة، قامت السيدة عواطف بعرض تقرير «كلانسي» على الشاشة.

قالت: «هٰذا . . لا، عندما رأت منظراً لرجل يأكل الساندويش، هٰذه الصورة لا يمكن إرسالها».

كنت كالمصعوق . . فقد التقط «مارك» الصورة أثناء وجودنا في سوق الحيوانات لبائع أطعمة مع أحد الزبائن، وسألت: «ما المشكلة؟» لكن عواطف رفعت يدها.

وقالت: «لا . . ليس هٰذه». فطلبت تفسيراً للأمر ولكنها لم تجبنى شيئاً.

ثم قدمت لي الهاتف وقالت يمكنك استعماله لمحادثة عَمان، عندما بدأ «جيم» بث

الشـريط. . في الهواء، وبدأت عواطف تأخذ مكانها أمام جهاز الفيديو. وعندما ظهرت الصورة الممنوعة سحبت فجأة السلك مما أحال الصورة إلى مجرد تشويش ثم أعادت الفيشة (السلك) ثانية لإعادة تشغيل الفيديو. قمنا بتلقيم القصة كاملة مرتين، ثم للمرة الثالثة، من أجل أن يكون الصوت طبيعياً، لأن عواطف كانت تفرض رقابتها في كل مرة ترى فيها الرجل والساندويش. وأخيراً جاءنا من عَمان: «وداعاً وتصبحون على خير». وكنت على ثقة أنهم كانوا في حيرة من أمرهم مثلنا. ثم قررنا أن نترك الشريط المسجل في مبنى التلفزيون، فإن ذلك سيوفّر وقتنا وكذلك يوفّر لنا الأمان والراحة من هٰذا الأمر المتعب.

عاد «رولي» إلى الفندق في نفس الوقت الذي عدنا فيه. وقد تناول طعامه مع حمدون، ثم طلب الحديث على انفراد. من خلال ما جمعت من معلومات يبدو أن هناك خلافاً في الرأي بين الوزراء؛ إن وزير الخارجية يريد التقدم خطوة ويبدو ميالاً لتسوية، بينما يتخذ وزير الإعلام موقفاً متشدداً. وأثناء حديثي مع نزار وعدني بأنه سيوفر لنا الحماية في حال نشوب الحرب . . ولكن لا أعرف كيف ستمضي مثل هٰذه الضمانات. سألته: «ماذا قال بالنسبة لعزيز؟».

- «قال نزار إن علينا الاتصال به غداً بعد الظهر، ولكنه يشك في إمكانية حدوث المقابلة قبل يوم الأحد».

ثم سألني رولي: «هل يوجد شخص يمكن أن يصحبنا في جولة حول المدينة في الصباح؟ إننى إريد أن أمشي في الشوارع، وأشم رائحة الأشياء، ولعلك عرفت ماذا أقصد».

إنني أحب «رولي» فلم يكن بالضرورة فظاً أمثال غيره من المعلقين، ولكنه لا يتفق مع الآخرين الذين حققوا الشهرة، فقد كان مذهبه أن يحس ويندمج في قصته وتقاريره. وذلك يتطلب أن يمهد الطريق. فقلت له: «إنني أتفقت مع مازن على الحضور بعد الإفطار».

رن جرس الهاتف عندما كنت أمام الغرفة رقم (٥٠١). كانت المتحدثة هي «سو تنيسون Sue Tinson» منتجـة بـرامج فـي تلفـزيـون لنـدن المستقـل. وقـد كـان هنـاك اتفـاق لتبـادل البـرامـج مـع الـ «C.N.N». وغالباً ما كنّا نتبادل البرامج ومنها تقارير المراسلين التي نتلقاها. وصلت «سو» بعد الظهر وأمضت ما تبقى لها من وقت مع السفير البريطاني، فقمت وإياها بمقارنة التقارير ومنها ما أوجزته الإدارة الأمريكية.

قالت: «إن سفارتنا تعطي الأولوية الأولى لإطلاق الرهائن، ويبدو أن العراقيين يريدون أن يقوم «بوش» و «تاتشر» بمبادرة تدل على الميل للتسوية وذلك عن طريق السماح بوصول الأغذية والأدوية إلى العراق، مقابل ذلك فستكون هناك خطوة عراقية».

سألتها: «هل قابلت أحداً من الرهائن البريطانيين؟».

فأجابت: «سنقوم بذلك في الصباح. ويوجد عدد منهم يقيمون على أرض السفارة، ماذا بالنسبة لك؟».

قلت: «نحن نعمل في نفس المجال ولم أوفق في عمل شيء».

قالت سو: «لقد شاهدت تقريرك عن الرهائن بالأمس باستخدام الإمكانيات العراقية وهو شيء جيد، دعنا على اتصال».

طلبت موافاتي بثلج أثناء انتظاري «كلانسي»، كان يوماً طويلاً ولكنه مُرْضٍ، كنت سعيداً بتقرير «جيم» سواء المحتوى أو الكتابة، وضحكت في نفسي عندما استعدت تعليقات فايز وملاحظاته عندما بدأ «مارك» يصوّر اللوحات التي رُسم عليها صدام حسين، ولقد سأل: «لماذا يهتم متابعو الأخبار بلوحات الرئيس؟ أليس هٰذا أمر غير عادي؟»، سيكون الحكم الليلة هم المشاهدين، فإن لم تكن بغداد غير عادية، فماذا تكون إذن؟ وسبق أن تعرضت مادتي للرقابة، ولكنها المرة الأولى بسبب ساندويتش «إنه شيء سيء».

٣

صاح فايز وهو يرفع إصبعه في وجهي: «قرار الأمم المتحدة، قرار ظالم. لو قمتم بالعدوان علينا سوف نعيد عشرات الألوف من جنودكم في أكفانهم».

قلت مازحاً: «من فضلك أعطني مهلة، لم أتناول فنجان قهوتي بعد». لكن فايز كان يرغي ويزبد وعصبي المزاج.

ثم صرخ فايز: «سوف ترون لن تركعُونا على أقدامنا».

قاطعته قائلاً: «من فضلك، أنا لم أصدر القرار. لا توجد نقطة واحدة تربطني بهذا القرار، فقدّم رأيك إلى مجلس الأمن».

كنت أكلّم فايز وأنا منكب برأسي على مكتبي، بينما منظر فايز الجانبي لا يشجّع على العمل. ثم طلبت عصيراً، لكن تذكّرت فيما بعد أن الفندق خالٍ من العصير. كانت الساعة السابعة والنصف، بينما «جيم» وطاقم الفريق لا يزالون نائمين.

وحتى أغيّر الموضوع سألت فايز: «متى سيحضر مازن؟ لأنني أود أن يرافق مستر «إيفانز» في جولته داخل بغداد».

فقال: «سيكون هنا في وقت مبكر، ما هو برنامجك اليوم؟» وأخبرني فايز أننا سنقوم بالتقاط بعض الصور داخل السوق. واحتفظت بنيتي لتصوير الرهائن الأمريكين بيني وبين نفسي. لقد كان لدي شعور إن فتح الموضوع سوف يكون كمن يفرك الملح في الجرح. واتفقنا على أن نلتقي خلال ساعتين، هٰذا ما كنت آمله.

لم أشعر بالارتياح لأمرين:

الأول: هو قيام الدبابات العراقية بمحاصرة السفارات في الكويت.

والثاني: صدور قرار مجلس الأمن بفرض الحظر البحري على العراق. ثم وضعت ملاحظات لإيقاظ فريق العمل وخرجت إلى السفارة.

في مبنى السفارة كانت الأمور تدعو للتفاؤل. فقد وصلت القافلة التي تحمل الدبلوماسيين الأمريكيين والرعايا من الكويت منذ ساعة مبكرة. وأوقفوا سياراتهم متلاصقة: الدعامة في الدعامة، سيارات صالـون وجيب وبـاصـات مليئة بالحقائب والصناديق ومبردات الماء وحقائب القماش وأقفاص الطيور وبعض الحيوانات. كانوا يتسكّعون بين مقر السفارة ومكتب المعلومات، ويقف معهم «ستيف ثايبولت Thibault» الذي قال لي: «إنه ظرف سيء لنا، نحن نحاول إعادة هؤلاء الناس إلى بلادهم».

سألته: «كم عددهم؟».

فأجاب: «حوالي (١٠٨)».

وسألته: «هل سيتجهون إلى عَمان؟».

فقال: «أو إلى الحدود التركية».

فقلت له: «أعلم أنك متعب ولكن ماذا عن الأشخاص الذي يتواجدون في منزل السفير؟ إنني متضايق من البيت».

وقال ثايبولت: «نحاول إخراجهم ظهر هٰذا اليوم. ولكن كما قلت لك فإن أمر مقابلتهم يعود لهم».

قرأت أتلانتا البرقيات أثناء مكالمة الصباح، فيما يتعلق بقرار مجلس الأمن رقم (٦٦٥) الذي يعـطي قوات التحـالف السلطة لاعتـراض وتفتيش السفن المتجهة إلى العراق والكويت بأغلبية (١٣ : صفر) وامتنعت كوبا واليمن عن التصويت. كان «كورت فالدهايم» في طريقة إلى بغداد، وظلت بغداد على موقفها الذي يقول بأن الدبلوماسيين في الكويت فقدوا حصانتهم الدبلوماسية.

سأل إيسون عندما التقط سماعة الهاتف: «كيف ستسير الأمور؟»، ثم أخبرته عما رواه فايز عن الأكفان، فضحك بصوت كالضبع. وقد كنت متأكداً لو أنني شهدت نهايته فإنني سأجد نفسي

مثيراً للمشاكل وأن إعادة رواية الحديث الصغير تجعلني محاطاً بالأربطة والضمادات.

ـ «كما تعلم يا «إيسون»، والتلقيم لبث المادة المسجلة تتطلب أكثر من اثنين».

فجائني الرد: «نحن فكّرنا في الأمر، لكن المشكلة أنه لا يوجد مراسل يرغب في الحضور عندكم».

فسألت: «ألا يوجد أحد في عَمان من مراسلينا يرغب في التطوع للحضور؟».

ورد عليّ: «لا».

فقلت: «إن «مرو Murrow» ـ يجب أن يتقلّب في قبره؟».

وواصل حديثه: «لا تتصور الجو العام هنا، فالكل يقرع طبول الحرب، لم أشهد مثله سابقاً، إنه شيء لا يصدق». هٰذا ما كنت أود أن أسمعه. أيقظت فريق العمل وتوجهت بهم مباشرة إلى السفارة، حيث يمكننا على الأقل تصوير القافلة الأمريكية للدبلوماسيين وإذاعتها ضمن نشرة المساء.

سبق أن أعلن «ثايبولت Thibault» بعدم إجراء مقابلات. ولذلك وقف «مارك» على استعداد عند آخر لقطة مسموح لنا بالتواجد فيها. كان «جيم» قد التقط بعض اللقطات لتصلح ضمن النشرات الأولى قبل أن نتوجه للسوق، وتوقف عند الفندق ليصحبه فايز.

وبعد ساعات بعد أن أوصلنا مرافقنا الأمين، رجعنا إلى السفارة الأمريكية. قال ثايبولت: «هنا ما نبحث عنه، سوف نتجه إلى مقر إقامة السفير، وإذا عثرت على أحد يرغب في إجراء مقابلة معه، فإنني أضع شقتي تحت تصرفكم لإجراء المقابلات. وسوف أقوم بنقلهم بنفسي في سيارتي التي تحمل لوحات دبلوماسية (هيئة سياسية) وبالتالي لن يكونوا في خطر، لا تصوير في المقر هنا».

أصبح معروفاً للجميع أن راتب السفيرة «جلاسبي» هو (٨٣,٦٠٠) دولار سنوياً، وكانت الفيلا التي تسكنها تقع في أرقى أحياء بغداد، كل ذلك دليل على أن الخدمة العامة تعود على أصحابها بمظاهر النشاط والأبهة.

خلف السور العالي للمبنى، توجد الصالونات المزخرفة والمزينة، تظللها أوراق الأشجار الخضراء الرائعة. كان المنزل كلاسيكي الطابع وله بهو واسع. يؤدّي إلى درج متّسع، إلى اليسار من المدخل كانت غرفة الطعام وما خلفها من فناء، كان المكان المثالي في مساحته وحجمه المعد للعب والأكل. كان المطبخ واسعاً وحديثاً ومزوّداً بكل الإمكانيات المناسبة، إلى الطابق العلوى نجد عدة غرف نوم وحّمامات مكسّوة برخام أصفر ـ أزرق. توجد بركة للسباحة وملعب للتنس خلف الحديقة. ومنذ أقام الرهائن في بيت السفيرة تحول إلى حظيرة حيوانات. وتمت إزاحة الأثاث جانباً

وفرشت بدلاً منه الفرشات. فتم وضع (٦) من الفرشات في غرفة المعيشة، كما رُصَّ غيرها على طول الصالة المؤدية إلى غرفة النوم بما فيها غرفة السفيرة نفسها. وكل الغرف أُعيد ترتيبها بطريقة سريعة حيث تم تحريك الأثاث، فبدت الفوضى عامة في المكان كالفراش بعد النوم.

كان كثير من الرهائن يتواجدون في البهو الخلفي، بعضهم يلعب الورق (الكوتشينة) وإثنان يلعبان التنس، وآخرون يشربون البيرة. معظم الرهائن كانوا من العاملين في مجال النفط أو في مجال الإنشاءات، وكانوا يرتدون بنطلونات الجينز ويضعون على رؤوسهم قبعة البيسبول. وكانوا يمارسون الرياضة، وحولهم عدد من الأبناء. قام «ثايبولت» بالتقديم بيننا وأكد أنه لن يتم إجبار أحد على إجراء مقابلات، . . يعود الأمر لكل شخص حسب رغبته. سأل جيم أحدهم: «ما فوائد المقابلة بالنسبة لك يا «روبرت»؟ إن لفت الانتباه إلينا ليس شيئاً له أهمية؟». كان سؤالاً محقاً فيه، وسجل الرجل نقطة تستحق التقدير.

كانوا يحسّون أنهم محتجزون ومحاصرون لا يعلمون كيف تنتهي الأمور؛ إلى حرب، أم إلى سلام. ولا يعلمون هل سيلتقطهم صدام من هٰذا الملجأ الدبلوماسي، ويقيدهم ويقتادهم إلى أحد مصانع الغازات السامة، ثم يساقون إلى التلفزيون ليقولوا . . ماذا يقولون؟ كانوا يائسين من العودة إلى بلادهم، كانـوا يودّون تدمير بغداد، فأي شيء يقولونه سوف تطّلع عليه السلطات العراقية، ولذلك يخشون من العقاب المحتمل. وقد قال أحدهم: «لا أتصور أنه يوجد من يعتقد بأن مقابلاتنا ستكون في صالحنا، وقال آخر بأن ذلك سيكون مدعاة للعراقيين لإطالة فترة إحتجازنا».

قلت لهم: «لو سمحتم . . سأكون صادقاً معكم، إنني اتفق معكم بأن ما يُقال من المحتمل ألا يعود بفائدة في ظرفكم الخاص هٰذا. وحتى لو قمتم بتقديم التماس إلى السلطات العراقية عبر المقابلة من الـ «C.N.N» فإنني أشك بأن ذلك سيغير من الأمر شيئا وإنني أفهم قلقكم خوفاً من قول شيء سلبي ربما يؤثر على سلامتكم أو سلامة رفاقكم هنا، وأنا لست في وضع يجعلني أملي عليكم ما تقولون، ولكني مقتنع بأن إجراء المقابلة سيكون له فائدة. وهٰذا كل ما عندي. فأنتم حتى الآن مجرد أرقام ـ إحصاء بعدد الرهائن. أنتم مجموعة من الأمريكيين لجأت إلى حي دبلوماسي، أنتم شيء مجرد، ولا أريد أن تكون لي علاقة بأشياء مجردة ولا أعتقد أن آخرين يفعلون ذلك، عليكم أن تضعوا لمسات لعرض هٰذه القضية. فهناك شخص ما وراء كل رقم، أنتم لستم رهائن، فأنتم كائنات بشرية، وإنّ الشعب في الوطن بحاجة إلى من يذكره بهذا المفهوم، ولترسيخ وكسب ذلك فهم بحاجة إلى أن يروا صوركم ويسمعوا صوتكم، وحتى لو لم يتحقق سوى أنهم رأوكم وسمعوا صوتكم فذلك وحده كافٍ ـ وتكونون قد فعلتم كل ما يمكن عمله، ومن ناحية أخرى فلا أعرف لماذا يعتقد البعض بأن ذلك سيكون له آثار سلبية، إن الحكومة العراقية أيضاً يهمها الأمر».

«استمعوا إليَّ باهتمام»، وكنت أجول بنظري في وجوههم فلاحظت عليهم الضيق والأسى.

وسألني أحدهم: «هل تعني أنه يكفي أن نقول من نحن وأننا نفتقد عائلاتنا، أليس كذلك؟».

فرددت: «إذا أنتم جميعاً مستعدون لقول ذلك، فهو شيء جيد، وأعتقد أنه يمكننا الحديث في الأمر بصورة عامة، كأن نتحدث ما الذي أحضركم إلى العراق. وماذا تفعلون الآن هنا، إنني أضمن لكم بأننى لن أعرض صوركم على التلفزيون وأسبب لكم المشاكل، فلن أضعكم أمام كاميرا التصوير ثم أسألكم: «هل تعتقدون بضرورة التخلص من صدام حسين وجهازه السّري؟»».

قال أحدهم ضاحكاً: «حسناً ليست لدي مشكلة الآن».

قاطعنى رجل لم يسبق لي رؤيته قائلاً: «آسف»، وأشار بأن أتبعه إلى الداخل.

قال أحد الرهائن معلقاً: «إنه الرئيس».

قال الرجل: «إننا لن نجري أي مقابلات، وأنا أشكرك إذا لم تقم بذلك وتخلق المتاعب لجماعتي».

فقلت: «إننى لا أعلم بأنى سببت الضيق والمتاعب لأحد».

وقدّمت نفسي له، ثم سألته: «عفواً ما اسمك؟».

فأجاب الرجل: «آسف لن أبوح بإسمي لاعتبارات أمنية».

فسألته مندهشاً: «اعتبارات أمنية! على الأقل أخبرني بالإسم الأول فقط، فإن ذلك لن يسبب خرقاً للاعتبارات الأمنية».

فأجاب: «حسناً، «ستو STU»» قالها بتردد.

قلت: «حسناً يا مستر «ستو»، مع كل احترامي لك فإنه حسب فهمي بأن أي شخص يوافق على إجراء مقابلة فذلك أمر شخصي يعود إليه، وهٰذا حق أساسي يملكه وهو حرية التعبير والكلام».

في هٰذا الوقت انضم إلينا «ثايبولت Thibault» ثم أوضح للرجل بصورة عامة المبادىء الأساسية.

قال ستو: «لِنَرَ»، ثم تمتم عائداً إلى البهو.

ثم سألت ستيف: «من هو هٰذا المعتوه؟».

أدار ثايبولت عينيه وقال: «أنا أخشى ذلك، إن «ستو» هو رئيسهم بشركة بكتل ومعظمهم كان يعمل تحت إمرته، وهو شخص محب للعمل حقيقة. لقد تمكن من إقناعهم بأنهم لو فتحوا أفواههم وتكلموا بشيء فإن ذلك سيعود عليهم بالضرر. إن الشخص مصاب بالوسواس، وعمل كل جهده ليجعلهم جميعاً مصابين بالوسواس».

فقلت: «إن الموقف مشحون بطبيعته، ولم يكن بحاجة إلى من يصب الزيت على النار ليزيد

الموقف سوءاً، إن السفارة الأمريكية هنا توفر الحماية للجميع. من هو المعتوه الذي أعطى الصلاحية لـ «ستو» بأن يفرض أحكامه عليهم؟».

قال ثايبولت: «لم يعطه أحد صلاحية، . . إن حوله مجموعة من الرجال الخائفين الذين لا يريدون تجاوز من جعلوه رئيساً». بعد ذلك عدت مع «ثايبولت» إلى المجموعة وكان واضحاً أن «ستو» فرض نحسه وتشاؤمه عليهم. حتى أن قوة «كلانسي» الجبارة في الإقناع فشلت في زحزحة هؤلاء المحتجزين عن موقفهم.

قال أحدهم: «أنا آسف، لا أستطيع مخالفته. إنه موقف حرج»، وأشار إلى شخص آخر يقوم بتعليق قمصان على الحبل، وقال مازحاً نحن لدينا رجل يعمل بدل الغسالة يكلّف (١٥٠) ألف دولار سنوياً. وأضف إلى ذلك (١٠٠) ألف دولار للطبخ، ولا تتاح الفرصة كل يوم ليسبح الفرد ويتكلف أيضاً (١٠٠) ألف دولار. أنا آسف وأرجو أن تكونو قد فهمتم الموقف».

قلت له: «لا تدع «ستو» يسيطر عليك، كن مخلصاً ومؤمناً، سنقوم بجولة هنا ويمكن أن نعود في يوم آخر، ربما يغيّر بعضكم رأيه».

قمت أنا و«كلانسي» بالبحث حول المنزل لعلّنا نعثر على أحد لإجراء مقابلة معه، ولم يكن «ثايبولت» قد تفحص جميع الموجودين في المقر، وللحقيقة فإنه يبحث عن واحد من الأمريكيين يود الظهور أمام الكاميرا، ثم قلت: «لقد يئست وأشعر بالإحباط، وأصبحنا مثل البلهاء إذ لم نتمكن من إجراء أي حوار مع أحد الرهائن، إنّ «إيسون وإدْ EASON and ED» سوف يسلخان جلدي حياً». قام «جيم» بلفّة نهائية في الطابق الأرضي لعله يعثر على أحد لكنه رجع خالي اليدين. وهيأنا أنفسنا للخروج والعودة فقررت أن أقوم بإلقاء نظرة على غرفة المعيشة، ولاحظت إثنين لم أرهما من قبل يتحادثان في هدوء.

تقدّمت منهما: «معذرة، أنا من فريق الـ «C.N.N»».

قال أحدهما لي: «أكيد، فأنا سعيد لإجراء مقابلة، إنني لا أتبع «ستو»، أضف إلى ذلك إنني أعتقد أن موقفه غير صحيح».

كان المتحدث هو «بوب فينتون Bob Vinton» من (سانت في) ولاية نيومكسيكو وعمره (٥٨) عاماً، ويعتبر حلماً بالنسبة لأي مخرج. رجل مهذب، صريح، وكلامه واضح ومباشر. كان «فينتون» قد غادر السعودية إلى العراق قبل عدة أشهر. كان يعمل في مصنع للبتروكيماويات، وأمضى جزءاً كبيراً من حياته في الشرق الأوسط، وعلى دراية تامة بالنّاس ومشاكل المنطقة. وعندما أعلن العراق أنه لن يسمح للأجانب بمغادرة البلاد لجأ إلى منزل السفير، لكنه في وقت لاحق عام لينام في شقته المجاورة للمبنى. كان «فينتون» قد ضجر من «ستو» وأسلوبه، ولم يقم بعمل يجعله خائفاً من

الشعب العراقي. واقترح عليّ إجراء المقابلة في شقته حيث أن ثلاجته بها صندوق كامل من البيرة، نوع «هينكنز Heinkens».

تحدث «فينتون» جيداً أمام الكاميرا بنفس الطريقة التي تحدث بها أول لقائنا، وقلت له: «إن هٰذه المقابلة تعتبر شيئاً رئيساً».

فردَّ: «إنني مهتم بذلك، لكنى أود الانتهاء من الوضع مرة واحدة ونسجل اللقاء، لأننى أود أن أعود إلى حياتي الطبيعية وتبدو الأمور عادية قدر الإمكان. فأنا أذهب يومياً إلى مكتبي وأذهب إلى السوق لشراء حاجياتي، ولدي أصدقاء عراقيون أحرص على رؤيتهم».

سأل كلانسي «بوب» إذا كان لديه خوف من نقله إلى مكان استراتيجي ليتم حجزه ضمن من يطلق عليهم «دروع بشرية».

فقال: «إن الاحتمال وارد، وهٰذا هو الذي جعلني أحضر إلى مقر إقامة السفير لكني لا أستطيع أن أعيش فترة طويلة بشعور الرعب فأنا رجل، وإذا ما حدث الأمر فإن لدي من الشجاعة والعزيمة لمواجهته».

إن هٰذا الرجل يصلح لأن يكون مصوراً أسطورياً لوصف الوضع، قدّرت ذلك وأنا أنصت إلى حواره، وكان طبيعياً أثناء التسجيل ويعبّر عن نفسه بوضوح.

كان «فينتون» يحب التفصيل والإطناب، ثم سألته: «هل يمكنك إجراء مكالمات تليفونية حيّة بواسطة الـ «C.N.N» من أجهزة السفارة الأمريكية. فتصبح ملء العين والسمع عن طريق الشبكة في موضوع الرهائن لو وافقتني الرأي. إنني سأجريها عن طريق أتلانتا، ولكن علينا أن نحدد وقتاً معيناً لإجراء مكالمتك ثم يتم البث، وكما ترى نحن نريد أن تخبر المشاهدين كيف تقضي وقتك، وكيف ارتفعت أسعار المواد الغذائية في الأسواق، وكيف يعيش زملاؤك هنا؟».

استحسن «فينتون» الفكرة. ووافق على إعادة اللقاء في وقت لاحق بالسفارة. ثم قال: «يمكنني أن أصحبكم أثناء تجوالكم في المدينة. وقد لاحظت تغييرات ملموسة في الشارع».

وبينما كان باقي أعضاء الفريق يحزمون معداتهم للعودة جاء إثنان من أصدقاء «بوب»، وهما «مايك نيكمان، وجوس سيرو» اللذان سبق مشاهدتهما في مقر السفير، وأبديا اهتماماً بالمقابلة. أصر «فينتون» وقال: «عليكم مقابلة الرجلين أنتم تعرفون الـ «C.N.N» فهي شبكة جيدة، ويتابع الناس ما تعرضه الشبكة».

وبناء على اقتراح «فينتون» وافق «مايك وجوس» على تسجيل حوار معهما، رغم أن «جوس» فضّل أن يكون التصوير مظللاً «نوع من الاحتياط لإخفاء الشخصية». وافقنا على الأمر في سعادة غامرة.

وأثناء عودتنا قلت لـ «جيم»: «بدا الأمر خيالياً، ولم أصدّق نفسي لهذه الهبة الآلهية».

وافق كلانسي على رأيي قائلاً: «كلما عملت أكثر، كلما كان حظك أوفر».

لم يكن حظنا وافراً مع ضابط العاصفة النازية السابق، ومستشار النمسا الحالي «كورت فالدهايم». لقد كان اجتماعه مع صدام حسين مغلقاً للبحث في إطلاق سراح (٩٠) نمساوياً محتجزين في بغداد. وظل سرياً لم ينشر في الصحف المحلية. كان يرافق المستشار النمساوي عدد كبير من المراسلين ومصوري التلفزيون الذين صوروا اللقاء المشترك للزعيمين، والذي نقل أيضاً بواسطة التلفزيون العراقي. وقال كلاً من «فالدهايم» وصدام حسين؟ أنهما يأملان في مخرج دبلوماسي للأزمة. بعد ذلك أصدر مجلس قيادة الثورة العراقي قراراً بتطبيق حكم الإعدام على كل من يأوي أجنبياً أو يتستر عليه، وأصبح صدام حسين يتصدّر عناوين الصحف الرئيسة ونجح «فالدهايم» في إطلاق سراح الرهائن، وبذلك أكون قد تلقيت ضربة ثانية في معدتي.

لكن من ناحية أخرى كانت هناك أخبار جيدة في مجال آخر. وأخبرت «إيسون» في وقت لاحق ذلك اليوم: «إنه موعد لقائنا في الغد مع طارق عزيز، سأبحث موضوع مقابلة صدام وبثّها حيّة عندما التقي مع حمدون في وزارة الخارجية. لدينا مكان تصوير رائع في الشيراتون الذي يطل على الجامع واللوحة الكبيرة لصدام، ودوّار المرور».

فسألني: «عظيم، كيف يمكن تدبير إخراجها الليلة».

ـ «نحن لدينا مادة، وعلينا أن نجهز فيلماً من تلفزيون الكويت والعراق، أضف إلى ذلك، أن المقابلة مع «فينتون» والأخريْن كانت رائعة. كان «جيم» وطاقمه يؤدون عملاً صعباً».

وقلت له: «لو سمحت . . سأخبرك بشيء ضمن مبادىء عامة، إنه تمر على المرء لحظات تبدو سيئة، إنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً إذا كانت غرفك موبوءة وتليفوناتك معطلة، أو قدّرَ لك أن تعمل مع هؤلاء المرافقين المكلّفين بحراستك. إن الشيء الذي يقلقني هو إمكانية أن نُحشر هنا وتنشب الحرب، ساعتها لن نتمكن من الوصول للسفارة الأمريكية. حتى «ثايبولت» قال أنه آخر مكان يمكن أن يحضر إليه في تلك الحالة، ويشاهد خمسة الآف عراقي يهاجمون السفارة ويقطعونه إرباً إرباً».

قال إيسون: «أنا أفهمك وأستمع إليك».

فقلت: «إنه عامل مثير للقلق، خاصة أن نكون الأمريكيين الوحيدين الباقيين في بغداد، بينما الآخرون في الشبكات الأخرى يقطعون تقرير «كلانسي» بأيديهم الذي يقابل فيه الرهائن».

قال إيسون: «لا تتصور الخلاف الذي حصل عندما كنا نبث مادتنَا، كانت هناك شتّى الوان النقد، بأن صدام استغلنا، وأننا ندير له شبكة دعايته».

ـ «هٰذا كلام فارغ، إنّ مشاهدينا من الذكاء بحيث يقدرون بأن شريط الرهائن صحيح ومناسب».

ـ «بالطبع هو شريط صحيح».

ـ «إذن من الذي يوجه الانتقاد؟».

ـ الشبكات الأخرى، مثلاً «ستيف فريدمان» من وكالة «N.B.C» حيث أجرى مقابلة مطولة قال فيها إنه عمل غير مسؤول عندما سمح لنا بالبث حياً. وقال إن هٰذا حكم عام تتفق عليه معظم وكالات الأنباء».

قلت ضاحكاً: «إلى الهاوية «ستيف فريدمان». أين موقع وكالته «N.B.C» في هٰذه الأحداث؟ إن هٰذه الشبكة تعاني من مشكلة رئيسة، والمشكلة بأن الوكالة قد انتهت».

ـ «يقول «فريدمان» بأن وكالة «N.B.C» لا تستطيع الحضور إلى العراق، وهي سبق لها أن تعرضت للاستجواب والمساءلة في وقت سابق، وفقدت كثيراً من مكانتها في العراق، وبالتالي فإن العراقيين لا يتعاملون مع وكالة«N.B.C»».

قلت: «أنظر إلى «بريان بوس» والمنتج معه، «إيرا سيلفرمان»، غالباً ما ينفذون أعمالاً جيدة، ولكن من هو «فريدمان» الذي يقيّم أعمالنا الصحفية والتقارير. ويتحدث عن كرامة الصحافة وعن تقرير التقصي، ماذا فَعل «فريدمان» عندما كان مسؤولاً عن برنامج «استعراض اليوم»؟ بالنسبة لهٰذا الأمر المثير للغضب والانفعال لدى إحساس وشعور بأن «تري TREY» يود الخروج والمغادرة من هنا بأسرع ما يمكن».

قال إيسون: «نحن قد وصلنا إلى هنا ولا نريد الخروج».

فقلت له: «لا ننوي الخروج، نحن جئنا لتأدية عمل معين وأديناه، وكلامي ينطبق على «تري»، إنه الجندي المكافح، وكلي أمل بعد الانتهاء من تسجيل مقابلة عزيز أن يحل محل «تري TREY» شخص آخر. فقد رُزق بمولود جديد، إن زوجته موجودة وحدها في باريس. لقد اتخذ قراره وإن بقاءه في بغداد يعني نهايته، ويشكل عبئاً عليه وعلى أسرته».

قال إيسون: أنا أسمعك، دعنا نعمل».

وكما هو متوقع فقد استحوذ «فينتون» على المكالمات الحيّة حيث انهالت عليه الأسئلة وكانت غالباً تتناول أموراً غير مألوفة ولكنها في النهاية خرجت بانطباع أن الرهائن هم في حالة حصار، وأن إمدادات التموين والمياه بدأت تتكدس قاعدة «أرما جيدون»، لكن «فينتون» رغم هٰذه الأسئلة بقي ثابتاً يقدّم الوصف الدقيق والمعقول لتجربته الشخصية. وفي نهاية المقابلة أعطيت أتلانتا الإشارة

بذلك، وظلت مقابلة «فينتون» مع الـ «C.N.N» تعرض بصورة مستمرة لعدة أيام على الشبكة.

قامت قوات الأمن في وقت لاحق باعتقاله ووضعه في موقع استراتيجي. قمت بالاتصال مع زوجته تحت الشعور بالذنب نتيجة عرضه على الشاشة مما تسبب في خطفه واعتقاله. توقعت أن تثور زوجة «فينتون» في وجهي عندما نقلت إليها الأخبار، لكنها على العكس من ذلك قالت إنها تجلس ملتصقة للتلفزيون لمتابعة الـ «C.N.N»، وأنها كانت مسرورة بالتغطية الإعلامية التي قمنا بها. ثم قالت: «إنني متأكدة أن «بوب» بصحة جيدة وبخير، ثم أكّدت أنه شجاع وقوي. وقد ثبت صحة ما رددته «فينتون»».

وفي بثنا الإخباري المسائي وللمرة الثالثة من بغداد، كانت المادة جذابة وممتعة لكن الرقابة أصبحت أكثر إحكاماً. قالت لي السيدة عواطف بعد أن عرضت صورة «جوس سيرو» المموهة: «أليس هٰذا دبلوماسياً، سبق إعلامك أن إجراء المقابلات مع الدبلوماسيين ممنوع، أين التقطت له هٰذه الصور، ألم تكن بالسفارة الأمريكية؟».

فأوضحت لها: «إن الصور التقطت في منزل خاص، وإن الرجل ليس دبلوماسياً».

وقالت بينما سحبت سلك التغذية الكهربائية من الجهاز: «أخرج، أخرج»، لكن لحسن الحظ تأخرت قليلاً مما سمح ببث لقطة لـ «جوس» عبر القمر الصناعي، كانت أتلانتا قد التقطت الصورة وبثتها وحيث أن سلك الصوت لم يكن قد سحب فقد اكتمل نقل التقرير، لكن زملاءنا من شبكة «I.T.N» (شبكة تلفزيون لندن المستقلة) لم يكونوا أحسن منا حظاً، فقد تضمن تقريرهم مقابلة مطولة مع السفير البريطاني، وبالطبع كان نصيبه القطع والإزالة.

حاول المراسل أن يشتكي بمرارة ولكن تم قطع بداية شريطه أيضاً. حاول المراسل أن يستعطف السيدة عواطف: «ماذا قلت؟، لا يمكنك عمل شيء لهذا».

كانت الإجابة الوحيدة منها: «أخرج، انتهى». يجب أن يكونوا على دراية تامة عندما تقابلونهم أو تخفونهم، عندما تكونون في بغداد فإنني لا بد أن أشاهد الشريط، فأنتم تعملون في بغداد وتخضعون لأنظمتها وتعليماتها. ولا أحد في الإعلام يحب مثل هٰذه القيود ولكن سريعاً سيتضح لكم أن عواطف قادرة على إخراجكم إلى مكان مجهول في وقت قصير».

يبدو لي أن العراقيين يتقبّلون احتجاجك إذا قام على أسس معقولة وأسباب فنية، لكن إذا كان المرء منا يعمل وأمامه وقت محدد فإنه لا يستطيع الانتظار وإضاعة الوقت. على أية حال لم تكن السيدة عواطف بالإنسانة التي يُستهان بها، ولم تصل إلى مرتبتها وتصعد سلم الترقي في التلفزيون العراقي على أساس أنها سهلة ويمكن التغلّب عليها.

أمضى «رولي Rollie» يوماً ممتعاً في بغداد. قال لي: «ألا تعلم أن صاحبك مازن له شخصية

غريبـة؟ ألـم يخبـرك أنـه خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية قتل برشاشه عشرات الجنود الإيرانيين الصغار السن على الجبهة؟».

قلت له: «رولي»، ألا تعلم ما قيل عن الشرق الأوسط كلما أطلت البقاء فيه، كلما قل فهمك للأمور. ثم أخبرت «إيفانز» عن «فينتون» والرهائن الآخرين والبيان البارد جداً الصادر عن مجلس قيادة الثورة، بخصوص اعتقال من يأوي الأجانب».

فقال لي: «عليّ أن استفيد من هنا المادة عند تحرير العمود الذي أكتبه».

قلت: «ماذا تظن، هل تعتقد أن خطوط القتال قد اقتربت منا؟».

رد عليّ: «ربما إني خائف، لنر وننتظر مقابلة السيد طارق عزيز معنا غداً، وماذا سيقول بهذا الخصوص».

٤

قال ثايبولت وهو يغلي من الغيض: «إنه أمر لا يصدق . . هؤلاء الناس يُغيّرون قراراتهم التي يطبقونها علينا. إما تلك الجهات أو أن وزارة الخارجية لا تملك تنفيذ قراراتها. أعني بالنسبة لهؤلاء الذين يعيشون في ورطة في السفارة الأمريكية أمضوا ليلة كئيبة، إن القافلة التي جاءت من الكويت تم تحويلها للمرور عبر الحدود التركية، سمح العراقيون لـ (٥٥) شخصاً من أصل (١٠٨) فقط بمغادرة العراق. وقال إن السفر مسموح فقط للأطفال ولعائلات الدبلوماسيين».

أوضـح ستيف الأمـر: «كـان هنـاك ثلاثـة أبنـاء تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والحادية والعشرون الذي أجبروا على العودة إلى بغداد. ووصلوا الساعة الثانية والثلث من صباح اليوم».

قال جو ويلسون مكتئباً: «ليس لدي ما أضيفه، سبق للسيد طارق عزيز أن أعطانا كلمته بأنه سيسمـح لهؤلاء الأشخـاص بالمغـادرة، إنه شيء مثير حقاً أن يعطي وزير الخارجية كلمته إلى دبلوماسي أمريكي مرموق وعداً لا معنى له».

سألته: «ماذا تنوي أن تفعل؟».

قال جو: «سأعود إلى وزارة الخارجية، كما تعلم يا «روبرت» إن الأولوية القصوى عندنا هي إجلاء الرعايا الأمريكيين. إنني أقابل أحد المسؤولين العراقيين على الأقل مرة في اليوم وبعض الأحيان ثلاث مرات».

قال ستيف: «على هٰذه الحكـومـة أن تُقبّـل قفـاي»، ثم بسط يده وأراح قفـاه، وقفت مع

«ويلسون» مشدوهين بلا كلام لهذه الحركة التي قام بها.

قلت له: ««جو»، لا أظن ذلك، نحن سندعه يخرج هؤلاء الناس»، واصل «ويلسون» حديثه وأشار إلى الشباك الذي تجمع تحته عدد من المتظاهرين العراقيين. كنا نجلس في مكتب السفير عندما بدأت التهافات: «يسقط، يسقط «بوش»»، وعادت الهتافات.

وسأل ستيف: «من الذي يتظاهر اليوم؟».

أطل ثايبولت من النافذة وقال: «طلاب المدارس ومعلموهم».

قال جو: «كما تعرف يا «روبرت»، هؤلاء يشكلون مجتمعاً متعلماً مثقفاً ولديهم الإعتزاز بالنفس. وفي مثل هٰذه الحالة علينا أن نرتب أمورنا لإعادة الاتصال بهم وإقامة نوع من العلاقة معهم. إن عملية غسيل مخ أطفال أعمارهم تتراوح بين الخامسة والسادسة والسابعة ليست أمراً إيجابياً». استعد أفراد الشبكة للتصوير واستخدم «كلانسي» جهاز بث آخر استعداداً لمقابلة عزيز المتوقع وصولها.

لقد التزمنا بالتواجد في السفارة وفي الشيراتون، ويبدو أن العراق بدأ يخفف من طوقه حول السفارات في الكويت، ثم سحب الدبابات وأعيدت الكهرباء، ونقلت إلينا برقيات الأنباء أن ياسر عرفات وصل إلى بغداد لمقابلة صدام حسين ليناقش معه موضوع الرهائن. يردُ تساؤل: «.. هل كل هٰذه الأنشطة تدعو للتفاؤل؟».

التزم «رولي» بالبقاء في الفندق يعدّ الأسئلة التي سيوجهها إلى عزيز. قال لي عندما كنا نغادر إلى وزارة الخارجية: «لن أكون استفزازياً ومهاجماً، فأنت لا تكسب شيئاً إذا اتبعت معهم اسلوب المجابهة».

سبق أن رأيت «رولي» منهمكا في عمله عندما قابل وزير الدفاع الإسرائيلي «إسحق رابين» في قمة تأجج الانتفاضة الفلسطينية حيث كنا متجهين وقتها من القدس إلى الاستوديو في تل أبيب وكنا نناقش الموقف العسكري على الطبيعة والسياسة التي وضع أسسها «رابين» (سياسة الضرب والتكسير) والتي أثارت الجدل.

قال إيفانز: «لقد كان الموضوع لا زال ساخنا وكنت أتوقع أن أضغط على «رابين»»، لكن عندما وجه «رولي» له سؤالاً عن حقوق الفلسطينيين الإنسانية، نحىٰ السؤال بحركة من يده وتجاهله، وآمل ألا يجعل «إيفانز» عزيز يفلت منه بسهولة.

من مكتبه الفاخر في جناح ساكن وهادىء بالطابق الخامس من مبنى وزارة الخارجية، يبدو أن أزمة الخليج بعيدة عنه بعد كوكب المريخ. تم نصب الكاميرات على مكتب صغير ملاصق لمكتب عزيز، وحتى هٰذا اليوم لا زلت أذكر أن هٰذه الغرفة أهدأ من أي مكان طرقته في حياتي. للمرّة الأولى

منذ وصلت بغداد لم أسمع شيئاً من أصوات العالم الخارجي. لم يكن هناك على الإطلاق أي مؤثرات جانبية. ما هٰذا الجو الرائع لإجراء المحادثة واللقاء.

قام «رولي» بتقديمي إلى نزار حمدون الذي كان يراقب الموقف باهتمام بينما كنا نعيد ترتيب المقاعد ونفحص ونضبط الإضاءة وزوايا التصوير. لسبب ما اعترض حمدون على وضع العلم العراقي خلف الصورة، وقام أحد المساعدين برفعه من مكانه. كان شيئاً غريباً، فهل يتصور حمدون أن العلم يمثل هدفاً عسكرياً لا يجوز تصويره، وكل ما قاله حمدون عندما سألته عن السبب أنه ليس شيئاً ضرورياً في عملية التصوير.

اتخذ عزيز مكانه عندما بدأ نزار بالتقديم بينما واصل فريقنا الإعداد، ودلف الجميع إلى غرفة الاجتماعات، عزيز وحمدون و«رولي» وأنا معهم. ثم قدّمت القهوة، وأشعل عزيز سيجارة دافيدوف.

قال رولي: «أريد منك بعض الأخبار اليوم سيدي، فهل لديكم معلومات جديدة تقدمها؟».
قال عزيز وهو ينفث دخان سيجاره: «لا يوجد شيء جديد».

شعرت منذ البداية بالميل نحو عزيز، وسبق أن أُخبرت أنه رجل جاف وسليط اللسان ودبلوماسي محنك ومفاوض يعود بنا إلى (الأيام الخوالي) بشخصيته. تم بحث الأزمة وبدأت أتحدث معه وأسميه «السيد السابق» لأن المستقبل يبدو بابه مغلقاً. سبق لطارق عزيز أن عمل صحفياً، ثم وجه الدعاية الحزبية لصدام أثناء حربه السّرية ضد الحكم الملكي. بعد وصول حزب البعث إلى السلطة عام ١٩٦٨ أصبح عزيز وزيراً للإعلام. كان هو المسيحي الوحيد القريب من صدام في المحيطين به. رغم ذلك تشجعت أكثر أن أسأله، ألا يهمه كمسيحي أمر إطلاق سراح الرهائن، كان عزيز جافاً وترمش عينيه كثيراً.

عندما شرح له «رولي» مركزي ووجودي في بغداد قال عزيز: «أظن أنني سبق أن رأيتك».

كان محقاً في كلامه فسبق أن لقيته في عمان قبل عدة أيام، ثم أعلن عزيز أن مفاجأة ستُعلن خلال مؤتمر صحفي يُعقد بعد ساعة. بالطبع كانت الـ «C.N.N» ترغب في بثه حياً على الهواء. أوقفنا جميع التسجيلات التي كنا نبثها من أوتيل بلازا، لكن لسوء الحظ، كانت إحدى القطع المهمة اللازمة للبث معطلة، وتساءلنا هل يمكن لـ «كنج King» المدير الدولي للتحرير في أتلانتا أن ينقذ الموقف، هل يمكننا نقل الصوت على الأقل..؟ وسأل أتلانتا هل يمكن وضع صورة طارق عزيز ثابتة بجانب الحديث عند بثه صوتاً فقط، هٰذا يعتبر خطيئة كبرى في شبكة أخرى، وهل يوازي ذلك ما سينفق في سبيله من تكاليف. كان مقدراً أن عزيز سيعلن أمراً مهماً يُحتمل أن

يخفف الأزمة أو يزيد من حدّتها. إن الأخبار في هذه الحالة أهم من الصورة، وما يهم الـ «C.N.N» هي الأخبار نفسها، نجحنا في تركيب جهازي هاتف في غرفة البث، وكان من الأمور السهلة لنا تحويل الصوت وبثه عبر أحدهما واستخدمت التليفون المثالي للتنسيق مع أتلانتا.

تم تعليق المؤتمر في الوقت الذي توقع فيه العالم انفراج الأزمة، تمالك عزيز واستجمع قواه وبذل جهداً مضاعفاً حينما علق نظره على رجل متوسط العمر، أصلع على بعد (٣) أقدام منه، يضع على عينيه نظارة شمسية ويرتدي قميص هاواي ويمسك بسماعتي تليفون إلى أذنيه . .

نعم سننقل المؤتمر الصحفي حياً سيدي . . سوف أخبر الوزير. لسوء الحظ لا، المؤتمر الصحفي ولا المقابلة التي أجراها «إيفانز» دلّت على أي انفراج. فقد أصر عزيز على ضرورة انسحاب الولايات المتحدة من السعودية قبل إجراء مفاوضات بشأن الكويت، ثم هاجم واشنطن والأمم المتحدة التي لا تجبر إسرائيل على تنفيذ القرارات الصادرة بحق إسرائيل حوال الأراضي المحتلة. وأعاد التذكير بقوة على أن العراق لن يخضع للتهديد أو الضغط. وكانت النقطة المهمة خلال (٣٠) دقيقة من الحوار عندما سأله «رولي» عن الرهائن . .

قاطعه عزيز: «إنهم ضيوف».

اعترضه إيفانز في لهجة مجابهة: «سيدي نحن نسميهم رهائن».

لم يكن لقاؤنا من المؤتمرات الصحفية البارزة، لكن وكالة الـ «C.N.N» ظلت تستدرج وزير الخارجية العراقي نقطة نقطة. ثم وضعت علامة مميزة على الشريط عندما سألت عن إمكانية إجراء لقاء مع صدام ونقله حياً. كان رد عزيز وحمدون إيجابياً في النقطتين، في إجراء اللقاء . . ثم في نقله حياً.

وسأل عزيز «رولي»: «سأرى الرئيس خلال يوم أو يومين، فهل أنت باقٍ في بغداد؟».

أجاب إيفانز إنه سيغادر إلى الأردن، ولكن يمكن العودة إذا تلقى إشارة بذلك، وقلت للوزير أنني سأبقى في بغداد قدر الإمكان.

قال عزيز: «ستكون ضيفي»، ثم ضحكنا جميعاً. حددت موعداً لأخرج مع نزار الذي طلب مني رؤية ناجي الحديثي في وزارة الإعلام، وقال: «إنه سوف يتصل بناجي الذي يمكنه المساعدة في بث البرامج حية على الهواء».

عندما عدنا إلى الشيراتون اقترحت أن يبقى «إيفانز» في بغداد لمدة يوم أو يومين لعلّه يظفر بمقابلة صدام في حال الموافقة على المقابلة. وقلت: «إن عزيز كان أكثر ترحيباً بفكرة الحوار مع الرئيس العراقي».

اقتـرح إيسـون عنـدما اتصلت معه قائلاً: «هل يمكنك مقابلة عرفات؟»، ثم قال: «دعني أعطيك بعض أرقام الهواتف»، ثم أملى عليّ (٧) أرقام، أحدهما لمنزل آمن ذُكر أن عرفات ينزل فيه عندما يصل بغداد. كان «إيسون» إضافة إلى مسؤولياته الأخرى خبيراً لشبكة الـ «C.N.N» بشؤون منظمة التحرير الفلسطينية. كان على اتصال منتظم مع المتحدث الرسمي باسم المنظمة بسام أبو شريف، رغم أن العلاقات بينهما كانت أحياناً تمر بفترات عصيبة وعاصفة. لقد كانت علاقات «إيسون» بالمنظمة ثمينة لا تقُدر بثمن. بعدها سمعته يحاول الاتصال مع رئيس المنظمة المراوغ، وعلمت بذلك في وقت لاحق أنه كان يؤدي عملاً نقياً شريفاً ناضراً.

كان «إيسون» باستمرار يتمكن من الظفر للعثور على رجله. وقد تناثرت روايات بين العاملين في شبكتنا خاصة بين من لا يعرفونه أن طريقته في الاتصالات والبحث بها شيء من الفتور والبرود. لكن من جهتى فإنى كنت أُقدِّر كل عمل يقوم به «إيسون» كما أنه لم يتخلّ عن قوته وثباته. كانت المسؤوليات الملقاة على عاتقه ضخمة في مثل سنه البالغ ثلاثين عاماً. لقد أشرف على التغطية الدولية لوكالة الـ «C.N.N» في فترة بالغة الصعوبة، ولم يلتفت خلفه. كان رجل إعلام متمكناً جداً ومنافساً شديداً. لا يحتمل التأخير، على العكس مني. فقد كان يتألم عندما نفشل، ويفرح في حالة النجاح. ربما لم يكن يقدر الصعوبات التي تواجهنا في مجال عملنا، ولكن تقديره ورأيه كان له وزنه، وإذا كنا بحاجة إلى مساعدته فإننا نعتمد ونعول على دعمه.

تركت رسائل لدى المنظمة، لكن الحصول على التزام مؤكد من عرفات كمن يحاول الإمساك بالريح، كانت السفارة الأمريكية مشدودة لموضوع الرهائن. لم يعرف «ويلسون» إلى من يتحدث في وزارة الخارجية، بعد لقائه مع طارق عزيز وصلت عدة طلبات إلى «كلانسي» من الشبكة.

وفي سبيل البحث عن مخرج فقد قرر كل منا العودة عند منتصف الليل إلى مركز عملنا. وصلنا إلى مرحلة الاختناق من كثرة العمل منذ اللحظة التي وصلنا فيها إلى العراق. وآن الأوان لأن نعود الليلة مبكرين، وهكذا قمت أنا و «كلانسي» بتناول العصير حتى الساعة الرابعة صباحاً.

«أرجوك أن تطلبني ثانية بعد عشرة دقائق». رجوت عامل التليفون في الفندق عندما اتصل ليوقظنى. كنت مندهشاً هل أتمكن من حشد قواي مرة أخري. كان رأسي يؤلمني بشدة وكانت أعصابي منهكة، وعيني تؤلمني، كانت عيني اليسرى مقفلة تماماً، تغطيها طبقة من القذى والصديد من دُمل (شحاذ العين) لزج الملمس، أصبت به قبل عدة أسابيع.

كان طبيب الملك حسين الشخصي قد اقترح إجراء عملية جراحية لإزالته بعد عودتي إلى عَمان، لكن علاج عيني في الشرق الأوسط لم يكن ضمن قائمة الأعمال العشرة السارة التي أنوي عملها وإتمامها. لكنه ازداد إيلاماً بعد وصولي إلى بغداد وتحول إلى ورم كبير أحمر صلب، حتى غدا بحجم حبة الجريب فروت. أخذت أقوي نفسي بأخذ جرعات إضافية من عصير الطماطم التي تناولتها في الليلة السابقة مع «جيم»، قررت بعد ذلك أن أتناول دواءً بسيطاً بمعرفتي، فتناولت دبوساً صغيراً من علبة الإبر التي زودنا بها الفندق، وقلت لنفسي إنها الأداة المناسبة. أصبحت في حالة اضطراب وتوتر شديدة بعد أن فقدت (٥٠٪) من قدرتي على الرؤية مما استنفذ كل طاقتي التي جمعتها وأنا أزحف لآخذ حمّام.

زفر كلانسي وهو يحتسي قهوته: «أوه لم فعلنا كل هذا؟ يبدو شكلة أسوأ مما قدرت لا بد أن تفعل شيئاً من أجل عينك المتعبة، لعل مازن يستطيع أن يوفر لك مطهراً لها، سأرتب الأمر معه فيما بعد، دعنا نناقش ما سنعمله اليوم».

قلت له: «لقد اقترح «جيم» إرسال تقرير آخر عن الرهائن ووافقت على رأيه. إن الأخبار التلفزيونية تعالج أمرين مما يجعلها تتفوق على عمل الصحف. إنها أفضل وسائل الإعلام التي تحرك العواطف وتأسرها وهي سريعة التأثير. إن قضية الرهائن والتقرير عنها كان المادّة الرئيسة في العناوين في الـ «C.N.N» وإذا ما جهزت تقريراً فكن قادراً على الاستفادة منه. ربما يكون من الصعب مقابلة المزيد من الأمريكيين لكن الأمر يستحق المعاناة. ولا بد أن يكون هناك أروبيون بالطبع. كما أريد تصوير طوابير الخبز. . إن أخبار السوق يمكن أن تبين أثر العقوبات. وتظل مقابلة عرفات أمراً في الحسبان. ويمكننا أيضاً الاتصال مع «ويلسون» لعل لديه أخباراً تفيدنا في برنامجنا لإنجاز عمل مثل هذا يجب ألا يعيقنا شيء، وأمامنا النهار بأكمله».

سأل جيم: «متى سيحضر مازن؟».

قلت: «سيحضر حال عودته من المطار. لقد ذهب مع «رولي» في الساعة السادسة. وإن «إيفانز» مهتم بأمر السفر، لأنه يعتقد بأن شيئاً سيئاً قد يحدث في الدقيقة الأخيرة، ويود في تلك الحالة أن يكون مازن معه. ولقد أعطيت «رولي» ألف دولار احتياطاً لحالات الطوارئ»».

كان الوقت لا يزال مبكراً لمهاتفة حمدون أو الحديثي، لكن كما يقول المثل فإن منظمة التحرير لا تنام. عندما سألت عن رئيس المنظمة، كانت الإجابة: «إنه ليس هنا».

غادر «كلانسي» وباقي الطاقم إلى السفارة ووجدوا ما أصبح أمراً عادياً. . المظاهرات المعادية لأمريكا. وابتلعت مزيداً من أقراص الأسبرين وأنا أتصفح جريدة بغداد أوبزرفر.

صاح مازن: «أوه . . أوه . . إن عينك سيئة، إذن لا بد من أخذك للمستشفى».

فقلت بأدب لمازن: «ذلك ليس في حسباني، ولكني أحتاج إلى بعض الأدوية».

لكنه تمتم قائلاً: «لا بد من ذهابك للمستشفى على أية حال، لإجراء اختبار الإيدز»، وتذكرت الملاحظة التي كانت مثبتة في مكتب الاستقبال: «فحص الإيدز مطلوب إجراؤه على جميع الزوار الأجانب الذين يبقون في العراق أكثر من خمسة أيام». خلال سنوات حياتي رأيت أناساً وقد شوهوا وآخرين أعدموا وغيرهم تقطع رؤوسهم. رأيتهم وقد قطعوا إرباً أو شرّحوا، تحملت كل ذلك، لكن اختبار الدم يجعلني ضعيفاً لا أقوى على الوقوف.

قلت ضاحكاً: «أرجو أن تريحني قليلاً. لا أرغب في إجراء فحص الدم. إن ذلك ليس مطلوباً من صحفي محترف مثلي وفي مركزي».

قال لي يطمئنني: «لا تنزعج، عند ذهابنا إلى المستشفى سوف يحددون فقط لك موعداً لإجراء الفحص وربما يأتيك الدور بعد شهرين أو ثلاثة شهور، فلن يتم إجراء الفحص حال وصولك المستشفى».

قلت له: «ليس الآن . .»، إذن ليس إلى الأبد ثم بينت له اللقطات التي أنوي تصويرها في الشارع.

فقال لي مازن: «أخبرني عن الموضوعات الأخرى التي تنوي تنفيذها أثناء فترة وجودك في بغداد. فإن ذلك سيجعل الأمر أسهل لي ولك، لو كان لدى علم مسبق بها».

فكرت قليلاً وأنا أرتشف قهوتي. قلت: «حسناً، بالإضافة إلى مقابلة رئيسك، وزيارة الكويت فإنني أرغب في التحدث مع بعض (الضيوف) الموجودين في الأماكن الاستراتيجية . . وإذا كان ذلك يسبب مشكلة أمنية فإننا لن نبوح بإسم المكان، لكن فقط نقابل الناس».

قال مازن: «أعتقد أنك قابلت بعض الضيوف في بغداد، ولكنك الآن تود مقابلة ضيوف معنيين». . قالها مازن ضاحكا.

قلت له: «نعم، سبق أن قابلنا أناسا لأنهم كانوا أشخاصاً مميزين».

قال لي: «إن ذلك ليس ممكناً، ولكني دعني أرى وأسأل».

ثم تجرأت وسألته: «ماذا عن تقرير عن الجيش والاستعدادت العسكرية، أعتقد أنه ينال اهتماماً كبيراً».

قال لي: «ننوي أن نأخذك لمشاهدة الجيش الشعبي خلال يوم أو يومين».

قلت له جاداً: «ماذا عن الجالية اليهودية في بغداد؟ هل تقوم بتأدية شعائرها الدينية مساء الجمعة أو يوم السبت؟».

قال: «من؟» قلت: «اليهود . .».

رد مازن: «آه اليهود . . لديهم ما تسمّونه المصلب حيث يصلون فيه يوم السبت».

قلت: «السبت، إنه يومهم».

- «هٰذا موضوع مهم. هل هو ممكن أظن ذلك».

قلت مازحاً: «شيء مدهش، إن ذلك يعطيك مادة وموضوعاً للعمل، إننا لا نريد أن نبدد أموال الدولة في التسكع حول الفندق لشرب القهوة».

قال ضاحكاً: «أوه - يا سيد «روبرت»، عندما قابلتك للمرة الأولى ظننت أنك رجل مجنون، ولكنك الآن سوف تجنني، لكنني الآن أحبك».

- «أؤكد لك أن الشعور متبادل يا صديقي».

٥

يبدو أن وزارة الخارجية على وشك أن تقوم بطرد عدد من الدبلوماسيين العراقيين وتفرض قيوداً على حركة باقي أعضاء البعثة العراقية». هٰذا ما قاله «كلانسي»، ويتوقع «ويلسون» أن ترد بغداد بالمثل، وأخبر بأن على دبلوماسينا عدم الابتعاد عن بغداد لمسافة تزيد عن (٢٥) ميلاً، وأن التصريح بتجاوز هٰذه المسافة يقتضي تقديم إشعار به قبل أسبوع من تنفيذه».

سألته: «ماذا علمت أيضاً؟».

قال وهو يتفحص ملاحظاته: «يوجد (٩) دبلوماسيين أمريكيين معتمدين في السفارة هنا، ويعتقد أن هناك حوالي (١٠٢) من كافة الجنسيات محتجزون في مواقع استراتيجية. يقدر عدد الأمريكيين بينهم بـ (٤١) شخصاً».

- «هل هناك أخبار عن الموجودين في الكويت؟».

- «لا، على الرغم من وجود مائة شخص من جنسيات مختلفة لجأوا إلى سفارتنا».

- «هل أرسلت أتلانتا أي ملاحظات لنا؟».

- «لا، إنهم يركزون على عرض مقابلة طارق عزيز».

ثم طلبت نزار حمدون على الهاتف، ولكنني اصطدمت بالعقلية العراقية، حيث قال لي بأنه يمكن مقابلته على الغذاء أو العشاء لأنه مشغول ثم اقترح عليّ الحضور إلى مكتبه للحديث لعدة دقائق. في وقت لاحق علمت لماذا كانوا يعملون وقتاً إضافياً في وزارة الخارجية، ففي خلال (٢٤)

ساعة سيعلن العراق أن الكويت هي المحافظة التاسعة عشرة العراقية، أي بمعنى رسمي ضم هٰذه الدولة الصغيرة. وبدأ رسامو الخرائط يضعون اللمسات الأخيرة للخرائط الجديدة للقطر العراقي.

سألنى نزار بعد أن تم إرشادي للجلوس في غرف الانتظار: «كيف حالك يا «بوب»؟»، الآن أصبح الذين ينادونني بلقب «بوب» فئتين على وجه الكرة الأرضية:

الفئة الأولى: موظفو الخدمة العسكرية الإجبارية.

والفئة الثانية: هم الذين لا يعرفونني جيداً. بالنسبة لي قبلت بصورة أحسد عليها التسمية الخاطئة فيما يتعلق بالفئة الأولى، وأما بالنسبة للفئة الثانية فقد قمت بالتصحيح حالاً. لكن فيما يتعلق بتسمية وكيل وزارة الخارجية العراقية فتركته يناديني كما يشاء. ثم شكرت حمدون ثانية على مساعدته لي في مقابلة عزيز.

أراد أن يعرف وسألني: «ما رأيك في المقابلة؟».

قلت: «أنت ما رأيك؟».

قال وهو متجهم: «كانت جيدة»، مما أثار حاسة حب الاستطلاع لدي.

سألته: «هل كنت تتوقع أن يقول الوزير شيئاً لم يقله .. ؟».

سحب حمدون نفساً من سيجارة مالبورو ونفخه لكن لم يرد على السؤال. ثم قال وهو يغيّر الحديث: ««بوب» كم ستبقى في بغداد؟».

قلت له: «إن الـ «C.N.N» سوف يهمها تمديد فترة البقاء، لأنني أشعر بأن لقاء صدام حسين يحتل الأهمية القصوى». ثم شرحت له أهمية بث اللقاء حياً ومزاياه، «وأنه ستكون فرصة جيدة للمسؤولين العراقيين: الرئيس والوزراء وكبار المسؤولين لإجراء لقاءات معهم تشرح وجهة نظر العراق إلى أرجاء العالم».

قال حمدون: «أوافقك الرأي، أخبر ناجي بذلك عند مقابلتك له في وقت لاحق». لاحظت أن نزار كان مشغولاً بشيء آخر، وأعتقد أنه حان الوقت لإنهاء الحديث.

ـ «آمل أن تتاح لي الفرصة لمحادثتك من وقت لآخر وأرجوك أن تعرض لي وجهة نظرك سواء رغبت في تسجيلها أم لا».

قال مبتسماً: «أنا لا أجرى لقاءات تلفزيونية، لكن لك الحرية في مهاتفتي، وسأساعدك قدر الإمكان».

عندما ذهبت إلى مكتب ناجي الحديثي، لم أجده وحده، بل وجدت عنده «جون سمبسون» ومحمد أمين. آثرت الصمت لأنني لم أحب أن أكشف خطط التغطية الإعلامية أمامهم. ومن خلال التعبيرات التي تظهر على وجوههم كان واضحاً أن فريق الـ «B.B.C» والـ فيز نيوز «VisNews» يعملون

نفس الشيء، لكننا نظل جميعاً نستقل نفس الزورق. ثم سأل ناجي: «أظن أن الـ C.N.N ترغب في زيارة الكويت؟».

ـ «بكل تأكيد، هل هٰذا ضمن الخطط؟».

قال وهو يحرك بأصابعه حباتِ سبحة خضراء: «سوف نرى، ماذا عساي أن أعمل لك يا «روبرت»؟».

قررت ألا أتكلم في موضـوع مقابلتي لصدام حسين على أساس ما اتفقت به مع حمدون وعزيز، ولكنني كنت بحاجة لأن أقول شيئاً عن النقل الحي والبث. إن ما أربكني أنه لم يكن لقاء خاص، ولكنني واصلت حديثي: «سيدي، إني أعلم بأن الـ «C.N.N» تقدمت بطلب للسماح لها بإحضار محطة تلفزيون قابلة للحمل، وعلمت أنك تستطيع المساعدة في الأمر». وأضفت محاولاً أن أتحفظ في كلامي قدر الإمكان، «بدأ الأمر لي بأن «سمبسون» وأمين يودان رؤيتي ميتاً».

قال: «نعم، بالطبع، لكن لم نتسلم طلباً رسمياً منكم».

كنت أعرف أنني قد غفلت عن ذلك منذ زمن، يا للعنة؟. وقلت: «إذا كان هناك خط تليفون دولي أستطيع استخدامه، فإنني سأطلب إرسال الطلب بالتلكس خلال ساعة».

قال ناجي: «يمكنك التحدث من تليفون السكرتير». وسجّلت رقم هاتف التلكس الخاص به، فشعرت وكأني حصلت على كأس الفوز الكبير.

ها قد تحقق الأمر، فماذا بقي، سيسمحوا لي باستخدام هاتفهم.

قلت محاولاً الاحتفاظ برباطة جأشي: ««إيسون»، لن تخمن من أين أحادثك . . ».

كان مستغرباً عندما نقلت له الأخبار.

سألني: «من سيتولى عملية البث؟ إضافة إلى «نك روبرتسون»، لا يوجد أحد آخر يمكن إرساله لكم».

الأمر يتطلب اثنين من المهندسين للبدء بذلك وشخص ثالث للربط. وقد كانت لنا تجارب غير سارة عندما نعمل مع هؤلاء الناس عندما يقتضى الأمر العمل في مناطق خطرة، فعلى سبيل المثال عند قيام الثورة الرومانية لم نجد مهندساً للبث على استعداد للسفر إلى بوخارست. وفي النهاية تولى الأمر «شارلي هوف» المسؤول عن بث الأخبار الذي انضم إلى العمل في الـ «C.N.N»، ومعه «تيم ويلسون» رئيس مهندسي البث عبر القمر الصناعي، وكلاهما من الجهاز التنفيذي. كان «نك» في ذلك الوقت يعمل مع وكالة «N.B.C». وخلال وجودنا في القاهرة لإقامة تغطية حية لمؤتمر القمة العربي الطارىء يوم ١٠/آب فإن أحد مهندسينا قال إنه (يعارض رسمياً)

سفره إلى بغداد ليقوم بالبث من هناك.

فسألته: «لماذا تقوم بذلك بالبث من الاستوديو إذن؟».

أجاب: «في تلك الحالة فإن البث الحي سيصبح من مسؤوليتي، ولو شك العراقيون في الأمر فإنني سأتعرض للمشاكل».

قلت ضاحكاً: «لو سمحت لي، هل تتصور أن الشركة ستجعلك تتحمل نفقات البث على حسابك؟»، لكن الحقيقة أنه كان خائفاً.

قلت «لإيسون»: «ماذا عن فريق العمل، أود الاطمئنان عليه. نحن بحاجة إلى بث وإرسال رسائل التلكس»، ثم تشاورنا لعدة دقائق في بعض النقاط، واهتم «إيسون» بتكملة ما تبقى خلال وقت قصير سيصبح طلبنا على مكاتب التلفزيون العراقي ووزارة الإعلام.

في نهاية التلكس اختتمناه بالرجاء في الحصول على موافقة مستعجلة للبث في نفس اليوم في مثل هٰذا الجو فإن استعادة تجاربي الماضية يظهر كم كنت مخطئاً وساذجاً، عندما تتصور أن العراقيين سيلبون الطلب بسرعة. وقبل أن تتم الموافقة، فإن أكثر من مائة تلكس لا بد من عرضها على مكاتب الوزارات الأخرى المختصّة.

صرخت على «كـلانسي»: «أنظر، صدام على شاشة التلفزيون للمرة الثانية ومعه مجموعة أخرى من الرهائن»، كان الأمر هٰذه المرة مختلفاً عن المرة السابقة عندما زار صدام المحتجزين في الأماكن الاستراتيجية الحساسة، في هٰذه المرة تم إحضار الرهائن إليه، وجلس الرهائن على صفين من الكراسي متقابلين، وكأنها صالة مكيفة يتوسط البلاط فيها صدام حسين نفسه.

حاول أن يؤكد للرهائن: «أن عقولنا مفتوحة، نحن لم نغلق أبوابنا أمام أي فكرة، لكن الولايات المتحـدة هي التي عقّـدت الأمور بتواجدها في العربية السعودية، نحن لسنا وافدين جدد على المنطقة، نحن نعرف أن العالم بحاجة إلى النفط ـ ولكن بسعر معقول»، كان مترجم صدام هو نفس المترجم الذي لفت أنظارنا في المرة الأولى عند عرض صور الرهائن ـ كان يتحدث بلكنة إنجليزية.

قال صدام: «إن مسألة الكويت هي قضية عربيّة، لقد أصبحت الأمم المتحدة مخلباً في يد الولايات المتحدة، والآن نحن نتعرض لتهديداتها ـ وأنتم هنا ـ بعد أن أشار بيده ـ تُسْدُون خدمة شريفة».

سألت إحدى السيدات بتردد: «على الأقل لماذا لا تسمحون للأطفال بالسفر حتى يعودوا إلى بلادهم ويواصلوا تعليمهم؟».

فكّر صدام في السؤال ملياً لكنه أعطى إجابة مبهمة وأجاب: «إنه متأثرٌ جداً بمعاناتهم»، ثم

اتخـذ مكـانـه مع مجموعة الرهائن لاتخاذ صورة عائلية له معهم. بعد ذلك ظهرت على شاشة التلفزيون باقة ورد كبيرة تملأ الشاشة.

أخذ «كلانسي» ينقّح ويراجع تقريره بينما يقوم أفراد الفريق بتجهيز الحامل على البلكونه، وقلت: «سأحاول الاتصال مع أتلانتنا سأعود خلال أربعين دقيقة»، وعندما اندفعت نحو الصالون وجدت مجموعة كبيرة من الصحفيين أيضاً يسعون للاتصال مما جعلني مكتئباً فقد أحسست أننا لن ننفرد بسبق وحدنا.

قال إيسون: «ستكون «أنغريد» و«بيتر هومي Humi» هنا خلال يوم أو يومين»، «ولكن لم أجد مراسلين. لا يزال «بلايستون» في إجازة وباقي فريقنا في عَمان لا يريد الحضور. الـ « C.D » في طريقها إلى عَمان قادمة من ميامي. ولم نتمكن من مجرد السؤال، أخبره أن يذهب إلى بغداد مباشرة حال وصوله».

ـ «ماذا عن تدبير البديل عن «تري»؟».

ـ «أنتظر لتر ما يمكن الحصول عليه من فريق الـ «C.D »، أو ربما يستطيع «نك» أن يساعد في الأمر، كما أننا نحاول إحضار «كريز مانكِ KRIZ MANICH » لتشترك في التحرير».

لقد كان أمراً سعيداً عندما كنا نعمل لوحدنا في الخمسة أيام الماضية. لكنني أُرحب بكل مسـاعـدة تأتيني. إنني أتـوقع أن تكون المنافسة شديدة، وسيكون وصول «أنغريد» هبة من الله تصلنا، لكن من سوء الحظ فإن «ريتشارد بلايستون» خالي الوفاض. كان «كلانسي وبيتر أرنت» من فرسان الشبكة القدامى، لكن «أرنت» اقتصر مكان عمله على القدس.

قال إيسون: «لا يمكن الاستغناء عنه هناك».

في مركز البث تحوّل الجو العام إلى شيء يستحق الإدراك. كان المدخل العام إلى محطة التلفزيون مغلقاً تماماً بالصحفيين اليابانيين، كل منهم يتلعثم ببعض الكلمات الإنجليزية، لعل الحرس العراقي يفهم ما يريد الذين لا يريدون أن يفهموا أو يسمعوا أي كلمة. فقد كانوا يصيحون: «أريد العودة إلى طوكيو» وهم يلوحون ببطاقات العمل في وجه الجنود الذين تحجرت وجوههم. ويرددون: «أرجوك، لا بد من عودتي إلى طوكيو». فكرت ووجدت الأمر مسلياً بينما كنت أنتظر، ثم درت حول أبناء بلاد الشمس (اليابانيين) واتجهت إلى غرفة المراقبة الرئيسة حيث اقتادني أحد الحراس العراقيين، صعدت السلالم ووجدت أحد مراسلي «A.B.C » على وشك الانفجار في البكاء.

قالت السيدة عواطف تحاول تهدئته: «كل شيء سيصبح حسناً يا «تيري»، سنحاول مرة أخرى».

حاول أن يستجمع نفسه قائلاً: «ألا تدركين بأن ذلك سيغدو أمراً متأخراً»، ثم وضع رأسه بين يديه.

ثم قلت للسيدة عواطف بعد تقديم التحيات المعتادة: «هل هناك مشاكل في البث؟».

قاطعني تيري رونج «Wrong»: «أعرف أن الحجز لك سيصل خلال دقيقة، لكن عليّ أن أوصل هذه المادة إلى فورست «FORREST» (سوير) «Sawyer» - ولم أتمكن من إرسالها هل يمكنك منحي الفرصة؟».

صاح أحد الفنيين فجأة: «إنهم يستطيعون رؤيتك في عَمان»، أخذ «تيري» ينظر إليّ بينما اتسعت عيناه مثل الصحن.

قلت: «هيا»، وأنا أطالع ساعتي، واحد فقط مسموح لك يا صديقي بينما كان «سوير Sawyer» يقضي وقته في تكاسل.. كانت السيدة عواطف تتابع مشاهدة تقرير «جيم».

ثم همست قائلة: «غداً سنعلن بياناً مهماً. يمكنك محادثتي هاتفياً بعد الظهر».

قال تيري وكأنه ولد من جديد: «شكراً جزيلاً أنا أدين لك بواحدة». ملاحظاتك في أوانها..

قلت وأنا أمسك بخط المكالمة مع عَمان: ««رول» كيف المستوى.. «مارك»..».

أثناء خروجي ذهبت إلى كبير المراسلين الإيطاليين «فبريزو ديل نوشي» من شبكة «RAI»، قضى «فبريزو» وقتاً كبيراً في إسرائيل لتغطية أخبار الانتفاضة، فأصبحنا أكثر من صديقين، ومنذ ذلك الوقت أخذنا نتصل مع بعضنا عبر الهاتف عبر مدن أخرى مثل بوخارست أو جوبورج. كان كاتباً مثالياً وحسن الهندام أنيقاً، مثالياً في ملابسه ويحسن إقامة العلاقات. كان إنساناً مرحاً، ويمكن للمرء أن يعتمد عليه في إشاعة المرح، حتى لو تواجد في أماكن كئيبة. ولكن هذه المرة شاهدته بروح منخفضة على غير عادته، وأشار إليّ بيده لئلا يسمعنا أحد.

قال لي والحزن يغلف حديثه: «علمت من مصدر موثوق أن الحرب ستنشب قريباً».

قلت له: «هل لك أن تخبرني المزيد؟».

أجابني: «المصدر يعمل حيث كنا تقابلنا أول مرة، إنه ليس عربياً».

همست له: «وزارة الخارجية». وهز رأسه علامة الإيجاب.. فشكرته، سأتصل به فيما بعد..

أنزلت «مارك» عند الشيراتون وواصلت طريقي إلى السفارة، لا يمكن إغفال يد المخابرات الإسرائيلية، ولا يمكن إغفال أنها قد تتعقب المكالمات التليفونية وتترصدها. طلبت «إيسون» حالاً وقد وضعت في اعتباري أن تليفونات السفارة مراقبة.

من الأفضل في هذه الحالة التنسيق مع «ريجستر»، كان «لاري ريجستر» هو رئيس المكتب

في القدس وله صلات وثيقة مع وكيل وزارة الخارجية الإسرائيلية.

قال إيسون: «سوف أتصل به، وسنتحدث في الصباح».

وأثناء دخولي إلى مكتبنا قال لي تري: «إن «C.B.C» موجودة هنا، وإن «راذر Rather» وباقي الفريق يبحثون عنك ويقيمون في الغرفة رقم (١٤٠٨)». تناولت مشروباً ثم استعملت المصعد.

كان «دان» وباقي الفريق ملتفين حول طاولة الغذاء ينتظرون طعامهم. ولم أكن أعلم بأصناف الأكل المسجلة في القائمة.

قال لي دان: «اسحب لك كرسياً واجلس، لعلنا نؤكد لك شيئاً»، رجوتهم عدم ذكر شيء قبل أن نشرب نخب وصولهم بالسلامة.

كان يرافق «دان» في سفره «تـوم، بيتاج، جون ريد، وديف كارافيلو» وهو منتج في مكتب واشنطن. سأل «جون»: «ما الذي يجري هنا؟».

لعدة شهور خلت فإن شبكتي الـ«C.N.N» و« C.B.S» كانتا تقومان بتجربة التنويع. ونتيجة لتصاعد تكاليف تغطية الأخبار الرئيسة والحوادث المهمة، غالباً ما كنا نمدهم بالمعلومات في مناسبة إطلاق سراح «نيلسون مانديلا»، وقاموا بتقديم خدماتهم لنا أثناء الانتخابات في المانيا الشرقية. كما زودناهم بالمعلومات مرة ثانية من بوخارست حين ذهاب الرومانيين إلى صناديق الانتخابات. وهكذا استمرت الأمور بيننا، معلومات ذاهبة ومعلومات آتية منذ وصول الرهائن إلى فسبادن في المانيا إلى مؤتمر القمة العربي الطارىء في القاهرة.

كان رجالات الشبكتين الذين يجيدون فن الحديث حريصين على إقامة العلاقات بيننا ولكني لم أكن أولي ذلك الأمر أهمية. لأنني كنت أعتقد أنه توجد الإمكانية لمساعدة بعضنا في الخارج عندما يوجد لكل شبكة رجل واحد فقط يتولى عملية النقل الخارجي، مع الاحتفاظ بقدر من المنافسة بيننا. ثم شرحت لهم الأمور حتى اللحظة الأخيرة.

قال لي دان معتزاً بخدماتي: «آمل أن نستطيع تقديم جزء من المساعدة لكم». وودعتهم بتحية تصبحون على خير.

قال ستيف ثايبولت: «علمنا أن أحد الرهائن الأمريكيين قد مات.. يقول العراقيون إنه أصيب بنوبة قلبية».. هذا الخبر يعتبر امتيازاً في حق نشره، ولكني اجتمعت اليوم في مكتب السفير بالمراسلين من «N.B.C»، «A.B.C»، «C.B.S»، ولو كان هناك مجال لنشر الأخبار فهي من حق «N.B.S»، لقد طلبنا مزيداً من المعلومات.

شرح ثايبولت الأمر بصبر وأناة: «أنظروا.. كل ما نعرفه باننا نأمل أن نستلم الجثة في نهاية

هٰذا اليوم . . وحتى هٰذه اللحظة لا يبدو أنها نوبة قلبية. ونتعامل مع الأمر كشيء عادي يخص الشؤون القنصلية التي على دراية بالأمور في حالة وفاة أحد الرعايا الأمريكان في الخارج. وبكل وضوح، فإننا لن نعلن إسم المتوفي حتى تتلقى أسرته الخبر بصورة رسمية».

بعد دقيقة دخل جو ويلسون ثم قال: «صباح الخير». وقدم نفسه «. . كما أخبركم «ثايبولت» فإن أحد الرعايا الأمريكان قد مات، وأمامي الآن أعمال كثيرة عليَّ أن أنجزها، وإذا أردتم فسوف أوجز لكم المعلومات في مركز الاستعلامات الليلة، وعندها ستحصلون على المعلومات ومعها مشروب البيرة».

ثم سأل ثايبولت: «هل ملأتم الثلاجة؟».

وأجاب ويلسون على بعض الأسئلة العامة عن وضع الدبلوماسيين في السفارة وبعض أمور الرهائن ثم ودعنا قائلاً: «كما وعدتكم سنتحدّث في وقت لاحق».

كان «ثـايبـولت» ينفذ التعليمات الصادرة إليه: فكل شيء يعزوه إلى دبلوماسيين أو مصادر غربية، ثم شرح إجراءات استخدام الهاتف، وبعد ذلك انتهى الاجتماع، وأسرع كل منا إلى مركز الاستعلامات الأمريكي بالسفارة لإخطار مؤسسته بالمعلومات.

اجتمعنا ثانية في المساء، ولم تعد وفاة الشخص الأمريكي الخبر الرئيس، حيث تقدم عليها الالتمـاس الـذي تقدمت به إحدى السيدات الرهائن. وإعلان صدام بأنه يمكن لجميع النساء والأطفال مغادرة العراق والكويت.

كانت هٰذه هي الجزرة. أما العصا فقد جاءت على دفعتين: أعلن العراق رسمياً أن الكويت هي المحافظة التاسعة عشرة وأعلن أنه سيطرد عدداً من الدبلوماسيين الأمريكيين كخطوة للمعاملة بالمثل رداً على قرار واشنطن باعتبار عدد الدبلوماسيين العراقيين غير مرغوب فيهم. يكفيني القول بأن الفوضى سادت في غرفة البث.

ـ كما ترى يا سيد «روبرت»: «. . فقد ذكرتني عواطف . . ، قلت لك إن اليوم سيكون مهماً».

وهكـذا، قال جو ويلسـون وهـو يفـرقع غطاء علبة البيرة: «. . ربما تصفون محادثاتي مع الحكومة بالصراحة والعدوانية والإصرار والمباشرة». ثم سحب نفساً طويلاً من سيجاره «. . من طبع الحكومة أنها مصابة بالوسواس . . ولا يوجد اتصال مع الرئاسة، لا أستطيع أن أخبركم لماذا اتخـذ صدام قراره (بإطلاق سراح النساء والأطفال . .)، ولكننا سنحاول الحصول على إيضاح للأمور». ثم واصل «ويلسون» كلامه: «كما أن وفاة مواطن أمريكي شيء مهم، لكننا حتى الآن

لم نحصل على معلومات إيجابية، ربما آمل في الغد، ومن الطبيعي أنني قدمت احتجاجاً عن وفاته إلى وزارة الخارجية».

سألته: ««جو»، هل صحيح أن الرجل توفي بسبب نوبة قلبية؟»».

قال: «هٰذا ما فهمناه».

ـ «هل هناك دلائل على أن النوبة القلبية حصلت لأنه حُرم من دوائه أثناء اعتقاله؟»».

ـ «لا، لا يبدو أن ذلك حدث».

ـ «وأنت تعتبر أن الوفاة من أمور القنصل العادية، حيث إنه لسوء الحظ توفي مواطن في الخارج؟ أليس كذلك؟»».

ـ «نعم . . »».

قال لي: «لأننا لم نصل إلى الحقيقة يا «روبرت»، وفي هٰذه الأيام لا يوجد شيء تستطيع أن تسميه سلوكاً طبيعياً. نحن لدينا عشرون حالة في العراق والكويت لأناس يعانون مشاكل طبية خطيرة، وقد بحثنا هٰذه الحالات مع وزارة الصحة. ولم تقدم الحكومة العراقية ما يشفي غليلنا بأنها ستغيّر سياستها نحو هٰذه الحالات. لذلك قدمت احتجاجاً على الوفاة فربما يكون مساعداً ويمنع تكرار حدوث الشيء نفسه مع الحالات الأخرى».

لم يكن «ويلسون» في حالة تسمح له بالدفاع خاصة وهو يواجه أشخاصاً مرموقين في الإعلام أمثال «راذر وفروست سوير» اللذين كانا ينصتان باهتمام لحوارنا القصير. لكن لم أكن في وضع المواجهة معه. هل كان هناك طلب بتقديم الاحتجاج؟ هل الاتهام كان جزءاً من عملية استعراض؟ فمنذ وصولي لم أر «جو» يتحدث بمثل هٰذه اللهجة . .

قال لي ثايبولت قبل أيام: «إن «جو» قد شرب كل ما قدمته له وسائل الإعلام، لقد كان مسروراً المساء عند وصول «راذر» و«كوبل»، وأدركت عندها لماذا سمح لوكالة «C.B.S» بالبث من مقر مفير، فقد كان يعرف إن إمكانيات «C.B.C» محدودة، ولكنه سمح لها بذلك مما جعل واشنطن نلومه على الأمر».

من السهل تبادل العواطف والتضامن، فإن وسائل الإعلام كانت بحاجة إلى «جو»، وترفع من شأنه، فوق كل ذلك كانت السفارة تمثل لنا خط الحياة، وعن طريقها تتم اتصالاتنا مع العالم الخارجي، كنا بحاجة إلى «جو» في الاستقبال، في العرض، وفي معرفة وجهة النظر، هٰذا السبب في شعوره الطبيعي بالغرور فقد أصبح إسمه يرد في كل شبكات التلفزيون التي تصل مباشرة للمواطنين، كما تصل إلى الصحفيين. من الأمور التقليدية أن الصحافة على خلاف مع الحكومة،

لكن في بغداد فإننا جميعاً أبناء (العم سام)، إذن هل نحن أحياناً نقترب من بعضنا . .
كل ذلك راودني بعد أن اتضحت الأزمة وتواصلت.

غيّر «راذر» الموضوع بطريقة دبلوماسية وسأل عن أوامر الطرد التي وصلت للسفارة.

قال جو: «لقد أمروا بطرد الملحق التجاري رغم أنه قد غادر البلاد من قبل ولم تعد هناك تجارة في هٰذه الأيام بين العراق والولايات المتحدة». قال ذلك ضاحكاً وشاركناه ضحكته.

قلت لمازن: «سيلتحق على الأقل أربعة موظفين جدد، إضافة إلى معداتهم، وعلينا أن نرتب أمر إحضارهم».

قال: «لا توجد مشكلة، نحن لدينا الآن ثلاث سيارات»، ثم ضحك وقال: «أنت أصبحت مسؤولاً كبيراً في بغداد».

ـ «أعتقد أن الشخص الذي صورته في الصالون هو الرئيس الحقيقي الكبير»، لكنني أثنيت على تقديره. اتخذت باقي الشبكات التلفزيونية مواقعها استعداداً للعمل، وأصبح من الواضح ضرورة زيادة عملية بثنا للأخبار. إضافة إلى المكالمات الهاتفية المستمرة فإنه كان مطلوباً منا بث رسالة مسائية. كما أن شبكة الـ «C.N.N» قررت إرسال نشرة صباحية لتبقى المنافسة في صالحنا. قد تكون الصور قليلة لكنها لن تشكل لنا عقبة. ففي منتصف الصباح يرابط كل مصور أمام السفارة لتصوير المظاهر العفوية. كما يتم تصوير أسوار السفارة نفسها التي تعلوها الأسلاك الشائكة، ويصور العلم الذي يرفرف مما يشكل تغطية لموجز الصباح. كما أننا نقوم بمتابعة التلفزيون العراقي ضمن برامج الليلة السابقة، ويتم مزجها بمناظر حديثة للشارع، والناس أثناء شرائهم الغذاء، مع تضمين النشرة صوتا لواحد أو اثنين من الرهائن ووضع مقدمة موسيقية سريعة، كل ذلك مكّننا من إعداد رسالة كاملة، وقد عبرت عن ذلك ليندا إيلربي بقولها: «إنها ليست عملية جراحية في المخ».

بناء على ما رواه «ويلسون» فقد كان يوجد في العراق (٢٥٠) إمرأة وطفل من الممكن سفرهم، وأعلن راديو بغداد أن الحكومة تقوم بالاستعدادات لنقلهم إلى العاصمة من الأماكن الاستراتيجية التي يوجدون فيها، وتشمل بعض المواقع العسكرية والاقتصادية. أصرّت عدة نساء على عدم المغادرة للبقاء إلى جوار أزواجهن، تمّ إخطار السفارة لتقوم بإعداد قائمة لمن يرغب في السفر. وتلقت السفارة عديداً من مكالماتهم يطلبون مزيداً من الإيضاحات. لا زالت نسبة كبيرة من الأمريكيين: النساء والأطفال يختبئون في الكويت أو لجأوا إلى أماكن آمنة هناك. كان الدبلوماسيون الأمريكيون ينسقون عملهم مع زملائهم الأوروبيين لترتيب عملية إجلاء كل شخص يمكنه السفر.

سألت جو: «هل تظن أن العراق جاد في هٰذا الموضوع؟».

قال بتحفظ: «دعنا نرى، ولن تكون المرة الأولى التي يغيرون فيها أوامرهم بالنسبة لنا».

كان إعلان صدّام بمثابة ضربة في ذراع «كلانسي» مما أدى إلى زيادة ضخ الأدرينالين عنده. وتمكن بكل مهارة من إعداد النشرة الصباحية وتم بثها إلى أتلانتا. اتصلت مع نزار وناجي، لكن لم يكن لديهم أي معلومات عن النقل الحي أو مقابلة صدام. قمت بحجز الغرف لرفاقنا القادمين، ووجدت أننا بحاجة إلى توسيع موقع العمل. ففي خلال أيام قليلة سيصبح لدى شبكة الـ «C.N.N» في بغداد اثنان من المراسلين واثنان من المساعدين واثنان من المنتجين، ومراقب فيديو. ساعد وجود صورة كبيرة «لأندرو جاكسون» في الجناح المجاور لنا في تأمينها من رجل الاستقبال. وبوصول المزيد من الصحفيين يومياً إلى بغداد، قررت وزارة الإعلام تجهيز مكتب في صالون الشيراتون.

«وقّع هنا لنتمكن من زيارة الجيش الشعبي».

سألني إيسون: «هل أنت مستعد لهذا الخبر؟ سيصل «جيسي جاكسون» الليلة أو غداً إلى بغداد.. ويبدو أنه سيقابل صدام. سيحاول أن يأخذ معه عدداً من الرهائن في عودته. الشيء المحير إن «جاكسون» سيصلكم بصفة صحفي، هل تصدق ذلك؟ وسيقوم بذلك لصالح شبكته التلفزيونية».

قلت له ضاحكاً: «على مهلك، رويداً».

قال: «لا، إني جاد في كلامي، وستكون معه ثلاث آلات للتصوير لتوثيق الرحلة بأكملها، على أيه حال حاول أن تنسق معه، نحن لا يهمنا كثيراً أمر «جيسي» لكن ربما نستفيد منه في لقاء صدام، ربما تكون هناك مشكلة».

وبالطبع قامت جماعة «جيسي جاكسون» بالاتصال مع فريق الـ «C.N.N» وطلبوا المساعدة في أن يرتبوا له أمر زيارته. لكننا بكل صراحة رفضنا وقلت أظن أننا لسنا من الناس المرغوبين عنده الآن.

ـ «عظيم، ماذا تريد أن تخبرني؟ أرى مهنتي المحددة تبدو مستحيلة».

ضحك وقال: «حسناً، هل يوجد شخص آخر يمكن أن يقوم بذلك، حظّاً سعيداً».

قاطعته قائلاً: «انتظر، أريد أن أتحدث مع التلفزيون الأوروبي «E.T.» هل تستطيع أن تصلني به؟» أشعلت سيجارة عندما كنت أنتظر الاتصال.

ـ «تحيتي لك يا «روبرت» كيف تسير أمورك؟ هل لا زالت لديك مشاكل؟ هل لا زلت مشوياً».

قلت ضاحكاً: «نعم، وماذا عنك يا «إدْ»؟».

قال: «كلنا نواجه مشاكل»، لدى الرجل ذاكرة مثل الفيل، فخلال أيام سابقة كنا قد تحدثنا وذكرت لـ «إدْ» بأنني و «كلانسي» قد تعبنا جداً ونفذ صبرنا، وكلمة (مشوي) . . كانت التعبير الصحيح عن حالتنا. كان أمراً غريباً بأن يبقى «إدْ تيرنر ED TURNER» على طبيعته الهادئة. وكنائب للرئيس مسؤول عن عمليات تجميع الأخبار فإن عمل «إدْ» كان يبدو مثل ساعة الهاوي. كان أكثر من رائع في الموازنة واستقرار العمل، يحدد وجهة تقارير الـ «C.N.N» ويؤمن التغطية بصورة تامة. لقد كان لديه مليون ورقة عمل موزعة بين استئجار مراسلين إلى إنشاء مكاتب جديدة أو التطوع لمساعدة زميلين على وشك الانفصال.

كان عمل «إدْ» مثل الـ «C.N.N» لا يتوقف، والأكثر أهمية من ذلك أنه كان يتعامل مع الصحافة وأصبح شيئاً عادياً أن يبدأ حديثه بأنه لا علاقة لمؤسس الـ «C.N.N» «إدْ تيرنر» بهذا الرأي (هٰذه الحقيقة تحولت إلى جملة معترضه). لكن منذ قامت الشبكة ببث شريط صدام مع الرهائن يوم ٢٣/آب تطلب الأمر منه جهداً كبيراً للدفاع عن قراره بنقل المقابلة. وهو لا يشك في صحة قراره هٰذا. لكننا كنا نغضب منه في بعض النقاط ولا نقره على رأيه، ففي آخر نشرة بثها تلفزيون بغداد «مع ضيوف بغداد» قال صدام إنه على استعداد لإجراء مناظرة تلفزيونية مع «جورج بوش»، هٰذا الاقتراح تعاملت معه وزارة الخارجية بفتور.

قال إدْ: «إنني أجزم بأن كلماته التالية لن تكون مع الـ «C.N.N»، يجب أن نكون واعين وألّا نصبح طرفاً في الموضوع».

قلت له: «لا أعرف أنك تساهم في ذلك، ولكنا شركاء وطرفاً في الأمر شئنا أم أبينا، نحن لا نستغلهم بل هم الـذين يستغلوننا ويستفيدون، إنه نفس الأمر السّيء الذي يتم في السعودية أو واشنطن، أليس كذلك؟».

ـ «إنني أُحذّرك فقط بأن تكون حذراً من بعض مسؤوليتنا».

ثم قلت ساخراً: «قال لي «إيسون» إنك لن تغطى نفقات رحلة «جيسي» . .»، «لم لا؟ هل نقضت شروط الميزانية في المرحلة الأخيرة؟».

قال ضاحكاً: «إنني معني بمناقشة الأمر معك» . .

ثم أطلعت «إدْ» بصورة موجزة عما أتوقع أن يحدث في الأيام القادمة. وسألته: «هل من اقتراحات أخرى؟».

وسأل: «هل هناك في المنطق الغربي ما يمنعنا من فهم وتحليل ما بين السطور لوجهة النظر العربية؟».

«بالتأكيد فإن الموالين للعرب في وزارة الخارجية لديهم الكثير».

إن الأمور تسير بصورة جيدة، «أرجوك أن تنقل تحياتي إلى الجميع وأتمنى لكم عملاً موفقاً».

«يصعب عليّ فهم لماذا على الأقل لا يسمحون بالطعام والدواء؟» هٰذا ما قاله أحد الرهائن البريطانيين الجالس في صالون الشيراتون. «إن إطلاق سراح النساء والأطفال كان تعبيراً عن نية حسنة، فينبغي أن نردّ بالمثل، وربما هٰذا يؤدي إلى إخراجنا جميعاً من هنا».

إن إعلان صدام لقي الترحيب، كما أنها قد تكون مدمرة للعواطف بالنسبة للأزواج الذين توجد عائلاتهم معهم في العراق، كان لديهم ارتياح عميق وهم يعرفون بأن أحباءهم سيبتعدون عن طريق الأذى والألم. لكن النساء والأطفال الذين سيتركون أزواجهن خلفهن، كن في قلق وتفكير. إن الرهائن أكثر من غيرهم قد حوصروا في وسط الطريق، لماذا لا يتم السماح بوصول شحنات الغذاء والدواء؟ كنت في حيرة وأتعجب لذلك، هل حقيقة ذلك يضعف الحظر وبالتالي يؤثر على قوة التحالف؟ ألا تستحق خطوة إنسانية من صدام رداً مماثلاً؟

إن مجلس الأمن الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة اتخذ من العراق موقفاً متشدداً، وإن أعضاء مجلس الأمن الدولي لم يسمعوا عن الرهينة الأمريكي، ذلك الرجل الذي قابلته قبل أيام، ولم يسمعوا كما سمع هو أثناء مكالمته التليفونية مع أسرته يومياً أن والده قد مات كما أن «جيس Gus» الذي لا يزال محتجزاً لن يحضر الجنازة.

قال مارك وهو يدخل مكتبه: «ربما نواجه مشكلة. لقد تم إعادة مصور فيز نيوز VisNews من المطار عندما كان يهم بمغادرة بغداد».

سألته: «محمد أمين ذلك الشاب الذي رافقنا على متن الطائرة عند قدومنا».

ـ «نعم، لا أعرف تفاصيل ماحدث، ولكنه الآن في المكتب في الطابق الأرضي الذي أقامته وزارة الإعلام، فإذا كانوا سيحتفظون بالصحفيين هنا فسنكون في عزلة».

ربما يعود الأمر إلى مشكلة بيروقراطية.. فكرت بذلك وأنا أنزل السلالم، إن البديل قد يكون أكثر غرابة، لأكثر من مرة ناقشنا أمر احتمال حجزنا واعتبارنا ضمن «ضيوف العراق» لكن في كل مرة كنت استبعد الفكرة.

قلت مازحاً لـ «دين كارفيللو»: «هل تتصور ذلك؟ لقد تم احتجاز «دان» كرهينة وصوب المسدس إلى رأسه ليطلب من «بوش» أن يفعل شيئاً؟» لكن «كارفيللو» لم يندهش، ظهر ذلك على ملامح وجهه وكذلك نفس محمد أمين الذي كان في تلك اللحظة يحملق في وجود ثلاثة من الموظفين الرسميين الذين أصيبوا بالوجوم وقال: «هٰذا عمل غير لائق..»، وأخذ يردد بصورة مهذبة: «عمل غير لائق وخاطىء تماماً».

سألته: «ما الذي حدث بالضبط؟».

قال: «لقد حجزوني في المطار داخل غرفة لعدة ساعات في عزلة تامة، لم يخبروني السبب. كان شيئاً مزعجاً، وفي النهاية قالوا لي أنت ليس لديك تأشيرة خروج صالحة».

ـ «ألم يستخرج لك مرافقك التأشيرة؟».

أجاب: «قال لي إنه استخرجها . . وقالوا لي ستخرج في الصباح، ويمكنني السفر على طيران الغد، إن هٰذا المكان لا يحتمل». وكتبت ملاحظة لإعادة التأكيد على مازن، إن «تري» سوف يغادر في اليوم التالي، وأريد أن أتأكد بعدم تعرضه لأيّة مشاكل. كانت أعصابه قد ضعفت سلفاً. ثم صعدت ثانية السلالم لأدقق الأمر مع «كلانسي» الذي كان مقرراً أيضاً أن يغادر غداً. كانت زوجته تتوقع أن تضع مولوداً. وأن مهمته في بغداد فتحت بوابة طوفان من العواطف والمشاعر. لكن «كلانسي» كان من طراز المحاربين الذي يلتزم بتكملة عمله أولاً.

ـ «هو يقول أنها الآن المحافظة التاسعة عشر».

شرح لنا مازن وهو يترجم محاضرة طويلة بثها التلفزيون عن الإدعاءات العراقية التاريخية في الكويت، «. . سوف يصل المستر «جيسي جاكسون» هنا وربما يقابل السيد الرئيس صدام حسين . .». بدأت برامج المساء ببث برامج موسيقية عسكرية أكثر مما تعودت عليه، واحتفال لموكب لا ينتهي يعرض فيه صور الدبابات وصواريخ سكود. حتى الشعب سيصبح من ميليشيا عسكرية تشترك في الأمر.

قال مازن بفخر: «سيكون لدينا ٥ مليون تحت السلاح».

قلت: «يبدو لي أن هناك تغيراً في الموقف».

اعترض مازن قائلاً: «لا، لا، كل شيء عادي».

وضع «كلانسي» اللمسات الأخيرة على تعليقه ثم قدمه إلى «كريس كريز مانك Krizmanich» التي وصلت في وقت سابق مع «نيك Nic» من عمان لتحرير الأخبار، وقد غادرت هي و«مارك» و «نك» إلى غرفة البث.

قلت لـ «كلانسي»: «سألحق بكم في السفارة لاحقاً، أريد الاتصال مع «هومي Humi» و «C.D» والعاملين معه».

ـ «يا للّعنة إني اتصور الأمور؟ أن الـ «C.D» هبطوا إلى الأسفل، أعتقد أنه سيمضى اسبوعان قبل أن تتمكن هٰذه الرؤوس الصلبة من الابتعاد عنها. إنها مقامرة، لكني أقول إن وجودي هنا أفضل مما لو حجزت مستقبلاً هنا، إنني أعني أن هؤلاء الناس قد ركبوا رؤوسهم، ومن الواضح أن صدام

خانه التعقل. إنّ العراقيين ينفثون الدخان». ثم ضحك، لم أصدق ما سمعته، لم يسبق أن قابلت الـ «C.D» ولكني أعرف أن لهم شهرة كرعاة البقر. لكن هٰذا الضيق كان أكثر من أن يحتمل، حتى «بيتر هومي» الذي يتميز بهدوئه بدا غير قادر على احتمال المزيد.

قلت له وأنا احتفظ بهدوئي قدر الإمكان: «إصغ لي، يجب أن تضع في اعتبارك أن حديثنا يتم التنصت عليه. وأن جميع مكالماتنا الهاتفية مراقبة، حتى السيارات يبدو لي أن بها نفس الوباء، وأجد من مصلحتنا لو ضبطت كلامك قليلاً أو تحدث بطريقة دبلوماسية». أجال الـ «C.D» عينيه في الغرفة كمن يبحث عن ميكروفونات.

وأجاب «C.D»: «أنا آسف، إني أفهم ما تعنيه، لكن هٰذا المكان اللعين».

قدّمت نفسي إلى أعضاء الفريق: «ستيوارت كلارك، رود نينو» اللذين مركزهما في أتلانتا.

قال لي رود بصفة خاصة: «لقد بدا على هٰذه الحالة منذ صعودنا الطائرة . . »، «ففي بعض الأحيان يفقد أعصابه» . . إنه شيء لا يصدق: شبكة «C.B.S» يمثلها «راذر»، و «A.B.C» يمثلها «سوير Sawyer»، وأنا الصحفي الذي يعادل مرتبة الجنرال «كورتيز لوماي Curtis LeMay».

سألت كلاً من «إدْ وإيسون» اللذين كانا معي على الخط: «من أين حصلتما على هٰذا الشاب؟؟».

قال إدْ بغضب: «أعطني فرصة لأعرف، وسأسحبه من هناك، إن هٰذا السلوك لا يمكن تبريره، إنه تصرف سيء، ولا أُريد ذلك».

قلت له: «حسناً لقد تحدثت معه لعله فهم رسالتي».

قال: «إن الأفضل شنقه».

ثم تدخل إيسون قائلاً: «لدي أخبار سارة لكم، إن «دوج جيمس» سيكون هناك حالاً، لقد حادثني هاتفياً، الكل يخطىء!! وقال إن هناك سوء فهم لدى المكتب في عمان فهو لا يريد الحضور، ستكون «أنغريد» معه ويرافقهما مساعد آخر.

- «حسناً، سيكون شكلنا أفضل وحالنا أحسن».

- «كل ما أقوله أنه سيكون معكم «أنغريد» و «بيتر» وإثنان من المراسلين، وإثنان من المساعدين بالإضافة إلى «نك Nic» و «كريس Kris»، وهٰذا طاقم كبير يزيد عما كان لديك في القدس.

- «إني لا أتطلع إلى رئاسة مكتب بغداد . . ».

قال ضاحكاً: «ماذا تعني، لقد تم تعيينك . . ».

٦

إن إجلاء النساء والأطفال الوشيك استمر يسيطر على أخبار الصباح.

قال ثايبولت: «لقد أخطرنا جميع الموجودين بضرورة مراجعة مكتب الإقامة للحصول على تأشيرة الخروج. وعليهم أن يكونوا على اتصال معنا، وسنقوم بتزويدهم بنصائحنا عندما يستجد شيء في الأمر، ليس لدينا معلومات محددة عن عمليات إجلاء وترحيل من الكويت، ونحاول الاتصال بهم عن طريق صوت أمريكا «VOA» وباقي المحطات الإذاعية، إننا نسعى لاستئجار طائرات للبصرة أو إلى بغداد».

زاد عدد الحضور يومياً للاستماع إلى التقرير الموجز، أما في المساء عندما يحضر «ويلسون» ليقدّم تقرير المساء وما يتخلّله من مشروبات باردة معتّقة فإن ذكراه لا تنسى.

على أي حال كان يحاول أن يحضر إلينا كلما استدعيناه، أما رجال المارينز الذين سيصلون مع القافلة الدبلوماسية من الكويت، فستكون مهمتهم توفير الحماية والأمن. وصدرت التعليمات إلى موظفي السفارة المحليين بتفتيش جميع الحقائب بحثاً عن الآت التصوير والمسجلات. شاهدت رجلاً لم يسبق لي رؤيته في قسم المعلومات الأمريكي يقوم بإعداد قائمة عن قطع غيار السيارات الموجودة في مخازن السفارة، حتى في أسوأ الحالات الفوضوية، تفرض البيروقراطية نفسها.

كبرت أعداد المتظاهرين أمام السفارة رغم أن الهتافات بقيت كما هي «يسقط يسقط «بوش» نعم نعم لصدام، نريد الدواء.. نريد حليب الأطفال.. كان «ثايبولت» أحياناً ينزل من مكتبه ويجرى مناظرة حية مع المتظاهرين. أما «ويلسون» فلا زال يناطح المسؤولين العراقيين، على الرغم ما يكتنف التجربة من إحباط وإضعاف للمعنويات. «ألم تقابل ناجي الحديثي..؟». قال جو بعد أن عبرت عن رأيي بأن العراق يظهر مرونة في موضوع الرهائن، ثم استطرد: «.. لماذا لا تطرح عليه هٰذه الأسئلة؟ لماذا لم يتم إعلام النساء عن سفرهن؟ رغم أن العراقيين أنفسهم يعترفون بأن بعض الأطفال يعانون من حالات الإسهال، لماذا لا يسمحون بإجلائهم على طائرة خاصة؟ إذهب وكلمه مباشرة واسأله هل يسمح العراق لطائرات مستأجرة بالهبوط دون شروط مسبقة؟ لو قامت هٰذه الطائرات بنقل أغذية وأدوية للعراق؟».

ـ «كل ما أقوله يا «جو»، إن إعلان صدام يجب أن ينظر إليه على أنه خطوة إيجابية».

ـ «أين نواحي الإيجابية في الأمر؟ إن هؤلاء الناس كان من الأساس المفروض عدم حجزهم».

كان «ويلسون» محقاً في رأيه ولكن خانه التعبير، في الشرق الأوسط . . وفي آسيا فإن حفظ ماء الوجه شيء أساسي يكمن في الأحشاء. آمل أن نتحمل الأكثر لنكون أكثر تهذيباً. إن واشنطن تتخذ موقفاً متصلباً، وإن «جو» لن يخرج عن خطها.

كانت هناك أعمال لا تحصى تفصيلاتها ولا بد من إنجازها. فعلى سبيل المثال: هل يحتاج الأمريكيون الموجودون في الكويت إلى فيزا (تأشيرة) خروج عراقية لسفرهم من بغداد؟ علاوة على ذلك عندما دخلوا الكويت أول مرة، كانت دولة مستقلة؟ هل من الضروري لكل سيدة تحمل جوازاً أمريكياً أن تذهب بمفردها إلى مكتب الإقامة؟ لقد سُمح للسفارتين الفرنسية والألمانية بالحصول على تأشيرة بموجب كشف جماعي لرعاياها المغادرين.

قال جوي أكثر من مرة: «إن التفاوض مع العراقيين كمن ينزل إلى حلبة الملاكمة». «لا شيء مؤكد حتى يكتمل وينتهي». وقد كان يعرض نفسه للمسؤولية أحياناً ثلاث مرات في اليوم على ما يبدو لإغرائنا مقدماً لنعطيه أمر سفره. كانت سيارته (شفرليه سيدان) البيضاء تقف أمام مبنى مكتب السفير، ويوجه اللوم إلى السائق الذي نسي أن يضع العلم الصغير ذي النجوم والخطوط (العلم الأمريكي) على سيارة السفارة الصغيرة.

من الآن وصاعداً بدت وزارة الإعلام يملؤها النشاط والحركة، فكل مراسل أو فريق تلفزيوني يصل إلى بغداد، من المفروض أن يقابل لطيف نصيف جاسم (وزير الإعلام) الذي كان يكرر تصريحاته مرة ومرة معبراً عن وجهة نظر متشددة بإن «الكويت جزء من العراق»، «إننا لن ننسحب ولن نرضخ» فالكويت عادت إلى الوطن الأم. عندما وصلت حسب موعدي لمقابلة ناجي وجدت على الأقل ستة صحفيين ينتظرون استلام هٰذه النشرة.

كنت أحرص على متابعة الموقف العراقي من خلال النشرات التي تُرجمت إلى اللغات: الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية. إلى أن جاء موعد لقائي مع الحديثي.

قال لي ناجي وهو ينهض من مكتبه: «أهلا «روبرت» ألا زلت حياً؟».

قلت ضاحكاً: «لا زلت أعيش . .»، لم يتطرق ناجي إلى كل تفصيلات عملية إطلاق سراح الرهائن، كل ما قاله أن النساء والأطفال الذين يوجدون في أماكن معيّنة سينقلون إلى بغداد خلال (٢٤) ساعة.

سألته: «ماذا لديك من معلومات عن زيارة «جيسي جاكسون»؟ لماذا ينوي الرئيس مقابلته؟».

ـ «إن «جاكسون» هو زعيم الحزب الديمقراطي . . أليس كذلك؟ وله تأثير كبير على الرئيس

«بوش» . . »، ظننت للحظة أن ناجي يسحب رجلي في الحديث، لكنه كان جاداً.

ـ ««جيسي جاكسون» ليس زعيماً للحزب الديمقراطي، إنه سياسي بارز والبعض يقول إنه رجل مهم، وأؤكد لك بأنه ليس له أي نفوذ أو تأثير مهما كان على «جورج بوش»، علاوة على ذلك أنـه لم يحضـر بصفته السياسية، ولكن ما يوصف بأنه صحفي، يجري ويصور حديثاً لبرنامجه التلفزيوني الجديد».

ـ «هل أنت متأكد؟»، سألني ناجي بنظرة تكسوها الدهشة.

ـ «بكـل تأكيد، مع احترامي للمستر «جاكسون»، إذا أراد الرئيس صدام حسين أن يعرض ويُسمع وجهة نظره إلى «جورج بوش» وبقية العالم فإن مجال الـ C.N.N أفضل وبدون أن أكون جريئاً أكثر من اللزوم أعتقد أن الأمر مهم جداً لينقل رئيسكم وجهة نظره، فإذا نشبت الحرب ستكون كارثة».

صمت ناجي وهو يرشف فنجانه من الشاي.

سألته: «كم ستكون مدة المقابلة؟».

قال: «ساعة على الأقل».

ـ «هل سيتم تحريرها ونشرها؟». بالتأكيد لا، إذا قمنا ببثها حية على الهواء. ولكن دعني أؤكد لك حتى لو تم تسجيلها على الشريط فإننا سنبث كل ما يقوله الرئيس.

قال لي ناجي بعد ذلك: «هل أرسل مكتبكم لي طلباً رسمياً»، ثم ذكرت له إن «إيسون» قام بذلك في نفس اليوم الذي أرسل فيه التلكس للموافقة على البث.

قال لي: «لم أشاهده»، وبدأ ينقب في بحرٍ من الأوراق تغطي مكتبه . .

ثم قال: «لو سمحت، هل يمكن إعادة إرسال الطلب، وسأرى ما أستطيع أن أفعله».

وبينما كان ناجي يوصلني إلى الباب سألته عن البث.

فقال لي: «صبراً، لا تقلق، مع السلامة».

أخبرت «إيسون» أن عليه إرسال طلب ثان بعد أن شرحت له الظروف والشروط. أحضر مازن إسماً لشخص موجود في مكتب تلكس الوزارة، وفي المستقبل سنتبين الأمر . . ليتم تسليم التلكس إلى مكتب ناجي.

بينما كنت سائراً عبر ممرات الصالون رأيت فريق الـ «C.N.N» يجاهد في دفع معدات تصويرهم إلى داخل المصعد. تكفي لإنشاء ستوديو. كانت بادرة سيئة، لكن قررت عدم الكلام. لو كان «راذر» يسعى لمقـابلة صدام، فإنني سأعلم حالاً. بعد ساعات كنت في السفارة حيث انتظرت

اخبارا سيئة، فقد تمكن «راذر Rather» من الحصول على موافقة صدام لإجراء المقابلة.

سألت ناجي في اليوم التالي: «إني مهتم، وما أود معرفته، ما الذي شجعك على أن تخصَّ «C.B.S» أولاً بالمقابلة؟ هل لأن «راذر» كان هنا؟».

ـ «هٰذا جزء من الحقيقة، لكن للأمانة يا «روبرت» فإن «C.B.S» تقدم عروضاً أفضل».

سألته مشككاً: «كيف يمكن لهم تقديم عروض أفضل من التي اقترحتها؟».

قال: «عرضوا تقديم ساعة على الهواء».

قلت: «ونحن أيضاً عرضنا تقديم ساعة».

قال: «لا، فإن التلكس الخاص بكم يطلب نصف ساعة فقط».

قلت لـ «إيسون» بعد أن انفجرت في وجهه: «أنا لا أصدق»، ماذا حدث للساعة.

رد عليّ: «كنا نحسّ بأنه يلزمنا نصف ساعة ويمكن إطالتها إذا تطلب الأمر».

قلت له متنهداً: «نحن نقدم نصف ساعة لـ «مايك» الميكانيكي!».

قال إيسون مهدئاً خواطري: «لا تحزن وواصل الضغط عليهم».

صاحت أنغريد بينما كانت تحشر نفسها في منطقة عملنا: «كيف حالك يا «فينريش»؟».

المطار يشبه البيت الفوضوي. نفس النظرات المتحدية التي تلقيتها من رجال الجمارك قبل سنة عندما قدمت مع «كلانسي»، أظن أن أحدهم تذكرني، وتابعت صراخها قائلة: «إمدادات تموينية . . »، ثم سحبت علبتين من حقيبة من الكتان وطلبت عصير طماطم، وقالت: «لديّ بعض الصحف والمجلات، ما هي؟، سأجدها في وقت لاحق»، رددت الكلام وهي تبحث في حقيبتها.

ـ «ما رأيك في بغداد، إنها مكان غير محبوب، لم أكن أتصور أنهم سوف يستدعوني من إجازتي السنوية للحضور إلى هنا، أمضيت أيامي السابقة في نيويورك بين مراجعة طبيب الأسنان ومطالعة برقيات الأنباء، العمل في القاهرة رائع، على فكره كيف تسير الأمور هنا؟».

ـ «حسناً، قيل أن النساء والأطفال بإمكانهم السفر، ولكن الإداريين لا زالوا بسبيل إعداد الصيغ المناسبة. كان اليومان الأوليان حقيقة يسببان التوتر، لكن الأمور الآن انفرجت. لدينا خطوط هاتف في السيارة يمكن استخدامها، والمسؤول عن ذلك هو «ويلسون»، و«ثايبولت» يسلّم التقارير الصحفية، كلا الرجلين متعاون ويفهم عمله. إن عملية بث الرسائل التلفزيونية تشوبها الفوضى. يمكنك أن تقومي بهذه المهمة وتناط مسؤوليتها بك. إنك تشبهين الفأرة!! أليس كذلك؟».

قالت ضاحكة: «وعضوة في عصابة أشرار».

ـ «ستكونين جامعة بين الاثنين. كأنك في الجحيم، إذا أردنا الجد الآن عليّ أن أصحبك إلى السفارة لمقابلة «ويلسون»».

انـدفعت السيارة إلى الممـر الخـاص المؤدي للسفارة وتوقفت أمامها. نزل رجال التصوير ليسجلوا المشهد، ونزل «جيسي جاكسون» من سيارة مرسيدس فضية اللون، ثم تقدّم قاصداً لقاء «جوي ويلسون». كنت أتابع المشهد من نافذة في الطابق الثاني لمكتب المعلومات الأمريكي ومعي «ستيف ثايبولت» إثنان من الكتبة.

قال ستيف: «لقـد أبدى رغبة في الاجتماع. وكان «جو» سعيداً لأن «جيسي» كان مضطراً لذلك. ولكنا أخبرنا «جيسي» أنه إذا أراد الاتصال هاتفياً، فعليه الحضور إلى المكتب الصحفي كغيره من الصحفيين، ليس لدينا امتيازات خاصة نقدمها له».

قلت ضاحكاً: «أظنك لا تصدق، إنني لم أحاول أن أدخل سيارتنا إلى داخل السيارة؟».

أجاب ثايبولت بطيبة معهودة: «إن هٰذا امتياز بسيط قدمناه له»، وقابل «جاكسون» في وقت سابق نزار حمـدون ثم أخبـر المراسلين أنه جاء إلى بغداد «ليستمع ويتعلم» والآن ليستمع من «ويلسون»، وتوقعت أن يكون المنتج المرافق لـ «جاكسون» قد ذهب لترتيب أمر اللقاء مع صدام.

قال: «ليس لدي أمل كبير في أن تتمكن من حضور اللقاء. لكن أعطني رقم هاتفك، وإذا ما جَدَّ جديد سأتصل بك».

في ذلك الوقت كان فريق «جاكسون» التلفزيوني يقوم بالتقاط صور المظاهرات اليومية، بينما يقوم فريق الأخبار بتصوير رجالات «جاكسون».

قال لي أحد مصوري «جاكسون» عندما سألته كيف تسير الأمور: «يا لها من رحلة، لم يكن لدينا أي فكرة عن البرنامج».

ببساطة قال «جيسي»: «دعنا نذهب، وها قد جئنا، أنه أمر غريب حقاً».

حقاً إنه أمر غريب. يقول «إيسون»: «اتصل بعرفات، لا ليس عرفات، «إيسون» يريد صدام، «راذر» يتمكن من مقابلة صدام. الآن «إيسون» يريدنا الاستفادة من «جاكسون» لمقابلة صدام وهٰذا لن يحدث، «ولا أريد أن أتعرض لمشاكلك على الهواء»، كما سبق لرئيس سابق أن قاله لي. ومن المهم أن رؤسائي الحاليين ممتازين، ولكني أشعر أن الأمور الآن ساءت كما كانت في السابق.

صرخت أنغريد وهي تغطي التليفون: «يا إلهي، إنهم جماعة «جاكسون»، يريدون أن يعرفوا هل نود حضور المقابلة».

سألت بدهشة: «الآن! بعد أن جاوزت الساعة الواحدة والنصف صباحاً».

ـ «يقولون أنها ستتم الآن».

ـ «حسناً، لنقم بذلك».

ـ «لم كل ذلك؟»، لم أسأل أحداً محدداً عندما جمعنا عند المعدات.

خلال عشر دقائق كنا قد خرجنا من الباب متجهين نحو المدينة، كان «جاكسون» ينزل في فندق الرشيد الذي تملكه الحكومة ويُحجز لضيوف الحكومة والشخصيات المهمة. وحتى في ظلام الليل كان منظر الفندق رائعاً، كان هناك شكلان على هيئة عدد (٧) فوق قمة الفندق، تم إخلاء الصالون إلا من رجل واحد عرفته بسرعة، فهو مترجم الرئيس، كان هناك دبوس ذهبي صغير ـ على صدره ـ شبيهاً بالذي يضعه صدام. أحنى صدره على حاجز الاستقبال وهو يدقق في كشف الأسماء.. بينما اتجهت «أنغريد» والآخرون نحو مكتب الاستقبال لمعرفة مكان «جاكسون». وقدّمت نفسي.

قال باحترام في لهجة إنجليزية: «أهلاً، أنا الدكتور سعدون الزبيدي».

سألته بانشراح: «أنا سعيد بلقائك، فقد شاهدتك على شاشة التلفزيون، خلال الأيام الماضية، هل أنت هنا مع الرئيس».

ابتسم قائلاً: «ليس هٰذا كل ما في الأمر، أنا هنا لمساعدة مستر «جيسي جاكسون».

ـ «هل هٰذه أسماء.. الضيوف الذين سيأخذهم «جاكسون» معه؟».

ـ «سوف نرى. هٰذا ما أقوم بعمله الآن».

ـ «حسناً.. لدينا موعد مع مستر «جاكسون» الآن، هل من الممكن أن نكون سوياً اليوم، أو فيما بعد؟ لربما أقوم بعمل تقرير عنك».

قال مندهشاً: «عني أنا؟».

قلت: «بالضبط إن هٰذا يذكرني بمنظر وجه مترجم «غورباتشوف» البروفيل له»، أنت قريب من الرئيس، وعلى دراية بتفكيره، أنت الآن شخص معروف جيداً سيكون اهتمام كبير بك».

ـ «شيء حسن جداً يا مستر «روبرت»»، وافق، ثم أعطى رقم تليفونه في مكتب وزارة الخارجية. وقال: «يمكنك الاتصال بي».

أسرعت لألحق بـ «أنغريد» والآخرين الذين كانوا يهمّون بركوب المصعد إلى جناح مستر «جاكسون»، وقلت لهم: «أخبار طيبة»، هٰذا الشاب «الزبيدي» هو المفتاح. سألغي المكالمة، ماذا سيقول «جيسي جاكسون» إن مقابلة الزبيدي تساوي ثمن القبول».

كان «جاكسون» مجتمعاً مع إدارته ولن يمكن محادثته قبل مرور عدة دقائق. تقدّم أحد المساعدين وطلب مني النزول إلى الصالون. بينما كان أعضاء الفريق التلفزيوني يقومون بإعادة ترتيب الكراسي والأثاث وهما «سايند ستراند Strand» و«ديف هيبرلن Heaberlene». ذكر «دوج جيمس» بعض الملاحظات. وواصلنا الانتظار.

أصبحت الساعة الآن الثانية وخمس عشرة دقيقة صباحاً بعد يوم مُربك بكل تأكيد.

أصبح «جيسي جاكسون» شخصاً له تأثير، لقد أمضى (٣) ساعات مع صدام حسين وترسّخت عنده القناعة إذا لم يتم دفع العمل الدبلوماسي بقوة فإن الحرب واقعة لا محالة.

قال لـ «دوج»: «إن إهمالنا القيام بتسوية شاملة في الشرق الأوسط سيضر بنا»، ولم يكن من الضروري لـ «بوش» أن يطلق النعوت ويستخدم الألفاظ «فنحن أمام رجل في منتصف المرحلة، إن لديه من القوة ما يكفي لإشعال حرب عالمية».

وقال «جاكسون» إنه سيسافر في الغد إلى الكويت، وسيقدّم قائمة بأسماء الأمريكيين الذين يعانون من مشكلات صحية ليعيدهم معه إلى الوطن. ولم يكن أمراً مدهشاً أن يتحدث عن الحاجة «إلى عالم واحد بغض النظر عن تنوع الألوان»، كما ردد أفكاراً مشابهة يستطيع أي شخص يغطي رحلة «جيسي جاكسون» أن يرددها بالسليقة عن ظهر قلب.

وأضاف قائلاً: «كان معظمنا يجهل نزاع الحدود الطويل بين العراق والكويت، ذلك يعود إلى تاريخ بعيد حين قامت بريطانيا بتقسيم المنطقة، في الوقت الذي لا تستطيع الكويت فيه التخلي عن وضعها كدولة، فإنه يوجد تاريخ مثير للمشاكل. وهناك توتر بين البلدين، لا بد من إجراء المزيد من المفاوضات بشأنه. أعتقد أن الكويت أساءت تقدير الغضب العراقي، وأعتقد أن العراق أساء تقدير قدرة الولايات المتحدة في حشد العالم خلفها ضد عملية ضم الكويت. والآن نحن نسيء تقدير ثمن ذلك، فربما نتسبب في إشعال حرب على هٰذه الرمال».

إن التستر وراء الألفاظ المنمقة أدى إلى التعتيم حول المشاكل، وأكد «جاكسون» على رأيه: «إنني أعتني بالشجرة وما تحمله من فواكه لا باللحاء أو القشرة التي تكسوها».

كان عرضاً وأداءاً نجومياً على ما أعتقد، وربما هٰذا ما أثارني وأدى إلى اضطرابي، يبدو أنه أداء واستعراض كبير للغاية. عندما أنهى «دوج» المقابلة قررت أن أوجّه السؤال الأخير.

ـ ««سيدي»، لقد قمت بجولات حول العالم وحول الكتلة الشرقية، والتقيت بزعماء العالم، وكما التقيت بالإنسان العادي، عند مشاهدتك للناس يمكنك أن تكوّن رأياً عنهم والآن أيها القس «جاكسون»، بعد أن التقيت بصدام حسين، هل تثق بالرجل؟»».

كان «جاكسون» قد بدأ ينفعل منذ بدأت حديثي، ولكنه أصبح محرجاً ولا من مغيث له. وبدأ كلامه: «حسناً، أنا لست في وضع . . أنا . . أنا . . أنا . . وسألني هل تستطيع إيقاف التسجيل وقطع الحديث؟»، لم يسبق لي أن رأيت «جاكسون» يتصرف بمثل هٰذه الطريقة. وبدا أن الثقة بالنفس التي أظهرها خلال ثلاثين دقيقة سابقة تبخرت فجأة، لكن بعد ذلك كلّه تبقى المقابلة عفوية، ومن الجنون تحويل الكاميرا وإيقاف التصوير.

قلت له: «أود الاستمرار في التسجيل، إذا لم يضايقك».

قال جاكسون: «أود ألا تقوم بذلك، السبب أنني فقدت القدرة على التفكير، إنني لا أرغب في جعلها مواجهة وتحدياً، سوف أجيب على السؤال».

ـ «نحن بالتأكيد يسعدنا إضافة أي شيء تودّ قوله، لكنه سؤال بسيط مع الاحترام لشخصك هل تثق في صدام حسين؟».

انفعل «جاكسون» وأصبح هائجاً، بينما تستمر الكاميرا في التصوير ولا يستطيع أن يفعل شي حاول مساعده «كينث ووكر» أن يتوسط في الأمر.

قال مقاطعاً: «انظر إن «جيسي» متعب هٰذه الليلة».

قلت له: «دعك من هٰذا، أنتم طلبتم حضورنا، إنه مجرد سؤال بسيط، «هل تثق في صدام حسين؟»».

قال جاكسون في النهاية بعد أن انعكس الأمر على وجهه للحظة: «أنا أثق فيه».

قال وهو يؤكد كلامه «إنه يعمل لمصلحة بلاده لكن العلاقات بين الدول يتطلب توثيقها بين الطرفين بالتبادل وهٰذا يتطلب الحماية عبر تنظيم معين». وأنهى كلامه قائلاً: «إنه يأمل بأن يقوم المسؤولون الأمريكيون (القائمون بالأعمال) بهذه المهمة، ويمضون وقتاً أطول في بحث الأمور كما فعل هو سواء مع العراقيين أو الكويتيين أو السعوديين». عند هٰذه النقطة نزع الميكرفون، وقال: «وداعاً».

سألت أنغريد «ووكر Walker»: «هل يمكن سفرنا على الطائرة للكويت؟».

قال: «سنرى في الصباح»، ثم تركنا لمرافقة «جيسي».

ضحكت سايند قائلة: «هل تصدق ذلك؟ أنا سعيدة أنك لم تدعه يفلت منك يا «روبرت»، هيا بنا».

ـ «حسناً، لقد أجاب بأنه غرق في مياه عميقة، لكن يبقى السؤال مشروعاً ومنطقياً، لقد أمضى الرجل ثلاث ساعات مع صدام حسين، وبالتأكيد كوّن رأياً عنه، وذلك الطلب بإيقاف التصوير كان عملاً ينم عن غباء مطلق. فنحن هنا لا نصور فيلماً سينمائياً».

ـ «أعتقد أن الأمر أخذ زاوية واحدة فقط».

ـ «لا، إن عدواه تسري إلى كل شيء له علاقة به».

قال هومي: ««أنغريد» تطلبك، إنها في المطار».

وقالت تسأل:

ـ «أنهم ينوون إيفاد «مورتون ديل (من شبكة «A.B.C») على الطائرة ليتولى البث باعتباره معد التقرير، فهل يمكنني السفر؟».

ـ «هل سيرسلون أحداً من الشبكة مع «مورتون»؟».

ـ «لا، لا أحد، سيتولّى فريق «جاكسون» التلفزيوني التصوير لصالح الجميع».

ـ «في مثل هٰذه الحالة، ابقي حيث أنت، تحياتي لك. «دين» شاب كفء وسيتولى إعداد التقارير للجميع. وأعتقد أنه سيكون فوضى واضطراب في المطار ساعة وصول الرهائن، وسيكون من الأفضل لنا بقاؤك هناك».

يبدو أنه سيكون يوماً محموماً ومن المقرر أن يسافر «جاكسون» إلى الكويت الساعة الحادية عشرة حسب رواية المسؤولين الأمريكيين في السفارة. ويأمل في اصطحاب عدد من المرضى الأمريكان، ويعود بهم إلى بغداد لإجلائهم. وسيكون معه حوالي (٥٠) رهينة أمريكية في رحلة العودة إلى الولايات المتحدة. يقوم «ويلسون» وباقي الدبلوماسيين بالعمل على مدار الساعة لاستخراج الأوراق اللازمة. ويتولى الاتصال بوزارة الخارجية وسفارات الدول الحليفة الأخرى، ومن المأمول أن يكون عدد من حملة الجوازات البريطانية على نفس الطائرة.

تجمع عدد كبير من المسافرين في فندق أسفل مدينة بغداد، حيث سمحت لهم السلطات العراقية بإجراء لقاءات صحفية، والذي حدث هو إعطاء الحرية التامّة للصحفيين، صراخ وهرج ومرج لف الرهائن، مشاعر مجروحة، وبدأ موظفو وزارة الإعلام يسمعون عن قرب ألفاظاً لم يسبق أن سمعوها تصف أحوالهم بتعبيرات سيئة. واعترف المراسلون أنها ليست الفرصة الأفضل لهم.

سأل مازن باستغراب مما يدور ويسمع: «لماذا يتصرفون هكذا؟».

أجبته: «إنها أشياء في الدّم . . في الجينات».

وفي الكويت صلى «جيسي جاكسون» مع السفير «ناثنيل هاول Howell» وتشابكت أيديهما داخل المبنى ذي البوابة المغلقة. كان الجميع بالطبع قد شعر بانتهاء الوقت المحدد، فاستمرت العمليات لساعات أكثر من المقرر. وفي النهاية تجمع المرحّلون أخيراً في المطار، وهو وقت

مناسب للتصوير والتسجيل، ونجحت «أنغريد» في الاتصال لنقل المشهد حياً، إن فيلم «جاكسون» وزيارته للكويت سيتم توزيعه من قبل وكالة «A.B.C» عند توقّف الطائرة في لندن.

داخل السفارة الأمريكية كانت «ماريكا كنستل Kunstel» من صحيفة كوكس «Cox» و«جو تريستر Treaster» من صحيفة نيويورك تايمز، يرافقان «جيسي جاكسون» ويتوليان إعداد التقرير وتحريره.

وسألتُ ماريكا: «هل يمكن إجراء مكالمة حية تنقل هاتفياً إلى «C.N.N»».

فقالت: «لا أعرف، لقد انتهى الوقت المحدد لي، والأهم من ذلك فإن والدتي ستصاب بالمرض إذا سمعت أني موجودة في بغداد».

- «عمَّ تتحدثين؟ ستقرأ رسالتك غداً في الصباح عندما تشتري صحيفتها».

قالت ضاحكة: «لا، إن أمي لا تقرأ صحفنا، لماذا لا تسأل «تريستار»».

كان «جو» على وشك أن يرسل تقريره، ولكنه قال بمراره أنه سيساعدنا في وقت لاحق، وفي نفس الوقت كان «إيسون» مهتماً جداً بالأمر.

صرخ قائلاً: ««A.B.C» تقول إن الصور الملتقطة من الكويت تخصّها ولها جميعا، هل أنت متأكد؟».

صرخت على «دين» الذي كان يجلس على بعد عدة أقدام مني: «يا «مورتون»، من فضلك، هل يمكنك الاتصال بشبكتك في لندن، وتخبرهم عن حقيقة ما يجري هنا؟».

وقلت لـ «إيسون»: «اتصل بي بعد عشرة دقائق، «مورتون» سيتولى الأمر، إني أعتقد أنها موجودة في دمهم في نفس الجينات».

٧

قال ستيف ثايبولت عندما كنا في انتظار «ويلسون»: «هٰذا النظام الفاسد شبيه النازي يعطينا الضباب، هل تتصور العذاب وما يسببّه هؤلاء الناس؟ أخبروا النساء بضرورة تواجد أزواجهن عند ذهابهن إلى مكتب الإقامة ثم حرموا الرجال حق الوقوف أمامهم».

لقد أوردت صحيفة النيويورك تايمز الحادثة، ولكن كنت أبحث عن «ويلسون» لأحصل على تأكيد رسمي، لم يكن هناك أكثر إحباطاً لوكالة «C.N.N» عندما تلجأ إلى وكالة أنباء أخرى بينما

يتواجد رجالها في نفس موقع الحدث. بدأت الأمور تنفرج بسرعة. فقد كان من المستحيل إبقاء الوضع على ما هو عليه. وغالباً ما كنت أشعر بالحيرة والدهشة من بعض مراسلي التلفزيون الذين يتجاهلون الأخبار، إذا لم يستطيعوا تغطية الخبر لصالحهم، بينما وكالة الـ « C.N.N » ليست لديها مشكلة في توزيع الخبر على الآخرين، فربما نتعرض لانتقاد المنتجين في وكالتنا بأتلانتا ويلوموننا بشدة لمعرفة لماذا لم يكن لنا السبق والأولوية في النشر.

عندما كنت في السفارة، كان فريقنا يعد تقريراً عن تقنين الغذاء الذي بدأ يوم ٢/أيلول، قامت الحكومة بتوزيع أذونات تموينية (كوبونات) ولكنها حرمتنا من تصوير ذلك بدون إيضاح، كانت مغامرة وجرأة لا تقدر عندما سمح لنا السيد كريم أحد السائقين العاملين معنا بتصوير بطاقة تموينه، على الرغم بأنه بكل تأكيد ستعرض الصورة على الرقابة (وهٰذا ما حدث).

قال لي ناجي: «على خلافكم أيها الغربيون، نحن لسنا بحاجة إلى الهمبرغر لنعيش، علاوة على ذلك فهذه أرض الهلال الخصيب، وضحك . . نحن نستطيع أن نعيش على التمر إذا تطلب الأمر، إن العقوبات والحظر هي ابتزاز، ولن نخضع أو نركع بسببها».

وافق «ويلسون» وقال: «ربما يستطيعون تدبير أمر الغذاء، لكن العقوبات ستكون أشد وطأة عليهم في مجال قطع الغيار، وزيوت التشحيم، وإني أنصحك أن تكون منتبهاً إذا أردت استخدام الخطوط الجوية العراقية في سفرك، إن هٰذه الطائرات ليست في الصورة الجيدة لتسافر معها».

قال مازن بصورة مفاجئة: «سنذهب الليلة إلى المعبد اليهودي، هل تذكر أنك طلبت منيّ ذلك لتعد تقريراً عن اليهود، تمَّ ترتيب كل شيء، وعليك أن تتحرك بعد ساعة.

صحت: «الليلة، اليوم هو الإثنين».

ـ «نعم، نعم، أعرف إنه اليوم الإثنين».

قاطعني قائلاً: «نعم سيكونون في المعبد»، لديَّ شعور بالخوف، لكن عليّ أن أسأل.

ـ «يا سيد مازن، لا تستطيع أن تلف على هؤلاء الناس وتجبرهم على الذهاب إلى المعبد، أتستطيع؟»

ـ «نعم، نعم، أنت تريد إعداد تقرير».

صرختُ: ««أنغريد»، لدينا مشكلة كبرى»، ثم أعطيتها التفاصيل.

صاحت: «ماذا سنفعل؟»

ـ «حسناً، إن الشيء الواضح والأفضل هو ما الذي لن نعمله، لكن عليكم الذهاب جميعاً

إلى هناك، بدون آلة تصوير. ثم الاعتذار لعدم المناسبة وسوء الفهم، إذا كنت قادراً على الاتصال مع أسرة فيمكن زيارتها في البيت مساء الجمعة، ونصور في المعبد يوم السبت».

وبكل هدوء ممكن شرحت لمازن معنى الخيانة الصحفية، وقلت له حتى في بغداد فإننا مستحيل أن نقوم بتمثيل أحداث الأخبار.

سألت «أنغريد»: «كيف سارت الأمور؟ وكانت قد رجعت بعد غياب لعدة ساعات».

ـ «كانوا جميعاً هناك بالتمام»، وضحكت. «وكانوا يلبسون ملابس يوم السبت. ولا أعرف إذا كانوا يفهمون ما هو مفروض أن يعملوه، لكنني كنت حريصة جداً لكل شيء، وسيكون الأمر معداً يوم الجمعة».

قلت لها وأنا أرفع نظارتي: «أدين لك بهذه».

كان «هـومي» و«أنغريد» يتواجدان في المكان وأمضيت وقتاً طويلاً في انتظار مقابلة صدام وأيضاً في عملية البث. تحدثت مع ناجي ونزار تقريباً في كل يوم. بينما يواصل «ويلسون» إرسال رسائل التلكس المناسبة للسلطات.

الآن أصبحت شبكة «N.B.C» طرفاً في الموضوع بحضور «جوردون مانج Manning»، سبق لـ «مانج» أن عمل لفترة طويلة مع شبكة «C.B.S» عندما حل محل «سالي كوين» في تقديم موجز (أخبار الصباح) ثم اشتغل مع «N.B.C» عندما تمكن من ترتيب لقاء «غورباتشوف» مع «توم بروكو BROKAW»، ومضت عليه عدة شهور ينتقل بين الصالونات بلا كلل. في مجال المهنة كانت البرقيات «التلكسات» التي يرسلها تعرف بإسمه (ماننجرام).

كان يرافق «جوردون» مترجم فلسطيني حضر معه من عمان، والذي كان اسمه معروفاً عند كل شخص. كل ذلك أعطى «جوردون» ميزة مزدوجة بوجود احتياطي مضاعف له في التفوق علينا، مما أقلقني وحرمني من النوم. كانت الضربة التي تلقيتها من «راذر» كافية لي، ولكن أن تسبقني «N.B.C»، فذلك أمر لا يمكن التفكير فيه. وفي بعض الأوقات كنت أمضي وقتي في قراءة تقارير «جوردون» المبعثرة على مكتب ناجي من أولها لآخرها، وأملي أن أتعلم منها شيئاً. وخلاصة ما استنتجته أن طلباته كانت صريحة ومهذّبة. خلال الشهور القادمة أصبحت جميع شبكات التلفزيون تلح على الحكومة العراقية في عمل ترتيب دور بينها للبث ولقاءات مفتوحة لمعرفة وجهات النظر مما سيمهد لمعرفة انجازات كل شبكة تلفزيونية.

كان هناك سباق فيما يمكن أن نسميه «مزرعة مقابلات». لم تكن شبكة «C.N.N» مستثناة من هٰذه الترتيبات، مع أنني لم أتقبلها ـ ولكني سبحت مع التيار، وبناء على طلب من المكتب الرئيس

في أتلانتا، قلت لناجي بأن (٧٦٪) من الأخبار التي يبثها الأمريكيون منقولة من التلفزيون، وأن (٣٠٪) من المشاهدين يحرصون على مشاهدة الـ C.N.N، وطبقاً لنتائج الاستبيان والاستفتاء، نالت شبكة «A.B.C» (١٨٪) بعد فرق كبير لاحتلال المركز الثاني.

ضحك ناجي وهو يلوّح بورقة مطبوعة وقال: «هٰذا شيء مثير، في هٰذا الصباح أطلعتني شبكة «A.B.C» على نفس الأخبار، ولكن بنتائج عكس ما ذكرت».

كانت الساعة حوالي السابعة مساء عندما استدعاني ناجي إلى مكتبه. وسألني: «أين «رولاند إيفانز»؟»، الآن بالضبط.

ومن لهجة صوته أدركت أن الأمر ليس سؤالاً عَرَضِيّاً.

سألته بقلق: «هل هٰذا يعني بأنني أعرف أين هو؟». «أعتقد أنه من الأفضل لو حضر إلى بغداد الآن. وإذا رغبت فسيحضر معه زميل آخر هو مستر «نوفاك»».

سألته: «هٰذه أخبار رائعة، ففهمت أن مقابلة الرئيس أصبحت مؤكدة، هل ستبث حية؟».

ـ «لا . . إن الفنيين العراقيين في تلفزيون العراق سيقومون بتصويرها لك، ثم تقوم بإرسالها عن طريق القمر الصناعي مثلما فعل «دان راذر»».

شكرت ناجي بحرارة ثم توجّهت إلى السفارة لأُخطر أتلانتا بذلك. صحت على «إيسون»: «إنهم يوافقون على حضور «إيفانز» و«نوفاك»، ويقول ناجي إن عليهم الحضور على أول طائرة».

سألني: «كيف ستكون طريقة البث؟»، حيث إنهم سيصورون على نظام (سيكام) [وهو يختلف عن البث الأمريكي الذي يتبع نظام «NTSC»]. وبالتالي هل علينا تحويله في بغداد أو عمان؟»، واقترحت عليه تنظيم اتصال مع «جون ريد Reed» في شبكة «C.B.S» الموجود في عمان وسبق له أن قام ببث مقابلة «دان» من التلفزيون العراقي.

انفجر ريد يصرخ: «هؤلاء أولاد سيئون، لن أغفر لهم ما فعلوه مع «دان»». وطبقاً لما رواه «جون» فإن «دان» حقيقة تعرض لضغط شديد [ما يشبه عصارة الملابس] فقد تم اخطاره مرتين أن مقابلة صدام جاهزة للبث. ثم يتم إلغاؤها، وأخطر في النهاية لعرض الأمر على وزارة الخارجية في ساعة متأخرة من الليل، وأرسل العراقيون سيارة وعلى «دان» الحضور منفرداً. أما المنتج «توم بيتاج» فعليه الانتظار في الشيراتون لمعرفة أخبار المقابلة، لكن «راذر» لم يصل إلى وزارة الخارجية، فقد أخذته السيارة، ومرت من أمام المبنى ولم يخبره أحد إلى أين تم نقله. وللحظة معينة ظهر أنه قد اختطف.

وواصل ريد حديثه: «لقد أدخلوه إلى غرفة بينما كانت الكاميرات تصور. هؤلاء أمهاتهم

سيئات، عملوا كل شيء. ليفقد «دان» توازنه. ثم ذكرت بأن «راذر» لم يكن مرتاحاً عندما بدأت المقابلة في عرضها، (قام التلفزيون العراقي ببث المقابلة في اليوم التالي).

قلت له متعاطفاً: «كل شيء يمكن وضعه في الاعتبار، لقد كانت المقابلة جيدة».

- «حسناً»، [بدأ «ريد» بالشتم مستخدماً ألفاظاً سوقية].

سألته: «لا شيء، تم التحويل في عمان».

ضحك إيسون وهو يلتقط أنفاسه: «وأنت لك لسان معقود على الخطأ!!».

- «على أية حال، يمكنك تعقب «إيفانز»، وسأطلبك بعد عدة دقائق، سأقوم بالاتصال مع حمدون للحصول على التأشيرات». استمعت إلى جرس الهاتف لأكثر من خمس دقائق يدق قبل أن يرفع نزار السماعة، كان صوته يوحي باضطرابه.

قال لي: «إن معلوماتي حتى الآن تدل على أن المقابلة لن تتم الآن»، كان ناجي مخطئاً، قبل قليل اتصلت معه هاتفياً.

سألته: «هل ستتم خلال أيام؟ ماذا عن «إيفانز» و«نوفاك»؟».

قال: «أظن من الأفضل انتظارهم في واشنطن، فإنهم سيضيعون وقتهم هباءً إذا حضروا إلى بغداد».

قال إيسون عندما طلبته ثانية: «على أي حال، ربما كان للأحسن. الشعور السائد الآن هو علينا الانتظار لحين لقاء القمة بين «بوش» و«غورباتشوف»، عندها لا بد من رد فعل يقوم به صدام، أنا آسف لأنني لم أخبرك بذلك سابقاً».

كنت أفكر ملياً في وضعي السخيف الذي سأبدو عليه، بعد أن علمت بعدم السعي لإجراء مقابلة مع صدام حسين، فاتصلت حالاً مع «فورست سوير» ودلفت إلى غرفته.

قال لي: «أنت لا تفهم، لا، أنت لا تفهم (صمت) ربما تقتل هنا (صمت). ربما تموت هنا (صمت)، إنني أفهم ذلك (صمت) أخبر «روني»، إنني أفهم وأقدر ذلك، لكن لا، إنه شيء نهائي، سأغادر غداً، لن يقوموا بذلك»، قال وهزّ رأسه ثم خرج، لم يكن «سوير» هو المراسل الوحيد الذي ضعفت أعصابه، إن «كيث ميللر» من «N.B.C» المنتج وباقي أفراد شبكته قرروا الانسحاب، وترك الشبكة خالية من الأخبار مثل طائر أبو زريق، ولم يتخلف منهم إلا «جوردون مانئج» الذي غادر في وقت لاحق.

- «ماذا عساي أن أفعل»، سأل المنتج «ديفيد بيج Page» من وكالة «N.B.C» الذي وصل إلى بغداد في اليوم التالي. «ليس لدي مراسلون، ولا محرر، ولا فنيون». كان «بيج» من أفضل منتجي

«N.B.C» ولديه الكفاءة لإعداد البرامج.

قلت له: «إما أن تكسر ذراعك أو تنضم إلينا لشرب الكوكتيل (العصير)».

قال ضاحكاً: «سأكون عندكم خلال ساعة».

كانت بغداد متقلّبة المزاج، فمن الصعب الثبات على شيء، يبدو في بعض الأحيان أن هناك مجالاً للتفاوض للخروج من الأزمة، هٰذا ما كان. في مرات أخرى تظهر الأمور وكأن الحرب قائمة لا محالة. كان الجو العام كأنه تحركه الأشباح. في إحدى المرات ضبط فريق من التلفزيون البريطاني المستقل «I.T.N» يقوم بالتصوير دون وجود مرافق معهم، وتم إلقاء القبض عليهم، ونقلوا خارج المدينة للتحقيق معهم والذي استمر لمدة (٣) ساعات قبل أن يطلق سراحهم. وخلال مقابلة بين وزير الإعلام والثقافة لطيف جاسم مع «جوي تريستر»، تم إعلامه أن مراسل التايمز يعمل مع وكالة المباحث الفيدرالية الأمريكية «F.B.I»، وقد غادر «تريستر» بغداد بعد ذلك بيومين.

ـ قال لي جوي فيما بعد عند لقائه في عمان: «إني لا أعلم دوافعه»، ولكن لا أنوي البحث في الأمر. إنه نفس الشاب الذي أُرسل بعد «بازوفت»»، [«فرذاد بازوفت» هو صحفي بريطاني ـ أصله إيراني المولد ـ تمّ محاكمته بتهمة التجسس وأعدمه العراقيون في آذار].

لو نحينا جانباً التهديد الشديد الذي أطلقه فايز في الأسبوع الأول وملخّصه أنه سيتم إعادة الآف الأكفان لقتلانا ـ إعادتهم إلى بلادهم ـ فلم أشعر بالتهديد أو الخوف من المسؤولين العراقيين. كانت أكثر مرة واجهتها عندما كنت أتحدث مع ناجي في نهاية شهر تشرين الثاني أثناء استعدادي للخروج من مكتبه، حين سألني عن أصل الأسم الأخير لي. على أساس أنه ينسبني إلى فينا. وأخبرته الحقيقة. فأراد أن يعرف: «هل جاء والداك من هناك؟».

ـ «لا، فهما من مواليد الولايات المتحدة».

ـ «وأجدادك؟».

ـ «جاؤوا من أوروبا الشرقية». قلت له ـ وغيرت الحديث ـ وكنت أفترض دائماً أن ناجي يعرف بأنني يهودي. فقد تركت خانة «الديانة» في طلب التأشيرة خالية بدون كتابة، كما غيرت إسم جدي من «جاكوب» إلى «جاك»، لكني لم أتفاخر او أتبجح بذلك، كما أنني لم أجعل أصلي سّراً. سبق لـ «جوي ويلسون» أن ذكّرني قائلاً: «عندما رأيتك أول مرة تلبس قميص هاواي ونظارة شمسية، قلت لنفسي إن هٰذا يهودي من نيويورك».

في الحقيقة، فقد جاء عديد من الصحفيين اليهود إلى بغداد ومنهم «كارل بيرن شتين» ومراسل

الـ «C.N.N» «ريتشارد روث Roth»، عندما كان «روث» في رحلة إلى البصرة وبعد الغداء طلب إيصال (فاتورة).

واجهه مرافقه: «آه، أنت يهودي».

أخذت «ريتشارد» الدهشة للحظة ثم أكمل مرافقه القول: «أنت يهودي جيد».

منذ وصولنا بغداد كان فندق عشتار شيراتون يقدم خدمة ممتازة لنا. كانت المسافة قصيرة بين الفندق والسفارة الأمريكية، ويبعد عدة دقائق بالسيارة عن مركز البث. أما في الليل فإن شارع أبي نواس كان يُضاء بالآف اللمبات البيضاء الصغيرة التي تتلألأ كأضواء الكريسماس. ويهرع البغداديون لتناول العشاء من السمك المشوي (المسقوف) في عشرات المطاعم المنتشرة على ضفاف نهر دجلة. أعادني المنظر إلى ذكريات الماضي حيث من السهل تخيل كيف كانت الحياة جميلة ولياليها السعيدة، كما عاودني الحنين إلى ليالي الدعة والراحة التي أمضيتها في فيتنام وأنا أذرع الشارع في «نجوين هو» متجهاً إلى نهر سايجون. وتعذبني الأماني بنكهة جنوب شرق آسيا حيث المرح والرومانسية، كنت شاباً وحراً وتواجدت في المكان الذي أرغبه، أتمنى يوماً أن أعود إلى بغداد يوماً بعد انتهاء الأزمة، ولا أكون مطارداً بتاريخ محدد. ساعتها سأحضر زوجتي «ألين» والأولاد.. بلا شك فإن بغداد تأسرنا بجمالها.

عدت إلى الفندق حيث أصبح الطعام بارداً، وخَلَت آلة الثلج، تبخرت الأفكار من رأسي. آن الوقت لأن أغير الوضع.. لسبب واحد، إن الأنوار والأضواء تدفعنا إلى الجنون. كل الأضواء كانت من الفلورسنت (النيون) مما يجعل كل شيء وكل إنسان مكسواً بضوء لا يحتمل، مزيج من الأبيض والأزرق، كانت وسيلة الراحة الوحيدة في غرفتي هو جهاز التلفزيون ـ أوتوماتيكي الحركة ـ يعمل وينطفىء وحده في لحظات غريبة.

لذلك كان من السهل عليّ التوجه وإبداء الانسجام بما تقوله السيدة نهاد عن سحر الرشيد، عندما كنت مع «دوج جيمس» نستعد للشرب بعد أن أخذنا زجاجة مثلجة من مشروب فرنسي، أعجبني جو الفندق وأحسست به عندما ذهبت لمقابلة «جيسي جاكسون»، وأخذت أدقق في قائمة الطعام التي حازت على إعجابي بأكملها سواء السمك المدخن السلمون أو المشويات. والذي لفت نظري أننا باعتبارنا ضيوفاً في فندق حكومي فقد أُعطيت لنا الأولوية لإجراء الاتصالات الهاتفية مع الولايات المتحدة، والأكثر من ذلك أن الأسعار تنافس أسعار الشيراتون. شكرت «دوج» السيدة نهاد على دعوتنا للغداء في الطابق التاسع ـ حيث جناح مكون من (٣) غرف ـ وأصبح هٰذا المكان مقر عملنا الدائم، يطل الجناح على بركة السباحة والحدائق وبجوار مطعم فاخر حيث أعجبنا المشروم (الفطر)، كما يوجد بالفندق مطار صغير لاستخدام الشخصيات المهمة وأعضاء مجلس

قيادة الثورة. كان الفندق على مرمى حجر من القصر الجمهوري ووزارة الإعلام والثقافة ومبنى التلفزيون، وعلى الناحية الثانية كانت توجد وزارة الخارجية تحيط بها أسوار عالية. إن فندق الرشيد لا يهيّء الفرصة لتصوير جيد، لكن ما هٰذا الهراء، إن شجرة النخيل وحدها تنطق: بغداد.

تم إنشاء الفندق عام ١٩٨٢ لاستضافة مؤتمر دول عدم الانحياز ويبدو أن نفقات إجراءات الحماية وكذلك الأثاث كانت عالية وكل طابق مزود بطاقم حماية بالقرب من المصعد، موصول بدائرة إنذار تدق بمجرد لمس الزر. كما كانت هناك مهبط لطائرة مروحية وبرج مراقبة. وبعد أن تحركنا اكتشفنا أنه يتم إغلاق الأبواب على الضيوف حال خروجنا. ولا أحد يعرف سر الأنوار الحمراء والخضراء المثبتة في سقف كل حمام. هناك درج ينحدر من الحديقة يؤدي إلى ملاعب التنس، وصالة الرقص، ومصفف الشعر، ومصور، ومكتب طيران، وبنك، ومحل تطريز، وبوتيك، ومحل مجوهرات، ولا أنسى ذكر بار شهرزاد ومطعمين. كانت الملاجىء الواقية ممتازة، مفروشة بالسجاد من الحائط للحائط، والحمامات ومولدات كهربائية خاصة بها، وبصراحة فقد أعجبتني قطع صالون الحمامات لدرجة أني تصورت الأمر سوقاً للشراء. وافقت نهاد على تزويدي بالقهوة مجاناً، كما قبلت بطاقات الإئتمان (أمريكان أكسبرس).

وقلت لنفسي: إذا أنت ذاهب إلى النار فلماذا لا تأخذ معك كفن من فرو حيوان المنك.

ـ «أسمعني» ـ قلت ضاحكاً وأنا أقرأ بصوت مرتفع من جريدة بغداد أوبزرفر: «شخص من بيرو ـ مولود في إسبانيا ـ رجل أعمال ـ يدعي أنه حاز الرقم القياسي في النكت للسنة الثانية ويمكنه رواية نكات لمدة مائة ساعة، وفي الساعة المائة بأحد فنادق ليما (عاصمة بيرو) يقول «فيليب كاربونيل» أنه روى (٨) الآف نكتة حتى الآن باللغات: الإسبانية، الإنجليزية، الفرنسية، الإيطالية، والبرتغالية. «كاربونيل» تخطّى رقمه القياسي السابق في إلقاء النكات وكان (٧٢) ساعة، الضحك في بلد تطحنه الأزمة مثل البيرو ـ وهو إكسير الحياة الذي يساعدنا على تحمّل المتاعب. إن بيرو يمزقها العنف وحرب العصابات كما أن اقتصادها منهار».

أخذ مازن يسقسق بصوته: «لماذا تقرأ لي هٰذا؟».

قلت له: «قد يخطر على بالك دعوة هٰذا الرجل إلى بغداد، فإنه يساعد على رفع الروح المعنوية».

قالت أنغريد وهي تدخل الغرفة: «ما الذي يجري هنا؟».

ـ «كنت فقط أروي لمازن عن هٰذا الكوميدي الأسطوري في البيرو».

قالت مقاطعة: «هل يعرف مازن النكتة عن «شاوشيسكو».

ـ «لا أعرف»، ولكن ها هي: إذا مررت قضيب في حبة بطاطا على ماذا تحصل؟.

ضحكت بصوت عالٍ: «دكتاتور».

ـ تعجب مازن: ««ديك»، ماذا؟».

ـ «لا تأخذ على بالك إنها مجرد نكتة للتسلية في رومانيا».

لو أردنا الحقيقة فإن مجيء «فيليب كاربونيل» إلى العراق ليست فكرة سيئه. فإننا جمعياً سنستمتع بقليل من المرح، ستمضى علينا أيام طويلة في المطار نسجّل ونصور تقطع الأحشاء عن مناظر الوداع المؤثرة لخروج النساء والأطفال. في صباح يوم واحد قبل أن نتوجه إلى مطار صدام الدولي تجمّعنا أمام السفارة مع أربعين من النساء الأمريكيات، بعضهن زوجات لعراقيين أو من أصل عراقي، يحملن أمتعتهن إلى باص مستأجر، هي الخطوة الأولى في رحلة طويلة إلى الولايات المتحدة، معظمهن قد جئن إلى بغداد في الصيف السابق لزيارة أحبابهن، كانت لحظة حرجة ومؤثرة عند رؤية الأقارب يمسكون بأيدي الأولاد والأطفال، وهم في حيرة وخوف هل يقدر لهم رؤيتهم ثانية أم لا. كانت إحدى السيدات يتم انتزاعها بالقوة من ابنتها الأمريكية . . لكنها تعود إليها ثانية لتضمها وتعانقها. على جانب الطريق بالقرب من الباص كانت هناك جدّة ملفوفة بالعباءة على وشك الانهيار. في النهاية بعد ساعة اتخذ الركاب مقاعدهم داخل الباص ولوحوا بتحية الوداع. لكن عائلاتهم لم تبتعد عن المكان وتغادره. وتجمعوا أمام السفارة يتحدثون لبعضهم ويشكون لبعضهم عن المأساة التي وقعت عليهم.

ـ «إن ابتعادك عن أولادك كأنك تقطع شيئاً من جسمك».

قال لي أحد الرجال . . «لكني سأراهم ثانية يوماً ما. إن شاء الله».

كانت التأشيرة التي معي تعطيني حق البقاء لمدة ثلاثين يوماً، لكن بعد اسبوعين أعلمنى مازن أنه آن الأوان للمغادرة. ولم يكن ما أكده لي سابقاً وزير الخارجية حول إطالة فترة بقائي كما أشاء إذا رغبت ـ لم يكن ذا أهمية.

قال لي: «إن تعليمات وزارة الإعلام تقضي أن الصحفيين من حقهم البقاء لمدة عشرة أيام فقط. ثم تستطيع العودة، إنه شيء جديد أن تعود إلى بيتك لفترة معينة». لم أعترض فقد كنت في شوق لأسرتي.

يوم ٨/آب سكنت مع زوجتي وأولادي الإثنين في شقتنا الجديدة بمدينة برلين حيث أنشأت شبكة الـ «C.N.N» لها مكتباً هناك لمتابعة أخبار أوروبا الشرقية. تم نقل (١٤٣) كرتونة (صندوق) بالإضافة إلى الأثاث من القدس حيث كنت رئيس المكتب للشبكة مدة عامين ونصف، في تلك

الليلة بعـد أن نام الأولاد جلسنا فوق الصناديق أنا وزوجتي «ألين»، منهكين. سنقوم بفك هٰذه الكراتين في الصباح. في الساعة السابعة صباحاً كالمعتاد لم يوقظنا «جيسي» أو «جاكي» لكن هٰذه المـرة «بول ديتريتش» مهندس الصوت في برلين الذي ضرب جرس الباب، وبعد أن عجز عن الاتصـال بي عبـر جهـاز تليفون السيارة، أخطر المكتب «بول» أن يذهب إلى شقتنا، وأعطاني التعليمات بضرورة السفر إلى القاهرة. كانت الـ «C.N.N» تريد تغطية مؤتمر القمة العربي الطارىء المقرر عقده في اليوم التالي، وهكذا سافرت.

كانـت «أنغـريد» تخطـط للسفـر لحضـور حفـل زفـاف صديقـة لهـا فـي اليونـان، أرسـلت الـ «C.N.N» المنتج «أليك ميران Miran» ليعمل مع «بيتر هومي Humi»، كان يتم تعيين «أليك» دائماً مع وحدة تغطية الأحداث الخاصة. وهو يفضل هٰذا العمل الذي يتسم بالمشقة والمفاجآت على العمل المنظم الذي يغطي أخبار تحركات الرئيس الأمريكي ومؤتمرات القمة الأمريكية ـ السوفيتية. أنتـج «أليك» فيلمـاً لـ «C.N.N» حصل على جائزة البث الحي عن تغطية لميدان «تيانانمن» في الصين. لقد عملنا سوياً في عدة مناسبات وإني أعتبره صديقاً حقيقياً.

كان «أليك» في السيارة عندما ودعت «ويلسون» و«ثايبولت» وناجي ونزار وموظفي التلفزيون العراقي. قالت لي السيدة عواطف: «آمل أن ترافقك السلامة في رحلتك وعد إلينا بسرعة». أصر مازن على مرافقتي إلى المطار، مما سيخفف عني الإجراءات الرسمية ويختصرها إلى أقل حد عند المغادرة. الذي لم يتمكن من عمله أنه لم يستطع إقناع شركة الخطوط الجوية العراقية، وطبقاً لأنظمة منظمة الطيران الدولية أياتا «IATA»، فإن من حق حامل تذكرة الدرجة الأولى على شركة الطيران أن تؤمن له مقعداً في الدرجة الأولى، وأخذت أفكر وأتأمل في الأمر هٰذا لو كانوا يمتلكون قليلاً من اللياقة الإنسانية.

الجزء الثالث

أيلول ـ تشرين الأول ـ ١٩٩١

٨

كان واضحاً بعد أسبوعين من عودتي إلى بغداد بأن الأزمة تزداد حدة وتفاقماً، وفي بيان رسمي مشترك تلى اجتماع القمة الذي عقد في هلسنكي بين الرئيس الأمريكي «بوش» والسوفياتي «غورباتشوف»، صرح الرئيسان أنه لا يمكن التسامح بشأن الغزو العراقي للكويت؛ وأنه يتوجب على الأمم المتحدة اتخاذ إجراء آخر، إذا لم تنجح العقوبات الاقتصادية في زحزحة العراق عن موقفه. وأعاد العراق وإيران علاقاتهما الدبلوماسية في التاسع من أيلول، ودعا الزعيم الإيراني (آية الله علي خميني) بعد ذلك بثلاثة أيام إلى خوض حرب مقدسة ضد الولايات المتحدة. واقتحمت قوات عراقية منزل السفير الفرنسي في الكويت في ١٤/أيلول واحتجزت ثلاثة رعايا فرنسيين، ووصف الرئيس الفرنسي «ميتران» هذا العمل بأنه عمل عدواني. وفي رد مباشر، طردت فرنسا (٣٠) دبلوماسياً عراقياً وأعلنت أنها تنشر قوات فرنسية وطائرات حربية في المملكة العربية السعودية. وفي ١٦/أيلول؛ وأثناء بث التلفزيون العراقي رسالة مسجّلة على شريط فيديو؛ أحاط الرئيس «بوش» العراقيين علماً بأنه على الرغم من إمكانية التوصل إلى حل سلمي للأزمة إلا أنهم يقفون الآن على شفير الحرب. واتهمت وكالة الأنباء العراقية الرئيس «بوش» بالكذب، ووصفت رئيسة الوزراء البريطانية «مارغريت تاتشر» الرئيس العراقي بأنه: «دكتاتور بربري وعديم الشفقة».

تبنّى مجلس الأمن في الأمم المتحدة خلال تلك الفترة أربع قرارات جديدة: فقد وافق على إرسال الدواء والمواد الغذائية إلى العراق والكويت كمبادرة إنسانية، وأدان الهجوم العراقي على مجمع السفارات في الكويت (وقد اعتذر العراق رسمياً إلى فرنسا في ٢٤/أيلول)، وقدّم المساعدة إلى الدول التي تعاني من صعوبات اقتصادية بسبب الحظر المفروض على العراق. وفرض مجلس الأمن حظراً جوياً على العراق في ٢٥/أيلول، وشجب العراق بقوة القرار رقم (٦٧٠) القاضي بفرض حظر جوي عليه واعتبره عملاً حربياً موجهاً ضده.

وعلى صعيد قضية الرهائن، صرحت وزارة الخارجية الأمريكية أنه تم خروج حوالي (١٩٠٠) مواطن أمريكي بينما بقي حوالي (٩٠٠) منهم في العراق والكويت. وذكرت السفارة الأمريكية في بغداد أن (١٠١) مواطناً أمريكياً على أقل تقدير قد احتجزوا في منشآت استراتيجية.

وزار العراق كل من ياسر عرفات، والملك حسين، والرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بيلا، وعدد من الوفود من ضمنهم سياسيون بريطانيون ويابانيون. وقابل هؤلاء الرئيس صدام حسين الذي لم يغيّر من موقفه وهو أن الكويت جزء من العراق.

تأخرت رحلتي في العودة جواً من عمان إلى بغداد مدة أربع ساعات، وما إن أتممت إجراءات الجمارك ثم الوصول إلى فندق الرشيد بمرافقة السيد جاسم، حتى بلغت الساعة الحادية عشرة ظهراً، وكنت في حقيقة الأمر سعيداً بعودتي على الرغم من التأخير والطوابير الطويلة والمشاحنات عند مباشرة الإجراءات الجمركية، فبغداد أصحبت مكاناً مألوفا بالنسبة لي. والحق أنني اعتبرتها المادة التي ستحقق سبقاً صحفياً، والمكان الذي سيعطي في حد ذاته ميزة هامّة لشبكة سي. إن. إن التلفزيونية تفضل العديد من منافسينا.

وقد يمم العديد من المراسلين الصحفيين نحو العراق أثناء فترة الأزمة، آملين أن يتم كل منهم مهمتـه التي تستغرق عشرة أيام في أمان ومن ثم مغادرتها، ولكننا من الناحية الأخرى قررنا نقل الوقائع بصدق والالتزام بعملنا. وقد استمر تواجد شبكة سي. إن. إن في بغداد منذ وصولها، والأكثر من ذلك أن نفس الأشخاص من الشبكة غادروا العراق وعادوا إليها مرات عديدة. وأنا مقتنع بأن ذلك جعل السلطات العراقية تنظر إلينا نظرة مختلفة عن سوانا، فإن اندلعت الحرب فسوف نكتب عنها حالاً وجنباً إلى جنب مع العراقيين. وأقول بصدق أنه وجدت أسباباً قاهرة تجبر الإنسان على مغادرة البلاد، فالمخاطر كبيرة لا سبيل لدفعها، ووصف العديد من المراسلين الصحفيين بغداد بأنها «الفترة أو الخط التاريخي البشع».

ومما ساهم في كره المراسلين الصحفيين لبغداد ورغبتهم في مغادرتها في أسرع وقت ممكن هو وجود الرقابة الإعلامية، والقيود، والمراقبة الدائمة، والشعور الدائم بأنهم يخدعونك ويتلاعبون بك. ومن جهة أخرى، عملت السعودية على رقابة المطبوعات وكذلك إسرائيل، وأينما ذهبت في هٰذا العـالم آنذاك وجدت القيود التي تحد من حرية عملك. لم تكن بغداد مكاناً مثالياً للعمل الصحفي. بيد أنه كان باستطاعتك العمل على أية حال، وأكثر ما كان يقلق ويشد الأعصاب هو اعتبار بغداد مركز الهدف عند اندلاع الحرب، وهٰذا ما صرح به قائد سلاح الجو الأمريكي الجنرال «مايكل دوغان» خلال مقابلة مع صحيفة الواشنطن بوست في منتصف أيلول، وذكر أن القاذفات الأمريكية لن تكتفي بشن غارات مكثفة على العاصمة العراقية بل إن الولايات المتحدة ستستهدف شخص صدام نفسه. وأقيل الجنرال من منصبه بسبب تكلمه خارج النطاق المسموح له، غير أن فحوى كلامه وصل إلى ضفاف نهر دجلة وسمعها العراق، ولم يصدق العراقيون هٰذا الكلام في تلك المرحلة بخلاف القائمين على الصحافة هناك والذين استغلوا الفرصة وأخذوا الكلام مأخذ الجد.

ما إن خطوت إلى ردهة الفندق حتى بادرني السائق كريم بالتحية قائلاً: «أهلاً وسهلاً بالسيد «روبرت»، أهلاً وسهلاً»، وكان يقف إلى جوار مكتب وزير الإعلام.

صافحت الجميع قائلاً: «أنتم جميعاً هنا إذن».

ورد عليّ مسؤول عراقي بقوله: «أتى جميع الصحفيون إلى فندق الرشيد بعد رحيل شبكة سي. إن. إن».

ـ «شيء لا يصدق، كيف حال أُسركم؟ وكيف تسير الأمور معكم؟».

ـ «كل شيء جيد والحمد لله. ماذا يقولون في الولايات المتحدة؟ هل ستقع الحرب؟».

ـ «لا أدري، يبدو أن الأمور تسير بهذا الاتجاه، هٰذا إذا لم يكن لدى حكومتكم أفكار أخرى متعلقة بالمحافظة التاسعة عشرة».

ـ «أنت تعلم يا «روبرت» أننا لا نريد الحرب. جميع العراقيون يريدون السلام».

وأجبته موافقاً: «نعم، الجميع يريدون السلام ولكن وفقا لشروط أي طرف؟». ثم استأذنت منصرفاً لإنهاء إجراءات دخول الفندق وتسجيل إسمي.

قالت نهاد: «سررنا لرؤيتك ثانية. لدينا غرفة جيدة لك وبجوار مكتبك».

ـ «أرى أن العمل قد ازدهر منذ أن تقابلنا أول مرة؟».

ابتسمت مبتهجة وقالت: «الوضع ممتاز وسيكون أفضل حالاً لو حَلَّ السلام».

وبعد ذلك صاحت نهاد مهرولة عبر ردهة الفندق: ««روبرت»، نحن في طريقنا لمقابلة نزار وسنعود مباشرة بعد فراغنا».

كان «ريتشارد بليستون» (بلي) يرافقها، وهو مراسل صحفي يعمل في مكتبنا في لندن، وكان من الجيد أن أراه في نهاية المطاف يعمل بخصوص هٰذه الأزمة، فهو مراسل صحفي أجنبي متمرس؛ انضم إلى شبكة سي. إن. إن بعد فترة عمل ناجحة في صحيفة الأسُوشييتِدِ برسْ. كان «بلي» من أعظم كتاب الشبكة موهبة على الإطلاق، وكانت مقالاته هي المفضلة في كل ما غطّاه من أحداث بدءاً من الذكرى الأربعين ليوم الهجوم العسكري ووصولاً إلى أي كارثة طبيعية في دول العالم الثالث. وقد صنف ككاتب أفلام خلال سنوات عمله الأولى في الشبكة وهو تصنيف غير عادل، إلا أن عمله اللافت للنظر فيما نشرته شبكة سي. إن. إن تحت عنوان: (وداعاً لرحلة عام ١٩٨٩ إلى العالم الشيوعي) قد أزال الشكوك عن مقدرته في تغطية الأحداث الرئيسية الهامة. كان «بلي» المراسل الوحيد الذي يستطيع التعامل مباشرة مع قضية رئيسية ثم تراه يتفوق على منافسيه، مثله مثل «بوب سيمون» الذي يعمل في شبكة سي. بي. إس.

كان كلاً منهما نقيض الآخر؛ فإن بدا «سيمون» مراسلاً تلفزيونياً ناجحاً ومثالياً، مهذباً ووسيماً ومتأنقا في ملبسه؛ فإن «بلي» عادة مفرطاً في السمنة، وغير مرتب المظهر دوماً، ويرتدي كل ما تقع

عليه عيناه عندما ينهض صباحاً. وباختصار، كان «ريتشارد» رجلاً متميزاً من بيننا، وكل من عمل معه قد اكتسب خبرة مهنية ثمينة وشعر بالفخر عندما كان يدعوه «صديقي».

ألقيت حقائبي في الغرفة رقم (٩٢٣) ثم نزلت إلى القاعة حيث مكتبنا. كان الجناح المكون من ثلاث غرف مقسماً إلى الغرفة رقم (٩٠٦) المخصصة كمكتب ومكان لرئيس التحرير، والغرفة رقم (٩٠٤) كجناح للتحرير، والغرفة رقم (٩٠٢) المخصصة للمعدات والأجهزة إضافة إلى استعمالها كردهة لطاقم الشبكة.

قلت لـ «كلانسي»: «هٰذا المكان ليس سيئاً، ولكننا سنحتاج إلى مساحة أكبر. هل يوجد أحد ممن نعرفه ويقيم في الجوار؟».

أجاب جيم: «إثنان من رجال السلطة ينامان في الغرفة رقم (٩٠٨)، ويرغبان على الأرجح في الانتقال إذ اشتكيا إلينا للتو بسبب الضجة التي نحدثها».

ضحكت قائلاً: «حسناً، سيصبح الأمر أكثر سوءاً».

ثم أحضرت لنفسي كأساً من الخمر وقلت: «سأقوم بالترتيبات الضرورية صباح الغد».

وانضممنا بعد برهة إلى «تيرون إدوارد» و«فيل تيرنر»، وهما من العاملين البارعين في الشبكة، وسألت: «كيف تسير الأمور يا أصدقائي؟».

فتنهد تيرون مجيباً: «إنه مكان ممتع. هل ترغب حقاً في العمل هنا؟».

واتصلت بالمسؤول عن خدمة الغرف طالباً الطعام، وقلت: «هناك فوائد من وراء هٰذا المكان، فأنا لم أتناول الطعام منذ اثنتي عشرة ساعة».

علّق فيل مقهقهاً: «أفهم من ذلك أنك لم تتناول وجبة الطعام في الطائرة التي قدمت فيها».

أجبت: «نعم، فأنت تعرفني يا «فلويد»، أنا شخص أنيق وصعب الإرضاء، من ذا الذي سمى النقانق الصغيرة التي تقدمها الخطوط الجوية العراقية بإسم «أصابع الرهائن؟» بالتأكيد هو إسم مناسب».

وعانقتني تريسي فليمنغ صائحة: «على رسلك يا «ويني» ومرحباً بعودتك».

تبادلنا في الطريق نعت أنفسنا بألقاب شتى. ففي الماضي وإبان الثورة في أوروبا الغربية، أطلق عليّ «بلي» لقب «القبطان واكي» حيث حركت مجموعتي الصغيرة من نقطة ساخنة إلى أخرى. وسميت «أنغريد» بإسم «السيدة» التي ورد ذكرها في رواية «سيدة المخاطر المتشحة بالسواد» ذلك أن «أنغريد» كانت تميل إلى ارتداء الملابس السوداء إضافة إلى شخصيتها العاطفية.

وإبان «ملحمة الستار الحديدي» قدمت «أنغريد» سلسلة من التقارير الخاصة إلى «بليستون» فدعيت بإسم «وينفر»، وهو جناس تصحيفي مشتق من إسمها الأول [الجناس التصحيفي هو تغيير

في ترتيب أحرف الكلمة بغية تشكيل كلمة جديدة]. وكان «فيل تيرنر» يعرف بإسم «فلويد» تارة وبإسم «كاكانادا سليم» تارة أخرى لأن مسقط رأسه في الهند. وأصبحت «تريسي فليمنغ» تعرف بإسم «سيبلْ سيمبسون»، وكانت «سايندي ستراند» من أعز صديقاتها ودعيت بإسم «بيْرل بْلوم». وكان «دوج جيمس» مراسلاً جسوراً ولقب بـ «ولارِرد مكهينري ذو الثلاث غرفات». وارتقى «مارك بيلو» إلى مرتبة فارس فلقب بإسم «أكسل بيغرود»، ولم يكن المصور الباريسي «أندريه برونس» الذي يعمل معنا يرد إلا عند مناداته بإسم «أكْشِن». وكان «تيم ويلسون» يدعى بإسم «هومر» وهو فتى سمين وجيد، لطيف المعشر ومن جنوب البلاد. أما «تشارلز هوف» فكان يلبس سترة جلدية ويدعى «إنـديانا». وسميت المراسلة «كريستيانا أمانبور» بإسم «كيسي» وهو الإسم الذي أطلقه عليهـا والدها عندما كانت طفلة. ولُقب «ريتشارد روث» بإسم «فتى الموت» مقابل إسم «الفتى الأحمر» الذي أطلق على «بلي بليستون» عندما عمل الإثنان سوياً في إخراج إحدى القصص الإخبارية.

ويرد «بليستون» على الأسماء التالية عند مناداته بها: «بلي ـ بوبا ـ بك ـ لانس ـ آرثر ـ راؤول ـ روي». ويرد أحياناً على إسم «غراند بابا» [أي الجد بالعربية]. وتجاوزت الألقاب المستعارة في بعض الأحيان حد الإطراء إلى خلافه، فقد لقب أحد المراسلين بلقب «سْتمْبي ماكغروف» إذ كان صغير الحجم ويلبس معطفاً على الدوام، وهو لقب قريب من إسم نوع من الكلاب المستخدمة في مقاومة الجريمة. وكان أحد رؤساء المكاتب مشهوراً بحبه للثرثرة والقيل والقال إضافة إلى شبك يديه وليهما، فلقب بإسم «كلانسي ـ إمرأة أوروبا العجوز»، وكان «كلانسي» مثله تماماً لعدة أسباب.

عادت أنغريد مع «بليستون» وقالت بصوت عالٍ: «يقول حمدون إن المسألة سخيفة ومبالغ فيها. يا لله!! إن هٰذا المكان رائع. لقد ظهر «ويلسون» صباحاً في المقابلة وهو يرتدي ربطة عنق دائرية، وأخبرته أنه أفضل الرجال ملبساً وتأنقاً في بغداد».

إن ما دفع «جو» للتصرف باهتياج هو تسليم الحكومة العراقية إشعاراً إلى سفارات الدول الغربية في بغداد ليذكر الدبلوماسيين بأن أي شخص يؤوي رعايا أجانب سيكون عرضة للإعدام. وطلبت بغداد أسماء الأشخاص من غير الدبلوماسيين وممن لجأوا إلى مقرات إقامة الدبلوماسيين.

وأضافت أنغريد: «قال نزار إنه حدث سوء فهم ولن يبدأوا بإعدام الدبلوماسيين».

ضحكت قائلاً: «ليس باستطاعتك ضمان ذلك يا «أنغريد». ماذا قال حمدون أيضاً؟».

بلي: «من الواضح أن العراقيين وجدوا تشجيعاً بعد خطاب الرئيس «ميتران» في الجمعية العمومية».

لقد بيّن الرئيس الفرنسي للأمم المتحدة أن انسحاب العراق من الكويت يمكن أن يفضي إلى تسوية شاملة في الشرق الأوسط، بما فيها حل القضية الفلسطينية وضمان حق إسرائيل في العيش بسلام وضمن حدود آمنة.

وتابع بلي حديثه: «قال نزار إن خطاب «ميتران» يعكس بعض العناصر التي وردت في مبادرة صدام حسين في ١٢/آب». (قال صدام إنه مستعد لحل أزمة الخليج إذا انسحبت إسرائيل من الأرضي المحتلة وإذا انسحبت سوريا من لبنان).

قلت: «لن يحدث هٰذا مطلقاً. لن تنسحب إسرائيل على هٰذه الشاكلة وبكل بساطة. هل ذكر حمدون شيئاً عن إقامة علاقات دبلوماسية مع حكومة القدس؟».

بلي: «كلا، لم نصل إلى هٰذا الحد في حديثنا».

- «هل ثمة عناوين رئيسية؟».

قاطعتني أنغريد قائلة: «لا جديد حول موضوع مقابلة صدام، لقد أخبرت نزار أنك ستدخل فقط وستتصل به غداً. وبالمناسبة، سأسافر غداً مع «بوبا» إلى مدينة البصرة».

- «هٰذه ضربة حظ موفقة. كيف رتبت ذلك؟».

تأوه بليستون مجيباً: «سيذهب الجميع. إنها لعبة الكلب والفرس التي ستمارس ثانية».

عند حلول وقت بث تقريري الإخباري الموجز، كان «ويلسون» و«ثايبولت» يتمازحان ويتحادثان بشأن المواطنين في الكويت.

قال ستيف: «ما يزال العراق يحضر الناس من الكويت على نحو منتظم، ثم ينقلونهم إلى فندق منصور ميليا حيث نستطيع زيارتهم هناك، ولكن لا أحد يعلم إلى أين يأخذونهم من هناك؟».

وتساءل ثايبولت عن النصيحة التي يمكن توجيهها إلى هؤلاء «الضيوف المميزين».

قلت: «نخبرهم عادة أنهم سيواجهون ظروفاً فيها شيء من التقشف والبساطة، وأن عليهم الاستعداد للتعاون فيما بينهم عند مجابهة الصعوبات. ونصحناهم بإخفاء الدولارات قدر الإمكان إذ قد يتمكنون أحياناً من إنشاء علاقة مع حراسهم وسيخدم المال هٰذه العلاقة. وأخبرناهم أيضاً باحتمال أن يطلب منهم الإدلاء بأقوال محددة».

أقحم جو نفسه في الحديث قائلاً: «واجه العديد من الرعايا الأجانب في العراق مجموعة أشياء في وقت واحد وحتى قبل بدء هٰذه الأزمة، فمثلاً: يجب أن يخصص لكل أجنبي هنا رجل يراقبه؛ وأنت عرضة لأهواء هٰذا المراقب كونه يعتبر نفسه موظفاً حكومياً. والكثير من هؤلاء هم موظفون حكوميون متقاعدون سابقاً، ويعتقدون أنهم حققوا صفقة رابحة بعملهم هٰذا في المقام الأول.

إنهم مرتبطون عاطفياً».

ثايبولت: «هٰذا في الحقيقة لوثة عقلية».

سألت: «بمناسبة الحديث عن لوثة العقل، كيف حال «ستو»؟».

ضحك ثايبولت: «أظن أنه لا تغيير يذكر بشأنه».

ـ «ما هي مآخذك يا «جو» على اقتراح «ميتران»؟».

جو: «هٰذا السؤال ليس من اختصاصي. من الأفضل أن توجهه إلى حكومة واشنطن».

ـ «يبدو أن وزارة الخارجية تشعر أن ذلك الاقتراح يمكن أن يشكل قاعدة لإنهاء هٰذه الأزمة».

جو: «لا تعليق لدي، ما أستطيع قوله أنني لست مدركاً لأية تحركات في سبيل إيجاد حل سلمي، والموقف لا يزال محفوفاً بالخطر».

قلت لـ «كلانسي»: «حسناً، لقد تم إخلاء النساء والأطفال. ويقول «ثايبولت» بأن الذين أرادوا المغادرة قد غادروا بالفعل. إن العقوبات لا تؤثر على العراق إلا في مجال قطع الغيار، وترى بغداد

قلت لـ «كلانسي»: «حسناً، لقد تم إخلاء النساء والأطفال. ويقول «ثايبولت» بأن الذين أرادوا المغادرة قد غادروا بالفعل. إن العقوبات لا تؤثر على العراق إلا في مجال قطع الغيار، وترى بغداد أن اقتراح «ميتران» يستحق الدراسة والتحليل. يقول «ويلسون» إن هناك تحركات نشطة على الصعيد الدبلوماسي، وأبو العباس يتوعد بشن هجمات إرهابية إنتقامية في حال مهاجمة الطائرات العراقية، ها نحن منكبون جميعاً على الخارطة اللعينة، فأين ستكون ضالتنا المنشودة هٰذه الليلة؟».

أجاب كلانسي بصوت ينم عن سأم: «لقد أجبت على سؤالك يا «روبرت». سيتركز اهتمامنا هٰذه الليلة على ما سيأتينا به «بليستون» من البصرة. أنا ذاهب إلى السوق وسأعود لاحقاً لتحرّي أخباركم».

بينما كنا ننتظر عودة «بلي» و«أنغريد» من البصرة، كتب «كلانسي» كيفما اتفق نص التقرير الإخباري وقال: «إنه ليس نصاً ممتازاً لكنه يحوي جميع العناصر اللازمة». وأفاد التلفزيون العراقي أن الحكومة ألغت قراراً سابقاً وسيمنع الأجانب من شراء المواد الغذائية المقننة.

وقال المذيع: «سيزود الجميع بالغذاء على قدم المساواة بمن فيهم البعثات الدبلوماسية والرعايا الأجانب، وكل من حل ضيفاً على العراق».

قلت لـ «كلانسي»: «هٰذه هي المرة الثالثة على الأقل والتي يتراجعون بها عن قراراتهم بعد

اتخاذهم مواقف متشددة: أولا الرهائن، ثم ذلك الهراء الذي قيل عن احتمال إعدام المتورطين، والآن مسألة تقنين الغذاء، أشعر وكأنه أمر مسلّ، أليس كذلك؟».

كلانسي: «لكنهم لم يتنازلوا ويتراجعوا عن الكويت إلى الآن».

قلت: «لا أعلم، لدي إحساس أنه يجب إيلاء اقتراح «ميتران» أهمية أكثر. كان حمدون مشغولاً بالتزاماته طيلة اليوم، وكنت أريد فعلاً بحث هٰذا الأمر معه».

وكنت كلما ازددت تفكيراً بالاقتراح كلما بدا لي أكثر منطقية، ولكنه لا يشكل في طبيعة الحال فرصة عظيمة لحل المشكلة ذلك أن الولايات المتحدة رفضت أي ربط بين الانسحاب العراقي من الكويت وبين قضايا إقليمية أخرى، ولم تكن إسرائيل راغبة في الاشتراك في مؤتمر دولي تحت رعاية الأمم المتحدة أكثر من رغبتها في التخلّي من جانب واحد عن الضفة الغربية وقطاع غزة. والأهم من ذلك أنه لم يظهر في الأفق ما يدل على رغبة أية دولة عربية في الجلوس مع إسرائيل وإبرام صلح منفرد معها. وتخيلت لبرهة من الزمن لو أن جميع الأطراف المتنازعة أدركت فجأة واقعية ومنطق اقتراح «ميتران» فتجنّبت الحرب، لكن السنوات التي قضيتها في الشرق الأوسط قد علمتني أن العاطفة تسبق المنطق والعقل في هٰذا الجزء من العالم، وأن المنطقة غارقة في بحر لُجّي هائج من المواقف العاطفية المتشددة ووجهات النظر، التي يؤيدها أصحابها بكل قوة من دون التنازل ولو قليلاً في سبيل تفهم وتحمل وجهات النظر الأخرى المخالفة. نعم، نعم، الجميع يريدون السلام: الدول العربية، وإسرائيل، والفلسطينيون. ولكن كل طرف حسب شروطه الخاصة. وظننت في أشد لحظات التفكير حلكة وسواداً أن الحرب لن تقع على الرغم من كل ذلك، ولكن هل تعرف الدعابة القديمة عن إيرلندا الشمالية؟ لقد أخذوا الأشخاص المؤيدين للسلام ووضعوهم في سفن في شمال المحيط الأطلسي، ثم سمحوا للآخرين الباقين بقتل بعضهم بعضاً، ثم ماذا حدث؟ ثم . . أغرقوا السفن!!

دخل كارل بيرنستين مكتبنا متسائلاً: «معذرة، هل منكم من يعرف شيئاً عن تشغيل طابعات الحاسوب الآلي؟». لم أقابل «بيرنستين» قبل ذلك مطلقاً، وهو الذي عمل مع «بوب ود وورد» على كشف فضيحة ووترغيت وتفجيرها. كان «بيرنستين» أسطورة في عالم الصحافة، وقد ربح جائزة «بوليتزر» الخاصة برجال الصحافة المتميزين ـ وأنا من بينهم ـ وقد أقلقت فضيحة ووترغيت كل رجال الرئيس الأمريكي وأقضت مضاجعهم عند ظهورها أول مرة على صفحات الجرائد والمجلات، وشكلت متعة بديلة للصحفيين الذين استغلوها ثم خلدت الشاشة الكبيرة ما كتبوه. بدأت حياة «كارل» تتعثر منذ نشره فضيحة ووترغيت، ومن بين ما لاقاه إنتقاله المشؤوم إلى شبكة إيه. بي. سي حيث شغل منصب رئيس مكتب الشبكة في واشنطن؛ وتطليق زوجته الكاتبة «نورا

إيفرون» التي كتبت رواية تحت عنوان «هارتبيرن» ثم حورت إلى فيلم سينمائي، وقد استعرضت فيها ما ادعت أنه عبث وغزل «كارل» مع النساء وأساليبه في الغش والخداع، وكان طلاقاً غير منظم حيث انتشر خبره وعلم به القاصي والداني. جاء «بيرنستين» إلى بغداد في مهمة لصالح مجلة تايم بعد أن عُيّن مؤخراً كمراسل صحفي في مكتبها في مدينة نيويورك. وبالتقارير، كنت قد انتهيت للتو من قراءة آخر كتاب ألفه «بيرنستين» بعنوان «لويالتيز» ـ أي ولاءات.

قلت مقـدماً نفسي له: «هودي، أنا «روبرت وينر». لا أعرف شيئاً عن الحاسوب الآلي أو الطابعات، غير أن «جيم كلانسي» في الغرفة المجاورة هو من أكثر الناس دراية بها في بغداد».

ضحك بيرنستين معلقاً: «هل الأمر هكذا؟».

ورفعت صوتي منادياً: «نعم هو كذلك يا «جيم»، أرجو مساعدة صديقنا «بيرنستين»».

كارل: «أعتقد أنك رئيس العمل هنا».

ـ «إننا نعمل سويا كلنا، وتوجد مسحة اجتماعية في عملنا هٰذا».

وظهر «كلانسي» بعد هنيهات واستمع إلى مشكلة «بيرنستين» ثم عرض عليه بسرعة خمس تفسيرات محتملة لعـدم عمل طابعته كما يجب، وقال: «أنا متأكد من قدرتي على إصلاحها»، واصطحب «بيرنستين» إلى غرفته. كانت «تريسي» تتابع الحوار فسألتها: «ما يضحكك؟».

ضحكت قائلة: «لا أستـطيع شرح المـوقف. يبـدو أن ذلـك الـرجل في حاجة دائمة إلى المساعدة. إنه لا يزال منذ يومين وحتى قبل عودتك يظهر فجأة بين الفينة والفينة طالباً المساعدة في هٰذا الأمر أو ذلك».

ـ «يجب أن نساعده يا عزيزتي. المشكلة أنك لا تكنين أي احترام لمن هم أقدم منك في مهنة الصحافة».

تريسي: «لا تقسو عليّ يا «ويني»».

ـ «إني جاد فيما أقول. أظنك بحاجة إلى التزام بعض قواعد ضبط السلوك».

ضحكت تريسي وقالت: «أرجوك يا «ويني» ألا تفتح هٰذا الموضوع ثانية. لقد أحضرت شريطاً لنسجل عليه أعمالنا».

سَأَلْتُ «أنغريد» في وقت لاحق من تلك الليلة وبعد رجوعها من مدينة البصرة: «ما قصة السيد مازن؟ وما الذي حدث بالضبط؟».

ضحكت أنغريد مجيبة: «تعني ماذا حدث للمخلوق القارض؟ حسناً، من الواضح أنه كان يحاول الاتفاق مع السائقين، وعلى الأقل مع كريم والسائق الآخر الذي ذهب بعد أن غادرت أنت

البلد وكان يحصل يومياً على خمسين دولاراً من كلا الإثنين».

ـ «وماذا عن جاسم؟».

تريسي: «كنا ندفع لجاسم بصورة مباشرة. كان مازن مسؤولاً عن الإثنين الآخريْن».

ـ «أين مازن الآن؟».

تريسي: «إنه يعمل في وزارة الإعلام، وليس لدينا علاقة مع أي رجل مراقبة آخر ممن لهم عمل رسمي مع الدولة».

ـ «من الذي نعمل معه إذن؟».

تريسي: «القسم الأكبر من عملنا ننجزه مع شخص يدعى ناصر، ويقول «كلانسي» إن ناصر رجل جيد، غير أنني أظن أنه فنان أخرق».

ـ «قولي ما تشائين عن مازن ولكن لا تنسي أنه أنجز ما كان مطلوباً منه، مثل المساعدة على الإتيان بقصة إخبارية. بالمناسبة، كيف ظهر المقال الخاص عن يهود العراق؟».

تريسي: «ممتاز جداً يا «ويني»، يجب أن تلقي نظرة عليه. لقد كتب «دوج» نصاً جيداً وعلمت أن التلفزيون الإسرائيلي بث التقرير عدة مرات».

ـ «عظيم جداً، إني أرغب في لقاء السيد ناصر».

طلبت تريسي مزيداً من الثلج وقالت: «سوق تقابله إذ سيعرج علينا ليناقش معك برنامج عملنا».

بعد فترة قصيرة، حضر إلى مكتبنا رجل سمين قصير، شعره مجعد وله شارب وفكين كبيرين، ويلبس سترة ثقيلة، واستغرق دقيقتين في تقديم نفسه لنا ثم طلب جرعة من مشروب الفودكا المسكر. كان ذلك في حد ذاته دلالة سيئة ونقض للاتفاقية فيما بيننا، ولكن ما العمل؟ كان لدينا القليل من الفودكا في ذلك الوقت، وكان الجو بهيجاً. صببت كأسا لناصر وقلت له: «نحن راغبون جداً في زيارة إحدى المزارع غداً من أجل إعداد تقرير إخباري عن زيادة الإنتاج كردٍ على العقوبات الاقتصادية، هل من الممكن القيام بذلك؟».

ناصر: «نعم، لا مشكلة في ذلك. أنا أعرف مزرعة كبيرة تبعد عن بغداد مسافة ساعة بالسيارة».

ـ «ماذا يزرعون فيها؟».

ناصر: «كل شيء، إنها مزرعة جيدة. لقد أعدت شبكة آيْ. تي. إن تقريراً إخبارياً مصوراً عنها

الأسبوع الماضي «وأشار إلى زجاجة الخمر قائلاً: «أعطني كأساً أخرى من فضلك».

ـ «اعتبر نفسك في بيتك». فاغترف ناصر غرفة من الثلج ثم أفرغ ما بقي في الزجاجة في كأسه. وسألته: «كم الفترة التي قضيتها وأنت مُسلم ورع؟»

ناصر: «ماذا؟ ليس لديك المزيد من الفودكا؟».

ـ «لدي منها قطعاً، ثم نزعت سدادة زجاجة أخرى وقدمت له كأساً كبيراً مركزاً وقلت: «هل أنت متأكد أنك ستكون على ما يرام صباح غد؟ علينا الانطلاق باكراً».

أجاب ناصر بكلام غير واضح: «سننطلق في الساعة الحادية عشرة تقريباً، وهو وقت كاف».

ـ «إنه وقت متأخر جداً، وأعتقد أن الفلاحين في أرجاء العالم ينهضون باكراً مع طلوع الفجر». ناصر: «كلا، سنذهب في الحادية عشرة وسيكون كل شيء على ما يرام»، وتابعت حديثي مرافقا إياه إلى الباب: «حسناً، أدرك أنه كان يوم عمل شاق عليك. سنقابلك في الروحة غداً عند الساعة الحادية عشرة وأنت متفتح الذهن. أنا أركن إليك».

ضحكت أنغريد قائلة: «هل فهمت ما أعنيه؟».

ـ «نعم أنت على حق. منذ متى وهو يستعمل هٰذا الأسلوب الوقح؟».

أنغريد: «لا أعرف. لا بد أن العاملين في شبكة آيْ. تي. إن قد أفسدوه».

انطلق صوت ساعة المنبه عالياً موقظاً إياي عند الساعة السادسة صباحاً، وبالرغم من إفراطنا في السهر ليلة أمس إلا أنني كنت راغباً في النهوض والتحرك. كان قرص الشمس قد بدأ يرتفع للتـو في كبد السماء، وما أن باشرت الاغتسال حتى هبت عليّ نسمة دافئة من نسمات الصباح العليلة والآتية من النافذة المفتوحة. ونزلت بعد ربع ساعة إلى المكتب الذي كان يشبه كالعادة في مثل هٰذا الوقت منطقة كوارث حيث انتشرت هنا وهناك صواني الطعام الذي لم يؤكل إلا نصفه، والـزجـاجـات الفـارغـة، ومنـافض السجائر الطافحة بأعقاب ورماد السجائر. وكانت المجلات والصحف المـرمية مبعثرة في أنحـاء المكتب، والهواء فاسد وممزوج برائحة كريهة من الدخان والتعرق والجعة. فتحت النافذة ووضعت إبريق القهوة على السخان ثم ناديت المشرفين على خدمة الفندق وطلبت إحضار الفطور. وبعد ذلك دخلت حمام الغرفة رقم (٩٠٢) الذي كان يعتبر بمثابة مشفى داخليا صغيرا وابتلعت جرعتي اليومية من الفيتـامينات والأسبرين ودواء مضاداً للإسهال. وأصبحنا جاهزين للعمل، ثم ما لبث أن حضر خادم سوداني يحمل طبقاً ضخماً مليئاً بلفافات وخبز محمص وبيض مسلوق وشراب برتقال صناعي إضافة إلى الشاي.

كان «بلي» مستيقظاً كعادته، ذلك أن سنوات خدمته العسكرية في سلاح البحرية قد زرعت فيه ميزة الشك والهجوم على العدو منذ رؤيته للوهلة الأولى. ويتكون طبقه الصباحي من زبدة الفول السوداني مفروشة على الخبز المحمص مع شوكلاتة من نوع نيوتيلاً، إلا أنه مع مرور الوقت وازدياد شهيته سرعان ما يحل سمك البلم المعلب مكان الشوكلاته، وهو مزيج طعام جعلنا نشعر بالغثيان عندما كان «بلي» يتناوله. وتصفحنا صحيفة (بغداد أوبزيرفر) ونحن نلتزم الصمت من دون كلام كثير مثلما يفعل الزوجان العجوزان.

كارل برنستين: «صباح الخير. هل بإمكاني شرب كأس من القهوة عندكم؟ أنا لا أستطيع شرب ما تجلبه لنا إدارة خدمات الفندق».

أجبت: «تفضل وكن ضيفي».

كارل: «ماذا ستعمل اليوم؟».

- «لا شيء هام. سنعد موضوع البصرة للنشر والبث ثم نعمل في قصة إخبارية تتعلق بميدان الزراعة. ماذا ستعمل أنت؟».

كارل: «لديّ لقاءان مع دبلوماسيين بغية ربط عدة خيوط ببعضها وتجميعها. بالمناسبة، كيف تدبر أمر حصولك على المال؟ لدي شيك أريد تحصيله؟».

- «لا أعرف يا «كارل». هل هو شيك شخصي؟».

كارل مبتسماً: «لدي شيكات سياحية».

- «باستطاعتنا خدمتك في هٰذه الحالة. كم المبلغ الذي تريد؟».

كارل: «خمسة الآف أو على الأقل ثلاثة الآف وخمسمائة دولار، هٰذا إن كنت تستطيع الاستغناء عنها. كان عليّ التزامات مالية عديدة قبل رجوعي إلى نيويورك، ثم إني أريد التوقف في مدينة القاهرة. ماذا تعرف عن أسعار السجاد هناك؟ هل السوق مناسبة؟».

- «الحاجيات في القاهرة زهيدة الثمن، ولكن لم أشتر قط سجاداً من هناك. يجب أن تتحقق من الأمر بسؤالك السيد «ماريو» الموجود في الأسفل مع شبكة سي. بي. إس التلفزيونية. إنه على علم ودراية بسوق السجاد في هٰذا الجزء من العالم». وبينما كنت أناقش الموضوع مع «كارل» دخلت «تريسي» إلى المكتب بخطى متئدة وصبّت لنفسها كوباً من الشاي.

كارل: «شكراً جزيلاً. سأراك فيما بعد وبلغ شكري إلى «جيم» لقاء مساعدته لي في تشغيل الآلة الطابعة».

تريسي: «ما هي القضية هٰذه المرة؟ أهي زيارة اجتماعية؟».

ـ «ليس بالضبط. يريد مالاً مقابل شيكات».

ضحكت تريس» قائلة: «أرأيت. هٰذا ما نوّهت لك به سابقاً».

أخذت «تريسي» الأشرطة التي أحضرتها من البصرة بغية إكمال إجراءات العمل وعاد «بلي» إلى غرفته ليكتب، بينما صببت لنفسي كوباً آخر من القهوة ثم أجلت النظر ببصري من النافذة. كان عدد من الرهائن يجلسون تحت الشمس معرضين أجسامهم لها عند حافة حوض السباحة في الأسفل، وآخرون يمرحون ضاربين الماء بأيديهم. وبعد فترة وجيزة خلعت ثلاث ممرضات من المستشفى الإيرلنـدي ملابسهن كاشفات عن ملابس السباحة الرائعة ثم وضعن أرائك الجلوس باتجـاه الشمس بهدف الحصول على أقصى فائدة من أشعة الشمس. وأخذت إحداهن تدهن جسدها البرونزي بمرهم واق من أشعة الشمس وبعناية شديدة، وقد تعرفنا عليها لاحقاً وإسمها «ناتالي». وكان ثمة أشخاص يلعبون في ساحتي التنس الأرضي جانب حوض السباحة ويرتدون المـلابس البيضـاء النظامية، بينما خرج «ضيوف» آخرون للتنزه مشياً على الأقدام في الحدائق المجاورة. كان من السهل على المرء أن ينسى للحظات أننا في قلب الإعصار ومركز الكارثة. وقبل خروجي وضعت ملاحظة لـ «أنغريد» من أجل إيقاظها إذ كان يتوجب عليها الخروج مع «كلانسي» وناصر وأفراد الطاقم للذهاب إلى المزرعة، وبعدها تركت الفندق متجهاً إلى السفارة.

كان طاقما شبكتين تلفزيونيتين أوروبيتين يسجلان مقابلة مع يوسف إسلام الذي استجاب مرة لشخص ناداه بإسم «كات ستيفن» [وهو إسم يوسف إسلام قبل إسلامه بعد أن كان مغنياً بريطانياً مشهوراً]. علق يوسف آماله على قطار السلام، وجاء الآن إلى بغداد مسبغاً على نفسه صفة مبعوث يعمل على دعم نوع من الترابط الدولي والتعاطف للوقوف بوجه الحرب. وكان باستطاعتك رؤية يوسف يتفسح في حدائق الفندق عندما لا يكون مشغولاً بالاجتماع مع المسؤولين العراقيين أو غير ملتزم بوقت معين من أجل إجراء مقابلة معه، وتجده مرتدياً ثوباً عربياً فضفاضاً يدعى (جلاّبية) وأبيض اللون ويضع قلنسوة صغيرة على رأسه.

لمحني أبو علي فأشرت إليه لإحضار السيارة. كان أبو علي السائق الثالث الذي نتعامل معه، ولكنه لا يجيد الإنجليزية بخلاف جاسم وكريم. وهو بالرغم من ذلك سائق ذو ضمير حي ومجتهد في عمله، وصديق جيد الطباع ويتلهف لإدخال السرور والبهجة إلى قلوب الآخرين. وهو يخاف أيضاً المراقبة الأمنية عليه، وقد احتجنا إلى عدة أسابيع لإقناعه أنه ليس من الضروري إعلام مكتب وزارة الإعـلام عن كل جولـة نريد القيام بها بغية إطلاع المسؤولين العراقيين عن المكان الذي سيأخذنا إليه بالضبط. وكان حديثنا يقتصر فقط على سؤالنا له: «مرحباً، كيف حالك؟»، وجوابه لنا: «أنا بخير، الحمد لله». وكان يقابل محاولتي المتكررة المتعمق في الحوار معه بابتسامة أو

إيماءة من رأسه، وفي أحسن الأحوال كان يستخدم لغة الإشارة ليفهمنا أنه يدرك وجوب تشغيل مكيّف السيارة. ويفهم إضافة إلى ذلك معنى الكلمات الآتية بالإنجليزية: وزارة الخارجية ـ سفارة الـولايات المتحـدة الأمريكية ـ وزارة الإعلام ـ تلفزيون ـ مطار ـ فندق. وكان يكسب يومياً مائة وخمسون دولاراً لقاء عمله هٰذا فقط.

رفض أبو علي كعادته دائماً سجائر من نوع مارلبورو مصنعة في العراق كنسخة عن مارلبورو الأمريكية الأصلية. وشاهدت بعد عبورنا القصر الرئاسي رافعة ضخمة ترفع بطارية ثانية من المدافع المضادة للطائرات من أجل وضعها على قوس فوق المدخل الرئيسي، وهي صورة ممتازة لم يسمح لنا أبداً بالتقاطها. إن العراقيين حساسون جداً تجاه ما يتعلق بالمسائل الأمنية لدرجة أنني عندما عبرت القصر الرئاسي أول مرة في السابق وبصحبة مازن.

قلت لمازن: «هٰذا إذن القصر الرئاسي، أليس كذلك؟».

فأجاب مازن: «ربما».

وفي واقعة أخرى أبدت «أنغريد» ملاحظة صغيرة فقال لها رجل مراقبة آخر: «إن كنت تحبيني فلا تسأليني».

استدعتني السفارة وأخبرني محرر صحيفة أتلانتا العامل في الفترة المسائية بالآتي: «تحذر وزارة الخـارجية الأمـريكية رعـاياها من أن هناك أدلة متزايدة على قرب بدء موجة عنف تدعمها العراق، وأن هناك احتمالاً لوقوعها». وأضاف: «توجد شكوك وتخمينات بأن صدام حسين يحاول التملّص من الحظر المفروض على العراق عن طريق استيراد البضائع عبر الأردن. هل نستطيع عمل شيء بهذا الخصوص؟»، فاقترحت أن يتابع مكتب عَمان هٰذا الأمر وذلك نظراً لطبيعة القصة الإخبارية والمشاكل الواضحة فيما يتعلق بالرقابة المفروضة علينا هناك في العراق. وكنا راغبين على أقل تقدير بإمداد السفارة بما يتوفر لدينا من صور فوتوغرافية عن أي مادة أردنية مصدّرة إلى العراق.

وبعد عدة ساعات التقيت بأحد موظفي السلك الدبلوماسي في السفارة الأسترالية، وقال لي: «إنهم يخرقون الحظر بالطبع. نحن لا نتكلم عن المواد الغذائية والدواء، ولكن ألق نظرة على الشارع الرئيسي أو الطريق الرئيسي القادم من عَمان فسترى أنه مزدحم دائماً بالسيارات الشاحنة. يا الله، لقد استلمت وزارة الخارجية العراقية منذ فترة وجيزة أسطولاً جديداً من السيارات الأمريكية نوع أولدزموبيل، فمن أين تظن مصدر هٰذه السيارات؟ إن هٰذه المسألة ستشكل أرضية جيدة لقصة إخبارية تستطيع أنت تقديمها». وأضاف: «فتش عن الشخص الذي يمتلك امتيازاً لاستيراد وبيع سيارات شركة (جنرال موتورز) في عَمان وستضمن بذلك معرفة من يتلاعب بالحظر الدولي المفروض.

في طريق عودتي إلى برلين في أوائل شهر تشرين الثاني، تحدثت إلى ممثل شركة الطيران الألمانية (لوفتهانزا) في مطار الملكة علياء الدولي في عَمان، وقال بنفس القدر من الصراحة: «إنني أراها كل يوم. تطير الطائرات العراقية إلى عَمان ومعها ما يكفي للوصول إلى عَمان ثم تعود إلى بغداد بعد ملء خزاناتها بالوقود. الجميع يعرف أنهم يفرغون الطائرات من الوقود في العراق بغية استخدامها في رحلات أخرى، بما فيها الرحلات الجوية إلى الكويت».

لم ترد أخبار هامة في التقرير الإخباري الصباحي. وقد انقضى الوقت في الحقيقة على تكرار معلومات قديمة وتمريرها إلى المراسلين الواصلين مؤخراً. وعدت أدراجي إلى مكتب المعلومات الأمريكي محاولاً تحديد مواعيد للالتقاء مع ناجي ونزار.

وفي طريق عودتنا إلى فندق الرشيد طلبت من أبي علي التوقف أمام بقالة صغيرة. كانت البقالة مليئة بصفائح كبيرة من شراب برتقال فلوريدا، وعلب سمك السلمون الأسكتلندي المدخن، وبأوعية صلصة المايونيز، وصلصة بيرنز، وأنواع من التوابل، ومعلبات سمك التونة، وجبنة الشَّدْر، وزيتون يوناني من نوع كالاماتا، ومحار بحري معلّب، ولحم بقري مملّح، وأنواع عديدة من الشراب المعلب نوع كوكا كولا وفانتا. أمسكت بعلبة من علب فحم الكوك وقلبتها فكان التاريخ ٢/٨/١٩٩٠ مكتوباً في الأسفل ومغطى بدمغة من حبر أزرق، وهو تاريخ دخول وغزو الكويت. وسألت صاحب الدكان: «هل كل ما يوجد هنا من الكويت؟» فما كان منه إلا أن التقط الصحيفة وتابع القراءة من دون أن يرد على السؤال.

ما إن دخلت ردهة الفندق حتى وثب المسؤول عن مكتب المراقبين وأسرع إلي شابكاً يديه ببعض، وقال: «يجب أن تتكلم مع الآنسة «أنغريد». لا يجب عليها أن تصيح كما تفعل الآن، اليس كذلك؟ ليس هنا في الفندق».

ـ «ما هي المشكلة بالضبط؟».

المسؤول: «لم أفهم بالضبط. يقول ناصر إنه اصطحبها إلى المزرعة كما طلبت واستخدمت المصعد للوصول إلى الغرفة رقم (٩٠٦).

صرخت أنغريد: «هذا شيء سخيف، وذلك الرجل أحمق قطعا. لقد وصل متأخراً عشرة دقائق عن موعد الخروج من أجل تصوير التقرير الإخباري، وعند وصولنا إلى المزرعة لم نجد أحداً. كانوا يتناولون الغذاء».

ـ «هل عادوا إلى العمل بعد تناول طعام الغذاء؟».

أنغريد: «طبعا لا، كانت درجة الحرارة مرتفعة جداً. إنهم مزارعون يا «ويني» وليسوا حمقى!».

ـ «أين ناصر الآن؟».

أنغريد: «الله وحده يعلم».

ـ «حسناً، سأكلمه فيما بعد. إن المزرعة لن تفلت من يديك على أية حال، وقد عملت مع «بلي» في البصرة. سأتناول وجبة طعام خفيفة ثم أقابل ناجي، هل أنت جائعة؟.

صرخ بلي من القاعة: «من يطلب الغذاء؟».

كانت غرفة «بوبا» مقابل غرفة العمل مباشرة. ولا بد أن باب غرفته كان مفتوحاً. وبعد لحظات مشى بوبا بخطوات خافتة وأطل قائلاً: «أتريدون حساء البصل وبوظة؟ أم ستغامرون وتجربون صنفاً جديداً؟».

بلي: «كلا، ما قلته يبدو جيداً».

قلت: «ماذا تريدين يا «أنغريد»؟».

أنغريد: «خيار مع كريما وطبق كبير من البطيخ والتمر مع قهوة تركية».

بوبا: «ماذا يريد طاقم العمل و«تريسي»؟».

أجبت: «إنهم في غرفة الطعام في الأسفل»، وطلبت بالهاتف خدمة الغرف وأمرت بإحضار الغذاء لنا، وطلبت لنفسي عجة البيض».

وعاتبتني أنغريد قائلة: «يجب أن تطلب من ناجي تغيير ناصر وإحلال مراقب آخر مكانه».

فأجبتها: «سأتحدث بهذا الموضوع مع سعدون، أما ناجي فسأتحدث معه في أمور أكثر أهمية».

وأثناء انتظارنا وصول طعام الغذاء، تلى «بلي» على مسامعنا ما كتبه عن البصرة، أو كما عبر عنها بعبارة «ميناء سندباد البحري الأسطوري». كان العراقيون قد أحضروا وسائل الإعلام إلى البصرة لتشهد وتوثق وصول سفينة شحن هندية تحمل المواد الغذائية والدواء. وكانت الرحلة كالعادة خاضعة لمراقبة شديدة، إلا أن «أنغريد» و«بلي» استطاعا التملّص من الرقابة وإجراء مقابلة مع مسؤول من الصليب الأحمر الهندي الذي كان أقل إطراءً في حديثه عن تعاون السلطات العراقية معه. وبعد الانتهاء من الإجراءات القانونية، تم تفريغ السفينة وأرسل قسم من حمولتها إلى المحتاجين في مدينة الكويت. وفشلت السلطات في توفير عدد من الشاحنات والسائقين أو أية وسائل نقل أخرى، فبقيت البضائع مكدسة على رصيف الميناء.

وقال بلي: «يجب مراجعة الصليب الأحمر في هٰذا الأمر لنرى فيما إذا تم نقل شحنة الغذاء والدواء أم لا».

وصل ناصر إلى المكتب مع وصول الغذاء، وكأن المقادير شاءت أن يصل في هٰذا الوقت

تماماً. وسأل فور وصوله: «هل تسمي هٰذا شيئاً جيداً» وأشار إلى البوظة.

قلت له موبّخاً: «أنصت، يجب أن تعلم أني مستاء جداً من كيفية تصريف الأمور هٰذا الصباح. لقد أخبرتك ليلة أمس أن المزارعين ينهضون باكراً في الصباح ولكنك قلت خلاف ذلك وصدّقتك. لقد أحرجتني إحراجاً شديداً أمام زملائي في العمل».

ناصر: «ولكن . . ».

ـ «دعني أكمل حديثي. أنا لا أعارض قُدومك إلى مكتبنا وشرب مشروباتنا، وتنمية علاقاتك الاجتماعية من أجل ذلك. وأقول لك بكل احترام إن وجودنا هنا هو للعمل، وإذا كان العمل يعني الاستيقاظ مبكراً، فعليك إذن النهوض مبكراً».

وأطرق ناصر رأسه إلى الأرض. وشعرت بالأسى لبرهة من الزمن لموقف ذلك الشخص المغفّل.

ناصر: «لا أظن أنه من اللائق أن تصرخ «أنغريد» في وجهي و . . ».

ـ «كانت «أنغريد» مسؤولة في شبكة سي. إن. إن عن تغطية موضوع المزرعة، ومن الطبيعي أنها كانت مضطربة بسبب عدم تمكنها من تزويد شبكتنا العالمية بالتغطية الإخبارية التي وعدت بإنجازها. لقد أخبرتني أنت أنك عملت مرة مع صحيفة (بغداد أوبزيرفر)، أليس كذلك؟ ولكونك صحفيا فأنت تدرك تماماً وتقدر الإحباط الذي تشعر هي به».

ناصر: «ولكن . . ».

ـ «لندع الجدال بشأن هٰذا الموضوع يا ناصر. أريد منك وعداً بألا يتكرر ما حدث ثانية، فهل أنت موافق؟».

ناصر: «هل تريد الذهاب غداً إلى المزرعة؟».

ـ «لا أعلم حالياً، ولكنني أجد أن خير نصيحة لك هي أن تتصل بأصحاب المزرعة والعاملين فيها وتعلم الوقت الذي يبدأون فيه بالعمل، وأن تعلم بدقّة ما هي المحاصيل التي يجنوها الآن، إضافة إلى بعض المعلومات الهامة الأخرى. دعنا نقوم بالعمل الصحفي الجيد والمثالي. هل كل شيء على ما يرام».

ناصر: «كل شيء على ما يرام. سأراك غداً».

اتجهت إلى مكتب ناجي، وتوقّفت في طريقي لزيارة سعدون الجنابي الذي كان مكتبه في نفس الطابق. كان سعدون مسؤولاً عن تنظيم العمليات اليومية المتعلقة بالصحافة الأجنبية مثل إصدار تأشيرات الدخول والخروج، وتعيين المراقبين، وتنظيم الرحلات الميدانية، وتحويل

المراسلين الواصلين إلى العراق أول مرة إلى مكتب وزير الإعلام لتلقّي الترحيب التقليدي والاجتماع بهم. وقد رُقّي جاسم إلى منصبه الجديد منذ وقت قريب وأقبل على عمله بحماسة لا تفتر. وكان أول ما أمر به تغيير ديكور غرفة المسؤول السابق، وإضافة نصف مجموعة من الكراسي ذات الذراعين، والإتيان بمكتبة تحوي نسخاً عن آخر خطابات وبيانات الرئيس صدام حسين، وتعليق صور وثائقية عن الكويت مترجمة إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية. كان الهاتفان الموضوعان على مكتبه يرنّان باستمرار، فيرد عليها محدداً المواعيد ومرتّباً عقد اللقاءات والمقابلات، ويزداد ضغط العمل أحياناً فتراه يرفع سماعة الهاتف لحظة ثم يعيدها إلى مكانها هكذا ببساطة، ويبدو أنه يشعر بالرضى بذلك مع أن الذي يتصل سيظن أنه أخطأ الرقم فيعاود الاتصال ثانية، وهكذا دواليك. كان سعدون رجلاً ضخم الجسم، قوي البنية، ويتحدث الإنجليزية بطلاقة. وليس لديه روح الفكاهة، مثله مثل ناجي، بيد أنه يتوجب عليك الجلوس معه في وقت مناسب لتستطيع اكتشاف ذلك. كان العاملون في الصحافة الحرة يزعجونه ويضايقونه باستمرار ويمطرونه بالأسئلة والمطالب بدءاً من الأمور البسيطة وانتهاءاً بالأمور المعقّدة الغامضة.

فكان ردّه المعتاد عليهم: «عد إليّ ثانية في الساعة السادسة والنصف».

مددت يدي مصافحاً وقلت: «يبدو المكتب عظيماً».

فأمسك بذراعي بدلاً من المصافحة وعانقني مرتين قائلاً: «أهلاً بعودتك يا «روبرت»، كيف كانت رحلتك؟ يا لله، إنك لا تعتني بعينك أبداً!».

قلت: «أجل، أعلم ذلك، إنها بخير. كيف حالك؟».

سعدون: «كما ترى، إنه العمل كالمعتاد». كان هناك حوالي خمسة من الصحافيين ينتظرون خارج مكتبه، وأضاف: «إنهم ينتظرون جميعاً مقابلة السيد الحديثي». وأشار إلى كدس من الرسائل وقال بصوت هامس: «وأصحاب هٰذه الرسائل يريدون المجيء إلى بغداد».

- «أريد مقابلة ناجي أيضاً؟».

سعدون: «أجل، أجل. هٰذه ليست مشكلة، ستكون أول من يقابله، انتظر قليلاً فأريد أن أسألك عن شيء» وأمال نفسه منحنياً إلى الأمام وخفّض صوته متسائلاً: «ما حقيقة المشكلة بين ناصر و «أنغريد»؟ لقد علمت بحصول خلافٍ شديدٍ؟».

- «لم يقم ناصر بعمله كما يجب، إذ وعدنا بالذهاب من أجل تصوير نبأ إخباري، وها نحن الآن بدون تقرير إخباري بسبب تأخره».

سعدون: «هٰذا تصرّف شنيع. سأتحدث معه بهذا الخصوص».

- «لقد تحدثت معه للتو، قل لي بصراحة لماذا لا تستطيع العمل مع السيد مازن؟».

سعدون: «أنت تعلم أننا لا نحبذ أن يعمل المرشد لفترة طويلة معكم، فذلك يخلق مشاكل».

ـ «أي نوع من المشاكل تقصد أنت؟».

سعدون: «ليس من الجيد أن تتعمق في صداقتك مع المرشد الذي يعمل معك».

ـ «ولم لا؟ هل تعتقد أن مازن سيفشي أسرار الدولة؟».

سعدون: «ليس الأمر كما تتصور أنت. عن إذنك، سأتحدث مع ناصر. نحن نريد أن تؤدي شبكة سي. إن. إن عملها على أكمل وجه. سأتصل الآن بالسيد الحديثي لتقابله». ورفع سماعة الهاتف الداخلي ليتحدث معه، وبعد برهة أشار بيده نحو مكتب ناجي الحديثي وقال لي: «إنه ينتظرك».

قال ناجي: «جميل أن أراك ثانية يا «روبرت». كيف حال عائلتك؟».

فأجبت: «بخير، شكراً. كيف حالك».

ابتسم وقال: «مازلت على قيد الحياة»، ثم جلس خلف المكتب وطلب شاياً، وأضاف: «ماذا يقولون في أمريكا؟ هل ستنشب الحرب؟».

ـ «من الصعب تقرير ذلك، وأنت تعلم أني كنت في ألمانيا وليس في الولايات المتحدة»

ناجي: «أجل، أجل. ولكنك على اتصال دائم مع الولايات المتحدة».

ـ «لا أعلم يا سيد ناجي، وأنا صادق كل الصدق فيما أقول. من الواضح أن أمير الكويت قد رسم صورة قاتمة عن انتهاكات حقوق الإنسان وذلك عند لقائه الرئيس الأمريكي «بوش» قبل عدة أيام.

سأل ناجي معبراً عن شكه: «وطبعاً صدّق الأمريكيون ما قاله الأمير، لكن جادّين يا «روبرت»، يجب أن يدرك الرئيس «بوش» أن آل الصباح يحكمون الكويت حكماً فاسداً ومنحرفاً».

ـ «سواء أكان فاسداً أم لا، فإن الأمم المتحدة قد اعترفت بأن الكويت دولة ذات سيادة على أراضيها».

ناجي: «لقد هيمنت الولايات المتحدة الأمريكية على هيئة الأمم المتحدة واشترت أصواتها. إن واشنطن تهدّد وتبتز الدول بغية إرغامها على تأييد موقفها ودعم وجهة نظرها».

ـ «هل تريد القول بأن العراق لم يكن ليحصل على معاملة جيدة وحل عادل لو أنه حاول حل قضية الكويت عن طريق الأمم المتحدة؟».

ناجي: «على رسلك يا «روبرت»، نحن لسنا أناساً أغبياء».

ـ «أنصت يا ناجي، سأكون صادقاً معك. لا أعلم الكثير عن إدعاء العراق بأن لها حقاً تاريخياً في الكويت، فقد يوجد حقاً قضية ووضع قانوني مشروع، ومن يدري؟ أنا أتحدث معك بصورة شخصية وليس بوصفي ممثلاً لشبكة سي. إن. إن، ويجب أن أحيطك علماً بأنني كنت يوماً من مؤيدي نبذ العنف وعدم مقابلة العنف بالعنف والقوة بالقوة. أنا أؤمن بالحوار والجلوس معاً إلى طاولة واحدة بهدف بحث مسائل الخلاف والشكاوي. لا أعتقد أن مما يخدم مصالح عالمنا أن تقوم دولة بفرض نفسها على الأخرى بقوة السلاح، ولهذا كنت معارضاً لما قامت به الولايات المتحدة في فيتنام. وأظن أن العراق كان متهوراً باستيلائه على الكويت. أنا رجل مثالي، فهي عليَّ أي مأخذ؟».

ناجي: «يا عزيزي «روبرت»، كان من مصلحة الولايات المتحدة دعم عائلة آل الصباح مهما كان مدى استشراء الفساد فيها. هل تعتقد أنه من الصحة والعدل أن يتحكم عدد قليل من المشايخ في كل شيء، وأنه من الصحة قضاء الوقت في أماكن اللهو في أرجاء العالم بينما تعيش معظم الدول العربية في حالة الفقر المدقع؟ هل هٰذا من العدل؟».

التقطت أنفاسي وتساءلت في سرّي عن جدوى متابعة النقاش مع ناجي. أم لا؟ إذا كان هناك تحق بذل الجهد فلأبذل قدر استطاعتي، وقلت: «أوتظن أنه كان من العدل تهديد العراق ِ نصف إسرائيل؟».

تابع ناجي قائلاً: «إسرائيل هي التي تهدد بتدميرنا».

ـ «هل أنت جاد في تصديق ذلك؟».

ناجي: «بالطبع نعم، فلقد هاجمونا مؤخراً. إن أعظم ما يرغبون به هو تدمير ما بنيناه اه».

وأحسست أننا سنقع في مشكلة إذا استمر النقاش في هٰذا الموضوع من تحقيق الفائدة المرجوة ن ورائه، وخاصة بالنسبة لي، فقمت بالانتقال فجأة إلى موضوع آخر وسألته:

ـ «بالنسبة للمسألة الأخرى، هل من أمل في مقابلة الرئيس صدام؟».

وفكر ناجي بالأمر لحظات وهو يعبث بسبحته التي لا تهدأ حركتها ثم سألني: «ما رأيك في اقتراح الرئيس «ميتران»؟».

أجبت: «بالنسبة لي فإنني أراه معقولاً، غير أني أظن أنه سيواجه صعوبة كبيرة في محاولة إقناع واشنطن أو إسرائيل باقتراحه هٰذا».

ضحك ناجي وقال: «ذلك يعني أن واشنطن أو إسرائيل هي الأمم المتحدة».

ـ «بالله عليك يا ناجي، ماذا بشأن المقابلة، ورحلتنا الجوية إلى الكويت؟».

ناجي: «يجب أن تتحلّى بالصبر يا صديقي».

ـ «لقد دفعت مالاً كثيراً بغية أن أكون صبوراً».

ناجي: «سنبقى على اتصال بعضنا مع بعض»، وأشار بأن وقت اللقاء قد انتهى، وأضاف: «عُد إليّ بعد أيام».

سألني إيسون: «ماذا قال ناجي؟».

ـ «كن صبوراً».

إيسون: «يا لألطاف السماء!!».

ـ «أنصت. لدي إحساس داخلي بأننا سنحصل على إذن بالمقابلة عاجلاً أم آجلاً. سنظل نتابع الموضوع، ومن الواضح أن ذلك يرجع إليهم في المقام الأول».

إيسون: «أنا مصغٍ إليك وأُدرك ما تقول. ماذا بشأن الرحلة إلى الكويت؟».

ـ «لم أطرح هٰذا الموضوع، إذ شعرت أن الوقت لم يكن مناسباً. كان عليّ أيضاً الاجتماع مع حمدون لكنه أجل الاجتماع ليومٍ أو يومين. هل حصل «رولي إيفانز» على أيّة أخبار منه؟».

إيسون: «كلا، بالمناسبة، وصلتنا للتو برقية من التلفزيون العراقي تقول بأنهم سيبثّون خطاباً مهماً للرئيس صدام. يبدو أن الخطاب سيكون رداً على خطاب «بوش» الذي وجهه إلى الشعب العراقي».

ـ «هل سننقله حياً على الهواء؟».

إيسون: «كلا، سنسجله هنا لنرى كم من الوقت يستمر، ويمكن أن نعيد مشاهدته فيما بعد».

ـ «يا لهذا الرجل. لا أدري إن كان خطاباً طويلاً وغير مترابط الأفكار للرئيس العراقي سيفعل فعله ويخلق الأعاجيب لهؤلاء الجنود. إن لم يكن فيه غير ذلك فسيصبح موضع نقد وتمحيص من قبل نقادنا».

إيسون ضاحكاً: «أنت على حق. وبعد عودتك سندعك ترد شخصياً على جميع رسائل البريد».

ـ «سأتأكد من الأمور من السيدة عواطف وأرى إن كان باستطاعتي الحصول على مزيد من

المعلومات. كيف تسير الأمور مع الرجال عندك؟».

إيسون: «نحن متعبون جميعاً. لم يحصل أحد على إجازة ولو ليوم واحد، ولم يمر أحد بظروف أسوأ مما مرّ به هؤلاء العاملون في شبكتنا».

ـ «ماذا عن سوزان والطفل؟».

إيسون: «إنهما بخير، وبالكاد أراهما. إني قلق من وضعي هٰذا، ويبدو أنه ليس باستطاعتي الابتعاد وترك هٰذا المكان».

ـ «أجل، أعرف ما تشعر به» . . ثم ضحكت.

٩

استغرقت رسالة السلام التي بعثها الرئيس صدام إلى شعب الولايات المتحدة مدة ساعة وست عشرة دقيقة. وإضافة إلى المقتطفات من الخطاب التي بثتها شبكة سي. إن. إن في نشراتها الإخبارية، فقد بثت الخطاب بأكمله وإن لم يكن وقت بثه متزامناً مع الوقت الرئيسي المناسب للأخبار في الولايات المتحدة. كان الخطاب تقليدياً مثل خطابات صدام السابقة، وقد لام الرئيس «بوش» لتآمره ضد العراق في دوره المزعوم في قضية إيران ـ غيت. ورفض ما اسماه «إنتهاك واستيلاء الصهاينة على الأراضي الفلسطينية»، وانتقد بشدة النفاق الدولي حيث فرضت العقوبات على العراق بينما لم يفرض حصار مشابه على سورية أو إسرائيل، إذ ما تزال سورية تحتل لبنان بخلاف قرارات مجلس الأمن. وانتقد وهاجم الغرب بشدة لمحاولته فرض إرادته على الأمم المتحدة، وأكد مجدداً على حق العراق التاريخي في الكويت، واتهم حاكم الكويت بالتآمر «بغية إضعاف العراق اقتصادياً وسياسياً». وبين أن احتجاز الرعايا الأجانب ضد إرادتهم، بمن فيهم مواطنون من الولايات المتحدة، واعتبارهم «ضيوفاً» كان بهدف إعطاء الإدارة الأمريكية فرصة أفضل للتفكير، ومن أجل منع نشوب حرب مدمرة. وحذر من أن الحرب ستكون دموية وطويلة في حالة اندلاعها.

وقال صدام حسين أن الأزمة كانت قضية أساسها السياسة وليست مجرد قضية مبادىء، وهي بخلاف «ما حاول «بوش» أن يخبرنا به»، وقال صدام واضعاً ذلك بعين الاعتبار: «دعونا إذن نلجأ إلى الحوار بدلاً من اللجوء إلى السلاح، معتبرين إياه الطريق المفضي إلى تفاهم مشترك وحلول

مقبولـة». وأكـد على أنـه إذا أراد المجتمـع الـدولي المساهمة في حل الأزمة وقضايا المنطقة بأجمعها، فيجب عندئذ أن تناقش جميع القضايا «في فلسطين ولبنان والخليج مع بعضها البعض وعلى نفس المستوى في مجلس الأمن وبمنظار واحد، بغية تطبيق نفس الأسس والمعايير على جميع القضايا، آخذين بعين الاعتبار خلفية كل قضية وطبيعتها الخاصة».

غير أن صدام لم يردد ما كان يقوله هو ووزراؤه دوماً من قبل، لم يقل أن العراق لن ينسحب أبداً من الكويت، وفكرت في نفسي أنه إذا كانت هناك لحظة يمكن أن ترجح كفة الميزان لصالح السلام فهي هٰذه اللحظة، ولكن وللمرة الثانية لم يستطع الغرب أن يميزها ويفطن لها.

سألت جو عن موقفه من الخطاب، فقال: «إنه خطاب غير مجد ولا شيء جديد فيه، وهٰذا رأيي الشخصي بالطبع، فأي تعليق رسمي يجب أن يصدر من واشنطن». إلا أنه يحتمل أن «جو» في تعليقه ذاك كان يتكلم نيابة عن وزراة الخارجية الأمريكية من غير أن يدري.

كان صوت موسيقى (روك أند رول) المصم للآذان والأجش مع ضربات الطبول يملأ الدور الرابع عشر في فندق الرشيد. ولو أنك اقتربت من جناح الحفل لأصبت بالصمم بسبب الموسيقى الصـادرة عن مكبـري صوت من نوع فوستكس اللذين كانـا يعمـلان بطاقتهمـا القصوى. وزوّد المضيفون زوارهم جيداً بما يحتاجونه: زجاجات كبيرة من مشروب سكوتش المسكر، والفودكا، والجن، والكـونياك، والشانتي. ووجد إضافة إلى ذلك مشروبنا المخصص للمناسبات الهامة: زجاجات بيرة وزجاجات من مشروبات ممزوجة. وكان حوض الاستحمام مليئاً بالزجاجات الفارغة. وحضر كالمعتاد حوالي عشرين من المدعوين، بالرغم من أن عددهم كان سيزداد مع تأخر الوقت ليلاً. قد يبدو غريباً لغير المطلع أن معظم الضيوف كانوا من الذكور، والأغرب من ذلك أن قسماً منهم كان يلبس ملابس نسـائية. وفي الحقيقة، لا غرابة في ذلك طالما أن المجموعة المسماة (بريتس) تقيم حفلاً.

لم أصادف طوال سنوات عملي في الصحافة حفلة أشد عنفاً وعربدة وسُكْراً من حفلة «جيرمي تومسـون» وطـاقم عمله في شبكـة آي. تي. إن. كانت لـ «جيرمي» قدرة كبيرة على التحمـل الجسدي، وتشهد بذلك حفلاته الصاخبة التي تعطينا أيضاً فكرة عن نظرته إلى الحياة بشكل عام. وبالرغم من ذلك، كان يصحو في الصباح من دون تأخير، بينما الآخرون الأقل تحملاً ـ ومنهم أنا ـ كانوا يشعرون صباحاً وكأن ساعة بغ بن تدق في آذانهم.

كان مكتب شبكـة آي. تي. إن في الثـالثـة صباحاً يشبه بيت حيوانات، غير أنه يصبح بعد ساعات على أفضل صورة من حسن النظافة والترتيب بحيث يمكن أن يجتاز جولة تفتيشية لمسؤولي البحرية الأمريكية ومن دون أدنى ملاحظة سلبية.

وقـد صرح جيرمي صبـاح أحد الأيام خلال جلسة لاحتساء قهوة الصباح: «خارت قوانا أنا وزمـلائي حوالي السـاعـة الرابعة صباحاً. وجدنا أنه من الأفضل إقامة الحفل مباشرة، وأضاف مقتضباً: «من المفسد للأخلاق القيام بهذه الفوضى وممارسة هٰذه التصرفات».

بعد عدة جولات في بغداد، بدأ «جيرمي» وجماعته يقيمون حفلات صاخبة متذرعين بأسباب شتى، ومنتهجين نهجاً معيناً. كانت أول حفلة بمناسبة وصولهم العراق سالمين، وطبعاً كان لا بد من إقامة حفلة صاخبة أخرى قبل مغادرتهم والذي هو في حد ذاته سبب قوي يدفع للاحتفال. بإعداد تقرير إخباري جيد ورائع هو مدعاة أيضاً للاحتفال. وأي عيد ميلاد، أو عطلة، أو مناسبة وطنية . . لأي دولة . . كان سبباً كافياً لدفع وحث «جيرمي» وجماعته على إقامة حفلة لهو صاخبة.

تبدأ فعاليات الاحتفال عادة في منتصف الليل تقريباً حيث يكون الجميع قد عاد من عمله. ولا شيء أسهل من الدخول والانغماس فيه وبصورة بطيئة، فالرجل سرعان ما يصبح مخموراً، وخـطوات العمل بسيطة: شارك الآخرين، ثم اشرب حتى الثمالة ثم اسقط أرضاً. وكان معنى (اسقط أرضاً) هو (إقفز إلى الخارج) وذلك في مناسبة واحدة على الأقل. وحامل آلة التصوير العامل في شبكة تي. في. إيه. إم التلفزيونية البريطانية هو وحده الذي يستطيع أن يشرح لك سبب ارتدائه في إحدى الحفلات قناعاً للسباحة وأداة تنفس تحت الماء ثم قَذْف نفسه خارج نافذة الدور الرابع عشر، وبأعجوبة أمسك في اللحظة الأخيرة بحرف الإفريز ثم ظهر مرة أخرى أمامنا حياً يرزق.

وفّرت الحفلات بطبيعة الحال جوّاً مريحاً قلل من توتر الأعصاب والإرهاق المصاحب للعمل. منذ أن اتخذ مجلس الأمن القرار رقم (٦٧٨) في نهاية شهر تشرين الثاني والقاضي باستخدام القوة كرية ضد العراق من بعد تاريخ ١٥/كانون الثاني، منذ ذلك الوقت ونحن لا ندري إن كانت بين عشية وضحاها أم سيكون هناك حل سلمي، وهٰذا ما ساهم في حالة التوتر والانزعاج ي سيطرت علينا.

والحق يقال أن أحد أسباب تواجد البعض منا في بغداد وليس في السعودية هو وجود مصنع «عصير البطاطا»، أي الشراب المسكر المسمى فودكا والذي كان من الأمور الهامة الرئيسة لنا. وخلال التحقيقات الصحفية التي قامت بها شبكة سي. إن. إن ونشرتها تحت عنوان «الوداع لرحلة عام ١٩٨٩ إلى الـدول الشيوعية»، توفـرت لدى المـراسلين الصحفيين كميات كبيرة من ذلـك المشـروب الصـافي أثنـاء مرورهم في هنغاريا وألمانيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا. وكانت الفودكا أرخص من الماء الصحي المعلب في بعض الأماكن، وبالتالي أفضل بالنسبة للنظام.

وقال لي إيسون في ذلك الوقت معنّفاً: «لقد أفلست الشبكة تقريباً بسبب فواتير المشروبات المدّونة والتي سجلتها في رومانيا».

فأجبت: «يا للعجب، لا بد أن هناك خطأ. إن الفاتورة تشمل الطعام أو أن رحلة الطائرة تكلف (٦٤) ألف دولار».

ويبلغ ثمن زجاجة مشروب السيتوليكنايا في بغداد حوالي (٩٠) دولاراً، وكانت مجموعة زملائنا القليلة العـدد تكتفي بأربـع زجاجات فقط عندما نكون متحمّسين وراغبين في الشرب. أما في المملكة العربية السعودية فكان الوضع أصعب بكثير، فقد لا يسمح لك في الاشتراك في حفلات الجنود إلا بعد أن تنجح في اختبار الجاهزية، ولكن لا ضرورة لذلك في العاصمة العراقية عندما تريد الانضمام إلى حفلة تقدّم فيها المشروبات الممزوجة ببعضها البعض.

وذكر أحد كتاب وكالة الأسوشيتد بْرِسْ في مدينة الظهران السعودية أنه «لم يعْد هناك وجود للصحفي صاحب الكـرش البارز، والمدخن باستمرار، والمسرف في الشراب والسكر»، ولكني كنت و «بليستون» دليلاً حياً على أن الصحفي صاحب ذلك التقليد لا يزال موجوداً في بغداد، وأن أيامه لم تولِّ بعد.

نظرت إلى الصـور التي أخذت تتابع على شاشة التلفزيون العراقي في نشرة أخبار الساعة الثامنة مساءاً، وصحت: «يا لله، انظروا إلى الصور. إنها المرة الأولى التي نرى فيها صدام في الكويت. «توماس»، يا لله عليك. أين أنت يا «توماس»؟».

كان «توماس دريغر» شاباً ألمانياً في بداية العشرينات من عمره، وقد وظفناه من أجل ترجمة الأخبار. وهو يتحدث العربية بطلاقة، وأتى بغداد بهدف متابعة دراسته ولكنه علق في الأزمة وأصبح في عداد الرهائن. وقد اكتشفته «أنغريد» أثناء رحلة لها للتنزه في أنحاء العاصمة ثم عرضت عليه العمل. كان ذلك فرصة عظيمة له إذ تقاضى مائة دولار عن كل ليلة، إضافة إلى الحصول على وجبـة طعام في الفندق، والظهور في مركز متقدم في تقرير إخباري رئيسي على درجة بالغة من الأهمية التاريخية. وكنت أفرح معه دائماً واصفاً إياه بالشخص الأحمق بسبب توسّله الدائم لِحكومة العاصمة الألمانية بون من أجل العمل على إطلاق سراحه، ذلك أن أي شخص لديه أدنى معرفة في مجال الصحافة كان سيفعل المستحيل بغية الحصول على مثل وظيفته. وبعد عودة «توماس» إلى وطنه آخر الأمر عاد واتصل بنا من ألمانيا طالباً الرجوع إلى بغداد، إلا أن ناجي الحديثي اعتقد أن تقديم شبكة سي. إن. إن طلب منح تأشيرة دخول لرهينة سابق هو عمل متهور وغير حكيم.

اعتاد «توماس» على رصد الأخبار في الغرفة رقم (٩٠٢) بعيداً عن الضجيج الذي كان يسود غرفة التحرير الرئيسة دائماً ويصل إلى الغرفتين الأخريتين. وكنت أشاهد التلفزيون في الغرفة رقم (٩٠٦) لأبقى قريباً من أجهزة الهاتف وجهاز محول القنوات التلفزيونية الذي يفك شفرة التلفزيون

العراقي ويحولها إلى جهاز التلفزيون الأمريكي المتساوق. وكنا نصل جهاز نوع (سوني BVU 35) إلى محول القنوات التلفزيونية، فنتمكن بذلك من تسجيل ما يبثه التلفزيون العراقي ونحرر الصور التلفزيونية ونبثها مباشرة إلى الحقيقبة الإخبارية المسائية والتي يمكن الاستفادة منها في أوقات أخرى.

ركض «توماس» إلى الغرفة وقال متعجباً: «نعم، نعم، إنها الكويت، قال المذيع إن الرئيس قام بالرحلة اليوم»، وبعد التجوّل في مدينة الكويت في موكب من السيارات، نزل صدام إلى الشاطىء وزار موقعا للمدفعية أثناء تفقد قواته، وانحنى أحد الجنود ليقبّل يده.

سألت «توماس» متحفزاً: «ماذا يقول الآن؟».

- «هل هؤلاء الجنود من الحرس الجمهوري؟»، وقد ارتبت في ذلك من مظهرهم غير السّوي الذي قد يدل على أنهم لم يتلقوا التدريب العسكري الأساسي.

قال توماس وهو يسجل الملاحظات بنشاط: «لم يذكروا ذلك».

هتفت أنغريد: «هٰذه مادة إخبارية ممتازة».

قلت موافقاً إياها: «إنها رائعة». وانتقلت الصورة فجأة إلى غرفة تشبه غرفة مؤتمرات، وكان صدام جالساً في صدر الطاولة ويتلقى التقارير العسكرية.

علق توماس بقوله: «يقول قواد الجيش أنهم مستعدون للقتال».

كانت صور الرئيس صدام حسين في الكويت جافية وغير مناسبة، وقد أعطت رسالة قوية موجهة ليس فقط لشعب العراق بل وللعالم أجمع. هل كانت الزيارة لعبة دعائية، أم أن الرجل الذي يحب الغرب أن يسميه «سفاح بغداد» كان يهيء نفسه فعلاً لخوض معركة حتى النهاية على رمال «محافظته التاسعة عشرة»، وأيا كانت الرسالة التي يريد صدام نقلها، فإن التلفزيون وما يعرضه كان باعثاً على الاكتئاب.

وكتب «بليستون» بسرعة مقدمة لتقريره الإخباري المصور، ثم حررته «تريسي» بسرعة هائلة وانطلقت مع «أنغريد» إلى ساحة العمل. والتقت في مكتبنا مجموعة صغيرة مبتهجة بالخبر الجديد، فشربنا نخبه.

وزارنا بير نستين متسائلاً بأسلوب منمّق: «أعتقد أنكم كتبتم عن زيارة صدام إلى الكويت؟».

وهززت كتفي غير مبال، وسكب جرعة صغيرة قائلاً: «وماذا غيرها؟ لقد كانت صوراً رائعة».

ردت تريسي: «كانت منطقة البث اللاسلكي للأخبار مزدحمة، إذ كان كل مراسل يحاول إرسال هٰذا النبأ إلى شبكته التلفزيونية».

كارل: «لم يبق عندكم شيء من شوكلاته «توبليرون»!! هل تمانعون فيما لو أخذت آخر قطعة متبقية؟».

قلت: «لا مانع لدينا. متى سترحل؟».

كارل: «ربما غداً أو بعد غد على أقل تقدير».

ـ «أريد أن أسألك عن شيء قبل رحيلك؟».

كارل: «إسأل ما بدا لك؟».

سألت بأسلوب جاف: «لقد أقررت أننا كنا كرماء ومضيافين».

كارل: «نعم، وبكل تأكيد».

ـ «لقد تناولت عندنا في الصباح كوباً من القهوة، ونحن لدينا دائماً إبريق قهوة مليء».

كارل: «نعم، هٰذا صحيح».

ـ «وكنت تشاركنا دوماً في إبداء الملاحظات وتحتك بنا باستمرار، أليس كذلك؟».

كارل: «نعم، في كل الأوقات».

ـ «وعندما احتجت المال كنا مستعدين لإعطائك ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار».

كارل: «كنتم أصدقاء مثاليين يا «روبرت»».

ـ «لقد طلبت أمس وفي وقت متأخر كمية من الشوكلاتة كما تفعل الآن، إننا نضع الأطعمة وغيرها هنا».

كارل: «نعم، وكما قلت فأنتم رائعون».

ـ «سؤال واحد بسيط لك يا «كارل»: من منا صاحب بطن كبير؟».

واحمر وجه «بير نستين» عندما ضج الجميع بالضحك، وبقي عاجزاً عن الكلام برهة من الزمن. وكنت متأكداً أنه شعر بالمهانة وأنه كان يحاول إيجاد ردٍ لبق، فقلت له مشجعاً: «إنها فقط خاطرة خطرت لي».

أجاب كارل: «أقدّر ذلك»، وضحك في خفوت وهو يودّعنا مغادراً الغرفة.

صرخت تريسي: «لا أكاد أصدق يا «ويني» أنك سألته هٰذا السؤال!».

ضحكت وقلت: «ليست المشكلة في طرح السؤال، ولكني لا أستطيع تصديق أني لم أضربه على الوتر الحساس، لقد تساهلت كثيراً معه في هٰذا الشأن».

بدت الأحداث وكأنها تأخذ منحنىً دبلوماسياً، فالتقارير الإخبارية شملت الاستعراضات

العسكرية للجيش الشعبي، والجولات التي قمنا بها وزرنا خلالها مزارعاً ومستشفيات ومدارس، وعلى صعيد آخر، أخذ مسؤولون كبار من فرنسا وبريطانيا واليابان يزورون الشرق الأوسط في مهمات رسمية. وقد أكدوا على مواقف دولهم السابقة، بينما أكد العراق على لسان نائب رئيس الوزراء طه ياسين رمضان أنه مستعد للقتال ويفضل إياه على الاستسلام. كان ذلك أثناء محادثاته مع الملك حسين ورئيس وزراء اليابان «توشيكي كايفو».

وفي السادس من تشرين الأول، وبعد اختتام محادثاته مع الرئيس صدام حسين، أعلن المبعوث السوفييتي «إفغيني بريماكوف» أنه متفائل بشأن إيجاد مخرج سلمي للأزمة. وجاءت زيارته لبغداد في أعقاب آخر زيارة قام الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات بها إلى بغداد، فأدى ذلك إلى تعزيز التوقعات باحتمال حدوث انفراج في الأزمة. غير أن العراق طلب في اليوم التالي إيقاف وتجميد جميع نشاطات البعثات الدبلوماسية العاملة في الكويت. وكان موقف العراق بالنسبة للرأي العام موقفاً متشدداً.

حاولت في أوقات عديدة الاتصال بسعدون الزبيدي الذي كان مترجماً للرئيس صدام. وقد تركت له رسائل عديدة قبل أن يزورني آخر المطاف، حيث بدأ سعيداً وشديد الابتهاج.

سعدون: «كيف حالك يا سيد «روبرت»؟».

- «بخير. كنت آمل أن نلتقي معاً».

أكد سعدون قائلاً: «إني مشغول جداً هذه الأيام، وسيكون لدي بعض الفراغ في الأسبوع القادم تقريباً». وسألته إن كان سمع أية معلومات بشأن مقابلتي المزمعة مع الرئيس صدام.

فأجاب:

- «أظن صراحة أنك ستتلقى أنباء سارّة قريباً، لكن يجب أن تتحلى بالصبر».

ضحكت معلّقاً: «يبدو الأمر وكأنك تتصنت على هاتف ناجي، فقد قال لي نفس الكلمات: يجب أن تتحلى بالصبر».

سعدون: «من الجيد أن يكون هناك إجماع في الرأي بين موظفي الحكومة، أليس كذلك؟».

- «يعتمد ذلك على الموضوع المطروح لإبداء الرأي».

سعدون: «أجل، أجل، أنا أوافقك الرأي تماماً»، ثم أضاف قائلاً بصورة جدية: «أعتقد أنه يتوجب عليك مقابلة نزار حمدون فلديه أخبار تخصّك».

وتبادر المزاح والحديث دقائق أخرى ثم غادر واعداً إياي أن يتصل بي باستمرار.

أشعل نزار سيجارة أخرى من نوع مارلبورو وقال: «أعتقد أنك ما تزال مهتماً بإجراء مقابلة مع وزير الخارجية طارق عزيز؟».

فأجبت: «بكل تأكيد، ونرغب في بثّه حياً على الهواء ومباشرة من أتلانتا».

نزار: «من سيدير المقابلة؟ نحن نفضل «بيرني شو»».

ـ «لا أعلم شيئاً عن جدول أعمال «بيرني» ولكني سأتدبر الأمر مع أتلانتا».

نزار: «الموعد غداً الساعة الثالثة».

ـ «نـودّ أن تكون في الساعة الخامسة لأنها موعد بث نشرة أخبارنا العالمية والتي تنقل إلى القنـوات التلفـزيونية الدولية، إنها الطريقة المثلى»، ونهض نزار على الأريكة، وسار إلى طاولة المكتب وأجرى مكالمة هاتفية قصيرة، وقال: «تم تأكيد موعد المقابلة في الساعة الخامسة»، أجبت: «يلزم أن يصـل الـوزير إلى الاستوديو قبل الموعد بخمسة عشرة دقيقة لإجراء الترتيبات الضرورية، كتثبيت مكبر الصوت الصغير.. إلخ».

نزار: «لا مانع من ذلك يا «بوب»».

ـ «هل ستحضر المقابلة؟».

نزار: «لا أظن، سأكون هنا أشاهد التلفزيون»، وابتسم مشيراً إلى التلفزيون الذي كان مفتوحاً على قنال شبكة سي. إن. إن.

ـ «تبدو متعباً يا نزار».

نزار متنهداً: «إنها أيام طويلة جداً، غالباً ما أنام هنا في المكتب».

ـ «إذن بماذا تشعر؟ هل ستقع الحرب؟».

وأخذ ينفث الدخان من سيجارته ثم هز كتفيه مستهجناً: «يرجع هٰذا الأمر ويعتمد على الرئيس «بوش»».

قلت متجرءاً: «لقد بدأ «بريماكوف» متفائلاً».

نزار: «هناك الكثير من الأمور التي تحتاج إلى تسوية».

اتجهت مباشرة إلى السفارة بغية الاتصال بأتلانتا، لم يكن الاتصال بأتلانتا صعباً في العادة إذا ما اتصلت من فندق الرشيد، غير أن الاتصال سينقطع فجأة بعد عشرة دقائق وستسمع صوت عامل المقسم يقول بسرور: «إنتهت الدقائق العشرة»، وانتشى «إيسون» فرحاً عندما أعلمته بنبأ المقابلة، وقال: «هٰذا مدهش وعمل رائع»، وأخذ يتنقل جزلاً من مكان إلى آخر بالرغم من اعترافي

له أننا سنقدم المقابلة للآخرين على طبق من فضة وبدون تعب وجهد منهم.

وسألت: «إذن سيدير «بيرني» المقابلة؟»، ولم يرد إلا بعد أن ناقش الأمر مع «إدْ تيرنر».

إيسون: «إن «بغليتر» سيقدم ويشرف غداً على نشرة الأخبار «وورلد ديي»، ويقول «إدْ» أن «رالف» سيدير المقابلة».

ـ «ولكن . . .».

قال إيسون رافعاً صوته: «لا يريد «إدْ» أن يفسح مجالاً لحمدون لكي يفرض علينا من سيقوم بالأعمال، لقد وصلتنا برقية للتو من التلفزيون العراقي تؤكد وتثبت موعد المقابلة».

ـ «يا إلهي، لقد تم الأمر بسرعة، أرجو أن تسير الأمور غداً من دون مصاعب».

إيسون: «أنا أسمعك ومنتبه إليك. حظاً سعيداً».

١٠

لا يتطلب إخراج مقابلة تبث بثاً حياً ومباشراً عبقرية ونبوغاً، وتشمل العملية برمتها حجز الوقت لدى القائمين على أمور القمر الصناعي، واستخدام هاتفين رئيسيين: الهاتف الأول من أجل جهاز (آي . إف . بي) ويعني جهاز التغذية الراجعة المقطوعة، والجهاز الثاني من أجل التنسيق. وجهاز (آي . إف . بي) يوضع في أذن الضيف الذي نجري مقابلة معه فيتيح له سماع الحديث الدائر على الطرف الثاني من الخط الهاتفي إضافة إلى سماع الأسئلة المطروحة، وهٰذا كل ما يسمعه الضيف، إن عمل الجهاز بصورة صحيحة، وإلا فإن الضيف سيسمع أيضاً نفس كلماته بعد ثانية تقريباً من ابتدائه في الحديث، مما سيؤدي إلى التشويش والإرباك، وطبعاً يفضل عند ذلك عدم سماع شيء على الإطلاق.

ويستخدم الهاتف الثاني بغية التنسيق لإظهار الصورة الحية المبثوثة على أفضل وجه. ويعني ذلك ببساطة أن يتكلم المنتج في مكان ـ في بغداد على سبيل المثال ـ مع المنتج في أتلانتا للتأكد من جودة الصورة، وأن صوت ومستوى الميكرفون مناسبان، وأن كل ما يؤثر على نوعية الصورة يعمل بانتظام. وإذا كان المراسل الصحفي يجري مقابلة وحدث أن انخفض مستوى صوت جهاز (آي . إف . بي) «وهو ما يحدث أحياناً» فإن المنتج على الطرف الآخر من خط الهاتف المشترك والمخصص للتنسيق يستطيع أن يلقن أو يشير إلى المراسل ما يجب أن يفعله من حيث الاستمرار

في الحديث أو الإسهاب فيه أو لملمته وإيجازه. وكل ما سبق هو بافتراض عدم وجود أسئلة وأجوبة مع المركز في أتلانتا، ذلك أن المراسل لا يستطيع الإجابة على أسئلة لا يسمعها. (وفي الواقع يستطيع عن طريق سلسلة معقّدة ومفصلة من الحركات وإشارات اليد، ولكن من الأفضل عدم الأخذ بها. إذ أنها تشبه عملية عبور وادي غراند كانيون الخطير على حبل مشدود وأنت معصوب العينين ومن دون شبكة حماية ووسط إعصار). ويستطيع المراسل أحياناً القيام ببث حي ومباشر على الهواء من دون الاستعانة بجهاز (آي. إف. بي)، ولكنها ستكون الطامة الكبرى إذا ما غاب الصوت عند استخدامه في لقاء مع ضيف ما، وستصاب بالخذلان.

وقد وضعت هٰذا في حسباني فأردت التأكد بشكل قاطع من أن الوزير طارق عزيز سيتمكن من سماع صوت «رالف بغليتر» في مقابلة الساعة الخامسة وليس صوت «روبيرت وينر» وهو يشد ويخلع آخر ما تبقى من شعر رأسه في حالة اهتياج شديد. ولقد أعطيت التلفزيون العراقي ضعف الأجرة تجنباً لحدوث مثل تلك المشكلة.

ابتسمت السيدة عواطف قائلة: «أهلاً وسهلاً بالسيد «روبرت»»، وأضافت بصوتٍ عالٍ قبل أن أتفوه بكلمة واحدة: «أجل، أعرف أنك ستجري مقابلة مع سيادة وزير الخارجية طارق عزيز». ورافقتها إلى الاستوديو الذي ستتم فيه المقابلة. كان الاستوديو عبارة عن غرفة في الطابق الأرضي، وتشبه الكهف ويبلغ حجمها نصف ملعب كرة قدم. وبينت عواطف بافتخار قائلة: «هٰذا هو أكبر استديو لدينا».

أخبرتها بلطف: «يجب أن نجهز المكان بشكل يبدو أكثر ألفة وانسجاماً. أريد استخدام مفتاح كروما الذي يظهر صورة كبيرة خلف الوزير».

عواطف: «أجل، أجل، ستحصل عليها. سنتولى القيام بكل شيء: آلات التصوير والأضواء وكل شيء، لا تقلق».

ـ «هٰـذا عظيم جداً. أود الآن مناقشة موضوع الاتصالات، سأحتاج إلى أربعة من أجهزة الهاتف، وخطوط دولية مع هاتف ذي أرقام أوتوماتيكية مباشرة وأسلاك طويلة. أريد كل ذلك هنا في الاستوديو. افترض أن مؤسسة الهواتف لن تجد صعوبة في إيفاء هٰذا الطلب من أجل مقابلة مع سيادة الوزير طارق عزيز».

عواطف مندهشة بعض الشيء: «أربعة هواتف؟».

ـ «أجل، أربعة. سأحتاج إلى ما يدعم العمل، ويجب أن تثقي بي بالنسبة لهذا الأمر».

عواطف: «ستحصل على أربعة هواتف».

ـ «رائع جداً. لي مطلب أخير: أريد الهواتف وطاقم الشبكة هنا في الاستوديو عند الساعة الحادية عشرة قبل الظهر».

عواطف: «لكن المقابلة لن تبدأ قبل الظهر».

ـ «أدرك ذلك، ولكني أريد التأكد من جاهزية كل شيء من أجل السيد عزيز».

وعدتني عواطف قائلة: «سيحضر الفنيون في الحادية عشرة، وستحضر مساعدتي أحلام أيضاً، وسأعود إليك في الثالثة والنصف. لا تقلق يا سيد «روبرت»، سنهتم بكل شيء».

ولو كنت أحصل على دولار واحد في كل مرة يقال لي فيها: «سنهتم بكل شيء» طيلة حياتي العملية في الصحافة والبالغة (٢١) عاماً، لكان باستطاعتي التقاعد والعيش في مكان يليق بالأثرياء والبارونات مثل منطقة (كوت دوزور) الفرنسية. كنت متأكداً من إتمام المقابلة ونقلها حياً ومباشراً، فذلك يتم دائماً، ولكن المشكلة ببساطة كانت ما سأواجهه وما سأقاسيه في سبيل تأمين المتطلبات الضرورية لإجراء المقابلة عند الساعة الخامسة تماماً.

لم أصدق ما شاهدته بأم عيني، فقد كنت في الواقع مشدوهاً للوهلة الأولى. أجل، ففي الساعة الحادية عشرة بالضبط، وعلى طاولة سوداء في الاستوديو، كانت هناك أربعة هواتف ذات لون أصفر شاحب. وقلت في نفسي: هٰذا أمر رائع. والحقيقة أنهم أنجزوا وعدهم.

قالت أحلام معبّرة عن الفخر: «وعدتك السيدة عواطف بأن يكون كل شيء جاهزاً».

أجبت: «لقد نفذت ما وعدت به حقاً». وشاهدت عندئذ فريقاً من عمال المسرح العراقيين يعِدون الاستوديو.

أحلام: «هٰذه من أجل الصورة الخلفية الكبيرة»، وأشارت إلى ستارة مسرح خلفية، كبيرة وخضراء اللون، وقد وضعت خلف الكرسي الذي سيجلس عليه الوزير. وأضافت: «لدينا عدة صور لبغداد، بمقدورك اختيار ما يعجبك منها».

أجبت: «حسن جداً»، وطفت معها في الاستوديو، كانت المسألة بسيطة، فكل ما احتجنا إليه هو سجادة شرقية الصنع، وكرسي للوزير، وستارة خلفية من أجل تشكيل صورة مكبرة وراء الوزير. وكان لدينا متسع من الوقت لضبط الإضاءة وزوايا التصوير بالنسبة لآلات التصوير، وكان من المقرر حضور «تيرون» و«فيل» في غضون ساعة من الزمن للإشراف على طاقم الفنيين، وسيقومان بعد ذلك بتسجيل المقابلة على شريط تلفزيوني على الرغم من أن التلفزيون العراقي كان سينقلها مباشرة على الهواء. وفكرت أن الأمر سيكون جد يسير.

أمسكت بأحد الهواتف وانتظرت سماع نغم الأرقام عند دقّها، ولكني لم أسمع شيئاً. اختبرت

الهاتف الثاني فوجدته لا يعمل، وكذلك الثالث والرابع. نظرت إلى الأسفل فجأة فعرفت السبب، فهذه هي الأجهزة الأربعة التي وعدوني بها، غير أن شيئاً ما كان ينقصها. لقد كانت غير موصولة بالخطوط الهاتفية الحكومية. قلت في نفسي: كنت أعرف ذلك، كنت أعرف ذلك. كنت أعرف أنه لا صدق لمن أظهر معاملة جيدة أكثر من اللزوم. وشرحت الموقف لأحلام محاولاً الاحتفاظ بهدوئي قدر الإمكانك، وقلت لها: «يبدو أن هناك مشكلة صغيرة، فالهواتف غير موصولة».

أحلام: «أجل، أعلم ذلك. سيأتي أحد موظفي مؤسسة الاتصالات في وقت لاحق ليعدها ويجهزها للعمل».

وسألتها محاولاً إبقاء أعصابي باردة: «أي وقت لاحق هٰذا؟».

أحلام: «سيأتي عند الساعة الرابعة والنصف».

انفجرت صائحاً: «ماذا، في الرابعة والنصف، إن المقابلة في الخامسة وأنا أحتاج إلى الهواتف الآن».

ناشدتني أحلام قائلة: «لا تغضب يا «روبرت»، سأتصل بمؤسسة الهواتف انتظر من فضلك».

وانقضت الدقائق الأولى وكأنها سنوات طوال أثناء انتظاري عودة أحلام. أشعلت سيجارة وحاولت التفكير بخطة طارئة. قد نستطيع تغيير مكان المقابلة إلى موقع آخر إذا اضطررنا إلى ذلك، وتذكّرت وجود جهازي هاتف في مكتب عواطف في الطابق العلوي. ولكن لن نستفيد شيئاً إذ سيواجه المسؤول عن التصوير صعوبة كبيرة في انجاز عمله، عوضاً عن الناحية الأمنية التي يجب مراعاتها في المقام الأول، وخاصة في مثل هٰذا الوقت من اليوم، ولن يوافق الحراس المرافقون لطارق عزيز على هٰذا الإجراء أبداً. والأدهى من ذلك أننا سنبدو سخفاء، وأستطيع تخيّل نفسي أرحب بوزير الخارجية في الاستوديو ثم أخبره أن المقابلة ستتم في حجرة نوم صغيرة في الطابق الثاني، لكن هٰذا مستحيل وغير وارد. وبدأ يتضح لي لماذا لم يُتيّم أحدٌ من قبل بحب بغداد. أخرجت سيجارة أخرى لأضعها في بزبوز السجائر، لكني وجدت أنه من غير الملائم أن أدخن وأفرط في التذمر وتقديم الشكاوي في آن واحد.

رجعت أحلام وأكدت قائلة: «تقول مؤسسة المواصلات؟! أنها أرسلت أحد موظفيها. سيكون كل شيء على ما يرام فلا تقلق».

وتذكرت فجأة مضيفة: «إن زملاءك من شبكة سي. إن. إن متواجدون في مقدمة الغرفة، ربما يتوجّب عليك أن تراهم». وحذّرت «تيرون» و«فيل» مشيراً إلى معصمي الإثنين، وكأني أقطعهما وقلت: «أحس بشعور سيء بخصوص مسألة الهواتف، وفيما عدا ذلك فكل شيء على ما يرام».

فتش تيرون المكان وقال: «الوضع جيد».

حدّق فيل في أحد الأضواء الكشافة وشرح قائلاً: «يجب أن نعدّل وضع ذلك الضوء الصغير هناك، سوف يحترق إن وضع هكذا». وأمضينا نحن الثلاثة قرابة ساعة من الزمن في تهيئة الإضاءة وتثبيت وضعية آلات التصوير على النحو الأفضل، ولم يحصل شيء بالنسبة لموضوع الهواتف.

أشارت أحلام إليّ وقالت: «تعال يا سيد «روبرت». اختر ما شئت من الصور لوضعها في الخلفية».

نظرت إلى ساعتي وأجبت: «ماذا بشأن مؤسسة الاتصالات».

أحلام: «سيأتي حالاً».

- «في أي وقت . . .».

أحلام: «أرجوك يا سيد «روبرت»، سيأتي بعد . . أن يتناول الغداء».

- «بعد الغداء؟ وشعرت بانقباض عضلات معدتي، وأضفت: «متى سينتهي من تناول غدائه؟».

أحلام بلطف: «بعد ساعين».

- «بعد ساعتين؟! لقد ذكرت أن المؤسسة العامة للاتصالات أخبرتك أنه قادم للتو».

أحلام: «لا تغضب أرجوك، سيكون كل شيء جاهزاً، لا تقلق»، ونظرت إلى «تيرون» الذي كان يهز رأسه، وتابعت حواري مطمئناً إياها.

- «لست غاضباً، ولكن مع كل إحترامي لك أود أن ألفت انتباهك إلى أننا لن نتمكن من إجراء المقابلة مع السيد طارق عزيز ما لم نحصل على الهواتف، وأعني بذلك الهواتف التي يمكن للمرء أن يستخدمها للتكلم مع الآخرين. هٰذه هي المسألة بكل بساطة».

أكـدت أحـلام مرة أخرى بقولها: «ستحصل على الهواتف فلا تشغل بالك بها. تقدم من فضلك واختر الصورة».

كان من الصعب اختيار إحدى الصور إذ لم يكن متوفراً إلا أربع شرائح فلمية. كانت الصورة الأولى لممر سفلي على شارع سريع ومزدحم بشدة بالسيارات، وكانت صورة ممتعة ولكنها غير التي فكرت فيها، فطرحتها جانباً. وكانت الصورة الثانية لنافورة ماء جميلة ومتقنة الصنع، تطلق عالياً في الهواء دفقات ماء يشبه بخار الماء الساخن.

وسألت أحلام: «ما اسم هٰذه النافورة؟».

فقالت بعد فترة من الحيرة: «إنها في بغداد ولا أتذكر اسمها».

فقلت: «لنقم بعرضها على جهاز العرض ونرى كيف تبدو».

كان «فيل» جالساً مكان الوزير طارق عزيز فظهرت النافورة وراءه. والحقيقة أن العارض الألكتروني قام بأكثر من ذلك إذ جعل النافورة تبدو خارجة من رأس «فيل» والماء يتدفق من أذنيه.

وضحكت أحلام: قائلة: «لا، لا، إنها سيئة».

وسألتها إن وجدت الصورة مضحكة وراء «فيل» وقلت: «تبدو الصورة مضحكة جداً. ولك أن تتصور المرح الصاخب التي ستثيره هٰذه الصورة فيما لو ظهرت وراء وزير الخارجية العراقي.

وانتقلنا بسرعة إلى الصورة الثالثة حيث قالت أحلام بصوت رخيم: «بغداد في الليل».

ومثلت الصورة طريقاً ملتوية في قلب المدينة وقد غمرته أضواء المصابيح الأمامية للسيارات القريبة القادمة. وقلت لها: «يجب اختيار صورة مأخوذة في ضوء النهار. إن الوقت هنا في النهار وسيكون قد حل الصباح في الولايات المتحدة عند إجراء المقابلة هنا».

أقرت أحلام وجهة نظري وأجابت: «أجل، أجل، أعتقد أن هٰذه الصورة تحقق بغيتك». كانت الصورة هي الشريحة الأخيرة وملتقطة في النهار، وتمثل منظراً كئيباً لبناية غير موصوفة مؤلفة من ثلاثة طوابق.

وسألتها: «ما هٰذه البناية؟ هل هي وزارة الخارجية؟».

أحلام: «صور الوزارات ممنوعة، وهٰذه صورة بناية عادية».

ـ «إن صورة لأي بناية لا تجدي نفعاً لأن جمهور مشاهدينا سيظنون أنها وزارة الخارجية بعد أن نعرضها وراء السيد عزيز، ونحن نعلم أنها ليست وزارة الخارجية فنخدع مشاهدينا، هل تدركين ذلك؟»، وقررت إلغاء الشرائح والاستعاضة عنها بخلفية زرقاء اللون، ووافقت أحلام بسعادة وقلت ساخراً عندما بلغت ساعة الاستوديو الثانية وخمسة عشرة دقيقة: «عظيم جداً».

كانت الهواتف لا تزال مفصولة بالطبع، واختفت أحلام بطريقة غامضة. قلت لزملائي ولهجتي تدل على الإحباط: «يجب أن أجد السيدة عواطف»، وعرجت على أحلام في طريقي إلى مكتب عواطف.

سألتني أحلام: «لقد أتى موظف الهواتف، أليس كذلك؟».

أجبت محاولا الحفاظ على هدوئي: «كلا، لم يأت أحد بعد».

بدت منزعجة وقالت: «لا، لا. هٰذا أمر سيء».

ـ «هٰذا ما كنت أردده منذ الساعة الحادية عشرة. يجب أن أتصل بعواطف».

أحلام: «سأتصل بها من أجل أن تذهب الآن إلى الاستوديو».

- «لو تكرمت اتصلي بها وحاولي الاتصال مرة أخرى بالمؤسسة العامة للاتصالات»، وتساءلت بيني وبين نفسي متى ستنتهي هٰذه الدوامة.

حدث أن عاقرت المخدرات في فترة شبابي مثل معظم أبناء جيلي الشبان آنذاك، أما حالياً وبوصفي صحفياً يحمل على عاتقه مسؤوليات العمل، فقد كانت خطيئتي الوحيدة شرب الكحول. وعندما دقت الساعة مشيرة إلى الثالثة وأنا منتظر في الاستوديو، تمنيت لو يظهر أحدهم بطريقة معجزة وهو يحمل حقيبة مليئة بحبوب الفاليوم المسكنة فأقوم ببلعها حتى بدون ماء، وظهر فجأة رجل صغير الحجم يحمل بمشقّة بكرة من أسلاك الهاتف، فقام بوصل الهواتف كلها بسرعة ومهارة تاركاً - وكما طلبت - أسلاكاً زائدة. وراقبته كيف فحص كل جهاز بطريقة نظامية ثم تكلم بلغة عربية سريعة مع آخر ربما كان مسؤوله في العمل، ثم كتب على كل جهاز وبعناية رقمه الخاص به.

عاتبتني أحلام وكأنها تتكلم مع طفل وقالت: «أنت ترى يا سيد «روبرت» أنه لا مبرر لأن تغضب».

فأجبت مازحاً: «كيف لا أقلق وقد دفعت مبلغا كبيراً من المال، ولكني أشكرك من كل أعماق قلبي على مساعدتك لي».

وأخرج «تيرون» جهاز آي. إف. بي وبدأ بربطه مع أحد الهواتف بينما أمسكت سماعة الهاتف الثاني لكي أتصل مع أتلانتا في الولايات المتحدة، وسمعت صوت طنين غريب حالما أدرت رقم الرمز الدولي، وضعت السماعة ثم عاودت الاتصال من دون فائدة، وأحسست بشيء غير طبيعي، ثم لاحظت أن «تيرون» يواجه نفس المشكلة.

سألت أحلام التي كانت تقف بجانبي تلك اللحظة: «هل أحتاج إلى رقم خاص لأتصل بالولايات المتحدة؟».

ارتسم على وجهها تعبير غريب وقالت متلعثمة: «لا تستطيع الاتصال بالولايات المتحدة، وهٰذه الهواتف تعمل فقط في محيط بغداد».

قلت صائحاً: «ماذا؟ لا أحتاج إلى الاتصال ببغداد، ومركز شبكة سي. إن. إن هو في الولايات المتحدة». كان بمقدوري الإحساس بانتفاخ في عروق صدغي مرافقاً لحركة صدري صعوداً وهبوطاً. وقلت في نفسي لقد طفح الكيل، ومهما كان الراتب الذي تدفعه الشبكة لي فإنه قليل مقارنة بما أواجهه وأقاسيه.

أسرعت أحلام إلى الباب قائلة: «أنا ذاهبة لإحضار السيدة عواطف».

وحضر «بلي» و «أنغريد» بعد دقائق. وابتسم «بلي» عند اقترابه من التجهيزات في القاعة، وقال: «عمل لا بأس به». كان يأمل هو و «جيم» في تجاذب أطراف الحديث مع الوزير طارق عزيز

بعد انتهاء المقابلة التي سيجريها «بغليتر» بعد حين.

وقلت لهما: «إنه كابوس، كابوس ثقيل».

صاحت أنغريد بعد سماعها القصة: «يا إلهي، كيف ستتصرف؟».

ـ «إذهبي مباشرة وقبل كل شيء إلى السفارة وحاولي الاستيلاء على هاتفين في مكتب المعلومات الأمريكي. إتصلي عن طريق أحدهما بأتلانتا واتصلي بواسطة الثاني بي هنا. سيكون لدينا على الأقل طريقة من طرق الاتصالات. أما أين سنتجه من هناك فهذا لا أعلمه، إنها البداية فقط».

أنغريد: «على الفور»، وسجلت عندها أرقام الهواتف ثم أسرعت إلى سيارتها.

سألت تيرون: «لا أعتقد أن هناك طريقة لوصل جهاز آي. إف. بي من هٰذا الهاتف إلى «أنغريد» ومن ثم إلى أتلانتا؟».

وكنت أعرف أن ذلك مستحيل حتى قبل أن أنهي سؤالي، وتابعت سؤالي: «أليس هناك طريقة تمكن «أنغريد» من وضع الجزء الذي نسمع منه على الجزء الذي نتحدث به في السماعتين وبحيث يتمكن طارق عزيز من سماع صوت «بغليتر»؟».

هز «تيرون» رأسه بالنفي، بيد أني كنت متأكداً أنه كان يحاول التفكير بطريقة ما.

وقلت لـ «كلانسي» و«بلي»: «إذا لم نتمكن من استخدام جهاز آي. إف. بي فستقومان أنتما بإجراء المقابلة. سأنسق العمل مع مركز أتلانتا مروراً بالآنسة «أنغريد» ثم ألقنكما ما يجب أن تعملاه عن طريق إشارات يدي. إنه حظ سيء بالنسبة لـ «رالف» ولكن ما عساي أن أعمل»، وعند ذلك لمحت السيدة عواطف.

عواطف: «مرحباً «روبرت»، سمعت أنك تواجه مشكلة».

ـ «لقد كانت فترة ما بعد الظهر فترة شاقّة متعبة. آمل أن تساعدينا».

عواطف: «أعطني رقم الهاتف الذي تريد الاتصال به في الولايات المتحدة»، وحملت أحد أجهزة الهواتف بينما نزعتُ أنا ورقة من دفتر الملاحظات في جيبي وسجلتُ عليها الرقم بسرعة.

وأعطت عواطف الرقم إلى شخص على الطرف الثاني من الخط ثم وضعت السماعة مكانها.

أعلمتني قائلة: «سيتصلون بنا ثانية». وتفقدت عواطف الاستوديو أثناء فترة انتظار المكالمة.

عواطف: «ألا تريد وضع صورة خلفة وراء سيادة الوزير طارق عزيز؟».

ـ «كلا، وشكراً لك. قررنا استخدام خلفية بسيطة زرقاء اللون».

عواطف: «ألم تعرض عليك أحلام الشرائح الفلمية المصورة؟».

ـ «نعم، طبعاً. ولكننا قررنا الاكتفاء بذلك».

وعندئذ رن جرس الهاتف وأجابت أحلام قائلة: «مكالمة من الولايات المتحدة» وسلمتني السماعة. مدهش حقاً، إذن هكذا باستطاعتك إجراء مكالمات دولية!! وما عليك إلا المرور بعامل المقسم. وطلبت من دائرة أتلانتا نقل المكالمة إلى الخط الهاتفي الخاص بجهاز آي. إف. بي، ثم قام «تيرون» بوصله بالسماعة الموجودة في يد الهاتف. وبعد لحظات أشار إليّ «تيرون» بإبهامه مشيراً إلى إتمام العملية بنجاح.

استفسرت عواطف: «هل كل شيء على ما يرام؟»، فأومأت لها برأسي شاكراً، ثم طلبت منها إجراء مكالمة أخرى مع الولايات المتحدة بواسطة هاتف آخر، وحصلنا عليها بعد خمس دقائق.

تكلمت مع «وِل كنغ» في الشعبة الدولية التابعة لشبكة سي. إن. إن في أتلانتا، وقلت له: «أريد أن يبقى هٰذا الخط مفتوحاً».

ول كنغ: «هل ذلك ضروري؟ ما يزال أمامنا (٤٠) دقيقة على موعد المقابلة ثم إن «أنغريد» معي على الخط الثاني».

أجبت بشيء من الفظاظة: «نعم، إنه ضروري» ورن الهاتف الثالث فجأة فصحت في وجه «كنغ»: «انتظر ثانية».

صرخت أنغريد: «أنا «أنغريد». استطعت التكلم مع «ول كنغ» على خط آخر».

قلت من غير تفكير: «أعلم، أعلم. انتظري معي على الخط ثانية واحدة»، ثم اندفعت إلى الهاتف الثاني وقلت: «مرحباً يا «وِل، وِل»؟!».

ول: «أنا .. أنا هنا. ما تزال «أنغريد» معي على الخط و...».

قاطعني تيرون معلناً: «لقد فقدت الاتصال بجهاز آي. إف. بي للتو، والخط مفصول».

ـ «يا للعنة».

رفع ول صوته: «ماذا تقول؟».

صرخت: «لا أقصدك ولا أتكلم معك. هل تستطيع يا «ول» تحويل الخط الذي نتكلم بواسطته إلى آي. إف. بي؟ سأعاود الاتصال بك على خط آخر».

ول: «ألم يكن جهاز الآي. إف. بي شغالاً للتو؟».

ـ «نعم، ولكن توقف للتو».

صرخت أنغريد بحدة: «ماذا، فقدت الاتصال بـ «ول كنغ»؟ لا زلت معه على الخط، هل تريد أن أنقل له رسالة أو ما شابه؟».

أجبتها بقوة: «إنتظري يا «أنغريد»، وتابعت عملي مع «ول»: «يا «ول» حوّل المكالمة إلى جهاز أي. إف. بي لقد سكت الهاتف الآخر».

ول: «هل سنكون قادرين على إجراء بث مباشر؟».

ـ «لا أعرف، وهٰذا ما أحاول تحقيقه، حوّل المكالمة من فضلك».

قلت بإلحاح: «كوني مستعدة يا «أنغريد»».

تيرون: «اشتغل جهاز الآي. إف. بي الآن».

ـ «عظيم جداً».

أنغريد شاكية: «ما الذي يجري؟».

ـ «إصبري وانتـظري على الهاتف يا «أنغريد». لقد فقدنا الاتصال مع جهاز آي. إف. بي المربوط بالهاتف الأول، عليك البقاء على اتصال دائم مع «وِل».

أنغريد: «لقد طلبت مني الانتظار لأن لديه أعمال أخرى مشغول بها».

ـ «هٰذا جيد. إبق الخط مفتوحاً يا «ول»».

قالت أنغريد وهي تتكلف الفرحة: «يبدو أنك تقضي أوقاتاً سعيدة؟».

ـ «أجل. هناك لا أشياء ظريفة». وكنت قد طلبت من عواطف الاتصال مع الولايات المتحدة على رقم الهاتف الأول من جديد.

عواطف: «الولايات المتحدة كما طلبت يا «ويني»».

ـ «حسناً، هٰذا أنا من جديد يا «وِل»»

ول: «هل تسير الأمور على ما يرام بالنسبة لجهاز آي. إف. بي؟».

ـ «نعم، الوضع جيد حتى الآن. لنبقِ هٰذا الخط مفتوحاً»

ول: «لا أزال على اتصال مع «أنغريد»».

ـ «أدرك ذلك. إني مهتم فقط بحالة فقدان الاتصال، وأريد أن أتخذ إجراءات إحتياطية»

وِل: «أمر جميل. إني مشغول جداً الآن وسأضطر إلى وضع السماعة جانباً لعدة دقائق».

ـ «مرحباً «أنغريد»، أما زلت في الانتظار على الهاتف؟».

أنغريد: «نعم، لقد اتصل بي مدة ثانية واحدة ثم غاب عني».

أجبت ملتقطاً أنفاسي آخر المطاف: «حسناً، لننتظر قدوم السيد طارق عزيز».

دخل وزير الخارجية العراقي إلى الاستوديو في الساعة الرابعة وخمس وأربعين دقيقة يرافقه حراسه الشخصيون والمدير العام لمؤسسة التلفزيون العراقي. كان طارق عزيز كعادته قد أعد نفسه للمقابلة على أكمل وجه ومن دون ارتكاب أخطاء أو هفوات في مظهره، وكان مرتدياً بذلة حريرية قاتمة اللون وجميلة التفصيل والخياطة. ورافقتُه إلى الكرسي ثم نظر إلى ساعته وأشعل سيجاراً، وعند تثبيت الميكروفون في ربطة عنقه لاحظت أنها من منتجات شركة كريستيان ديور [شركة فرنسية].

قلت للسيد عزيز: «أمامنا دقائق على بدء المقابلة، وسيكون معتمدنا في أتلانتا هو «رالف بغليتر»، مراسل برنامج (قضايا العالم)».

وتابع الوزير تدخين سيجاره بينما كان «تيرون» يزوّده بأداة المسماع الصادرة عن جهاز آي. إف. بي، وشرح له قائلاً: «يجب أن تسمع برنامج شبكة السي. إن. إن، كيف درجة الصوت؟»، فأشار له الوزير أن الصوت جيد، وعندها أمسكت بالهاتف واتصلت بـ «بول» قائلاً: «الوزير جالس في مكانه على الكرسي وقد جهزنا له الميكروفون»

ول: «ستحصل على بغيتك بعد حوالي ثلاثين ثانية».

ـ ««أنغريد»، أما تزالين هناك يا عزيزتي؟»، والتقطت سماعة الهاتف الثاني.

أنغريد: «أنا هنا».

قال ول مخبراً إياي: «نحن نشاهد البث من طرفكم».

ـ «حسن، دعنا نقوم بعمليات الضبط والتحقق من صوت الميكروفون».

وتحدث «ول» مع «سيمون فيكاري»، وهو المخرج التنفيذي للبرنامج الإذاعي (وورلد دايْ) وحوّل المكالمة له. و«سيمون» يعود في أصله إلى بريطانيا، وبدأ حياته المهنية كعامل داخلي حيث وظفته عندما كنت رئيس مكتب الشبكة في لوس أنجلوس.

سألني سيمون في لهجة لندنية ساخرة: «كيف حالك يا عزيزي؟».

ـ «بصحة وخير، شكراً. كيف تبدو الصورة التلفزيونية عندك؟».

سيمون: «أليس بمقدورك جعلها أشد إحكاماً وأكثر وضوحاً؟»

ونقلت تعليمات «سيمون» بصوت عال: «هٰذا أفضل كثيراً. كفى، كفى، توقّف الآن». وأشرت لعواطف بأن الصورة جيدة.

ـ «تكلّم مع الوزير يا «سيمون» عبر جهاز آي. إف. بي».

سيمون: «السيد طارق عزيز، هنا أتلانتا، هل تسمعني؟».

أجاب الوزير: «نعم، أسمعك. أسمع . . لا . . الآن لا أسمع شيئاً».

وعبث الوزير بمفتاح ضبط صوت الميكروفون. كان جهاز الآي. إف. بي صامتاً أثناء فترة الإعلانات التجارية المعروضة، وسألت «وِل»: «هل نحن في فترة استراحة تلفزيونية».

ول: «كلا، لا نزال في البرنامج».

تمتمت قائلاً: «يا للسخرية»، وهمست في الهاتف الثاني: «لقد انقطع الاتصال مرة أخرى مع آي. إف. بي يا «أنغريد»»، وقلت لـ «وِل»: «لقد انقطع الاتصال مع آي. بي. إف. إبق معي على الخط يا «ول»». وقلت لـ «تيرون»: «لننقل هٰذا الخط الهاتفي إلى جهاز آي. بي. إف»، فشرع في تغيير خطوط الهاتف. وطلبت في هٰذه الأثناء من عواطف أن تتصل بأتلانتا مرة أخرى.

قال الوزير: «أسمع بوضوح الآن».

قلت لـ «أنغريد»: «أخبري «وِل» أننا تمكنا من تشغيل جهاز آي. إف. بي»، وسمعت صوتها وهي تمرر الخبر إلى «وِل».

قال الوزير: «أستطيع سماع المتحدث في أتلانتا، واحد - اثنان - ثلاثة - أربعة . .».

أنغريد: «كل شيء في أتلانتا على ما يرام وهم جاهزون».

- «الحمد لله. هل اقتربنا من موعد المقابلة؟».

أنغريد: «انتظر قليلاً. بقيت دقيقتان».

عواطف: «هٰذه الولايات المتحدة»، وسلمتني يد الهاتف.

كانت هناك خشخشة وضوضاء في الخط الهاتفي استمرت ثانية من الزمن، وتذكرت أني سمعت مثلها في خط الهاتف مع «أنغريد».

جاءني الرد من أتلانتا يقول: «من؟ «روبرت»؟ أعتقد أن «وِل» مشغول بالإشراف على بث حي ومباشر».

- «أجل، أعلم ذلك. إنني المشرف هنا على ذلك البث، يجب أن يكون على اتصال معي».

المتحدث: «حسن، انتظر برهة».

قال وِل أخيراً: «بقي أمامك دقيقة على بدء البث».

- «هل وصلنا إلى الزمن دقيقة».

سيمون: «تقريباً، بقي دقيقة».

قلت للوزير: «أمامنا دقيقتان على المباشرة باللقاء».

فرد عليّ بإيماءة في رأسه، ثم قال فجأة: «لا أستطيع سماع شيء!!».

وسمعت رالف بغليتر يبدأ الحوار بقوله: «أهلاً وسهلاً بمشاهدينا في الولايات المتحدة وفي أنحاء العالم أجمع».

شتمت قائلاً: «اللعنة، يا «ول»، يا «سيمون»، لقد فقدنا الاتصال مرة أخرى مع جهاز الآي. إف. بي حولي هٰذا الخط يا «أنغريد» بسرعة، سننسّق العمل على طريقك لأن جهاز آي. إف. بي لم يعمل».

صاحت أنغريد: «يا إلهي، ماذا تقول؟».

ولمرّة أخرى، يقوم «تيرون» بعمل معجز رائع يستحق كل الثناء والتقدير، فيعيد وصل جهاز آي. إف. بي.

قال الوزير طارق عزيز بهدوء: «إنني أسمع الآن».

صرخت أنغريد: «بقيت ثلاثون ثانية».

همست لها: «يا له من كابوس مرعب».

هتفت أنغريد: «أأنت الذي تخبرني بذلك!».

وقال عزيز مستديراً باتجاهي ومشيراً إلى سماعة الأذن التي يضعها: «إني أسمع صوتاً هنا في الاستوديو، وإنك تتحدث مع شخص آخر».

وانزعجت من ذلك، فقد تشابكت الخطوط مع بعضها بطريقة ما.

أنغريد: «خمس عشرة ثانية. يريد «سيمون» أن يعرف إذا كان باستطاعتك تعديل الصورة بشكل أوضح».

دمدمت متذمراً وأجبت: «كلا، لا أستطيع لأن الوزير يسمع حديثنا أيضاً».

وصحت بأعلى صوتي: «هدوء» مخاطباً «أنغريد» وكل من في الاستوديو، وتابعت أمري: «لنقم الآن ببث المقابلة مباشرة على الهواء». وما هي إلا لحظات حتى سمعت الوزير يقول: «مساء الخير يا «رالف»».

لم تأت المقابلة، لسوء الحظ وبعد كل تلك الجهود، إلا بالنزر اليسير من الأخبار ذات الأهمية الصحفية. لقد طرح «بغليتر» كل الأسئلة المعتادة حول الانسحاب من الكويت، وإطلاق سراح الرهائن، وفرص نشوب الحرب. وأجاب طارق عزيز كالعادة بتلقين العالم محاضرة ودرساً في التاريخ العراقي، ومبيناً أن «الضيوف» يخدمون غرضاً جيداً مفيداً، ومؤكداً على أن احتمالية وقوع حرب هي في يد «بوش». كان من الواضح أن «رالف» حاول طرح أكبر عدد من الأسئلة خلال وقت

المقابلة المحدود، واستمر في مقاطعة الوزير عند تحدثه بصورة بطيئة ورتيبة. وكان «رالف» محقاً في محاولته جعل المقابلة تنبض بالحياة والإثارة، غير أن التأثير العام الذي تمخضت عنه هو أنها نزعت إلى الجدال والخلاف، ذلك أنها بدت أحياناً مناظرة وليست حواراً. وعندما انتهت المقابلة وانتزع الوزير المسماع من أذنه.

قالت لي أنغريد مقيّمة المقابلة: «إنها هراء في هراء».

عاتبتني أحلام بصورة وديّة قائلة: «أرأيت يا سيد «روبرت»، ليس هناك من سبب يجعلك تغضب. لقد طلبت منك ألا تقلق».

فأجبتها مبتسماً: «ماذ أقول لك؟ عندما تكونين على صواب فأنت على صواب».

وسررت كثيراً لموافقة طارق عزيز على إجراء مقابلة ثانية مع «بلي» و«كلانسي»، وقال: «من الأسهل عليّ التكلم مع أناس أشاهدهم أمامي».

ثم أشعل سيجاراً آخر بينما أبعد «تيرون» و«فيل» آلات التصوير. وفتحت علبة سجائر فرنسية جديدة وقدمت واحدة إلى حارس طارق عزيز، إلا أنه كان متيماً بسجائر مارلبورو ولا يستطيع تدخين غيرها، مثله مثل مذيع التلفزيون الذي يشبه الرئيس صدام الذي انضم إلينا في الاستوديو.

ومثلما كانت عليه حال المقابلة الأولى، فإن المقابلة الثانية مع وزير الخارجية لم تثمر عن عناوين بارزة مميزة تصلح لكاتبها بالخط العريض، إلا أن تبادل الآراء والأخذ والعطاء، وخاصة بين الوزير و«بلي»، كان حافزاً ومثيراً. كان السيد طارق عزيز هادئاً، وربما يشعر بالارتياح في جلسته مع محاوريه، فأخذ يخوض في مواضيع لم أعهده يتطرّق إليها من قبل. لم يناقش الرجال الثلاثة الحقائق القائمة على أرض الواقع فقط، بل تجاوزوها إلى مسائل أكثر عمقاً وتعقيداً جعلتهم يواصلون الحوار بصورة مطردة. لقد كان طارق عزيز رجلاً فيلسوفاً.

قال طارق عزيز: «يجب أن تفهم بأن الكبرياء هو عامل مهم جداً في هذا الجزء من العالم، وهو العامل الحاسم في بعض الحالات. وفي مثل القضية التاريخية التي نشهدها الآن فإن الكبرياء والحقوق التاريخية هي مسائل لها أهميتها البالغة. إنها مهمة بالنسبة للمواطن العراقي أكثر من أهمية الحصول على وجبة طعام شهية، وأهم من التمتع بإجازة أو الحصول على بذلة ثمينة أو شقّة سكنية. إني أخبركم بما نشعر به نحن».

ذهلت لأهمية ما صرح به وزير الخارجية العراقي. وفكرت في نفسي .. إذا أرادوا السلام فإن الرئيس «بوش» وهيئة الأمم المتحدة ينتهجان مسلكاً خاطئاً في سبيل السلام. إن تحدي الرئيس صدام ومعاقبته كأنه تلميذ مدرسة خارج عن جادة الصواب لن يحقق شيئاً لصالحهم ولن ينال من العراق، بل على العكس من ذلك إذ سيزيد موقف صدام تصلباً وعناداً. وبالنسبة للرئيس العراقي،

كان هناك شيء معرض للخطر الشديد أكثر من تعرض الكويت نفسها لذلك الخ
الخطر يحدق بكبريائه وكبرياء وعزّة العراق. إن مفهوم العزة و«حفظ ماء الوجه»
والشعوب الغربية هو نموذج بالٍ وبسيط يعبّر عن الثقافة العربية، إلا أن الرجل في
يوزّن ويقيّم بمدى الاحترام الذي يفرضه ويحرص عليه. لم يكن صدام حسين لي
الرضوخ للغرب والموافقة على ما يمليه عليه، والاستسلام لـ «بوش» هو أمر غير وارد
لصدام ولا مجال للتفكير فيه. وللسبب نفسه، فإن تنازل الرئيس «بوش» عن مط
استرضاء للرجل الذي وصفه سابقاً بأنه هتلر الثاني. وكان لدى «جورج هيربرت ووكر
للتذمر والشكوى.

وهكذا، فإن الرئيسين كانا يسيران على طريق يؤدي في النهاية إلى التصادم والنز
في سبيل حفظ ماء الوجه. ربما كان «بوش» ومجلس الأمن كارهين وغير راغبين في
قرار يقضي باستخدام القوة ضد العراق لإجباره على الانسحاب من الكويت، غير أ
عزيز قد عرف آنذاك الشيء الذي لم يتخيّله أو يفكر به الغرب: لقد عرف أن الرئيس
سيغامر بكل شيء من أجل صيانة كرامته وكبريائه.

كنا متحلّقين أمام شاشة التلفاز نشاهد صور ما وصفته الصحافة العالمية مباشرة
في أسوأ حادث عنف يقع في القسم الشرقي من مدينة القدس وذلك منذ حرب الأ
استشهد (٢١) مواطناً عربياً ممن كانوا يحتجون على الاحتلال في ساحة المسجد ا
أطلقت عليهم قوات الأمن الإسرائيلية الرصاص الحي.
وسألت جيرمي تومسون: «ماذا تستنتج من هذه الحادثة؟ إنها ستغيّر من طبيعة
بأكملها، ألا توافقني الرأي؟».

كان التلفزيون العراقي يبث مراراً وتكراراً صوراً متلاحقة عن مشاهد القتل وا
المسجد الأقصى، وكان من الممكن أن يبث ذلك على مدى أسابيع. أجاب «جيرمي
سيمنح الرئيس صدام كسباً إعلامياً ودعائياً عظيماً»، وقلت محللاً الحدث: «أعتقد
نصراً إعلامياً على المدى القصير فقط، ولكنه لن يتغيّر شيء على المدى الطويل
سيكون هناك مظاهرات. سوف تشجب إسرائيل حادثة القتل وتأمر بإجراء تحقيق فيه
إنه كان يجب ألا تقع، وإذا وقعت، فإن هناك سبب وراء حدوثها، وإذا لم تكن لتحد
لا بد أنها كانت ستقع في وقت لاحق، وأنهم يأسفون لوقوعها. وبعد ذلك سيصلو
مفادها أن رجال الشرطة الإسرائيلية قد تم استفزازهم، وسيعترفون أن أحد رجالهم
حماسه ورد فعله، وقد يفقد أحد رجال الأمن هؤلاء وظيفته ليكون كبش الفداء. وفي

ستجد الولايات المتحدة الأمريكية نفسها في موقف حرج. وسيشجب مجلس الأمن إسرائيل على تصرفاتها، وستشعر إسرائيل كالمعتاد بأن العالم كله ضدّها. وسيصبح كل ما حدث في طي النسيان بعد شهرين من الآن ولن يتذكّره أحد، وسيعود الطرفان المتنازعان إلى النزاع والخصام من جديد».

ضحك تومسون معلقاً: «يا لك من رجل متهكم ساخرا!!».

ـ «هٰذا صحيح، ولكني أنا أيضاً رجل واقعي. لا تنسى أني عشب فترة من الزمن في إسرائيل».

جيرمي تومسون: «لست متأكداً فيما يخصّ هٰذا الموضوع، وقد يكون له مضاعفات ونتائج خطيرة تخصّ الدول العربية الأعضاء في التحالف ضد العراق».

ـ «حسناً، ليس بإمكانك التأكد من كل شيء فهكذا أنت دوماً، ولكني متأكد تماماً من حاجتي إلى تجرّع شيءٍ من المشروب»، ورفعت يد الهاتف طالباً دلواً مليئاً بالثلج.

همست أنغريد في أذني: «حسناً، لقد طلبت إعداد الكعكة. سأذهب مع السائق كريم ساعة من الزمن لإحضار ما يلزمنا من الحاجيات».

كانت المناسبة هي عيد ميلاد «بليستون» الذي لم يذكر لأحد أن ذلك اليوم هو عيد ميلاده الرابع والخمسين، غير أن «باريسا خو سرافي» العاملة في مكتب أتلانتا ذكّرتني بذلك واقترحت عليّ إقامة حفلة له، وكان ذلك ما فعلناه فعلاً، فقد اجتمعنا في غرفة العمل حوالي الساعة الحادية عشرة ثم فاجأناه بترنيمة عادية لمقطوعة «عيد ميلاد سعيد» ولكنها خرجت من حناجرنا مفعمة بالحماسة والحب. كان «بلي» مبتهجاً، وقامت «تريسي» بدهنه بقليل من الزيت على سبيل التكريس وتشبيهاً له «بملك شيبا» حيث وضعت على كتفه قطعة قماش ذات ترابيع باللونين الأبيض والأسود، وقدمت له «كريس كريزمانخ» بالنيابة عن طاقم الشبكة جديلة صفتها من حبات العلكة الصالحة للأكل والقابلة لتشكيل فقاعات منها.

ضحك بلي وقال: «هٰذا شيء باهر رائع».

وأحضرت الكعكة المحضّرة مع الشوكلاتة والتي صنعها طهاة المعجنات في فندق الرشيد، وقد احتوت على كمية من السكر تكفي لجعل عدد من الأطفال البالغين السادسة من عمرهم، والذين يشغلون ملعباً بأكمله، يهرولون في أرتال وراء بعضهم ولمدة شهور على أرض الملعب. أما غطاء الكعكة فكان عبارة عن جملة إنكليزية تقول: «عيد ميلاد سعيد يا «بوب» في بغداد»، وكان لذيذاً جداً. وصوّر «تيرون» ذلك الاحتفال على شريط فيديو شعوراً منه بالواجب تجاه زميله.

قال بلي مازحاً: «أين المجموعة التي وعدت بها؟ لقد وعدت بمجموعة عمرها (٤٥) عام»».

وأشارت أنغريد محذّرة: «إنها حالة أخرى من حالات دي. إس. بي».

مصطلح «دي. إس. بي» هو مصطلح خاص بنا، وكان عبارة عن مرض بشع ومهدم للأخلاق أصاب معظم الصحافيين الذكور في بغداد، وأعني بما سبق العادة السرية أو الاستمناء باليد. كان من المستحيل أن تلجأ إلى هٰذا العمل في دول أوروبا الشرقية لأن الفتيات والنساء كن يتواجدن في كل حانة تدخل إليها، أما في العراق فلا تجد إلا القليل القليل ممن يقبلن أن يصاحبنك ويعاشرنك. كانت «أنغريد» ترد الرجال المتظاهرين برغبتهم «طلب يدها» فترد عليهم بإجابتها المعهودة: «لم تبدأ الحرب بعد»، وكانت تصيح في وجه أي رجل يطلب الجلوس معها ومرافقتها متجاوزاً حدود اللقاء العادي وتناول المشروب. وعندما نشبت الحرب، غيّرت من إجابتها وصارت تقول متذرعة: «ليس الآن، إنني مشغولة». غير أن كل شخص هناك قد مارس العادة السرية، وقد ألفت أنا و «بلي» و «كلانسي» في إحدى الأمسيات أغنية قصيرة بسيطة عن هٰذا الداء، وكان لحنها مشابهاً للحن أغنية (لا يوجد شيء يشبه الإمرأة)، وكلماتها كالآتي:

لدينا أشعة الشمس فوق الرمال
لدينا ضياء القمر فوق البحر
لدينا الرهائن ومشروب الفودكا
ومرض دي. إس. بي الرهيب
لدينا «تريسي» و «كريس» و «أنغريد»
وهن وقحات وجريئات
ما الذي لا نستطيع الحصول عليه؟
إننا لا نستطيع مضاجعتهن

لدينا متظاهرون بأعداد وفيرة
لدينا رجال يراقبوننا ولدينا مشروب الجن
لدينا متسع من الوقت كبير للتفكير
بطرق نرغب فيها بارتكاب الآثام
لدينا بيض مسلوق وقهوة
والمقاتلون في استعرض عسكري
ما الذي لا نستطيع الحصول عليه؟

لدينا الكابتن المثالي «واكي»
وعنده الكثير من الدهاء والحيل
لدينا «روث» ولدينا «بليستون»
ونحن مشغولون هنا مع فتيان
ولدينا «كلانسي» و «توشيبا»
نمارس أفعالا منحرفة فاسدة
ما الذي لا نستطيع الحصول عليه؟
أعتقد أنه من المستحيل الحصول على عمل مزدهر

اتصلنا هاتفياً مع «باريسا» وأسمعناها الأغنية على الهاتف، فأجابت ساخرة: «أنتم يا زملاء؟ هٰذا شنيع! أعتقد أنها فكرتك يا «روبرت» أليس كذلك؟».

أجبت: «إسمعي يا عزيزتي: إن من مهام عملي هنا أن أكون ضابط آداب سلوكية وشرطي أخلاق. وأنا أحاول الحفاظ على روح معنوية عالية».

بلغت حفلة عيد الميلاد أوجها ووصلت ذروتها عندما رن جرس الهاتف. وبالكاد استطعت سماع كلام المتحدث، وطلبت من زملائي مناشداً إياهم الهدوء: «هدوء، سكوت، هدوء».

سأل المتحدث متكلماً الإنجليزية بلكنة عربية ثقيلة: «هل هنا شبكة الـ سي. إن. إن؟».

أجبت: «نعم، هنا سي. إن. إن من الذي يتكلم لطفاً؟».

المتحدث: «لقد طلبتم إجراء مقابلة مع الرئيس ياسر عرفات. سيكون الرئيس عرفات في ردهة فندق الرشيد بعد عشر دقائق من الآن».

ـ «من الذي يتحدث . . .».

المتحدث: «بعد عشرة دقائق» وأغلق الهاتف.

ـ «يا رباه، يبدو أننا حظينا بياسر عرفات في الطابق الأسفل تحت».

ولم يكن أحد من الطاقم ذو مظهر حسن يؤهله لإجراء مقابلة مميزة».

أصر كلانسي قائلاً: «أنا على ما يرام. سأغسل وجهي فقط وأضع ربطة العنق». واتجه مباشرة إلى غرفته.

كانت «أنغريد» تحاول منذ أيام ترتيب مقابلة، فقلت لها: «أقدّم لك التهاني يا «أنغريد»!!».

سأل بلي: «هل الكابتن «فاتي» قادم إلى هنا؟». كان «بلي» يدعو ياسر عرفات باسم «الكابتن «فاتي»».

أجبت: «هٰذا ما قاله الرجل على الهاتف».

أنغريد: «من ذلك الرجل؟ أراهن أنه كان . . كان سميراً».

ثم رن الهاتف، أمسكت بيد الهاتف وقلت: «نعم، مكتب سي. إن. إن».

المتحدث: ««روبرت»؟ أنا «لاري» (واسمه الحقيقي «دويل» وكان يعمل آنذاك مع شبكة سي. بي. إس) أردت فقط التأكد من أن منظمة التحرير الفلسطينية قد اتصلت بك. لقد اتصلت بنا نحن على أننا شبكة الـ سي. إن. إن فزوّدتهم برقم هاتفك».

ـ «أجل. شكراً جزيلاً يا «لاري»».

لاري: «ما الذي ستقومون به؟».

ـ «لا شيء مميز». كان آخر ما أريده عقد مؤتمر صحفي.

لاري: «هل ترغب في تناول الشراب معاً؟».

ـ «ربما بعد مدة وجيزة إذ لدّي لقاء يجب إنجازه. هل ستأتي أنت وزملاؤك إلى هنا لتمضية بعض الوقت؟».

لاري: «سنكون هنا. إني أدعوكم لزيارتنا».

قاربت الساعة على الواحدة والنصف صباحاً وأنا و«أنغريد» منتظران في الطابق الأسفل. ضحكت «أنغريد» وقالت: «هٰذا أمر تقليدي. إن ياسر عرفات لا ينام أبداً». وانتظرنا نصف ساعة إضافية. وقلت: «ربما كان علينا الاتصال بمنظمة التحرير الفلسطينية»، وتابعنا السهر جالسين وراء مكتب وزير الثقافة والإعلام الذي أصبح آنذاك خالياً من أي شخص. ومرت ربع ساعة أخرى قبل أن يظهر «كلانسي» ليخبرنا حازماً بقوله: «إنها خدعة»، ثم أعلمنا أنه سيكون في غرفته إذا ما جَدَّ شيء واحتجنا إليه. وبدأ يتّضح لنا حوالي الساعة الثالثة والنصف أننا تعرضنا لخدعة وكنا كالأعوبة، ولكن إذا لم تكن منظمة التحرير الفلسطينية هي صاحبة الخدعة، فمن كان إذن؟!.

صاحت أنغريد: «يا للمصيبة، أنت على حق»، وعدنا أدراجنا إلى المكتب ثم اتّصلت

بمكتب إس. بي. إس.

ـ «من؟ «لاري»؟».

أجاب لاري مباشرة: «لم أكن هو ذاك الرجل، أقسم لك».

قلت ضاحكاً: «ماذا؟ فمن هو إذن؟».

ـ «لا أعرف من كان، ولكن لست أنا».

ـ «حسناً، لقد كسبت الجولة. إني مدين لك بجولة مقابلة»، وهنّأته على نجاح حيلته.

١١

ظلت التقارير الإخبارية الموجزة التي كانت تصل السفارة في بغداد تدور حول موضوعي الرهائن والعقوبات.

وشرح جو ويلسون الوضع قائلاً: «هٰذه هي الأرقام طبقاً للمعلومات التي وصلتنا: (٩٣) أمريكيا، و(٢٠٠) يابانيا، و(٧٧) ألمانيا، و(٦٠) فرنسياً، و(٣٠١) بريطانيا. وهم لا يزالون محتجزين في مواقع استراتيجية، وبالإضافة إلى ذلك، يتواجد حوالي عشرين أمريكياً في ملاذ آمن (أي مقر إقامة السفير الأمريكي)، و(٣٠٠) من حاملي جوازات السفر الأمريكية ومعظمهم من زوجات الأفراد العراقيين واللاتي رفضن مغادرة العراق، وما بين (٦٠٠ ـ ٧٠٠) أمريكي في الكويت مع (٨ ـ ١٠) دبلوماسيين أمريكيين في الكويت أيضا، وما تزال السفارة الأمريكية هناك طبعاً من دون كهرباء ولا ماء.

ورداً على سؤال فيما إذا طلب العراق فعلاً من الشركات الغربية تزويده بقوائم أسماء موظفيها الذين تجاوزوا سن الخامسة والعشرين، قال جو ويلسون: «لقد سمعنا بذلك، ولكنا لا نعرف بالضبط الهدف من وراء ذلك. ولم يخبرنا أحد قطعاً أنه سيتم إطلاق سراحهم».

وسأله أحد المراسلين القادمين حديثاً: «هل ترى في الأفق ما يشير إلى أن العراق يلين ويخفف من موقفه المتشدّد؟».

أجاب جو باقتضاب: «يلين من موقفه؟! لقد أعطيتك للتو قائمة بأسماء أناس أبرياء يحتجزهم العراق بخلاف إرادتهم. واسمح لي أن أذكّرك بأن العراق ما يزال يحتل الكويت. كلا، لا أظن

أن هٰذا مما يشكل ليونة في موقفهم».

ونهض قائلاً: «حسناً أيها السادة، أستميحكم عذراً».

سألت «جو» بعد أن غادر الآخرون: «تبدو منزعجاً ومتوتراً هٰذا الصباح؟، هل أنت بخير؟».

جو: «أنا بخير يا «روبرت»، ولكن ما يزعجني أحياناً أمثال تلك الأسئلة . .».

ـ «أجل، أعرف ما تعنيه، حسناً، فلتسترح وتذكر ما قاله «همينغواي»: «الحِلْم عند الشدة».

ضحك جو وقال: «سأتذكر ذلك. بالمناسبة، لقد سمعت عن المقابلة مع وزير الخارجية العراقي طارق عزيز ولكنني لم أحصل بعد على نسخة مكتوبة منها من واشنطن. هل تمانع إن زرتك يوماً ما في الفندق لكي أطلع عليها؟».

ـ «قطعاً، لا مانع عندي».

جو: «كيف كانت المقابلة؟».

ـ «هل تريد رأيي الشخصي؟ أظن وبصراحة أن المقابلة التي بثّت بثاً حيّاً وأجراها «بغليتر» كانت نزاعاً وجدالاً وليست مقابلة كما أريد لها أن تكون، ولم تأتِ بشيء جديد ومفيد. وقد اتصل بي نزار هاتفياً بعد انتهائها ليقول وبالحرف الواحد أنها: «عنيفة وجافة».

جو: «أحقاً؟».

ـ «بيد أني أعتقد أن مقابلة طارق عزيز مع «بلي» و«كلانسي» كانت ممتعة. تعال عندي وسترى، ولسوف أضع عدداً من زجاجات المشروب في الثلاجة».

سألت «جو» مقدّماً له كأساً آخر من البيرة: «ما رأيك إذن؟».

أخذ مجّة من سيجارة ونفث دخاناً كثيفاً ثم خلص إلى القول: «لا شيء فيها يختلف عما يردّدونه منذ بداية الأزمة».

قلت مُصرّاً: «ربما، ولكن ماذا عن مسألة الكبرياء والعزة؟».

أجاب بتفكير عميق: «أجل، أوافقك الرأي أن لصدام كبرياءه، ولكنه أيضاً رجل مصاب بجنون العظمة!!».

بعد قضاء ساعة تقريباً في غرفة الانتظار في وزارة الإعلام، تمكّنت في نهاية المطاف من الجلوس في مكتب ناجي بعد الظهر. ومرر ناجي يده فوق كومة كبيرة من الأوراق المكدّسة فوق بعضها ثم قال: «آسف لتأخري عليك يا «روبرت» فاعذرني». وعدت للتأكيد كما هي العادة على موضوع إجراء مقابلة مع الرئيس صدام حسين، وموضوع السفر جواً، وموضوع القيام برحلة إلى الكويت. ويعلم الله كم مرّة ناقشت معه هٰذه المطالب في كل مرة أتيه فيها. قال ناجي بخجل:

«تعلم أننا وجدنا بعض الوثائق المثيرة في وزارة الخارجية في الكويت، وهي تثبت فساد الشيخ حاكم الكـويت والأمـراء الآخـرين». قلت في نفسي: إذن هنـا بيت القصيد، فقـد ذكر «جون سيمبسون» من شبكة بي. بي. سي أن ناجي حاول ترغيبه في أخذ حكايات فاضحة شنيعة حول الهفوات والممارسات الجنسية المنحرفة لعائلة الصباح التي كانت تحكم الكويت قبل احتلالها.

سألته بسذاجة: «ماذا اكتشفتم؟».

تصفح بعض الأوراق وهو يضحك ضحكة خافتة ماكرة ثم قال: «وقعنا على رسالة موجهة من السفير البلغاري إلى أحد الموظفين في وزارة الخارجية الكويتية»، واستمر في اختيار أوراق من بين أوراق المراسلات المكدّسة وتابع قائلاً: «كان من الواضح أن أحد الأمراء قد استأجر إمرأة عاهرة ومومس من بلغاريا، وذكرت الرسالة أن العاهرة وجدت أن مبلغ خمسة آلاف دولار غير كافٍ لقاء تعويض عن فقدان حلمة ثديها الأيسر».

- «ربّاه!».

ابتسم ناجي: «أجـل، إمـا أن الحلمـة قطعت، أو تم قضمها». وقلت في نفسي: دعني وشأني، أنا لا أحب سماع هٰذه الأشياء.

وابتسم ناجي بتكلّف وقال: «هناك المزيد من هٰذه القصص».

- «سأروي ما سمعت لزملائي، فنحن عائلة واحدة ضمن العمل في الشبكة».

ضحك وأجاب: «أفهم ذلك. إن معظم المراسلين الصحفيين الغربيين لا يهتمون بمثل هٰذه المسائل».

قلت مازحاً: «يجب أن تحاول بيعها إلى الصحف المصغرة البريطانية» [وهي صحف ذات قطع نصفي تشتمل على أنباء موجزة ومقدار كبير من الصور والرسوم].

ضحك ناجي بخفوت معلّقاً: «أعلم هٰذا، ولكن لسوء الحظ لا يوجد لتلك الصحف مراسلين هنا في بغداد. والآن يا «روبرت»، بماذا أستطيع أن أخدمك؟».

- «يمكنك مساعدتي في الجولات العادية التي أقوم بها وفي أمر آخر، خمّن ما هو ذلك الأمر؟».

التقط ناجي سبحته ونظر من خلال النافذة، ولم ينطق كلانا ببنت شفة طوال دقيقة تقريباً. واستـدار ناجي أخيراً ونـظر إليّ مبـاشرة وسألني: «هل سيكون «بيرنارد شو» هو الشخص الذي سيجري المقابلة مع الرئيس صدام حسين؟».

ـ «هل هٰذا سؤال أم مطلب تطلبه؟».

ناجي: «إنه مجرد سؤال».

ـ «أظن أنه من الجيد أن يقوم «بيرني» بإجراء المقابلة، وسأتحقق من هٰذا الأمر مع مكتب أتلانتا وأنا متأكد أنهم سيقبلون به. سأقترح عليهم أن يشترك أحد مراسلينا في بغداد، وهو «ريتشارد بليستون»، مع «بيرني» في هٰذه المغامرة الجريئة».

وافق ناجي بقوله: «فكرة جيدة».

ـ «هل أفهم من ذلك أننا حصلنا أخيراً على الموافقة لإجراء المقابلة؟».

ناجي: «أجل، أجل يا عزيزي «روبرت» ورفع صوته: «لقد تمت الموافقة على المقابلة».

وعند ذلك، كدت أصدح بأعلى صوتي منشداً ترنيمة الشكر لله. وتذكّرت سوء الاتصالات والتفاهم الذي حدث سابقاً بين نزار حمدون وناجي، فسألت: «وهل يتفق معك نزار في الرأي؟».

ناجي: «لقد تكلمت معه منذ ساعتين في هٰذا الخصوص وهو على علم بكل شيء».

وأمضينا الدقائق التالية في مناقشة التفاصيل، فقرر أن المقابلة ستكون ما بين (٢٠ ـ ٢٧) من شهر تشرين الأول. وتقرر أيضاً أن يتم تسجيلها على شريط فيديو وليس بثها بثّا حيّاً ومباشراً، وأن يأتي فنّيون عراقيون بآلات التصوير. وقد برزت مشكلة في هٰذا الخصوص ولكني ارتأيت أن الوقت لم يكن مناسباً لطرحها. وستدوم المقابلة حوالي ساعة واحدة على أقل تقدير ومن دون تحرير ثم يتم بثها عبر القمر الصناعي في أقرب فرصة ممكنة. وتم الاتفاق أيضاً على أن يمدد ناجي تأشيرة الإقامة لكي أتمكن من البقاء في بغداد بغية الإشراف على سير المقابلة.

وقلت: «لقد استغرق هٰذا الأمر وقتاً طويلاً، ولن أستطيع إيفاء حقّك من الشكر على ما قدمته لي».

ناجي: «العفو، لقد كنت أنت رجلاً صبوراً».

وقلت مازحاً بين الجد والهزل: «ماذا عن الرحلة الجوية؟».

ضحك مجيباً: «ليس الآن. أظن أنك تلقّيت نبأ ساراً كافياً لهذا اليوم».

ابتسمت معلّقاً: «ليس تماماً، فليس هناك من الأنباء السارّة ما يماثل نبأ السماح لنا للقيام بهذه الرحلة».

صرح «إيسون» أنه سيحّرك مسألة المقابلة ويعطيها دفعة إلى الأمام، وذلك عن طريق إرسال برقيات إلى كل من ناجي ونزار والسيدة عواطف يؤكد فيها على موعد المقابلة، ومن ثم يناقش موضوع «بيرني شو» وقال: «يجب أن نسأله أولاً فيما إذا كان يرغب في إجراء المقابلة، فأنت تعلم

أنه لا يستطيع السفر أحياناً، وسيكون بحاجة إلى المال لعددٍ من الأيام».

وأجبت: «صدّقني إنه سيقبل ذلك. إن اشتراك «بيرني» و«بلي» كلاهما في إجراء المقابلة سيكون عملاً رائعاً ومميزاً».

إيسون: «أفهم ما تقول. سنكون على اتصال مع بعضنا».

وجلست في وقت لاحق مع «أنغريد» لشرب فنجان قهوة المساء، وأخبرتها بأن: «الأمر كله كان طويلاً ومزعجاً جداً، إذ كان عليّ أولاً سماع قصة حلمة الثّدي المفقودة ثم ـ وكما تعلمين ـ تأتي عادة ناجي في التحديق من خلال النافذة، وأخيراً، وأخيراً أخبرني عن المقابلة، كيف تجري مسألة تحرير الأخبار وبثها؟».

أنغريد: «كالعادة، لم يتغيّر شيء. ولكن لم تتم هٰذه الليلة مراقبة الأخبار».

ـ «جيد، هل قام أحدهم بعمل شيء لم نعمله نحن؟».

أنغريد: «في الواقع، كلا. حتى أن شبكتي إن. بي. سي وإس. بي. إس لم تحررا أي خبر. أما شبكة إيه. بي. سي فقد عملت تقريراً إخبارياً آخر حول موضوع: «هل تؤدي الرقابة الإعلامية الغرض المطلوب منها وتسير كما يجب؟»، بالمناسبة، أريد شراء بعض العطور لأهديها إلى عواطف وأحلام وآخرين. إنها لفتة وبادرة جميلة».

ـ «جميل هٰذا، يستطيع أول شخص قادم من عمان إلى هنا أن يشتريها لك من السوق الحرة في المطار».

أنغريد: «أصبت، أنت عظيم جداً يا «ويني»». وملأت كأسي ثانية بينما كانت تصيح مبتهجة، ثم حملت كأسها الفارغة، وسألتني: «هل نسيت أمراً ما؟».

أجبتها ماداً يدي إلى وعاء القهوة: «آسف، إن ذلك منتهى الأخلاق السيئة، وأعدك أن أغيّرها».

أنغريد: «حسناً، فابدأ وطبّق ما تقول».

ـ «أرغب في تطبيق كثير من الأمور». وكانت دعابة سيئة.

أنغريد: «أوه، لم تبدأ الحرب بعد!!».

كنت أناقش مع «إيرل كيسي» على الهاتف في أتلانتا موضوع الأخبار القادمة واللاحقة. كان «إيرل» قد انضم مؤخراً إلى الشبكة، وعمل في دائرة الأخبار الدولية بعد انقطاع عن الشبكة دام شهوراً عديدة، وقد احتل في الأصل منصب مدير التحرير في دائرة المهمات الوطنية، حيث عمل

بجهد واجتهاد وبشكل يومي من طلوع الفجر وحتى المساء، مما أجهد نفسه وجسمه فترك العمل. ومن بين الأشياء الأخرى، كان «إيرل» يؤلف كتاباً عن الريف والمغنّي الغربي «جيرمي جيف ووكر». و«إيرل» هو رجل صحفي من مستوى رفيع، وعنده حب الفضول والتعرف على شتى الأمور، وهو ذكي وذو بصيرة وطول نظر، ونشيط سَبّاق في عمله. وعلى رأس كل هٰذه الصفات، كان يحافظ على هدوئه واتّزانه، فيسأل أسئلة جيدة في الصميم ويقدّم نصائح قيمة. وفوجىء بعضنا عندما حصل «إيرل» على وظيفة إعداد وتقديم التقارير إلى «إيسون جوردن» الذي عمل سابقاً لدى «إيرل»، غير أننا سررنا جميعاً لعودته إلى العمل في شبكة سي. إن. إن (والحقيقة أن «إيرل» قد نقل من دائرة الأخبار العالمية بعد أشهر قليلة من عمله فيها ثم رُقي إلى منصب نائب الرئيس، وعُيّن رئيساً لدائرة المهمّات الوطنية مرة أخرى).

قال إيرل: «لا أعتقد أنهم سيسمحون بتصوير حياة الوزير طارق عزيز لمدة يوم أو أكثر ومرافقته في جولات عمله. كنت أفكّر أثناء مشاهدة مقابلته مع «بلي» و«كلانسي» أنه شخص ممتع ورائع. إنـه يشبه الرئيس صدام حسين من نواح عدة، أليس كذلك؟ يمكن أن نكتب لمحة موجزة عنه وستكون محاولة لها ما يبررها من الأهمية».

وافقته الرأي ثم أعلمته أني سأناقش هٰذه المسألة لاحقاً مع حمدون، وعندها قطعت «تريسي» حديثنا قائلة: «يريد سعدون أن يتحدث إليك هاتفياً على الخط، ويقول إنه أمر هام».

وقلت لـ«إيرل» إني سأكلّمه في وقت آخر ثم أمسكت سماعة الهاتف الثاني.

قال سعدون وهو يلهث: «يجب أن تأتي بسرعة يا «روبرت». يريد ناجي أن يراك حالاً إلى مكتبه»، وأجبته بأني قادم في الحال.

وصلت إلى المكتب وفتحت الباب مندفعاً إلى الداخل، وحيّاني سعدون قائلاً: «بسرعة، بسرعة، إن السيد ناجي في انتظارك».

ورافقني إلى الممر فسألته: «ما سبب كل هٰذا؟».

فأجابني مدخلاً إياي إلى المكتب: «سيشرح لك ناجي». نهض ناجي من وراء طاولة مكتبه وخطا عبر الغرفة ثم حيّاني.

قال ناجي بأدب: «شكراً على قدومك يا «روبرت»». وما إن جلسنا حتى سألني: «كيف وضع العمل مع السيد «شو»؟». كنت قد أخبرته أن العمل مع «بيرني» سيكون ناجحاً وصفقة رابحة، ولكني لم أفهم لماذا سألني عنه مرة ثانية.

أجبته مذّكراً إياه: «لقد تمّت تسوية هٰذه القضية معه. سيحضر هنا في التاسع عشر من هٰذا الشهر».

قال: «عظيم جداً». ثم بدأ ينظر عبر النافذة كعادته دائماً، غير أنه اختصر المدة هٰذه المرّة إلى عشرين ثانية، وتابع حديثه: «أخبرني يا «روبرت»، أما زلت وطاقم عمل الشبكة مهتمين بالذهاب إلى الكويت؟». وكان سؤاله يدل على أنه يرمي إلى تحقيق غرض ما آخر.

رددت مستفهماً: «الكويت؟ نرغب طبعاً في الذهاب إلى الكويت».

ناجي: «يجب أن تدرك أنك إذا ذهبت فستقتصر الزيارة على المستشفيات فقط لرؤية أحوالها وظروفها، ولا شيء غير ذلك».

وهكذا كان الأمر. لقد كانت مسألة الزيارة بهدف إصدار رد عراقي رسمي على ما أشيع في تقارير عديدة منشورة من أن العراقيين قد انتزعوا الأطفال الحديثي الولادة من الحاضنات في مدينة الكويت وتركوهم يموتون في حين نقلوا الحاضنات إلى بغداد.

ناجي: «هٰذه التقارير ملفّقة»، وأكّد بقوله: «وهي محض إفتراء وكذب، ويمكنك أن تتحقّق من المسألة بنفسك».

- «يتوجب علينا زيارة عدة مستشفيات، ويجب السماح لنا مع العديد من الأشخاص في سبيل تحرّي الصدق وكشف الحقيقة».

ناجي: «سيسمح لكم بذلك، وسيمكنكم الذهاب إلى أي مكان تشاؤون»، ثم أضاف بلهجة متشدّدة: «يجب أن تعدني يا «روبرت» أنكم ستنظمون التقرير الإخباري بخصوص المستشفيات فقط، وأنكم لن تتحدثوا عن الوضع العسكري هناك أو تلتقطوا أي صورة كانت. هٰذا هو السبب الوحيد الذي دفع بالسلطات الأمنية إلى تلبية طلبي بالسماح لفريقكم الصحفي بالذهاب إلى الكويت».

فكّرت في هٰذه القضية وقلّبت الرأي فيها. فمن الناحية الأولى، لم تكن الأوهام مسيطرة عليّ، والرحلة أمر واقع، ولعبة أخرى من لعب استعراض الكلب والحصان، ومع ذلك فإن زيارتنا للمستشفيات وإجراء عدد من المقابلات قد يمكننا من استجلاء الحقيقة. ومن ناحية ثانية، كان الناس يريدون في الحقيقة معرفة ماذا كان يجري في مدينة الكويت، ومعرفة أخبار حول القوات العراقية والمواطنين الكويتيين والرهائن الأجانب. وربما استطعنا نقل معلومات عن هٰذه الأشياء إذا ما وافقنا على الشرط الذي وضعه ناجي. لم يذهب أحد إلى الكويت لتغطية نبأ ما منذ زيارة «جيسي جاكسون» القصيرة إليها، وستكون شبكة سي. إن. إن هي أول شبكة تبث أخباراً من داخل الكويت المحتلة. وعندما وزنت المسألة قرّرت ألا أثير خلافاً حولها، فمن يدري أننا قد نحصل على معلومات أخرى عند زيارتنا للمستشفيات، وشكرت ناجي على العرض الذي قدّمه لنا ووافقت على الشروط التي وضعها.

لم يتم التقيّد، كما جرت عليه العادة بموعد انطلاق الرحلة. فقد غير سعدون الذي رافقنا موعد الرحلة في آخر لحظة ولأسباب غير مفهومة. وتقرر أن ننطلق في الساعة الحادية عشرة والنصف بدلاً من الساعة السابعة صباحاً، كما كان مقرراً في البرنامج الأصلي. وكان طبيعياً بالإضافة إلى ذلك أن تتأخر رحلة الخطوط الجوية العراقية رقم (١٥) المخصصة إلى الكويت. أخذنا أماكننا في ردهة المغادرة في مطار صدام الدولي.

وقلت لسعدون: «لن تنجح زيارتنا حتى ولو أقلعت الطائرة عند الظهر لأنها لن تصل الكويت قبل الساعة الواحدة بعد الظهر، ورحلة العودة موعدها الساعة الثالثة. لن نتمكن من تنفيذ خطة الزيارة».

وأكّد لي سعدون مجيباً: «لا تقلق. سنذهب إلى أحد المستشفيات وستتمكن من الحصول على تغطيتك الإخبارية».

والتفتُّ إلى المراسل «دوغ جيمس» وقلت: «هٰذا هراء وعبث لا طائل من ورائه. لي رغبة بإلغاء الزيارة كلها».

أجاب دوغ: «أعرف ما تعنيه. خذ، تناول هٰذه الكعكة المحلاّة»، ومد يده إلى حقيبة يده وأخرج علبة من نوع (شيبس آهويْ).

ـ «إنك تفرط في أكل هٰذه».

كان مركزنا في أتلانتا قد بعث إلينا بصندوقين من رقائق الكعك المغموس بالشوكلاتة مع إثنتي عشرة دزينة من زبدة الفول السوداني، وقد عاش «دوغ» على هاتين المادتين تقريباً لأنه كان أنيقاً في مأكله ولا يتقبل أي طعام حتى وإن لم يكن متواجداً في منطقة الشرق الأوسط.

سألتني سايندي ستراند: «هل أنت على ما يرام يا «ستيمي»؟ تبدو حزيناً جداً».

كانت «سايندي» مسؤولة عن التصوير في مكتبنا في مدينة بكين حيث كسر أنفها هناك أثناء تغطيتها لأحداث (ساحة تيانا نمين). وكانت في أوائل الثلاثينات من عمرها فتاة شقراء ملائمة لرقص (روك آند رول)، جميلة القوام وذات وركين ظاهرين، وكانت عاصمة لبنان وهي مدينة بيروت مهبط فؤادها وأحب المدن إلى نفسها.

ـ «ستكون هٰذه الرحلة كابوساً آخر، وحقيقة، لا أريد أن أبالغ في توقّعاتي السيئة».

سايندي: «أعلم ذلك ولكن حاول أن تبتهج قليلاً. سنعمل جميعاً على مساعدتك»، ونادت على «تريسي فليمنغ» بلهجة أهل الجنوب في أوضح صورها: «تعالي إلى هنا يا «سيبل» ولنجلس بقرب «ستيمي»، إنه بحاجة إلى ما يبهج قلبه ويزيل الهم والكدر عن صدره».

أقلعت طائرة البوينغ أخيراً في الساعة الثانية عشرة والربع. وبعد دقائق قليلة قدم لنا طاقم الطائرة ومضيفوها قهوة فاترة في فناجين بيضاء صينية، ولم لا؟ فنحن كنا من ركاب الدرجة الأولى بعد كل ما قاسيناه. وكان سعدون يرمقني عبر الممر بين الفنية والأخرى مؤكداً لي أنه لا زال هناك متسع من الوقت. وظننت أنه سيقضي عليّ بعد تأكيداته المستمرة وبعد أن قال لي وللمرة الخامسة: «لا تقلق». وكنت مندهشاً لرؤية أعداد كبيرة من المسافرين، معظمهم من الجنود العائدين بعد قضاء إجازتهم، ولكن تواجد من بينهم عدد من رجال الأعمال. وقد أخبر أحد رجال الأعمال المراسل «دوغ» بأنه قد استورد مؤخراً أكثر من عشرة آلاف باوند من شرائح لحم الخراف الصغيرة من الكويت، وأنه عائد مرة أخرى إلى الكويت لاستيراد المزيد.

وعند مرورنا فوق ضواحي مدينة الكويت في الصحراء، شاهدت عشرات الدبابات وراء الممرات الضيقة التي حفرتها. وكانت هناك أيضاً تشكيلات عن الدبابات المتوزّعة على جانبي مدرج المطار. لقد صرح سعدون سابقاً أننا لن نحطَّ في مطار الكويت الدولي وأنه غير متأكد من المكان الذي ستهبط فيه الطائرة، ثم تبيَّن أننا هبطنا في قاعدة تابعة لسلاح الجو الكويتي وتبعد حوالي أربعين ميلاً عن مدينة الكويت. وكان العراقيون قد أخفوا اسم القاعدة بتعليق قطعة كبيرة من قماش التربولين المشمع فوق اليافطة المثبتة على برج المراقبة. وأخبرنا أن المطار قد فتح أمام حركة الطيران التجاري منذ يوم واحد فقط.

أخذ سعدون يهتف بنا لركوب سيارتين من نوع (شيفروليه بلازرز) توقفتا قرب الطائرة، وصاح: «بسرعة، بسرعة، يجب أن نذهب بسرعة»، أحضروا المعدات من فضلكم». وبفضل كفاءة طاقم العمل الأرضي أمضينا دقيقتين لجمع الجهازين الوحيدين اللذين فحصناهما سابقاً: آلة التصوير الخفيفة مع الحامل الثلاثي القوائم. ولحسن الحظ، وتوفيراً للعناء، لم يكن هناك تفتيش جمركي أو إجراءات خاصة بالهجرة.

بدت الكويت وكأنها ساحة خردة مترامية الأطراف، فالمساحات كلها مليئة بسيارات الركوب الصغيرة والشاحنات المهجورة، وجميعها بدون إطارات. وظهرت معالم حرب واضحة: شاحنة أو دبابة محروقة، بنايات فيها فجوات في هذه المنطقة وتلك، ولكن لم أجد ما كنت أتوقعه من دمار واسع. كان من الواضح أن عملية سلب ونهب الكويت لا تزال مستمرة على قدم وساق. وسرنا على الطريق السريع بسرعة أقصاها (٩٠) ميلاً في الساعة، ولم أشاهد على طول الطريق إلا المخازن والمحلات التجارية المسلوبة، صغيرها وكبيرها، بدءاً من محلات فطائر البيتزا وانتهاءً بأسواق الفيديو.

كان الجنود منتشرين في كل مكان. وصرح سعدون أن معظم القوات العراقية في الكويت

كانت في أقصى درجات الجاهزية العسكرية، ولكني اعتقدت آنذاك أنه حتى في حال صحة ما قاله سعدون فلن يحتاج «شوارزكوف» وجماعته إلى تحالف دولي من أجل دحر هؤلاء الجنود. لم أشاهد في حياتي شبيهاً للجنود العراقيين، مهملين في منظرهم وكأنهم حفنة من المجنّدين الإجباريين. وعند مقارنتهم مع الآخرين ترى أن المقاتل الفار من الجيش في منظمة (سوابو) يصلح لأن يكون حرس الشرف الرئاسي أكثر مما يصلح له العراقيون، والأدهى من ذلك أن القليل من الجنود كانوا يحملون سلاحاً، وقد شاهدت عند نقطة تقاطع طرق رئيسة قرب مدخل العاصمة حشداً من الجنود المتزاحمين على صندوق شاحنة وهم يتهافتون على البطيخ والثلج مثل جراد منتشر. وكانت الشاحنة متوقّفة تحت صورة جدارية ضخمة للرئيس صدام حسين، ومشكّلة من قطع صغيرة من السيراميك الملون.

كانت حركة المرور على الطريق ضعيفة، وإشارات المرور معطّلة، غير أنه لم يكن هناك مواطنون كويتيون، مما جعلني أشعر بالأسى. وأمعنت النظر عبر النافذة إلى متنزه مهجور في منطقة «الجهراء»، وحاولت تخيّل ذلك المنتزه وهو مليء بأطفال كويتيين يضحكون. اجتزنا مجمعاً طبّياً ثم قال سعدون: «لقد شارفنا على الوصول»، وفتحت دفتر ملاحظاتي وبدأت أكتب، وهمست في أذن «دوغ»: «ما رأيك بما كتبته»، وتلوت عليه ما دوّنته، ثم أضفت: «من الصعوبة بمكان ـ إن لم يكن مستحيلاً ـ وفي رحلة مختصرة مثل هٰذه، أن نعرف ما هو صحيح بالضبط. لن يسمح لنا العراقيون إلا بزيارة هٰذه المستشفى. ومن الواضح يا «دوغ» أنه يمكننا التلاعب بالكلمات، غير أنه من الأفضل كتابة كلمات مركّزة في نهاية التقرير الإخباري بحيث تظهر أن تلك الجولة الصحفية لم تكن شاملة ووافية. ضع ذلك في حسبانك. ونظراً لأسلوب تصريف الأمور هٰذا فقد لا تجد متّسعاً من الوقت يكفي للتصوير وأنت واقف في اللقطة الختامية للتقرير».

قال دوغ: «أوافقك الرأي، إنه تفكير جيد».

سعدون: «وصلنا يا «روبرت»».

وتوقفت سيارتنا الشيفروليه أمام مستشفى صغير للتوليد يقع قرب البحر، وتشبه معظم المستشفيات التي شاهدتها في دول العالم الثالث، إذ كانت صغيرة وبناؤها متقوّض، وتحتاج إلى طلاء. وصاح سعدون: «بسرعة، الأطباء ينتظرون».

شرح الطبيب الكويتي متحدّثاً: «عادت معظم الممرضات إلى موطنهن في الهند. كان لدينا (٢٤) ممرضة قبل الثاني من آب، بقي منهن الآن تسع فقط». كنا نمشي في أحد الأجنحة والطبيب يتحدّث، وأضاف: «ورغم الأوقات والظروف الصعبة فما زلنا نعمل ما بوسعنا للعناية بمرضانا». ثم أزاح ستارة ليكشف عن أم ترضع وليدها، وقال: «يمكنك التقاط صورة إن شئت».

قلت: «هل يمكنك سؤالها فيما إذا كانت بصحة جيدة هي ووليدها؟ ربما لا تفضل أن يصوّرها أحد».

وتبادل الطبيب مع المرأة بضعة كلمات، ثم أكّد لي بقوله: «تستطيع التصوير»، فركزت «سايندي» آلة التصوير وصوّرت الأم مع وليدها.

سأل دوغ: «ما هي الأشياء التي تعانون نقصاً فيها؟».

الطبيب: «أكبر مشكلة هي نقص الممرضات المتمرّسات، والحقيقة أن لدينا معدّات وأدوية تكفي لتوفير العلاجات المطلوبة. ونظراً للنقص الحاصل في إعداد الموظفين، فإننا مضطرون لتعديل الإجراءات العلاجية بطريقة ما، ويعني ذلك إخراج الأم الحديثة الولادة من المستشفى بعد يوم من الولادة إذا كانت حالتها الصحية تسمح لها بذلك بدلاً من الانتظار عدة أيام في المستشفى».

قطع سعدون حديث الطبيب وسألني: «هل انتهيت من عملك هنا؟ دعنا نذهب إلى جناح آخر لرؤية معدّات الطوارىء والإسعاف الفوري». شاهدت «سايندي» و«تريسي» تتجولان في الجناح فأجبت سعدون: «نريد التقاط صور أخرى هنا».

الطبيب: «هل تَوَدّ رؤية حالة ولادة تتم الآن؟».

ـ «نعم، سيكون ذلك شيئاً عظيماً».

مشينا عبر الممر ثم تجاوزنا أحد الأركان لنجد أنفسنا أمام بابين كبيرين متحركين، واندفعنا إلى الداخل. قال الطبيب: «هٰذه غرفة الجراحة»، وأشار إلى كومة من الكمامات والعباءات الطّبية وأغطية الأحذية، وجميعها معقّمة، وقال: «يمكنكم وضع هٰذه الأشياء»، ثم دخلنا غرفة العمليات.

الطبيب: «يجري إعداد هٰذه المرأة لإجراء عملية قيصرية»، وأخذ يشرح، ونحن ننظر إلى المرأة الشابة التي بدت أنها في أوائل العشرينات من عمرها.

سألت الطبيب وأنا مزهو بنفسي مثلما يفعل الأب الواثق من نفسه والذي يشهد ولادة طفله في جناح توليد من الدرجة الثالثة: «ستعطيها مادة الإيبيدورال، أليس كذلك؟».

الطبيب: «أجل، هٰذا صحيح».

قالت تريسي فجأة ومن غير تفكير: «آه يا «ويني»، لا أستطيع عمل ذلك».

ـ «هوني عليك، ستعتادين عليه. لا نجاح في الحياة من غير كد ومعاناة».

قال الطبيب مقاطعاً: «إذا تداركك الوقت فبإمكانك رؤية مولود جديد ولد الآن في هٰذه القاعة»، وألقيت نظرة على ساعتي.

دخلنا جميعا إلى الغرفة المجاورة، وأخذت «سايندي» تلتقط الصور حيث وُضع مولود أسمر اللون على كِفّليه ثم وزن بحرص وانتباه، ثم لف بثياب قطنية بيضاء. صحت مفكراً بـ «جيسي» عندما كان طفلاً: «يا إلهي، إني أحب الأطفال».

الطبيب: «باستطاعتنا الذهاب إلى الصيدلية إذا كنت قد انتهيت من التصوير».

سألني سعدون عند خروجنا من جناح العمليات الجراحية والإحباط بادٍ على وجهه: «لماذا أمضيت كل هٰذا الوقت في ذلك المكان. أرجوك يا «روبرت»، ليس أمامنا وقت كافٍ».

أجبته: «أجل، أجل، ولكننا نقوم بأفضل ما نستطيع عمله. يجب أن نرى حاضنات الأطفال ومن ثم نقفل عائدين».

ـ «ولكن يجب أيضاً المرور على الصيدلية وإجراء مقابلة سريعة مع الطبيب هناك»

سعدون مناشداً: «أرجوك يا «روبرت» أن تقوم بها بأسرع ما يمكن، إذ لا نستطيع تفويت موعد طائرة العودة».

بدت الصيدلية عامرة ومليئة بأصناف الدواء، واندهشت بذلك. وتطوّع طبيب الصيدلية بالكلام قائلاً: «كان لدينا إمدادات كبيرة من الدواء قبل الثاني من آب ولكن المشكلة الآن هي الحصول على إمدادات أخرى. إن العقوبات المفروضة على العراق تؤثر علينا تأثيراً مباشراً».

واتجهنا إلى وحدة العناية المركّزة التي كانت عبارة عن غرفة بسيطة لا تتميز عن الغرف الأخرى، وبداخلها حوالي اثنتي عشرة حاضنة بسيطة، منها إثنتان قيد الاستعمال.

انضم إلينا مدير المستشفى وموظفون آخرون فاقترح «دوغ» عندئذ قائلاً: «لنجر المقابلة هنا».

وراجع «دوغ» والطبيب الكويتي بعض النقاط التي تحدثا حولها سابقاً وذلك بغية تسجيل المقابلة، ثم سأله «دوغ» عن المزاعم التي ترددت عن نهب وسلب الحاضنات.

أوضح الطبيب: «لقد سمعت عن هٰذه القصص، ولكني أؤكد لك وبكل أمانة وصدق أنه لم يحدث شيئاً من هٰذا القبيل».

دوغ: «هل تعلم فيما إذا حصل مثل هٰذا الشيء في مستشفيات أخرى؟».

الطبيب: «لا أستطيع التأكد من ذلك لأنني أعمل هنا، بيد أن العراقيين عاملونا بصورة ممتازة في هٰذه المستشفى».

وشاهدت ممرضة هندية فاتجهت نحوها وعرّفتها بنفسي. ثم سألتها عن موضوع الحاضنات فأجابت: «لم يأخذ منا أحد أي شيء».

ثم همست: «ولكننا في خوف دائم».

وسمعت سعدون يتحدث إلى «دوغ» والطاقم: «يجب علينا أن نغادر الآن وإلا فاتتني

الطائرة». وبعد توديع موظفي المستشفى وخروجنا منها.

شرحت لسعدون الوضع قائلاً: «يجب القيام بالتصوير خارج المستشفى من أجل اللقطة الختامية للتقرير، ولن يستغرق ذلك أكثر من دقيقة».

أجاب سعدون بإلحاح وإصرار: «ليس هناك متّسعٌ من الوقت».

قلت: «لا بد من القيام بذلك»، ثم سرت مع «دوغ» على الطريق الفرعي الخاص بالمستشفى والمتصل بالطريق العام وبحيث لم أعد أسمع كلام سعدون.

وسألت «دوغ»: «ما رأيك؟».

دوغ: «لنعمل وفقا لاقتراحك».

وقمنا بإجراء تعديلات بسيطة على نص التقرير المصور، ثم صورنا ثلاثة مشاهد متصلة، وبهذا كان التصوير الخارجي قد سجل على الشريط، اقترب الوقت آنذاك من الثالثة إلا عشرة دقائق بعد الظهر، وأخذ سعدون يحثّ السائق على السير بسرعة أكبر: «بسرعة، بسرعة أكبر»، وانطلقت سيارة الشيفرولية بسرعة كبيرة وهي تتهادى على الطريق السريع.

قلت: «لم آت إلى هنا لكي أموت بسبب حادث سيارة. إذا فاتتنا الطائرة فبإمكاننا العودة الصباح».

وكنا قد تفادينا للتو الاصطدام بسيارة أخرى لم يكن يفصلنا عنها إلا بوصات قليلة.

سعدون: «يجب اللحاق بهذه الطائرة ولا نستطيع البقاء هنا».

ثم أدار المذياع وأخذ يقلّب المفتاح على عدة محطات إذاعية. وسمعت اللحن المميز لشبكة بي. بي. سي فصحت به: «أثبت على هٰذه الإذاعة ودعنا نسمع».

وبعد لحظات سمعت ما لم تصدّقه أذني للوهلة الأولى، فقد جاء في النبأ الرئيسي نقلاً عن وكالة الأنباء العراقية أن فريقاً أخباريا من شبكة سي. إن. إن قد توجه إلى الكويت وأزاح الستار عن أن التقارير التي زعمت قيام الجنود العراقيين بسرقة حاضنات الولادة كانت تقارير عارية عن الصحة تماماً. وسألت سعدون: «ما هٰذا العمل السخيف الذي قمتم به؟»، فهزّ كتفيه غير مبالٍ فصرخت: «إني جادّ فيما أقول. هٰذا عمل أخرق وسخيف».

دوغ: «أشعر باستياء شديد وعدم ارتياح إزاء هٰذا الموضوع برمّته».

وصلنا إلى المطار قبيل دقائق من إقلاع الطائرة. وكانت الطائرة لحسن الحظ ما تزال جاثمة ويجري تحميلها. وشاهدت من النافذة سيارتي غسيل جديدتين، وهما تدخلان السير الناقل إلى جوف الطائرة، وأقلعنا بعد فترة وجيزة في نهاية المطاف.

زعقت في وجه «أنغريد» : «أغلقي الباب، أغلقي الباب. لا أريد رؤية أحد حتى أتصل هاتفياً مع أتلانتا».

أنغريد: «يريد مركز أتلانتا التكلّم مع «دوغ» في أقرب وقت ممكن. إنه أمر لا يصدق!! الكل يتصل بنا هاتفياً. يريد كل شخص إجراء مقابلة، ويطلب نسخة عن شريط الفيديو».

ـ «يا له من شيء مزعج. لم يكن أمامنا إلا أقل من أربعين دقيقة لعمل التقرير على أرض الكويت».

أنغريد: «كم عدد المستشفيات التي زرتموها؟».

ـ «كم عددها؟ كم مستشفى تتوقعين أن نزور خلال أربعين دقيقة؟ إننا لم نزر إلا مستشفاً واحداً!».

أنغريد: «يا الله!!».

ورفعت يد الهاتف وطلبت مكالمة مع أتلانتا. رن الهاتف بعد مدة قصيرة، وتوقعت أن يكون المتحدّث هو عامل المقسم الآلي وإذ به ناجي الذي قال: «سمعت أنك واجهت بعض المتاعب!!».

ـ «ما سمعته صحيح»، وأضفت مطبقاً أسناني بشدّة: «وما هٰذا الذي سمعته في المذياع؟!».

ناجي: «صرّحت وكالة الأنباء العراقية أن فريقاً من شبكة سي. إن. إن قد ذهب إلى الكويت، أليست هٰذه هي الحقيقة؟».

ـ «ليس هٰذا كل ما قالته الوكالة، وأنت تعرف أكثر من ذلك».

ناجي: «حسناً، هل حزت على تقرير إخباري أم لا؟».

ـ «بصراحة، لا أعرف ما الذي حصلنا عليه. لم نحصل على الأشياء التي قلت أنت بنفسك أننا سنحصل عليها: وقت كاف لزيارة العديد من المستشفيات، وأن يفسح المجال لنا لأداء العمل بالشكل المطلوب . . ».

قاطعتني أنغريد: «يطلبك مركز أتلانتا الآن على الهاتف».

ـ «سأكلمك في وقت لاحق يا ناجي. إن شبكة سي. إن. إن تطلبني الآن على الهاتف، وهم يريدون إجراء مقابلة مع «دوغ»».

ناجي: «حسن، ولكن تذكر ما اتفقنا عليه».

وشعرت بشيء من الغرابة حول أسلوبه في التصريح بذلك، وأدركت أنه من الضروري التحقّق مما صرح به.

ـ «لقد اتفقنا على إنجاز تقرير حول المستشفيات، ولن نخرق الاتفاق إذا ما قمنا ببث وتحرير التقرير. يريد مركز أتلانتا أيضاً طرح عدة أسئلة علينا بخصوص ما شاهدناه في الكويت، أي إنطباعات عامة، أو شيء من هٰذا القبيل. لم نلتقط أي صورة بالطبع، بيد أن باستطاعة «دوغ» وصف ما شاهده عن طريق الهاتف».

قال ناجي متظاهراً بالخجل: «وماذا شاهدت أنت؟».

ـ «أنت أعلم. لقد شاهدت حالة وظروف المدينة، والجنود، والسيارات المهجورة، وغير ذلك».

ناجي: «لقد تم نقل أخبار ما شاهدته سابقاً، أليس كذلك يا «روبرت»؟».

ـ «أعتقد أنه تم نقل بعضه، ولكنه لا يزال يستحق الذكر».

ناجي بلجهةٍ محذرة: «ولكن هٰذا يخالف اتفاقنا. لقد سمح لك بزيارة الكويت من أجل تحرير الأخبار حول المستشفيات فقط وليس حول الجنود، وليس حول الظروف السائدة في المدينة، ولا السيارات المهجورة».

ـ «أجل، وما سنحرره للتلفزيون لن يكون إلا حول مسألة المستشفيات، الأمر ببساطة هو مجرد مقابلة هاتفية و . . .».

ناجي: «لنكن جديين من فضلك يا «روبرت»»، وتحوّلت طبيعة صوته لتصبح لهجة غير ودّية، وأضاف: «يمكنك التصرف بما تشاء، وأنا لا أستطيع منعك من التحدث على الهاتف. وأعتقد أن خرق اتفاقنا لن يخدم طلبك الذي قدّمته لنا من أجل إجراء مقابلة مع السيد الرئيس صدام حسين».

ـ «أدرك ذلك إدراكاً عميقاً، سأتصل بك لاحقاً».

لم يكن ما قاله تهديداً مباشراً وإنما رسالة واضحة كل الوضوح ومخفية.

سألني إيسون بإلحاح: «كم الوقت الذي تحتاجه حتى تمكن «دوغ» من التحدث عبر الهاتف؟».

ـ «لا أستطيع إنجاز ذلك الآن. لم تكن الرحلة حقيرة وجوفاء فقط، بل الأوهن من ذلك أننا لا نستطيع التحدث إلّا حول المستشفى الوحيد الذي زرناه».

انفجر إيسون غاضباً: «ما الذي تقوله؟ ألم تشاهد القوات العراقية هناك، والرهائن، وأي شيء آخر؟!».

ـ «لقد شاهدنا الكثير من الأمور التي تستحق الذِّكر وتصلح للأخبار، ولكن ناجي يقول إن ذكرها هو انتهاك للاتفاق الذي أبرمناه معه. وكما أخبرتك أنت و«إيرل»، لقد كنّا مقيدين بزيارة المستشفى و...».

قاطعني إيسون: «لم تخبرني بذلك أبداً».

ـ «بلى، لقد أخبرتك، بالطبع...».

إيسون: «كلا، لم تخبرني، خذ تحدث مع «إيرل»، يجب أن أكلم «إدْ»».

ولم أسمع أو أرى «إيسون» على هٰذه الصورة من الغضب سابقاً.

قال «إيرل» بهدوء: «أرى أنك مررت بيوم سيء جداً يا «روبرت»».

أجبت: «بل أكثر من سيء. أنصت يا «إيرل»: أتذكر جيداً أنني أخبرتك و«إيسون» عن شروط الرحلة إلى الكويت والاتفاق مع ناجي».

أجاب إيرل بنزاهة: «لقد أخبرتنا بالتأكيد، بيد أني أعتقد أن «إيسون» قد تكوَّن لديه انطباع بأن تلك الشروط تنطبق على عمل «دوغ» هناك، وليس على إجراء مكالمة معه».

ـ «كلا، إن الشروط تنطبق على كلّ شي».

قاطعني إيسون: «يريد «إدْ» معرفة ما قد ينتج إذا ما أجرينا المقابلة على الهاتف».

أجبته: «قل له إنهم سيضطروننا إلى مغادرة العراق نهائياً».

إيسون: «يا لها من فوضى. إبْقَ على الهاتف يا «روبرت»».

ـ «يا إلهي. إنهم لا يدفعون لي يا «إيرل» ما أستحقه فعلاً مقابل ما أتعرض إليه من مشاكل وصعاب».

عاد إيسون مرّة أخرى وسألني بأدب واقتضاب: «متى سيكون تقرير «دوغ» جاهزاً للنشر؟».

أجبته بهدوء وأنا مدرك تمام الإدراك أن ما سأقوله لن يعجبه: «حسناً، الحقيقة أنني و«دوغ» نواجه مشكلة في هٰذا الخصوص. نشعر نحن الإثنان أنه ليس باستطاعتنا إعداد تقرير شامل ومفصل بالاعتماد على زيارة إلى مستشفى واحد لم تدم إلا أربعين دقيقة».

إيسون: «ماذا تعني بهذا الكلام؟ لقد ظننت أن العراقيين أخذوك في جولة و...».

قاطعته بقولي: «هٰذا لم يحدث مطلقاً، لأنهم غيروا برنامج الرحلة».

قال إيسون بامتعاض: «انتظر على الهاتف»، وبعد برهة سمعت صوت «إدْ» على الهاتف.

إدْ: ما هي المشكلة يا «روبرت»؟».

ـ «المشكلة هي أننا لا نعتقد أن لدينا تقريراً وافياً، ويعتمد على الوقت القليل المحدود الذي أمضيناه في الكويت. أعتقد أنه من الأفضل الطلب من ناجي العودة غداً إلى الكويت إن كانت الفرصة مواتية وإنجاز ما اتفقنا عليه وخططناه أصلاً».

إدْ: «لا مانع عندي من عودتك غداً، ولكني ما زلت راغباً في الحصول على الأشياء التي توصلتم إليها اليوم. إن كان العراقيون قد اصطحبوك إلى مستشفى واحد فقط فأخبرنا بذلك، لم لا؟ أنا متأكد أنك و «دوغ» تعرفان ما يجب عمله».

ـ «ولكن يا «إدْ» . . » ثم قاطع كلامي.

إدْ: «كفى، هٰذا كل شيء. عليك فقط القيام بواجبك، ثم إن هناك أمراً آخر: أخبر ناجي ما سأقوله لك: من دواعي سرور شبكة سي. إن. إن أن تذهب إلى أي مكان يريده العراقيون ويطلبون منا الذهاب إليه، ولكننا سنحتفظ في المستقبل بحقنا في نقل والتحدث بكل ما تقع عليه عيوننا، وبغضِّ النظر عن حقيقة أنه ليس مسموح لنا بالتقاط الصور أياً كانت. يجب أن تخبر ناجي أن هٰذه هي شروطنا الأساسية في التعامل معهم. وداعاً يا «روبرت»».

إيسون: «أنا «إيسون» يا «روبرت». بإمكانك عمل نسخة عن الصور المرافقة للتقرير وإعطاؤها إلى شبكة آي. تي. إن فقط لا غير، أما الآخرون ممن لهم علاقة معنا فبإمكانهم تسجيل ما يريدون عندما نبث التقرير إلى محطات التلفزيون».

اضطر «دوغ» والحالة هٰذه إلى كتابة أفضل نص يستطيعه. وقد أسعفتنا خاتمة شريط الفيديو، حيث صورنا المستشفى ونحن وقوف من الخارج وأبقت مصداقيتنا سليمة من دون أذى بالنسبة لنبأ المستشفى، ولكن ليس إلى درجة كبيرة. وقد رفضنا إجراء أي مقابلة حول رحلتنا إلى الكويت، وزود «دوغ» شبكة آي. بي. إن بمقطع صوتي موجز عن الرحلة وكانت النتيجة أننا ظهرنا في أعين الصحافة الغربية على أننا متعاونون مع العراق وأن العراق يستغلنا.

وراجعت هٰذه المسألة مع «إيسون» في اليوم التالي قبل ذهابي للاجتماع مع ناجي.

وقال إيسون وآثار الغضب لا زالت بادية على وجهه: «ليكن في علمك أنه كان أسوأ يوم في تاريخ الشبكة، والمرة الوحيدة خلال عشر سنوات التي يظهر خلالها مراسل صحفي غير قادر على نقل ما شاهده بأم عينيه».

فأجبته موافقاً: «أجل، ذلك شيء مفخر حقاً. ولكن لنكن صادقين وصريحين. لو تم استدعاء أية مؤسسة إخبارية أخرى وعُرض عليها القيام برحلة إلى الكويت تحت نفس الشروط لقبلت وما

ترددت في الذهاب. أنا وأنت نعرف ذلك حق المعرفة. وأؤكد من دون شك أن أي صحفي آخر كان سيخرق القواعد الأساسية لعمله هنا مع العراقيين، ولا يلقي لها بالاً لقاء نشر ما شاهده. ربما كان من الواجب أن نقوم نحن بذلك أيضاً وننتهك القواعد، ولكن لا يجب حدوث ذلك إلا إذا كان الموضوع هاماً ويستحق المجازفة. إننا نريد الحصول على الامتياز بمقابلة الرئيس صدام حسين، وهٰذا ما يدفعنا إلى مسايرة ومجاملة العراقيين».

بعد فترة من اجتماعي مع ناجي، قلت له: «سنكون سعداء بالذهاب إلى أي مكان ولكن سنحتفظ بحق نشر ما نراه سواء أكان معنا آلات تصوير أم لم يكن».

ناجي: «إن تقرير «دوغ جيمس» يلمح إلى أنه لا يعرف صحة ما قيل له».

ـ «لم نزر إلا مستشفى واحداً، والطبيب لم يكن بمقدوره معرفة ما إذا قد حصل شيء في المرافق الأخرى».

ناجي: «لا أوافق على هٰذا. إنك لا تنقل الحقيقة لأن شبكة سي. إن. إن لا تريد قول الحقيقة. نحن نعلم أن وزارة الخارجية الأمريكية هي التي تدير شبكة الـ سي. إن. إن».

ـ «هٰذا كلام فارغ، هٰذا هراء وأنت تعرف ذلك»، وصحت بوجهه: «لقد لامني وَعَنَّفَني المسؤولون في الشبكة أولاً، ثم ها أنت الآن بدورك تلومني وتعفّني. ماذا أشبه أنا؟ هل أبدو مثل سندان حداد؟».

انفجر ناجي ضاحكاً وقال: «إهدأ يا «روبرت» إهدأ. أنا أعرف أنك لا تعمل لصالح وزارة الخارجية الأمريكية، ولكن وبصراحة هناك أشخاص يعملون في الـ سي. إن. إن ويرون أن ما تنقله من أخبار وتقارير يجب أن يعكس سياسة واشنطن..».

ـ «مع احترامي لك فإنك تجانب الصواب كثيراً. لا تعمل الشبكة بهذا الأسلوب مطلقاً».

ناجي: «لا ينبغي أن نكون سذّجاً ومغفلين. تستخدم جميع الدول الصحافة بطريقة أو بأخرى».

قاطعته محتجّاً: «لا نتحدث نحن في هٰذا الموضوع. لقد اعتادت صحافتكم على خدمة توجهات الحكومة، أما صحافتنا فهي تسألها وتقاضيها. وهٰذا اختلاف جوهري بين نظامي الحكم عندنا وعندكم».

ناجي: «حسن. سأتابع طلبك للعودة إلى الكويت مرة أخرى، ولكني أعتقد صراحة أن دائرة الاستخبارات لن تقبل بشروطك التي تطرحها».

ـ «ليكن ما يكن ما دمنا نفهم بعضنا بعضاً».

عرض التلفزيون العراقي بعد أيام قلائل شريطاً وثائقياً عن المستشفيات في محافظته التاسعة عشرة. وكذّب الشريط المزاعم التي راجت حول سرقة الحاضنات وترك الأطفال الكويتيين حديثي الولادة يموتون. واحتوى الشريط على مقابلات مع العديد من الأطباء، ولكن الطبيب الكويتي لم يكن من بينهم. وذكر المراسل «مارك دولماج» العامل مع شبكة سي. إن. إن في تقرير له من مدينة الكويت في الرابع من شهر آذار/ ١٩٩١، أن ذلك الطبيب قد تمّ إعدامه بحجة ما ورد في تقرير «دوغ» سابقاً.

١٢

أخبرني جون فيجنر صباحاً في مكالمة هاتفية من أتلانتا: «أنه من الواضح أن العراق سيمنح تأشيرات لعدد من النساء البريطانيات من أجل زيارة أزواجهن في العراق. سنحاول جعل مكتب الشبكة في لندن يزوّدكم بمواعيد الجداول الزمنية الرئيسة لهذه الزيارات. أنا متأكد أننا نرغب في تغطية مناسبة اجتماع الشمل هٰذه إن كانت الفرصة متاحة».

أجبته بمرارة: «أنا متأكد أنك ستحصل على التغطية المطلوبة. لقد ظننت أنك قاسيت بما فيه الكفاية بعد تغطية موضوع «ناديا كومانشي»».

ضحك جون قائلاً: «ناديا، هي تسمعينني يا ناديا؟!!».

لم تكن قضية «نـاديا كومـانشي» بطلة رومـانيا السابقة في رياضة الجمباز من بين أعمالي الناجحة خلال مهنتي التي تعرّضت لتقلبات متواصلة، فقد قمت بتغطية اجتماع الشمل في مدينة نيويورك بين ناديا وأمها وأختها وشقيق صديقها وعشيقها آنذاك في رومانيا، حيث كانوا في مدينة بخارست. والحقيقة أن سوء ما حدث في رحلة الكويت قد أثار الماضي وما حدث لي في بخارست.

اصطحبت فريق الـ سي. إن. إن (السيرك الطائر بقيادة الكابتن «واكي») إلى بخارست بهدف تغطية الثورة هناك. وقد خاطر الفريق بحياته ليصل إلى هناك، وواجه نيران المجموعات المتصارعة عند أكثر من نقطة تفتيش، وعمل على مدار اليوم بأكمله مثل العفاريت والجان في سبيل مواكبة الأحداث المتصارعة آنذاك.

اتصل بي إيسون وقال: «لقد قرأت للتو بياناً سينشر لاحقاً بخصوص «ناديا كومانشي». وهي لا تعرف أي شيء عن مصير عائلتها منذ أن بدأت الثورة في رومانيا. كنت أدرس فكرة البحث عنهم

ثم إحضـارهم إلى الفندق، وتصويرهم تصويراً حياً ومباشراً على الهواء، حيث نحضر ناديا إلى مكتب نيويورك لرؤية أسرتها والتحدث معها مباشرة، وبذلك يجتمع الشمل. أليست فكرة رائعة؟! ستـولد هٰذه القصة كثيراً من الكتابات الجيدة المعدّة للصحافة. أنا متأكد أنها ستزيد من شعبية وشهرة شبكة الـ سي. إن. إن».

قلّبت النظر في هٰذه الفكرة. كنا قد وضعنا قائمة طويلة بالأخبار الحقيقية التي توجب علينا تغـطيتهـا في الصبـاح. إضـافـة إلى ذلـك، فإن مشروعاً مثل ذلك كان سينزف الرجال والمواد والمعـدات. ومن ناحية أخـرى، كانت «نـاديا كومـانشي» من البطلات الأولمبيات الأمريكيات المفضلات، وجنباً إلى جنب مع «أولغا كوربت» و«ماري لبو ريتون». وتساءلت في نفسي: أليس هٰذا هو الواقع؟! نعم إن ناديا هي كذلك. لقد كان «إيسون» على صواب، وستكون القصة إنجازاً تلفزيونياً عظيماً جداً.

أجبته بحماس منقطع النظير: «حسنٌ. لنبدأ تنفيذ المشروع، اتصل بها واحصل على بعض العناوين وأرقام الهواتف و. . .».

قاطعني إيسون: «هٰذه متعة وجمال العمل. لقد حصلت على ما تقول للتو من وكيل أعمالها».

دوَّنت العناوين وأرقام الهواتف بسرعة ثم قلت له: «اتصل بالعائلة وأودعها الفندق وهدّىء من روعهـا وخـوفهـا. أقفل عليهم الغرفة وقدّم لهم طعاما إن كان ذلك ضروريا. لدّي إحساس أن الشبكات الإخبارية التلفزيونية الأخرى ستسعى للبحث عنهم، وأنا أريد لشبكة الـ سي. إن. إن أن تحظى بمفردها بهذه القصة وتحرز قصب السبق دون منازع».

أيقظت رجلنا المراوغ والواسع الحيلة واسمة «فلاديمير» ثم زوّدته بالتفاصيل المتوفرة والعناوين وقلت له: «اصـطحب أحد السائقين وقم بالترتيبات الضرورية منذ الآن. لا يوجد أرقام هواتف تخص هٰذه العناوين فيجب البحث عنها بنفسك، وأخبر العائلة أنا سنأخذهم معنا غداً في الساعة العاشرة ثم أحضرهم إلى هنا. أرجوك أن تطلب منهم عدم التحدث مع أي شخص كان».

وعاد فلاديمير في الرابعة ليلاً ليقول لي: «لقد جعلت الأم تصاب بذعرٍ شديدٍ، فقد ظنت أن من يقرع بابها في منتصف الليل لا بد أن يكون من رجال الأمن السّرّي. إن وضعهم على ما يرام».

بحلول الساعة الحادية عشرة صباحاً كانت والدة ناديا وأختها وأخو عشيقها يتناولون تشكيلة طعام مؤلفة من لحوم باردة وسلطة، وكانوا يمضغون بصوت طاحن وبسعادة غامرة، لأنه كان بالتأكيد أفضل طعام شاهدوه منذ فترة ليست بالقصيرة.

كان «بلي» في هٰذه الأثناء منزعجاً، ليس فقط لأني ألغيت جولته المصورة المقررة، بل أيضاً لأني استخدمت طاقم فريقه والمخرج من أجل إنجاز المقابلة.

واشتكى بلي إليّ قائلاً: «كفى يا كابتن، أنت تعلم أن هٰذه ليست أخباراً».
فصحت بصوت مرتفع: «اللعنة على الأخبار. يمكن الانتظار ساعات قليلة لكي نحصل على الأخبار»، ونظر إليّ «بلي» وكأني قد فقدت عقلي إذ لم أستطع السيطرة على غضبي الشديد.

فشلت عملية بث المقابلة حيّة على الهواء فشلاً ذريعاً. كانت شبكة سي. إن. إن قد استخدمت مترجماً فورياً، لأنه لا يوجد في بخارست من يتكلم الإنجليزية، ولكن نظراً للمشاكل الفنية والتأخير القصير الذي يحدث دوماً عند إجراء مقابلة مع أحدهم عبر الأقمار الصناعية مباشرة، لم يكن اجتماع الشمل الذي حشدت له سي. إن. إن إمكانياتها واهتمت به إلا عبارة عن جملة أخذت ناديا ترددها سائلة أمها وأختها وشقيق عشيقها: «مرحباً، هل تسمعونني؟»، ثم ترد عليها عائلتها من بخارست بالجواب المتكرر التالي: «ناديا، مرحباً. هل أنت هناك يا ناديا؟».

لم يظهر في الصحافة ما كان متوقعاً من مقالات عن تلك المقابلة المتميزة مع «ناديا كومانشي»، اللّهم إلا خبراً موجزاً كتب في جريدة «يو إس إيْه توداي»، وبدلاً من ذلك، أحدثت المقابلة عاصفة من الضحك، ناهيك عن سخرية زملائي وهزئهم بي حيث أطلقوا عليّ لقب «بارنوم بخارست»(*). ومنذ ذلك الحين وأنا أصاب بطفح جلدي يسبب حكّاً شديداً كلما ذكر أحدهم أمامي عبارة «اجتماع الشمل».

أعلمت «فيجنر» أنه إذا لم يتصل بنا أحد من دائرة لندن فسيكون ذلك أمراً مريحاً لي، وسيوفر عليّ العناء والجهد، ثم دوّنت بعض رؤوس أقلام الأخبار التي سردها عليّ.
فيجنر: «هناك مجموعة تسمّي نفسها (جماعة الأطباء الدولية لمنع الحرب النووية) وتقول إنه إذا أسقطت على بغداد قنبلة نووية قوّتها ميغا طن واحد فقط فسيلقي (٢,٧) مليون نسمة حتفهم مباشرة ويتأذّى (١,٣) مليون نسمة».
قلت مازحاً:

- «إني مسرور لسماع ذلك. هل لديك أخبار أخرى تبهجني بها؟!».
فيجنر: «أحسبك تتابع عن كثب ما تسرب إلى إحدى الصحف عن خطة الحرب الخاطفة التي تتألف من أربعة مراحل وتنفّذ خلال أربعة أيام؟».

- «لقد تحدّث عنها أحد الأشخاص هنا ولكن لا أعرف تفاصيلها».

فيجنر: «حسناً، سأذكرها لك. تستغرق المرحلة الأولى ست ساعات، تقوم خلالها قوات التحالف الدولي بتدمير سلاح الجو العراقي تدميراً كاملاً مع قواعد الصواريخ كلها. وتدوم المرحلة الثانية أربعاً وعشرين ساعة، حيث تدمر المنشآت الصناعية العسكرية ومجمعاتها إضافة إلى تدمير

ثمـاني غرف محصنة تحت الأرض في إحدى ضواحي بغداد حيث يختبىء فيها الرئيس صدام حسين، وستقطع الطريق السريع من البصرة وحتى الكويت. أما المرحلة الثالثة فستكون عملية هجـومية لفصل الكويت عن العراق، حيث ستشكل القوات المرتدية قلنسوات خضراء مستديرة والقوات البحرية الأمريكية رأس رمح في الهجوم. والمرحلة الرابعة هي تحرير الكويت حيث ستقوم بهذه المهمة القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية. وستدعى القوات المصرية والسورية والمغربية لتطهير الكويت من بقايا فلول الجيش العراقي».

سألته بارتياب: «ومن المفروض أن يحدث هٰذا في أربعة أيام؟».

قال مُسَلِّماً: «نعم، يبدو ذلك لي أيضاً أنه أمر غير واقعي».

- «لنعد إلى الواقع إذن، سيصل بغداد «إدوارد هيث» وسنغطي قدومه الوشيك بالتأكيد. إذا كان بمقدور «كات ستيفن» [المغني البريطاني الذي أسلم وغير إسمه إلى يوسف إسلام] أن يأخذ معـه أربعة رهائن، فتصوّر عدد الرهائن الذين يمكن لرئيس الوزراء البريطاني السابق أن يطلق سراحهم ويأخذهم معه».

ضحك فيجنر: «سيكون ذلك استعراضاً جانبياً جيداً في بغداد».

هٰذا ما حدث بالفعل، إذ بدأ العديد من الأشخاص يقدمون إلى بغداد ليدلي كل منهم بدلوه في قضية الـرهـائن، ويحـاول إطـلاق سراح ما أمكنه منهم، ابتداءً من دعاة السلام المستقلين والغريبي الأطوار ووصولاً إلى منظمة قوية ومعارضة للحرب جاءت من الولايات المتحدة الأمريكية وتدعى (منظمة إنهاء النزاعات). وقد جاء من اليابان مصارع مشهور وجاء من السويد ومن فنلندا مسؤولون وأعضاء من البرلمان، ومن فرنسا جاء أبله أثيم يدعى «ميشيل سارجنت» زعم أنه المتطوع الوحيد في العالم الذي يقبل أن يكون رهينة بمحض إرادته، وكان مستعداً، لا بل متلهفاً لوضعه في إحدى المنشآت الاستراتيجية، إذا كان ذلك يؤدي في النهاية إلى إطلاق سبيل الرعايا الفرنسيين الآخـرين. وصـرح لي بعد ظهر أحد الأيام ذاكراً: «أرجوك يا سيدي أن تدرك أني لست معادياً للسـامية. إن وسـائـل الإعـلام هي التي أوجـدت هٰذه الأزمـة برمتهـا، وبالطبع فإن اليهود هم المسيطرون على وسائل الإعلام».

أنشأت الحكومة العراقية مكتب ارتباط أطلقت عليه اسم (منظمة السلام والصداقة والتضامن) بغية تنسيق النشاطات مع الجماعات المتعددة والأفراد الذين قدموا العراق، إلا أن برنامج العمل لم يختلف كثيراً، فإذا أردت اصطحاب رهينة معك والعودة بها إلى أرض الوطن، فيتوجب أن تشق طريقك من أعلى المستويات الرسمية، من عند المتحدث باسم الجمعية العمومية في منظمة الأمم المتحدة، ثم تصل إلى وزير الخارجية، ومنه إلى نائب رئيس الوزراء، وأخيراً إلى الرئيس صدام

حسين حيث سيقبل طلبك على الأرجح، هٰذا إن استطعت الوصول وقطع ذلك الشوط الطويل. كان التلفزيون العراقي يبث يومياً صوراً عن هٰذه اللقاءات، حيث كان المتوسلون الأجانب يعقدون لقاءاتهم ويقومون بجولاتهم المتفق عليها.

ظهر السيد مازن على نحو غير متوقع قبل يوم واحد من وصول «بيرني» إلى بغداد. كنت سعيداً حقاً برؤيته. وبالرغم من تحسن أداء ناصر لعمله منذ آخر مرة أخذته فيها ووبّخته على تقصيره، غير أن أداءه ذلك بقي غريباً وغير طبيعي كأقل ما يقال فيه.

بيّن لي مازن قائلاً: «أنا هنا لمساعدتك فيما تريد. أعتقد أن لديك مقابلة هامة في القريب العاجل».

ـ «هٰذا صحيح. أين كنت متوارياً عن الأنظار؟».

مازن: «لماذا تعتقد أني متوارٍ عن الأنظار؟ إني أعمل داخل الوزارة، وعندما علمت بقدوم «بيرنارد شو» إلى بغداد بهدف إجراء مقابلة مع الرئيس صدام حسين، قلت في نفسي إنه ربما يكون بمقدوري مساعدة صديقي القديم «روبرت»». وطلبت من مازن الذهاب معي إلى المطار لانتظار وصول طائرة «بيرني».

قلت مستفسراً: «ربما باستطاعتك مساعدة «بيرنارد شو» في تجاوز الإجراءات الجمركية الطويلة والمتعبة وذلك عن طريق التعاون مع زملائك العاملين في الجمارك».

وأكّد لي مازن قائلاً: «سأبذل كل جهدي». ثم اتفقنا على الالتقاء صباح اليوم التالي.

ألقينا سوياً نظرة على لوحة الطائرات القادمة، وقال مازن بصوت مرتعش: «آه، أنت تفهم الوضع، أنت في بغداد منذ وقت طويل، يجب أن تعلم . . أن طائرة السيد «شو» متأخرة عن موعدها».

ضحكت مجيباً: «لم تتأخر سوى ساعة واحدة، وهٰذا يعتبر موعداً دقيقاً بالنسبة لهذا المطار».

مازن: «لنمش قليلاً»، وقادني إلى مكان صغير عند أقصى طرف شاشة العرض الكبيرة يقدم مشروبات ووجبات خفيفة، وأضاف: «يسرني أن أقدم لك فنجاناً من القهوة»، ولكن لسوء الحظ كان المقصف الصغير مغلقاً. والحق يقال أنني لم أشاهد هٰذا المكان مفتوحاً أبداً خلال أربعة عشرة مرّة جئت فيها إلى مطار صدام الدولي، وعدنا أدراجنا إلى طريق الصالة المقابل، ثم قال مازن: «إذا كان من المفترض أن أساعد السيد «شو» حين وصوله فيجب أن أعرف شكله لكي أستطيع تمييزه».

ـ «سيكون «بيرني» على الأرجح هو الصحفي الوحيد الذي يرتدي معطفاً وربطة عنق، وهو في أواخر الأربعينات من عمره، متوسط الطول، وله شارب، وهو أسود البشرة».

قال مازن بصوت عال: «أسود البشرة!! أعتقد أن هٰذا شيء غير عادي بالنسبة للصحافيين الأمريكيين».

أجبت موافقاً: «إنه كذلك، لسوء الحظ، بالنسبة لرجل أسود مثل «بيرنارد» يا صديقي، لا يقتصر وجود الظلم والضغينة على ذلك الجزء من عالمنا الذي تعيش أنت فيه».

ما إن حطّت طائرة «بيرني» على مدرج الهبوط حتى اختفى مازن في صالة القادمين، ومضت ساعتان تقريبا قبل أن يظهر بصحبة «بيرني» من خلال الأبواب ذات الزجاج السميك.

ألقيت التحية على «بيرني» قائلاً: «تبدو متعباً، كيف كانت الرحلة؟».

أجاب بيرني بوهن: «كانت جيدة منذ إقلاع الطائرة، غير أن الإجراءات الرسمية هنا تستغرق وقتاً طويلاً».

ـ «من حسن حظك أن لديك السيد مازن الذي قام بتسهيل واختصار الطريق أمامك. تأكد تماماً أن الأمر في الواقع أسوأ بكثير مما عانيته».

وضعنا حقائب «بيرني» في صندوق سيارة الهوندا، ثم قدّم «بيرني» نفسه إلى السائق جاسم.

قلت بوقار: «هٰذا هو السيد جاسم تماماً مثلما أنا السيد «روبرت»».

قاطعني مازن قائلاً بأسلوب متبجج: «سيكون «بيرني» على ما يرام، ونعم الصديق لكم».

وبعد انطلاقنا بالسيارة قلت: «لم أخطّط شيئاً للقيام به خلال بقية هٰذا اليوم. لقد رجحت ان الراحة والاسترخاء ستغضبانك، سنلتقي غداً مع «جو ويلسون» في السفارة بغية حديث خاص، وقد رتبت أيضاً اجتماعاً مع ناجي الحديثي ونزار حمدون».

استغرق بيرني في التأمل وهو ينظر عبر نافذة السيارة وقال: «آه، نزار. لا بد أنه الآن يعاني من ضغط شديد في عمله. كيف حاله؟».

ـ «تتعاقب عليه الأيام بأفراحها وأتراحها، فحيناً تراه مبتهجاً وحيناً تراه مكتئباً. هٰذا المكان يشبه سكة الحديد الملتوية والمنخفضة في مدينة الملاهي».

بيرني: «أجل. هٰذا ما أستطيع تصديقه يا أخي، هٰذا ما ألمسه».

أتممنا إجراءات دخول الفندق بأقل جلبة وضوضاء ممكنة، ولكن ما إن لمح رجال في شبكة سي. بي. إس «بيرني» في الردهة حتى انتشر خبر مفاده: ستجري شبكة سي. إن. إن لقاءً مع الرئيس صدام حسين. لقد قلّبوا الأمر، ما هو الشيء الآخر الذي يدفع رجل سي. إن. إن الرئيسي والأول في واشنطن إلى القدوم إلى بغداد؟ لقد كان ظنهم في محله. وخلال سويعات علمت

الشبكات التلفزيونية الأخرى بالأمر، فأخبرت كل منها مكتبها الرئيسي انطلاقاً من الالتزام والشعور بالواجب.

شرحت القضية لـ «إيسون» قائلاً: «لا توجد طريقة لإبقاء الأمر سراً. إن «بيرني» شخص مرئي ومعروف، ولا يحتاج الأمر إلى تفكير كثير لاستنتاج سبب وجوده في بغداد». والتقيت «بيرني» في وقت لاحق فصرّحت له: «لا أعرف ماذا كان «إيسون» يتوقع منّي أن أفعله؟ هل توقّع أن أضع غطاءً على رأسك يا «بيرني» ثم أحضرك من المدخل المخصص للخدمات؟ المسألة هي أنك لا تستطيع الاحتفاظ بأسرارك في هٰذه المدينة».

بيرني: «لا تلق بالاً لهذه المسألة. على أية حال، سأبقى ملازماً لمكتبي، فذلك يوفر عليّ عناء الإجابة عن كثير من أسئلة زملائنا».

ظهرت «أنغريد» فجأة لتسأل عن الرئيس الجديد لشبكة سي. إن. إن: «كيف هو «توم جونسون»؟ لم يسبق لأحدنا أن تحدث معه!!».

انحنى «بيرني» ليخرج علبة السجائر التي حشرها داخل جوربه وفوق الكاحل مباشرة، وهي عادة تعوّد عليها منذ أن كان من جنود البحرية الأمريكية، ثم ترنّم قائلاً: ««توم جونسون» هو الرجل المناسب الذي أتى في الوقت المناسب ليدير هٰذه الشبكة»، وأخذ مجّة من سيجارته وأضاف: «لا.. إنه واقعي في عمله الصحفي والأخبار التي يأتي بها، ومتمرّس في عمله، وله صِلات ممتازة ومهارات عالية. وبالمناسبة، لقد طلب منيّ نقل تهانيه لكم على ما أنجزتموه مؤخراً، ويريد معرفة ما إذا كان هناك شيء ما ليساعدكم فيه».

ضحكت أنغريد معلّقة: «يستطيع البدء بموضوع العلاوة اليومية المخصصة لنفقات المعيشة».

بيرني: «لا أفهم ما تقولين؟!».

قاطعته على الفور قائلاً: «لا تشغل بالك، إنها مسألة صغيرة حساسة ومؤلمة».

كانت تلك المسألة في الواقع أكثر من مجرد مسألة بسيطة. تدفع شبكة سي. إن. إن لموظفيها مخصّصات مالية لقاء ما ينفقونه على الطعام أثناء أسفارهم، مثلها مثل باقي الشبكات التلفزيونية الأخرى. ومقدار المخصصات هي (٤٥) دولاراً يومياً لكل موظف يعمل في أي بلد كان خارج الولايات المتحدة الأمريكية. والمبلغ هو نفسه لا يتغيّر سواء أكنت في براغ أو جوهانسبرغ أو عَمان حيث يكفيك (٤٥) دولاراً لشراء ثلاث وجبات غذائية يومياً، أو كنت في باريس أو برلين أو جنيف حيث لا يكفيك المبلغ المذكور لتناول طعامك اليومي. كانت بغداد بطبيعة الحال مدينة العيش فيها مكلف والأسعار مرتفعة، ومكلفة إلى درجة أن مسؤولي السي. إن. إن كانوا ـ واستناداً إلى

نصيحة قدمتها لهم ـ يشدون الأحزمة ويضيقون عليها في جميع المجالات. كان تصرّف الشبكة إزاء تلك الكلفة الباهظة تصرّفاً عادلاً وحكيماً، ولكنه كان من العدل أيضاً والإنصاف أن تلغي الشبكة موضوع علاوة المعيشة أو تزيد المخصصات في حالة استمرارها دفع تكاليف الطعام. كان هٰذا أمراً منطقياً لا يقبل الجدل.

عندما يتم الاتفاق مع شبكة سي. إن. إن على إعداد مكان للعمل في عَمان، فإن الفندق يقدّم إيصالاً بوجبة طعام مجانية، ثم يحصل العاملون فوق هٰذا على علاوة المعيشة، أي يحصلون على (٦٣٠) دولاراً إضافياً كل أسبوعين كمصروف جيب. لم يكن العاملون في بغداد يحسدون العاملين في عَمان على مبلغ إضافيّ بسيط يحصلونه، ولكن ما أغاظ وأزعج البعض هنا أنه بالرغم من تطوّعهم بالذهاب إلى بغداد وتعريض حياتهم للخطر، فإنهم علاوة على ذلك يخسرون ما لهم ويدفعون من جيبهم. لقد ناقشت هٰذا الموضوع مراراً مع «إيسون»، ولم يرغب أحد منا نحن الإثنين في حرمان ومعاقبة طاقم الـ سي. إن. إن في عَمان حيث يقدّم الفندق وصل وجبة مجانية تقبض ثمنه لتأكل في مكان أفضل غير الفندق، إلا أننا وصلنا إلى طريق مسدود في محاولتنا لتحسين وضع العاملين في بغداد.

هز «بيرني» رأسه وسأل بارتياب: «وكل ذلك من أجل (٤٥) دولاراً يومياً؟ يا له من تحول تعِيس!! سأكلّم «توم» بخصوص هٰذا الأمر».

أضاف «جو ويلسون» عند انتهاء اجتماعنا به: «أريد التذكير بمعلومة هامة وهي أن صدّام يميل إلى إبقاء يده متدلّية إلى الأسفل عندما تتقدّم أنت لمصافحته»، ووقف «ويلسون» مادّاً يده اليمنى على طولها من تحت الخصر تماماً. وأضاف: «لا تدرك أن هناك شيئاً غير عاديّ لأن صدام فارع الطول، ولكن ما يقوم به فعلاً هو إجبارك على إمالة وحني رأسك فتظهر كأنك تنحني أمامه. لقد تمّ تحذيري من هٰذه المسألة قبل أول لقاء معه، وقررت أن أمنع حدوث ذلك. كان أسوأ شيء مَرَّ بي هو عندما شاهدت نفسي على شاشة التلفزيون العراقي في تلك الليلة، إذ ارتكبت ما حذرت نفسي منه هكذا رغماً عنّي. لقد ظهرت وكأني أنحني له عند مصافحته وهَزّ يدي بيده».

قال بيرني مبتسماً: «سأتذكّر هٰذه النقطة ما وسعني»، تابع «بيرني»: «حسناً، في المرة الثانية التي قابلته فيها. قمت بإمالة رأسي إلى الوراء ومدَدت يدي فقط. دعني أخبرك الحقيقة: لم أعرف عندئذ ما إذا كنت سأصافح يده أم أني سأمسك بجسده».

قلت مخمّناً: «أعتقد أن ذلك خرق كبير لأعراف الاستقبال والتحية».

ضحك جو قائلاً: «أجل، إنه خرق كبير قمت به».

نهض ناجي من وراء طاولة مكتبه لأداء تحيته المعتادة وقال في لهجة عاطفية: «أهلاً وسهلاً

بالسيد «شو» في في بغداد، اسمح لي أن أقدم لك كوباً من الشاي».

كنت قد أعطيت «بيرني» معلومات كاملة عن ناجي، بما فيها قصة «حَلَمَةُ الثّدي» المشهورة. وقلت له: «إنه في الحقيقة ممتاز ومثابر على عمله، أعتقد أنك ستجده رائعاً ومدهشاً». وناقش الإثنان موضوع سفر «شو» إلى العراق، والمقابلة الوشيكة مع صدام، والتظاهرات والاحتجاجات الرافضة للحرب والتي انتشرت في الولايات المتحدة، والمناقشة الجارية آنذاك في الكونغرس الأمريكي. وبدا أن ناجي أخذ يلمّح أن الرئيس «بوش» لم يحظ بالدعم الكافي ولا بالقوة الكافية التي تلزمه لإصدار قرار بشن الحرب.

وأجاب بيرني بصراحة: «أنا لن أقلّل من شأن تصميم وعزم الرئيس «بوش» ولا من شأن عزم الحلفاء الذين يساندوه».

سأل ناجي وكأنه مستمتع بهذا الجدال الشفهي الحسّاس: «هل ستكون هناك حرب إذن؟!».

نظر بيرني مباشرة إلى عيني ناجي ثم قال بصوته الخفيض الذي ميّز تعليقاته منذ بداية الحوار: «إن عيناي ليستا من الكريستال»، ثم أخذ رشفة من فنجان الشاي الممزوج بنكهة النعناع. بالنسبة لي، فأنا لست مقتنعاً إلى يومنا هٰذا أن ناجي قد فهم ما دار من حديث وما سمعه في لقائنا الآنف الذكر. ولم أستطع التأكد من ذلك عن طريق النظر إلى قسمات وجهه، فهو لم يبتسم ولم يقطب حاجبيه عابساً. والحقيقة أنه لم يأت بأيّ ردّة فعل تذكر، بل أخذ رشفة من فنجان الشاي بكل بساطة ثم سأل عن حالة الطقس في واشنطن.

عاد بيرني إلى سؤال ناجي وأجاب: «أنا لا أقصد بقولي هٰذا إبداء إساءة أو قلة احترام لك، ولكني أظن أنه ما من شخص يعرف ماذا سيحدث مستقبلاً. هل يستطيع رئيس دولتكم معرفة ما سيقع؟».

أجاب ناجي: «لا يريد رئيسنا الحرب، ولهذا فإن «بوش» وحده يعرف ماذا سيحدث ما دام هو الذي سيبدأ الحرب. إن كان مقدراً أن تنشب الحرب».

شعرت عند تلك النقطة أن الحديث قد تجاوز أهدافه المفيدة، فغيرت مجرى الحديث بسرعة لكي أطوّق جوانبه وقلت: «حسناً، مع كل الاحترام الذي نكنّه لك يا ناجي فإننا لا نريد أخذ المزيد من وقت عملك. لديّ و«شو» موعد مع نزار، وأريد أن أُري السيد «شو» بعض الأماكن في بغداد قبل موعد اللقاء مع نزار».

نهض ناجي لتوديعنا وقال: «طبعا، طبعا. نرحب بك كثيراً يا سيد «شو» هنا في بغداد. سنبقى على اتصال فيما بيننا».

قلت ضاحكاً بعد خروجنا: «لله درك يا «شو»، إن عيني ليستا من الكريستال!! من أين جئت بهذه الجملة؟!».

أخذ بيرني مجّة من سيجارته وبدا لي مثل قطة ابتلعت عصفور كناري وأجاب: «كنت أحاول الإشارة إلى أنه ليس بإمكان أي منا التنبؤ بالمستقبل».

أشرت إلى طبق كبير تابع للقمر الصناعي ويقع خلف وزارة الخارجية وقلت: «هٰذا طبقهم هناك. يقع مكتب نزار في الطابق الخامس. وقد مكّن القمر الصناعي وزارة الخارجية من مراقبة شبكة سي. إن. إن إضافة إلى أمور أخرى. وتمكّن المسؤولون العراقيون أيضا من مراقبة طاقم عمل الـ سي. إن. إن في وزارة الثقافة والإعلام، وتولّدت لديّ شكوك في أنهم يراقبون قصر الرئاسة. (كان الحصول على الخط الرباعي المتّصل بالقمر الصناعي وتمكّننا من سماع برنامج سي. إن. إن أقرب إلى ضربة حظ منه إلى اجتهادنا للحصول على الخط الرباعي). وكنت أتنزّه هناك دوماً، حتى اعتاد الحراس عليّ وعلى مشاهدتي هناك.

ضحك بيرني بخفوت بعد أن تخطينا رجال الأمن بسرعة وسمح لنا بدخول الردهة من غير مرافقة، وقال: «آه يا «روبرت»، كم أتمنى لو يشاهدنا مركز أتلانتا الآن».

وقال لنا السكرتير: «سيلتقي بكم نزار حمدون بعد قليل»، ثم قادنا إلى مكتب حمدون الخارجي الذي تم تزيينه مجدداً بإضافة مقاعد جلدية فخمة، وأشار إلينا باحترام قائلاً: «يمكنكم الجلوس هنا لو تفضلتم».

أخرجت سيجارة وتحدثت إلى «بيرني» بقولي: «نستطيع أن ندخن هنا على الأقل. يدخن نزار سجائر من نوع مالبورو فقط، وذلك بخلاف ناجي». وأمضينا عدة دقائق ندخن بهدوء واسترخاء، عبّر عن إعجابنا بلوحتين من فن الزخرفة العربية المنقوشة على الحجر، كانت تزيّنان الجدار. وقلت: «بعض الفنون رائعة جداً، وهي والسجاد أشياء تستحق بذل المال لقاء اقتنائها».

اقترب حمدون من «شو» وقال بحرارة: «أهلاً وسهلاً يا «بيرني»» ثم طبع قبلاته على خدّيه وأضاف: «أهلاً بك في بغداد يا صديقي»، ورافقنا إلى مكتبه وطلب ضيافة.

لاحظ بيرني أن التلفزيون كان موجّهاً على قناة شبكة الـ سي. إن. إن، فابتسم وقال: «إنها شبكتي المفضلة».

نزار: «إنّ جهاز التلفزيون موجه إليها طوال الوقت هنا وفي مكتب وزير الخارجية. إنه من المفيد أن تطّلعَ عليها في أيامنا هٰذه. كيف حالك يا «بيرني»؟!».

بيرني: «يسرني أن أكون هنا، وأنا أتطّلعُ للحديث مع رئيس دولتكم».

نزار: «هل هٰذه أول مرة تحضر فيها إلى العراق؟».

بيرني: «أجل، إنها المرة الأولى، وآمل ألا تكون الأخيرة. إنها مدينة جميلة».

نزار: «هل سترغب في العودة إليها مرة أخرى؟».

بيرني: «نعم وبرغبة قوية. كان «روبرت» معي في جولة في أنحاء بغداد».

نزار: «أجل، فـ «بوب» هو الآن رجل متمرّس خبير».

بيرني»: «كيف حالك يا نزار وما أخبارك؟».

أشعل نزار سيجارة مارلبورو أخرى وارتشف من فنجان القهوة، ثم فكر مليا وقال: «إني أحاول مواكبة هٰذه الأحداث التي تتوالى بسرعة، وهٰذا ليس بالأمر اليسير في أغلب الأحيان».

بيرني: «لا بد من ذلك. هل أدهشك وفاجأك ردُّ الفعل العالمي؟».

نزار: «بصراحة، أجل فاجأني، وخاصة عدم قبول الحوار».

بيرني: «عدم قبول الحوار من جانب واشنطن، أليس كذلك؟!».

نزار: «من جانب واشنطن وغيرها من الدول».

بيرني: «حسن، إننا نرغب في إجراء حوار مع رئيس بلدكم».

قال نزار مؤكداً: «يسرّني سماع ذلك إذ يمكن جني الفوائد من وراء الحوار».

وتحدثنا نحن الثلاثة في مواضيع وشروط عامة حول صيغة المقابلة، ثم أثرت موضوع استخدام رجال وتقنيي شبكة سي. إن. إن بدلاً من مصوّري وتقنيي التلفزيون العراقي.

قلت: «أؤكّد لك أن نوعية الصورة وكل ما يتعلق بالتجهيزات الأُخرى ستكون بشكل محسّن وأفضل بكثير».

أضاف بيرني: «أتفق مع «روبرت» في هٰذه النقطة، ولكي نكون صريحين، أقول إن رجالكم الفنيين قد لا يكونون على نفس درجة اهتمام طاقم عملنا وفنيي شبكتنا».

نزار: «ولكن ذلك ما يزال يمثّل مشكلة أمنية بالنسبة لنا».

سألته: «كيف ذلك؟ أنا مستعد لأبعث إليك بطاقم العمل إلى أي مكان تريد وقبل أربع وعشرين ساعة من المقابلة، وهٰذا وقت كافٍ ليقوم جهاز الأمن بفحص المعدّات فحصاً دقيقاً جداً وغاية في الصرامة. وباستطاعتنا الحضور حتى قبل يوم كامل إن اقتضى الأمر».

نزار: «أفهم موقفك وسوف أدرسه، ولكن ليست لي سيطرة على الجهات الأمنية».

قال «بيرني» بلباقة: «نقدّر لك أي مساعدة تقدّمها لنا».

وأخذ نزار و«بيرني» يتذكران الأيام الخوالي في واشنطن والفترة التي قضاها نزار هناك كسفير للعراق في الولايات المتحدة. كان واضحاً أن نزار يشعر بحنين لهذه الأيام السعيدة.

وسأله بيرني : «هل تعتقد أنك ستحصل ثانية على المنصب الرفيع هنا؟» .

نزار: «أي منصب تقصد؟» .

بيرني : «منصب وزير الخارجية» .

أجاب نزار بهدوء : «لا أظن ذلك» .

بيرني : لم لا؟!» .

وأصبح نزار عند هٰذه النقطة رجلاً مستبطناً يفحص أفكاره ومشاعره ودوافعه ، وكأنه يفكّر في أن يتخلى عن تحفظه ويطلق العنان لنفسه ليعبّر عما في داخله ، ثم قال : «أنت تعلم أنّي لم أتلقَّ تدريباً يؤهّلني لتسنّم منصب حكوميّ . لقد درست وتعلّمت أن أكون مهندساً معمارياً ، إلا أن الأحداث . . » ، ثم وهن صوته وخمد .

بيرني : «هل تعني أنك ستترك عملك الحكومي؟» .

أخرج نزار سيجارة أخرى وقد ارتسمت على وجهه إمارات التأمّل ، ثم أجابْ : «ليس الآن ، ربما في أحد الأيام القادمة» ، ثم رفع صوته مضيفاً : «سنلتقي معاً مرة أخرى في القريب العاجل ، يجب أن أحضر الآن اجتماع عمل» ، ثم رافقنا إلى الباب لوداعنا .

ما إن دخلت غرفة «بيرني» حتى سألته : «يريد «إدْ» معرفة السؤال الأول الذي ستطرحه في اللقاء مع صدام» .

كان قد مضى على «بيرني» عدة أيام وهو يرتّب أمور المقابلة المزمعة ، وكان منكبّاً على دراسة ملف ضخم من الأبحاث والدراسات المجمعة احتوت على قصاصات متنوعة ، ومقالات منزوعة من المجلات ، ونسخة من كتاب (جمهورية الخوف) لكاتبه سامر الخليل . وامتلأت طاولته بعشرات من بطاقات الفهرسة التي كتب عليها بخط يده أسئلة قوية ومحتملة أو مواضيع محدّدة يريد إثارتها في المقابلة . رفع «بيرني» رأسه ثم نزع نظارته وانحنى ليحضر سيجارة .

بيرني : «لم أقرّر بعد ، هل هناك سؤال معين يدور في ذهن «إدْ؟!» .

ـ «أعتقد أن «إدْ» يريد بدء الحوار بسؤال على شاكلة (هل ستقع الحرب؟!) ، ولكنّي أشعر ـ والحديث بيني وبينك فقط ـ أنه يجب بدء الحوار بطريقة مختلفة» .

بيرني : «حسناً ، إن السؤال (هل ستقع الحرب) هو سؤال لا بأس به ، وينفذ إلى صميم المشكلة ضارباً على الوتر الحساس» .

ـ «أجل ، ولكنّي أعتقدُ أنه ينقصه حيوية ومرونة معيّنة . وأنت تدرك أنه مبنيّ أيضاً على التنبؤ وتخيل ما قد يحدث» .

بيرني : «إذن، ما الذي يدور في ذهنك يا أخي العزيز؟».

ـ «أعتقد أننا بحاجة إلى شيء يجعل صدام حسين يتخلى عن تحفّظه ويقلّل من ضبط نفسه وكبح جماح غضبه، فتحصل بذلك على الأنباء المطلوبة وبالتالي على عناوين رئيسية تلفت انتباه العالم».

بيرني : «مثل ماذا؟».

ـ «مثل السؤال التالي : لو تمّ الاعتداء على السيدة قرينة صدام حسين ثم قُتلت، فهل ستؤيّد يا سيادة الرئيس عقوبة الإعدام بحق مرتكب الجريمة؟ فكر به يا «بيرني»..

وضحكت منطلقاً بسرعة إلى مكان عملي.

سألت «مارك» و«سايندي» من منكما سيصوّر المؤتمر الصحفي للسّيد «هيث»؟ سيبدأ المؤتمر خلال عشرين دقيقة». كنا قد اعتمدنا في معظم الأحيان على شبكة آي.تي.إن في تغطية زيارة رئيس الوزراء البريطاني الأسبق، ولأن مؤتمره الصحفي ذاك كان آخر مؤتمر له وأتى في أعقاب محادثاته مع الرئيس صدام حسين، فقد قررنا تغطيته بأنفسنا. كان من المتوقع أن يغادر «هيث» العراق وبرفقته حوالي مائتين من الرهائن البريطانيين، وهو إنجاز وعمل رائع إن استطاع تحقيقه. وبطبيعة الحال، هاجت الصحافة البريطانية وماجت حول تلك المسألة، وأخذت شبكتا (بي.بي.سي) و(آي.تي.إن) تنظران إلى بعضهما بعين الريبة والشك، وتناوران لإحراز قصب السبق في أي زاوية من زوايا تلك القضية. وقد تمّت استضافة «هيث» في فندق الرشيد أول وصوله إلى بغداد ثم نُقل بعد أربع وعشرين ساعة إلى مكان إقامة الضيوف الرسميّين حيث وجد هناك راحة أكثر، ناهيك عن التخلص من جماعات الصحفيين الموجودين في كل مكان في جميع الأوقات.

لم يسبق لي أن قابلت «تيد هيث» ولا سكرتيره الشديد التأنق في ملبسه. وكنت أتطلع إلى الحصول على ما سيكون بالتأكيد مجموعة من الأقوال والتصريحات التافهة وغير المجدية، والتي ستكون موجهة لاستهلاك الصحافة العالمية مع ما يصحب تلك التصريحات من اللطف والكياسة البريطانية المعتادة ومحاولة تصوير الوضع والأفكار على نحو أقل وأضعف مما تقتضيه الحقيقة ويتطلّبه الواقع، فهذا هو الأسلوب البريطاني المعهود.

أوضح «هيث» أنه سيغادر العراق ومعه ثلاثون رهينة تقريباً، إضافة إلى جَرْو كلب صغير، وبيّن قائلاً : «سأعطيكم قائمة بالأسماء حالما نتمكّن من إطلاق سراح الأشخاص المحدّدين». وصرّح أنه بحث مواضيع عديدة خلال محادثاته التي استمرت زهاء ثلاث ساعات مع الرئيس صدام حسين بغية إيجاد حل دبلوماسي للأزمة، وأعلن بتبجّح : «سأصرّح بما هو أكثر من ذلك في مجلس

العموم البريطاني وعندما تسنح فرصة مناسبة».

نهضت من مكاني متجهاً إلى سكرتير «هيث» وسألته: «كم عدد الرهائن الذين طلبتم إطلاق سراحهم؟».

فأجابني: «مائتان»، وأخذ يخلط ويرتّب أوراقاً مكدّسة فيها أسماء مطبوعة بشكل أنيق.

شكرته ثم عدت إلى مكاني متحفزاً لسؤال «هيث»، ولكن صحفياً آخر طرح السؤال الذي كنت سأطرحه، فقال: «في ضوء الطلب الذي قدّمتموه إلى الحكومة العراقية من أجل إطلاق سراح مائتين من الرهائن البريطانيين، ألا تشعرون بخيبة الأمل بعد أن سمح بإطلاق سراح ثلاثين رهينة تقريباً سترافقونهم إلى الوطن؟».

أجاب هيث بازدراء: «مَنْ ذَكَرَ أي شيء عن العدد وحدده بمائتين؟!».

الصحفي: «لقد فهمنا أنك طلبت أنت بالذات إطلاق سراح مائتين».

صاح هيث: «هٰذا غير صحيح، لم نطلب أبداً».

نظرت إلى سكرتير «هيث» فأشاح بوجهه عنّي وعليه علامات التوتّر والغضب. وتركزت بقية مواضيع المؤتمر الصحفي على الحاجة إلى وجود ما أطلق عليه «هيث» اسم «نظام مستقر في الشرق الأوسط»، وذلك بالرغم من اعتراف «هيث» بأن الرئيس صدام لم يذكر شيئاً لا من قريب ولا من بعيد عن احتمال انسحاب العراق جزئياً أو كلياً من الكويت. وشاهدت بعد انتهاء المؤتمر المترجم الخاص بالرئيس صدام، وكان واقفاً في مؤخرة قاعة المؤتمر فاتجهت إليه وحيّيته.

قلت ضاحكاً: «إنه رئيس الوزراء الأسبق لبريطانيا العظمى، ومع ذلك لم تطلقوا من أجله إلاّ سراح ثلاثين رهينة إضافة إلى كلب واحد»...

قهقه المترجم الدكتور الزبيدي بصوت خافت ولم يعلّق بشيء يورّط به نفسه.

الدكتور الزبيدي: «هل تستطيع من فضلك يا «روبرت» تزويدي بتسجيل صوتي لوقائع المؤتمر الصحفي هٰذا؟».

- «أجل، أستطيع. هل تستطيع إخباري إن كان هناك تاريخ ووقت محددين لإجراء المقابلة مع الرئيس صدام؟».

ابتسم وقال: «بات اللقاء وشيكاً جداً. ستنال ما تريد لقاء صبرك».

لم نكن الأشخاص الوحيدين الذين صبروا ونالوا ما كانوا يصبون إليه، ففي ذلك اليوم اجتمع المجلس الوطني العراقي، وصادق على الاقتراح الذي طرحه الرئيس صدام حسين، والقاضي بالإطلاق الفوري لسراح جميع الرعايا الفرنسيين الذين احتجزوا بخلاف إرادتهم.

١٣

في الحادية عشرة صباحاً اتصل سعدون الجنابي، وهو المشرف على مراقبي المجموعات الصحفية الأجنبية، وقـال بلهجـة ملحّـة وصوت خفيض متوسّلاً: «أرجو ألا تغادر المكتب أنت وفريقك، فقد نطلبكم لإجراء المقابلة في أية لحظة».

وضعت سماعة الهاتف وصرخت: «لقد حان وقت المقابلة ونحن على استعداد تام للعمل». كنت قد تحدّثت قبل ذلك مع ناجي الذي أطلعني على تفاصيل ما سيحدث باختصار، وقال بأننا سنتلقّى مكالمة هاتفية تنبهنا بأن المقابلة باتت وشيكة، ويمكن أن تجرى في أي وقت ليلاً أو نهاراً. ويجب أن نكون مستعدّين للتحرك خلال ربع ساعة حيث سترسل سيارات إلى الفندق لتأخذنا إلى مكان لا نعرف عنه شيئاً.

وفي لقـاء ثان مع «بلي» و«بيرني» وحمـدون، أكدت على ضرورة قيام شبكة سي. إن. إن بتسجيل المقابلة وتصويرها بنفسها. وألححنا وضغطنا لقبول مطلبنا هٰذا قرابة ساعة من الزمن في لقاء ضمّنا ونزار والدكتور سعدون الزبيدي الذي شارك في النقاش. وتوصلنا في نهاية المطاف إلى حل وسط يقـوم بمـوجبـه «مـارك» و«سـايـنـدي» بتصوير المقابلة باستخدام آلات تصوير خاصة بالتلفزيون العراقي.

مشيت عبر الصالة وقرعت باب غرفة «بيرني»، وتوقعت أنه لا بد أن يكون قد ارتدى ملابسه التي يطلق عليهـا اسم «بـذلة العمل اليومي النظامية». كان «بلي» قد ارتدى **أفضل** بذلة لديه؛ مصنوعة من قماش مقلّم رمادي اللون، وقد جاءته من لندن إلى عَمان بواسطة طرد بريدي، ثم من عَمان إلى بغداد مع أحد الأشخاص.

اجتمعنا بعد عشرة دقائق في الغرفة رقم (٩٠٦) وانتظرنا، وانقضت تسع ساعات ونحن منتظرين.

وأكد بلي قائلاً: «لن تتم المقابلة هٰذا اليوم. سأنزع عني هٰذه البذلة اللعينة».
فضحكت وقلت: «لتكن ضيفي ما دمت جاهزاً ومستعداً للحظة خروجنا إلى مكان المقابلة».

بث التلفزيون العراقي في نشرة أخبار الساعة الثامنة من ذلك المساء صوراً عن وصول «إفغيني

بريماكوف» إلى بغداد. لقد عاد المبعوث السوفياتي «بريماكوف» إلى الشرق الأوسط حاملاً معه مبادرة سلام أخرى جديدة.

قلت لـ «بلي»: «قد تكون محقاً، إنه لن يقابلنا حتى ينهي أعماله مع «بريماكوف».

بيرني: «رأيي مطابق لرأيك، ولكننا لسنا متأكدين من ذلك تماماً».

وبحلول منتصف الليل أصبحت متوتر الأعصاب بينما بقي «بيرني» محافظاً على هدوئه، ووزن المسألة قائلاً: «ليس بمقدورنا عمل شيء حيال ما نحن فيه. سيتصل بنا المسؤولون عندما يكون الرئيس متفرّغاً لنا».

لم يكن الرئيس صدام مستعدا للقائنا في ذلك المساء، ولا في صباح اليوم التالي أو ظهره أو أمسيته، ولا حتى في الليلة التالية. وقد أمضى «مارك» و«سايندي» و«تريسي» الوقت في تحرير أفضل انطباعاتهم وتصوراتهم ومحاولة تطبيقها على لحن لـ «بوب غيلدوف» وسمّوه «أغنية اللامبالاة العظيمة»، بينما انكبَّ «بيرني» على مراجعة ملاحظاته حيناً والاستماع إلى اسطوانات «لوثر فاندروس» حيناً آخر. أما «بلي» فقد أحرق طاقة جسمه ـ هذا إن لم يحرق سعرات حرارية إضافية ـ في تنقّله بين قاعات فندق الرشيد. وكنت أنا من بين الذين غيّروا مواعيد حجوزاتهم لدى شركات الخطوط الجوية، آملاً في أن تكون آخر مرة أغير فيها موعد الرحلة، وقضيت أوقاتي أيضاً في الحديث مع رئيس مكتب الـ سي. إن. إن في روما واسمه «مارك دولماج»، والذي وصل بغداد لكي يحل مكاني. وأخذت أتّصل بين الفينة والفينة مع «أنغريد» في عَمان حيث اضطرت للسفر هناك بعد انتهاء مدة تأشيرة الدخول، فأطلعها على آخر الأمور المستجدة إذ كان من المفترض أن تضطلع «أنغريد» بالمسؤولية الكاملة عن إخراج المقابلة بشكلها النهائي بعد أن تبثها عبر الأقمار الصناعية من بغداد.

جلسنا نتناول طعام الفطور، وإذا برجل يلبس بذلة نظامية لونها أخضر زيتوني يدقّ الباب سائلاً: «هل هذا مكتب الـ سي. إن. إن؟ فلتأتوا من فضلكم. السيارات بانتظاركم».

أجبته: «سنكون عندكم في الحال»، ثم زوّدت «مارك دولماج» ببعض التعليمات النهائية: «أخبر مركز أتلانتا أننا في طريقنا إلى مكان إجراء المقابلة، وتأكّد من أنهم سوف يبلغون مركز عَمان بذلك. سوف أذهب بأشرطة التسجيل إلى مبنى التلفزيون العراقي بعد انتهاء المقابلة مباشرة، وتستطيع «تريسي» الالتقاء بنا هناك. من حسن حظنا أن بإمكان «بلي» و«بيرني» السفر جوّاً على متن الطائرة التي ستنطلق في الساعة الثانية بعد الظهر. يجب البحث عن سائق يلازمنا دائماً». ثم أسرعنا نحن الخمسة هابطين السلالم إلى الأسفل.

بدا أننا أمضينا عشرين دقيقة في التنقّل من حي سكني إلى آخر وبأسلوب دائري. وعندما

وصلنا إلى المكان كنت تائهاً تماماً وأجهل موقع المكان الذي ظهر أنه بيت ضيافة حكومي ومترف جداً، يقع بالقرب من ضفاف نهر دجلة. وبعد تفتيش شخصي سريع، رافقنا المسؤولون إلى صالة مجّهزة بمفروشات غاية في الروعة والإتقان، ووجدنا ثلاثة آلات تصوير تلفزيونية موضوعة سابقاً. كانت الصالة مزيّنة بسجاد شرقي فاخر. وزيّنت الجدران بلوحات زيتية أصلية. وعرضت علب من سجائر مارلبورو وكارتييْر في المَشْرب الرخامي الصغير، وبدت كأنها خبز محمّص مفروش بالجبن أو الكافيار. واتخذ حوالي إثني عشر شخصاً من الفنيين ورجال الأمن مواقع لهم حول الصالة، وقد علّق العديد منهم إشارة ذات دبوس، ثمانية الشكل ومصنوعة من الذهب وعليها نقش لصورة صدام حسين، ويبدو أنها تعلّق بغرض تسهيل المرور والحركة خلف الكواليس. وسألت واحداً منهم ضخم الجسم فيما إذا كان يرغب في مقايضة شارته بشارة بلاستيكية عليها شعار الـ سي. إن. إن وتوضع على طيّة صدر السترة، فأجاب بأن ذلك مستحيل.

سرعان ما باشرنا العمل، فقمنا بإعادة ترتيب نظام مكان اللقاء، وصاح «مارك» من جانب الغرفة البعيد: «يجب اسدال هٰذه الستائر، أليس كذلك؟! . . ثم ماذا بشأن هٰذه الأريكة؟ ألا يجب إزاحتها إلى الوراء مسافة أكثر؟»، ومدّ بعض الفنيين يدهم لمساعدتنا.

دخل الدكتور سعدون الزبيدي إلى الغرفة وقال بود: «كيف حالك هٰذا الصباح يا «روبرت»؟ أرى أن كل شيء تحت سيطرتك وإشرافك». وظهر بعد عدة دقائق الوزير لطيف نصَيِّف جاسم، وبدا عليه الاهتمام والفضول حيث كنت جالساً على الكرسي الذي سيجلس عليه الرئيس صدام، بينما كان «مارك» يأخذ الأبعاد الصحيحة والمكان المناسب لآلة التصوير. ورافق الوزير لطيف جاسم مترجمه الرسمي العامل في وزارة الثقافة والإعلام، والذي جاء لمساعدة سعدون الزبيدي في مواضيع ومجريات المقابلة. وبعد انتهاء «سايندي» و«مارك» من تعديل الإضاءة، طلب منا جميعاً مغادرة الصالة بغية تفتيشنا تفتيشاً أمنياً.

أشار الحارس إلى ساعة يدي قائلاً: «إنزعها، أفرغ كل ما في جيوبك لو تفضّلت».

وقلت: «كل شيء؟». وأخرجنا كل ما كان في حوزتنا من محافظ للنقود، وأقلام، ودفاتر ملاحظة صغيرة، ونقود، وخواتم، وسوارات للمعصم، ومفاتيح، وسجائر، وحتى وَصْلَ استلام مالٍ غير تام كنت قد وضعته داخل مغلف من ورق المانيلا. وقلت لأحد رجال الحرس: «إن هٰذا يشبه إجراءات الاحتجاز والسجن»، فنظر إليّ ساخراً وبفضول. وحاولنا أن نبين له أهمية بعض الحاجيات من أجل إجراء المقابلة، وخاصة الأقلام ودفاتر الملاحظة وساعات اليد، ولكن عبثاً، إذ لم يفهم ما نريد.

وتدخّل سعدون الزبيدي في نهاية الأمر لصالحنا، وناشدني قائلاً: «من فضلك يا «روبرت»،

خذ ما تحتاجه فقط من الحاجيات». وتمت معاملتنا أخيراً بصورة أقلّ حزماً وأكثر مرونة.

عدنا إلى الصالة لإجراء التعديلات النهائية وإذا برجال الأمن والحماية يتحركون ويدورون في أنحاء المكان بعد وقت قصير، وهمس أحدهم: «إنه قادم، إنه قادم الآن». وبعد ثوانٍ قليلة دخل المزيد من رجال الأمن إلى الصالة، وتبعهم رجل طويل، جليل المظهر، كنا قد أتينا للجلوس معه: إنه صدام حسين رئيس العراق.

وما أن رأيت صدام في لحمه ودمه حتى اكتشفت من دون أدنى شك أنه رجل تبدو عليه سمات القائد ومَنْ له سطوة ونفوذ. وهو متناسق الجسم، ولون بشرته أسمر ضارب إلى الصفرة، وأكثر جمالاً ووسامة مما يظهر عليه في الصور. وكان مرتدياً بذلة فاخرة من الحرير مع منديل أحمر في الجيب العلوي الصغير، ولونه مزيج بين الأزرق والرمادي. وتوقّعت أن أرى في عينيه ما يدل على الجنون، ولكني لم أكتشف شيئاً من هٰذا القبيل، بل رأيت بدلاً من ذلك عزماً وتصميماً قوياً يفلّ الحديد. ودار سعدون الزبيدي حول الرئيس وقام بالتمهيد للمقابلة. لم تكن طريقته في المصافحة وهز اليد غريبة وغير عادية كما قال لي «جو»، وقد اندهشت لرؤية وشم على أعلى يده اليمنى وعلى شكل تصميم هندسي كبير أزرق اللون. وضبطت الميكروفون المثبت إلى ربطة عنقه بعد أن جلس على الكرسي، وأخذ ينظر إلى أمامه مباشرة من دون أن تطرف عيناه، ثم جلست بجانب الوزير لطيف جاسم، ونظرت إلى ساعتي التي أشارت إلى الحادية عشرة وتسع وعشرين دقيقة.

بدأ «بيرني» المقابلة بسؤاله: «سيادة الرئيس، هل ستنسحب من الكويت لكي لا يقوّض الحظر الدولي المفروض دولتكم العراق؟».

الرئيس صدام: «إذا كان باستطاعة أي حظر تجاري أن يدفع الأمريكيين إلى الانسحاب من واشنطن، أو يدفع الشعب البريطاني إلى الانسحاب من أية مدينة، وإذا كان هناك حظر يرغم الأمريكييين على الانسحاب من هاواي، فإنه قد يدفع بالعراق إلى الفكير بالانسحاب».

تابع بيرني نفس السؤال: «إجابتك هي إذن بعدم الانسحاب؟».

صدام: «هٰذا طبيعي. ليست القضية متعلّقة بهذا الجزء من أرض العراق أو ذاك، إنها قضية الأمة العربية بشكل عام».

بيرني: «هل تشعر بأن الأمور تتجه إلى التفاقم والانفجار؟».

صدام: «نحن نعمل على تجنّب المواجهة العسكرية، لكن هناك من يعمل على إحداث مواجهة عسكرية، وهٰذه الجهات هي على التسلسل التالي من حيث التأثير: إسرائيل، ثم النفوذ الصهيوني، ثم «تاتشر» وعُقدتها النفسية، ثم «بوش». ويبدو أن إسرائيل و «تاتشر» تحاولان دفع الرئيس «بوش» إلى مأزق كبير».

بيرني: «ماذا كان موقفك عندما شبّهك «بوش» بالزعيم الألماني «هتلر»؟».

صدام: «هٰذه هي وجهة نظره، وعليه تحمل المسؤولية كاملة عندما تكون وجهات نظره خاطئة وغير عادلة. وبوصفك مواطن أمريكي، ألا تعتقد أن الرئيس «بوش» قد ارتكب خطأ في تكلّمه بهذه الطريقة مع رئيس دولة أخرى فيها سفارة أمريكية، ثم يطلب في نفس الوقت أن تكون هناك علاقات دبلوماسية؟».

أجاب بيرني بأسلوب لطيف: «لا أستطيع الإجابة عن سؤالك بوصفي مجرد صحفي ليس إلا. أنا لست على مستوى مماثل لمستوى الرئيس «بوش» أو مستوى سيادتكم».

صدام: «بصراحة أنا أتفهّم موقفك وأقدّره، ولكن المسألة هنا هي مسألة مراعاة الأعراف والآداب عند التكلم مع الناس الآخرين، بغضّ النظر عن الألقاب والمراتب. أنا أتحدّث معك كرجل».

ألحّ بلي بسؤاله: «هل يمكنني المضي قُدماً؟! لقد أطلق عليك لقب «وحش بغداد» و«سفاح بغداد».. وهناك مزاعم تحملك مسؤولية تنفيذ عدة مذابح، وقتل الناس. من هو صدام حسين؟».

صدام: «صدام حسين هو مواطن عربي، يعبد الله ويؤمن به، ويناضل من أجل العدالة وإظهار الحق، ويرفض الظلم، وهو لا يخشى إلا الله. وهو بهذه المزايا والصفات يصبح مثله مثل أي مواطن عربي ينتمي إلى الأمة العربية. وبالنسبة للإشاعات الدائرة حول المذابح.. فباستطاعتك الحصول على الجواب إذا ما تجولت في العراق، وسألت الناس هٰذا السؤال. إن سيرة حياتي الذاتية معروفة ومسجلة».

وتناول الرئيس في حديثه على مدى ساعتين أخريين مواضيع متنوّعة وعديدة. ووصف محادثاته الأخيرة مع «بريماكوف»: «بأنها كانت متنوّعة المواضيع وعميقة ومثمرة»، وقال إنها احتوت على «طروحات عملية» من أجل حل قضية الرهائن. وتحدّث عن لقائه مع السفيرة الأمريكية في بغداد «أبريل غلاسبي»، والذي جرى في الخامس والعشرين من شهر تموز، وأكد أنه كان «واضحاً جداً» في شرحه لوجهات النظر العراقية فيما يتعلّق بمسألة الكويت. واتهم الولايات المتحدة ظلماً بأنها مارست ضغوطاً على الدول الأعضاء في مجلس الأمن لتمرير قرارات ألحقت الضرر بالعراق. ودعا مرة ثانية إلى عقد مؤتمر دولي «يقوم على أساس إيجاد حلٍّ شاملٍ» لحل جميع القضايا المعلّقة في المنطقة.

وصرّح أن الولايات المتحدة والدول الغربية الحليفة لم ترغب وتتبنى طريق الحوار لحل الأزمة

سلمياً، حيث قال: «إن أطراف التحالف الغربي أنفسهم متمسكون بمواقفهم المتعالية المغرورة، وقد وجدنا أن هٰذا التصرّف وأسلوب التعامل هو شيء خطير».

ظل الرئيس صدام جالساً بانتصاب طوال المقابلة وقدماه ثابتتان على الأرض من غير أن تتزحزحا قيد أنملة، وعيناه تنظران مباشرة إلى «بيرني» و«بلي». وأضاف: «ليس هنالك ما هو أسوأ من الحرب إلا أن تُحرم من الحرية والشَّرف والأمان . . .».

بيرني: «هل سيصفح شعب العراق عنك إذا ما ألقيت بهم في أتون حرب أخرى؟!».

صدام: «لم أجر شعبي إلى الحرب جرّاً أبداً، ولن أفعل ذلك قطعاً. نحن نبيّن لشعبنا ما هو الصحيح وما هو الخطأ والملفّق. انت تعلم أن الولايات المتحدة تلجأ إلى تشوية صورة الحكومة والبلد إلى تحريف الحقائق بغية التشويش على عقول المواطنين وتغيير أنماط تفكيرهم، وكل ذلك من أجل تحطيم الروح المعنوية لدى الشعب، ولكن معنويات شعبنا قويّة . . .».

حاول صدام إنهاء المقابلة بقوله في النهاية: «أنا أشكرك على الأسئلة التي طرحتها عليَّ، وإن كان بعضها استفزازياً»، ثم أضاف وهو يبتسم شبه ابتسامة: «إني أذكرك بما صرح به «بوش» من أن الناس سينامون أثناء مقابلتي الصحفية».

بيرني: «إذا سمحت لي بسؤال أخير: كيف تريد أن يتذكّرك الناس بعد موتك؟!».

صدام: «المؤمن بالله حق الإيمان يعتقد دوماً بأن الله راضٍ عنه، وأعتقد أن شعب العراق العظيم والأمة العربية المجيدة سيظلون يذكروني بالمديح والثناء».

شكر «بلي» و«بيرني» الرئيس على تخصيص جزء من وقته لهما، ثم طُلب منّا جميعاً مع «مارك» و«سايندي» أن نتقدم إلى الردهة من أجل التقاط صورة جماعية ورسمية، وهمس «مارك» في أذني: «قدّم للرئيس شارة شبكة سي. إن. إن، تقدّم وثبّتها على سترته» ووكزني بمرفقه على صدري حاثّاً إيّاي على فعل ذلك، ولكن شعوري بوجوب مراعاة الآداب الاجتماعية منعني من الاستجابة لطلب «مارك»، لا بل اعتبرت أن ذلك هو تجاوز للحدود. والأدهى من ذلك أني تخيّلت في تلك اللحظة كيف ستكون تعابير وجه «إدْ تيرنير» عندما يزوره مسؤولو العلاقات العامة في مكتبه وهم يتميّزون غيظاً من تصرفي ذاك.

وأسرع «بلي» و«بيرني» عائدين إلى الفندق بينما انطلقت متوجّهاً إلى مكان بث التقارير الإخبارية عبر الأقمار الصناعية.

وأخبرتني السيدة عواطف هناك قائلة: «لقد حجز العديد من المراسلين أدوارهم من أجل البث عبر القمر الصناعي، بيد أني ألغيت جميع هٰذه الحجوزات لتتمكن أنت من إرسال تقاريرك

الإخبارية. كيف جرت المقابلة؟!».

فأجبتها: «أعتقد أنها كانت جيدة. والحقيقة أنني كنت منكبّاً على تسجيل الملاحظات بحيث كان من الصعب معرفة مدى نجاح المقابلة».

وطلبت إجراء مكالمة هاتفية مع أتلانتا، في حين قام «مارك» و«تريسي» باستعراض حوالي اثني عشر شريطاً مصوّراً بُغية تنسيقها وإخراج المطلوب من المقابلة. واستطعنا إخراج المقابلة بشكلها النهائي بعد خمس ساعات من العمل الدؤوب، وبعد أن كانت مسجلة على أشرطة ثلاث آلات تصوير منفصلة. وفي عَمان، قامت «أنغريد» و«كريسي» بعمل رائع، حيث أنجزتا المرحلة الأخيرة من العمل في آخر لحظة.

عدت أدراجي إلى الفندق وقد أخذ التعب مني مأخذه. وإذا بمازن يحيّيني في ردهة الفندق ويبشرني قائلاً: «توجد هدية لك من الرئيس صدام».

ـ «ما هي هٰذه الهدية؟!».

مازن: «ستراها في الطابق العلوي. إنها جميلة».
ابتسم دولماج عند دخولي المكتب وقال: «تهانينا».
قلت: «شكراً. أريد شيئاً لأشربه».

فقدم لي «كلانسي» زجاجة موضوعة على مكعبات الثلج، وقال: «لقد احتطنا للأمر وأحضرنا المشروب. هٰذا لك أيضاً»، ثم أعطاني ألبوم صور من الجلد البني وعليه شعار دولة العراق مطبوعاً بنقوش ذهبية بارزة. وفي داخل الألبوم وضعت الصورة الجماعية التي التقطت لنا في بيت الضيافة الحكومي.

دولماج: «يوجد ألبوم لكل واحد منكم».
قلت: «هل استطاع «بلي» و«بيرني» اللحاق بطائرتيهما؟!».
دولماج: «أجل، لقد كانا محظوظين إذ تأخرت الطائرة عن موعد الإقلاع».
قلت وأنا أجفف نظارتي وأمسحها: «حسن، هٰذا عظيم. سأرى ما عند «إيسون» من أعمال قبل أن أصعد إلى (منطقة الممارسات غير اللائقة) حيث سيقيم طاقم شبكة آي. تي. إن حفلة كبيرة هناك هٰذه الليلة. أنا متعب الأعصاب هٰذه الأمسية مما يجعلني معرّضاً لخلق مشكلة ما إذا ما تعرّضت للضغوط. صاح «إيسون»: ««روبرت»، لقد كان عملاً عظيماً».

ـ «شكراً لك. سأغادر بغداد غداً، هل ثمّة تعليمات أخيرة ترغب في تزويدي بها؟!».

إيسـون: «كلا. بالمناسبة، يبدو أننا سنتمكّن من استخدام الخط الرباعي الخاص بالقمر الصناعي ونحن في فندق الرشيد».

- «هٰذا مستحيل، هل حصلت على إذن بهذا من العراقيين؟».

إيسـون: «الحقيقـة أن مؤسسة الاتصالات في عَمان تقول أن باستطاعتها عمل ذلك. لقد تحدثوا للتوّ مع العراقيين بهذا الخصوص».

- «شيء رائع، ولكن لن أصدّق هٰذا الأمر ما لم أشاهده بأمّ عيني».

أوضح لي إيسون قائلاً: «سنستخدم البث بين بغداد وعَمان ثم نطلب خطّاً يصل ما بين عَمان وأتلانتا».

- «تبدو لي فكرة جيدة. حسناً يا صديقي، لديّ موعد مع نصيبي وقسمتي. سأتصل بك في أقرب فرصة».

ونصحني إيسون: «خذ قسطاً من الراحة».

فضحكت مجيباً: «سأخلد إلى الراحة ولكن ليس في هٰذه الليلة».

الجزء الرابع

تشرين الثاني ـ كانون الأول ١٩٩٠

١٤

قلت لوكيل التذاكر على المدخل في عَمان: «إن هٰذا الشيء يحصل معنا كل مرة فإذا كان من الواضح أن بطاقة الركوب الخاصة بي تقول درجة أولى، فلماذا أريد أن أسافر بالدرجة السياحية».

فأجابني بعد أن فكر بالأمر ملياً: «حسناً، تستطيع الذهاب بالدرجة الأولى وسأدبّر الأمر بحيث يسافر شخص آخر بالدرجة السياحية».

فقلت له وأنا أحمل حقائبي قبل أن أنزل الدرج وأتوجه إلى الطريق المعبدة المؤدية إلى الطائرة: «لقد اتخذت قراراً حكيماً يا صديقي». قلت لنفسي والحافلة متوقفة بجانب طائرة بوينغ (٧٠٧) قديمة: إن هٰذا لا ينتهي أبداً. وكالعادة كانت أمتعة الجميع مكوّمة على الأرض بحيث كان يتوقّع منا أن نتعرف على كل حقيبة نقوم بتحميلها بأنفسنا في المكان المخصص لها. كان إلى جانبي رجلٌ عراقيٌ سمين في منتصف عمره بدا وكأنه على وشك أن يُصاب بالفُتاق محاولاً رفع إحدى العجلات الخاصة بالقاطرات والتي كانت مبعثرة حوله. ألقيت بحقائبي على الحزام الناقل وتسلّقت الدرج إلى الطائرة.

سألني المضيف في نقطة التفتيش الأمنية الأخيرة: «هل تحمل معك بطاريات؟» ففتحت حقيبة الكتف: «لا بطاريات ولا راديو موجه قصيره ولا أسلحه».

ابتسم قائلاً: «لقد زرت بغداد قبل هٰذه المرة، تفضل إجلس في مكانك». وضعت أمتعتي التي كنت أحملها بيدي على الرف العلوي في الطائرة ومشيت عبر الممر باتجاه دورة المياه. وعندما أغلقت الباب خلفي إنصب ضوء المصباح المثبت خارجاً على رأسي ثم لاحظت أن قفل الباب كان مكسوراً أيضاً. لقد كان كل شيء في تلك الطائرة الملعونة تالفاً، فاضطررت للخروج من مكاني لأجرّب حظي مع المكان المجاور والذي كان غير مشغولٍ كما كانت الإشارة تقول. ولكن اتضح في الحقيقة أن ذلك المكان كان مشغولاً من قبل رجل كبير في السن عمره حوالي ستين عاماً، رأيته وهو يضع السبابة على أنفه ثم يخرج كتلة من المخاط باتجاه المغسلة مباشرة، أهلاً وسهلاً على متن الخطوط الجوية العراقية!

في الحقيقة كنت متشوّقاً للعودة إلى العراق فقد حصلت تطورات كثيرة أثناء تواجدي مع عائلتي في أروربا. فالرئيس «بوش» كان قد صعّد من لهجته ووصف صدام حسين أنه أكثر همجيّة من «هتلر»، وبعد عدة أيام قال بأن هناك حاجة لـ «خيار عسكري هجومي ملائم»، وكان قد أمر بزج (١٥٠) ألف من القوات الاحتياطية في الخليج. وأعلنت بغداد بشكل مفاجىء أنها ستطلق

سراح كل الرهائن في فترة ثلاثة أشهر تبدأ من أعياد الميلاد. أما ردة فعل واشنطن فقد وصفت ذلك الإعلان بأنه تلاعب سافر آخر بأرواح الأبرياء. ثم توجّه الرئيس «بوش» إلى الخليج لقضاء عيد الشكر مع قواته، وصرح لهم بأن الحرب إن بدأت فإنها لن تكون فيتنام أخرى، وقال مطمئناً تلك المجموعة من الجنود الشباب المتجّمعين في الصحراء: «إن طُلب من أحد أن يُقاتل فلن يُقاتل إلا لينتصر». وبعد أيام من ذلك قام صدام حسين بزيارة أُخرى للكويت وقال لقواته هناك: «إننا إن هوجمنا فإننا مستعدون لقتال أولئك القتلة الشريرين».

وفي تلك الأثناء استمر المتسوقون في شقّ طريقهم في بازار الرهائن. وازدادت قائمة الأشخاص المهمين المسافرين إلى بغداد، ازدادت طولاً وتنوّعت تشكيلتها، وكان من ضمنهم «ويلي برانت» و«ياسوهيرو ناكاسوني»، ورئيس الوزراء النيوزيلاندي السابق «ديفيد لانغ»، و«رامزي كلارك»، و«دانيال أورتيغا» و«جين ماري لوبون»، بالإضافة إلى وفود من سويسرا والدنمارك وكندا وبلجيكا، وحتى الأسقف «كابوتشي» بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية في القدس، كل أولئك كانوا يحاولون بكل قوتهم لتحرير الرهائن ويطالبون بحل سلمي للأزمة.

وعندما جلست في مقعدي لاحظت وجود السياسي البريطاني «أنطوني ودغوود بن» الذي كان يجلس في الطرف الآخر. استطاع هٰذا السياسي البريطاني أن يعود من بغداد بعد عدة أيام بوعد من صدام بتحرير خمسة عشر رهينة بريطانية من المرضى وكبار السن.

لم يعجبني صحن اللحم البارد والذي شككت في مصدره فأزحته واكتفيت بارتشاف الفودكا. كانت أماني تجلس في الكرسي خلفنا وهي تضحك بصوت عالٍ أثناء تحدثها مع السكرتير «بن». أماني سليمان هٰذه كانت فتاة مصرية وَظفتها في القاهرة كمترجمة فورية في أثناء انعقاد القمة العربية الطارئة وقد قامت بعملها على أكمل وجه ثم وجدت عملاً مناسباً مع الـ سي. إن. إن نظراً لكفاءتها، وذلك في عَمان حيث كانت عملياتنا واسعة جداً. وبما أن «ويلي برانت» كان قد استطاع أن يحرر مترجمنا الرهينة «توماس» من بغداد، فقد كنا في حاجة ماسّة إلى مترجم هناك. وكانت أماني قد تطوعت بملء هٰذا الشاغر لبضعة أسابيع. كانت أماني امرأة طويلة سمينة نوعاً ما في أواخر العشرينات من عمرها وكانت امرأة متوسطة الجاذبية، وكان يُعرف عنها بأنها متمردة عابثة. وقد أطلقت «أنغريد» عليها فوراً اسم الأميرة «Lumpy» أي الأميرة كبيرة الحجم وهو في الأساس اسم لأحد الشوارع وقد كان مناسباً جداً لها، وفي الحفلة التي أقمناها في ليلة (عيد جميع القديسين) ارتدت أماني مثل كليوبترا بعد أن أمضت عدة ساعات في صالون التجميل التابع للفندق من أجل أن تظهر بالمظهر الملائم.

عندما ذهبت إلى فندق الرشيد وجدت هناك محمد علي وسمعته يهمس لمرافقه: «أي غرفة

حجزت لي؟». كان البطل يبدو في هيئة أسوأ من تلك التي رأيته فيها في أحد المآدب في لوس أنجلوس. هناك حصل ما يلي: كان «جيسي جاكسون» موجوداً فمشى ببطء من مكانه ليعانق محمد علي على الجهة الأخرى وبعد أن تحدّث الإثنان بعدة دقائق ثم غادر «جاكسون»، إلتفت البطل إلى الشخص الجالس إلى جانبه وسأله: «من كان ذلك؟».

قلت لنفسي آه أيها الأخ بعد أن رأيته يمشي ببطء باتجاه المصعد، وكان يبدو وكأنه شخص يشعر بالدوار. إذاً لقد كان الأمر بهذا السوء، وقد وصلت بك الأمور إلى هٰذا! وبعد عدة أيام شاهدته مرة أخرى على التلفزيون العراقي هٰذه المرة أثناء مقابلته لصدام حسين والتي بولغ في الدعاية لها والمبالغة في شأنها. في تلك المقابلة تحدث مرافق محمد علي أغلب الوقت، وكان علي يتمتم فقط ببضع كلمات. وعلى أية حال فقد كوفىء بأكثر من عشرة رهائن أخذهم معه في طائرة العودة. وللعلم فإن علي قد حجز له في الدرجة السياحية لكنه لم يعترض. وأفترض أن البطل لم يكن يعرف الفرق بين الدرجة السياحية التي يعرفها والدرجة السياحية في الطيران العراقي، وأقول إنهم لو كانوا يملكون ذرة من الإنسانية..

قلت لـ «ريتشارد» وأنا أدخل المكتب: «مرحباً كيف الأمور؟». لقد كنت بالفعل سعيداً جداً لرؤيته، فبالإضافة لكونه أحد أفضل المراسلين في الشبكة، فإن «روث» قد يكون أكثر من أعرفهم طرافة وخفة دم. ففي إحدى المرّات حصل إطلاق نار على أحد مقاهي بغداد، فوقف ريتشارد في وسط الملهى وبدأ يلعب دور كبير السقاة وبدأ يقول: «طاولة لأربعة يا «أنطوني»، لدينا هنا بعض الحجوزات لأشخاص ولكني لا أستطيع قراءتها في هٰذا الجو».

كان يتحدث وليس على وجهه أي تعبير وينظر إلى اللوح الذي يحمله عادة كبير الخدم في يده ثم أضاف: «لا بد أن هؤلاء الناس قد هربوا باتجاه دجلة». وفي مرة أخرى عندما رفض ناجي مقابلتنا بعد لعبة التنس الأسبوعية التي كان يمارسها طاردهُ «روث» حتى دخل خلفه في الحمام. وقال مرّة لأحد الموظفين العراقيين: «ألا تعتقد بأن الاتحاد النسائي العراقي يقر بالدعارة بإرساله النساء إلى الكويت للترفيه عن الجنود هناك؟».

ورغم أن مركز عمله كان في نيويورك إلا أن «ريتشارد» انضم إلى السيرك في أوروبا الشرقية وبعد ذلك ضغطنا عليه ليقبل منصباً خارج البلاد منذ ذلك الوقت. وكان من عادة «ريتشارد» أنه إذا كان يريد أن يتخّذ قراراً شخصياً فقد كان يُعاني كثيراً وتستمر معاناته لعدة أيام، وفي النهاية قرر أن يذهب إلى فرانكفورت، وقال معلقاً بعد أن أمضى فترة طويلة وهو يتنقل بين المؤيدين والمعارضين لذلك القرار قال: «لم يكن الأمر بمثل تلك السهولة».

نظرت إلى جهاز الإرسال الجديد ذي الخط الرباعي وقلت: «ذلك هو إذاً، إنه رائع، كيف يعمل؟».

أجاب «ريتشارد»: «إنه يعمل بشكل جيد، أما محاولة لفت انتباه أتلانتا لاتصالاتنا فتلك قصة أخرى».

وجلست أمام ذلك الصندوق الرمادي الصغير ورفعت أحد المفاتيح وقلت: «من بغداد إلى أتلانتا» وساد الصمت على الطرف الآخر فنظر «روث» لي مستعلماً فرفعت صوتي وكرّرت: «من بغداد إلى أتلانتا» فسألت «ريتشارد»: «هل هو كذلك دائماً؟» فأجاب وهو يرفع حاجبيه: «باستمرار».

رفعت صوتي من جديد وقلت: «آلو، أتلانتا إن القذائف تسقط فوقنا، أتلانتا . . إنهم قادمون من النافذة . . إن الاتصال سوف ينقطع في أي لحظة . . إننا كلنا نموت هنا أتلانتا . . آه إننا كلنا ميتون . .».

أتلانتا: «ألو بغداد أتلانتا معكم هل تحاولون الاتصال بنا؟».

ـ «نعم لقد كنا نحاول. أعتقد أيها الزملاء أنه يتوجب عليكم الانتباه إلى الجهاز بدرجة أكبر».

أتلانتا: «نحن آسفون، فنحن منشغلون اليوم كثيراً. ما الذي تريدونه؟».

ـ «أريد منكم أن تخترعوا نظاماً بحيث تستطيعون أن تسمعونا فوراً بغض النظر عن كونكم مشغولين أم لا، فلن يكون هناك وقت كاف مثل الآن عندما تقع الفأس بالرأس».

أتلانتا: «نعم أنا أفهم هٰذا. إننا نعمل الآن للحصول على عدّة وحدات هنا في المكتب، يجب أن يتم تركيبها خلال عدة أيام».

ـ «عظيم. حسناً إنني أقوم بمجرد التجربة وبالمناسبة إن هٰذا شيء رائع».

أتلانتا: «نعم إنه يغيّر الأمور بالتأكيد. إذاً أموركم على ما يرام وهل أماني معك هناك؟».

ـ ««روجر» معي وبالمناسبة هل لديك نقود لتحضر مباراة عودة محمد علي؟».

أتلانتا: «ماذا؟ هل سيلاكم مرة أخرى؟».

قلت ضاحكاً: «لا، أعتقد أنها مجرّد إشاعة سيئة. سأتحدث معك فيما بعد».

قلت لـ «روث» وأنا أغلق الجهاز: «إن هٰذا شيء رائع». وبدأت أفكر، إذن لقد انتهينا من تلك الرحلات إلى السفارة، والساعات الطويلة التي كنا نقضيها بانتظار الحصول على مكالمات وانقطاع الاتصالات والإمكانيات البسيطة، لقد أصبح لدينا الآن اتصالات فورية وخط هاتفي مباشر جنّبنا

مأموري المقاسم ومحطّات تحويل الاتصالات من بغداد إلى عَمان ومن عَمان إلى أتلانتا، وبالتالي إلى أكثر من مئة بلد حول العالم. وأصبحت أؤمن بأنهم يجب أن يمنحوا «إيسون» ميدالية، ثم أشعلت سيجارة. ومنذ بداية شهر تشرين الأول، كنا أنا و«إيسون» على علم بوجود جهاز الإرسال ذي الخط الرباعي، وكنا نعتقد بأنه يمكن استخدامه ـ من الناحية النظرية ـ في بغداد. وكانت السيدة عواطف قد قالت مثل هٰذا الكلام عندما أرسلت لنا قائمة بالإمكانيات الفنية المتوفّرة في التلفزيون العراقي، والتي كان بإمكاننا استخدامها في بثنا المباشر لمقابلتنا المنتظرة مع طارق عزيز. ولكن، ولتشككنا في إمكانية تركيب ذلك الجهاز في مدة أربع وعشرين ساعة، وهي المدة التي بقيت لإجراء المقابلة، فضّلنا استخدام التلفون العادي. وفي تلك الأثناء، كان «إيسون» وبقية الأشخاص في مكتب الأقمار الصناعية يبذلون جهدهم في متابعة تركيب الجهاز الجديد، وكانوا ولأسابيع خلت يتملّقون مؤسسة الاتصالات في عَمان التي قامت بدورها بالإجراءات المناسبة مع مؤسسة الاتصالات العراقية في بغداد لتسهيل الأمر. وعندما تم تجهيز خط بغداد عَمان أصبحت مسألة وصل عَمان بأتلانتا مسألة بسيطة، إنما كانت المشكلة في الحفاظ على استمرارية هٰذا الخط في إدارة خدماته لنا.

أبلغني سعدون بشكل سرّي بعد أيام من عودتي: «هناك مشكلة تتعلق بخط تلفونك الخاص، لقد تم إعلام مؤسسة الاتصالات بأن هٰذا الخط هو فقط مع عَمان، ولكنكم تتحدثون مباشرة مع قيادتكم في الولايات المتحدة».

أجبته: «إن ذلك يتم عبر خط آخر من عمان، وليس لهذا علاقة مع مؤسسة اتصالات بغداد».

قال: «إنك تعي تماماً ما أقول يا «روبرت»»، ووضع يده على كتفي مضيفاً: «لقد خدعتهم».

فاعترضت قائلاً: «أنا شخصياً لم أخدع أي شخص، ولكون الأمر قد تم، فلماذا لا ندع الأمور تسير في مسارها الطبيعي؟».

قال: «لا تقلق يا صديقي، إن الأمور حتى الآن بخير، ونحن نحب الـ سي. إن. إن ونحبك».

فقلت بكل صدق: «إنني أقدّر ذلك يا سعدون».

قال وهو يسحب ورقة من أحد أدراج مكتبه: «بالمناسبة، أريد أن أريك شيئاً، مارأيك بهذه؟».

ونظرت فإذا هي ورقة تشبه نموذج طلب عمل، وفيها مساحات لكتابة «الاسم» و«الشركة» و«تاريخ دخول بغداد» . . إلخ. وقال: «سنطلب من جميع الصحفيين أن يملأوا هٰذه المعلومات للوزارة لكي نعرف من يتواجد هنا، ومن كان هنا سابقاً، مما سيساعدنا في تقديم العون للصحافة الأجنبية».

قلت وأنا أهزّ رأسي: «سأكون صريحاً معك، إن جميع الصحفيين لا يحبون تعبئة النماذج، فهذا شيء يزعجهم. بالمقابل، إن قمتم بإصدار بطاقات رسمية خاصة بالصحفيين بعد أن يملأوا هذه النماذج ـ وتكون هذه البطاقات لطيفة ومنمّقة ومختومة بالختم العراقي الرسمي ـ عندها سيكون كل صحفي مستعدّاً للإسراع إلى هنا للحصول على واحدة».

فقاطعني قائلاً: «بطاقات صحافة، هذه فكرة جيدة».

قلت: «نعم، وعندما يملك الشخص بطاقة مثل هذه، فإن كل عراقي سيعرف أنه صحفي غير مزيّف».

قال: «بالطبع . . .».

وأضفت: «وبالتالي، إن عرف العراقيون في الشارع أننا صحفيون حقيقيون، فلن نكون وقتها بحاجة إلى مرافقين ليوضحوا ذلك الشيء للناس».

فضحك قائلاً: «لا يا «روبرت»، لا، أنا أدرك ما ترمي إليه، لكنه شيء مستحيل».

قلت: «لا أدري يا سعدون، ولكن فكّر في الأمر، فهو سيوفّر الكثير على الوزارة».

لقد وضع جهاز الإرسال الجديد حدّاً لعزلتنا، فهو لم يمكّن أتلانتا فقط من قراءة برقياتنا بمجرد الضغط على مفتاح، ولكنه مكّننا من الاستماع إلى الـ سي. إن. إن أيضاً. واستطعنا لأول مرة الاستماع إلى برنامج «العالم اليوم» وبرنامج «الساعة الدولية» الذي بثّه وقتها حيّاً على الهواء «بيير باور» من البيت الأبيض، و «بليتزر» من البنتاغون، و «بغلايتر» من وزارة الخارجية الأمريكية، وكان هؤلاء الثلاثة يدعون أحياناً «الباءات القاتلة» [لأن أسماءهم تبدأ بحرف الباء]. لم نعد نشعر ونحن في بغداد أننا محصورون داخل شرنقة. والأهم من هذا أن ذلك الجهاز أعطانا قدرة تنافسية هائلة، فلو حصل شيء في بغداد لرأيتنا نخطر أتلانتا في الحال، وبالعكس لو انفجرت أية أحداث مهمة في العالم لكنا نعرف بها قبل زملائنا بوقتٍ طويلٍ، ولكنا نتدافع بكل سرعة للحصول على رد الفعل العراقي، وبهذا لم نجد منافساً لنا في تحقيق ذلك بتلك الصورة.

كان من الطبيعي أن يثير ذلك الجهاز الغيرة الشديدة من قبل زملائنا وأكثر من مجرد الغيرة، فزملاؤنا في المحطات الأخرى كانوا ممتعضين من ذلك تماماً. وبدأت الإشاعات البشعة تظهر فقيل إننا كنا نتملّق العراقيين للحصول على الإذن منهم، وقد نكون ـ كما قيل ـ قد دفعنا رشاوي مقابل ذلك، وكم كانت تلك الأقوال بعيدة عن الحقيقة، والحقيقة أنهم عندما عجزوا عن تركيب أجهزتهم رباعية السلك بعدما قمنا نحن بتركيب جهازنا، عندها بدأت الشبكات الإخبارية الأمريكية تعتقد بصحة تلك الإشاعات. ومما زاد الطين بلّة أن الوزير جاسم كان أحيانا ينتظر وصول شبكة الـ سي. إن. إن قبل أن يبدأ أي مؤتمر صحفي، مع أن القادة العسكريين قاموا بنفس

الشيء مع شبكة سي . بي . إس ومع مجلة نيويورك تايمز المتنفذة، لكن معظم الهيئات الصحفية التي كانت متواجدة في بغداد لم تغط أحداث فيتنام أو أنها كانت ذات فهم محدود لمثل هٰذه الأمور. فحيثما نظروا للأمر، وجدونا في جيب صدام، وكان ذلك هو العذر الذي قدموه لقياداتهم التي لم تضيع وقتها بدورها، وأوكلت لدوائر العلاقات العامة فيها أن تقوم بواجب فضح الأمر كما وصلهم، وكما عبر إدْ تيرنر فيما بعد وببلاغة رائعة: «إن عام واحد وتسعين هو عام قطف الحصرم».

ذهبت بسيارتي إلى السفارة لأناقش الأمور مع «جو» ولأسلّمه علبة السيجار المعتادة. كان «ستيف ثايبولت» قد غادر بغداد أخيراً وحلّ مكانه رئيسه المباشر «جيم كالاهان» الذي كان قد وصل من الولايات المتحدة. كان «كالاهان» شخصاً لطيفاً بدرجة كافية، لكن نظرة واحدة إلى شكله البيروقراطي وهو يلبس قميص نصف كُم وربطة العنق تلك جعلتني أعتقد بأنه ليس ذلك الشخص الذي يمكن أن يصرخ قائلاً: «بأن صدام عبارة عن . . » ـ على الأقل ليس أمام رجال الصحافة. وشعرت بالاشتياق إلى «ثايبولت» فوراً، إذ الفرق واضح بينهما. وكان لا يزال هناك «بيل آرمبروستر»، وهو شخص متواضع. كان قد عمل في الشؤون العامة في السفارة بالكويت. وكذلك كانت هناك حنان وهي مواطنة عراقية لطيفة ومتعاونة كانت تعمل كسكرتيرة. وكان «بيل» وحنان قد أخذا على عاتقهما العناية بـ «بوش» وهو قط صغير هزيل ويتيم، والذي أصبح بفضل اهتمامهما المستمر أقرب في حجمه إلى القط منه إلى الجرذ. وكان «بلايستون» قد كتب عن «بوش» في أحد تقاريره الأولى قائلاً: «أن تطورات حالة «بوش» تراقب هنا كما يراقب تقرير درجة حرارة المريض، والذي يبدو أن هٰذه التطوّرات هي في حد ذاتها نبوءات لما سيحدث على الساحة في هٰذه المنطقة». ومنذ ذلك الحين و «أنغريد» تتأكد من أنها أحضرت معها علبة من «تندر فتلز» [طعام قطط] من محلات السيفوي في عَمان كلما ذهبت إلى هناك وعادت ـ وذلك من أجل عيون «بوش».

قال لي جو: «أريد أن أُريك شيئاً ما» والتقط «تلكس» من درج مكتبه كان عبارة عن رسالة تهنئة من رئيس الولايات المتحدة يمتدح فيها حنكة «ويلسون» المهنيّة وشجاعته في التكلم ضد العراق وما اقترفوه من سوء تعامل مع الرهائن. وقال لي: «أريدك أن تبعث بنسخة إلى «ريتشارد روث» حيث أن له يداً في الأمر، أنت تفهمني، أريد أن أعبّر له عن شكري وامتناني».

حصل في عيد الشكر أن أعلم «روث» بأن الصليب الأحمر كان ينوي تقديم وجبات طعام مكوّنة من لحم الديك الرومي إلى الرهائن أو «الدروع البشرية» كما كان يطلق عليهم. وعلى نحو ما استطاع أن يقنع مرافقه لأن يأخذه إلى نادي الصيد في بغداد حيث كان الطعام سيعد هناك حسب ما كان يعلم. كان «روث» يمني نفسه في أحسن الأحوال بأن يجد رهينة هناك ممن عرضهم

العـراقيون أمـام وسائل الإعلام، فالعراقيون كانوا يقدمون برنامجاً تلفزيونياً عجيباً ومحرّفاً اسمه «أخبار الضيوف». ولكنه وجد في النادي حوالي اثنتي عشرة رهينة أمريكية كانوا يتحدثون فيما بينهم في مجموعات صغيرة. قال «روث» بأنه كان متأكداً بأنهم رهائن، وهي حقيقة تأكدت بعد ثوان عنـدمـا طلبوا منه أن يهرب رسائل منهم خارجاً. أمضى «ريتشارد» ستة دقائق وهو يجري معهم مقابلات، ولكن سعدون الذي كان قد وصل لتوه طلب منه أن يغادر المكان فوراً. كان هناك خطأ ما، جاء سعدون لتفاديه. وفيما بعد، صدرت احتجاجات من الشبكات الإخبارية الأخرى لأنها لم تعط الإذن بتغطية الحدث.

وفي ذلك المساء قال جو ويلسون في مقابلة خاصة مع الـ سي. إن. إن: «إن ذلك الحدث كان همجياً». وأضاف: «إنه شيء يثير الحنق أن يكون الأمريكيون الرهائن يتناولون غداءهم على بعـد بنايتين من منزل المسؤول الأمريكي، في حين ينكر عليهم حقوقهم في مقابلة دبلوماسيي بلدهم، وهو خرق آخر للقانون الدولي».

وقال روث إن تعليقات «ويلسون» تلك قد مرّت ولأول مرة على الرقابة في التلفزيون العراقي. ولكنه في الصباح التالي - أي «ويلسون» - عقد مؤتمراً صحفياً ضخماً اعتمد فيها على المقابلات التي كان «ريتشارد» قد أجراها مع الرهائن، إذ كان «جو» قد شاهدها عندئذ. وهناك فجّر قنابله ضد العـراقيين من جديد. هٰذا وقد أشار في تعليقاته الأخيرة تلك والتي أُذيعت عالمياً إلى «تلكس» الرئيس «بوش».

سألتـه: «ما هي توقعاتكم حول صدور قرار للأمم المتحدة الذي يجيز فيه استخدام القوة العسكرية ضد العراق في شهر كانون ثاني؟».

أجاب: «اعتقد أن هٰذا ما سيحصل، فالسوفييت يدعمون موقفنا، ولكن سيكون هناك بعض الأخذ والعطاء حول تحديد موعد ثابت».

فتجرأت قائلاً: «يبدو أن أوان سحقهم قد اقتربت».

قال وهـو يخـطو إلى الوراء نحو طاولة مكتبه: «أعتقد ذلك، فمن سوء الحظ أن بغداد قد أخطأت حساباتها مرة أخرى».

طلبت من كريم قبل توجهي إلى فندق الرشيد أن نعرّج على منطقة وسط البلد لأني كنت أريد شراء سجادة، إذ كنت قد شاهدت سجادة ممر إيرانية في رحلتي السابقة وقررت أن أغامر بشرائها. كان طول تلك السجـادة حوالي عشرين قدماً وعمرها يتجاوز المائة عام وكانت مشغولة جميعها باليد: والمطلوب مقابلها خمسمائة دولار فقط. كنت قبل قُدومي لبغداد أعرف القليل عن السجاد الشرقي ولكني، ومثل بقية أهل الصحافة، اصبحت خبيراً قبل أن أترك البلد.

كان يبدو أن الجميع مصابون «بحمى السجاد»، فأصبح من الدارج أن يحصل أحدهم على تأشيرة الـدخول، ثم يقوم بشيء لا بد منه وهو التّسوّق. كان سعر السجاد متذبذباً جداً، وذلك اعتماداً على عدد الصحفيين في البلد، ففي الأيام الأولى، كنت تستطيع شراء سجادة رائعة من نوع تبريز أو باختاران بثلاثمائة دولار فقط. ولكن «عامل الجشع» برز فيما بعد لدرجة أن أحد التجار قال لي ذات مرة: «إن لم تدفع أنت، فإن أحدهم من إيه. بي. سي «A.B.C» سيفعل».

وكان يحدث أنه بعد عدة فناجين نشربها من الشاي بالنعناع ونحن نتجادل ونتماحك، تتم الصفقة وتلف السجادة وتوضع في حقيبة بنيّة اللون وتحمل إلى فندق الرشيد. وهناك ما يلبث رجال ونساء راشدون بالغون يجثون على ركبهم أمام زملائهم، ويبدأون بإطلاق صيحات «أوه» و«آه» إعجاباً وهم يربتون بأيديهم على تلك البضاعة ويعدّون الغرز فيها. كانت المشكلة حقاً هي كيفية إخراج تلك السجادة من البلاد ومن ثم إلى مقصدها الأخير، أما قضية خرق الحظر التجاري مع بغداد والذي كنا نمارسه كصحفيين فيبدو أنه كان أمراً لا يعنينا من قريب أو بعيد إلا بالقدر اليسير. وحيث أن رجال الصحافة أناس دهاة بطبعهم، تدبّرت أمر سجادتي بأن قمت بلفها بشكل أنيق وحشوتها في حقيبة ثلاثية القوائم، ووافق «ريتشارد» على أن يحملها معه إلى عَمان عندما غادر العراق.

حيّاني ناجي كالمعتاد بقوله: «مرحباً يا «روبرت»».

وأجبته كالمعتاد: «كيف الحال؟».

ابتسم قائلاً: «لا زلت على قيد الحياة، كما ترى»، نعم لقد كان ناجي على قيد الحياة، ولكنه كان متعباً على غير وضعه المعتاد. وعندما صارحته بذلك أشاح بيده رافضاً استنتاجي وقال: «لست متعبـاً، إنمـا مشغـول»، ثم وقف واتجه نحو النافذة ليفتح الستائر. وفتحت معه موضوع شحنة الطائرة، فكرّر بأن هناك «ضرورات أمنية» وقال: «يكفيك أن عندك الآن خط تلفوني مباشر، وهو شيء جيد».

قلت له: «الصور الحيّة على الهواء أفضل»، فضحك ضحكة خافتة وقال: «أنت كثير الإلحاح».

فضحكت قائلاً: «إنني أتقاضي راتبي من أجل ذلك»، ثم تحدّثنا بعد ذلك عن رحلة طارق عزيز إلى موسكو، ورفض إصرار «غورباتشوف» على الانسحاب العراقي من الكويت كخطوة تقنية محضة.

وأضاف بنوع من الغموض: «لا زلت آمل بأن يسود العقل والمنطق». ولم يبد أي قلق بشأن قرار الأمم المتحدة المتوقع بشأن السماح بضربة عسكرية للعراق، وقال: «أعتقد حقيقة أن الحرب

هي كارثة بالنسبة للطرفين، ولكننا نحن العراقيين على الأقل نعرف ما نحارب من أجله، ولا أعتقد أن الشعب الأمريكي سيدعم حرباً بهذه الأبعاد من أجل النفط فقط، وأضاف وهو يمسح نظارته: «أنت تعلم يا «روبرت» أننا نملك أسلحة كثيرة، ليس فقط الكيماوية والبيولوجية، ولكن أسلحة مثل القنابل الحارقة التي تتجاوز الألف قنبلة، وتكلفة صناعة هٰذه القنابل كبيرة وهي تعادل في قوة انفجارها الأسلحة النووية، لن يكون الأمر بالسهولة التي يتخيّلها السيد «بوش»».

قلت له: «أما زلتم مصممون على جر إسرائيل إلى الحرب؟».

أجاب بدون تردد: «بالطبع، إن الإسرائيليين يحاولون تدميرنا أيضاً».

قلت متنهّداً وبشكل غير مسموع نوعاً ما: «يا لها من فوضى».

ابتسم قائلاً: «يجب أن لا تدع ذلك يؤثّر عليك بهذا الشكل، فإنها في النهاية لعبة بوكر، وأحد الطرفين سوف يقوم بالخداع لتحقيق مآربه».

قال لي ريتشارد بنبرة توسّل عندما رآني أضع سيجارة في مصفاتها: «هل يجب أن تقوم بهذا الشيء هنا؟» كان تصرفي لا شعورياً، فاعتذرت بشدّة. لم يكن «روث» يمقت التدخين فحسب، بل إنه كان يعاني من أزمة صدرية وهي حقيقة كان يذكر المدخنين بها في كل مناسبة، ولم يكن كذلك يشرب، مع أن هناك تقارير غير موثوقة تقول إنه كان ذات مرة يعاقر البيرة.

قلت له: «أنا آسف، يبدو أن السبب هي الضغوطات التي نواجهها»، أجابني كامرأة يهودية تندب: «إنها حياتك، وكبدك!».

سألته وكأنني لا أعلم: «ماذا ستتناول الليلة على العشاء؟».

كان «روث» لا يسافر أبداً إلا ومعه مخزون معلبات سمك التونا التي كان يفضلها معلبة بالماء. واقترحت عليه: «لماذا لا نأكل بعض شرائح لحم الضأن على سبيل التغيير؟».

قال: «لا أعتقد ذلك، أماني، أرجوكِ» قالها إذ رأى أماني تشعل سيجارة مارلبورو.

قلت لأماني: «دخّنيها في الغرفة المجاورة، لا بد من بعض الاحترام لحقوق الآخرين، هه؟ . . إنه شيء جيد أن نكون نحبك يا «ريتشارد» وإلا كنت سأقطع شراييني وأرتاح من الحياة».

قال ريتشارد: «سأنتهي من هٰذا خلال دقيقة»، ومضى يكتب الرتوش الأخيرة لمقاله ثم قال: «دعنا نرى، إنني لا أقول «رهائن» فإن الرقابة سوف تزيلها، لقد سئمت من استخدام كلمة «ضيوف» أو «من يطلق عليهم ضيوف». لماذا لا ينتهي هٰذا الأمر؟»، ثم ناولني إياه وجلس يكتب بسرعة على كرّاس من الورق الأصفر وقال: «ما رأيك؟».

كان المقال ممتازاً وكان مستقيماً ومختصراً وليس فيه إسفاف أو لا منطقية، وتشعر بالحيوية في

المقـال من بدايته لنهايته، في النهاية كنت أعتقد أن ذلك المقال «متكامل»، وكنت متأكداً أنه سيستـطيع التّخلّص من الرقابة بكل سهولة. وطلب «روث» من المحرر أن يضع صورة لصدام حسين، وكتب ملاحظة تقول كل شيء ولا تقول أي شيء: «لا يترك الخاطف دائماً رسالة المطالبة بالفدية».

عندما دقت الساعة العاشرة، أدخلنا «جيم كالاهان» إلى مكتب السفير لمقابلة «ويلسون»، قال لنـا: «سـألخّص بسرعة أصول وقواعد مثل هٰذا اللقاء الذي جئتم لأجله خصوصاً للقادمين الجدد . . » مع أن أحدثنا وجوداً كان أقدم منه شخصياً.

قال لنا «ويلسون» بصوت أجش وهو يدخل المكتب: «صباح الخير أيها السادة، . . » ثم لمح وجـود «مـاري كولفين» مراسلة صحيفـة صنـداي تايمـز اللندنية وقال بابتسامة: «وأيتها السيدة» وأضاف: «أنا مستعد لأسئلتكم».

عندما سأله أحدهم إن كان مستعداً لاستقبال وفد السلام المكون من مواطنين أمريكيين جاؤا للعراق للتبرع بالدواء. أجاب: «في الحقيقة إنني أكون سعيداً للقاء أي أمريكي وكل الأمريكيين، فنحن لسنا في حالة حرب مع هؤلاء الناس المسالمين، ونحن مثلهم تماماً نريد حلاً سلمياً. إن الحرب الحقيقية الآن هي غزو العراق للكويت». ولدى سؤال «ويلسون» عن رأيه الشخصي في قدوم مجموعة من الزوجات الأمريكيات إلى بغداد خلال أيام: قال:

«أقـولهـا بصراحة، إنني لست مع مثل هٰذه الزيارات، إنها تساعد العراقيين على استغلال موضوع الرهائن بكل خبث. ولكني بالطبع أرحب بأيّة واحدة منهنّ إن كانت تريد مقابلتي، ودَور السفارة هو مساعدتهن بكل وسيلة ممكنة».

وأجـاب على سؤال آخـر عن التقـديرات الخاصة بمدى تأثير العقوبات الاقتصادية، قال: «حسنـاً، إن بين أيدينـا أدلّة على أن بعض المصانع قد أغلقت، وكذلك بعض أقسام مصافي البترول. وهنالك نقص في الصناعات البترولية، وهم بحاجة ماسّة إلى الزيوت المعدنية وقطع الغيار، وأعتقـد أننـا نرى بداية نفـاذ البضائع التي أُحضرت من الكويت، وما أفهمه أن طياري الخطوط الجوية العراقية سيحرمون من رخصهم الدولية لعدم طيرانهم الساعات المقرّرة، مما يعني تضرر النقل الجوي العراقي. وقال «ويلسون» إنه يعلم أن هناك بعض الأجانب المحتجزين في مدينة الكويت، وأن الوضع الغذائي قد تحسن «قليلاً»، وأضاف إنه حسب بعض التقديرات فإن خمسة وخمسين طنّاً من الدواء وصلت العراق منذ بداية الأزمة.

لم تكن «تشارلين كوتريه ويليامز» إحدى الزوجات الأمريكيات التسع اللاتي جئن إلى بغداد

لزيارة أزواجهن، فقد كانت مع زوجها أساساً ولم تفارقة إلا منذ أيام. وكانت «تشارلين» قد اختارت أن تبقى في الكويت مع زوجها «ستيوارت»، في حين غادرت معظم الزوجات الأخريات عندما فتح صدام بوابة الفيضان. وكانت «تشارلين» أمرأة نحيفة جميلة في منتصف العقد الثالث وقد قالت لنا أثناء لقائنا معها في مكتبنا في فندق الرشيد: «إن الطعام كان قذراً، ولكننا كنا نعامل بصورة طيبة. وقبل ثلاثة أيام أحضرنا العراقيون إلى بغداد وأنزلونا في فندق المنصور ميليا الذي كنت أسمع أنهم يضعون فيه الرهائن قبل أن يطلقوا سراحهم، وسررنا سروراً عظيماً، وأذكر أنني قلت لـ «ستيوارت» ذات مرة إنـه من الجميل أن يكون الإنسان صادقاً، ثم . . وفي الليلة الثانية جاء بعض الرجال وأعتقد أنهم كانوا من رجال الأمن برغم لباسهم المدني، وأخذوا «ستيوارت» معهم».

فسألتها: «إلى موقع استراتيجي».

أجابت وهي ترتشف قهوتها: «نعم، أعتقد ذلك. إنه أمر قاسٍ أن نظل كل ذلك الوقت معاً، ثم نفترق فجأة كما نحن الآن. إن «جنيفر» ابنة «ستيوارت» من زواجه الأول، قرّرت القدوم إلى بغداد مع النساء الأمريكيات الأخريات لأنها تريد إخراج والدها وإياي من هنا، والآن لا أدري ما أفعل، فماذا تقول؟».

قلت: «حسناً، أعتقد أنك يجب أن لا تيأسي، أعتقد أنه لا زالت هناك فرصة لإطلاق سراحه، عليك فقط أن تنضمّي للنساء الأخريات وتتقيّدي بالبرنامج المقرر لهن وهو كما تعلمين الالتقاء بالعراقيين، برئيس مجلس الشعب وبأشخاص آخرين أعتقد أنهن سوف يقابلنهم».

قالت بفرح: «إنهن في الواقع سيقابلن رئيس مجلس الشعب غداً».

قلت: «إذن، إذهبي معهن، تلك عادة هي الخطوة الأولى. وبالمناسبة هل راجعت السفارة؟».

قالت بمرارة: «لقد تحدّثت معهم، ولكن بدا لي بأنهم لا يريدون أن يفعلوا أي شيء. وتلك المرأة تقول بأنه ليس في أيديهم شيء يفعلون حقيقة». ولكني عندما أرى السفارة البريطانية وما تقدمه للزوجات البريطانيات في الفندق من زيارات واهتمام مطلق، ولا ينسون حتى علب السجائر والحلويات، إن ما يحصل معنا هو عكس ذلك، لذا نشعر بأننا مهملون».

قلت مقترحاً عليها: «يجب أن تتّصلي بـ «جو ويلسون» شخصياً، إنه شخص لطيف. كذلك فإن القصص التي تصلهم هناك إلى السفارة متعدّدة ومختلفة أو ربما أن الشخص الذي تحدثت معه يشعر بالارتباك لما وصله من أخبار».

قالت وهي تنهض لتغادر: «ربما أن كل قصة مختلفة، ولكن كل قصة منها تحمل في طياتها من الحزن ما يكفيها».

صرخت بأعلى صوتي: «أين أماني بحق الجحيم؟ نريد أن يتم ترجمة هٰذا الشيء الآن».
كان التلفزيون العراقي يبث موجزاً إخبارياً خاصاً، «أُريد تلك المصرية فوراً».

ردّت تراسي: «ذهبت للتسوّق مرة أخرى، ولكني أعتقد أنها عادت إلى غرفتها، سوف أناديها». قلت لنفسي إن كل ما تفعله هٰذه المرأة هو التسوق. فلم يمض على وصولها بغداد أربع وعشرين ساعة حتى اكتشفت لفرحتها أن كل ما نهب من الكويت يمكن شراؤه بثمن بخس. وكانت قد اشترت لتوها كاميرا (٣٥) مم بحوالي (٨٠) دولاراً، وكانت ترجع يومياً للبحث عن المزيد من هٰذه الصفقات، من حسن حظها أنها كانت مترجمةً رائعةً، ومع ذلك شعرت بأن لومي وعتابي بشأن التعامل مع السوق السوداء قد ذهبا أدراج الرياح وقررت أن أتحدث معها من جديد حول هٰذا الموضوع.

دخلت أماني المكتب لاهثةً وهي تقول: «أنا هنا، أنا هنا، ما الذي يجري؟».

فصرخت فيها: «وكيف أعرف ما الذي يجري؟ لو كنت أتكلم هٰذه اللغة لما وظفتك معي مترجمةً، أليس كذلك».

فقالت والدهشة في عينيها: «أوه، «روبرت»!» ثم سحبت كرسياً وجلست أمام جهاز التلفاز.

قلت لها: «سمعت أنك أدّيت عملاً لصالح «ITN» كما تعلمين، أنا لا أمانع إن بقيت ترقصين وتُهزّي بطنك حتى الرابعة صباحاً، ولكن عندما يعرض شيء على شاشة التلفزيون العراقي، فمن الجميل أن أجدك هنا».

قالت: «صه، إني أحاول أن أسمع»، ثم نظرت إلى الشاشة وبدأت تستمع باهتمام.

سألتها بعد عدة دقائق: «ها، ما الأمر، أعطينا لمحة عمّا يحدث».

قالت بعد هنيهه: «لقد صوّت المجلس الوطني لصالح إطلاقه سراح كل البلجيكيين».

سألت: «هل هٰذا كل ما في الأمر؟».

قالت: «نعم، البلجيكيون فقط».

ضحكت قائلاً: «البلجيكيون، يا لها من صفقة تافهة» ثم تحدّثتُ عبر الجهاز:

ـ «من بغداد إلى أتلانتا».

ـ «هنا أتلانتا، إبدأ».

ـ «لقد صوّت المجلس الوطني العراقي لإطلاق سراح جميع الرهائن البلجيكيين. هل تريدون من «روث» أن يبث الخبر حيّاً؟».

سألني الصوت القادم من مكتب الأقمار الصناعية: «هل قلتم الرهائن البلجيكيين فقط؟».

ـ «هٰذا صحيح، البلجيكيون، لقد سمعتني بشكل صحيح».

ـ «انتظر، سوف استشير المسؤولين»، بدأت أبحث عن سيجارة ثم فكّرت في «ريتشارد». انطلق صوت من الجهاز: «من أتلانتا إلى بغداد».

أجبت: «بغداد هنا».

ـ «إنس الأمر».

قالت لي «أنغريد» ضاحكة لدى عودتها من رحلة مهمتها الرابعة، بعد أن أشعلت سيجارة كاميل: «ماذا حدث للافتات منع التدخين يا «وينيريش»، هل غسل «روث» دماغك فلم تعد تدخّن؟».

تنهّد «روث» وهو يشاهد حلقات الدخان تخرج من فمها وقال: «من الجميل أنني سوف أغادر الغرفة بعد قليل».

قلت لها: «كنت أحاول أن أحترم حقوق غير المدخنين».

قاطعتني صارخة: «على رِسلك، إن لم يحب «ريتشارد» هٰذا الوضع فبإمكانه أن يكتب في الغرفة الأخرى، إنه ممتاز في . . .».

انتفض «روث» واقفاً وقال وهو يبعد الدخان عنه بالأوراق التي كانت بين يديه: «لقد فهمت المقصود، إن احتجتني سأكون في غرفتي».

قلت لـ «أنغريد» وأنا أضع قدمي على الطاولة: «إنك إنسانة قاسية».

قالت: «إنني جادة يا «وينيرش»، إنها ليست غرفة عمليات إذن، ما الذي يجري؟

أجبت: «سيطلبون من «روث» أن يحوّل لهم على جهاز الإرسال رد الفعل العراقي على قرار الأمم المتحدة. وبما أن هٰذا القرار سيتخذ في وقت متأخر حسب التوقيت هنا، فمن المشكوك فيه أن نحصل على ردة الفعل العراقي بسرعة».

سَألْتُ: «ماذا عن ناجي ونزار».

أجبت: «لقد تحدثت مع كليهما، ولن يكون لديها ما يقولانه كما أعتقد حتى يخرج «إريك» بالقول الرسمي الفاصل». وكانت «إريك» كلمة رمزية تستخدمها السفارة الأسترالية للإشارة إلى صدام حسين، وكانت «أنغريد» قد علمت بها من شخص كان يعتبر مصدراً غزيراً للمعلومات من وقت لآخر.

واضفت: «أنا متاكد ان جاسم سوف يعقد مؤتمراً صحفياً غداً». فسألت: «هل هناك من جديد في السفارة؟ كيف تسير أمور «جو»؟».

أجبت: ««جـو» بخير، و«ثـايبولت» ذهب. لقد أوكلوا إليه أخيراً تلك المهمة في تايلاند. وبديله هو «جيم كالاهان»، وهو نموذج للرجل الدبلوماسي».

فسألت وهي تتناول علب طعام القطط التي أحضرتها من عَمان: «كيف حال «بوش»؟».

فطمأنتها قائلاً: «إنه بخير، هل من شيء أحضرتيه لنا، كما آمل؟».

قالت: «وهل أنساك أبداً يا «وينيرش»؟»، ثم أخرجت لترين من عصير البطاطا.

فقلت مازحاً: «الحمد لله، فقد شعرنا بين «ريتشارد» و«دولميج» أننا في رابطة الممتنعين عن التدخين».

فوضعت الزجاجتين على البار المعد مؤقتاً، وقالت: «ذلك كان في الماضي، دعنا ننظر إلى المستقبل».

١٥

جاء صوت بوب فيرناد عالياً عبر الخط الرباعي الهاتفي وهو يتحدث من أتلانتا: «أمامك دقيقة للبدء يا «ريتشارد»». كان «فيرناد» المخرج التنفيذي الرئيسي لدى شبكة سي. إن. إن، وكان من بين مهـامّـه الإشـراف على التصوير الحي المباشر في المناسبات الهامّة، وخاصة إذا تضمنت عمليات نقل حي من مناطق خارجية بعيدة. وكانت المناطق التي سيتم رصدها وتغطية ردود الفعل فيها بخصوص التصويت على قرار مجلس الأمن التاريخي الذي رسم وقرر الحرب رسمياً هي: هيئة الأمم المتحدة، والبيت الأبيض، ووزارة الخارجية الأمريكية، ومبنى الكونجرس الأمريكي في واشنطن، والمملكة العربية السعودية، وعَمان، ولندن، وموسكو، وإسرائيل، بالإضافة إلى بغداد. وتحلّقنا حول الطاولة، ثم تابع «بوب» محدثاً «ريتشارد»: «ستتكلم بعد قليل مع «سوزان روك»».

قلت لهم: «سأعود في الحال» ثم مشيت عبر الصالة لأنظر من النافذة. كان قد مضى وقت طويل على انتهائنا من العمل في وزارة الخارجية، إلا أن مكتبي الوزير طارق عزيز ونزار حمدون كانا يشعّان بالأنوار المتلألئة. ورجعت إلى الغرفة رقم (٩٠٦) وأخبرت «ريتشارد» بذلك.

بدأت سوزان تقرأ المقدمة عندما قال «فيرناد»: «بقيت ثلاثون ثانية». ونظر إلي «روث» كأنما يريد أن يقول شيئاً لكنه أدار وجهه مغيّراً تفكيره، ثم سمعت سوزان تقول: «ننتقل الآن إلى بغداد في بث حي ومعنا «ريتشارد روث» من شبكة سي. إن. إن»، أجاب «روث» في صوت أكثر حدّة من صوته الإذاعي المعهود: «يوجد الكثير من الذباب في هٰذه المدينة، وسأكون هٰذه الليلة إحدى

حشرات الذباب الواقفة على جدران مبنى وزارة الخارجية».

قلت في نفسي: يا إلهي، ما هٰذا الذي يتكلم به «روث»؟!. ورأيت نفس ردة الفعل بادية على وجه «أنغريد»، بل ربما أسوأ، إذ دفنت رأسها بين يديها وتلعثم «روث» للحظة عندما رأى كلانا على تلك الحال، وذلك قبل أن يبدأ بسرد تفسير رد الفعل المتوقّع من العراق حول قرار مجلس الأمن رقم (٦٧٨). وبعد انتهائه صرخت به: «أتقول كثيراً من الذباب؟ كثيراً من الذباب؟ هل فقدت عقلك كلّياً؟».

أجاب روث ببلاهة: «وما الخطأ في ذلك؟ إنه تشبيه مناسب تماماً. لقد قلت في نفسي أني أودُّ أن . . .».

ـ «مهلاً يا «روث». أنا أعرف ما قلته، ولكني لا أفهم السبب الذي جعلك تقول ذلك».

روث: «لقد أدركت أن ما قلته لن يرضيك. كنت سأخبرك بما يدور في ذهني قبل البث، لكنني كنت متأكداً تماماً أنك سترفضه وتصر على قول شيء آخر».

ـ «هل هٰذه لعبة قمار؟ إنك عبقري فذ!! يكفي ما حدث هٰذه الليلة»، ثم سكبت قليلاً من الفودكا في كأسي، وأضفت: «لقد أثرت حنقي الشديد يا «ريتشارد»، ودفعتني إلى تناول المشروب بعد أن وصلت إلى الحافة».

أجاب ريتشارد بوجهٍ خالٍ من التعابير كلّياً: «عندما يصل بك الأمر إلى الاقتراب من الحافّة فستأتي بعوضة لتدفعك وتهوي ساقطاً».

قال فيجنر: «سيلقي الرئيس «بوش» خطاباً هٰذا اليوم. سنخبركم بموعد إلقاء الخطاب. تستنتج «لِمّي» أن من بين ردود الفعل على تصويت مجلس الأمن وضع قوات الولايات المتحدة في حالة الاستعداد القصوى، ورحبت اليابان بالقرار، وصرح «شيفرناندزه» أن تأثير القرار سيكون في إعطاء الطرفين وقتاً كافياً لإعادة النظر في المواقف مرة أخرى. وقال أن القرار يتعهّد لضحايا الكويت بأن المساعدة هي في الطريق إليهم، وأن العد التنازلي قد بدأ».

سألت: «هل ثمّة أخبار أخرى يا «جون»؟».

فيجنر: «كلا. هٰذا كل شيء. متى سيصل «هوليمان» إلى طرفكم؟».

ـ «يجب أن يصل إلى هنا مساء اليوم. يمكنك الاستفسار من مركز عَمان».

وفجأة سمعت صوت «هوليمان» عبر السلك الرباعي: «من عَمان إلى بغداد وأتلانتا».

ـ «حسن يا «جون». سأنتظرك في المطار مع سائق السيارة».

جون: «هٰذا رائع وجميل. انتهى الحديث مع عَمان».

ـ «حسناً يا «جون فيجنر»، سأبقى على اتصال معك».

فيجنر: «حسناً، انتهى الحديث من أتلانتا».

كان من الواضح أنه سيكون يوماً حافلاً بالعمل، فعلى الرغم من وجود حاجة إلى عمل تقارير مصورة حول ردود الفعل على التصويت الذي جرى في مجلس الأمن، كان علينا أيضاً الاستعداد لتغطية ما يحدث، إذا كان الرئيس «بوش» يحتفظ بمفاجأة أو أكثر ليظهرها أمام العالم. غير أن أمراً آخر كان يدور في خلدي. لقد أعطى الموعد النهائي المحدد في ١٥/كانون الثاني فرصة للهدوء والتقاط الأنفاس في العالم أجمع، وكذلك نحن في بغداد، ولكن من كان يعرف ماذا سيحدث بعد المهلة التي أُعطيت للعراق من أجل الانسحاب من الكويت والتي تنتهي في ١٥/كانون الثاني/١٩٩١؟!

كنّا منذ شهر آب نداب على تمديد تأشيرات دخولنا بعد كل عدة أسابيع، وقد كانت مدة تأشيرة دخولي شهراً كاملاً في جولتي الأخيرة في العراق. وتمثّلت المشكلة في أن تمديد أي تأشيرة كان يتطلب كتابة رسالة إلى وزير الثقافة والإعلام، وإجراء لقاء مع سعدون أو حتى مع ناجي، ثم الذهاب إلى مديرية الإقامة لوضع ختم التمديد على جواز السفر. لم أكن أريد أن تستمر الحال هٰذه مع قدوم يوم ١٥/كانون الثاني، بل كنت أريد من الفريق أن يتواجد في مواقع العمل بحيث يعمل أفراده سويّاً وبكفاءة في حالة حصول ما هو أسوأ.

وبعث «إيسون» على الفور برقية إلى ناجي يطلب فيها منحي تأشيرة دخول صالحة للاستخدام عدة مرات وذلك بوصفي الممثل الأول لشبكة سي. إن. إن في بغداد، غير أن ناجي لم يوافق أبداً، وقال بأنه لم يمنح أي صحفي حتى الآن تأشيرة دخول متعدّدة الاستعمال. ثم خطرت لي فكرة محاولة الحصول على وعد من ناجي بأن يسمح لطاقمنا في بغداد بالإقامة إلى مدة غير محدّدة، فذلك سيحل الكثير من المشاكل. لم أكن لأجازف على سبيل المثال بجعل «بليستون» يغادر البلاد أثناء الحرب بسبب روتيني حكومي تافه. وتوجّب عليَّ أيضاً تحديد أعضاء الطاقم الذين سيبقون في بغداد. كان طاقم الـ سي. إن. إن محدداً بسبعة أفراد: مراسلَيْن، ومخرجَيْن، ومصور، وفني صوت، ومحرّر أشرطة الفيديو. وكانت هٰذه المهام بطبيعة الحال مهاماً تطوعية اختيارية، فبغداد كانت دوماً منطقة خطر بالغ الأهمية.

كان من الواضح أنني و «أنغريد» و «بلي» ممن كانوا سيبقون في بغداد. وسيرجع «بلي» من إجازته ولا بدَّ أن يحصل مركز أتلانتا على موافقته الشخصية لكي يبقى في بغداد، ولكني لم أتخيّل

أن يرفض «بلي» ذلك. أما «مارك» و «سايندي» و «تريسي» فكانوا من الفريق حتماً وبصورة طبيعية، وكان «أكسل» و «بيرل» و «سيبل» مثل أفراد أسرة واحدة متماسكة، وكان من غير اللائق أن نباعد بينهم. وستكــون المشكلة هي اختيار مراســل ثان. ومن بين جميع المـراسلين العـاملين في سي. إن. إن في بغداد، كان «كلانسي» هو الوحيد الذي يأتي في المرتبة الثانية بعد «بلي» من ناحية الخبـرة العملية. غير أن «جيم» كان في المملكة العربية السعودية لأن زوجته كانت على وشك الولادة، وستكون العراق بلداً لا يتناسب مع حالة زوجته. أما «جيمس دوغ» فقد وعد ابنته القلقة أن تكون رحلته السابقة إلى بغداد هي آخر رحلة له. إذن، لا بدَّ أن يقع اختياري على «ريتشارد روث»، وقـررت ذلـك. أجـل، إن «روث» أو «فتى المـوت» ملائم جداً للعمـل، فهو و «بلي» منسجمان كل الانسجام، وأنا و «أنغريد» نحبه ونعزّه كثيراً، وفوق كل ذلك، كان «ريتشارد» من بين أعظم المراسلين شهرة في أوساط مراسلي شبكات الأخبار المصورة. وكان العائق الوحيد هو أن يتّخذ «ريتشارد» قراره الشخصي بالموافقة على البقاء في بغداد. وحدّثتُ نفسي بأنه ما زال أمامنا شهر ونصف على انتهاء موعد الإنذار النهائي الموجّه للعراق.

شرحت خطّتي لـ «انغريد» ثم سألتها: «ما رأيك بها؟!».

أنغريد: «إنها خطة جيدة. وسيكون «ريتشارد» كفؤاً في عمله».

ضحكت قائلاً: «أستطيع منذ الآن تخيّل «ريتشارد» وهو مثبت إلى الحائط بالسلاسل داخل ملجأ مدني، وكل منا على إحدى جانبيه من أجل إرغامه على العمل وإلاّ نفثنا دخان السجائر عليه».

أنغريد: «أنت قاسٍ وبلا شفعة يا «ويني»».

ـ «أنـا جاد فيمـا أقـول. يجب أن نطلب من السيدة نهـاد البحث عن ملجأ فيه قسم لغير المدخنين، فهذا سيكون على الأرجح أول ما يريد «ريتشارد» الاستفسار عنه».

أنغريد مازحة: «سأبحث هذا الموضوع بعد إتمام الموجز الصحفي. سأذهب الآن لأرى «جو»».

ناجي: «أنا متأكد من أن الوزير سيكون مع الصحفيين في وقت لاحق إذا استطاع أن يدلي بتصريحات حول الموضوع».

أصررت قائلاً: «لا بدّ أن لديك وجهة نظر حول قرار مجلس الأمن».

ناجي: «بـالطبع لديّ رد فعل حوله يا «روبرت». إن هذا القرار هو محاولة أخرى لإرهابنا وتخويفنا، وشكل آخر من أشكال الضغط. وأنت تعلم أننا صرّحنا مرات عديدة بأننا لن نخضع أبداً للضغط».

المحت مجيباً: «يبدو أن ما سيعقب يوم الخامس عشر من كانون الثاني سيكون حقيقياً».

ناجي: «ليست لدّي وسيلة لأعرف وأتحقق من ذلك، و١٥/كانون الثاني هو بالنسبة لي مجرد تاريخ آخر سيأتي كأي يوم آخر مثبت على التقويم».

- «هل تسمح باستخدام تعليقاتك هٰذه يا ناجي؟ ما رأيك باستخدامها كخلفية للأخبار؟ إن شبكة سي. إن. إن تتوق بشدّة وتتلهّف للحصول على رد فعل عراقي حول قرار مجلس الأمن».

ناجي: «كلا، أرجو ألاّ تقوم بذلك. هٰذه وجهة نظري الشخصية. وسيتكلم الوزير معبّراً عن موقف العراق الرسمي».

- «على أي حال، فقد حصلت على موافقتك بشأن تأشيرات الدخول لطاقم سي. إن. إن النهائي الذي سيبقى هنا».

ناجي: «نعم، لقد حصلت على موافقتي. زوّد سعدون بأسماء أفراد الطاقم في أسرع وقت ممكن، وسأقوم أنا بالترتيبات الضرورية».

اتصلت مع «إيسون» من مكان غير غرفتي تجنّباً لسماع الآخرين ما نتحدث فيه باستخدام الخط اللاسلكي الرباعي، وقلت له: «هٰذا هو الاتفاق سيتوجّب عليك بحث الموضوع مع «بلي» واجعل «سايندي» مسؤولة عن متابعته. سأتكلم مع «تريسي» و«مارك» هنا. إني أعتقد أن هٰذا أفضل فريق ملائم للعمل».

إيسون: «هٰذا مفهوم. بالمناسبة، ألم يحدّثك «إدْ إيرل» بعد بشأن خططنا لليلة ١٥/كانون الثاني؟».

- «كلا، ما الذي تنوي فعله؟».

إيسون: «حسناً، لا تتحدث بما سأخبرك به الآن: سننشر ونذيع ونبث كل شيء على الهواء مباشرة ومن كل مكان في بغداد في ليلة ١٥/كانون الثاني، وسنستخدم إضافة إلى تقاريرنا الإخبارية الخاصّة خبراء ومحلّلين. سنقوم فعلاً بإنجاز متميّز. والشبكة ترغب أيضاً في إجراء مقابلة حيَّة مع الرئيس صدام حسين . . .».

- «هل ستكون المقابلة في ١٥/كانون الثاني؟!».

أكد إيسون: «أجل، وهي تصادف انتهاء مهلة الإنذار الأخير».

- «وستكون حيّة على الهواء مباشرة؟».

- «أجل ستكون حيّة».

ذكرته قائلاً: «أنت تعرف أن صدام لم يقبل أن تكون المقابلة الأولى التي أجريناها معه حيّة على الهواء».

أجاب إيسون بابتهاج: «ربما يقبل الآن، وهٰذا يستحق المحاولة. يجب الاستعداد لإجرائها إذا ما نجحنا في الحصول على الموافقة».

ـ «هل سيجري «بيرني» تلك المقابلة المزمعة».

إيسون: «لا أعرف بعد إن كان يرغب في التواجد في بغداد يوم ١٥/كانون الثاني القادم. سيتحدّث «إدْ» معه بخصوص هٰذا الموضوع».

ـ هل ثمة أخبار أخرى».

ضحك إيسون مجيباً: «أليس ما سمعته كافياً؟».

قلت مازحاً: «أنت فقط ترغب في تحقيق ذلك، أليس صحيحاً؟».

إيسون: «إذا كان هناك من يستطيع القيام بما ذكرناه، فهو أنت يا صديقي العزيز. حظاً سعيداً».

دخل «هوليمان» إلى المكتب قائلاً بصوتٍ عالٍ: «هكذا إذن!! أجل، هٰذا جيد وحسن». وألقى نظرة على مكان العمل ثم نظر من خلال النافذة إلى حوض السباحة والحدائق، وسأل: «ما هٰذا البناء هناك؟» مشيراً إلى (برج بغداد) الذي يقع في منتزه الزوراء ويبلغ ارتفاعه (٤٥) متراً وله مظهر مشابه للأبنية التي يتخيل بناؤها مستقبلاً.

أجبته مبيّناً: «هٰذا مطعم دوّار وحانة للرقص. نحن نسميه «الفطر العملاق». وإذا ما اندلعت الحرب فستتمكن من إخبار مشاهديك أن الفطر العملاق ناكس على قبّعته».

ضحك هوليمان بخفوت معلّقاً: «أجل، لقد فهمت ما تقصده».

ـ «إذا ما نظرت إلى يسارك هناك فسترى على قمة تلك الهضبة موقعاً صغيراً لإطلاق الصواريخ».

ضحك بعصبية معلّقاً: «إني أراه. أجل، موقع إطلاق صواريخ عند ساحة سكناك الخلفية، يا له من شيء عظيم».

صاح الحمّال من الصالة: «من فضلك، أين أضع هٰذه الحاجيّات؟».

أشار جون إلى صندوقين كبيرين مستقرّين جيداً على عربة الأمتعة وقال: «وزوّد الحمال برقم الغرفة. وأخرج «جون» ورقة نقدية قيمتها عشرة دنانير عراقية وسألنا: «كم ديناراً أعطي هٰذا الخادم؟».

قلت له: «ما بيدك تساوي ثلاثين دولاراً. يا إلهي، إني لا أدفع مثل هٰذا البقشيش الكبير في فندق رتز».

جون: «ماذا تقول؟ ثلاثون دولاراً؟ كلا، لن أدفع بقشيشاً يعادل ثلاثين دولاراً لهذا الرجل لقاء نقل حاجيّاتي فقط، وهما حقيبتان. هل تظن أنه سيقبل دولارات أمريكية؟».

ضحكت مجيباً: «أنا متأكد من أنه سيقبل ذلك». وفتش «جون» محفظته باحثاً عن ورقة نقدية عليها صورة الرئيس الراحل «أبراهام لينكولن» ثم قال: «حسن، هٰذه خمسة دولارات لقاء أتعابك يا سيدي»، ثم أضاف بعد برهة: «قبل أن أنسى، هٰذه لك يا «ويني»»، ومد يده إلى حقيبة يد فيها حاجيّات مشتراة من السوق الحرة في المطار وأخرج زجاجة خمر من نوع فنلانديا، وأضاف: «يا له من مشروب صافٍ شفاف، أعتقد أن هٰذا هو مشروبك المفضّل يا سيدي».

ضحكت قائلاً: «إنه المفضّل عندي من دون شك. ما هو المشروب الذي تفضّله أنت؟!!».

جون: «أنا متيّم ومولع بمشروب بني اللون، ولكنهم لا يبيعون مشروبات «جاك دانيلز» في السوق الحرة في عُمان».

- «قم بلعبة ذكية وستحصل على الأغلب من «جو ويلسون» على بعض مشروبك «جان دانيلز» الموجود في السفارة الأمريكية، هٰذا بافتراض أن المسؤولين لم يستهلكوا بعد ما هو موجود في مخزن تموين السفارة».

جون: «سأتذكر ذلك». ثم نهض لمشاهدة ملصق كبير مؤلف من قصاصات الصحف والإعلانات والمجلات وغير ذلك، وكان الملصق على حائط غرفة التحرير وعنوانه: «حلم الخيال: التلفزيون في منطقة الصفر».

شرحت له معلّقاً: «أعتقد أن «مارك» و«سايندي» هما اللذان بدءا بفكرة الملصق، وأخذ يزداد حجماً شيئاً فشيئاً».

سأل جون وعيناه تومضان: «من صاحبة هٰذا السروال التحتي النسائي القصير وصدرية (حاملة الثديين هٰذه؟».

- «إنها حاجيّات «سايندي»، وقد اعتادت على الاغتسال بهما لأنها نسيت إحضار ملابس الاستحمام. لقد أوجد هٰذا قدراً كبيراً من الإثارة والتعليقات».

جون مبتسماً: «أراهن على حصول ذلك».

أصبح الملصق نقطة تجمّعت فيها قائمة أمنيات كل شخص منا، فاحتوى على قائمة بأمنيات كل واحد منا، مثل شرائح البيتزا، وماكينات تحضير البوظة والمثلجات بصورة آلية، وأغلفة قطع

الشـوكـلاتة وكعك (أوريو) و(بيبتو بسمول)، ودواء إموديوم للإسهال، وثبت على الملصق أيضاً مقاطع تصور الحب الجنسي مأخوذة من رواية الكاتب «سيدني شيلدون»، ونتائج لعبة الباولنج من الشبكات الإخبارية الأخرى، ورسومات كاريكاتير، وقصاصات ورق معلقة حديثاً، وتشكيل فني من زبدة الفول السوداني لطّخت بقعة من الملصق، وأنبوب بلاستيكي لشرب عصير البرتقال حيث زوّدناه ببطارية ثم استخدمناه في تزويد جهاز قياس الذبذبة بمدرج صوتي جديد خاص بأشرطة التسجيل المصورة.

واختفت حاملة الثديين الخاصة بـ «سايندي» عن الأنظار مع بداية الحرب. وسادت شكوك متعاظمة مفرطة بأن من أخفاها هو الأمن العراقي. ولكن الواقع أشار إلى أن مرتكب هٰذه الفعلة هو صحفي بريطاني كان متوجّهاً في طريقه للمشاركة في إحدى الحفلات، فقام بتمزيقها.

قال الرئيس بوش: «نأمل في التوصل إلى حل سلمي، ولكن إذا اندلعت الحرب فلن نأمر قواتنا بالبقاء مكتوفة الأيدي، وأتعهد لكم بألاّ تنتهى الحرب بنتائج مفجعة. إني أؤكّد لكم أن هٰذه الحرب لن تكون مثل حرب فيتنام». كنا كعادتنا مجتمعين حول الجهاز ذي السلك الرباعي عندما أعلن «بوش» فجأة أنه سيعطي فرصة أخرى، فقد صرّح «بوش» أنه سيوجه دعوة إلى وزير الخارجية العـراقي طارق عزيز لزيارة واشنـطن خلال الجـزء الأخير من الأسبـوع الـذي يصـادف التاريخ ١٠/كانون الأول، وطلب «بوش» من وزير خارجيته «جيمس بيكر» أن يذهب إلى بغداد حيث يأمل أن يستقبله صدام حسين في وقت مناسب ما بين ١٥/كانون الأول و١٥/كانون الثاني من العام القادم.

وصرخت: «كلام جيد. إنها أنباء رائعة مثيرة».

وأكد بوش مضيفاً: «لن تكون هناك مفاوضات، وآمل أن ما سيتمخض عن هٰذا اللقاء هو تبيان أننا مستعدون لمواجهته وجهاً لوجه، وأننا ملتزمون بشدّة بقرارات الأمم المتحدة، وأظن أن صدام لم يشعر بضرورة الإلتزام بهذه القرارات. وبعد ما عمله صدام، فإني لا أرى مجالاً أبداً لإبداء تنـازلات من طرفنـا، أو لإعـطائـه مخرجاً ينقذ ماء وجهه. ليست هٰذه بالطريقة التي يعامل بها العدوان، وسوف لن نعالجه بطرق أخرى تختلف عما أوضحناه هنا». وقال بوش إنه غير متفائل بنجاح المسعى الدبلوماسي الذي اقترحه للتوّ. وأضاف بكل صراحة: «ليس بمقدوري إخباركم أنني أتوقع عدم تحقيق نجاح كبير بخصوص هٰذا المسعى». وقلت: «إنها خطوة أولى جيّدة، ولكن يا إلهي . . »، ورفعت «أنغريد» صوتها قائلة: «وما هٰذا الذي ذكره عن إنقاذ ماء الوجه».

ـ «هل يدرك «بوش» أن في هٰذا الجزء من العالم . . ».

وقطع حديثنا صوت ولْ كنغ عبر الخط الرباعي: «مرحباً يا بغداد».

أجبت: «تكلم يا «وِلْ».
وِلْ: لقد دخل علينا «توم» للتّو وأخذ يكلم أفراد المكتب بأسلوب قاس. إنه يريد منك ومن زملائك إعداد سيرة مختصرة عن حياة طارق عزيز.

ـ «أنت تعلم، أن موعد بث الأخبار سيحين بعد أقل من ساعتين».

وِلْ: «أعلم ذلك، أعلم ذلك، وهٰذا ما أخبرته به لكنه أصرّ على مطلبه».

ـ «أنصت يا «وِلْ»، إنها فكرة جيّدة، ولكن ليس لدينا متسع من الوقت لتحقيقها».

أجاب وِلْ متعاطفاً معي: «أنا متفهم لموقفك، ولكن ما عساك أن تفعل؟».

نظرت إلى ساعتي وفكرت بسرعة ثم أجبته: «دعنا نرى. يجب عليك قبل كل شيء أن تحرّر معظم اللمحة الموجزة في مكتبك في أتلانتا. وليس الحصول على الصور بمشكلة، لأن لدينا كثيراً من التسجيلات عن لقاء طارق عزيز مع «بريماكوف»، ولقاء طارق مع العاهل الأردني الملك حسين، ولقاءات طارق التي أجراها في مجلس قيادة الثورة. أُطلب من مسؤول الملفات أن يبحث عن هٰذه التقارير المصوّرة عندكم. إن ما سأحتاجه بالفعل هو معلومات لوضعها في افتتاحية التقرير، ومعلومات لتشكيل الخلفية، وسيرة حياته الذاتية بشكل مفصّل ومسهب، هٰذا إضافة إلى الصوت يمكننا الحصول على مقطع طارق عزيز نفسه، ولكن يتوّجب علينا البحث عن شخص ما ليتكلم عن طارق ومؤهلاته العلمية، ومهاراته، أنت تعرف ماذا أقصد . . ».

قاطعني وِلْ بقوله: «تريّث، تريّث. سنجري عندنا بعد نصف ساعة تقريباً مقابلة مع شخص يدعى «كين كاتزمان»، وهو من الرموز السابقين في وكالة المخابرات الأمريكية «CIA». وقد أُرسل إلى بغداد وقام بتتبّع حركات القيادة العراقية».

ـ «هل سبق له أن التقى بطارق عزيز؟».

وِلْ: «لا أعرف إن التقى به أم لا، ولكنه يعرف حتماً من هو طارق عزيز».
قلت مازحاً: «إن ساعي البريد الذي عندي يعرف أيضاً من هو طارق، ولكني لن أدعه يظهر على شاشة التلفزيون».
أجاب وِلْ محتجّاً: «لا، لا. إن «كاتزمان» خبير حقيقي، ومحلل».

ـ «فليقم «كاتزمان» إذن بهٰذا العمل، فأنا متأكد أن «جو ويلسون» سيرفض الظهور أمام عدسة التصوير وسيترك هٰذا الموضوع لتقوم به واشنطن. أما ناجي ونزار فسيرفضان ذلك حتماً لأن أسلوب عملنا الصحفي غير معمول به هنا في العراق».

وِلْ: «هل تحتاج إلى شيء آخر؟».

ـ «أحتاج فقط إلى معلومات افتتاحية في أسرع وقت ممكن».

نادت تريسي من الغرفة الأخرى: «لقد أحضرت للتّو شريط لقاء طارق مع «بريماكوف»، ومع ياسر عرفات، ومع النمساوي «فالدهايم»، واللقاء الأخير المتلفز في تلك الليلة. ماذا تريد أيضاً؟».

أجبتها صارخاً: «أريد شريط لقاء طارق مع الرئيس صدام، وأن تقومي بالبحث عمّا ذكره طارق عن مسألة «الكرامة والعزة» واستخلاصها، وهو اللقاء الذي أجراه معه «بلي» و «كلانسي». لا أعرف إن كنا سنستخدم هٰذه النقطة أم لا، ولكن يجب أن تكون جاهزة في حالة تقرير ضمها إلى اللمحة الذاتية الموجزة عن طارق».

سألني ريتشارد: «ماذا تريد عمله بخصوص تقريري؟ لقد أنهينا ثلثيه تقريباً.

كان تقرير «ريتشارد» يغطّي رفض العراق الرسمي لما أسماه: «القرارات الأمريكية المفروضة على مجلس الأمن». وبعد أن ترأس الرئيس صدام اجتماعا عقده مجلس قيادة الثورة، أصدر بياناً قال فيه بأن العراق «لن يخضع وينحني أمام سياسة الغطرسة والإرهاب».

قلت لـ «ريتشارد»: «أكمل عملك في هٰذا التقرير. سيتولّى «جون» هنا قضية طارق عزيز».

ذهبت إلى الغرفة المجاورة الأخرى وطلبت تأمين مكالمة هاتفية مع نزار، غير أن نائب مكتبه قال بأن نزار في اجتماع آنذاك فتركت له رسالة. ورفعت يد الهاتف واتصلت مع ناجي.

قلت لناجي مبيّناً له الوضع: «إني في مأزق حرج، أليس باستطاعتك تزويدي بشيء ما من التصريحات، حتى وإن استعملتها كخلفية لتقرير إخباري».

ناجي: «قد يصرّح الوزير بشيء ما غداً».

رجوته قائلاً: «مع كل إحترامي لك، فإني لا أستطيع الانتظار إلى يوم غد».

أجاب بعد فترة توقف قصيرة: «حسناً. سيكون من الصعب جداً أن نرفض عرض «بوش» بين عشيّة وضحاها. إننا لسنا راضين عن الشروط الأساسية ولكن من المرجّح أن نقبل بها. المهم هو أن يأتي «بيكر» لكي يستمع لنا وليس فقط ليلقي علينا محاضرات ويفرض علينا أشياء وأشياء...».

ـ «شكراً جزيلاً يا ناجي، وأقدّر هٰذه الخدمة التي أسديتها لي».

وبعد ذلك اتصل «وِلْ» من أتلانتا عبر الخط الرباعي.

وِلْ: «من أتلانتا إلى بغداد».

وصرخت عندما فحصت مرة أخرى الملاحظات التي سجلتها: «أخبروا «وِلْ» أني سأكلمه حالاً» ثم هرولت إلى الغرفة (٩٠٦) وجلست على «كريستي» قائلاً: «تكلم يا «وِلْ»».

وِلْ: «حصلت على بيان السيرة الذاتية الخاص بطارق عزيز، عندما تكون جاهزاً . . ».

ـ «أنا جاهز الآن يا «وِلْ»، إبدأ بسردها».

وِلْ: «طارق عزيز هو الرجل الوحيد على المذهب النصراني ضمن دائرة رجال صدام حسين الخاصة الداخلية»، واجتهدت أنا و«هوليمان» في تسجيل الملاحظات، وأضاف: «تلقى شهادة في الأدب الإنجليزي من جامعة بغداد».

قلت لـ «أنغريد» ستشكل هٰذه المعلومات تقريراً مصوراً عظيم الشأن».

وِلْ: «في عام ١٩٦٨، وبعد صراع على السلطة . . ».

قلت لـ «جون»: «تابع الكتابة، إني ذاهب للتبوّل».

وعندما عدت ثانية، كان «وِلْ» قد انتهى من سرد ما لديه. ولم تضف السيرة الذاتية إلا القليل إلى ما كنت أعرفه عن طارق عزيز.

وأخذ «وِلْ» يراجع قائمة تحتوي على التقارير المصورة واللقاءات، وقال: «هٰذا كل ما لديَّ. سأخبرك الآن بمحتويات مكتبة الأشرطة المصوّرة». ثم أضاف: «سأتصل بك عندما أحصل على تسجيل للمقابلة مع «كاتزمان». من ناحية أخرى، أعلم أن وقتكم ضيّق جداً، ولكن إذا كان باستطاعتك إخبارنا في أسرع وقت عمّا ستحتاجه من أجل إدخاله إلى التقرير فستكون قد ساعدتنا كثيراً. يريد المنتجون هنا إنجاز التقرير بسرعة من أجل بثّه في الوقت المناسب».

ـ «إننا لم نكتب النص المرفق به بعد».

وِلْ: «أعلم، أعلم ذلك. ولكن عندما تستطيع أن . . ».

قلت لـ «هوليمان» الذي كان جالساً إلى حاسبه الآلي: «لنتابع العمل»، ثم أشعلت سيجارة وأخذت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً. وبدأت أفكّر في صياغة النص وقلت: «حازم، وداهية، ومتكلّم قدير. هٰذه الصّفات استخدمت لوصف طارق عزيز، وهو الرجل الوحيد على المذهب النصراني في دائرة صدام حسين الداخلية»، وقمت مع «هوليمان» بصياغة النّص المطلوب خلال ثلث ساعة، مع إضافة المقطع الصوتي الذي يتكلم عن «الكبرياء والعزة العربية»، والذي ارتأيت أنه ملائم جداً لنهاية التقرير المصوّر والتي ظهر فيها «ريتشارد» واقفاً يسرد الخاتمة». وقرّرت أن يعتمد الجزء الأخير على تعليقات ناجي واصفاً إيّاه بـ «مسؤول عراقي كبير».

نادتني أنغريد: ««وِلْ» يطلبك على الخط».

- «تكلم يا «وِلْ»».

وِلْ: «حصلت على تصريحات «كاتزمان»، هل الوقت مناسب لكي . . .».

- «إقرأها يا «وِلْ» . . .».

وِلْ: «إن له وزناً كبيراً ضمن تشكيلة الحكومة العراقية ومناصبها الموزّعة. سيكون له تأثير إيجابي ومثمر على الرئيس صدّام».

قلت وأنا استشيط غضبا: «هل هٰذا كل شيء؟ هل هٰذا هو أفضل ما توصّلت إليه؟ إنها معلومة تافهة. نحن نعرف أن لطارق عزيز موقع قوي ونفوذ في التسلسل الهرمي للسُّلطة العراقية، ومن الطبيعي أن يكون له تأثير ونفوذ».

وِلْ: «أوافقك الرأي أن ما قلته ليس هو الأفضل. اعتقد أنه حصل نوع من سوء التفاهم حول الغرض من المقابلة».

- «ولكنها ليست عملية جراحية، إنها مقابلة».

سأل وِلْ بكآبة: «أعرف ذلك. ماذا ستفعل؟!».

- «يا للجحيم!! إذا اضطررت لاستخدامها فضعها بعد الجملة الأولى. ولكن يجب ألاّ نستخدمها».

وِلْ: «هل زملاؤك على ما يرام؟ هل ستنجح في إتمام التقرير عن طارق؟».

قلت مازحاً: «لا أدري. لم نبدأ بعد بكتابة النص، فقد كنّا ننتظرك لتزويدنا بأقوال «كاتزمان» . . .».

وِلْ: «ماذا؟ أنت تخدعني، أليس كذلك؟».

- «هل سبق لي وأن تأخرت في عمل شيء بعد حلول موعده؟».

وِلْ: «كلا، لا أذكر أنك في مرة من . . .».

- «إذن لماذا تسألني هٰذا السؤال دائماً». وضحكت مضيفاً: «أتكلم بجدّية الآن: سننجز المطلوب في الوقت المحدَّد».

انتهينا من كتابة النص، وصوّر «جون» الخاتمة التي أدّاها واقفاً، وحرّرت «تريسي» من التقرير قدر استطاعتها. وأعطيت أتلانتا الإرشادات النهائية بشأن ما نحتاجه من أعمال التغطية المصورة.

استطعنا وبالكاد تنفيذ المطلوب في الوقت المحدد، وهٰذا ما يعوَّل ويعتمد عليه بالنسبة لإدارة الأخبار وتحريرها.

قلت لـ «جون» عندما جلسنا لتناول المشروب: «كما ترى، لم نكن لنستطيع عمل ذلك من دون وجود الخط الرباعي. ليس من المجدي في هٰذا المكان أن تعتمد على الاتصالات الهاتفية».

- «أنا لا أعرف شيئاً عن الخط الرباعي يا صديقي، ولكن لولاك لما تمكنا من إنجاز العمل. لقد كان ذلك مثيراً للإعجاب».

- «أستطيع القول بأن حبي لهذا المكان قد يتزايد تدريجياً».

- «هٰذا المشروب الرائق - كما تدعوه أنت - سيجعل المكان ظريفاً وممتعاً في الليل. ما رأيك بتناول العشاء؟» ثم طلبت قسم خدمات الغرف.

تناولنا آخر شريحة من شرائح لحم الحَمَل، ثم ابتسمت بتكلّف وقلت لـ «جون»: «هٰذا العشاء يكلّف (١٨٠) دولاراً، هل تصدّق ذلك وتوافقني الرأي؟».

أجاب جون ضاحكاً: «يا رباه، (١٨٠) دولاراً؟! لا أذكر أنني تناولت عشاءاً يكلف (١٨٠) دولاراً منذ أن التحقت بشبكة سي. إن. إن».

- «وكذلك كان حالي إلى أن قدمت بغداد. إن فرائصي ترتعد كلما فكّرت بما سيطلبه منّي قسم المحاسبة في الفندق مقابل هٰذا العشاء».

من الأمور التقليدية وجود توتُّر دائم في العلاقات بين العاملين في تغطية الأحداث والأخبار وبين المسؤولين عن دفع المال لهؤلاء العاملين والمراسلين. وهٰذا التوتر يصل في بعض الشبكات التلفزيونية الإخبارية الأخرى إلى درجة عالية. ولأن الميزانية التي تقررها سي. إن. إن هي أقل من غيرها نظراً لتقتيرها وحرصها على الدولارات، فإن الحال تهبط بك إلى مستوى مزر بالرغم من سمعة وشهرة الشبكة. وعلى سبيل المثال، قامت أعظم شبكة أخبار أهمية في العالم وهي (سي. إن. إن) بحجز مكان إقامة لي قرب قاعدة إدواردز الجوية العسكرية، وذلك من أجل تغطية عودة سفينة الفضاء الأمريكية (كولومبيا) إلى الأرض عام ١٩٨١، وكان المكان وضيعاً جداً، يعجّ بالصراصير، وبغيضاً. وقد حسدت زملائي من الشبكات الأخرى لأنه سمح لهم بدفع بضعة دولارات إضافية والإقامة في نزل للمسافرين يقع على الطريق العام. ونظراً لكوني موظفاً حميد الطباع، فقد صبرت على الوضع وبدأت أسحق صرصوراً تلو صرصور تحت أقدامي، ووضعت فوق رأسي بطانية ملوثة بمني الرجال، ثم حاولت النوم. وفي اليوم التالي خرجت منذ الرابعة صباحاً للاستعداد لتغطية الهبوط، ولم أرجع إلا في وقت متأخر من الليل. وفوجئت تماماً عندما اكتشفت

أن أحداً غيري مقيم في الغرفة حيث شاهدت حقيبة أخرى موضوعة بجانب حقيبتي. ولكن ما حدث معي لا يمكن مقارنته بما حصل مع المهندس العامل معنا واسمة «جيري كوتش»، حيث ترك غرفتـه؟ آنذاك غير مقفلة. وقد فوجىء «جيري» برجل وامرأة عجوزين يمارسان الزنى على سريره. وقـدّمت بطبيعـة الحـال شكـوى إلى الإدارة التي خصمت أجـرة الغرف. كانت شبكة سي. إن. إن مسرورة بهذه الصفقة التجارية الجيدة حيث خصمت أجرة الغرفة، فعاودت وحجزت لي في نفس المكان إبان المرحلة الثانية لسفينة الفضاء.

تحسنت معاملة شبكة سي. إن. إن كثيراً منذ ذلك الحين إلى وقتنا الحالي. حيث تناولت عشاء من شرائح لحم الحَمَل في فندق الرشيد وبكلفة (١٨٠) دولاراً، بعد أن كانت أجرة الغرفة في الليلة الواحدة عام ١٩٦١ حوالي سبعة عشر دولاراً ونصف في نزل عام للمسافرين. غير أن المسؤولين الماليين كانوا لا يزالون شديدي التمسك بالنظام والرسميات، فبعد عودتنا من تغطية أحداث أوروبا الشرقية والتي حصلت على جائزة أحسن تقرير مصور، دعتني نائبة مدير الشركة المالي واسمها «آلما نوت» إلى مكتبها، وهي سيدة مرعبة وعدوّي اللدود عند إجراء الحسابات المالية. وطلبت مني «آلما» أن أشرح لها سبب صرفي ما يعادل (٥٤) دولاراً يومياً عن كل فرد من طاقم الشبكة خلال تغطية الثورة الرومانية العنيفة. وقالت «آلما»: «كان تحت تصرفك عدّة سائقي سيارات، فلماذا لم ترسل أحدهم إلى مخزن أطعمة معتدل الأسعار، مثل محل (سفن ـ إليفن)، ليشتري شرائح من اللحم البارد والجبن مع صندوق كوكا كولا، إن الشبكة لم تكن لتدفع ثمن أطعمة الفندق الغالية، كأن تشتري لحماً معداً للغذاء من الفندق ثم تعمل معه لفافات».

وحاولت أن أبيّن لـ «آلما» أن أحد أسباب اضطراري لصرف المال كان واقع رومانيا وحالتها المزرية جداً، بحيث لم نجد ما نأكله هناك. كان الشيء الوحيد المعروض في المخازن ـ هٰذا إن كان هناك مخازن آنذك ـ هو رغيف الخبز المتعفن الذي مضى عليه أسبوع، وربما تجد البيضة المسلوقة أو لا تجد.

تشدّقت «آلما» بالكلام في النهاية قائلة: «أنا أفهم الوضع. ربما كانت رومانيا بلداً مكلفا، ولكن تذكّر دائماً ما قلته لك للتو. إن هٰذه المخازن المعتدلة الأسعار توفّر علينا كثيراً من الأموال».

كان «جون» قد أعد كمية من القهوة المخمّرة للتّو عندما وصلت المكتب وسألته: «كيف كان التحرير الذي أعددناه عن طارق عزيز؟ افترض أنك اتصلت مع أتلانتا للتأكد من حسن العمل؟».

جون: «أجـل، كان شريطاً رائعـاً. وقـد استخدمت الشريط عدة برامج إخبارية في معظم نشراتها الإخبارية، مثل: (ساعة مع الأحداث العالمية) و(العالم اليوم) و(أخبار المساء).

ـ «هٰذا عظيم. هل من أخبار جديدة حصلت عليها طوال الليلة الماضية؟».

راجع جون ملاحظات كتبها ثم قال: «استدعاء ثلاثة آلاف من جنود البحرية الاحتياطيين، الرئيس «بوش» يؤجل زيارته إلى اليابان، سرب من طائرات (ستيلث) الأمريكية يتجه إلى منطقة الخليج العربي. هٰذا كل شيء».

ـ «هل صدر تعليق رسمي عن قبول العراق لعرض «بوش» أو رفضه؟».

جون: «لم يصدر شيء حتى الآن. وأتلانتا تقول إنها لم تسمع شيئاً».

ـ «إذن، وكما قال ناجي، سيقبلون عرض «بوش» على الأرجح».

وبعد برهة قطع علينا الصمت أصوات مكبرات الصوت وهي تكبّر وتنشر صداها في أنحاء بغداد من جميع المساجد، وطنين أجراس الكنائس. نظرت إلى ساعتي فوجدتها الثامنة صباحاً، وقلت: «إنه يوم الشهداء. سنحاول الحصول على بعض المعلومات من «ويلسون» عندما يخرج لأداء شعيرة الصلاة». كان من المتوقع أن يحضر مراسم الاحتفال جميع أعضاء السلك الدبلوماسي لكافة الدول التي لها سفارات في بغداد، حيث سيجتمعون صباحاً عند نصب الشهيد الذي شيّد ليبقى شاهداً حيّاً على الذين سقطوا أبان الحرب العراقية ـ الإيرانية التي تسمى في بغداد باسم (حرب الخليج).

دخلت أنغريد الغرفة ملقية التحية: «صباح الخير يا رجال. هل طلب الزملاء لي قهوة تركية؟».

كانت «أنغريد» تفضل شرب القهوة التركية في كأس طويلة مع الحليب صباح كل يوم لتبدأ العمل.

اتصلت مع قسم خدمات الغرف وطلبت القهوة، ثم أجبتها: «آسف يا عزيزتي. لقد غبت عن الأنظار مبكراً في الليلة الماضية».

أنغريد: «أجل، تناولت المشروب مع صديقي «نوربرت» ثم عرجت على مكتب آي. تي. إن».

ـ «هل ظهرت الآنسة أماني في الساحة مرة أخرى؟».

أنغريد ضاحكة: «ربّاه!! وهل ظهرت قبل هٰذه المرة حتى تظهر الآن!!».

ـ «يجب علينا تأمين مترجم دائم يتنقل معنا. لن يكون حظنا جيداً عندما تنتهي تأشيرة دخول أماني».

أنغريد: «أعلم ذلك. سأطرح هٰذه المسألة على السيد بطرس الذي يُدَرسني اللغة العربية».

قال جون معبّراً عن إعجابه: «هل لديك متّسع من الوقت لتعلّم اللغة العربية بالرغم من كل أعباء العمل؟ أنت رائعة يا «أنغريد»».

قلت ضاحكاً: «على رسلك يا «جون». لم أكن أعرف أنك مراسل صحفي ومحقق».

قلت لـ «ريتشارد»: هكذا سيكون توزيع أعضاء الطاقم: أنت مع «بلي»، وأنا مع «أنغريد»، و «مارك» مع «سايندي» و «تريسي». ما رأيك بهذا؟».

أجاب مكشّراً: «إنه مغرٍ. سأفكر بالموضوع لاحقاً».

- «وماذا جَدَّ في الموضوع حتى تفكّر به؟».

ريتشارد: «ماذا تقصد بسؤالك ماذا جَدَّ في الموضوع؟ إنه قرار حياة أو موت؟».

- «إن كل قرار بالنسبة إليك هو مسألة حياة أو موت».

ريتشارد مبتسماً: «هناك العديد من العوامل والنواحي التي يجب التفكير بها».

- «لا توجد أمور كثيرة تستحقّ التفكير، فإما أن تقرّر البقاء هنا، وتغطية أحداث الحرب على الهواء مباشرة من خلف خطوط القتال كصحفي جيد، أو أن تذهب إلى المملكة العربية السعودية لتنضم إلى مجموعة الصحفيين الذين تسيطر عليهم وتقودهم جهات عسكرية أمريكية. لقد رأيت يا «ريتشارد» تلك المؤتمرات الصحفية هناك، إذ يسأل أحد المراسلين: «كيف وضعنا يا جنرال؟ هل نحن على درجة كافية من الاستعداد؟». إن هؤلاء الزملاء هناك لا يملكون عقولاً. يا إلهي، إنه شيء محرج».

ريتشارد متنهّداً: «أجل، أعلم ذلك. أنت محقٌّ تماماً يا «ويلي»».

- «إني أتكلّم عن العمل الجيّد هنا والافتتاحيات الإخبارية المثيرة».

ريتشارد: «إني أتساءل فقط عن مدى قدرتنا على العمل هنا».

- «لا أعرف ذلك. من الواضح أنه ستوضع قيود وشروط على عملنا، وهي موجودة الآن. إنها لعبة قمار، ولكن لم يقم أحد بما تخطّط له حتى الآن، إني أريد جواباً منك في أسرع وقت، فقد ظننت أن أمامي متّسع من الوقت لأخذ رأيك، بيد أن ناجي يريد قائمة بأسماء الذين سيبقون في بغداد وأن أرسلها له في أسرع وقت ممكن».

تمتم ريتشارد وهو ينقر قلم الرصاص على مجموعة أوراق بين يديه.

ضحكت وقلت له: «أستطيع تصوّر الوضع مستقبلاً. ستحجز معي في ملجأ لتجنب القذائف، وسيكون معنا «بلي» و «أنغريد» حيث سيستمر «بلي» في التدخين إلى أن نسقط ميتين».

ريتشارد: «ألا تعتقد أن ذلك لم يحدث معي سابقاً؟».

- «صدّقني يا «ريتشارد» إن ذلك سيكون أقل الأمور التي ستعاني منها».

ريتشارد: «إني خائف من هٰذا».

- «هوّن عليك، ألست يهوديّاً مؤمناً وجيداً؟».

عادت «أنغريد» بعد انتهاء مراسم الاحتفال بيوم الشهيد، وقالت: «لم يكن لدى «جو» الكثير من الأخبار ليصرح لي بها. وبالنسبة لصباح هٰذا اليوم، فهو لم يتلقّ أي شيء من وزارة الخارجية العراقية. لن نلتقي اليوم به، ولكن بمقدورنا الاتصال به في السفارة الأمريكية».

وسألتها: «كيف كانت وقائع الاحتفالات؟».

أنغريد: «رائعة جداً. لقد كانت هناك لوحات وأعمال ممتعة. واتفقت مع شبكة سي. بي. إس على تبادل أشرطة تسجيل الوقائع، وبذلك نكون وكأننا استخدمنا طاقمين لتغطية الاحتفالات. كانت هناك الكثير من النشاطات المتنوعة».

- «لقد فاتحت «ريتشارد» بموضوع البقاء هنا يوم ١٥/كانون الثاني القادم».

أنغريد: «جيد، وماذا قال؟».

- «وماذا تعتقدين أنه قال؟».

أنغريد ضاحكة: «أظنه طلب مهلة ليفكّر ويدرس المسألة».

- «هٰذا ما قاله بالضبط. سيسافر «ريتشارد» غداً وسأحصل على جوابه غداً. لا أعرف كيف أتصرف إن رفض العرض. هل ترين عدم استخدام شخص لم يتواجد في بغداد مسبقاً؟».

أنغريد: «قطعاً يا «ويني»، لا يجب استخدامه».

- «أظن أن باستطاعتنا الحصول على مراسل على الفور، فأنا أستطيع العمل ثانية كمراسل..».

أنغريد: «هل تريد القيام بهذا العمل حقّاً؟ وعلى كل حال فلديك أعمال ومسؤوليات كثيرة».

- «أجل، أدرك ذاك. يجب فعلاً استخدام مراسلين إثنين وبدوام كامل، وهٰذا مطابق لتوجّه ورأي «إدْ» أيضاً. ما رأيك بـ «هوليمان»؟».

أنغريد: «م.. مم.. لا أعرف ماذا أقول.. إنه شخص.. هم.. هم.. م».

- «هل تريدين قول أنه شخص أبله وغريب الأطوار نوعاً ما؟».

أنغريد مبتسمة: «نعم، إنه كما وصفت».

ـ «هٰذه هي طبيعته، ولكن له موقفا جيدا، وقام ليلة أمس بجهد وعمل رائع. وهو بالإضافة إلى ذلك رجل يسهل التعامل والانسجام معه».

أنغريد: «أنا موافقة. أظن أن «هوليمان» سيكون شخصياً مناسباً».

ـ «حسناً، لندرج اسمه في القائمة إذا ما رفض «روث ريتشارد» البقاء هنا. إنني لم أتكلم في هٰذا الموضوع مع «جون» إلى هٰذا الوقت، ولكن بالاعتماد على ما شاهدته ولمسته حتى الآن، فإنّي أرجّح قبول «جون» لهذا العرض».

صرّح العراق أنه سيقبل عرض الرئيس «بوش» بإجراء محادثات وجهاً لوجه مع الولايات المتحدة، ولكنه يأمل في إجراء «حوار جدّي وعميق» وليس مجرّد عقد «لقاءات رسمية يريد «بوش» استخدامها كذريعة أمام الرأي العام الأمريكي والكونغرس الأمريكي والمجتمع الدولي بغية تحقيق أغراض وأهداف خطط لها مسبقاً». وقال مجلس قيادة الثورة بأنه قبل الاقتراح «بالرغم من أن رئيس الولايات المتحدة المغرور «جورج بوش»، قد رفض مؤخراً الدعوة إلى إجراء حوار، وبالرغم من إفصاحه علناً عن ازدرائه للعرب والمسلمين وبكل من يؤمن بالله ويؤمن بالقيم الإنسانية».

وأضاف مجلس قيادة الثورة مبيّناً أن أي مباحثات جدّية ستعتمد على مبادرة الرئيس صدام حسين التي طرحها في ١٢/آب/١٩٩٠، وصرّح بالحرف الواحد: «ستبقى فلسطين والأراضي المحتلة الأخرى نصب أعيننا، وفي مقدّمة القضايا التي سنبحثها في أي محادثات أخرى».

علّقت قائلاً: «هٰذه شروط صعبة لقبول عرض «بوش»».

جون: «لقد سبقتني بقولك هٰذا».

ـ «إن معظم هٰذا البيان موجّه للاستهلاك العلني وللرأي العام. وأتذكّر ما قاله لي «بغليتر» ذات مرّة: (لا تمارس السياسة الدبلوماسية إن كنت لا تؤمن بانتهاج المواقف المزدوجة وذات الوجهين)».

دخلت غرفة «ريتشارد» قائلًا: «أجد أنك أوشكت على الانتهاء من حزم أمتعتك» ثم نظرت إلى كومة كبيرة من مجلات «نيوز ديي» و«فليج فويس» و«نيويورك»، وسألته: «هل ستترك أياً من هٰذه المجلات هنا؟!».

ريتشارد: «لم أنته من قراءتها بعد».

ـ «أفهم أنك لن ترجع إلى بغداد».

وكان «ريتشارد» قد أخبر أتلانتا أنه سيمضي إجازته لبضعة أيام في روما، ثم يتوجه للعمل مؤقّتاً في مدينة الظهران في السعودية.

شرح ريتشارد وضعه قائلاً لي: «يحتمل أن أعود إليكم في جولة عمل جديدة، ولكني لا أستطيع الآن البَتَّ نهائياً فيما يتعلّق ببقائي هنا يوم ١٥/كانون الثاني القادم. يتوجّب عليّ معاينة الوضع أوّلاً إذا ما رجعت إلى بغداد في المرّة القادمة».

ـ «أنا آسف لعدم استطاعتي انتظار كل هٰذه المدّة حتى تتخذ قرارك. وأتمنّى لك التوفيق والحظ السعيد. أعتقد أن باستطاعتك تمييز سيارة الجيب عن غيرها من الآليّات، أليس كذلك؟».

ريتشارد مبتسماً: «أرجو ألا يكون هٰذا هو كل ما أستطيع تمييزه. إني لا أعرف أي شيء عن المعدات والتجهيزات العسكرية».

أضفت ضاحكاً: «لا تقلق ولا تهتم بهذا الشأن. سوف يخبرونكم بما ترونه هناك، إذ سيصحبكم المسؤولون العسكريون في جولة هناك ويزدونكم بالمعلومات».

اعترف ريتشارد بذلك مجيباً: «أعلم ذلك، أنا أعلم، أنا أعلم أنه سيكون وضعاً مقيتاً وكريهاً. إن التقرير الإخباري هنا يمتاز بقوّة . . .».

قاطعته متمماً ما كان سيقوله: «يمتاز بقوّة المادة والجوهر الأكثر واقعية».

ريتشارد: «أجل، تماماً كما قلت».

ـ «لقد قلتها بنفسك يا «ريتشارد»، ألا تعرف الاسم الذي أطلقه «بيرنستاين» على هٰذه المدينة؟ أطلق عليها اسم (عاصمة الرعب)».

ما إن وطأت مكان العمل عائداً من غرفة «ريتشارد» حتى سألتني أنغريد: «ألن نغطّي غداً مهرجان السلام العالمي؟».

فأجبتها: «قطعاً سنقوم بذلك. إنه حدث بارز».

ظل بهو فندق الرشيد منذ عدة أيام مزداناً بحبال علّق عليها ملصقات وشعارات وأعلام وأشياء أخرى أعطت زخماً للمهرجان. وكان من المقرر القيام بتجمعات حماسية حاشدة وإجراء مسابقات رياضية بين مشاركين من دول عديدة، منها اليابان والولايات المتحدة وكندا والهند والمكسيك. وكان من المتوقّع حضور نجل الرئيس صدام حسين واسمه عدي صدام بصفته رئيس الاتحاد الرياضي العراقي، إضافة إلى عدد من المسؤولين العراقيين الكبار. وافترض أن يتّفق تاريخ عقد المهرجان مع تاريخ الاحتفال بيوم السلام العالمي، وعندما تحقّقنا من الأمر واتصلنا مع هيئة الأمم المتحدة ووكالة الأسوشيتد برس، كان الجواب بأنهم لم يسمعوا بهذه الفعالية أبداً؛ أي المهرجان.

والتقيت بلاعب كرة سلة أمريكي في ردهة الفندق اسمه «جون كويغلي» فأخبرني قائلاً: «لا علاقة لهذا المهرجان بالنشاط السياسي. لقد شعرنا في أعماقنا أن السلام يطرح نفسه كبديل عن الحرب».

كنا نجد دوماً في انتهاء كل دورة عمل لطاقم الشبكة سبباً كافياً للترويح عن أنفسنا. وبما أن «ريتشارد» لم يشاركنا حفلة شرب فقد وجدنا أنفسنا ملزمين بإقامة حفلة بُغية وداعه. كان ذلك اليوم يوماً طويلاً ومبهجاً، وكنا مخدّرين تماماً عند حلول منتصف الليل، وصوت «روث» ينبعث من المذياع. وقد استمر «روث» يسلينا دائماً بإطلاق دعابة تلو أخرى عن طريق المذياع. وعرفت آخر دعاباته باسم (محطة إذاعة وينر)، وقد سجّلها على شريط صوتي وتركها لنا كوسيلة نتذكّره بها. ولم نتفوّه بكلمةٍ واحدة عبر الخط الرباعي من بغداد إلى أتلانتا منذ ذلك الحين إلى وقت اندلاع الحرب.. إلّا وكنا نستمتع يومياً إلى صوت «روث» في بداية اليوم ونهايته حيث يعلن بداية البث الإذاعي وانتهائه. كانت تحية الصباح الموجهة إلى أتلانتا كالتالي:

صباح الخير. هٰذا دبليوه ـ آيْ ـ آيْ ـ إي ـ إن ـ إي ـ آر يبدأ يومه الإذاعي (أي وينر). نحن نعمل على تردد يوافق تردد إذاعة بغداد ومقداره (٤٣٩٨٩٩)، والرخصة العامة رقمها (٤٥٠١). توجه التعليقات الخاصة بالبرنامج الموضوع إلى المدير العام: «آكمد بوب وينر»، وعنوانه: ٤٣١، «فريدريك كستراسه»، شكراً جزيلاً لكم. هٰذا مذيعكم «ريتشارد روث».

وعند المساء كانت التحية المرسلة إلى أتلانتا هي:

هٰذا «وينر» يختتم يوم عمله في الإذاعة. شكراً جزيلاً لسماعكم إذاعتنا. بعد ساعات قليلة سنعلن بدء بث إذاعتنا مع أفضل تمنّياتنا من بغداد. إذا كان هٰذا تنبيه حقيقي فسوف نرشدك إلى التردد الذي يُناسب منطقتك لتتمكن من سماع الأخبار والمعلومات الرسمية. هٰذا مجرد إختبار. استمع إلى محطتنا في يوم لاحق من هٰذا اليوم حيث سيكون معنا جميع العاملين وطاقم الإذاعة وكل السكرتيرات والمدير العام للمحطة الأرضية. شكراً جزيلاً لكم. هٰذا مذيعكم «روث ريتشارد» يتكلم. تصبحون على خير.

١٦

رافقت «جون ويلسون» إلى السفارة الأمريكية لعقد لقاء خاص معه، وكانت مرافقته لي جزءاً

من جولة شرقية التقاليد ستشمل زيارة ودية إلى ناجي وربما لنزار. وقال لي جو في الطريق: «إن الزيارة الأولى لا يتوقف عليها القيام بزيارة ثانية. مهما كانت نتائج لقاء طارق عزيز مع المسؤولين الأمريكيين في واشنطن، فإنه لا بدّ لـ «بيكر» من زيارة بغداد». وقد اختبرت العراق قبل ساعات من خروجي مع «جون» عمليات إطلاق لثلاثة أو أربعة صواريخ نوع (سكود)، مما خلق حالة من الرعب دفع بالحلفاء إلى وضع قوّاتهم في حالة الجاهزية القصوى. وبالرغم من أن الرؤوس الحربية لصواريخ سكود قد سقطت ضمن الأراضي العراقية، فإن «جو» كان لا يزال يستشعر الرعب الذي دبَّ في أوصاله نتيجة إطلاق تلك الصواريخ.

وتذكّر جو ما حدث في ضحكة خرساء: «عندما وصلتني المكالمة الهاتفية وقال لي المتحدّث: لقد تحرر البالون، شعرت وكأن قلبي قد توقّف عن العمل. وأحد الأشياء التي تعلّمتها من هٰذه الواقعة هي أن أحضر معي من الآن فصاعداً زوجين إثنين إضافيين من السراويل التحتية القصيرة».

قلت مستفسراً: «هل تعني بذلك أنه لن تكون هناك مفاوضات مع طارق عزيز عندما يذهب إلى واشنطن؟».

جو: «نعم، هٰذا ما أعنيه بالضبط. أغلق آلة تسجيلك يا «روبرت». سوف ننتقده ونلقّنه درساً لن ينساه. سنكرّر موقفنا المعلن وما كنا نصرح به طوال الوقت، وهٰذا كل ما سيحصل في اللقاء. إننا نريد من طارق عزيز أن يتمكّن من نقل ما لمسه منا إلى الرئيس صدام. وأن يؤكد له أننا جادّين مطلق الجدّية في موقفنا، وأننا لا نخادع ولا نوارب. ثم عندما يأتي الوزير «بيكر» إلى بغداد سيكون ذلك شيئاً مميزاً بحيث تحتاج إلى بطاقة خاصّة لتغطيته».

سألته: «ماذا سيحدث آنذاك».

جو: «سيعرض «بيكر» على الرئيس صدام أربعة أشياء:

أولاً: سيضمن عدم مهاجمة القوات العراقية عند انسحابها من الكويت كردّ انتقامي، وبهذا يفسح المجال أمام إمكانية الانسحاب من الكويت.

ثانياً: سيضمن «بيكر» إجراء حوار بين العراق والولايات المتحدة الأمريكية، وعلى أن يكون حواراً حقيقياً كما يريد صدام.

ثالثاً: سيعد بأن يخفف الرئيس «بوش» من لهجته العدائية ونقده، كوصفه صدام بأنه مثل «هتلر».

رابعاً: سيعد «بيكر» بأن توضع القضية الفلسطينية على رأس قائمة الأولويات بالنسبة لقضايا الشرق الأوسط التي يجب حلّها، ولكن بشرط أن يتم بحثها بعد انقضاء فترة زمنية مناسبة».

قاطعته معلّقاً: «هٰذا يعني مسألة الربط بين الانسحاب من الكويت وحل القضية الفلسطينية؟».

ابتسم مجيباً: «نحن نفضل أن نسمّيها مسألة (الربط المرن).

فقلت متمتمـاً: «لا تمارس السياسية الدبلوماسية إن كنت لا تؤمن بانتهاج سياسة المواقف المزدوجة وذات الوجهين».

جون مكشراً: «ما هٰذا الذي تقول؟».

- «ليس شيئاً مهماً. إن الوفاء بالوعود والتعهّدات الأربعة التي سيطرحها «بيكر» مشروط ومتعلق بانسحاب القوات العراقية أولاً من الكويت وقبول صدام بالانسحاب، أليس كذلك؟».

جون: «هٰذا صحيح».

وسأله جون هوليمان: «هل سمعت عن شريط فيديو خاص قد أعدّ خصّيصاً ليشاهده طارق عزيز وبحيث يعطيه انطباعاً قوياً وحيّاً عن الآلة العسكرية الأمريكية الهائلة التي يتحدّاها صدام؟ لقد أخبرني أحدهم أن الشريط يظهر أشياء مثل دبابات (أبرامز - إم وَن إيْ وَن) وهي تئز مسرعة عبر الصحراء، وصواريخ توما هوك، وطائرات (ستيلث) وهي تستخدم قوتها وتهاجم . . ».

جو: «لقد سمعت شيئاً ما من هٰذا القبيل، ولكني غير متأكد من صحته».

وأمضينـا دقـائق أخـرى نناقش وضع الرهائن والمشاكل الخاصة التي عبرت عنها «تشارلين كوتري ويليامز». وقال «جو»: «أنا أخالف ما صرّحت به. لقد ذهبت مرتين إلى فندق منصور - ميليا للاجتماع مع زوجات الرهائن، وسأعود إلى الفندق أيضاً بعد ظهر هٰذا اليوم. وإذا تكلمت أنت معها قبل هٰذا الوقت فأرجو أن تخبرها بأن تزورني في أي وقت تشاء».

اتجهت مع «جون» إلى خارج مبنى السفارة وقلت له: «سأعود إليك بعد دقائق إذ أحتاج إلى الذهاب إلى مكتب المعلومات الأمريكي لفترة وجيزة».

وهرولت إلى المبنى ثم صعدت إلى مكتب «كالاهان». كنت أريد تسجيل معلومة في دفتر ملاحظاتي منذ أن قرأتها أوّل مرة لستة أشهر خلت. كان مكتبه فارغاً، فأنزلت الكتاب بحرص من على الرف، وكان دليلاً خاصاً بنظام التشريفات الدبلوماسية وآداب السلوك اللبق التي يعمل بها مسؤولو وزارة الخارجية ودبلوماسيوها، وهو دليل مكتوب منذ وقت طويل. وكان الفصل الأول تحت عنوان «الدبلوماسية». ودوّنت ما يلي: «الدبلوماسية هي استخدام الذّكاء واللباقة في إدارة العلاقات الرسمية بين حكومتين، وإدارة الأعمال والمصالح بين الدول بطرق سِلْمية».

لم يسفر اجتماعي و«جون» مع ناجي على الحصول على معلومات وأحداث هامة، إلا أنه

أعطى فرصة لناجي و«هوليمان» للتعرف على بعضهما وجلوسهما معاً وجهاً لوجه، وهو أمر هام على المدى الطويل. وأخبر «جون» السيد ناجي أنه مضطر للحديث معه أو مع الوزير لطيف نصَيِّف جاسم في أقرب فرصة ممكنة، فوعده ناجي بترتيب لقاء خاص له مع وزير الثقافة والإعلام لطيف جاسم. وكانت ذروة أحداث ذلك اليوم قبل لقائنا مع ناجي بعد الظهر، حيث دخلنا إلى مكتب سعدون لنقدّم له تحياتنا، وذكّرت ذلك العراقي البدين بضرورة تمديد تأشيرة دخولي، فربت سعدون على كتفي مداعباً وقال: «أنت لا تحتاج إلى تمديد مدة التأشيرة لأننا سوف نرسلك إلى بلدك ملفوفاً بالكفن»، ولم يبتهج «هوليمان» بهذه الدعابة.

صاح جون: «إن هٰذا الشخص المسمّى علاء هو شخص جيد حقاً. أظن أن باستطاعتنا العمل معه، ويبدو أنه يدرك قواعد عمل الصحافة الأجنبية».

أصبح علاء آخر مراقب يعيّن لمرافقتنا منذ أن التحق مازن وناصر فجأة بوظائف أخرى. وادعى علاء أنه صحفي بالرغم من اقتناع «أنغريد» أنه كان يعمل لصالح الاستخبارات العراقية، وقد أجبتها عندما ذكرت ذلك: «إن كل شيء محتمل الحدوث. إن للأمن العراقي يداً طويلة هنا».

تحدّثت إلى «جون» ذاكراً: «جيد أن أسمع ذلك وإن لم أقفز بعد للوصول إلى حكم نهائي. إن هؤلاء الأشخاص لا يطلق عليهم اسم مراقبين هكذا من دون سبب ومن دون أن تكون لهم خلفية معيّنة. ولنأخذ على سبيل المثال السيد مازن، كان يقدّم لنا مساعدات جمّة، إلا أنه لم تغب عن باله أبداً الجهة التي يعمل معها».

أجاب جون مؤكداً: «يبدو أن علاء شخص جيد، وأظنّه راغباً في مساعدتنا. لقد ذكر أيضاً أنه يريد الاجتماع بنا على العشاء هٰذه الليلة، وسيزورنا في وقت لاحق».

ضحكت معلقاً: «ولم لا؟ يجب أن تجرب تناول سمك مشوي يدعى (المعكوف) مرّة واحدة على الأقل ما دمت موجوداً في بغداد».

عدت إلى طاولة الكمبيوتر وتابعت كتابة مسودة رسالة موجهة إلى ناجي، وتمنيت أن تكون آخر رسالة، وآخر جولة عمل لي في الشبكة هنا. وقد وافق «مايك» و«تريسي» مؤقتاً على العودة إلى بغداد في شهر كانون الثاني القادم، مع أني شعرت بأن «تريسي» كانت ما تزال غير مرتاحة وغير مطمئنة، في حين احتاج «مارك» إلى كل الحرص والحذر لإخبار زوجته بأمر بقائه في بغداد. أما «ساينديي» التي كانت تقضي إجازتها في بكين، فقد وافقت بقوة على البقاء عندما اتصلت بها هاتفياً. وأعتقد أن «تريسي» قد غيّرت رأيها ووافقت على البقاء، بعد أن عرفت أن زميلتها «بيرل» ستكون إلى جانبها في بغداد آنذاك. وكما توقّعت سابقاً، فقد وافق «هوليمان» بلهفة على البقاء أيضاً بالرغم من أن زوجته كانت ولأسباب مفهومة حزينة لسماعها ذلك النبأ. وقال «جون» لها على

الهاتف: «سأشرح لك بالتفصيل عن هٰذا الموضوع فيما بعد يا عزيزتي «ديان» عندما أراك في عيد رأس السنة الميلادية الجديدة». وفي الحقيقة فقد كان معظم أفراد الفريق عائدين إلى بلادهم لقضاء عطلة رأس السنة وأعياد الميلاد، وخططوا للرجوع إلى بغداد في الأسبوع الأول من كانون الثاني.

سُئِلَ الرئيس صدام حسين عن احتمال وقوع الحرب، فأجاب باللغة الإنجليزية: «فيفتي - فيفتي» [أي ٥٠٪]. وصرّح الرئيس العراقي بذلك أثناء مقابلة أجراها معه التلفزيون الفرنسي. ووجّه صدام حديثه إلى المراسلين الإثنين من القناة الثانية الفرنسية، وأضاف: «إذا ما أرادوا جعل هٰذا الاجتماع [المباحثات العراقية - الأمريكية منفذاً إلى فتح الحوار، فنحن عندئذ أقرب ما نكون إلى السلام. ولكن إذا أرادوا جعل ذلك الاجتماع مجرّد استعراض رسمي أمام الكونغرس الأمريكي والشعب الأمريكي أو الرأي العام العالمي، وليكن ببساطة تبريراً يثبتونه لأنفسهم فيقولوا: «حاولنا إجراء حوار مع العراق ولكن العراق لم يتخل ويتنازل عن موقفه قيد شعرة»، فنحن عندئذ أقرب ما نكون إلى الحرب».

تحدّثت مع نزار مرّتين هاتفياً منذ البيان الذي أدلى به الرئيس «بوش». وقد اقترح «إيسون» محاولة وضع أحد مراسلينا على متن الطائرة التي ستقل طارق عزيز إلى واشنطن، إلا أن حمدون لم يكن متفائلاً بقبول المسؤولين العراقيين لهذا الطلب، ولكنه على الرغم من ذلك فقد أبدى استعداده لاستقبالي و«جون» في مكتبه لتبادل حديثٍ قصير. وألفيت نزار آنذاك أكثر استعداداً للمساعدة وتقديم المعلومات، وذلك بخلاف ما كنت أراه غالباً متحفّظاً وقليل الكلام. وبد واضحاً أن لديه شيئاً يريد أن يُفضي به، ثم لم يصدر عنه أيّ اعتراض عندما فتح كلٌ منا دفتر ملاحظاته لتسجيل رؤوس أقلام الحوار، وإنّما قال: «ما سأصرح به يجب استخدامه كخلفية إخبارية، ويمكن أن تشيرا إليّ بقولكما: نقلاً عن مسؤول حكومي عراقي رفيع المستوى». وأعلن نزار أن لقاء عزيز «بيكر» قد يشكّل خطوة إيجابية، وأن الرئيس صدام كان واقعاً «تحت ضغط كبير هائل» ولم يبيّن ا هية تلك الضغوطات. وأضاف بأنه خلال المحادثات المرتقبة «سيطرح كل شيء على بساط البحث».

وسألناه فيما إذا كان ذلك سيشمل الانسحاب من الكويت، فلم يعلّق على السؤال، وأقصى ما صرح به أن «كل شيء سيطرح على بساط البحث».

وسألته إن كان العراق سيبقى مصرّاً على ربط الانسحاب من الكويت بحل القضية الفلسطينية، فأجاب بهدوء: «ليس ضرورياً أن يكون الربط مباشراً. ربما نقبل بربط متراخٍ مرن ما دامت هناك مسؤولية والتزامات لحل القضية الفلسطينية بطريقة تدريجية»، ولم أصدق ما تسمعه أذناي.

كرر هوليمان قائلاً: «ربط متراخ».

نزار: «أجل. إن المهم هو إبقاء القضية الفلسطينية في نهاية المطاف على قائمة قضايا المنطقة التي بحاجة إلى تسوية وحلّ».

وأُصبت بالذهول، بحيث لم أستطع التكلّم تقريباً. لم أستطع سابقاً البوح بما أخبرني به «جو ويلسون» لأن ذلك كان ممنوعاً، وها آنذا أسمعه من فم نزار! ربّاه! ماذا يدور في هٰذا المكان؟! وسألت نزار إن كان لاحظ كما لاحظت أنا ليونة ملموسة في أسلوب صياغة الأخبار والمقالات التي وردت في صحيفة (بغداد أوبزيرفر) العراقية الصادرة باللغة الإنجليزية، فأجاب: «ربما تكون هناك ليونة»، وبدا أنه لم يعلّق أهمية كبيرة على ما ذكرته له. ثم تناولنا موضوع إجراء شبكتنا مقابلة أخرى مع صدام حسين يوم ١٥/كانون الثاني، وموضوع السماح بدخول العراق عند عودتنا في بداية كانون الثاني، وهو شيء أهم من أي وقت مضى علينا. وأكدت ذلك لنزار قائلاً: «يجب السماح لنا من أجل تغطية زيارة «بيكر» على الأقل. نحن نرغب في سماع آراء المسؤولين في كلا الطرفين». ووعدنا نزار بأسلوب لبق في مساعدتنا في هذين الموضوعين.

وقلت له: «كالعادة، شكراً على تخصيص جزء من وقتك للحديث معنا».

فابتسم مجيباً: «عفواً يا «بوب»، سنبقى على اتصال مع بعضنا».

ما إن غادرنا مكتب نزار حتى سألني جون مباشرة: «ألم تسمع للتّو ما سمعناه مؤخراً؟».

أطلقت صفرة وأجبته: «يا إلهي! لقد حصلنا على أخبار مذهلة. أريد الوصول إلى اتفاق مع «إدْ» بشأن نشر ما حصلنا عليه من أخبار مثيرة، وأريد منه أن يوافق على النص الذي سأكتبه».

وأسرعنا عائدين إلى الفندق ونحن نشعر بفرحٍ غامرٍ ونكاد نطير من السرور، وكان إحساسنا يشبه إحساس شخص يملك شيئاً لا يمتلكه غيره، شيئاً في أقصى درجات الإثارة والروعة.

وخضع النّص الذي كتبته إلى مراجعة قام بها «إدْ» مرّتين قبل أن يوقّع عليها بالقبول. وأصر على الإشارة إلى ناجي بأنه «موظف حكومي عراقي رفيع المستوى كان مصدراً موثوقاً للمعلومات في الماضي».

قال جون بغضب: «إن «إدْ» بذلك يغطّي اسم الشخص الذي يزودنا بالمعلومات، لماذا نقوم بذلك؟!».

أجبت: «إذا كان هناك سبب ما فهو أن «إدْ» يغطّي ويستر الشخص الذي يتعامل مع شبكة سي. إن. إن. أنا لا أعترض على ذلك كثيراً لأن هٰذا التقرير بما فيه من أخبار هو تقرير حسّاس جداً».

واقترح «إدْ» علينا أن نضيف على النص فقرة تفيد بأن استخدام الصحفيين كقنوات لمعرفة ما إذا كانت هناك إمكانية للمساومة على المواقف هو أسلوب قديم وليس بالجديد. وقد استخدم وزير الخارجية الأمريكي الأسبق «هنري كيسنجر» ما دعي باسم (دبلوماسية الرحلات المكوكية)، وكان أسلوباً فعّالاً. واصبح النص كاملاً ومكتملاً بعد أن كتب كل سطر بعناية فائقة ووضع كل عبارة صرّح بها نزار ضمن علامتي الاقتباس.

دوّى صوت ولْ من أتلانتا بعد فترة قصيرة ليعلن: «نريد من «هوليمان» إجراء حوار حيّ على الهواء مباشرة. نحاول نحن من جهتنا الحصول على التعليقات وردود الفعل من البيت الأبيض، ولكن نتوقع ألا يتم ذلك إلا بعد مرور عدّة ساعات. متى يصبح «جون» مستعداً؟». كان «هوليمان» كعادته جاهزاً ومستعدّاً بشكل دائم وعند الطلب، فما كان منه إلا أن سحب كرسيّاً وجلس أمام الخط الرباعي.

نصحت «جون» قائلاً له: «كن متيّقظاً، ولتكن أجوبتك مقتصرة ونابعة مما كتبناه للتّو ولا تتعدّى النص. ربما يسألك مركز أتلانتا سؤالاً دقيقاً ومخادعاً». وبدأ مذيع أتلانتا يسرد المقدّمة، في حين أشار إليّ «جون» بإبهامه المرفوع ملمّحاً إلى نجاحه المتوقع في الحوار.

سأل مذيع أتلانتا: «لقد نقلت يا «جون» عن المسؤول العراقي قوله بأن الرئيس صدام حسين كان واقعاً، وكما قال بالحرف الواحد «تحت ضغط هائل»، ماذا قصد المسؤول بقوله هٰذا؟ هل الضغط من خارج الحكومة أم من داخلها؟

أجاب جون: «ربما الإثنين معاً، أي من الداخل والخارج. إن الرئيس العراقي يمر بأوقات عصيبة».

وشعرت بالغضب. كان «هوليمان» صادقاً في جوابه على الأرجح ولكن حمدون لم يخبرنا بمقدار هٰذا كل شيء، ولا حاجة لإضافة تفصيلات أخرى من عند أنفسنا. إننا لن نكون دقيقين فيما ننقله من أخبار إذا ما حدّدنا هكذا مصدر الضغط. وكل ما كنت أعلمه آنذاك أن ذلك الضغط يمكن أن يكون الضغط الذي مارسته الدول العربية على العراق.

وقد استضاف صدام حسين قبل يوم من ذلك ما أعلن أنه قمة مصغرة حضرها ياسر عرفات والملك حسين ونائب الرئيس اليمني (علي سالم البيض). وذكرت وكالة الأنباء العراقية أن المؤتمرين الأربعة اتفقوا على السّعي لإحلال «سلام دائم وشامل يعتمد على الشرعية الدولية ومبادىء العدل والإنصاف».

وانتهى الحوار الحي بين أتلانتا و«جون» من دون حدوث مشاكل أخرى، غير أني كنت قلقاً

بشأن ما ذكره عن «الضغط».

واتصل بنا ولْ بعد ساعات ليقول: «حذَّر مسؤول كبير من الإدارة الأمريكية شبكة سي. إن. إن بألا تأخذ فكرة احتمال وجود صفقة واتفاق خفي بين العراق والولايات المتحدة مأخذ الجِّد.

وقال المسؤول أن العراق يقوم باستعراضات ومظاهر خادعة، وربما يحاول العراقيون تعويم الإشاعات بغية تجنّب ضربة عسكرية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا».

توقف «آلن بيزي» والمخرج العامل تحت يده «جو هالدرمان» من شبكة سي. بي. إس مدة قصيرة في مكتبنا بُغية أخذ قليل من المشروب المسكر الذي يؤخذ عادة قبل النوم (سكوتش) مع رشفة أو حفنة من المعلومات.

سأل آلن: «حمدون هو مصدر المعلومات في الحوار مع أتلانتا، أليس كذلك يا «روبرت»؟».

ملأت كأسيهما مرّة ثانية وأجبت مبتسماً: «أنت تعرف أني لا أستطيع البوح وكشف مصدر معلوماتي».

أشعل آلن سيجارته وقال مستنتجاً: «إذن لا بد أنه نزار أو ناجي. إنهما المسؤولان العراقيان الكبيران اللذان بمقدورهما تزويدك بمعلومات لاستخدامها كخلفية للتقارير الإخبارية».

ضحكت وقلت: «هل ما تقوله صحيح؟ وما أدراني بذلك؟».

ابتسم هالدرمان بتكلّف معقّباً: «ماذا يعرف؟ إنكم تعملون معهما يداً بيد».

أجبت باقتضاب وفظاظة: «دعني من هٰذا الكلام السّخيف، لقد سئمت حقاً من التكّلمّ حول هٰذا الموضوع واللّف والدّوران».

هالدرمان: «كل ما أقوله هو . . .».

قاطعته غاضباً: «كل ما أقوله إن هٰذا الموضوع غير ممتع ولا أستسيغه».

غيّر آلن موضوع الحديث وسألني: «ماذا تخطّطون من أعمال لفترة ما بعد ١٥/كانون الثاني القادم؟».

- «نخطّط للبقاء هنا. أنا و «هوليمان» و «أنغريد» و «تريسي»».

هالدرمان: «أنتم مغفلون».

سألت آلن بصراحة: « لا علاقة لي بهم. إن باستطاعتهم إحضار مسؤول آخر ليحل مكاني. لقد مررت بنفس التجربة في ليبيا، فهم سيحتجزونك في الفندق ولن تستطيع إرسال تقارير إخبارية، وهٰذا بغضّ النظر عن الأخطار المحدقة التي ستواجهك هنا. لن يوجد هنا ما يستحق البقاء والمغامرة من أجله».

كان «آلن بيزي» مراسلاً تلفزيونياً متمرّساً يعمل في شبكة سي . بي . إس وقد أنجز مهامه على أكمل وجه في العديد من المناطق الساخنة في أرجاء العالم، وكان لحديثه تأثير واقعي وقوي، خاصة على زميلتنا «تريسي».

قلت له: «قد تكون على صواب يا «آلن»، ولكن ليس بمقدورك الجزم بما سيحدث ولا أحد يستطيع التنبؤ. على أية حال، لقد اتخذنا قرارنا».

آلن: «حسناً. حظّاً سعيداً. لقد أخبرت شبكة سي . بي . إس للتو أن هٰذه ستكون آخر جولة عمل لي هنا».

انتهى «هوليمان» من مشاركته في البرنامج التلفزيوني الصباحي الذي يعتمد على مكالمات هاتفية، ثم جلسنا لتناول طعام خفيف. وبتعبير أدق، كان «جون» يعدّ طعاماً ليشربه لا ليمضغه مضغاً، وهو عبارة عن شراب مُمَلت [شعير منقوع في الماء] يتناوله من يريد الحمية، وأقسم «جون» أن هٰذا الشراب سيساعده على إنقاص عشرة باوندات من وزنه. وصاح مازحاً: «أين زوجتي المساعدة؟ أين زوجتي التي تساعدني؟»، وأخذ يبحث عن خلاّطه الصغير الذي يعمل بالبطارية ويحمل باليد، والذي كان يستخدمه في إعداد شرابه ومزجه.

وفي برنامج المكالمات الهاتفية الذي سمي «آراء حول الأزمة»، كان مراسلو الشبكة في بغداد وعَمان والمملكة العربية السعودية يتّصلون جميعاً وفي آن واحد مع المذيع المعتمد في أتلانتا، وتترك خطوط الهاتف مفتوحة ليتمكن مشاهدو التلفزيون من الاتصال بالمراسلين وتوجيه شتّى أنواع الأسئلة لهم. كانت الأسئلة أحيانا غريبة جداً، فمثلاً تمّ توجيه سؤال إلى «مارك دولماج» في عَمان وعلى النحو التالي: «هل صحيح أن المسلمين يسيطرون على العالم. وأن هٰذه الأزمة هي إحدى نتائج هيمنتهم؟». وكان من حسن حظ هٰذا السائل أن «مارك» لم ينعته بالمتعصب الأجوف، وإنما عالج المسألة بأن غيّر وحاد عن موضوع السؤال. ولم أحاول معرفة ومناقشة مفهوم هٰذا البرنامج والاشتراك فيه، بخلاف المراسلين الآخرين الذين كانوا متلهّفين جداً لإبداء وجهات نظرهم وآرائهم، وذلك أن قيمة تلك الآراء وأهمّيتها كانت ضعيفة، وهي في السعودية تأكيد للرأي العام الأمريكي الذي كان يتخلصّ في عبارة: «القوات في كامل جاهزيتها هناك». غير أن مكتب الشبكة المحلّي أخبرني أن برنامج «آراء حول الأزمة» حظي بشعبيّة كبيرة.

وضعت أماني سليمان السيجارة جانباً فجأة ورفعت صوت المذياع الذي كانت تستمع إليه بهدوء واسترخاء. وبدا من إمارات الدّهشة التي ارتسمت على وجهها أنها سمعت شيئاً هاماً.

سألتها بوثبة من مكاني: «ما الأمر؟».

أجابت جاهدة في الاستماع: «تم إطلاق سراح جميع الرهائن. نعم، تمّ ذلك. إنهم

سيطلقون سراحهم جميعاً».

ـ «ماذا تقصدين؟ هل أطلق سراح الرهائن أم سيتم إطلاق سراحهم؟».

اعترفت قائلة: «لست متأكدة. ما سمعته كان عناوين رئيسية، وسوف يعيدون قراءتها في النشرات الإخبارية القادمة».

وأسرعت إلى الخط الرباعي موبّخاً نفسي على عدم إسراعي لإخبار أتلانتا، وصحت: «بغداد تتكلّم مع أتلانتا».

ـ «هنا أتلانتا. تكلم يا مكتب بغداد».

ـ «حصلنا على تقرير لم يؤكد بعد، ولا يصلح للبث، يا «وِلْ». ويفيد بأنه سيطلق سراح جميع الرهائن أو قد أطلق سراحهم فعلاً. وأماني الآن تصغي إلى المذياع. سأحيطك علماً بما يحدث عندما نتأكد من حقيقة الخبر، ولكن يبدو أنّا حصلنا على خبر بارز».

وِلْ: «حسناً. أخبرني بما ستحصل عليه».

وعدت مسرعاً إلى أماني التي سررت كثيراً منها عندما رأيتها تسجل ملاحظات. وبدأت تترجم إلى الإنجليزية قائلة: «تفيدُ وكالة الأنباء العراقية بأن صدام حسين طلب من المجلس الوطني السماح لجميع الرعايا الأجانب الممنوعين حاليّاً من مغادرة العراق بالسفر خارج العراق. ومما شجّعنا على تبني هٰذا الطرح مناشدة إخوة معنيين نحترمهم، والقرار الذي اتخذته الغالبية الديمقراطية في الكونجرس الأمريكي، والدعوة التي وجهت إلى وزارة الخارجية العراقية لإجراء حوار مع البرلمان الأوروبي. إن استجابتنا لهذه التغيّرات الإيجابية سيكون له تأثر كبير على الرأي العام الغربي، وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، مما يؤدّي بالتالي إلى الكبح والحد من المحاولات الأثيمة الشريرة التي تقوم بها جهات معينة لإيقاد نار الحرب والتحريض عليها ...».

وصرختُ: «أمر لا يصدّق»، ثم اندفعت إلى الخط الرباعي لإعلام أتلانتا.

وقال وِلْ: «لقد ورد هٰذا الخبر في موجز أخبار نشرته وكالة رويتر، وقد سمعناه للتّو على الهواء». وندبت حظّي منزعجاً إذ تمنّيت لو كنّا أول من علم بهذا الخبر. وبالرغم من ذلك، لم أشعر بالأسف بسبب عدم التحقّق من الخبر عن طريق أماني. إنه لشيء عظيم أن تكون أول من يعلم، ولكن الأهم أن يكون ما تعلمه صحيحاً ودقيقاً.

وِلْ: «متى يصبح «هوليمان» جاهزاً للحوار؟».

ـ «أمهله دقيقتين ليتأكد من تجهيز كل ما يلزمه».

وِلْ: «نريد الحصول على تعليقات وردود فعل من أية رهينة تلتقي بها».

ـ «يا للمصيبة، لقد كنت أخطط للحصول على إجازة طوال هٰذا اليوم».

وحوّلت الميكروفون إلى «جون» وقلت: ««هوليمان» يتحدّث معك يا «وِلْ»» ثم صرخت: «إجمعي فريق العمل يا «أنغريد»». وأصبح الفريق خلال دقائق خارج المكتب، بينما كنت أقوم بإجراء الاتصالات اللازمة.

بقي «هوليمان» يتحدّث طوال عشر ساعات لاحقة على الهواء مباشرة وبمعدّل مرّة واحدة على الأقل كل نصف ساعة. وما زلت أستذكر إلى الآن أداءه الممتاز في متابعة الأحداث الإخبارية الهامة، وهو أداء من بين أفضل ما صادفته في حياتي. كان بارعاً حقّاً في عمله، فمرّة تسمعه يقول: «ها هي مترجمتنا أماني سليمان تتحدث إليكم على الميكروفون»، ثم تراه يلخّص الأخبار لسردها على مسامع جمهور شبكتنا ثم يطلب من أماني نفسها ترجمة البيانات الرسمية العراقية.

وكان يتحدّث بارتجال مثل مراسل محترف، وبأسلوب سلس هادىء نقل إلى المستمعين الإحساس بأهمية الحدث. أجل، لم يكن «هوليمان» رجلاً مغفّلاً، فقد أدرك أنه يتعامل مع أخبار ووقائع تاريخية. وقال: «بالنسبة لمستعمينا الذين باشروا الاستماع الآن، سنسرد عليهم تفاصيل حصولنا على هٰذه الأنباء. كنت يا أماني تصغين إلى المذياع كما تفعلين كل ساعة، أليس كذلك؟».

فأجابت أماني بثقة ذاتية رائعة: «ما تقوله صحيح يا «جون». تستخدم وكالة الأنباء العراقية المذياع كعادتها لنشر البلاغات التي ستبث لاحقاً في نشرة الأخبار المسائية التلفزيونية ..». وهكذا، أصبح هٰذا البرنامج برنامج «هوليمان» وأماني سليمان، وأعجب به مكتب أتلانتا.

وقال جون في إطلالة أخرى على الأثير: «تسلّمت للتّو ملاحظة من المخرج المسؤول «روبرت وينر» تقول صرّح مسؤول حكومي عراقي كبير بأن التغيرات الإيجابية التي حصلت في الرأي العالمي خارج العراق قد حفزت إلى إصدار قرار يطلب من المجلس الوطني العراقي الموافقة على إطلاق سراح الرهائن. وأضاف المسؤول قوله إن العراق كان يتابع هٰذه التغيرات، وأنه حان الوقت للتحرّك والقيام بإجراء ما».

ثم كرر هوليمان قوله: «هٰذا ما صرح به مسؤول عراقي كبير». وحدثت نفسي: شكراً يا ناجي.

ودخل غرفة العمل رجل قدّرت عمره بثلاثين عاماً وتوقعت أن يكون أمريكياً، ثم سأل: «هل هٰذه شبكة سي. إن. إن» فأجبته بصوت هامس: «أجل» وأخذته إلى الغرفة المجاورة بعيداً عن الميكروفون وقدّم نفسه على أنه «توم فان بول»، حيث شاهد «أنغريد» قبل مدة قصيرة آنذاك في

فنـدق منصور ـ ميليا فطلبت منه «أنغريد» أن يوافيها في مكتبنا. وقد حضر «توم» إلى بغداد في محاولة لإطلاق سراح والد زوجته المحتجز.

وجلس توم بعد دقائق قليلة إلى طاولة الخط الرباعي بجانب «جون» الذي سأله عن وضع الرهائن فأجاب: «إنهم يشربون البيرة في الحانة، ويقدّمون للآخرين مشروباً على حسابهم. إن الرهائن أو الضيوف أو سمهم ما شئت يربتون على ظهور بعضهم البعض في فرح غامر ويتبادلون قصص الحرب. كل شخص في غاية السرور، وهم يعرفون أنهم سيكونون في أوطانهم عند حلول رأس السنة الجديدة».

وأتاح مكتب أتلانتا لـ «توم» فرصة الاتصال بزوجته «كاثي» القاطنة في مدينة (دي موينز)، وأدركت عندئذ ما سيحدث ولكن لم تتحرك مشاعري أبداً ولم تجش عواطفي، وكأني كنت حجراً من دون إحساس. وبكى «توم» على الهاتف قائلاً: «زوجتي العزيزة. إن ما يحدث حقيقي، وسأرجع إليك مع والدك». ولاحظت «هوليمان» وهو يبكي أيضاً.

انشغل «هوليمان» بإعداد نص التقرير التلفزيوني أثناء الفترات الفاصلة بين النشرات الإخبارية. وتضمّنت التقارير المصوّرة مقابلات مع العديد من الرهائن أو زوجاتهم، منهم «بربارة سمايلي» القادمة من مدينة لوس أنجلوس والتي صرّحت قائلة: «إنه حدث رائع، ولكن زوجي متخوّف من الاحتفال به إلى أن يتحقق فعلاً من حدوثه». وقالت إمرأة أخرى: «لقد طغت علينا فرحة غامرة. إنه شيء عظيم جداً».

وأعلن التلفزيون العراقي أنَّ على أعضاء المجلس الوطني الحضور غداً إلى المجلس جميعاً من أجل إجراء تصويت رسمي. وكان مقرراً أن يسمح للرهائن بمغادرة العراق مباشرة حالما تتم الموافقة على الاقتراح.

لم يحالفني الحظ خلال فترة ما بعد الظهر في الاتصال بحمدون حيث تركت له في مكتبه عدّة ملاحظات مسجلّة، ولكن لم يردني أي جواب. وتساءلت في نفسي عن السبب ثم قررت إجراء محاولة أخرى ونجحت في الوصول إلى نزار الذي تحدّث معي بكل جفاء.

قال نزار بمرارة: «يجب أن أحيطك علماً بغضبي وسخطي الشديدين، ليس فقط لأني لم أصرح بأن صدام حسين كان واقعاً تحت ضغط هائل من داخل الحكومة، ولكن أيضاً كيف يمكنك أن تقول أني مصدرٌ موثوقٌ».

أجبته: «مع كل الاحترام الذي أكنه لك، فإن ما نشرناه كان عبارة تقول: (موظف كان مصدراً موثوقاً في الماضي) . . ».

قال محتجّاً: «لم يكن هٰذا ما نشر، ولو افترضنا أنه قيل ونشر فإنه يعتبر خطأ». وأضاف بزبد من الغضب: «ماذا بشأن الإطار الأسود؟ إنها إهانة لي».

فقلت غير مصدّق: «أي إطار أسود هٰذا؟». ولم تكن لدّي فكرة عمّا كان يتحدث عنه نزار.

تحـدّث مفسّراً: «الإطار الأسود وبداخله صورة ظلّية بجانب العبارة المقتبسة من حديثي، والتي تقول: «كل شيء على الطاولة»، وعرفت فوراً أنه خطأ مطبعي أو كتابي.

ـ «أعدك يا سيد نزار أن أبحث هٰذه المسألة. والآن، هل تستطيع إعطائي دقيقة أو دقيقتين من وقتك للتحدّث عن تطورات هٰذا اليوم؟».

نزار: «كلا، ليس لديّ ما أقوله» ثم أعلق الهاتف بسرعة. يا له من كابوس ثقيل. أَبَعْدَ شهورٍ من سعينا لمصادقة نزار حمدون بُغية الاستفادة منه تذهب جهودنا كلها أدراج الرياح؟ وأشعلت سيجارة أخرى وجلست أفكر بالخطوة التالية.

التقيت السيد علاء الذي أخبرني قائلاً: «إن تلوين صورة وجه شخص ما باللون الأسود يعتبر إهانة عندنا، ونحن لا نقوم بذلك».

جون: «هل من مساعدة أستطيع القيام بها؟ أشعر أنني المسؤول عمّا حدث . . .».

قلت: «كلا، إنس الأمر. يجب أن أبحث أمر رسم الوجه».

دخلت على إيسون وشرحت له المسألة فقال: «ربّاه! إنها كارثة».

ـ «هل كان الرسم سيئاً؟».

إيسون: «لم يكن جيّداً وكما يجب أن يكون. ماذا تقترح أن نعمل؟».

ـ «لا أدري. هل ما زال التقرير يبثّ على الهواء؟ هل نستطيع تغيير الرسم التخطيطي؟».

إيسون: «كلاّ، لقد أوقفنا بث ذلك التقرير قبل مدّة».

صحت غاضباً: «اللعنة، تستطيع إرسال برقية إلى نزار تعتذر له فيها عمّا حصل. وأكّدْ له أننا لم نقصد أيّ تشويه أو إساءة إليه. إن السيد علاء يقول إن ما فعلناه يعتبر زلّة اجتماعية مخالفة للآداب بالنسبة للعراقيين».

إيسون: «حسن، سأفعل ذلك. هل ثمّة شيء آخر؟».

ـ «أجل. من الأفضل أن نحضر مراسلاً صحفياً آخر. سيتم إطلاق سراح الرهائن في الأيام القليلة القادمة، وستحتاج إلى مساعدة لكي تتمكّن من التوفيق بين عمل التقارير الإخبارية والعمل على الخط الرباعي في نفس الوقت».

إيسون: «ليس لديّ مراسل آخر في هٰذه المنطقة».

ـ «لماذا لا تبعث في طلب «ليوبارد» من عَمان؟ أنا أعرف أن «ليوبارد» سيرغب في العمل هنا وفي أن تتاح له فرصة الظهور على الأثير». كان «ميتش ليوبارد» مخرجاً ومراسلاً في آنٍ واحدٍ ودائم التواجد في لندن.

إيسون: «حسن، سنحجز له جوّاً في الرحلة القادمة».

نادى أحدهم في المكتب: «إنه ناجي يريد التحدّث معك يا «وينر»»، وتساءلت عن السّبب تلك المرة، ورفعت يد الهاتف.

ناجي: «مرحباً يا «روبرت»»، وجاء صوته أكثر جفاء من المعتاد.

ـ «مرحباً ناجي» وحاولت جهدي أن أبدو مبتهجاً متفائلاً.

سألني بازدراء: «هل تعرف ما هو اسم هيئتنا التشريعية نحن العراقيين؟».

ـ «هل تعني المجلس الوطني».

ناجي: «أجل، إنه المجلس الوطني. هٰذا هو الاسم الصحيح، فلماذا إذن تشير إليه شبكة الـ سي. إن. إن باسم (البرلمان صنيعة صدام حسين)؟». هل هٰذه صحافة محترمة؟ هل هٰذا جميل أو مناسب؟».

ـ «شكراً جزيلاً على الاتصال بي يا سيد ناجي، وسأهتم بالأمر الآن ومن فوري».

وأسرعت إلى الخط الرباعي طالباً الحديث مع «وِلْ كنغ» وقلت له: «أُطلب من المراسلين أن يسمّوا البرلمان العراقي باسمه الرسمي الصحيح. ولا بأس بأن يذكروا أن البرلمان نادراً ما عرف عنه أنه استطاع التغلب على نفوذ صدام في الدولة، وربما لم يستطع التغلّب على نفوذ عبارة «صنيعة» فهو مصطلح إذاعي يعرف الجميع المقصد منه، وناجي محقٌ في وجهة نظره».

وِلْ: «أنا أتّفق في الرأي. سأطلب منهم ذلك».

صوّت المجلس الوطني كما كان متوقّعاً لصالح قرار إطلاق سراح جميع الرهائن. ولم يتّخذ القرار بالإجماع، إذ صوت (١٨) عضواً من أصل (٢٥٠) عضواً ضد الإقتراح. ولأن الحكومة كانت تتوقع نجاح القرار، فقد باشرت السلطات فوراً خلال الليل نقل الرهائن بواسطة الحافلات من الأماكن الاستراتيجية إلى فنادق بغداد. ونقل معظم الرهائن الأمريكيين إلى فندق منصور ـ ميليا.

ونهضت «أنغريد» وطاقم العمل في الصباح الباكر لإجراء مجموعة من المقابلات مع الرهائن، إلا أن أحد المسؤولين العراقيين هناك منع أي رهينة من التحدّث مع المراسلين. واتصلت «أنغريد»

من السفارة بالمكتب صائحة: «يا لهم من حمقى». واضطررنا مرة أخرى إلى إجراء ترتيب مع شبكة سي . بي . إس من أجل الحصول على نسخة من أشرطة الفيديو التي كانوا سي مقابلات مع الرهائن. وتجمّعت خارج فندق منصور - ميليا فرق صحفية عديدة من الشبكات التلفزيونية، ومن بينها شبكة البث التلفزيوني والإذاعي الكولومبية، غير أن العرا أن دخول الفندق مقصور على الصحافة اليابانية فقط. وسبب هذا الوضع بطبيعة الحال من الشد والجذب والصراع العنيف بين المتشددين والمتساهلين المعتدلين في أوساط العراقية والمسؤولين عنها.

وقال لي موظف بسيط في وزارة الإعلام عندما رافقني إلى ردهة فندق الرشيد: عظيم. سيرحل الرهائن إلى بلادهم».

ابتسمت معلّقاً: «هل تقصد الضيوف؟».

أجاب هامساً: «ضيوف . . رهائن، سمّهم ما شئت. إن الشعب العراقي لا يريد قط الرعايا الأجانب، فهذا عمل غير حسن».

تمكنت «أنغريد» وطاقم شبكة سي . بي . إس وأشخاص آخرون جريئون من د منصور - ميليا بطرقهم الخاصة بعد وقت متأخر من ظهر ذلك اليوم، وتمكّنوا من تم المقابلات على الرغم من أن تواجدهم كان مقصوراً على ردهة الفندق. وكان من المقابلات مقابلة صديقنا القديم «بوب فينتون» وزوجته «سو» التي وصلت بغداد م الزوجات الأمريكيات. ولم تغير أشهر الأسر القليلة من روح الاستقلالية المغروسة داخ فقد حاول أحد الحراس منعه من الخروج من الفندق فصاح به: «أنا أحد المقيمين ا بغداد، أنا ذاهب إلى البيت لأجمع حاجياتي». وكان انفجار غضبه هذا فرصة ذهبية ل طبيعة الحال، ولقطة إخبارية تلفزيونية عظيمة لم تَفُتْ «مارك» وفريق سي . بي . إس الذ ركوها خالدة لتشاهدها الأجيال القادمة. وكان السيد علاء في هذه الأثناء يجسّد فه ساليب الصحافة الغربية، وذلك بإطلاق تهديدات بأنه سيحطّم آلات التصوير الخاص

وشاهد «هوليمان» شريط الفيديو الذي أظهر عَلاء وهو يهاجم عدسة آلة التصوير «م مثل كلب الماني من نوع وايمرانر. وهزَّ رأسه قائلاً: «ربّاه . . أظن أنه . . نعم، إنه الس (في تلك الليلة، قامت «أنغريد» بإشغال مسؤولي الرقابة الإعلامية ريثما تمكّن فريق سي من بثّ لقطة السيد علاء، وهجومه على «مارك» بثّاً مباشراً عبر الأقمار الصناعية من نقطة في الفندق. وقد أمرت بوقف هذه اللقطة لاحقاً خوفاً من أن تخلق سي . إن . إن المتاعب لـ «بوب فينتون» مع المسؤولين العراقيين. وما إن غادر «بوب» العراق بأمان حتى است

اللقطة في تقرير إخباري عام حول موضوع الرقابة الإعلامية في العراق، ثم تمكن «ليوبارد» من حمله معه إلى عَمان من دون اكتشافه وأرسله من هناك عن طريق البث التلفزيوني).

كان «جـو» وموظفوه في السفارة الأمريكية غارقين إلى آذانهم في تنظيم الحصول على إذن وحصانة دبلوماسية من أجل الذهاب إلى الكويت جوّاً. وقال «جو»: «نأمل في نقل هٰذه الأشياء في أسرع وقت ممكن وأن يكون كل فرد خارج البلد خلال أسبوع تقريباً».

ورحبت دول العالم بقرار إطلاق سراح الرهائن.

ودعاه رئيس وزراء بريطانيا جون ميجر بأنه: «أنباء رائعة».

وقال رئيس الوزراء الياباني توشيكي كايفو: «إنها حقاً مناسبة مبهجة وحدث سار سعيد».

وأشاد الملك حسين بالقرار واصفاً إياه بأنه: «قرار شجاع وخطوة في الاتجاه الصحيح».

وقال المتحدث باسم وزارة الخارجية السوفييتية فيتالي شيركين إن القرار: «شي سار في الحقيقة».

وأخبـر جورج بوش المـراسلين الصحفيين بأنه بعد إزاحة مسألة الرهائن وتنحيتها جانباً عن الطريق، فإن الأمر أصبح أكثر سهولة أمام الولايات المتحدة للقيام بشيء ما أو التعليق على مسألة الرهائن وإطلاق سراحهم.

جاء جو إلى مكان عملنا في الفندق في زيارة اجتماعية صرفة. وبعد شربه كأسين من البيرة، قال بصراحة: «ليس سيئاً أن يسد قرار إطلاق سراح الرهائن الطريق أمام اندلاع الحرب». وأحضر «جو» معه زجاجتين من خمر (كاليفورنيا) كهدية إلى شبكة سي. إن. إن لما قدّمته من عون ومساعدة خلال الأشهر السابقة. وأضاف: «ربما يتم التوصّل إلى حل سلمي لهذه الأزمة إذا ما استمع كل طرف بصدق إلى الطرف الآخر وفهم مواقفه واستوعبه. وإذا لم يحدث ذلك فلن أكون راغباً آنذاك في التعلّيق على إغلاق سفارتنا في آخر المطاف وانسحابنا من هنا، إذ يبدو أننا سنغادر ونرحل من هنا على الأرجح».

اتصل بي نزار في غمرة انشغالنا بمتابعة عملية إطلاق سراح الرهائن، وسألني فيما إذا كنت راغباً في إجراء مقابلة مع الوزير طارق عزيز. وأخبرني أن المقابلة لن تبث بثّاً حيّاً على الهواء وإنما ستسجـل وتصور في مكتب وزير الخارجية طارق عزيز. وساورني شك إن كان نزار حمدون قد استلم برقية «إيسون» لأن لهجته في الحديث كانت مختلفة اختلافاً جذريا عن لهجته في آخر اتصال لي معه، ودفعني ذلك الشك إلى أن أقول له: «أعتذر لك للمرة الثانية عن الخطأ الكتابي والرسم المضلل للوجه. آمل أن تدرك أنه لم تكن هناك إساءة مقصودة».

نزار: «أجل، أجل. لقد استلمت برقية مستر «جوردان»، شكراً لك. لنفتح صفحة جديدة يا «بوب» ونعتبر بما حصل في الماضي».

اجتمعنا في جناح مكتب الوزير طارق عزيز في مبنى الخارجية وبدأنا ترتيب أمكنة الأثاث والمفروشات كعادتنا. وتسكّعت في أنحاء غرفة الاجتماع بينما تابع طاقم الشبكة تحضير المكان.

وهمست لـ «أنغـريد»: «تفحّصي هٰذه» وأشـرت إلى منضـدة طويلة وغير عريضة تقع على الجانب الآخر من طاولة مصنوعة من خشب الماهو غاني الفاخر، ووضعت على تلك المنضدة ما يربو على المائة من الأعلام المصغرة للدول الأعضاء في هيئة الأمم المتحدة.

ونزعت أنغريد علم جمهورية ألمانيا الديمقراطية [التي زالت] وقالت: «إنهم متأخرون قليلاً عن مواكبة الأحداث العالمية، لنر الأشياء الأخرى المهملة والمتروكة».

قلت لها: «هٰذا هنا»، وأشرت إلى ثقب فارغ في حامل الأعلام، وهو ثقب خاص بعلم إسرائيل.

أنغريد: «هل توقّعت أن تجد علم إسرائيل في هٰذا المكان يا «ويني»؟».
أجبتها معترفاً: «توقّعت ألا أجده»، وشعرت بالانزعاج من هٰذا الأمر.
ودخل سكرتير الوزير وقطع سلسلة أفكاري قائلاً: «وزير الخارجية قادم الآن».

كان طارق عزيز متحدّثاً مفوّهاً وله تأثير قوي، شأنه شأن المقابلات السابقة التي أجريناها معه. وإذا ظهرت مقابلته مع «بغليتر» سابقاً وكأنها مناظرة وجدال، فإن «جون» قد أفسح المجال لطارق عزيز أن يتفرّد بالحديث. كانت أسئلة «هوليمان» بسيطة وغير قوية، ولم يتابع حديث طارق عزيز أو يحاول مقاطعته وتغيير الموضوع. وصرّح طارق عزيز بأن العراق قرّر إطلاق سراح الرهائن بسبب «تغيّرات إيجابية طرأت على الرأي العام العالمي»، وأوضح أن بغداد استغلّت الوقت ونشرت كامل ـها في الكويت. وأكّد أن ما وصلنا من معلومات حول أن «كل شيء مطروح على بساط البحث» ـي معلومات خاطئة، وأضاف: «لم يتغيّر موقفنا ولن يتغير، ولن نخضع للضغط» مشيراً بذلك إلى مبادرة صدام التي أطلقها في ١٢/آب. وظلّ طارق خلال فترة المقابلة ينظر إليّ وإلى «أنغريد» من حين لآخر. ولم أعلم إن كان يتوقّع منا طرح سؤال فجأة، ولكن بالاعتماد على الوتيرة التي سارت بها المقابلة فقد رأيت أن الوقت كان مناسباً للتدخل وطرح الأسئلة.

وسألته: «سيدي الوزير، فيما يتعلّق بسوء الفهم الذي ذكرته أنت منذ قليل: هل تشير بشكل بات إلى أن العراق لن ينسحب أبداً من الكويت تحت أي ظرف كان؟».

طارق عزيز: «هٰـذا هو موقفنـا إلى أن نجلس إلى طاولـة الحوار، عندما تجلس إلى طاولة

المفاوضات فأنت آنذاك تصغي إلى الآخرين وإلى ما تعرضه الأطراف الأخرى، ومن ثم تستطيع الحكم فيما إذا كانت الأطراف الأخرى تعرض أموراً ستحقق متطلّبات السلام والتسوية المأمولة والعدل، وعندها تقوم أنت بطرح مساهماتك، إن موقفنا ثابت، ولكن في نفس الوقت سبق أن بيّنا، وسبق أن بيّن رئيس بلادي بجلاء، أن العراق مستعد للمساهمة في قضية السلام والعدالة وتحقيق الاستقرار في المنطقة».

جون: «وهل يشمل ذلك الانسحاب من الكويت؟».

طارق: «لن أعلّق على هٰذا السؤال». ثم أضاف رافعاً يده: «لأنه يجب أن نتوقّع أن ما يحدث سيوضع على طاولة المفاوضات وسيطرحه كل الأطراف. لا يجب علينا التسرّع أو القفز في إصدار أحكامنا قبل أن تبدأ المفاوضات».

الححت قائلاً: «سؤال أخير سيادة الوزير: أعلنت إسرائيل أنها لن تشارك مطلقاً في مؤتمر دولي يعقد من أجل السلام، وأنها تفضّل إجراء مفاوضات مباشرة مع جيرانها من الدول العربية. لو عقد مثل هٰذا المؤتمر فهل تستطيع العراق إعطاء إسرائيل ضمانات بأنه سيجري معها مفاوضات مباشرة كما تطالب إسرائيل؟ ونعلم أن إسرائيل تتطلع إلى أن تعترف بها الدول العربية في جو يسوده السلام، وبذلك يستفيد كل الفرقاء من السلام سينعمون به. ما تعليقكم؟».

طارق: «أعتقد أنك تطرح كثيراً من الأسئلة الافتراضية. أولاً وقبل كل شيء، لا وجود لمؤتمر دولي كالذي تفترضه، ولكن المؤتمر الدولي هو ضرورة لا بد منها في هٰذه الحالة من أجل القضية الفلسطينية، لأن الشعوب في هٰذه المنطقة تريد ضمانات، ومن يستطيع تقديم الضمانات؟ القوى العظمى أم أعضاء مجلس الأمن؟ ولهذا السبب أصرّ إخواننا الفلسطينيون على صيغة مؤتمر دولي لكي يحصلوا على ضمانات مستقبليّة. إن الإسرائيليين لا يريدون مثل هٰذه الصيغة، لأنهم يرغبون في فرض سياساتهم الخاصة».

ركّزت على هٰذه المسألة قائلاً: «ولكن قد يحتاج إلى وقت طويل وعناء لتبديد مخاوف إسرائيل وشعورها بعدم الأمان، إذا ما سمعت أن جيرانها العرب سيجلسون معها على طاولة المفاوضات وجهاً لوجه. وبالرغم من كل شيء، فإن إسرائيل دولة لها كيان في هٰذه المنطقة».

هزّ طارق عزيز رأسه وكتفيه غير مكترث وقال: «حسن. إن الأطراف المعنيين مباشرة بهذه المسألة، وحسب علمي، لم يرفضوا ذلك ضمن إطار مؤتمر دولي . . .».

عارضته معلّقاً: «ولكن لم تعترف أية دولة عربية من الدول المحيطة بإسرائيل بحق إسرائيل في الوجود، باستثناء مصر . . .».

ضحك طارق عزيز ضحكة خافتة وأجاب: «لم تعترف إسرائيل بحق الدول العربية، يجب على إسرائيل الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في الوجود، وبحق الشعب الفلسطيني في أن تكون له دولته الخاصّة به. إذا اعترفت بذلك فتستطيع عندها الاعتراض على مواقف الآخرين. إن الإسرائيليين لم يقوموا أولاً بما يتوجّب عليهم بادىء ذي بدء . . ».

قال جون فجأة: «سيادة الوزير، لقد أدركنا الوقت. عندما يسألك أطفالك وأسرتك: «هل ستقع الحرب؟» ماذا تجيبهم؟».

طارق: «أجيبهم بأن الأمر عائد إلى الرئيس «بوش» أقول لكم بصراحة إنني لا أعرف ماذا يدور في خلد «بوش». ومن جانبنا نحن، فالعراق لا يريد الحرب ولا يسير في اتجاه إذكاء نارها وتسعيرها، نحن نتمنى تجنّب الحرب، ليس لأننا خائفون منها كما يحلو لبعض المتهكمين في واشنطن أن يصفونا به، نحن شعب شجاع وجريء، وقد مررنا بتجارب قاسية، وأظهرنا قدرة على التحمّل والصبر، ومقدرة على التحمل إبان الحرب مع إيران . . ».

وأضاف الوزير: «لأننا من البشر ولأننا نؤمن بالله، يجب أن لا نألو جهداً في العمل على تجنّب الحرب، ولكن ليس عن طريق توقيع اتفاقية استسلام. لن نستسلم في سبيل تجنّب الحرب. ويجب على الآخرين التمييز جيداً بين الرغبة الحقيقية للتوصّل إلى سلام يعم بلادنا، وبين السخرية والتهكم التي يلجأون إليها عندما نظهر استعدادنا لفتح باب الحوار يجب عليهم ألا يخلطوا بين هذين الأمرين».

انتهت المقابلة وبدأنا نجمع معداتنا، وقال لي جون: «أنا آسف. لا أعرف ماذا حدث لي في بداية هذه المقابلة. وشكراً لك على تدخّلك وتغيير مواضيع الحديث».

أجبت: «لقد كان موقف الوزير صلباً وركّز حديثه كثيراً فيما يخصّ إسرائيل. لقد شعرت وكأننا سندخل في نقاش جدلي آخر».

جون: «أجل، أعرف ما تعنيه».

قلت شبه يائس: «الحقيقة أن كل شيء سيء وليس بالجيد. إن كلا الطرفين غير متفهمين لبعضهما البعض، وكل طرف غير مستعدٍ للنظر في آراء ووجهات الطرف الآخر».

١٧

تقاسم «جون» و«ميتش» العمل طوال الأيام القليلة التالية وتناوبا إدارة الخط الرباعي وتحديث ملفّات الأخبار والتقارير. وأقامت «أنغريد» والطاقم معسكراً في نهاية المطاف في المطار لتسجيل وقائع الهجرة الجماعية للرعايا الأجانب، حتى أن القط واسمه «بوش» كان عائداً إلى الوطن. وتقرّر أن تبقى السفارة الأمريكية في الكويت مفتوحة وبدون موظفين حيث سيكون السفير «ناثنيال هاول» آخر دبلوماسي أمريكي يغادر الكويت على طائرة بوينغ ٧٠٧ تابعة للخطوط الجوية العراقية، ستقلع من الكويت إلى فرانكفورت في ألمانيا.

قلت لـ «توم فينتون» في المكتب: «من الأفضل لك أن يوجد شخص ما في فرانكفورت. وبالمناسبة، أين «روث» الآن؟».

توم: «يجب أن يكون في باريس ليتجه من هناك إلى عَمان. وهو على وشك الصّعود إلى الطائرة».

وضحكت لأن «ريتشارد» غيّر رأيه مرة أخرى وسيذهب إلى الأردن بدلاً من الذهاب إلى المملكة العربية السعودية.

قلت: «لو كنت مكانك لسحبته من هناك، هٰذا إذا لم يكن لديك خطط وأفكار أخرى».

وبعد ثلاثين دقيقة، اتصل بنا «توم» ليخبرنا بأنّه استطاع الاتصال بـ «روث ريتشارد» في آخر

تقاسم «جون» و«ميتش» العمل طوال الأيام القليلة التالية وتناوبا إدارة الخط الرباعي وتحديث ملفّات الأخبار والتقارير. وأقامت «أنغريد» والطاقم معسّكراً في نهاية المطاف في المطار لتسجيل وقائع الهجرة الجماعية للرعايا الأجانب، حتى أن القط واسمه «بوش» كان عائداً إلى الوطن. وتقرّر أن تبقى السفارة الأمريكية في الكويت مفتوحة وبدون موظفين حيث سيكون السفير «ناثنيال هاول» آخر دبلوماسي أمريكي يغادر الكويت على طائرة بوينغ ٧٠٧ تابعة للخطوط الجوية العراقية، ستقلع من الكويت إلى فرانكفورت في ألمانيا.

قلت لـ «توم فينتون» في المكتب: «من الأفضل لك أن يوجد شخص ما في فرانكفورت. وبالمناسبة، أين «روث» الآن؟».

توم: «يجب أن يكون في باريس ليتجه من هناك إلى عَمان. وهو على وشك الصّعود إلى الطائرة».

وضحكت لأن «ريتشارد» غيّر رأيه مرة أخرى وسيذهب إلى الأردن بدلاً من الذهاب إلى المملكة العربية السعودية.

قلت: «لو كنت مكانك لسحبته من هناك، هٰذا إذا لم يكن لديك خطط وأفكار أخرى».

وبعد ثلاثين دقيقة، اتصل بنا «توم» ليخبرنا بأنّه استطاع الاتصال بـ «روث ريتشارد» في آخر لحظة وأعاده إلى ألمانيا.

جلسنا مع «جو» بعد عدّة أيام من إطلاق سراح الرهائن. وضحك جو قائلاً: «كنت أقرأ عدداً من الكتب بحثاً عن الواقعية في الحياة، الكتاب الأول هو: العام ١٩٤٨، والثاني هو: أليس في بلاد العجائب.

كان العراق قد اقترح أن يلتقي طارق عزيز مع «بوش» في واشنطن يوم ١٧/كانون الأول، بينما يلتقي «بيكر» مع صدام في بغداد يوم ١٢/كانون الثاني. ولكن بعد إعلان بأن زيارة بيكر إلى العراق ستكون مقبولة في أي وقت يقع ضمن الفترة من ١٥/كانون الأول إلى ١٥/كانون الثاني، فقد أشارت الولايات المتحدة إلى أن يوم ١٢/كانون الثاني هو وقت قريب جداً من الموعد النهائي الذي أمهلته الأمم المتحدة للعراق.

وقال جو موضحاً: «أنا لست مندهشاً مما صرح به طارق عزيز ومما أخبرك به مصدر معلوماتك في التقرير الأول. إن هٰذه الإشارات المتعارضة جزء من الأساليب التي تستخدمونها في مفاوضاتهم».

سلّمت مجيباً: «من الصّعب أحياناً في هٰذه الدولة الخروج باستنتاج أو استقراء الأمور الجارية».

جو: «إنه صعب علينا أيضاً في غالب الأحيان. ولم يكن لأمريكا سفير مفوّض في العراق إلا منذ عام ١٩٨٤. تذكر يا «روبرت» أن علاقتنا الدبلوماسية كانت مقطوعة مع العراق منذ عام ١٩٦٧».

ـ «إذن، ماذا سيحدث في هٰذا الموعد؟».

جو: «لا أدري. يريد طارق عزيز قضاء أربعة أيام في الولايات المتحدة قبل لقائه بالرئيس «بوش». إنه يريد كسب أكبر فترة ممكنة هناك لعرض وشرح قضيته على الصحافة».

- «وبعد ذلك؟».

جو: «لا أحد يعرف كيف سينتهي ذلك وما سيتمخّض عنه».

أجرينا مقابلات عديدة مع الرهائن. وقال أحدهم: «إن هٰذا الحدث يشبه نزع سكين كان مغروساً بين أضلعك». وقال آخر وهو يحمل وثيقة سفر خاصة صادرة عن السفارة الأمريكية: «كنت مضّطرباً طيلة أربعة أشهر ونصف، ولكنها مشيئة الله، وها هو اليوم يوم الخلاص». وصرح القائم بأعمال السفارة الأمريكية: «كان «جو ويلسون» يضطلع بمتابعة الأحداث. إن أفضل ما مررت به بعد توقفي عن تعاطي المخدرات هو تلك الفورة والتجربة العاطفية التي تثير كوامن النفس».

برزت عدّة مواقف في خضم علمية المغادرة النهائية للرهائن حيث اختلط الحابل بالنابل، ومن بين هٰذه الصور والمواقف: باص غير ملائم طلاه العراقيون بطبقة من الدهان ونقلوا فيه الزوجات البـريطانيات في رحلة على عَجَـلٍ إلى مدينـة بابل. و«أنغريد» تشتري عدداً من لفات الطعام لعشرات من الفيتناميين المنتظرين في المطار. حنان تُدخل القط «بوش» بلطفٍ داخل صندوق من الكرتون المقوّى. عشرات من عمّال النفط ذوي البطون الكبيرة المرتدين قمصاناً بنصف كم، وشعر اللحي النّابت، ويضعون على رؤوسهم قبعات لاعبي كرة البيسبول، ويلوحون بأيديهم عند انطلاق حافلاتهم على الطريق الفرعي لفندق منصور ـ ميليا متجهة إلى مطار صدام الدولي. وهكذا غادر الجميع بغداد.

وبعد يوم من مغادرة القط «بوش» بغداد، اتصل وِلْ كنغ من أتلانتا إلى مكتبنا في بغداد ليقول لي: «آسف لإزعاجك مسبقاً بما سأطلبه. من فضلك استمع لي قبل أن ترفض وتقول: كلا»، وهيَّأت نفسي لتلقّي الأسوأ وقلت: «أرجو ألا يكون للموضوع علاقة بـ «ناديا كومانشي»، هل هو كذلك؟».

ضحك وِلْ مجيباً: «كلا، كلا. هناك قصّة، فقد استمعنا إلى خبر مفاده أن إحدى المسافرات من الرهائن أضاعت كلبها الصّغير أمس قبل صعودها على متن الطائرة في مطار بغداد، وربّما لا يزال الكلب في المطار. لقد جفل الكلب بسبب النّشاط الكثيف هناك والاهتياج، فقفز من بين يديهـا، كُنت أفكّـر للتّو لو أن أحدكم لديه وقت كافٍ للعودة إلى المطار والبحث عن الكلب، وسنحصل على قصة إخبارية إنسانية عظيمة ومثيرة. أنت تعلم أننا حصلنا على الشّكر وردود فعل إيجابيّة مدهشة جرّاء خبرنا المصور عن القط «بوش»».

كان «هوليمان» قبل أيام قد حمل «بوش» وصوّره «روث» موثّقاً بذلك الوصول المنتظر للرهائن إلى مطار فرانكفورت، واستخدمت هٰذه اللقطة كخاتمة للتقرير الإخباري المصور.

ـ «لن أرسل أحداً إلى المطار ليبحث عن كلب. مع كل احترامي لك يا «وِلْ» أقول: سُحقاً لهذا الكلب!!».

وِلْ متلعثماً: «حسن، أنا متفهّم للوضع. كل ما هنالك أني ارتأيت إمكانية الحصول على قصّة إخبـارية موجزة إذا ما سنحت الفرصة وكان أحدكم ينوي الذهاب إلى المطار. ما الأعمال التي يتوجّب عليك إنجازها اليوم؟».

لله درّ «وِلْ كنغ»، فلهذا الرجل قلبٌ نقيٌ من ذهبٍ. والحقيقة أنَّ من بين كل الأشخاص الذين عملوا في المكتب الدولي للشّبكة، كان «وِلْ» الرجلَ الوحيد الذي ينظر إلى الجانب المشرق من الأمور ويأمل.

وعلى سبيل المثال، وأثناء الثورة «المخملية» في براغ، كنا ننتظر الوصول إلى رومانيا جواً بعد أن وصلت فرق المراسلين من الشّبكات الأخرى وبدأ للتّو في نقلٍ حيٍّ للأخبار، وحاول «وِلْ» أثناءها إقناعي بأن أحداً لن ينهال ضرباً على مؤخّرتنا.

وناشدني قائلاً: «أخبرني بالله عليك ماذا سنجني من وراء بث الأخبار على الهواء مباشرة؟ قل لي ماذا سنكسب؟».

أجبته بأسلوب فظ وأنا منتصب: «ليس هٰذا بيت القصيد. يجب أن نرقى بأنفسنا بوصفنا شبكة تبثّ الأخبار بثّاً حيّاً. وكما قال «روث»: «نحن نتّبع الأحداث ونصوّرها ولو كانت سباقاً للصراصير». إذا كانت الشّبكات الأخرى تقوم ببثٍّ حيٍّ، فيجب علينا أيضاً القيام بذلك».

وِلْ متنهداً: «حسن، إننا ننّوي عمل ذلك».

ـ «أنا متأكد أننا نسعى في هٰذا الاتجاه، ولكن بينما نحن ننوي العمل فإن الآخرين يقومون به وينفذونه».

أجاب وِلْ مطمئناً إيّاي: «سيكون كل شيء على ما يرام».

وحدَّثت نفسي آنذاك إن «وِلْ» متفاؤل على الدّوام، وكما عَبَّر عن ذلك أحد زملائيَ بقوله أنه لو دخل شخص يحمل رشّاشاً آليّاً إلى غرفة الأخبار في مكتب أتلانتا وأخذ يحصد العاملين هناك حصداً بمدفعه، لرأيت «وِلْ» يحاول الوصول إلى حقيقة احتمال وجود بعض النّاجين من الموت. ولكنَّ «وِلْ» في الواقع صحفيٌ موهوبٌ ومخلصٌ في عمله، وتستطيع دوماً الاعتماد عليه عند الحاجة وفي الملمّات.

قدّمت رسالتي إلى ناجي من أن «إيرل» لم يكن قد تكلّم مع «بلايستون»، وحَوَتِ الرِّسالة

أسماء الطاقم الذين سيبقون خلال جولة العمل الأخيرة في بغداد قبل هٰذه المرة وكتبت فيها: «أصحاب هٰذه الأسماء كانت كلها في بغداد قبل هٰذه المرة. وأنت مطّلع على عملهم وتعرف استقامتهم في العمل ومهارتهم فيه».

قرأ ناجي قائمة الأسماء وقال: «جميل جداً. ستكون تأشيرات الدخول جاهزة في عمان». وتحدّثنا طويلاً وبإسهاب عن سفرنا جواً ثم العودة إلى العراق، وعن المقابلة المتوقعة مع الرئيس صدام حسين والتي قال عنها ناجي أن المسؤولين يضعونها في عين الاعتبار.

ناجي: «يجب أن أخبرك وبكل صراحة أننا لا نفهم السبب الذي اضطّركم إلى الاستعانة بطبيب نفساني ليحلّل شخصية الرئيس صدام حسين».

سألته: «ماذا تقصد بعبارة طبيب نفساني؟ إنني أجهل في الواقع الموضوع الذي تتحدّث عنه».

ناجي: «الطبيب النفساني الذي ظهر في شبكتكم بعد آخر مقابلة للسيد «بيرنارد شو» مع الرئيس صدام، والذي قدّم وجهة نظره حول الحالة العقليّة المزعومة للسيد صدام حسين».

قلت محتجاً: «أنا متأكد أنك مخطىء تماماً».

وتذكرت أن شبكة آي. تي. إن قد بثّت برنامجاً عن الرئيس صدام، ونالت فيه من شخصيته وذلك عقب مقابلة معه، إلا أن شبكة سي. إن. إن تنأى بنفسها عن مثل هٰذه البرامج ونوعيتها السفيهة. أضاف ناجي: «كلّا. لقد كانت شبكة الـ سي. إن. إن هي التي بثت البرنامج، وقد لا تكون لك علاقة بما حدث . . .».

وقطعت حديثه مجيباً: «أصدقك القول، إنني جاهل لـ . . .».

ناجي: «إذا كنت تريد استخدام أشخاص ليعلّقوا على المقابلة، أو حتى ليحلّلوا المقابلة، فبإمكانك الذّهاب إلى مكان آخر لتلتقي مع رجال دولة ورجال سياسة آخرين. إن استخدام طبيب نفساني ليؤوّل ما قد يدور في خَلد السيد الرئيس صدام هو عمل غير مسؤول ويدلُّ على الحمق، ألا توافقني على ذلك؟». وقد وافقته في سرِّي بيني وبين نفسي، فقد تكون مثل هٰذه البرامج ممتعة ومثيرة، ولكنها ليست أخباراً ووقائع.

أجبت: «لا علاقة لي بالأمر حتى أوافق أو لا أوافق، وسوف أتحدَّث مع مسؤولي الشبكة وأكتشف ما حصل. على أية حال، أنا أفهم من ذلك أن شبكة سي. إن. إن سيكون بمقدورها القيام ببثٍّ حيٍّ ومباشرٍ يصل إلى جميع العواصم العالمية في ١٥/كانون الثاني. وأعتقد أن إجراء مقابلةٍ في مكتب طبيب نفساني وفي مكانٍ بعيدٍ من هنا لن يؤثّر على خططنا في العمل».

ناجي: «حسناً، هٰذا جيد. أنت تدرك أننا لا نحاول تقرير من الأشخاص الذين ستقابلهم،

ولا نفرض عليك اختيارهم، ولكن لا جدوى من استخدام طبيب من وجهة نظري».

جلست مع «إيسـون» وقصصت عليه ما جرى بيني وبين ناجي، فقـال «إيسـون»: «آسف لإخباري بأنّ هٰذا هو ما حدث».

صرخت: «رَبّاهُ هٰذا شيء، سيّءٌ حقّاً!».

إيسون باهتمام وقلق: «هل تظن أن هٰذا سيفوِّت علينا الفوز بإجراء المقابلة؟».

ـ «إذا كنت لا تنوي استخدام الطبيب «سيجموند فرويد» مرّة أخرى، فيمكنك إرسال برقية إلى ناجي تؤكّد فيها وتطمئنه أن ذلك لن يتكرّر أبداً».

إيسـون: «هٰذا واضح ومفهوم. بالمناسبة، لقد توصّلنا إلى قرارٍ نهائيّ بشأن العلاوة اليومية الخاصة بالمعيشة».

ـ «أحقّاً ما تقول؟» وكنت أتوقع ذلك.

كان الموضوع قد طفا على السّطح مرة أخرى عندما ذَكَرَ «هوليمان» أنّ قسم المحاسبة قد أخبره بأنه سيتلقّى مبلغ (٤٥) دولاراً عن كل يوم أمضاه في العراق.

إيسون: «سندفع لكل موظف علاوة يومية، وسيكون القرار قراراً بأثر رجعيٍّ».

ـ «هٰذا عظيم، وسيرفع من معنويّاتنا حقيقة».

إيسون: «أجل سترفع المعنويات. وسنزوِّد المكتب أيضاً بما يحتاجه من مأكولات وتوابعها».

ـ «ما تفعله هو عين الصواب. شكراً على مساندتك لنا في هٰذه المسألة».

وحثّني قائلاً: «حاول التقليل من المصاريف قدر الإمكان. لن تصدّق ما سيتكلفه تغطية هٰذا التقرير الإخباري. إننا ننفق مبالغ طائلة كلَّ أسبوع يمر».

أقام «جو» حفلةً احتفاءً بنجاح عملية إخلاء الرعايا الأمريكيين والرهائن، ودعا معظم أعضاء السلك الدبلوماسي الأمريكي إلى بيته للمشاركة في الحفل. وقرَّرت عدم حضور الاحتفال مفضّلاً النّزول إلى السّـوق والتجـوّل فيه على الأقـدام. وما إن خرجت من فندق الرشيد حتى شعرت بالابتهاج. وكنت كلّما سنحت لي فرصة بين الحين والآخر وكانت السيارة متواجدة، أطلب من جاسم أو كريم أن يطوّفا بي في أنحاء مدينة بغداد. وإحدى سلبيات كونك مسؤولاً عن طاقم الشبكة هي أن تظلَّ ملازماً لمكان العمل أياماً متواصلة، ولكنه يظل مع ذلك أفضل بكثير من أن أكون رئيس مكتب في لوس أنجلوس على سبيل المثال، حيث سأكون مشرفاً على طاقم يزيد عدد أفراده على سبعين موظفاً، ومن ثمّ أشعر بالإرهاق والضّجر بسبب العمل الروتيني والأعمال الورقية من مراجعة المعامَلات والتقارير وغير ذلك. لا، إنني أنسجم مع العمل والمهمّات الخارجية، وسأظلُّ أقوم بها

ما دمت على قيد الحياة وما دمت قادراً على العمل.

أخفق الطّرفان في الوصول إلى تسوية بشأن تحديد الجدول الزمني المتعلّق بالمحادثات المرتقبة. واستمرّت الولايات المتحدة على موقفها الرافض لقبول الزيارة في ١٢/كانون الثاني، زاعمة أنه قريب جداً من الإنذار الأخير والموعد النهائي الذي حدَّدته الأمم المتحدة. وقدَّمت الولايات المتحدة خمسة عشر موعداً بديلاً ما بين ٢٠/كانون الأول و٣/كانون الثاني، وصرَّح الرئيس «بوش» بأنه سيوفد وزير خارجيته «بيكر» إلى بغداد في ٣/كانون الثاني. أما العراق من جانبه، فقد رفض عرض «بوش» هٰذا قائلاً بأن من حقِّ الرئيس صدام حسين تحديد موعد اللقاء مع «جيمس بيكر» في العراق لأن واشنطن حدّدت من جانبها موعد زيارة الوزير طارق عزيز إلى الولايات المتحدة. وبدا الوضع يشبه ما حدث إبان عقد المؤتمر الدُّولي الخاص بفيتنام حيث وصلت المحادثات آنذاك إلى طريق مسدود بسبب التذمّر والشكاوي التي صدرت حول شكل طاولة المفاوضات.

وأجرى «هوليمان» مقابلة مع وزير الإعلام العراقي لطيف نصيف جاسم في مكتبه الرسمي، جاء فيها:

لطيف جاسم: «إن القيادة العراقّية مشغولة من الآن وحتى ١٢/كانون الثاني».

جون: «هل ثمَّة أشياء أهم من ذلك؟».

الوزير: «وهل تعتقد أنَّ ذلك الاجتماع سيساعد على تجنُّب الحرب؟».

جون: «بصدق لا أعلم يا سيدي الوزير. هل العراق مستعدٌّ للانسحاب من الكويت؟».

الوزير بإصرار: «لقد فات الوقت ولم يعد الانسحاب ممكناً، وهٰذه هي الحقيقة. إن الكويت جزء من العراق؛ كانت ولا تزال وستبقى جزءاً لا يتجزّأ من أرض العراق.».

جون: «ماذا عن الحوار..».

الوزير: «نحن نرغب في بدء الحوار، ولكن لن يستطيع أحد فرض أي حلٍّ علينا، وأنا أؤكد لك أننا لا نريد الحرب، بل نريد السّلام. لا نريد أن يموت أحد ولا أن يلحق الأذى بشعبنا. نريد تطوير وتنمية دولتنا، ولكن كرامتنا وسيادتنا وحقّنا في اختيار ما نريد؛ كل ذلك يأتي في مقدّمة الأولويات ولا نقدّم عليها أيَّ أمر آخر. إن حكومة الولايات المتّحدة لا تفهم طريقة التفكير هٰذه، ولا تفهم عقليّة القيادة العراقية. لديّ رسالة لأبعثها إلى «بوش»: «لا تسر باتجاه الحرب، لأنك إن دخلت في معمعتها فستلقي بنفسك في الجحيم».

رافقت ناجي إلى مكان المصعد وقلت له: «رَبّاهُ، لقد كان حديثاً قاسياً، ويبدو أنه أكثر تطرُّفاً وتشدّداً من حديث طارق عزيز في المقابلة السابقة، عندما كان يتكلّم عن رغبة العراق في طرح

مساهمات على طاولة المفاوضات».

أجاب ناجي مبتسماً: «لا تنس أنّ هناك اختلافاً بين عمل الوزير طارق عزيز وعمل الوزير لطيف جاسم».

سألته: «مَنْ له الوزن الأكبر والتأثير الأقوى؟».

ناجي: «بالنسبة للسياسة الخارجية فمن الواضح أنَّ طارق عزيز هو وزير خارجية العراق».

ـ «فلماذا إذن يُصَعِّد الوزير لطيف جاسم من حدَّة تصريحاته؟».

غمـزني ناجي وأجاب: «لا تنس ما يمليه عليه عمله. لقد أصبح الوقت ضيّقاً جدّاً وحرجاً بحيث يستحيل علينا الانسحاب من الكويت. كان يمكن أن ننسحب في شهر آب أو أيلول، ولكن الآن أصبح الوقت متأخراً كثيراً، سوف لن نخضع للضغوط».

ـ «ولكنَّ الحرب ستكون كارثة مروعة . . .».

ناجي: «أجل ستكون الحرب حرباً ضروساً وملتهبة، ولكن لا يغيب عن ذهنك أنّا فقدنا أكثر من خمسين ألف مقاتل في معركة الفاو. وما هي الفاو؟ إنها مدينة صغيرة رديئة. أنت تعرف أن شعبنا يؤمن أن من يمـوت فسيلقى ربه في السماء في الجنّة. ولهذا، فنحن مستعدون لتحمل تبعات الحرب فيما يتعلّق بجانب الحياة الإنسانية وفلسفتها. هل تعتقد أنّ شعب الولايات المتحدة أو أعضـاء مجلس النواب (الكونغرس) الأمريكي يرغب في قبول حالة يلقى فيها آلاف الأمريكيين حتفهم؟ كلا يا «روبرت»، إنّهم لا يستطيعون تقبّل ذلك. أرجو ألا تسجّل كلامي هٰذا: إنّ الوقت يضيق بنا ولا مجال للانسحاب، وهٰذه هي وجهة نظري الشخصية».

التقيت السفير «جو ويلسون» وأخبرته بما دَارَ في مقابلة وزير الإعلام لطيف جاسم فعلّق جو قائلاً: «لا بدّ أن يفغر أحد الأطراف فاه من الرعب والذعر لهول ما سيصيبه، ولن نكون نحن ذلك الطرف ولا التحالف الغربي. ما سأخبرك به يا «روبرت» ليس للنشر: إننا نغذّ السير باتجاه خوض الحـرب. الآن وبعـد أن رحل الرعايا الأمريكيون وغادروا العراق، فإنه يجب علينا إشعال فتيل الحرب وإيقاد نيرانها».

حاولت الشّبكات الإخبارية الأمريكية على مدى أشهر إجراء مقابلة تلفزيونية مصوّرة مع السفير الأمـريكي في بغداد «جو ويلسون»، الذي كان يرفض ذلك باستمرار استجابة لأوامر صادرة من واشنطن. وبعد أن غادر الرّعايا الأمريكيون العراق وحقّق نجاحاً في إخلائهم، سمحت له وزارة الخارجية الأمريكية في نهاية المطاف بإجراء المقابلات.

وقال لي جو: «سأجرى المقابلة مع شبكة (سي. إن. إن) وشبكة (سي. بي. إس) فقط، فأنتم الذين ضحّيتم بأنفسكم وتقدّمتم إلى الصف الأول، بينما لم يرغب الآخرون في القُدوم إلى هنا».

وصلنا إلى مقر إقامة «جو» في الساعة الحادية عشرة صباحاً.

جو: «بالمناسبة، لقد قرّرت إشراك شبكة إن. بي. سي في تصوير المقابلة، و«بوتشر» في طريقه إلى هنا إذ لا نستطيع بدء المقابلة بدونه».

وبعد قليل وصل «بوتشر» وشبكة إن. بي. إس، وبدأنا المقابلة.

جو: «كان هناك قدر كبير من الإحباط، وخاصّة عندما غيّر العراقيون القواعد المتعارف عليها، مثل معاملة الدبلوماسيين الأمريكيين في الكويت».

وسأله أحد الصحفيين: «ما هي أبرز الأحداث التي تأثّرت بها؟».

جو: «سيمضي وقت طويل قبل أن أنسى التجربة المروّعة التي مررت بها وذلك عندما دعا العراق إلى الجهاد، ثم كان إطلاق صواريخ سكود التجريبية فاتصل بي آنذاك أحد الزملاء يقول: «اندلعت الحرب، إن إطلاق الصواريخ ليس تدريباً عسكرياً. كانت لحظات عصيبة».

وقال جو في معرض إجابته عن سؤال آخر:

«لقد تعلّمت الكثير من الأمور عن نفسي. لم تكن القضية قضية قانونية فحسب، بل كنا نتعامل مع أرواح بشرية، عندما تتعامل مع قضايا الحرب والسلام، فإنك تكون مثل المحامين الذين يتعاملون مع قضية مقدمة إلى المحكمة. ولكن بالنسبة لقضية الرهائن، وهي قضية إنسانية، فإنك تتعامل معها من منطلق عاطفي».

وسئل جو فيما إذا كان يودّ البقاء في المنطقة، فأجاب:

«أودّ البقاء بكل تأكيد، فأنا مرتبط بهذا الجزء من العالم. إن الناس على أشد درجات الانفعال العاطفي، والقضايا أكثر إيلاماً، وكذلك المشاكل الناشئة هنا. إن النّاس متألمون. وأودّ بصفتي دبلوماسيا أن أعيد بناء العلاقات مع العراق. صحيح أنهم عنيفون ولديهم شدّة وحزم وتصميم، ولكن من الممكن بناء علاقات معهم، وأنا لم أحجم عن ذلك من جانبي، ولكن لا أدري ماذا سيحلُّ بنا. لقد وجدنا كثيراً من الإشارات المشوَّشة وغير الواضحة نظراً لتعارضها واختلاطها، وإذا ما أضفنا إلى غياب وعدم ظهور بوادر تغيير جوهري وواقعي في موقف العراق. أن العراق هو البلد الوحيد الذي عملت فيه من دون أن أحظى بصديقٍ أو زميلٍ من المقرّبين للرئيس صدام حسين».

وصرح «جو» أنه الآن وبعد مغادرة الرهائن فقد انتقل إلى حالة يستطيع فيها التضحية وتحقيق أهداف بلده، بعد أن كانت خدماته سابقاً ضرورية جدّاً من أجل الرهائن ولا يمكن الاستغناء عنها. وأبدى قلقه على حنان والعراقيين الآخرين الذين عملوا في السفارة الأمريكية، ووصفهم بأنّهم «كانوا في منتهى الشّجاعة». ودعانا «جو» بعد انتهاء المقابلة إلى تناول المشروبات وقال لـ «أنغريد»:

«مشروب الفودكا موجود في الثلاجة، اعتبري نفسك في بيتك. وآسف لأنها ليست فودكا سوفييتية».

ألغى وزراء خارجية دول المجموعة الأوروبية الإثنتي عشرة الاجتماع الذي كان مقرراً أن يتم بين رئيس المجموعة الأوروبية ووزير خارجية العراق طارق عزيز، مشترطين أوّلاً أن يقوم طارق عزيز بالاجتماع مع الرئيس «بوش». وصرّح الوزراء الذين اجتمعوا في عاصمة بلجيكا (بروكسل) أنهم أرادوا بذلك إعطاء إشارة واضحة إلى العراق بأن وجهات نظر الدول الأوروبية متطابقة تماماً مع وجهات النظر الأمريكية بشأن قضية الانسحاب العراقي من الكويت. وفي تلك الآونة، عاد ياسر عرفات إلى بغداد وأوقع «أنغريد» في حالة من الاضطراب والتشوّش عندما حاولت تتبّع حركاته، وكيف كانت لتتمكن من ذلك وهو رئيس منظمة التحرير الفلسطينية المعروف بأنه دائم الحل والترحال. وقام مكتب أتلانتا في نهاية المطاف بإعلام «أنغريد» أن تكف عن محاولاتها في العثور على أبي نضال بعد أن راجت شائعة هناك أنه متواجد في بغداد.

بدأت مظاهر عيد ميلاد المسيح (عليه السلام) تتضح شيئاً فشيئاً في الطابق التاسع من فندق الرشيد، فقد نصب «بيلو» شجرة الميلاد الصناعية، وملأ فريق من شبكة (سكاي نيوز) الصالات بحبال من مصابيح الزّينة ذات الوميض المتقطع. ولكن ما بهجة عيد الميلاد إذا لم تكن هناك حفلات عيد الميلاد التي تتم عادة في مكاتب العمل؟! كان الجو بهيجاً وساراً إذ لم تنغّص قضية الرهائن ولم تفسد حفلاتنا، ولكن القلق الدائم الذي لازمنا سابقاً وأصبح هاجسنا كحصيلة ثانوية لمراقبة العراقيين سكناتنا وتحركاتنا، هٰذا القلق تفجّر من مكمنه وأخذ طابعاً غير حميد، فانفجر هالدرمان هائجاً بغضب: «سحقاً لهؤلاء الأشخاص. إني أكرههم وأريد إغاظتهم».

حذّرته قائلاً: «إخفض صوتك لو سمحت، فأكن من الشاكرين لك، إضافة إلى ذلك إني أعتبر ما تتفوّه به عملاً طائشاً، وخاصة أنه صادر عن صحفي مثلك».

هالدرمان: «ما الذي تقوله؟ هل أنت خائف أن يسمعوني؟ دعهم يسمعون. إني مشمئز من هٰذا المكان ومشمئز منهم. أنتم يا زملاء، يا من تودّون البقاء هنا، أنتم مجانين وبلا عقول إن كنتم تريدون ذلك. أنتم، و«جو ويلسون»، وكلكم جميعاً».

ثم التقط نظارته وأخذ جرعة كبيرة من المشروب المسكر.

قلت مبتسماً: «لا أظن أن «جو» سيوافينا هنا في الطابق الخامس عشر، إذا ما استمرت الحفلة على هٰذه الشاكلة».

هالدرمان مُصرّاً: «سيحضر إلى هنا. هل ثمّة مكان آخر ليذهب إليه؟».

هالدرمان ساخراً: «هٰذا هراء، إنهم في واشنطن لا يعيرون «جو ويلسون» أدنى اهتمام،

وسيتركه «جيمس بيكر» ليشنق ويموت هنا. إن «بيكر» لا يفيده بشيء، وسيتركه هنا ليلاقي مصيره».

نانسي لان: «أخالفك الرأي يا «هالدرمان»».

وكانت «نانسي» قد وصلت إلى بغداد بعد ظهر يوم عيد الميلاد، وكان من المقرّر أن تحل مكاني أثناء فترة العطلة.

صرخ هالدرمان في وجه نانسي: «أنت! أنت لا تعرفين شيئاً عما تتكلّمين عنه! لا تنسي أنني استخدمتك! ؛ وكنت تعملين عندي وتحت يدي! وعلى أية حال، أنا لا أوجه كلامي لك. أنا أتكلم معه وأكرّر قولي بأن السفارة لن تغلق أبوابها. ولن يهتم أحد بـ «جو ويلسون» حتى ولو أغلقت السفارة أبوابها وعلّقت نشاطاتها. هل تريد أن تراهن بالمال على هٰذا؟».

لم يكن «هالدرمان» آنذاك الشخص الوحيد الذي تكلّم على سجيّته ومظهراً ما في كوامنه، فقد اتصلت بـ «جو ويلسون» من الفندق بعد أن رجعت إلى غرفتي في وقت متأخر من تلك الليلة، وتحدّثت معه طالباً وجهة نظره بشأن تقرير أفاد بأن طارق عزيز قد يلغي محادثاته المتوقّعة في واشنطن، وإذا بـ «جو ويلسون» يصرخ عبر خط الهاتف ليقول بكل بساطة: «تباً له، وليذهب إلى الجحيم».

صعدت مع «جون» إلى الطائرة النفّاثة المتجّهة إلى عَمّان، وقلت له: «كان بالتأكيد وقتاً للراحة، وغداً ستكون في مكان جميل كالجنّة». وتنهدت مفكراً بالرحلة القصيرة التي سنقوم بها إلى القدس، ومفكّراً بقضاء ليلة في فندق (فندق أمريكان كولوني) الرائع.

دخلنا مكتب شبكة سي. إن. إن في القدس ونحن نمشي الهوينا، وبعد أن رحّبوا بنا قال «آرنت»: «مرحباً بالزملاء. كم أحب أن أكون بينكم هنا. قل ما تريد يا «روبرت» وستراني طوع بنانك ورفيق سفرك إلى أي مكان تشاء الذهاب إليه».

وسرنا قاصدين مطعم صديقي«مولي» في وقتٍ لاحقٍ من تلك الليلة، وهو مطعم عمره ستون عاماً، كان ولا يزال المكان المفضّل لي عندما أسافر إلى إسرائيل، وكان «مولي أزريلي» صديقاً حميماً لي ومدير ذلك المطعم في آن واحد معاً.

ضحك مولي وقال: «في بغداد يا «روبرت»؟!».

وقادنا «مولي» إلى طاولتنا في المطعم، وانضمّ إلينا «آرنت» مع صديقه «كيمبرلي مور» ومع «ميشال زيبوري» الذي كان آنذاك المخرج الرئيسي في مكتب القدس.

سألت قائلاً: «ماذا يجري هنا؟ هل أنتم مقيمون في تل أبيب؟».

وكان مقرراً أن يعقد المتحدّث باسم جيش الدفاع الإسرائيلي مؤتمراته الصحفية في فندق هيلتون في تل أبيب إذا ما اندلعت الحرب.

ميشال: «لم يتّخذ «لاري» قراره بعد. إنه يحاول تخفيض المصاريف إضافة إلى أنه سيقضي إجازته».

صاح بيتر: «ماذا تقول؟ أهو في إجازة الآن؟ إذا لم يتم تصحيح الأمور وتسويتها فسأبدو كالشخص الفاقد عقله».

اقترحت عليهم مضيفاً: «يجب أن يتكلّم أحدكم مع «ريجيستر».

أرى أن الوقت يمر وينقضي، وذلك بالاعتماد على ما شاهدناه ولمسناه مؤخراً».

الجزء الخامس

كانون أول ـ ١٩٩٠ ـ كانون
الثاني ـ ١٩٩١

١٨

أمضيت عطلة سعيدة مع أسرتي في برلين. كانت المرّة الأولى التي أقضيها في احتفالات رأس السنة الميلادية، لكنّي لم أستطع أن أبعد طيف بغداد عن مخيلتي، وتابعت الأمر دون أن أتمكّن من التمتّع بالعطلة كما تستحق الأسرة. كانت قناة التلفزيون مثبتة على أخبار الـ «C.N.N»، وأكثر من مرّة كنت أحثّ أبنائي على الهدوء لأتمكّن من متابعة الأخبار في هدوء.

رافقت زوجتي «إيلين» إلى السوق لشراء الهدايا؛ قطار كهربائي لابني «جيسي»، وسيارة بسلك إلى «جاكي» . . لكن أفكاري كانت بعيدة في مكان آخر. بينما كنت أطالع الباعة السّعداء في (كادي وي) رحت أتأمل صورة سوق بغداد والناس هناك . . وماذا يخبىء لهم القدر.

لم أستطع النوم، لكن لم يكن لديّ رغبة في الكلام بسبب: ماذا لو؟ رغم ذلك فإن «إيلين» كانت لديها قناعة ثابتة بأنه سيتم تجنّب الحرب في اللحظة الأخيرة. كان خوفها الأكبر يكمن أنني قد أنقطع عنهم لعدّة أسابيع في حال انقطاع المواصلات. حاولت أن أقنعها بأنه في حال نشوب الحرب عليها أن تُوطّن نفسها على الأسوأ، وفي تلك الحالة من المفترض أن يخرج أناس إلى عَمان ويزودوها بالأخبار.

كانت «إيلين» قلقة كعادتها . . وحبذّتُ عودتي إلى بغداد لفترة معيّنة، وفسّرت الأمر على أنه نوع من الموافقة الإجبارية. لم أناقش الأمر مع أبنائي بالتفصيل، لكن كان عندهم فكرة عن الموضوع . . وبعد نشوب الحرب كان «جاكي» يقول في الروضة لأبناء صفه إن والدي هو رئيس بغداد.

بعد ظهر أحد الأيام كنت أشاهد أخبار تدريب إجلاء سكان بغداد عنها إلى الجزء الشرقي من العاصمة العراقية. ادّعت البيانات الرسمية أنه تم نقل أكثر من مليون شخص إلى أماكن آمنة قريبة من بغداد. وقد صرّح وزير الخارجية العراقي أنّها أكبر عملية إجلاء في تاريخ البلاد. لكن «روث» [الذي أُرسل إلى بغداد بدلاً من السعودية] أوضح تقريره وشاركه الرأي صحفيون آخرون بأن الأرقام مبالغ فيها وتمّ تضخيمها. فقد شاهدوا عدّة مئات من الناس في عملية إجلاء والذين يبدو أنهم نقلوا فقط خارج العاصمة . . بالرغم من ذلك فقد صرّح العراق بزهو أنه في حال تعرض بغداد لغارة جوية

فإنه سيتم نقل جميع سكان بغداد.

في يوم آخر شاهدت «ريتشارد» وهو يبثّ تقريراً عن عملية التعتيم. فقد تمّ قطع التيار الكهربائي عن المدينة بما فيها فندق الرشيد، سألت هل المولّد ذو الأربع أسلاك توقّف أيضاً؟ سألت أتلانتا.. إذا حدث ذلك أخبر «روث» أو «نانسي» بأنه يعمل على بطاريات منفصلة ويمكن تشغيله. منذ ذلك الوقت تمّ تزويدهم بوحدة طاقة مشحونة ماركة «BP-90» بالقرب من مركز أتلانتا.

من ناحية أخرى أجرى صدام حسين عدة مقابلات مع شبكات تلفزيونية: إسبانية، ألمانية، مكسيكية. وأكّد أن العراق لن يتخلّى عن «المحافظة التاسعة عشرة» وأضاف قائلاً: «نحن العراقيين مسلمون يؤمنون بقضيتهم وسوف يدافعون عن المبادىء.. سأل صدام حسين أحد المراسلين: «هل تصوّرت للحظة عن إمكانية هزيمة الولايات المتحدة؟» ثم قال إن العراق ينشد الحوار مع الولايات المتحدة.. لكن العراق وحده هو الذي سيختار ويحدّد يوم زيارة «بيكر»».

أمضى الأولاد يومهم يحتفلون برأس السنة وهداياهم. أما أنا فقد أمضيت اليوم أشاهد التلفزيون العراقي حيث عرض مناظر للمسيحيين وهم يحتفلون بعيدهم عند منتصف الليل. كان «ديك تشيني» في تلك الليل موجوداً في السعودية وأخبر القوات هناك «أن الساعة قد اقتربت» وبعد ذلك بأيام أعلنت الولايات المتحدة وبريطانيا أنهما ستقومان بتطعيم القوات الموجودة في السعودية ضد الحرب الكيمائية. وفي ليلة رأس السنة قام «روث» وفريقه بالتقاط بعض صور الاحتفالات بهذه المناسبة.. وقال بعضهم لـ «ريتشارد» قد تكون المناسبة الأخيرة التي يحيونها.. عندما دقّت الساعة معلنة منتصف الليل علت في النادي الليلي الأصوات المحمومة وفي لحظة قامت الفرقة الموسيقية بعزف اللحن المجلجل «الأجراس الصاخبة الخاصة برأس السنة».

قال: «في يوم رأس السنة كان صدام حسين بين جنوده في الكويت وأخبر جنوده أن العراق بإمكانه حشد (٦٠) فرقة عسكرية على الحدود مع السعودية، وفي خطاب وجّهه للشعب العراقي قال منتقداً «بوش» كما خان يهودا المسيح فإن «بوش» بعدوانه وروحه المتأصّلة في الشر والخبثِ قد خان تعليمات السيد المسيح».

وفي واشنطن قال الرئيس بوش لـ «دافيد فروست»: «إن غزو الكويت هو أخطر مشكلة تواجهها الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية».. وقال رئيس هيئة الأركان «إنها قضية مهمة وكبيرة.. ولا شيء يعادلها أهمية حفاظاً لمبادئنا وروحنا المعنوية».. ثم هاجّم الرئيس العراقي وبدأ يصف بأنه «دكتاتور معتدي، اغتصب الكويت». وبعد يومين قدّم إنذاراً إلى العراق للقبول بموعد يوم ٩/كانون ثاني لمحادثات جنيف أو يستعد للحرب.

نمت بصعوبة بالغة آخر ليلة في بيتي. وفي الساعة الثالثة صباحاً تسلّلت إلى غرفة الأولاد وجلست على الأرض . . أتطلع في وجوههم . . وأيقنت كم أحبّهم . . ما هٰذا العالم الّلعين . . وبدأ كل واحد يتمتم عندما قبلته على رأسه . . في الليلة السابقة . . قدّموا لي هدّية وكانت منظراً كبيراً لحيوانات، وسفن فضاء وطائرات وفساتين لأقوم بتزيين غرفتي بها في بغداد. سحبت هٰذه الهدايا وبدأت أربطها وأضعها في حقيبتي بكل عناية.

وقفت «إيلين» والأولاد على نافذة الشّقة عندما ركبت التاكسي في الساعات الأولى من الصباح وقبل أن يتّضح النور . . أجزم أنها كانت تبكي، ولكن لم أشأ أن أعلمها . . وبقينا نلوّح لبعضٍ بالأيدي حتى تحرّكت السيارة واختفت من الشارع.

ـ «حبيبي . . حبيبي. أنا هنا» . . اللؤلؤ . . صاحت وهي تنتظر في صالون شركة لوفتنهازا ثم طوّقت بذراعها حول رقبتي وقبلتني كصديق قبلة حارّة.

قلت وأنا أعيد معانقتها: «أنا آسف بخصوص ما سمعته عن والدك». قبل عدة أسابيع توفي والد «سايندي» فجأة في تكساس . . «كيف تسير أحوالك؟».

قالت وهي منهكـة: «أنا بصحة جيد». كانت الرحلة شاقة من دالاس إلى نيويورك ثم إلى فرانكفورت . . كان من المستحيل عليّ النوم».

قلت ضاحكاً: «ما أجمل تسريحة شعرك؟» وأخذتُ أمرّر يدي على شعرها القصير.

قالت: «إني أبدو فيها كالرجل . . أليس كذلك؟».

ضحكت وقلت: «إنه رائع . . ولكن ليس لديك فرصة . . لتصبحي رجلاً . . ماذا ستفعلين؟».

ـ «لن يخطر على بالك إجراءات الأمن في الولايات المتحدة. إنها كابوس . . يريدون أن يروا كل شيء . . بما فيها هناك . . وأشارت إلى حقيبة صغيرة بجانب الكنبة . . أبي . . فسرّت الأمر أنني أحمل أبي هناك . .

ـ «ماذا؟».

ـ «نعم والدي . . رماده، عندما أفرغ من هٰذا سوف أنثره فوق التبت».

ـ «هل ستأخذينه إلى بغداد أيضا؟».

ـ «لا أظن ذلك، إن منظري عند رجال الجمارك سيكون غريباً . . قدر سيء . . أنوي أن أتركها في عَمان».

قلت ضاحكاً: «قرار حكيم إلا إذا أردت أن يفحصها مازن».

«آه منك يا حبيبي» وعانقتني ثانية . . «شيء سار أن أراك ثانية».

ولحقتْ «سايندي» وأنا بـ «أنغريد» في عَمان حيث حصلنا على التأشيرات بسرعة. وحجزنا نحن الثلاثة متوجّهين إلى بغداد في طائرة الصباح.

قلت بعد أن انتهيت من إجراءات المطار: «هذا رائع . . وعظيم. أنكما امرأتان أُسطوريّتان . . تشكّلان قصة رائعة بالإضافة لحجزٍ على الدرجة الأولى». وعندما آن الأوان لنستعدّ تمَّ إعلامنا أن الطائرة كلها تحوّلت إلى طائرة سياحيّة (في تصنيف المقاعد) بعد ذلك بقليل تمّ الإعلان عبر مكبر الصوت أن الطائرة ستتأخر على الأقل سبع ساعات.

قلت لأنغريد: «شيء لا نهاية له . . ماذا تنوين أن تفعلي؟».

قالت: «الأفضل أن نعود إلى عمان حيث يمكننا الغذاء في غابة الصنوبر . . يوجد مطعم رائع خارج عَمان».

بعد تسليم جوازتنا إلى مكتب الجوازات والهجرة، أكّد إعادتهم إلينا عند عودتنا، ثم ركبنا سيارة إلى المدينة . .

قلت لها: «إنسيْ موضوع غابة الصنوبر . . لماذا لا نتناول طعامنا في بوفيه الانتركونتننتال؟».

قلت لها ضاحكاً عندما عدنا: «اعترفي . . أليس هذا أفضل من أن تؤذيك أشواك الصنوبر في!!».

ضحكت أنغريد وقالت: «هل فقدت روح المغامرة يا «وينرش»».

- «هيّا معي إلى «تلفزيون العالم» لنقول لأفراد الشبكة «وداعاً» . . نزلنا الدرج إلى مكتب أخبار تلفزيون العالم بالقرب من بركة السباحة.

قال فرادون هيماني: «أنا سعيد بتوقفك» . . كان «هيماني» رئيس التلفزيون العالمي . .

وقال مستطرداً: «هل تؤدّي لي خدمة؟ أريد أن أُرسل بعض (الأوراق الخضراء) [الدولارات] إلى بغداد. سألحق بكم بعد يوم أو يومين، لكن رجلي هناك بحاجة لهم».

قالت أنغريد: «لا توجد مشكلة . . كم المبلغ؟».

سأل: «هل يمكنك تسليمه (٢٥) ألف دولار».

- «بكل تأكيد العمولة في العادة عشرة في المائة».

ضحك فرادون: «إنه يناسبني . . لكن المشكلة في لندن . . على فكرة الآن وقت الغذاء».

وبعد دقائق وصل سائقه ومعه تشكيلة من المقبّلات وبعض المشّهيات العربية.

قالت أنغريد وهي تعد الأورواق النقدية: «إنها (٢٤) فقط».

قال فرادون بعد أن بلع الطُعم: «دعيني أرى ثانية».

قالت أنغريد: «مجرّد مزاح، كلّها هنا. سوف أعطيها إلى «ميتشل». وبقينا حوالي الساعة أيضاً قبل أن نتوجّه إلى المطار.

قال المدير: «سيكون هناك تأخير آخر قصير.. الطائرة هنا وستطير».

أجبته: «من الأفضل أن نكون هناك قبل لقاء «بيكر» وعزيز». وقد وافق العراقيون في النهاية على اقتراح «بوش» باللقاء في جنيف.

قال: «أرجوك أن تصبر.. لن يطول الأمر كثيراً».

قلت لأنغريد وسايندي بعد أن وضعت حقيبتي على حزام الحقائب: «عليكما العناية والمحافظة على الحقائب الأخرى.. سأصعد إلى أعلى وأحجز لنا مقاعد مريحة». أمضيت ضعف الوقت داخل الطائرة ثم توجّهت إلى (باب الخروج في حالة الطوارىء)، مادام لا بد من استخدام طائرة سياحية فعلى الأقل نستطيع أن نمدّ أرجلنا.. جاءت المضيفة وقالت بعد أن جلست «أنغريد» و«سايندي»: «لا يمكنك الجلوس هنا.. هٰذا باب الطوارىء». أصرّت وأشارت إلى علامة الباب.. كرّرت المضيفة كلامها: «لا يمكنكم الجلوس هنا.. من فضلكم، إرجعوا إلى الصف الذي خلفه أليس جيداً لكم؟» ثم جمعت أنا ورفيقتاي أمتعتنا.. ربما تتحسن الأمور.. لكن مجرد أن جلسنا على مقاعدنا الجديدة وإذا بثلاثة من العراقيين يجلسون محلنا في الكراسي الأولى.

صاحت أنغريد: «ما هٰذا؟». حيث قام الراكب الموجود أمامي بإمالة كرسيه إلى الخلف فدفع بذراعي إلى صدري.. ثم ناديت المضيفة: «عفواً.. أنتم قلتم أن هنا باب الطوارىء.. ماذا يفعل هؤلاء؟».

قالت بنعومة: «إنه مكان مناسب لهم هنا.. ومناسب لكم في مكانكم».

ضحكتُ.. وقلت: «خذي نفس، العقلية العراقية تضرب ثانية!».

تحرّكت الطائرة القديمة (٧٠٧) على المدرج، ثم حلّقت في الظلام.. بعد ساعتين أعلن الطيار بوجود ضباب فوق بغداد وستتّجه للهبوط في الجنوب. هٰذه الطائرة ليست مزوّدة بمعدات الهبوط الآلي وأعتقد أن الرؤية أوضح في البصرة. وبعد أن شددت الحزام على آخره قلت: «أبقوا في مقاعدكم».

كان هناك قدر كبير من الارتباك في مطار البصرة. وقد أهمل برج المراقبة في إخطار رجال الجمارك والجوازات عن وصولنا غير المقرر.. وبقينا ساعتين في صالة الوصول، بينما الموظفون الرسميون يودّون معرفة ما الذي سيعملونه لاحقاً، وفي النهاية قرروا وضعنا في باص وإرسالنا

للمبيت في البصرة، على أن تتم مواصلة الرحلة غداً إلى بغداد.

قال الرجل المسؤول: «ستظل أمتعتكم في الطائرة».

قال السائق وهو يتّجه إلى فندق الشيراتون: «النساء والأطفال فقط».

ضحكت أنغريد وهي تركب الباص وقالت: «أنت تعني النساء والأطفال و«وينر»».

كانت البصرة تعجّ بالجنود.. جنود عراقيون لم أر مثل عددهم في مكان آخر والآلاف منهم يسيرون في الشوارع المظلمة أو يتجمعون في كل التقاطعات أو محطات الباص. ومعظمهم يلبسون معاطف ثقيلة يتّقون بها البرد.. هنا وهناك تلتفّ جماعات منهم حول النيران المشتعلة في علب صفيح فارغه. يبدو أننا ندور في حلقة مفرغة.. إن هٰذا ليس ممكناً. خطأ ثانٍ.. ضحكت عندما توقف السائق ليسأل عن الاتجاه للشيراتون.. بعد لحظات اتجه إلى محطة الوقود.. لا أكاد أصدق.. لقد نفذ الوقود.. أخيراً وعند الساعة (١٢،٤٥) بعد منتصف الليل.. وصلنا فندق الشيراتون.. قلت لموظف الاستقبال في الفندق: «نريد (٣) غرف ووعاءً كبيراً من الثلج، وكلما أسرعت بالثلج كلّما كان أفضل».

قال وهو يُخرج مفاتيح غرفنا في الطابق الثاني: «سأرسل شخصاً حالاً».

كان من الواضح أن فندق الشيراتون شهد أيّاماً جميلة، لا زالت زينة عيد الميلاد موجودة.. كان المكان مظلماً ومخيفاً وفي كل غرفة يوجد تليفون معلّق على الحائط ليقلّل من استخدام الزبائن له. بعد هٰذه الرحلة المضنية يبدو الفراش مريحاً. بعد دقائق جاءت «أنغريد» و«سايندي» إلى غرفتي وفتحنا زجاجة (فنلنديا).

قلت وأنا أحدّق بنظري في الصالة: «أين الثلج؟».

ضحكت أنغريد وهي تتفحّص الحمّام: «إهدأ يا «وينريش» على الأقل لديك قطعة صابون».

قال رجل على الباب: «غرفة الخدمة». شكرته على الثلج ولاحظت أنه يحمل طبقين من اللحوم المشوية الشرقية على عربة الخدمة.

قلت وأنا أمسك أحد الطبقين: «هٰذا شيء لا يصدق.. نحن نكاد نموت جوعاً».

سأل وهو مندهش: «أهٰذا لكم؟.. أنتم لكم الثلج فقط».. قال ذلك بعد أن فحص ورقة الطلب مرّتين..

كذبت وقلت: «هٰذا بالتأكيد لنا.. أنظر إلى رفيقتي إنهما على وشك الإغماء من الجوع»، ثم وقّعت الطلب وأغلقت الباب.

صاحت أنغريد بعد أن التهمنا معظم اللحم بسرعة: «إنه لذيذ».. بعد ذلك قرع الباب ثانية.

قال الرجل وهو يشير إلى طبقنا: «من فضلكم . . هٰذا ليس لكم».
قلت: «ربّما تكون على حق . . لكنا انتهينا منه».

ـ «لا . . لا . . هٰذا عمل غير حسن» . . وبدأ عليه الألم بوضوح . . «المطبخ الآن مغلق، والغرفة الثانية طلبت طبقين منّي» . . ولاحظت أن الطبق الثاني لا يزال على عربة الخدمة.

ـ «لا تقلق . . نحن نستطيع أن نرتب ذلك» . . وأمسكت بطبقنا ووضعته على العربة . . «سوف نأخذ قليلاً من هنا وقليلاً من هنا» . . ووضعت ما جمعته في الطبق الأول . . «والآن يا عزيزي أصبح لديك طبقان . . كل شيء تمام».

ابتسم وقال: «الآن كل شيء جيد، أشكركم جداً».
صاحت سايندي: «آه لم أصدق أنك تستطيع عمل كل هٰذا».
ابتسمت وقلت: «نحن لا نريد أن نسبّب للشاب المتاعب، ولكن يجب أن نأكل». فتحت جهاز التلفزيون. وبدأت أشاهد فيلم «الكلب الصغير».

قالت سايندي عندما بدأت أملأ كؤوسنا مرة أخرى: «هٰذا شيء غير طبيعي».

قررنا أن نحزم أمتعتنا الساعة الثالثة صباحاً، ورتبنا أمر الاستيقاظ. دخل علينا رجل اسمر اللون يرتدي بذلة وكان قصير القامة وقدّم نفسه على أنه المسؤول الليلي.

قال هامساً: «أنتم أمريكيون».
أجابت سايندي: «صحفيون أمريكيون».
صاح الرجل قائلاً: «صحفيون» . . الآن فهمت. وأخبرنا أنه مصري كان يعمل في فندق إنترناشيونال بالكويت . . أحضره العراقيون إلى البصرة ثم أخفوا جواز سفره.

قال شاكياً بأسى: «إنهم يأخذون كل شيء . . لو يتمكنون من أخذ الهواء لأخذوه».
ثم قال: إنه أجبر على العمل في شيراتون البصرة، ولا يستطيع المغادرة . . «لا يوجد لديهم شخص مؤهل لإدارة الفندق. العالم كلّه يظن أن الرهائن قد رحلوا ولكنّي لا زلت سجيناً».

سألته أنغريد: «هل حاولت الاتصال بسفارة بلادك؟».
تنهّد وقال: «ماذا عساهم يستطيعون أن يفعلوا؟ مصر والولايات المتحدة في صف واحد. لا يستطيع المصريون مساعدتي».

ـ «ماذا تنوي أن تفعل إذن؟».

ـ «انتظر الحرب . . وإذا ما نشبت، فإني سأحاول العودة إلى وطني».

وقلت لأنغريد عندما ألقيت عليها تحية المساء: «إنها قصة جيّدة».

- «ولكن كيف يمكن لنا أن نرويها؟».

قلت: «لسوء الحظ لا نستطيع . . ليس الآن على أية حال».

بعد نوم لعدة ساعات، وحمّام بارد بماء بهِ ملوحة، ومع فنجان من القهوة، ركبنا الباص عائدين إلى المطار . . هٰذا المرّة لن يفقد السائق طريقه، حقيقة الأمر كانت معنا حماية رسمّية ترافقنا. لكن ستمضي عدة ساعات قبل أن تقلع الطائرة وقال لي الطيار في صالة المغادرة: «وكما علمت لا زال الضباب يلفّ بغداد . . نحن نقدّم اعتذارنا . . لكن عليكم الصبر».

تنهدت عندما ركبت التاكسي عند البوابة في بغداد . . «آمل أن يكون السيد جاسم هنا فأنا في حالة لا تسمح لي بتحمل المزيد من المتاعب» . . وبينما نحن ننتظر أمتعتنا . . وصلت طائرة محمّلة بالجنود قادمة من الكويت. كان معظمهم من المجّندين الشبان . . في إجازة لزيارة بيوتهم وأسرهم التي قد تكون الأخيرة.

سألت جندياً عمره (١٩) سنة اسمه عمر: «هل تظن أن هناك حربا ستقوم؟».

ضحك وهو يهزّ رأسه: «لا حرب . . لا حرب».

قال صديقه إن شاء الله . . وهو يكابد ويناضل لرفع حقيبه كبيرة عن الحزام المتحرك الذين ينقل الحقائب، كانت حافة مصباح فضي تبرز من طرف سحاب الشنطة.

سألت: «مسألة مستويات في الكويت؟» . . لكنه لم يفهمني . .

مررنا بحاجز الجمرك العراقي بعد ساعة ونصف . . وجدنا جاسم بوجهه الضاحك في استقبالنا. وقال: «انتظرتكم في المطار الليلة الماضية حتى ساعة متأخرة . . وقدمت اليوم منذ الفجر».

- «أعتذر عن المضايقة. كيف حالك وحال أسرتك؟».

- «ربما ألتحق بالجيش قريباً. وحقيقي فإنه شيء سيّء إذا قامت الحرب».

- «هل معظم الناس يعتقدون بأن الحرب قادمة؟».

قال بينما كنا متجهين نحو المدينة: «جميع العراقيين ينتظرون ما سيحدث غداً في جنيف». ليس هم وحدهم الذين ينتظرون . . تأملت وأنا أمرّ أمام اللوحة المألوفة: «مرحباً في بغداد عاصمة صدام العرب».

قلت وأنا أدخل إلى مقر عملي: «هٰذا هو الأمان لاستمرار العمل».

قال هوليمان: «نعم، سأريك كيف ستعمل في وقت لاحق» . . وهي عبارة عن وحدة كهربائية إلكترونية تمّ جلبها من عَمان، وهي رغبة أتلانتا، إنها جيدة، إلا في حالة نشوب الحرب لأن الكهرباء ستنقطع مما سيؤدي إلى توقّف النظام . . أخذ «هوليمان» يدور لعدّة دقائق وهو في حالة ذعر، عندما حاول أخذ ما يمكن من الغنيمة.

قلت لروث: «حسناً . . من سيغادر غداً على طائرة الصباح؟ ألا تستطيع الابتعاد؟».

اعترف قائلاً: «لقد كانت رائعة . . ألم تشاهد برنامجنا ليلة رأس السنة».

ـ «حقاً. لقد شاهدت . . لكن رأيي أن ملاحظتك بشأن مؤتمر الأزمة فيها نوع من التحريض والاستفزاز . . هيا لنرى ماذا قلت؟ إن الشرط الوحيد للالتحاق بالجيش الشعبي هو أن يكون وزنك زائداً عن الحدّ».

قال روث مبتسماً: «آه . . إنه . . نعم كما أن «إيسون» لم يكن مسروراً».

ضحكت قائلاً: « أراهنك . . ماذا تستمعون؟ كوميديا؟».

أنزلت حقائبي في الغرفة رقم (٩٠٩) ووضعت لوحات الأولاد على الحائط . . وبدأت أحصي قطع الحلوى . . كان معي (١٥) صندوقاً، وفلتر للسجائر يكفي لمدة شهرين . . وجهزّت الراديو على الموجة القصيرة، ووضعت ساعة السفر على الطاولة الصغيرة . . ثم وضعت زجاجة كولونيا (سوفاج) في الحمام. وأشرطة أفلام من تسجيلات كانت هدية إلي . . وضعتها على المكتب. أشعلت سيجارة ثم بدأت بمطالعة قصة «وادي الخنزير الأسود The valley of the black pig » . وقد كانت ملائمة ومناسبة في وقتها: [ثم ينقل المؤلف سطوراً منها] . . كيف كانت تتساقط قطرات الندى وتتزاحم الأحلام ثم سدُدت نحوى سهام مجهولة . . ففتحت عيني . . ثم يواصل الوصف عن فرسان يتساقطون وصيحات الأعداء وهم يهلكون . . هٰذه الصيحات تقرع الآذان . . لم لا يعيش العالم في بساطة . . تساءلت وأنا أقرأ السطور . . ثم أخذت حمّاماً سريعاً ثم توجّهت إلى مقر العمل.

قالت إيديث تشابين وهي تراجع ملاحظاتها: «دعنا نرى». كانت «تشابين» قد حضرت مع «نانسي» لإنتاج التغطية الإعلامية بمناسبة أعياد الميلاد . . «لم يبق إلا ستة من الدبلوماسيين في السفارة . . والطائرة الأخيرة التي تقل السوفييت ستغادر بعد غد . . آه ـ هناك معسكر السلام الذي أقيم في الصحراء يوجد حوالي الخمسين شخصاً . . تبدو الأمور جيّدة بالنسبة لمقابلة «بيرني» مع صدام . . لكن ناجي يريد رؤيتك؟ . . ماذا بقي؟» «إيديث» كانت تملي على «أنغريد»، لأنها تنوي السفر صباحاً مع «روث».

سألتُ: «هل هناك شيء آخر؟».

قالت إيديث: «يبدو أن هناك تدريبا لعملية إجلاء سكان بغداد مرة أخرى . . هٰذا هو أحد العاملين في مركز صدام الصحي . . ويجب أن تكوني على رأس المسافرين لربما أحتاج واحداً ليغادر . . لم يعد هناك فراغ أو متّسع هناك اصطلاح «أرض مسموحة» أنت بحاجة إليها، قال هوليمان . . وقد سمعت أن بعض الرجال يريدون الخروج . . ربما نكون بحاجة إلى إخراج احدنا، فعلينا تأمين المكان . . ربما في حالة . . ».

قلت: «حسناً . . «أنغريد» ستهتم بالأمر . . أود الاتصال والترتيب مع أتلانتا».

أكد إيسون كلامه: «أنت تلح كثيراً على المقابلة»، سمعت أن «راذر» سيكون في طريقك . .

ـ «سوف أبذل قصارى جهدي . . أين «بيرني» بالضبط؟».

ـ «المفروض أن يكون في مصر لإجراء لقاء مع الرئيس مبارك، ثم يتوجّه لمقابلة الملك حسين، وبعدها شامير».

ـ «حسناً . . سأنتظر بعد أن أكلّم ناجي . . هل هناك شيء آخر؟».

قال وهو يقلب بأصابعه آخر أخبار استبيان الرأي: «هنا دعني أقرأ . . (٣٠٪) من مشاهدي التلفزيون يتابعون الـ «C.N.N» . . تأتي في المركز الثاني بفارق كبير «A.B.C» . . أخبر ناجي عن النتيجة، لا أصدق أنهم يفضلون التعامل مع «C.B.S»».

سألت: «ماذا سمعت عن «كوبل»؟».

ـ «أظن أنه لا زال في عمان. فهو لن يحضر إلى بغداد إلا بعد أن يتأكد من رحيل صدام، وهكذا تكون قد نلت دفعة للأمام».

قلت ضاحكاً: «سأتابع الضغط . . بالرغم من أن الجميع في العالم يضغط دون أن يتمكّن من إيصال طائرتنا إلى بغداد في موعدها».

ـ «سمعت ذلك . . كيف وجدت البصرة؟».

ـ «إنها جنة . . حسناً، إنها تستحق الزيارة . . ولا تنس اللحوم المشوية المشكّلة في شيراتون البصرة إذا مرّت من أمامك».

أكدَّ لي ناجي: «لا تقلق بشأن المقابلة. إذا وافق الرئيس على إجرائها فسيخصّ بها الـ «C.N.N»، ربما يلتحق بك مستر «شوا» خلال أيام».

ـ «لن تكون هناك مشكلة وأنا أرشف كوباً من الشاي . . وأودّ أن أبحث معك موضوعاً يشغل فكري ويقلقني . .

ضحك وقال: «هل لديك أية متاعب في بغداد؟».

قلت مبتسماً: «إنه شيء لا يصدق . . لكن كل شيء الآن، ثم بعد . .».

قال بجدّ: «أخبرني ماذا يقلقك؟».

ـ «ناجي . . كما تعلم نحن نستخدم جهازاً كهربائياً بأربعة أسلاك، لكنّي أشك إلى متى سيكون صالحاً للعمل في حال نشوب الحرب؟، نحن بحاجة إلى جهاز (دفع من الخلف للأعلى) أعلم أنك ساعدتنا على إحضار سيارة البث الحي والتي نأمل وصولها إلى هنا. إني أقدّر ذلك، لكن على الأقل نحن بحاجة إلى هٰذه المساعدة، أريد إحضار جهاز تليفون انمرسات «INMARSAT»».

ـ «ماذا تعني بذلك؟ ما هو؟».

ـ «إنه جهاز تليفون مرتبط بالقمر الصناعي. ويمكن إحضاره فيما يشبه حقيبة الملابس . .»

«القمر الصناعي؟ . . ولكن كيف تعمل شبكتك التلفزيونية؟ إن جهاز الأمن لن يسمح . .».

ـ «هٰذا لا يبثّ صوراً، ولكنه للاتصالات التليفونية . .».

ـ «لكن لديك الجهاز ذو الأربعة أسلاك».

ـ «نعم الآن . . لكن إلى أي مدى يستمر صالحاً؟ من يعرف؟ لا يمكن أن أطلب من جهاز الموظفين عندي البقاء داخل بغداد أثناء الحرب إذا لم تكن هُناك اتصالات . . وإذا لم نستطع تأدية عملنا فما فائدة بقائهم؟ . . هٰذا ما أقترحه . . وأرجوك أن تعتبر الأمر مهمّاً وملحّاً جدّاً. سأجري ترتيبات نقل جهاز انمرسات إلى بغداد ولكن في نفس الوقت أتعهّد بعدم استعماله إلاّ في حالة انقطاع كافة الاتصالات من بغداد للخارج. إضافة إلى ذلك . . فإن جهازكم الأرضي سيكون له الحرّية التامّة في التفتيش عليه . . ليكونوا مقتنعين بعدم وجود تهديد أو خطر منه. أعتقد أنه اقتراح مقبول. ما رأيك؟».

ـ «حسناً، قال ثم صمت . . لا أستطيع أن أعطيك ردّاً الآن ولكن سأكلّم الوزير».

ـ «أقدّر ذلك . . وإذا كانت لديه أي أسئلة فسأكون سعيداً بتقديم الإجابة» . . ثم غيّرت الموضوع متسائلاً: «هل هناك أي توقعات لما يجري في جنيف؟».

ـ «أنا أعطيّك توقّعاتي في آخر مرّة تحدّثنا فيها. ولا أرى أي تغيير حصل».

قلت بأسى: «يبدو أن الأمور تدفع للجنون ـ وغير أخلاقية . . ومخيبة للآمال».

ـ «عليك أن تفهم يا صديقي «روبرت» أن الحرب لا تنشب من أجل الأخلاق والمبادىء أو الأسباب الإنسانية . . وإذا ما نشبت من المفروض أن يكون هناك مئات الألوف في معسكر السلام وسط الصحراء بدلاً من عشرات من هؤلاء المنفعلين فقط».

* * *

قال أدريان براون من فريق تلفزيون تي في ـ إيه إم: «لا زالوا مجتمعين . . إنها إشارة طيّبة . . أنا متفائل».

وافقته انغريد الرأي قائلة: «وأنا أيضا متفائلة» . . ليس من المعقول أن يقضوا كل ذلك الوقت إذا لم يكن هناك تقدم إيجابي» المقصود [لقاء عزيز ـ بيكر].

قلت: «عزيزتي: انت دائماً متفائلة . . لكن لن يكون مفاجأة لي على الأقل لو خرج كل وفد من قاعة الاجتماعات، وأعلن أنه لم تكن هناك مسألة واحدة بحيث يمكن الاتفاق عليها».

ضحكت انغريد: «حسناً، أنا لا زلت متفائلة . . ضع في الاعتبار البديل لذلك، حوار عزيز ـ بيكر في جنيف حرّك المشاعر في بغداد . . فأصبح الرأي أنه كلمّا طالت المفاوضات، كلمّا ازدادت فرصة انفراج الموقف ولا مفر من ذلك». طيلة اليوم يبدو لي أن كل المراسلين كانوا يستمعون إلى ما تتناقله الأخبار عما يجري في جنيف. أولاً بأول.

قلت لهوليمان: «حسناً، على الأقل إنهم يتحدثون» . . عندما توالي مرور الساعات «ربما هٰذه الديوك الهندية [يقصد مناقرة المتفاوضين] تستطيع عمل شيء جيد». قبل أسابيع وصل إلى بغداد وفد من الأمريكان الأصليين ليقيموا صلاة السلام . . على أية حال لم ينجحوا أن يقنعوا صدام حسين لينفخ في مزمارهم الذي كانوا سيقدّمونه إلى «جورج بوش».

أعلن ولْ عبر شبكتنا ذات الأربعة أسلاك: «لقد انتهى الاجتماع» . .

قال بيغليتر: « سيتكلّم «بيكر» أوّلاً».

قلت بصوت عالٍ صارخاً: «اهدأوا». وذلك عندما كنّا نتابع مع «بيكر» وزير الخارجية وهو يتقدّم نحو الميكروفون. رفعت الصوت، بينما أخرج المراسلون مذكّراتهم لتدوين الحديث. كان «هوليمان» كعادته منكبّاً على جهاز الكومبيوتر جاهزاً لطبع الحديث . .

قال جيمس بيكر: «لقد جئت إلى جنيف لإجراء اتصالات . . والاتصالات تعني الاستماع

والتحدث . . كلانا فعل ذلك». ووصف جلسة المحادثات الطويلة مع طارق عزيز بأنها (جادّة ومباشرة).

وواصل بيكر حديثه: «بكل أسف سيداتي سادتي. لم أسمع اليوم خلال (٦) ساعات ما يوحي بأي مرونة عراقية في الاستجابة لقرارات مجلس الأمن». شعرت أن عضلات بطني قد شُدّت. «هناك أخطاء عراقية كثيرة في الحسابات مبنيّة على سوء التقدير . . فقد أساءوا تقدير ردّ الفعل لغزو الكويت، وتوقّعوا بأن المجتمع الدولي سيقف متفرّجاً وهو يراهم يسلبون جاراً مسالماً، أخطأوا في تقدير ردة الفعل للسياسة الهمجية في حجز الآف الرهائن متصوِّرين بأن تقديرهم الساخر في إطلاق سراحهم وإطالة أمده سوف يكسبهم ميزة سياسية . . ودعونا نأمل ألا يخطىء العراق في حساباته . . الخيار الآن للعراق . . وإذا استمر احتلاله الوحشي للكويت . . فإن العراق يكون قد اختار المواجهة العسكرية التي لن يكسبها، وستكون لها عواقب عسكرية مدمرة وخيمة على العراق. شرحت هٰذه النقاط لعزيز . . فعلت ذلك دون رضا».

«نحن نتوق إلى تسوية سلميّة. وشعب الولايات المتحدة لا يريد الحرب مع شعب العراق. وبكل بساطة أريد ألا أترك مجالاً للشك يؤدّي إلى سوء تقدير مأساوي. الأمر الآن متروك لما تختاره القيادة العراقية» . . وأكد بيكر على هٰذه النقطة «الاختيار حقيقة متروك لهم . . دعونا نأمل أن يكون لدى القيادة الحكمة والتعقّل للسير في طريق السلام . . آن الأوان ليعمل العراق ويعمل بسرعة للانسحاب من الكويت».

بعد دقائق جاء دور وزير الخارجية العراقي ليتحدّث . . قال طارق عزيز للمراسلين: «عندما وصلتُ إلى جنيف . . أقول لقد جئت بعقل مفتوح . . وهٰذا هو هدفي، وجئت بإيمان مطلق. الشيء المهم أنهم جاءوا ليتحدثوا معنا بعد مرور خمسة أشهر على تداعي الأحداث الأخيرة في الخليج . . ولفتُّ نظر وزير الخارجية الأمريكي لهذه النقطة . . كما أن هٰذا اللقاء تمّ في أعقاب صدور القرار الأخير بضغط أمريكي على مجلس الأمن . . مما يحدّ من قدرة العمل الدبلوماسي.

وقلت لوزير الخارجية: «لو كانت فرصة اللقاء حدثت قبل عدة شهور، لكان بإمكانك إزالة قدر كبير من سوء التفاهم بيننا. كانت هناك فرصة متاحة».

وقال عزيز: «العراق لم يخطىء التقدير في أية نقطة . . نحن كنّا على دراية تامّة بالموقف منذ البداية». واستمر عزيز قائلاً: «من الناحية الفنّيّة، لقد أعطى كلانا للآخر الوقت الكافي ليشرح موقف بلاده وينقل المعلومات التي يودّ إيصالها للطرف الآخر. وبخصوص هٰذا الجانب من المحادثات فإني راضٍ عنه . . وقلت لـ «بيكر» بكل وضوح إن الشيء الأساسي في منطقتنا هو

السلام والأمن والاستقرار. إن الأساس هو مصير المنطقة التي عانت من الحروب وعدم الاستقرار والمعاناة لعدة عقود من الزمن إذا كنت تسعى لإقرار سلام شامل وثابت. نريد السلام للجميع في الشرق الأوسط بعدها نكون مستعدّين للتعاون».

قال عزيز مؤكداً: «ليس لديّ مشكلة بشأن الشرعية الدولية . . ليس لدينا مشاكل بالنسبة لمبادىء العدالة والإنصاف. بل على العكس هٰذه المبادىء هي من مثار اهتمام الشعب العراقي، وهي المبادىء التي تسعى لها الأمة العربية. سعينا منذ عقود طويلة لإقرار احترام هٰذه المبادىء وتنفيذها في منطقتنا . . لكن إسرائيل لا تحترم هٰذه المبادىء ولا تنفّذها . . وفي هٰذا المجال يلقون الدعم القوي والمستمر من الأمريكان».

استمر عزيز في انتقاد ما أسماه «المعيار المزدوج في التعامل مع مشاكل المنطقة». لقد مللنا وشعبنا من سياسة المعيار المزدوج . . نحن لن نقبل أن نعامل كأمة خاسرة . . نحن أمة فخورة بنفسها . . نحن لنا تاريخ مشرّف . . لقد قدّمنا خدمات جليلة للحضارة الإنسانية ونريد أن نعامل بطريقة تقوم على الاحترام وحفظ الكرامة . . ثم كرّر ثانية ضرورة حلّ القضية الفلسطينية وربطها بالتسوية الشاملة للأزمة. وأن العراق سيدافع «بكل بسالة» إذا هاجمته الولايات المتحدة واعتدت عليه.

وقال عزيز إنه رفض استلام رسالة كتبها الرئيس «بوش» إلى صدام حسين وقد أطلعه «بيكر» عليها، وقال إن لغة الخطاب «لا تليق» للمراسلة بين رؤساء الدول.

عندما سئل عزيز، في حال نشوب الحرب هل سيهاجم العراق إسرائيل . .

فردّ عزيز: «نعم بكل تأكيد».

١٩

كان التوتّر يسود مركز عملنا وكان ومخيباً للآمال . . كان منع التحويل في آخر لحظة هاجساً وارداً لكل منا. كانت قاعدة الصندوق مثبتة على زر الصفر. نظرت إلى «أنغريد» وبهدوء غريب أشعلت سيجارتي ثم نظرت من النافذة. وفقدت «سايندي» أيضاً القدرة على التفكير . . وأعاد «هوليمان» قراءة ملاحظاته وهزّ رأسه. كان يلفّني بصفة تامّة الحزن والفراغ . . كنت متأثراً لكن دون خوف.

قلت لبات تايلر من صحيفة نيويورك تايمز: «حسناً، إنها اللعبة الدائرة».

قال موافقاً على رأيي: «ربما تكون على حق . . على فكرة، قال «ويلسون» إذا وصلتم إلى هٰذه النقطة يمكنكم السفر يوم السبت».

ـ «هل تمّ إغلاق أي سفارة؟». يمكن الاعتماد على «بات» لمعرفة أخبار المواجهة الدبلوماسية.

قال: «ماليزيا، نيوزيلندا والأرجنتين . . سفاراتها الآن رسميّاً خالية من الدبلوماسيين، وسمعت أن تركيا تنوي تخفيض أعضاء بعثتها إلى شخصين فقط.

قلت: «هٰذه هي البداية . . وخلال أربعة أيام سيرحل الجميع».

قال الرئيس بوش في مؤتمر صحفيّ فيما بعد: «سوف نستمر في المحاولة، ولكنه ليس إلا تكراراً للرفض التام. لا أستطيع أن أقدم شيئاً للشعب الأمريكي . . فأنا لست متشجّعاً» . . ووصف «بوش» خطابه إلى صدام حسين أنه «مناسب وصريح».

ابتسمت بتكلّف: «أنا أراهن . . من المحتمل أنها بدأت . . عزيزي «أدولف»».

واصل الرئيس حديثه: «إنها بكل الوسائل عمل فظ . . نعم . . ربما يخفّف موقفه. ولا زلت لم أيأس . . الوقت ليس متأخراً».

وبعد مرور (٢٤) ساعة على هٰذا الحديث، كان مساعدوه في الكابيتول يعدّون تشريعاً يخول «جورج بوش» بأن تخوض الولايات المتحدة الحرب ضد العراق.

عند الإعلان عن فشل محادثات جنيف أعلن السكرتير العام للأمم المتحدة أنه سيطير إلى بغداد في محاولة أخيرة لتجنّب الحرب. وفي باريس قال الرئيس الفرنسي «فرانسوا ميتران» إن فرنسا ستواصل الضغط والعمل عبر جهودها الدبلوماسية المستقلة.

وصرّح ميتران للصحفيين: «إن الولايات المتحدة وفرنسا ليس لديهما نفس الرؤية فيما يتعلق بانعقاد مؤتمر دولي لتسوية النزاع العربي الإسرائيلي . . إني أعرف وأفهم هٰذا الموقف ولا يعني ذلك بالضرورة ضعفاً في وجهة نظر فرنسا بخصوص نفس الموضوع، خاصّة أنني دعوت إلى مثل هٰذا المؤتمر قبل ست أو سبع سنوات». بالرغم من ذلك أعلن الرئيس الفرنسي أنه يعارض استخدام القوة بعد ١٥/كانون الثاني إذا لم تنسحب القوات العراقية من الكويت.

وفي بغداد أيقن الناس بصورة قطعية بما لا يمكن تجنبه (الحرب) . . وبدأت الطوابير الطويلة أمام محطات الوقود، ومحلات البقالة . . بالرغم من الارتفاع الحاد في الأسعار . . بدأ المواطنون

يخـزنـون المواد الأساسية. تمّ التنبيه على المستشفيات بعدم إدخال إلّا الحالات الملحّة جدّاً للعلاج . . تحسّباً لحجز الأسرّة للجرحى العسكريين. وبدأت برامج الدفاع المدني تصبح المادة الرئيسة على برامج التلفزيون العراقي . . وتتم إذاعتها مرّات ومرات، كما طُلب من السكان تنظيف وإعداد الملاجىء. وأعلنت وزارة الثقافة والإعلام أن كل ذكر عراقي تجاوز الخامسة عشرة من عمره سيصرف له السلاح . . وهو عبارة عن رشاش نصف آلي من طراز كلاشينكوف.

أصبحت بغداد مركزاً للإشاعات: العراق أغلق مجاله الجوّي . . تمَّ إغلاق الطريق البري بين بغداد وعمّان. هٰذه الأخبار غير المؤكدة أصابت بالتوتر والتشويش أعصاب رجال الصحافة الذين كانوا متوتّرين سلفاً، وتدفقت أعداد كبيرة منهم وأحاطت بمكتب سعدون طلباً لتأشيرات الخروج.

قلت لناجي: «أنا بحاجة إلى الإنمرسات (التليفون المرتبط بالقمر الصناعي) أكثر من أي وقتٍ مضى . . هل تلقّيت ردّاً عن الوزير؟».

قال لي: «إنني لا زلت أنتظر الردَّ . . ولكن تأكّد أنه لا يمكن استخدامه بدون موافقتنا».

قلت: «إنني لن استعمله طالما (جهازي ذو الأربعة أسلاك) يعمل» . . وعملت على إخفاء مخاوفي . . لقد أعطيت لك كلمتي . . لكن مع كل الاحترام لكم، أنا أريد جواباً خلال (٢٤) ساعة».

وعدني قائلاً: «سأعطيك الردَّ غداً . . يمكنك محادثتي تليفونياً أو الحضور».

أثناء عودتنا إلى فندق الرشيد تصفّحت على عجلٍ (بغداد أوبزيرفر) . . وكالمعتاد كانت صورة صدام حسين تزّين الصفحة الأولى. في هٰذا اليوم كان يُحمّس كبار المسؤولين في حزب البعث العـربي الاشتـراكي قائـلاً ومحّـذراً: «إذا هاجم الأمـريكان فإن العراق سيجعلهم يسبحون في دمائهم». وقال إنّ المعركة المقبلة سينجم عنها تغييرات لصالح الأمة العربية «وأنها ستؤدّي إلى رفع الظلم عن الإنسانية جمعاء».

عانقت «بلاي Bly» وقلت له: «شيء حسن أني رأيتك . . هٰذا المكان أصبح مثل حبّة البندق منذ انهارت المحادثات. إني سعيد بوجودك هنا». ثم أعطيته قراءة سريعة عن مجريات الأحداث وخطّة الإجلاء النهائي للسفارة الأمريكية. وأوضحت له كيف أن «ويلسون» شخصياً يبذل جهداً جبّاراً في الأمر وعلى وشك الانتهاء . . وحيث إنه في سباق مع الزمن . . أعتقد أن هناك فرصة جيدة للحصول على جهاز أنمرسات. لكن ليس لديّ معلومات عن سيارة البثّ . . على أية حال في النهاية اجتمعنا سوياً» . .

قلت وأنا أحاول إبداء التفاؤل: «سيكون الأمر صعباً». كان «بلاي» كعادته ينصت باهتمام

لي، ولكن بدأت أشعر الآن أنه سارح وضائع.

قال لي بعد دقائق بعد أن ناداني إلى غرفته: «لديّ مشكلة، لقد وعدت «هيلا» أن أعود بعد (٣) أسابيع . . أنا أريد البقاء . . وأنا مستعدّ للبقاء، وهٰذا يستغرق (٦) أسابيع على الأقل ليقرع جرس النهاية المقيت . . ».

سألته دون أن أصدقه أو أعتقد بما قال: «لماذا لم تقل إن هٰذا هو التناوب الأخير؟».
قال لي: «لم يقل أحد ذلك من قبل. ربما يكون الأمر حسبما افترضت أو خمّنت.
انفجرت فيه قائلاً: «كيف يستطيعون تخمين شيء بهذه الأهميّة؟».

ثم تمتم: «ربما أستطيع أن أمدّد . . أشعر بالحزن لذلك حقيقة» . . وتحدثنا لحظة عن الأسباب الشخصية التي أبداها «بلاي» حول عدم قدرته على البقاء حتى نهاية العملية، واتفق معه في أنهم يجبرونه على البقاء.

قلت متعاطفاً معه في مأساته: «انظر . . أنت وأنا لسنا هنا لنحقّق مزيداً من الشهرة، تستطيع «هيلا» أن تدبّر أمرها بدونك أكثر مما يتوقّعه منها المرء. مضى على زواجكما (٢٤) سنة، «بلاي»، أين الإجازات المفقودة . . وأعياد الميلاد . . أنت مدين لها لتحاسبك . . ويعلم الله أنني أتصرّف نفس الشيء مع «إيلين» إذا طلبت مني ذلك. الحقيقة أني لا أعرف ما الذي سيحدث. علينا الاقتناع بأننا قد نعلق هنا لعدة أشهر. أنا لا أضمن أن أتمكن من الخروج حتى ولو بالبر».

قال بحزن: «نعم . . ربما أنت محق . . أشعر بأنني أهذر».
قلت محتجّاً: «أنت مدين لـ «هيلا» . . لا تقلق حول أنفسنا . . نحن بخير، لكن من ناحية شخصيّة تعجّبت هل هٰذا حقاً. جميع طاقم الموظفين ينظرون إلى «بلي» متعاطفين معه. لقد كان مراسلاً ممتازاً من الرعيل الأول، كان يحتفظ بثقته. سبق أن غطّى حروباً كثيرة، إضافة إلى ذلك كان مفتاح العمل بالنسبة لنهاية الشوط. وإن رحيله يعني فقدان الحجر الأساسي في عملنا.

قلت له: «الأفضل أن تحادث «إيسون» وتخبره . . سنتحدث في وقت لاحق».
سأل هوليمان: «ماذا تمّ بخصوص «بلايستون»؟ هل هناك شيء أستطيع عمله؟» أخبرته بما حدث وطلبت منه أن يحتفظ بالمعلومات لنفسه . . ثم سألني: «ما خطّتك؟».

قلت: «ليس أمامي إلاّ شيء واحد . . نحن بحاجة لإحضار «آرنت»».

ـ «شيء مؤسف». تأوّه «إيسون» عندما اقترحت عليه أن يكلم «بيتر» في القدس . . «أنت تعرف . . لقد التحق بعمله حيث هو، وعلى أية حال ما الذي يجعلك متأكداً من رغبته في الحضور؟».

ـ «يمكنك أن تثق بي . . سوف يأتي . . لقد قال الكثير لي ولـ «هوليمان» عندما رأيناه الشهر الماضي».

ـ «أوافقك . . دعني اتصّل به عن طريق «إذْ» . . أعطني مهلة ثلاثين دقيقة».

متى ستنتهي هٰذه المشكلة. كنت أفكّر عندما أشعلت سيجارة وحاولت أن أريح نفسي. نحن بحاجة إلى تأشيرة دخول باسم «بيتر»، وتأشيرة خروج باسم «بلاي» وحجوزات سفر لـ «بلاي» وعليّ أن أرتّب لإحضار «بيرني» . . وأن أنهي موضوع مقابلة صدّام وأن أحضر تليفون الإنمرسات . . وأن أُلح على طلب سيارة البث المباشر . . الله يعلم ماذا بقي من أعمال مطلوبة وتذكرت المثل: مَن جَدّ وَجَدَ.

قال إيسون: «لقد تقرّر سفر «آرنت» . . سيكون هناك بعد غد، وأظن أنكم حصلتم له على التأشيرة».

ـ «أعتبر أنها انتهت . . ماذا ستفعل لـ «بلاي»؟».

ـ «سوف نرسله إلى القدس، ومن هناك يستطيع متى شاء السفر إلى لندن . . إذا أراد ذلك».

ـ «وماذا يقول «بيتر»؟».

ـ «لا أعلم . . «إذْ» كلّمه . . وأظنّ أنه متحمّس».

ضحكت وقلت: «أراهنك، الخفاش خطف البيضة» (أي لا فائدة).

سألني جون سمبسون من هيئة الإذاعة البريطانية: «أرجو أن تعذرني يا «روبرت» . . هل تسمح لي بكلمة؟» . . دعوته للحضور إلى غرفة العمل، وقدّمت له فنجان قهوة . . «إذا أردت أن نتكلم على انفراد» . . وبدأ ينظر في جوانب الغرفة حيث الأصوات العادية والضجة.

قلت له ونحن نتجه إلى الغرفة رقم (٩٠٨): «تأكد أنه لا توجد مشكلة . . ماذا هناك!».

قال بهدوء وانحنى للأمام وشبّك كفيه: «الحقيقة أنه . . نحن ننوي البقاء في بغداد مهما حدث . . وأعتقد أن الـ سي. إن. إن كذلك ستبقى. لا أعلم كم عدد الذين سيبقون . . ولكن للطمأنينة والأمان . . فإني أفترض حين نشوب العداء . . علينا التقيد بما نستطيع فعله . . وما اقترحه هو توحيد مصادرنا . . نحن لدينا تسهيلاتٌ في تصريف وتنظيم الأخبار والتي قد تكون مفيدة، وكما عندنا . . نحن مهتمون بـ . . .».

قلت له مقاطعاً: «إن جهازنا ذا الأربعة أسلاك . . غير قابل للمناقشة».

ـ «لا . . لا . . أنا فاهم تماماً . . بصراحة المواصلات ليست مشكلة بالنسبة لنا».

ـ «كيف؟».

«حسناً . . سوف نحصل على جهاز إنمرسات؟».

سألته مما أصابني بصدمة شديدة: «حقاً؟».

وألحَّ في كلامه: «نعم، إنه أُقيم في مكان آخر . . لكن أرجوك . . هٰذا سرّي للغاية . . أرجوك أن تعدني بألّا تخبر شبكة تلفزيون لندن المستقلة».

ـ «لا توجد مشكلة. وهل أعطاك العراقيون إذناً بإحضارة؟».

ـ «حقيقة . . لا . . لكنّا هرّبناه قطعة قطعة خلال فترة من الزمن».

قلت: «حتى ناجي لا يعلم؟».

ـ «أعتقد أنه يعلم شيئاً عنه . . قدمت له إشارة مبهمة في يوم آخر . . وأشار بغمزة من عينه لعلك فهمت ما أعني».

ـ «هل جرّبته؟ هل هو صالح للعمل؟».

قال بكل ثقة: «نحن نعلم أنه يعمل . . لقد جرّبناه ولكن لم نستخدمه لإرسال معلومات».

ـ «حسناً . . ولكن كيف تظن أن بإمكانكم استخدامه بدون تصريح؟».

ـ «كما قلت . . لقد وضعناه في مكان آخر . . مكان أمين . . لن تكون هناك مشكلة».

ـ «قل الحقيقة . . فهمت وكأنك تخبرني أن هناك حرباً . . وأنت بكل بساطة ستجلس في مكان ما ومعك جهاز تليفونك المرتبط بالقمر الصناعي . . هٰذا كل ما في الأمر؟ حتى لو ابتعدت به في مكان ناءٍ، فإن شخصاً ما في النهاية سيكشف الأمر . . وسيظنون أنك جاسوس!».

قال بإيجاز: «ليس أين سنكون؟، ولا أين يوجد؟».

ـ «حتى الآن . . لا أفضّل إفشاء المكان» . . وأظن أنه في السفارة البريطانية.

ـ «حسناً . . الأمر يتوقّف على الموقف. ولكني أفضّل النقل والإرسال بشريط مسجل، ولن أغامر بحياة رفاقي أبث رسائل بصورة سرية من بغداد وهي في حالة حرب، أعتقد أنه جنون مطبق وعمل غير مسؤول».

سألني: «وبعد . . ماذا ستفعل بشأن اتصالاتك؟ وإذا أصيب مركز الاتصالات سيتوقف جهازك ذو الأربعة أسلاك». فكّرت للحظة أن أجيب على سؤاله وأخبره الحقيقة.

قلت له: «لقد طلبت من ناجي أن يحصل لي على إذن بإحضار جهاز إنمرسات . . وهٰذا ما

قلته سيبقى بيننا نحن الأثنين».

- «وماذا قال لك؟».

صفّر سمبسون بصوت منخفض: «لم أتلق جواباً بعد، ولكن أعتقد أنه سيحصل».

- «وأين ستضعونه؟».

- «هنا بالضبط في فندق الرشيد . . لا أتصوّر أننا يمكن أن ندور به حول بغداد بينما القنابل تتساقط فوقنا».

قال: «حسناً أشكرك على معلوماتك التي تزودني بها إذا حصلت عليه ونجحت في نيل الإذن، إن ذلك سيغير الموقف كلية بكل تأكيد لصالحنا» . . وقف «جون» وهزّ يدي مصافحاً.

كنت مندهشاً وأتعجب بعد خروج «سمبسون»: هل أنا مغمض العينين . . إن الـ بي . بي . سي فتحت أفقا واسعاً لها بإحضار تليفون مرتبط بالقمر الصناعي. إن «جون» ورفاقه قد قاموا بمغامرة جريئة ونجحوا. بالطبع قد تؤدّي إلى فشل ذريع وساحق، لكن إذا نجحوا ستكون الأمور مختلفة. والشيء الواضح والمهم هو أن الـ بي . بي . سي تمكّنت من إدخال تليفون مرتبط بالقمر الصناعي (إنمرسات) إلى بغداد . . ولم تتمكن الـ سي . إن . إن

لا زلت مقتنعاً أن علينا الاستمرار في الضغط ومتابعة عمل الأشياء كما كنا في الماضي، على أساس الصراحة والأمانة، نحن نعمل على تأسيس علاقة ممتازة مع العراقيين تكون مبنيّة على الثقة وإذا ما انحرفنا عن هٰذا الطريق الآن فإنه سيؤدّي إلى عواقب وخيمة. بالطبع لا أستطيع أن أذكر قصة الـ بي . بي . سي لناجي، حتى لو كان «جون» ألمح إليّ أنه يعرف . . لا . . إنني سأضغط وأؤكد على أن يكون الحديثي في صفّنا ودع الأمور الصغيرة تسقط حينما يقدّر لها . . البقاء للأصلح.

كنت مستغرقاً في التفكير بشأن حديثي مع «سمبسون» عندما تلقّيت مكالمة من «برنت سادلر» من التلفزيون المستقل آي . تي . إن.

قال: «هناك مشاورات مؤكّدة بين لندن وأتلانتا» . . علينا أن نناقشهم . . وقد حدّدنا موعداً لاحقاً للتحدّث معهم . . بعد أن تحدثت مع «إيسون»».

قال إيسون: «لقد أخبرتهم أنه لا يمكنهم استخدام جهازنا ذي الأربعة أسلاك» . . لكننا معنيّون في نوع التعاون بشأن مصور البيانات وهٰذا متروك تقريره لك ولزملائك. عليك أن تتحدّث إلى «سادلر» . . إني على علم بأن شبكة آي . تي . إن لها جهاز إنمرسات في بغداد أو أنها على وشك تأمينه خلال يوم أو يومين».

قلت ضاحكاً: «هٰذه خدعة كبرى. لقد اقترح «سمبسون» من الـ بي. بي. سي نفس الشيء قبل قليل».

قال إيسون: «حسناً إذا كنت تود أن نجري بعض الترتيبات فإنه من الواضح أنني أفضّل التعاون مع شبكة آي. تي. إن . . نظراً للعلاقة بيننا».

سألته وأنا أعرف الإجابة سلفاً: «كيف استطاعوا تأمين الإنمرسات إلى العراق؟».

ـ «قطعة قطعة . . على فكرة ما الأخبار حول تأمين جهازنا؟».

ـ «لقد تم إخطاري أنهم سيخبروني بسرعة . .».

قاطعني قائلاً: ««روبرت» . . توقّف . . ثانية . . هنا شيء مهم من المعلومات الآن . . لقد أعلنت الولايات المتحدة رسمياً أنها تنوي إغلاق سفارتها. وأن «فيتزووتر» يلحّ على الأمريكيين ومنهم الصحفيون لمغادرة بغداد».

ـ «نعم . . لقد علمنا بذلك من البطاقات في السفارة».

قال: «افترضت أني لا بد أن أتأكد من وضعك في الصورة».

قال سادلر: «إذا رغبت يمكننا أن نتقاسم ما لدينا، وأيضاً نستفيد سوياً من التسهيلات الفنية».

سألته: «هل جربت جهازك الإنمرسات؟» . . ونظر «سادلر» إليَّ بريبة . . كان «برنت» دائماً حريصاً على سرّية عمله.

سألني بانتباه: «هل أخبرتك لندن عنه؟».

ضحكت وقلت: «لا . . بي. بي. سي هم الذين أخبروني . . بالطبع كان «نايجل» من شبكة آي. تي. إن هو الذي قال لـ «إيسون» عنه».

ـ «أنت تفهم أننا إذا اتفقنا فلن نشرك معنا الـ بي. بي. سي، إني أعرف أن «سمبسون» يحاول أن يدبّر شيئاً خاصاً له».

قلت: «لا تقلق، هٰذا ليس مهماً . . هل جربت الجهاز؟».

ـ «سنقوم بتجربته الليلة . . نحن سنحصل على إشارة من إحدى غرفنا».

ـ «عظيم، أرجوك أن تخبرني حينها . . نحن نخطط لإحضار جهاز خاص بنا وأرغب في تركيبه أيضاً في الفندق».

سألني: «هل ستحضر جهاز إنمرسات أيضا؟ . . وبدا عليه التأثر والحسد.

قلت: «آمل . . حالما نحصل على الإذن بذلك».

ـ «انظر . . هٰذا ما اقترحه».

قاطعته قائلاً: «لا أنوي استخدام مخزن البيانات المشترك طالما أن أجهزتي قادرة على البث، إنني أضع في حسابي إبقاء روح المنافسة بيننا قدر الإمكان. ولكن عندما نعجز فإن اتفاقنا يسري مفعوله. وفي نفس الوقت إذا واجهتنا مشاكل فإننا نستعين بكم. وإذا ما تعطل جهاز الإنمرسات الخاص بكم لسبب ما، يمكنكم استخدام جهازنا، وينطبق علينا هٰذا أيضاً، فكلانا مرهونان بأنظمة الاتصالات، وعلينا أن ندعم بعضنا بهذه الاتصالات. وبالنسبة لأشرطة الفيديو نحن سنتقاسم المادة وبالتالي لن تكون هناك مشكلة. أتوافق؟».

ـ «من حيث المبدأ . . يبدو الأمر جيداً. هناك شيء آخر . . إذا أعطاك ناجي الإذن بإحضار جهاز تليفون الإنمرسات . . هل ستخبرنا؟ عندها فإننا سنطلب من ناجي الإذن لنا».

ضحكت وقلت: «أنتم أيها الزّملاء . . شيء آخر . . أنتم أسأتم سمعة سي . إن . إن، إتهمتمونا أننا في صفّ العراقيين ومواليين لهم. أنتم غدرتم بنا وخطّطتم لإدخال جهاز التليفون ـ إنمرسات ـ بينما نحن نتميّز عنكم بالصراحة والوضوح. والآن إذا نحن حصلنا على الإذن ستتعلقون من خلف الـ سي . إن . إن وتقولون لناجي: ما دامت الـ سي . إن . إن حصلت، فلماذا لا نحصل نحن على ذلك؟».

ـ «حسناً».

ـ «حسناً . . لا . . أنا لا أضنُّ عليكم بـ إنمرسات . . لكني وجدت أن تلك السياسة التي تتبعها الـ سي . إن . إن في بغداد شيءٌ ممتع، تلك السياسة التي تستنكرونها وتدينونها، بينما هي التي ستوفّر لك وللآخرين القدرة على البث من بغداد؟ موقف ساخر . . لا؟».

ـ «صدّقني! أنا لم أوجّه أي نقد».

قلت: «مهلاً . . نحن كلانا محترفان، أنت تعرف أشياء مما تحدّثنا فيه . . دعنا ننسى ما فات . . ونتعاون . . سأبقى على اتصال معك».

بعد خمسة شهور أمضيتها في بغداد كنت أظن أنني محصّن من المفاجآت . . لكن ما عرضه تلفزيون العراق من صور جعلني أصاب بالدّهشة عبر شارع الرشيد في مركز وسط بغداد. كان الرئيس صدام حسين وضيفه رئيس زامبيا «كينيث كاوندا» كمن يمشيان في يوم الأحد.

بدأ صدام وكأنه لا يهتم بما هو جارٍ في العالم بعد أن انحشر بين الجماهير كأي سياسي يحرّك الشارع، ومن الطبيعي أنه كان يحيط نفسه بصفٍ متراصٍّ من الحراس الذين يحاولون الإبقاء على مسافة بينه وبين الناس . . لكن عدداً من البغداديين تمكّنوا من اختراق الحاجز الأمني ووصلوا إليه

وقبّلوا يدي رئيسهم وهم يهتفـون «صـدام . . صدام». بينمـا كان الـرئيس العراقي يرافق ضيفه «كاوندا» الذي كان يمسك بمنديل أبيض في يده ويتابعان مسيرتهما في جولة حول بغداد. على غير عادة احتفالات الرئاسة فقد دلّت المشاهد على عدم إعداد هٰذه الزيارة وترتيبها مسبقاً . . في الحقيقة كانت الجماهير مندهشة لرؤية الرئيس وهو يحاول أن يشقّ طريقه بينهم.

علّق مستر بطرس قائلاً: «لقد فعلها في مرة سابقة قبل الحرب العراقية ـ الإيرانية . . إنه يظهر نفسه للشعب أنه لا يخاف» . . قال هٰذه العبارة مدرّس للغة العربية الذي يُدرس «أنغريد» والذي حلَّ محل أماني كمترجم.

بدأ صدام بكل تأكيد مقتنعاً . . ربما يكون قد أصبح محطّ أنظار العالم، لكن لا تبدو عليه علامات القلق. لكن المرء لا يمكنه أن يعرف ما يخفيه صدام من خلال تعبيراته أو سلوكه. ربما كان «ويلسون» على حق . . كنت أفكر بينما أجلس متسمّراً أمام التلفزيون، لعلَّ صدام وصل إلى مرحلة المنقذ.

قلت وأنا أتناول مشروباتي: «حصل الرجل على كرات الصلب . . إمّا هٰذا، أو أنه أصبح مؤهلاً . . حسناً سأترك الأمر الآن».

تكلّمت تريسي قائلة: ««ويني» لعلك سمعت «فيتزووتر» وهو يخبر الصحفيين أن يغادروا».

قلت لها مصحّحاً: «أنت تعنين أنه يحث الصحفيين على المغادرة».

ـ «ماذا ترى في الأمر؟».

ـ «إذا أردت الحقيقة . . لم أفكر في الأمر كثيراً . . أعتقد أنه الشيء الصحيح المناسب له للقيام به».

ـ ««ويني» . . إن ما قاله يعني أنهم سيقصفون بغداد».

ـ «يا حبيبتي . . إننا نعلم أنهم سيقصفون بغداد . . ما الجديد في الأمر؟» . . وفي اللحظة التي قلتها . . عرفت أنني ربما ضربت على وتر حساس لم أقصده . . وقدّرت بأن «تريسي» ربما خطرت لها أفكار ثانية . . على أية حالة، عليَّ أن أحاول أن أكون أكثر وضوحاً وتأكيداً للأمور. إن الله يعلم أننا جميعاً نمرُّ بمرحلة تبدل المزاج، ولكن يبدو أن الآنسة «سيبل» تبدو أكثر تبايناً، مرّة في القمة . . ومرّة ثانية في الحضيض. وفي شهور سابقة عندما كانت غارقة في المشاكل، قرّرنا أن نفـاجأها بإقامة حفلة عيد ميلاد لها، بالرغم من عدم معرفة أحدنا لتاريخ ميلادها الحقيقي، وقدّمنا لها الهدايا بسخاء، دون أن يبدو عليها البهجة. وقامت «بيرل» بصنع كعكة عيد ميلاد رائعة لهـا، كما قام الثلاثي السباقين: «دوغ» و«جيمس» و«أكاويلارد» ثم قام «مكهنري» . . بتأليف

مقالة خاصة ساخرة على جهاز الكمبيوتر الخاص به للإمتاع، وقد أسموها «بيرل تاون تايمز» والتي تثني على إنجازات «سيبل» . . مما أشاع الضحك والمرح بيننا. أدركت أن هٰذا الوقت يتطلّب أكثر من حفلة للمتعة والتسلية. لقد كانت محطّمة تماماً برحيل «بلاي» الوشيك. الحمد لله، أعتقد أنها لا زالت ترى أن روح أختها «بيرل» بجانبها.

قبل أن ادخل قررت أن أتصل تليفونياً مع «ويلسون»، وبالرغم من تأخير الوقت لم يكن لديّ شك أنه لا يزال مستيقظاً. وعندما لم أتلق رداً من المنزل اتصلت بمكتبه، وبعد أن رنَّ جرس الهاتف (١٢) مرة، رفع السماعة.

صرخ في التليفون: «ماذا تريد؟».

ـ «مرحباً «جو» . . إنني أريد مجرد التأكد من . . .».

ـ «ماذا تريد؟ من أنت؟» وقد صاح بصوت عالٍ . .

ـ «إنه أنا . . «روبرت»».

سأل: ««روبرت» . . «روبرت» من؟» . . يمكنني القول أنه سكران ولكن صوته لا يدلُّ على أنه قد شرب، حيث تبدو رنة الألم في صوته.

قلت ثانية: «أنا «روبرت» . . «روبرت» من الـ سي. إن. إن».

ـ «أوه يا «روبرت» . . كيف تسير أمورك؟».

ـ «إنني بحالة جيدة يا «جوي» . . اتصلت بك فقط لأسأل عن أحوالك».

ـ «لقد عملنا ما كل في وسعنا . . لكن لم نعمل بما فيه الكفاية . . والآن نُوفق فات الوقت».

ـ «لقد فهمت . . .».

قال وهو يُسرع ويدمج في كلامه: «لقد أخرجنا الرهائن، لكن لم توفّق في صنع السلام، الآن جاء الدور ليتعلّم صدام درساً».

ـ «حسناً يا «جوي» . . أنت فعلت الشيء الحسن . . يمكنك أن تفخر بما أنجزته».

تأوه مشتكياً: «لكن لم نفعل ما فيه الكفاية، والآن قد أردكنا الوقت».

قال جون في اللحظة التي دخلت فيها إلى مقر العمل: «لدينا أخبار سيئة . . والدة «بيرل» أصيبت بنوبة قلبية».

صرخت: «يا للمصيبة . . كيف حالها الآن؟».

ـ «إنها الآن في المستشفى . . في قسم العناية المركزة».

سألت وأنا أنظر حول المكتب: «أين «بيرل» بالضبط الآن؟».

ـ «إنها فوق في غرفتها. وستعود بعد قليل».

«يا الله . . أولاً والدها . . والآن هٰذه . . ».

حاولت «سايندي» أن تؤكّد لي وتطمئنني: «إنها الآن بخير . . لقد كلّمت أختي وقالت إن والدتي بخير . . حقيقة إنها بحالة جيدة.

اقترحت قائلاً: «حسناً . . أظن من الأفضل أن تستقلي الطائرة وتعودي إلى المنزل».

ـ «ليس ضرورياً يا «روبرت» . . إنها بخير . . أريد أن أبقى معكم. اسمعني . . سنتحدّث فيما بعد . . موافقه؟ يجب أن تتحرك لأخذ بعض اللقطات».

ـ «حبيبتي».

ـ «لقد حجزت مكالمة إلى تكساس . . إذا حضرت المكالمة، أخبروهم أن يكلّموني فيما بعد . . »، وجمعت معدّاتها وخرجت من الغرفة.

قلت لهوليمان: «إن الله قادر على منع تحوّلها للأسوأ، و«سايندي» لا زالت في بغداد، وربما لا تتمكن من العودة إلى بيتها» . . وبعد ذلك رن جرس الهاتف.

قال عامل بدالة التليفون: «الولايات المتحدة على الخط».

قال الصوت من الطرف الآخر: «مرحباً . . هل «سايندي ستراند» موجودة؟».

ـ «لا أنا . . آسف، ليست هنا . . أنا «روبرت وينر» . . هل أنت أخت «سايندي»؟».

ـ «نعم . . مرحباً يا «روبرت»».

سألت: «كيف حال والدتك؟».

ـ «يقول الأطباء إن الـ (٢٤ ـ ٤٨) ساعة القادمة ستكون حاسمة، لكن والدتي إنسانة رقيقة وقويّة».

ـ «أنا كلّمت «سايندي» فيما إذا رغبت في العودة إليكم».

ـ «ماذا قالت؟».

ـ «صراحة، قالت إنها تودّ سماع أخباركم ومتابعتها من هنا . . لكن شعوري هو أنها يجب أن تكون بطرفكم».

قالت: «أعتقد أن كلامك هو الصواب . . لا أعلم ماذا عساها تستطيع أن تفعل، لكني أعلم أن الأمر يزيد الضغط على والدتي لوجود ابنتها حيث هي في . .».

ـ «حسناً . . اعتبري أن الأمر تمّ . . سأخبر «سايندي» عندما تعود . . لا تقلقي، سوف أرسلها إلى عَمان غداً، وعلى الطائرة الأولى ستتوجّه إلى تكساس . .».

اتّصلت مع سعدون، وطلبت إصدار تأشيرة خروج مستعجلة لـ «سايندي». وأن يساعد في حلّ أي عقبات حتى تتمكنّ من ركوب أول طائرة في الصباح.

قال: «هٰذه اخبار سيئة. ارجوك أن تبلّغ أسفي إلى «سايندي». ثم اتصلت عبر جهازي (ذي الأربعة أسلاك) مع «هومي» في عَمان، وطلبت من «بيتر» حجز مقعد لها إلى الولايات المتحدة.

قلت: «ارجوك أن تجعلها مرتاحة قدر الإمكان» . . بالرغم من أننا نسافر على الدرجة الأولى عند استخدام خطوط شركات دول العالم الثالث إلا أن سياسة الشركة كانت تجعلنا نسافر كرجال أعمال، ولكن عندما أخذت بالاعتبار التوتر الذي تعيشه «سايندي» في الوقت الحاضر فقدّرت أن وضعها في درجة افضل على الطائرة، خاصّة في رحلة طويلة سيجعل الأمر مختلفاً بالنسبة لها. أخذ «بيتر» منّي الرسالة حالاً. وقال: «فهمت تماماً . . اعتبر أن الأمر قد تمّ».

قلت لـ «سايندي» وأنا أضع يدي برقة على خديها: «اسمعيني أنا غالباً لا آخذ الأمور على عاتقي . . ولكني هٰذه المرة فعلتها . . أقول لك عليك العودة إلى أهلك، أرجوك لا تجعليني أن أقول كلمة «أمر».

قالت: «أوه . . أنت صديقي العزيز، لكني أشعر أنني أغادركم فجأة دون سابق إنذار مما يسبب الارتباك».

ـ «لن أكون في ورطة عندما تكون لي صديقة مثلك . . ستكون الأمور أسوأ لو بقيت» . . وأمسكت بها بشدة قبل أن تغادر الغرفة لتحزم أمتعتها.

كنت أفكّـر في الأمـر لوحدي . . أولاً «بلاي» والآن «سايندي» . . بينما كنت أتوجّه نحو المصعد في طريقي للسفارة . . إن هٰذا قد يخرّب كل شيء . . من سيكون التالي . . «تريسي» على ما أعتقد . . بدون «سايندي»، فقد أصبحت مجرد وقت قبل أن تغادرنا . . بالرغم من الخطط الجيدة التي وضعتها فإن التوازن الدقيق بدأ يختل . . وأخذت أتمتم: يا لسوء الحظ.

كنت على وشك الخروج من باب فندق الرشيد عندما شاهدت شخصاً ليس سوى أسوأ رجل يجمع العالم على وصفه بذلك . . القائد الإرهابي أبو العباس . . الذي ورد اسمه في أسوأ عملية خطف، وهي السفينة «أكيلي لاورو» . . والذي ارتكب جريمة قتل «ليون كلنجوفر» (قام بدور كبير

في أدائه الممثل «كارل مالدين» ويمكن إضافة ما عرضه التلفزيون العراقي) إنها ستكون مقابلة جهنمية. كان أبو العباس وحده. بحثت عن بروز في أعضاء جسمه لأرى إذا كان مسلّحاً.

قلت له وأنا أمد يدي: «مرحباً . . أنا «روبرت وينر» من الـ سي . إن . إن».

قال لي: «أهلاً . . سعيد برؤيتك».

ـ «أنا أسأل عن إمكانية إجراء مقابلة؟ أنت تعرف ربما من خلال خططك أو المنظمة . . هل ستنشب الحرب؟».

قال بسرعة: «سأقابلك غداً».

ـ «لا . . من المقرر وصول «بيريز دي كويلار» غداً . . ماذا بعد الغد؟».

ـ «ممكن . . ».

ـ «رائع . . هل هناك تليفون يمكنني أن أتصل به بسهولة؟» كانت الكلمات تندفع من فمي . . كنت متأكداً من سخف سؤالي.

صَحَّحَ لي الأمر وقال: «أنا سأتصل بك . . أنت في الفندق؟».

ـ «غرفة رقم (٩٠٦) وإذ كان الخط مشغولاً حاول (٩٠٢، ٩٠٤ أو ٩٠٨)».

ـ «هل ستحضر معك مترجماً؟».

ـ «مترجم! لغتك الإنجليزية رائعة».

قال: «ليست على ما يرام . . يجب أن تحضر مترجماً».

ـ «لا عليك . . إن لغتك جيدة».

أصرَّ على رأيه: «ليس بهذه الطّلاقة».

ـ «حسناً . . سنحضر مترجماً عندما تحضر إلينا» . . شكرته على وقته . . وتحركت . . بعد ثانية رأيت رئيس نيكاراجوا السابق «دانييل أورتيجا» يقف عند مكتب استقبال الضيوف . . هل أقوم . . ؟ لا . . استنتجت . . إن ذلك سيكون أمراً شاذاً.

على أي حال كان متأخراً في الليلة الماضية. ولم يكن «جوي» الأسوأ عندما بدأ يلخص الأمور . . وكانت لهجة «ويلسون» تجنح إلى العدائية.

قال وهو ينغِّم كلامه: «ستكون هناك طائرة (٧٢٧) غداً في الساعة الحادية عشر صباحاً وبها

متسّع لـ (١٢٦) شخصاً . . حتى هٰذه اللحظة تمَّ حجز (٣٢) مقعداً. إذا أردت لك مقعداً، يمكننا أن نوفّره لك. أنا أنصحك بشدَّة أن تغتنم الفرصة . . هٰذا سيكون الإجلاء النهائي».

سأله أحد المراسلين: «هل يمكنك أن تخبرنا من سيغادر معكم إضافة إلى أركان السفارة؟».

قال جوي بحدّة: «هٰذا ليس مؤتمراً صحفياً. أنا هنا لأخبركم فقط عن توفّر طائرة (٧٢٧) وبها (١٢٦) كرسياً . . إذا رغبتم في الحصول على مقاعد سنوفرها لكم».

قال المراسل: ««جوي» نحن نعرف أنه ليس مؤتمراً صحفياً.

قال جوي محاضراً: «إذن أُترك مفكرتك . . لا حاجة بك لأخذ ملاحظات، سأقوله للمرّة الأخيرة: لدينا غداً طائرة (٧٢٧) وعليها (١٢٦) كرسياً . . إذا رغبتم في تأمين مقاعدكم . . وقعّوا هنا وأما تأشيرات الخروج أو أية معاملات رسمية أخرى فهي من مسؤوليتكم».

سألت: «متى ستغادرون السفارة؟».

قال جوي: «بين الساعة الثامنة والثامنة والنصف».

أراد المراسل أن يعرف فقال: «هل ستأخذون العلم معكم؟».

قال جوي بنوع من التأكيد: «سيظل العلم مرفرفاً على السفارة».

ـ «يعني أنكم لن تأخذوا العلم معكم».

ـ قال صارخاً: «ربما آخذ علماً معي».

فكّرت . . لماذا يقول بأنه سيأخذ علم السفارة وسيرفع مكانه علماً آخر؟ ما هٰذا؟ هل هو سر حكومي؟

تم توجيه سؤال آخر لـ «جوي»: «هل سيكون دبلوماسيون من الدول المتحالفة على نفس الطائرة؟».

قال وهو ينهض عن مقعده ويتجه نحو المكتب: «انظروا . . هٰذه هي المرة الأخيرة التي أقول أنه ليس مؤتمراً صحفياً . . قامت حكومة الولايات المتحدة باستئجار طائرة (٧٢٧) . . وهناك مقاعد متوفرة . . إذا رغب أحدكم في شرب النبيذ الأبيض فالدعوة قائمة ليشاركني في مقدمة الطائرة» . . كان واضحاً أن التقرير الموجز تحول في النهاية إلى نهاية سريعة . . قام عدد منا بالتوجه نحو «جوي» ليسلّموا عليه ويودّعوه.

قال: «لقد تلقيت هٰذه الهدية من رهينة سابق» . . وبدأ يخرج من جيبه جهازاً إلكترونيا أسود اللون بحجم كف اليد . . (أنت!!!) خرج صوت مسجّل عندما ضغط الزر . . أنت!!. قال

الصوت المسجل عندما ضغط الزر ثانية أنه يقول أنها الكلمة الأخيرة. شرح لنا الأمر ويبدو عليه الأنشراح باستلام هٰذه الهدية التي يعتقد أنها مناسبة وقيّمة جداً. كنت واحداً ممن لم تفاجئهم هٰذه الآلة الصغيرة . . قبل عدة أشهر أعطى «روث» واحدة إلى «أنغريد»، وفي ذلك الصباح كان موجوداً في حقيبتي.

ضحكت وأنا أضغط الزر: «استمع يا «جوي» . . أنت!!! (فأعاد نفس الكلمة النابية) . . وأجابت الآلة التي معه: «إخرس أنت» . . وللحظة واحدة تصورت أن عزيز و «بيكر» كانا مزوّدين بأجهزة مشابهة.

قلت ساخراً: «إنها قد تؤدّي العجائب للدبلوماسيين».

قال ضاحكاً: «أوافقك . . كنت أتمنى لو حصلت عليها منذ فترة سابقة».

تأخرت قليلاً لعدة دقائق حتى غادر الآخرون، رغبت أن أشكر «جوي» بصفة شخصية وأرجو له التوفيق.

سألني وهو يهزّ يدي: «أنت تنوي البقاء؟ أرجو لك حظاً سعيداً . . انتبه لا تبتعد كثيراً».

- «سنرى بعضنا ثانية . . أنا متأكد، سنلتقي، وآمل أن تكون في ظروف أحسن».

قال وهو يوصلني إلى الباب: «أتمنى لها المزيد من النجاح والتقدم يا «روبرت» . . إن الـ سي . إن. إن رائعة، لا أستطيع أن أعبّر عن مزيد الشكر لك».

عند خروجي من السفارة اكتشفت أن بغداد تحولّت إلى معسكر جيش . . مئات من الجنود والعسكريين في كل زاوية وعند كل تقاطع رئيسي . . تمَّ نصب مدفعية مضادة للطائرات قرب المساجد والمباني الحكومية، أحد هٰذه المدفعية المضادة تم نصبه مباشرة مقابل فندق الشيراتون. هؤلاء الجنود يختلفون في شكلهم عن رجال الجيش الشعبي؛ متوسّطي العمر سِمان الأجسام مما جعلهم هدفاً للنكات والسخرية. كانوا يبدون صغار السن وملامحهم تبدو عليها الشدّة . . كان منظراً مثيراً.

سألت جاسم: «ما كل هٰذا؟».

قال: «إنهم يستعدون» . . وكان يسرّع سيارته الهوندا ليتجاوز شاحنة محملة بالجنود، «إنهم يظهرون استعدادهم» . . لا أعرف إذا كنت مستعداً لمثل هٰذا أنا . . فكرت ونحن نتجه إلى الرشيد. كانت الستارة مغلقة . . والجنود في الشوارع . . كل هٰذا لا يوحي بالاطمئنان.

قلت وأنا أدخل إلى مقر عملي: «هناك منظر يستحق التصوير . . نحن بحاجة للتصوير».

وخرجت «أنغريد» و «مارك» للبحث عن السيد علاء.

قال هوليمان: «هل تعلم أن «لويس فراخان» هنا . . أظن أنه ضيف عزيز سيحل هنا» . . لقد جاء «فراخان» إلى بغداد لحضور المؤتمر الإسلامي الدولي الذي سيُعقد في فندق الرشيد، ومن المتوقع أن يخطب صدام في التجمّع بعد الظهر.

قلت: «دعنا نصوره» وطلبت غرفته بعد أن وافقت أتلانتا على المقابلة، كان «فراخان» يرأس جميعة أعط وخذ الإسلامية في شيكاغو، وهو شخصية مثيرة للجدل. وبدأت تظهر إشارات (أعط وخذ) على الجهاز. وقال «فراخان» إنه سعيد لهذه الخدمة، وسوف يرسل رئيس جهازه الأمني إلى مكتبنا ليتأكد من الترتيبات.

قلت لجون: «اسمه «ليونارد فراخان» محمد . . أنت ستقوم بدور المنتج لفترة . . سأذهب لمقابلة ناجي».

قال ناجي: «يمكنك إحضار جهاز تليفون مرتبط بالقمر الصناعي . . ولكن تحت الشروط التي اتفقنا عليها . . أنا شخصياً تعهّدت للوزير على مسؤوليتي».

قلت: «هٰذا عظيم . . هل يمكن لسكرتارية مكتبك الاتصال مع الجمارك . . حتى لا تكون هناك أية مشاكل».

أكّد لي: «إننا سنقوم بالترتيبات اللازمة» . . ومن طرف عيني، لاحظت صورة «فراخان» على شاشة الـ سي . إن . إن، تجري المقابلة كما خططت. التقط ناجي الريموت كنترول ورفع الصوت، وبعد ثانية خفضه.

سألني ناجي فجأة: «من هو «بيتر آرنت»؟» . . وكنت أعلم أن ناجي رأى اسم «بيتر» عندما طلبت التأشيرة.

قلت: ««بيتر» هو أحسن المراسلين في العالم. وقد حصل على جائزة «بليتزر» وفوق ذلك هو نيم جداً».

- «هل سبق له الحضور إلى بغداد؟».

- «على ما أظن، إن العراق هو البلد الوحيد الذي لم يسبق له أن أرسل منه تقاريره، لكنه يحضر في وقت مثير».

- «ومستر «شو»؟».

- «مفروض أن يصل «بيرني» بعد الظهر اليوم . . هل هناك أي أخبار عن المقابلة؟».

قال: «من حيث المبدأ ستكون جيدة . . سنتحدّث أكثر بعد وصول مستر «شو»».

طلبت «إيسون» وأخبرته عمّا جدّ بالنسبة لجهاز إنمرسات . . ثم اجتمعنا على الهاتف مع المهندس «روبرتسون» في عَمان الذي تطَوّع لإحضاره رغم أنه تحفظ بأن قراره ليس التزاماً إلى ما لا نهاية . . وعبّر «نك» عن رغبته في الخروج من بغداد إذا أحضر الجهاز.

طمأنه إيسون قائلاً: «إن تلك لن تكون مشكلة» . . فقد حجز له «بيتر هومي» على طائرة مستأجرة». وقلت لـ «نك» إنني سأتصل مع سعدون للحصول على تأشيرة دخول له وسنرسلها بالتلكس بعد الظهر مباشرة. وإذا حالفنا الحظ، سوف يصلنا ومعه جهاز إنمرسات غداً.

قلت لـ «بيرني» ونحن سائران نحو الصالة: «حجزت لك هٰذه المرّة جناحاً . . قدّرت أن ذلك سيكون مريحاً أكثر لك».

ابتسم قائلاً: «مستر «روبرت» . . أنت دائماً تهتم بي وتوليني عناية فائقة . . هٰذه المرّة هنا شيء لك» . . فتح حقيبته وأخرج منها زجاجة صغيرة . . «بليغاميد» قطرة لعينيك . . وسلمني المضادّ الحيوي . . «على الرغم أنك تعلم بوجوب مراجعة الطبيب».

كعادتي كنت سعيداً لرؤية «بيرني» . . بينما كان يفكّ أمتعته . . قدّمت له المعلومات المتوفّرة حتى هٰذه اللحظة ومجريات الأمور: الأخبار السيئة عن «بلي» و«سايندي» والأخبار السارّة عن تليفون إنمرسات (المرتبط بالقمر الصناعي) وأخبرته أن المقابله مع صدام متوقّعه، لكن يجب ألا يعوّل عليها تماماً يوم ١٥/كانون ثاني بالضبط. وقلت: «سياسة الحزب . . هٰذا شيء يؤخذ اعتباره». أشك أن صدام سيقدّم الشكر بالحديث من خلال الـ سي . إن . إن».

قال بطريقة فلسفية: «ربما تكون على حق . . علينا الانتظار».

تحدّثنا عن شؤون عائلاتنا والمأزق الذي وضعناهم فيه بقبول هٰذه المهمة المميزة وقدّر أن الضغط على «ليندا» زوجة «بيرني» وأطفالهما الأثنين أكثر وقعاً وحدّة.

سألني: «لماذا تقول هٰذا؟».

ـ «حسناً . . أنت الشخص الذي يقود سفينتنا ويرسيها إلى برّ الأمان. أنت معك الحق لتشعر أنك تعدّيت مرحلة «نِكْ» الخطرة. وكما تعلم فالحديث غير الضروري مخاطرة».

قال ونحن نسير لمنطقة أكثر أمناً: «أخي . . نحن الأثنان مراسلان. أنا متأكد أن أسرتك قلقة أيضاً كما أسرتي، . . لذلك يا مستّر «روبرت» هل لا زالوا يقدّمون اللحم المفروم مع الصلصة الحمراء. أشعر الليلة أنني بحاجة لمتعة افتقدتها».

قال صدام مخاطباً المؤتمر الإسلامي: «نحن نحارب من أجل الحق، إن الجنة أعدت

للمتّقين، وكل شبابنا وطلابنا وفلاحينا حملوا السلاح لخوض هٰذه الحرب المقدّسة. وليس هٰذا في سبيل بلد أو قطعة أرض، إنه من أجل أهداف الإنسانية».

وفي العربية السعودية قال جيمس بيكر وزير الخارجية مخاطباً القوات الأمريكية: «لن يطول انتظاركم.. عند منتصف الليل، ليلة الخامس عشر سنكون على شفير الحرب».

٢٠

لم يكن هناك سبب حقيقي لتواجدي في مقر العمل الساعة الخامسة عند شروق الشمس.. لكنني فقط لم أستطع النوم الليلة الماضية.. يبدو أنه سيكون مزدحماً بالعمل. المفروض أن يغادر «ويلسون» والدبلوماسيون الآخرون، ومن المقرر وصول «خافيير دي كويلار» هٰذه الليلة، وفي وقت ما خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة سيصوّت الكونجرس الأمريكي حول تخويل «بوش» الصلاحية لاستخدام القوة في طرد القوات العراقية من الكويت.. وعلينا جميعاً أن نسدّد حساباتنا اليوم.

كان مقر العمل يبدو مكاناً كئيباً بالطبع، وفي الليلة الماضية على غير العادة تأخرنا في المكتب؛ نؤدّي عملنا الصحفي؛ نطوّر ونبث لقطات «بيرني».. لو تمكنت «روث» من الدخول إلى المكان، فتلك ستكون خبطة حظ موفّقة.

بعد أن ابتلعت جرعة إضافية من حبوب أكسدرين التي أتناولها يومياً بدأت اتّجه إلى المكتب ثم أقف ثانية. كان هناك جبل صغير من صواني الثلج الفارغة، حيث أنني قد حصلت على كميات أكبر من التي نحتاجها فعلاً. سبق أن أعلمني المستر «بطرس» أن أنطق باللغة العربية كلمات «ثلج من فضلك». إن لهجتي المتكسرة في اللغة العربية أصبحت معروفة لدى غرفة الخدمة بالفندق ـ كنت آمل أن تدعوني السيدة نهاد إلى الطابق العلوي حيث ضوء القمر للجلوس في بار شهر زاد. كما قام المستر «بطرس» بتعليمي بعض العبارات الأخرى المتداولة في الفندق «رائعة.. ممتاز.. مشكلة.. وأخرى قد استخدمها في حال نشوب الحرب «لا تضرب.. أنا صحفي».

صببت القهوة، ووضعت شريطاً في جهاز التسجيل. حان الوقت الآن لمحادثة أتلانتا.. صباح الخير.. هٰذا «وينر» يبدأ معكم برنامج الصباح».

قال جون فيجنر: «طلبتْ السفارة الأمريكية في تل أبيب من الرعايا الأمريكان مغادرة إسرائيل . . إنهم يتحدثون عن وجود عشرات آلاف الناس . . لنر؛ هل هناك شيء آخر؟ خرج تقرير من موسكو بأن الكرملين بسبيل إصدار مبادرة جديدة . . لكنها لم تتبلور إلى حيز الوجود. أعتقد أنك سمعت «بيكر» وهو يتحدث عن العبور إلى حافة الحرب . . يبدو أن الأمور تزداد تعقيداً».

استعرضت مع «فيجنر» خطة اليوم ثم انضممت إلى «بلاي» و«هوليمان» لتناول طعام الإفطار، كان «بلاي» ممزّق الإحساس بسبب قراره الرحيل والمغادرة . . لكن ما حدث قد حدث . . سوف يرافق «ويلسون» على الطائرة التي استأجرتها السفارة الأمريكية، وطلبت أتلانتا منه أن يغذّيها بلقطة عن عملية إجلاء الدبلوماسيين . . ويمكنه أن يسلّمها عند الوصول إلى مطار فرنكفورت . . غادرت «أنغريد» ومعها طاقم العمل السفارة متجهين إلى المطار . . المفروض أن تعيد لنا الشريط بالسرعة الممكنة ليمكن إذاعته في الصباح. جلست على الجهاز ذي الأربعة أسلاك وطلبت «هومي» في عَمان. ليجهز بأقصى سرعة ممكنة طائرة خاصة لنا.

قال بيتر: «أساساً . . الرحلة المستأجرة لمدة (٢٤) ساعة تكون في الفترة بين ١٤ ـ ١٨، كانت هناك رحلة ممكنة يوم ١٥، لا تكون جاهزة الساعة (٦) مساء بتوقيت عَمان. وعلى أيّ حال فهي قبل الموعد النهائي الذي حدّته الأمم المتحدة . .».

كانت الطائرة من النوع الخفيف من طراز روكويل ـ شركة سابري «Rock Well, Sabre Liner» وتستطيع حمل (٦ ـ ٨) أشخاص، وحمولة عفش من (١٠٠ ـ ١٥٠)كغم، وتقول الشركة إنها تحتاج إلى أربع ساعات تشغيل قبل أن تتمكن من الإقلاع.

سألت: «ما مدى الطائرة؟».

قال: «الحقيقة، تتوفّر لدينا طائرتان كلاهما تطير بسرعة (٤٠٠) ميل في الساعة، إحداها تتمكن من الطيران لمدة ثلاث ساعات ونصف قبل أن تحتاج إلى إعادة ملئها بالوقود، والثانية أربع ساعات، وهٰذا يعني أنها ستتمكن من الوصول بسهولة إلى عَمان، القاهرة، تركيا أو قبرص».

ـ «وما أرقام الطائرة ـ وعلامتها المميزة؟».

ـ «حسناً . . الأولى هي «JYAFH» والثانية «JYAFY» وكلا الطائرتين مدهونة باللون الأبيض وعليها خطوط حمراء وذهبيّة ـ قرب علامتها». بارك الله فيك «جومي»، بالإضافة إلى التنظيم الرائع فقد حصل «بيتر» على تفاصيل جيدة.

قال: «دعني أعطيك بعض الأسماء والأرقام في بغداد» . . «هناك ممثل محلي ـ وكيل

سفريات للأجنحة العربية». وكتبت اسمه وأرقام تليفوناته في المنزل والمكتب، وكتب اسم المدير ومساعده . .

سألت: «كم تكاليف هٰذه المخاطرة على المكتب؟».

قال: «عشرة الآف دولار في اليوم لحجز طائرة تكون جاهزة تحت استعمالك لليوم . . وشركات الطيران العادية تتقاضى (١٥) ألف دولار».

ضحكت وقلت: «حسناً . . إنها بالتأكيد سي. إن. إن الجديدة . . في الأيام الغابرة كانوا سينقلوننا عن طريق الجمال».

قالت أنغريد وكانت تحدّثنا من المطار: «لم تقلع الطائرة بعد . . سمعتهم يتحدثون عن إغلاق المجال الجوّي رسمياً».

- «ماذا؟».

- «هٰذا ما يقولون يا «وينرش» . . سوف أقوم بالتأكّد من مدير عمليات المطار . . سأتصل بك في وقت لاحق».

أخبرت أتلانتا: «الطائرة المستأجرة لا زالت جاثمة على الأرض . . «أنغريد» تحاول التأكّد من صحة أخبار إغلاق المجال الجوي».

نحن أيضاً في عَمان سمعنا ذلك. «بيتر» قطع الاتصال - يقول أن ذلك بسبب وصول «دي كويلار» خلال الساعات القادمة.

- ««روبرت» . . هٰذا «إيسون» على الخط . . نحن نريدك الاتصال مع ناجي، أو أي أحدٍ آخر لإجراء مقابلة حيّة بعد تصويت الكونجرس».

قلت: «لقد طلبت من ناجي عدّة مرّات إجراء لقاءات حيّة لكنه دائماً كان يمتنع».

- «ماذا يعني ذلك؟ لقد سمعته في مقابلة إذاعية مع الـ بي. بي. سي».

- «أنا أعرف. لكنه يقول إن ذلك شيئاً استثنائياً. لقد تمكّنوا منه في الوقت المناسب».

انفجر إيسون قائلاً: «هؤلاء الأوغاد» . . انقطع الاتصال وتوقف الجهاز عن العمل.

أخذت أنادي: «من بغداد إلى أتلانتا» . . «من بغداد إلى عَمان».

ابتسم هوليمان وهو يقول: «أعطنا الخط يا «إيسون»».

- «من بغداد إلى عَمان» . . وكرّرها ثم قال: «من بغداد إلى أتلانتا» . . وكرّر النداءات . .

قال هوليمان وهو يرفع درجة الصوت: «لقد توقف الجهاز . . أنصت . . لا يوجد أي صوت».
قلت: «شيء عظيم».
سخر هوليمان وقال بالعربية: «ممتاز».

- «من بغداد إلى أتلانتا!».

- «ألو «روبرت»» وعاد صوت «إيسون» على الخط . . «أنا آسف لما حصل».

- «هٰذه هيئة الاتصالات الوطنية العراقية« . . قلت ساخراً منتحلاً الشخصية . . «إن استخدام لغة السباب على القناة مخالفة لأنظمة الاتصالات العراقية . . اعتبر ذلك إنذاراً».

قال إيسون: «أسمعك . . إني آسف في الحقيقة».
ضحكت وقلت: «إنس الأمر . . سأبذل قصارى جهدي للاتصال مع ناجي . . لكن الأمر شبه مستحيل».

- «مفهوم . . «إدْ» يريد محادثتك قليلاً».

قال إدْ وهو يلتقط الخط: «مرحباً يا «روبرت» . . كيف أحوالك ورفاقك؟».
قلت ساخراً: «كل شيء تمام . . هل يمكن أن نعود الآن إلى أهلنا؟».
ضحك وقال: «لماذا؟ بكل تأكيد . . ولهذا استأجرنا الطائرة الموجودة في عَمان».

- «تلك الطائرة ستكون متعبة».

- «حسناً، نفضل أن نوفر لكم عدّة جمال».

- «شيء جميل أن تذكرها . . قبل قليل كنت أخبر «هومي» عن نفس الموضوع».

سأل وهو يتحوّل إلى الجد: «كيف أحوال «بيرني»؟».

- «إنه بخير . . وهو في غرفته يؤدي بعض الأعمال . . هل تريدني أن أناديه لك؟».

- «لا . . ليس ضرورياً أرجوك أن تخبر «بيرني» أن يبقى جاهزاً قدرالإمكان، ونحب أن يستقبلنا على جهاز (الأسلاك الأربعة) عندما يصبح الأمر ميسوراً، وسوف يرسل «جون» أو «بيتر» مجموعة الأشرطة و«مؤتمر الأزمة». نريد أن يكون «بيرني» في برنامج (الساعة الدولية) في أول عرض».

- «هٰذا لن يكون مشكلة . . والآن كيف أحوالكم؟».

- «نحن بخير، ولكننا نفكر دائماً فيكم يا أحبائنا في بغداد».

- «شيء جيد أن نسمع هٰذا. سوف أنقله إلى «أنغريد» والآخرين عندما يعودون».

صاحت أنغريد من المطار بعد ساعات قليلة: «تمام . . في النهاية يرفعون العجلات، يوجد على الطائرة (٤٤) راكباً بينهم ستة دبلوماسين أمريكين، وسبع مواطنين أمريكين وثلاثة صحفيين» . . ومرت مروراً عابراً على بقية الجنسيات الأخرى لتقوم بنقل الخبر إلى أتلانتا . . «نحن في طريقنا لتناول بعض الطعام، ثم سنعود ثانية لمقابلة السكرتير العام».

وهكذا سارت الأمور. كل شيء غريب. بالتأكيد فليس لي نيّة التوجّه إلى السفارة في حال نشوب الحرب، لكن ها هي السفارة أغلقت، وغادر الدبلوماسيون، وسادت الجو برودة لم أحسّ بها من قبل. من ناحيته فإن «جوي» ذهب ليتأكد هل سيتمكن الصحفيون من استخدام هواتف مركز المعلومات الأمريكي، وفي المطار أخبر «أنغريد» أنه ترك المفاتيح مع حنان لشقّتين يمكن أن نستخدمهما. ولسوء الحظ، عندما سألنا حنان، قالت إنها لا تعرف شيئاً، لا بد أن هناك سوء فهم معين.

كنت أعلم ما ستقوله «تريسي» قبل أن تتكلم، لكنها لا زالت تصدّع رأسي.

ـ «أنا آسف «ويني» . . حقيقة أنا . . وقد أعطيت الأمر جانباً كبيراً من تفكيري، لكن في النهاية أودّ أن أسافر».

كذبت عليها: «لا توجد مشكلة . . هل يمكنك على الأقل البقاء حتى نحصل على بديل؟».

ـ «كم سيستغرق ذلك على ما تعتقد؟».

ـ «ربما يستغرق الأمر يومين. افترض أنك لن تبقين بعد الموعد النهائي (أي ١٥/كانون الثاني)».

قالت وهي تستعطفني: «أوه يا «ويني»، إنه شيء مؤلم . . هل ستصفح عني؟».

ـ «لا شيء يدعو للعفو. إنه قرارك الشخصي الخاص، ولست في وضع تخمين ما سيحدث لاحقاً».

ـ «طبعاً . . سأبقى حتى الخامس عشر . . ولكن عليك أن تفكر أيضاً في الرحيل . . ».

قاطعتها: «أرجوك لا أريد هٰذا النقاش. اسمعيني يا «سيبل» . . لا أريد أن أبدو في صورة من يصدّ الحديث . . لكن خلال اليومين الماضيين . . كل الأشياء تغيّرت . . إنها جعلتني أبدو كالمعتوه. والآن عليك أن تفعلي ما تريدين فعله، لكن أرجوك، وهو شيء لا يهم، لا تخبريني ما الواجب عليّ فعله، أنا أعرف ما أعمله، إنني أحاول تأدية الأمر على الطريقة المثلى». ورجعت إلى غرفتي، وطلبت مكالمة تليفونية إلى أتلانتا.

سأل إيسون: «ما اقتراحك؟».

ـ «أظن علينا مكالمة «كريز مانك» . . إن الله يعلم بأن «كريس» مهيأة لأن تقول لا وترفض، وربما تبول قبل أن تقرر الاختيار الأول بعد التردد الطويل. لكن ذلك يعود إلى طبيعة الشخصية . . لا أستطيع فعل شيء بالنسبة للعمل . .».

قال: «مفهوم. سوف أتصل بها».

ـ «حسناً، سأرتب أمر عملية التأشيرة مع سعدون».

قدّرت بعد أن عدت إلى مقر العمل أننا بحاجة إلى شيء كبير يرفع من روحنا المعنوية بعد التغييرات الأخيرة، إن فقدان «تريسي» أصابنا بقذيفة مرتدّة، والوقت ينفذ. ما العمل؟ ظهر «بيتر آرنت» على الباب وكأنه على الموعد تماماً.

انحنى وقال: «مرحباً يا شباب . . هٰذا شيء رائع» . . قالها وهو يدور حول المكتب . . «ما هٰذه التجهيزات». أعطيت «بيتر» الخمسة دولارات ثم أشار إلى المولد، والإضاءة وأجهزة التسجيل التي أحضرها «هوليمان» من الولايات المتحدة، ومخزون الطعام، والصيدلية والمحول . . والمخزن الدائم والأجهزة الأخرى . .

صاح وقال: «إنني أحب ذلك. إنه رائع تماماً. أنتم حسبتم حساب كلّ شيء. هٰذا أحسن بكثير مما كان موجوداً لديّ في فيتنام»، ثم أطلعته على غرفة «بلي» السابقة عبر الصالة ثم أوجزت له آخر المستجدات.

قال عن تريسي: «دعها تسافر. لا نريد أحداً هنا ليس على استعداد للعمل. لو سألتني الآن ما أحتاجه . . إنه شيء صغير عبارة عن حقيقة . .».

قاطعته: «كل شيء مراقب آمل أن تأتي «كريز مانك» لتحل محل «تريسي»».

قال وهو يغير الموضوع بينما كان يفك أغراضه: «إنه فندق رائع» . . ضحك وهو يفحصّ الأضواء الحمراء والخضراء الموجودة في الحمام: «يا لها من رحلة . . ألا توافق يا «روبرت»؟».

كان «بيتر» هو الشخص الذي كنا بحاجة إليه لمعالجة أمورنا أي كما يقولون: «أوصى عليه الطبيب» . . فكّرت في الأمر وأنا أعبر عائداً إلى غرفة العمل. الناس الذين لم يسبق لهم العمل معه قد يرونه متعباً، لكنه في رأيي بدون أدنى شك كان أفضل ما اخترناه عندما طلبت أن يلتحق بنا.

يبدو أن المناقشات في الكونجرس استمرت لعدة ساعات لإتمام عملية التصويت في مجلس الشيوخ. ومجلس النواب. كان «بيرني» يتابع سير المناقشات على الجهاز عندما خرجت أبحث

عن ناجي لنقل الكلام إليه.

قال ناجي: «أعتقد أن «بوش» سيمضي قدماً إلى الحرب بموافقة أو عدم موافقة الكونجرس.. حتى لو وقف العالم ضدنا فلن نخضع للتهديد».

أعرف أنهم كانوا يتابعون المناقشات بأكملها عن طريق الـ سي. إن. إن في وزارة الإعلام والثقافة.. كلمني سعدون مرّتين ليستوضح مني بعض النقاط الصغيرة حول النظام التشريعي.. فقلت كل ما في وسعي لأشرح الأمر، بالرغم من أن معلوماتي حول هٰذه الأمور كانت أكثر من محدودة، وكنت على الأقل آمل ألاّ أعطيه معلومات خاطئة.

أعطى كلا المجلسين «بوش» الثقة والصلاحية لاستخدام القوة، وكانت نتيجة التصويت في مجلس الشيوخ (٥٢ ـ ٤٧) وفي مجلس النواب (٢٥ ـ ١٨٣).

قلت لسعدون: «هٰذا ليس إعلاناً بشن الحرب».. ولكن بالنسبة للأهداف والنوايا فقد كان بالضبط يعني ما هو.

بدأ «بيرني» يذيع على الهواء نشرة المساء، وقد ثُبّت المنظر على بغداد.. ورد الفعل العراقي، ثم على حافظ الأسد الذي وعد صدام حسين بأن القوات السورية ستقف إلى جانبه في حالة تعرّض العراق لأي هجوم بعد انسحابه من الكويت.

قال ناجي بعد أن طلبت منه التعليق: «نحن لا نثق في حافظ الأسد.. انظر ماذا وعد الفلسطينيين واللبنانيين؟.. هل تثق في الأسد بعد ذلك؟».

عادت «أنغريد» من المطار عند منتصف الليل. وعند وصول «بيريز دي كويلار» إلى المطار تحول المشهد وكأنك في حديقة حيوانات.

قالت أنغريد: «لم يكونوا على استعداد لمقابلة الصحافة، استمع إلى الشريط». كان عزيز في استقبال «دي كويلار» لكن الإثنين اختفيا بسرعة من بين حشد الصحفيين. كانت أكثر من ضجة وصخب. وكانت مهمة «دي كويلار» لمدة (١١) ساعة. لذلك أخذ الصحفيون يتدافعون فوق بعضهم لتسجيل وصوله، وقد اخترقوا الحاجز الأمني ليصدهم رجال الحرس العراقي، وفي بيان صحفي مقتضب قال «دي كويلار» أنه لا يحمل مقترحات محددة، ولكنه جاء ليبحث نقاط على مدى واسع مع صدام حسين عندما يتقابلان غداً. ثم انصرف الإثنان بسرعة لاستكمال لقائهما.

سأل لاري دويل وقد توقّف في مقر العمل: «هل «بيرني» بجانبك؟.. ثم استعاد هو و«شو» ذكرياتهما في العمل سوياً مع وكالة سي. بي. سي. كان «ألين بيزي» واقفاً خلفه.

ضحكت وسألته: «ماذا تفعل هنا؟ أنت آخر شخص أتوقع حضوره إلى هنا . . ».

قال بيزي: «حسناً كنت في إجازة مع أسرتي نقضيها في روما . . هٰذا ساعدني كثيراً. ثم تخيّلت ما سيحدث؟».

قال دويل موضّحاً: «لا يوجد فريق كافٍ معنا. لم تستطع سي . بي . إس توفير مراسل واحد يرغب في الحضور إلى هنا».

صفّرت قائلاً: «يا إلهي».

صحّح بيزي الكلام: «حقيقة لم يجدوا فريقاً للعمل!! إنهم لا يريدون أن يدفعوا لهم».

قال دويل: «صحيح . . لا زالوا يبحثون التفصيلات في نيويورك حول الضمانات وأشياء أخرى . . ولكن في نفس الوقت نحن نعمل مع سي . بي . إس».

ـ «ماذا تنوون أن تعملوا؟».

ضحك قائلاً: «سنعمل ما كانت تعمله سي . إن . إن قبل عشر سنوات . . نبحث ونرجو توفير إمكانية البث حيثما وجدنا المكان».

لليلة الثانية لم أستطع النوم، بقي يومان على انتهاء الموعد المحدد، ولا زال الكثير أمامي من العمل الذي يتطّلب القيام به. خطر على بالي طالما أن ناجي وافق على السماح بإدخال جهاز تليفون إنمرسات، شريطة عدم استعماله إلا عند انقطاع الاتصالات عبر أجهزتنا، ربما يوافق على إحضار سيارة بث مباشر مرتبطة بالقمر الصناعي وفق نفس الشروط. علاوة على ذلك، فإن الاعتقاد الكبير بأنه إذا ما نشبت الحرب، فإن التلفزيون العراقي سيكون من الأهداف الأولى التي ستتعرض للقصف. في تلك الحالة فإن الطريقة الوحيدة لبث الصور من بغداد ستكون عبر وسيلة اتصال محمولة. فسجلت الملاحظة لأحادث ناجي وأقنعه بها. «نك» وإنمرسات سوف يصلان خلال ساعات، وإذا لم تحدث عوائق في اللحظات الأخيرة فإن «كريزمانك» سوف تصل في اليوم التالي. أنهت «تريسي» إجراءات حجز الطيران على الخطوط الجوية العراقية صباح يوم الخامس عشر، وبالطبع أصبح لدينا طائرة مستأجرة تحت تصرفنا على الدوام.

قفزت إلى الحمام ووقفت تحت الماء لمدة (١٥) دقيقة أنقل الحنفيات من الماء الساخن إلى البارد. سمعت مرّة أن ذلك يدخل في العلاج الطبيعي، لكنه لم يكن له فائدة بالنسبة لي. جمعت ملابسي لغسلها وبدأت أشاور نفسي هل أرسلها للمغسلة أم لا. خدمة الغسيل والكوي الفوري في نفس اليوم ـ كانت قبل الآن ذكرى عزيزة ـ لكنك كنت تحصل على ملابسك جاهزة ظهر اليوم التالي. فلو قامت الحرب فماذا ألبس؟ قررت أن أجرّب حظّي. سحبت الستارة ونظرت عبر النافذة حيث توجد وحدة المدفعية المضادة للطائرات فوق سطح المبنى المقابل لنا. كان عدد من الجنود

يشربون القهوة . . لاحظت أنهم خلال الليل قاموا بتحصين موقعهم بأكياس رملية إضافية. ها أنذا أشاهدكم . . رفعت يدي تحية وأنا أشرب كأساً من المياه المعدنية الباردة.

كانت محادثات صدام ـ «بيريز» على انفراد هي الموضوع الرئيس الذي يتصدّر الأخبار. لكن العراقيين لم يسمحوا بالتغطية الإعلامية لها . . فأصبح أملنا على الأكثر هو بيان يصدر في المطار عند رحيل السكرتير العام في اليوم التالي، وكان لـ «بيرني» و«لي» موعد لمقابلة ناجي وربما الوزير جاسم . . لبحث وتأكيد تفصيلات المقابلة، عند نقطة معيّنة استدعي «بيتر» إلى الوزراة ـ لتبدو بادرة شخصية . . للسلام والتحية.

قلت لهوليمان وأنا أدخل غرفة العمل: «لقد حضرت في وقت مبكر . . ما الذي يجري؟».

قال موضحـاً: «أخيراً أوضحـوا الـوقت المحـدد لانتهاء المهلة» . . وبعد أن راجع مفكرته مرتين . . قال: «إنه عند منتصف ليلة ١٥/كانون الثاني بتوقيت نيويورك، أي الساعة الثامنة صباحاً يوم (١٦) بتوقيت بغداد».

قلت ساخراً: «إذن نتوقع وصول الطائرات الساعة ٨,٠١».

قال ضاحكاً: «أعتقد ذلك . . اقترب الموعد؟».

بعد ذلك بدقائق انضم إلينا «بيتر» وطلب الإفطار. وسأل «جون» «آرنت» هل يوافق على أن يحـل محله على الجهـاز لبث نشـرة الصباح «مؤتمر الأزمة» . . لكن بيتر رفض. ابتسم وقال: «أعطوني وقتاً لاحق . . ربما أستطيع أن أؤدّيها في المرة التالية».

قالت أنغريد وهي تدخل غرفة العمل: «صباح الخير يا أولاد!».

حيّيت قائلاً: «أهلاً عزيزتي» . . وغمزت بعيني وسألتها: «كيف (. . . !!)». ورأيت «بيتر» يغمز غمزتين . .

ضحكت أنغريد وقالت: «إن!! (. . .) ملتهب».

واصلت: «ملتهب جداً؟».

ضجّ بيتر ضاحكاً: «الآن أدركت لماذا جئتما إلى بغداد؟ ماذا عندكما؟».

صاح بيتر: «أحب ذلك».

ردّت أنغريد: «لا تحبها كثيراً . . إنها لم تعد أيام حرب».

بعد الإفطار خرجت «أنغريد» لشراء بعض المواد التموينية. وحيث أننا نتوقع الأسوأ حرصنا على تخزين أكبر قدر ممكن من المياه المعدنية والمعلّبات، وشاركها «بيتر» في الخروج للبحث عن المواد في السوق. إن هٰذه الجولة ستعطيه الفرصة الأولى للاطلاع على المدينة. كنت أستمع

بينما «جون» يواصل بث رسالته «مؤتمر الأزمة» التي كانت ضمن الأخبار الرئيسة . . خطرت أسئلة عادية عن البرنـامـج «خلف خطوط النـار». بالـطبـع هٰذا المـوضـوع كان يثير فضول كثير من المشـاهـدين، لكن استفساراتهم كانت تنصب على بعض الموضوعات التي تمسّنا . . شعورنا الوطني . . أو نقصه عندنا . . بالإضافة إلى اهتماماتهم بسلامتنا . .

بينما كان «جون» يبث على الهواء مباشرة تلقّيت مكالمتين ـ كانت مفاجأة . . الأولى من أبو العباس الذي حدّد منتصف النهار لإجراء المقابلة معه ـ والثانية من منظمة التحرير الفلسطينية . . سألني المتحدّث . . هل ما زلت معنيّاً بمقابلة ياسر عرفات؟ لقد عاد الرئيس عرفات إلى بغداد ليلة أول أمس. وكـالمعتاد اتصلت تليفونيا بمكتب المنظمة بمجرد علمنا بوصوله، ولكن حتى تلك اللحظة لم نكن قد تلقّينا الرّد.

وحاولت أن أخفي شغفي بإتمام الإجراءات لمقابلة عرفات في فندق الرشيد مساءً، وأن يجلس في مقابلة «بيرني» لنقل المقابلة حية عبر الجهاز. وبعد أن انتهت المكالمة بدا أنه سيكون يوماً حاسماً.

قال نك وهو يساعد الحمّال في نقل جهاز الإنمرسات: «كانت هناك مشكلة في الجمارك، إنه ليس شيئاً خطيراً . . لكنهم رفعوا قطعة من الجهاز . . وأعتقد أنه لا يزال يعمل».

تألمت قائلاً: «إنه تصرّف أحمق . . لدينا إذن بإدخاله».

ناولني ورقة وقال: «نعم أعرف، فقد أعطاني صديق في الجمارك إيصالاً بذلك».

ـ «أنت تعرف أنه ليس مقبولاً» . . ورفعت الهاتف لأكلم سعدون . . «أريد هٰذه القطعة بأسرع ما يمكن».

اعتذر سعدون بشدّة لكنه أصرّ على أنه قد يكون مجرد سوء فهم وقال لي: ««روبرت»». أعدك أني سأهتم بالأمر . . سوف أحضر إلى الفندق لمحادثتك شخصياً» . . شكرته بأدب واحترام ثم أجريت مكالمة ثانية مع ناجي.

قلت: «أعرف أننا سنتقابل ثانية . . ولكن أريد أن أبحث موضوعاً الآن» . . ثم شرحت له أفكاري حول إحضار سيارة البث عبر الأقمار الصناعية . .

قال: «إنه اقتراح ممتاز، ومن حيث المبدأ لا توجد مشكلة، لكن أرجوك عدم فعل أي شيء حتى أعلم بصورة مؤكدة».

كنت أرغب في أن آخذ معي «جون» لرؤية أبي العباس، لكني لم أتمكن . . خلال اليومين الماضيين كنت أفكر في نقل الـ سي . إن . إن من فندق الرشيد إلى مكان آخر أكثر أمناً. ناقشنا

الخيار الأول وكـان السفـارة السـوفيتية، فرغم رحيل معـظم الدبلوماسيين فقد بقي عدد محدود بالسفـارة. قابلت دبلومـاسياً رفيّع المستوى لأقنعه، اتصلت شركة سي. إن. إن بفرع مكتبها في موسكو لعرض الموضوع على «بريماكوف» . . كانت عملية أخذ وجذب لكن الميزة الإضافية هي أن السفارة السوفيتية لن تكون هدفاً استراتيجياً، لكن الجانب السلبي هو عدم القدرة على استخدام جهاز البث (٤ أسلاك) لكن مما يخفف المشكلة هي وجود جهاز إنمرسات حيث يمكننا مواصلة البث الإذاعي، ولكن هناك سؤال أخلاقي: كمراسلين مستقلين كيف نقنع أنفسنا بالبحث عن موقع آمن لنا تحت حمـاية الجنـاح السوفيتي؟ حقيقة الأمر لم تكن هناك قوات سوفيتية ضمن قوات التحالف. لكن الاتحاد السوفيتي وقع بالموافقة على قرارات الأمم المتحدة ضد العراق . . وحيث أخذ الاتحاد السوفيتي هذا الموقف فيكون قد حدّد موقفه إلى جانب قوات التحالف [أن تواجدنا على أرض سوفيتية (السفارة) سيصبح مشكلة] ولم نتمكن من اتخاذ القرار، ووصلت الإجابة من الروس بالرفض.

إدعى السـوفييت أنـه لا يوجـد متّسع في السفارة ولا طاقم أفراد يستقبلنا ويؤدي الخدمات المطلوبة منا. ثم فكّرنا في الذهاب إلى فندق الشيراتون، حيث يوجد على الطرف الثاني من بغداد بعيداً عن القصر الجمهوري والوزارات الحسّاسة، لكنه لا يصلح للاحتماء به، ففي حال تعرض الجسور فوق نهر دجلة للقصف سنصبح معزولين . . إن استئجار غرفة في الشيراتون قد يوفر لنا إمكانية نصب كاميرا ثانية للتصوير. لكنني لا أريد بعثرة رجالي، ومن الأفضل أن نكون سوياً أينما ذهبنا أو حللنا.

رد صدام حسين على عرض حافظ الأسد بتقديم الدعم للعراق عسكرياً إذا انسحبت القوات العراقية من الكويت، وقد دعا صدام الرئيس السوري للوقوف مع العراق ضد قوات الشر. وقال: «إن محافظتنا التاسعة عشر ستكون أرض النزال» . . وقد وردت أقوال صدام عبر راديو بغداد وعبّر عن ثقته «بأن النصر سيكون حليف الأمة العربية» . . كما قال: «يملؤنا الفرح والسرور عندما يتسع جمع الإيمان والمخلصين وتتجمع الجماهير على الفضيلة» . .

وقال إن المسافة بين «تجمع المؤمنين وتجمّع الكفر تتّسع». وأعاد إلى ذاكرة المستمعين «أن الجهاد (الحرب المقدسة) واجب على كل مسلم».

كان تلفزيون العراق يواصل عرض صور المظاهرات التي عمّت العالم استنكاراً للحرب . . تلك المظاهرات التي جرت في لندن وبون وباريس والولايات المتحدة . . وقد ضمت المظاهرات عشرات الآلاف تأييداً للسلام. إن أصل هذه الصور معظمها من تصوير الـ سي. إن. إن، وتمّ استخدامها وبثها عدة مرات في تلك الليلة.

كانت الدنيا قد أظلمت عندما توجّهت ومعي «بيرني» إلى وزارة الثقافة وإعلام. وكالمعتاد مشينا دون أن يرافقنا أحد إلى داخل المبنى ثم أخذنا المصعد إلى الطابق السابع. قال ناجي وهو ينهض لمصافحتنا: «مساء الخير مستر «شو»، أهلاً «روبرت» كيف حالك؟».

- «جيد - سيد ناجي - لا زلت حياً».

قال مبتسماً: «نعم. لا زلت حياً..».

تبادل ناجي و«بيرني» التحيات وناقشنا تصويت الكونجرس والذي اعتبره ناجي تهديداً آخر. كان لديه القليل من المعلومات التي يمكن أن يقدمها عن لقاء صدام و«دي كويلار». (علمنا في وقت متأخّر فقط) أن الرئيس العراقي صب عليه ماءً بارداً، حيث قابل أولاً ياسر عرفات ثم «دانييل أورتيجا» وبعد ذلك الزعيم الاشتراكي الياباني «تاكاكو دوي». وأخبر ناجي «بيرني» أنه جاء إلى بغداد في أيام تاريخية، لكن لم يحدّد يوماً لمقابلة الرئيس واقترح علينا أولاً أن نرى الوزير جاسم نفسه.. ربما تكون عنده بعض الأخبار.

ركبنا ثلاثتنا المصعد إلى الطابق الأرضي ودخلنا بهواً ضخماً يؤدي إلى غرفة وكان خالياً إلا من لوحة جدارية ضخمة لصدام حسين ومقعدين كبيرين في الزاوية. على أحداهما يجلس الوزير لطيف نصيف جاسم وهو يلبس بالطو ثقيلاً أخضر اللون فوق الزي العسكري لأعضاء مجلس قيادة الثورة. كما هو دائماً كان رجال الحرس يقفون إلى جانبه. تولّى ناجي الترجمة عندما قدمت حديثاً قصيراً.. ثم قال جاسم لـ«بيرني» من المحتمل أن تكون المقابة يوم السادس عشر أو السابع عشر.. ليس قبل ذلك. وابتسم ثم قال: «لأن العراق مهتم بالأمر فإن يوم ١٥/كانون ثاني هو يوم مختلف عن باقي الأيام».

فجأة تحول جاسم نحوي وسألني باللغة الإنجليزية: «لماذا تبدو حزيناً يا «روبرت»». فاجأني السؤال لكن أجبته بصدق وبصورة مباشرة قدر الإمكان: «سيدي الوزير كما تعلم فإنني أكن كل محبة واحترام للشعب العراقي، ويؤلمني جداً ويحزنني أن كثيراً منهم.. كثيراً منهم سيموتون هنا إذا نشبت الحرب».

انحنى لطيف نصيف جاسم إلى الأمام ثم ركّز على عيني وقال: ««روبرت».. صديقي.. لا داعي لقلقك، لن تصل الطائرات الأميريكية إلى بغداد».

بعد ذلك عدنا إلى مقر العمل، وكنت بحاجة ماسة لأن أراجع عملي. بعد دقائق جاءني من منظمة التحرير الفلسطينية أحد الحراس الأمنيين وقال: «نحن من طرف الرئيس عرفات.. جئنا هنا لنبحث..».

قلت: «ستجري المقابلة هنا» . . وأشرت إلى حيث يوجد جهازنا للإرسال المزّود بأربعة أسلاك.

ـ «كـل هٰذه لـ سي . إن . إن؟» سأل رجال ثانٍ مشيراً إلى الغرف (٩٠٤، ٩٠٨) والتي تفتح أبوابها على الغرفة (٩٠٦) ـ وقد كانت كلها مفتوحة . . «أرجوك عندما يحضر الرئيس عرفات أن تغلق هٰذه الأبواب، فلا يدخل أو يخرج أحد».

قلت: «هٰذا الحّمام» . . وناديت الحارس الأول الذي أطل برأسه إلى داخله.

أصرّ قائلاً: «هٰذا الباب يغلق أيضاً» . . وأمضى الرجلان الآخران دقائق معدودة في فحص باقي الغرق . . ثم غادروا . .

اقترح مارك قائلاً: «ينبغي أن نضع هٰذا على الشريط، سأظل مركّزاً على عرفات، ويمكن أن نستخدم بعض المؤثّرات الصوتية».

قلت: «إنه شيء مناسب» . . وبدأ هو و «نك» يعدّان أجهزة التسجيل.

بعد ثلاثين دقيقة كان هناك حركة في الصالة . . أولاً الحرس ثم عرفات ومرافقوه . . اتجهوا إلى غرفة العمل. كانت هٰذه هي المرّة الأولى التي أقابل بها رئيس منظمة التحرير الفلسطينية والذي أصابني بالدهشة، كانت عيناه . . كانتا تلمعان ولهما بريق. ليس هناك وصف آخر لهما. كان يرتدي ملابسه المألوفة بلون أخضر زيتوني وعلى رأسه الكوفية بالألوان البيضاء والسوداء.

قال بحماس: «مرحباً» . . وصافحنا . . وأشرت إلى كرسي عرفات ليجلس بجوار «بيرني» وقلت: «هٰذا بثّ حي».

قال بيرني: «حقاً» . . وحرّك الجهاز ليكون أكثر قرباً منهما . . «سيرون صورتك الآن على الشاشة بينما نحن نتحدث عبر هٰذا الخط».

قال عرفات لبيرني إنه لا يعتقد بنشوب الحرب . . «سترى» . . وابتسم وهو يهز رأسه تأكيداً لكلامه . . سأكون هنا في بغداد يوم الخامس عشر». ثم كرّر دعوته للحاجة إلى عقد مؤتمر دولي خاص بالشرق الأوسط ثم أثنى على جهود صدام حسين لدعمه ومساندته.

ووجّه عرفات الّلوم إلى الولايات المتحدة وإسرائيل لأنهما تضيّعان الجهود المبذولة لتحقيق تسوية شاملة لمشاكل المنطقة. وقال إن تصويت الكونجرس أضرّ بجهود «دي كويلار» في مساعيه لتحقيق السلام. قال القليل من الكلام الجديد أو المفزع، باستثناء أنه على قناعة بأن المشاعر العدائية في النهاية يمكن تجنّبها.

بعد المقابلة سأل عرفات «هوليمان» أن يقفوا جميعاً لالتقاط صورة، وبعد لحظات غادر رئيس ظمة التحرير الفلسطينية وجماعته.

تمتمت أنغريد بعد أن عادت من المطار: «لقد فشلت في مقابلة عرفات».

عضضت على شفتي وقلت: «غير مهم هو . . المهم ماذا قال «دي كويلار»؟».

قالت بتجهّم: «لا تبدو الأمور جيدة» . . لقد صرّح بصورة مقصودة: «إن الله وحده يعلم إن نت الأمور ستتجه إلى الحرب أو إلى السلام» . . قالها قبل أن يستقلّ الطائرة، ومن نبرة صوته ضح أن مهمته فشلت تماماً.

كان «بيرني» يبث حيّاً بقية المساء إلى أن توقفنا الساعة الثانية صباحاً . . سهرنا سويّاً وتحدّثنا ل أن يعود ثانية. ثم جهّزت لنفسي شراباً ودخلت إلى غرفة العمل: «الطائرات الأمريكية لن تصل ى بغداد» لم أستطع إبعاد هٰذه العبارة عن عقلي . . «ألا يعتقد جاسم حقيقة في ذلك؟» . . كنت ى وشك النوم عندما عاد التلفزيون العراقي إلى البث فجأة.

كان صدام يعقد مؤتمراً صحيفاً مع الصحفيين العراقيين . . صرخت: ««هوليمان» من لا يزال ماً أو مستريحاً في غرفته؟» وأسرعت إلى غرفة العمل . . أُطلب علاء صرخت عندما دق جرس اتف . . كان المتحدث من غرفة مراقبة التلفزيون يخبرني أن اللقاء تم تسجيله قبل فترة وتم بثّه ردن، تحدّثت مع أتلانتا عبر جهازنا ونقلت لهم الأخبار . . بعد دقائق رجع «جون» ومعه علاء. ته هائجاً: «ماذا يقول رئيسك؟» . . بدأ علاء يترجم: «يبدو أن الولايات المتحدة تريد استخدام ا الامتياز غير الشرعي لتهز العصا الغليظة . . التي نجحت فيها مع شعوب أخرى . . وهي ـوّر نجاحها بنفس الطريقة . . عند استخدامها ضد الأمة العربية ومن بينها العراق».

سمعت صوتاً عبر الجهاز: «من أتلانتا إلى بغداد».

ـ «بغداد هنا».

ـ «نحن نراه في أتلانتا . . هل يمكن نقله حيّاً».

قلت: «استمر . . هٰذا هو «هوليمان» معك على الخط».

ـ «هٰـذا جون هوليمـان من بغداد . . إن ما ترونه من صور ولقاء لصدام الآن يتم بثه على يون العراق . . لقد علمنا أن هٰذا اللقاء عُقد في وقت سابق اليوم . . انتظر واسمع» . . وقام ن» بنقل الميكروفون ووضعه أمام علاء وثبته.

قال وهو يترجم: «إن طائراتنا قادرة على أن تضرب من مسافة بعيدة وتصيب أهدافها . . إذا

أرادوا الحرب فلا يستطيع طرف منعها . . لأن الأمور تكون قد وصلت نهايتها . . في جانب يقف العراق ومؤيدوه، وفي الجانب الآخر الولايات المتحدة وحلفاؤها . . «بوش» يتحدث عن الاستسلام . . استسلام العرب . . استسلام العراق . . إن زمن الاستسلام ولّى إلى الأبد . . إن الاستسلام لا وجود له في مفردات العراق».

كان علاء يتردّد سابقاً في الترجمة ولكن تركناه وحده يبث حياً وفي تتابع . . فأشار إلى «جون» أن يسلّمه الميكروفون في يده.

«لقد عرضنا على «بيريز دي كويلار» موقفنا . . وشرحنا جميع الأوجه السياسية والشرعية للمشكلات التي سبقت الثاني من آب وبعد ذلك التاريخ حتى اليوم شجّع العراق الأمين العام على الحضور والاستمرار في الحوار إذا كانت هناك رغبة في البحث عن وسائل سلميّة لحل الأزمة. على أي حال لا بدّ أن يكون معروفاً بأن السلام الذي ننشده هو سلام شامل وفي مقدمة ذلك حل المشكلة الفلسطينية».

قال صدام إنه واثق من النصر العراقي وإن التكنولوجيا الأمريكية لن تكون هي العامل الحاسم، وأضاف قائلاً إن المعارك الحقيقية يحسمها الجنود المشاة والدبابات وإن العراق سيخرج من هٰذا المعركة منتصراً لأنه يدافع عن أرضه. وعندما سئل هل سيقوم العراق بخطوة مفاجئة . . قال صدام: «لا . . نحن لسنا من ذلك النوع الذي يقوم بالمفاجآت أو يقدّم المبادرات تحت الضغط والتهديد . . نحن نريد السلام ونريد أيضاً فلسطين وليس لدينا شيء نقايض عليه . . نحن نريد كامل حقوقنا».

قلت لعلاء عندما انتهى اللقاء: «هٰذا رائع».

هلّل جون قائلاً: «هٰذا يستحقّ أن نشرب . .».

رفض علاء وقال: «لا . . يجب أن أعود لأنام».

- «أنا لن آخذ كلمة لا على أنها جواب . . لقد أدّيت عملاً ممتازاً ويجب أن نشجّع هٰذا التقليد» . . ووصلت إلى الشراب وأحضرت كأسين.

قال: «كأس واحدة» . . واستجاب . . «قليلاً جداً».

لوّح جون بالكأس: «إلى السيد علاء . . والعمل الرائع الذي تم».

كأس السيد علاء . . رنّت بصوتها «أنغريد» وقرعت الكأس. ونظرت إلى ساعتي. كانت الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم ١٤/كانون الثاني.

٢١

«أعتقد أنه اعتباراً من اليوم لم يبق مجال كبير للعمل الدبلوماسي» . . صرّح بذلك السكرتير العام للأمم المتحدة «بيريز دي كويلار» للمراسلين الصحفيين عند توقّفه في باريس، ليعرض نتائج مباحثاته على الرئيس الفرنسي «فرانسوا ميتران» . . وقال: «لسوء الحظ لا يوجد لدي سبب مقنع للتفاؤل . . ليس لدّي أمل . . لقد طار الأمل الذي كان عندي».

«سيء جداً . . فهو لم ينزع أي فتيل» . . قلت لـ «فيجنر» في أتلانتا وأنا أتلقّى صورة عن ملاحظاته.

راجعت قائمة الأشياء المطلوبة وأن أقلّب مفكرتي وملاحظاتي: تأشيرات خروج للجميع ـ توزيع النقود [عشرة آلاف لكل شخص] ـ بطاريات كهربائية يدوية ـ المسجلات ـ قطعة الإنمرسات. حزمة أغراض طوارىء لكل ملجأ ـ عند الضرورة أطلب ناجي ونزار.

طلبت عبر جهاز الإرسال ذي الأربعة خطوط «بيتر هومي» في عَمان، وبالرغم من أن «تريسي» حجزت على طائرة تجارية، لكن وجدنا أن إحضار طائرة مستأجرة سيكون أكثر أمناً.

قلت: «دعنا نخطط للسفر غداً الساعة (٨) صباحاً . . سألحق بها في المطار قبل ساعة» . .

وقال بيتر إنه سيهتم بكل شيء ثم يعود إليّ.

سأل برنت سادلر: «متى حصلت على صور لقاء صدام مع الصحفيين العراقيين؟ . . فقد حصلت لندن عليها بعدي». قاموا ببثها الليلة الماضية بعد الساعة الثانية صباحاً، لقد ترجمناه حياً.

تمتم: «يا للعنة، هل هناك مجال لإعادة التسجيل؟».

قلت: «بالتأكيد . . اتصل بـ «تريسي» عبر الباب التالي». إن «تريسي» قررت المغادرة، فقد أمضت وقتاً كثيراً وهي تتشاور مع «نك» و«مارك»، بالرغم من أنني لست متأكداً. فقد ساورني الشك أنها ربما تنصح صديقيها أن يفكرا مرتين فيما يقومان به من عمل. وكان «نك» قد حزم أمره وقرر المغادرة قبل انتهاء الوقت المحدد . . وقدّرت أن «مارك» بدأ يتردّد ويلّوح بالسفر . . لذلك قررت أن أتكلم معهما.

قال مارك: «الأمر هو أنني لم أحصل على زيادة راتب عندما رقوني في العمل من مهندس

صوت إلى مصوّر ثم انتقلت إلى برلين. ولا دايم (١/ ١٠ من الدولار) . . انظر إلى «A.B.C»، إنهم يدفعون إلى الفنيين (٣٥٠) دولاراً في اليوم الواحد زيادة للقيام بمثل هٰذه المهمة. لكني أنا، ماذا حصلّت من الـ سي. إن. إن؟ . . لا شيء ولا زيادة . . والآن يتوقّعون منّي أن أخاطر بحياتي».

قاطعته قائلًا: «لحظة من فضلك، أنت تجمع برتقالاً على تفاح . . الزيادة مسألة واحدة، كونك في بغداد شيء آخر. إذا أردت فأنا على استعداد لأكلّم «إيسون» . .».

ـ «إن الأمر سيساعد لو فعلت الشركة شيئاً».

ـ «لست متأكداً . . يمكن أن نتحدّث فيما بعد . . عندما تتلقّى أخباراً عن سيارة البث المباشر، لكني متّفقٌ مع «مارك»، سأشعر بالارتياح لو بدت من الشركة إشارة».

أخذ إيسون يئن: «شيءٌ محزن جداً . . هل تخبرني أنه مستعد لأن يخاطر بحياته مقابل (٣٥٠) دولاراً في اليوم الواحد؟ هل هٰذا ما يعتقد بأن حياته تساويه».

قلت: «إنه . . إنه مبدأ الشيء . . ولأخبرك الحقيقة . . هل هناك إشارة لزيارة مرتقبة . .».

رد إيسون بحدّة: «هٰذا موضوع منفصل» . . هٰذه الأشياء توحي مقدماً بأعمال سيئة لو دفعنا زيادة لـ«مارك» و«نك» . . فما موقف الناس الآخرين . . الذين يخاطرون بحياتهم أيضاً . . في السعودية على سبيل المثال؟».

ـ «أنا أفهم ذلك . . لكني أعتقد أن الوضع في بغداد مميز».

تنهد وقال: «نعم، ربما . . أوافقك، دعهما يذهبان ويتكلمان مع «توم» و«إد»».

عاد «إيسون» للتحدّث بعد ساعة . . وافقت أتلانتا على زيادة مرتّب «مارك» ودفع علاوة تشجيعية لـ «مارك» و «نك» عن كل يوم يقضيانه في بغداد بعد الخامس عشر (بعد انتهاء الحرب دفعت سي. إن. إن لكل شخص بقي في بغداد أثناء الحرب مكافأة بغداد الخاصة. وتعادل (٣) أضعاف راتبه أو راتبها عن كل يوم في العاصمة العراقية).

قال نك: «أشكرك وأقدّر جهودك في تلبية مطالبنا . . إنه دليل على اهتمام الشركة».

وقلت له ناصحاً ومعاتباً: «أرجوك أن تحتفظ بهذا لنفسك . . لدي الكثير للقيام به أفضل من بحث هٰذه المسائل بدون أن أتفاوض من أجل أي تعاقدات جديدة».

إن الاجتماع الخاص للمجلس الوطني العراقي جمّد أفكار كل واحد، إذ أن المجلس أعلن أنه تردّدت شائعات عن طرح مبادرة مفاجئة في اللحظة الأخيرة تُوقف الحرب . . وبعد أن سمعنا

آخر التفصيلات من صدام فإنه لا بد من التفكير، لكن بالنسبة لنا نحن الذين انحدرنا إلى درجة الصفر ـ كما يقولون ـ يظل فينا الأمل، أو نظل معلقين إلى الأبد بالأمل. والأمل هو جلسة المجلس الوطني.

تلاشى ذلك الأمل بعد لحظات من بدء الجلسة ـ صوت أعضاء المجلس الوطني الـ (٢٥٠) بالإجماع لخوض الحرب على الانسحاب من الكويت. وورد في القرار: «إن هٰذه مواجهة تاريخية، وإن العراق الصامد بزعامة الرئيس صدام حسين قرّر القتال . . وإن العراقيين سيحاربون بكل شجاعة وبسالة لينالوا شرف الشهادة أو يحققوا النصر. إن العدوان سيندحر بفضل اقتدار الجيش العراقي». ثم طلب رئيس المجلس الوطني سعدي مهدي صالح من الأعضاء أن يقسموا يمين الولاء للقائد صدام حسين «فارس الأمة العربية» . . وبعد ساعات أذاعت وكالة الأنباء العراقية أن صدام أصدر مرسوماً جمهورياً بإضافة عبارة (الله أكبر) إلى راية العلم الوطني.

كانت من أشد اللحظات الغريبة وأنا أشهد العد التنازلي في بغداد لموعد الأمم المتحدة النهائي. قال ناجي إنه على وشك الحصول على إذن بإحضار سيارة البث التلفزيوني المباشر المرتبط بالقمر الصناعي، وأكد لي إنه سيتلقى الرَّدَّ في الصباح، وكان يبدو مهتماً جداً بسفر الصحفيين الوشيك. وقال لي: «لا أفهم لماذا يريدون المغادرة. سنقدّم تقارير يوميّة عن الأحداث. وباستطاعة الناس تأدية أعمالهم».

قلت: «يبدو أن عامل الخوف الذي يلوح في الأفق أصبح له اعتباره، ربما يكون القصف شديداً».

ـ «وتلك هي الحرب . . ولكن ليس لدينا الآن خطّة لإجلاء سكان بغداد» . . قال وهو يمسك بورقة في يده . . «انظر هناك طلبات كثيرة من مراسلين يريدون تأشيرات دخول . . لم أسمع بإسمائهم من قبل . . من تايوان وتركيا وكوريا . . إنهم يريدون الحضور حتى لو غادر رجال الصحافة الغربية».

انقطع حديثنا بدخول اثنين من الصحفيين اليابانيين، وكلاهما تعرفت عليه حيث يعملان مع تلفزيون أساهي «Asahi».

قال ناجي وقد وقف محييا لهما: «تلقّيت دعوتكما الكريمة وقررت التلبية لحضور الاستقبال».

ومن خلال المعلومات التي جمعتها، بدا لي أنه ستكون هناك حفلة احتفاء بافتتاح مكتب في بغداد جديد لتلفزيون أساهي.

أوضح الياباني: «لهذا جئنا إلى هنا . . أرجوك أن تعذرني . . يجب أن نغادر بغداد، سنقيم الحفلة فيما بعد عندما تعود بعد انتهاء الحرب».

قال ناجي دون أن يبدو عليه التأثر: «هٰذا راجع لكم».

سألني وهو يوجّه الحديث لي: «اعذرني أرجوك، إن شركتنا أمرتنا بالمغادرة هل ستقوم الـ سي . إن . إن بالمغادرة؟».

أجبت: «نحن باقون» . . وكان لهذا أثر طيّب في نفس ناجي.

قال وقد هزّ يدي: «إذن، إلى اللقاء . . حظّاً سعيداً. إنني خائف جداً».

وبعد أن غادرا الغرفة التفتّ إلى ناجي قائلاً: «دعني أخبرك بأمانة وصدق إنني خائف جداً، إنني سأبذل قصارى جهدي لأساعدك في إنجاز عملك. أنت الآن لديك تليفون، وسيكون لديك حالاً سيارة بث مباشر، نحن عملنا كل ما في وسعنا من أجل الـ سي . إن . إن».

ـ «إني أقدّر ذلك. حقيقة . . لكن لا زلت بحاجة إلى تأشيرات خروج لجميع العاملين معي، هٰذا في حالة . . ».

قال ناجي: «قابل سعدون . . إنّه سيهتمّ بالأمر».

ضحكت وقبّلت «كريس كريز مانك».

قالت كريسي: «حسناً . . أعتقد أنه لن يحدث شيء ولمدة أسبوع على أقل تقدير، ولذا فقد قلت لنفسي: لماذا لا؟

ـ «إنني أشكرك على حضورك يا «كريسي»، وفي الواقع فقد فعلت ذلك، وآمل أن لا تكوني منزعجة لعدم سؤالك من قبل».

ـ «آه . . هٰذا حسنٌ، لا تقلق حول ذلك».

ـ «إذن، ماذا يحدث في عَمان؟».

ـ «نفس الشيء القديم . . ».

ـ «إمّا في اليوم السادس عشر أو السابع عشر على ما أعتقد . . ».

سألت باهتمام: «سوف لن نقوم بأعمال التحرير هنا . . آمل ذلك؟».

ضحكتُ وقلت: «كلا . . ».

عندما كان «جون» يبثّ رسالة المساء، نقل «بيتر» عدّة لقطات حيّة على جهازنا. اتّجهت و«بيرني» إلى وزارة الخارجية لمقابلة نزار. من اللحظة التي حيّانا فيها، بدا واضحاً أن حمدون

مرّت عليه أيام أحسن. وعلى غير عادته بدا مكتئباً. ثم قال: «تبدو الأمور كأني أشاهد فيلماً خيالياً. اعترف بعد أن سأله «بيرني» هل كان يتصور أن الأمور ستتطور إلى هٰذا الحد؟ وقال: «كل شيء غريب».

كالمعتاد كان التلفزيون في مكتبه على قنال الـ سي. إن. إن، وبعد أن تداولنا في أحداث اليوم، سألت نزار عن لقاء جنيف. قال: «من وجهة النظر الدبلوماسية فإن «بيكر» قد أدّى واجبه، لكن هٰذه لم تكن مفاوضات.. لقد سلّمنا إنذاراً».. وأضاف نزار بأن العراق يرغب في التفاوض إلى الآن.. كانت بغداد مستعدة لمناقشة كل المسائل.. كل المسائل.. كررها. ثم تبادلنا الحديث عن محمد المشاط سفير العراق في الأمم المتحدة، الذي قال عنه نزار بأن هناك ترتيب لأن يعود إلى بغداد، لقد طلبت الولايات المتحدة من العراق تخفيض بعثته الدبلوماسية إلى أربعة فقط. [أمضى المشاط فترة الحرب في فينا حيث ادعى أنه يرافق زوجته للعلاج لكن بعد ذلك طلب حق اللجوء السياسي إلى كندا].

وخلال المناقشة كان «بيرني» يسجّل الملاحظات، وطلب منه نزار أن ينسب الحديث إلى مسؤول عراقي كبير.

أوصلني «بيرني» إلى وزارة الإعلام قبل العودة إلى الفندق. وكنت بحاجة للحصول على تأشيرات الخروج من سعدون، والبحث في إمكانية الحصول على مولّد كهربائي. كما أننا لم نؤمن إعادة القطعة المفقودة من جهاز تليفون إنمرسات من الجمارك. في الوقت الذي عدت فيه إلى فندق الرشيد، كان «بيرني» على وشك الطيران، ثم أطلعني على تقريره المكتوب.. كان معظمه يستند على اللقاء مع حمدون، ثم جلس على الجهاز لبثّه.

ما حدث بعد ذلك كان دليلاً ليس على قوة الـ سي. إن. إن، ولكن كيف كان العالم لا زال متَشبّثاً ومستميتاً في الاعتقاد بوجود أمل لحل الأزمة سلمياً. رغم أن «بيرني» اقتبس بكل دقّة ملاحظات نزار حول رغبة العراق (لمناقشة كل المسائل) فقد قفزت سوق الأسهم إلى ارتفاع حاد، بعد أن فسّره الناس على أن العراق مستعد للانسحاب من الكويت ولم يُفد الأمر. وقد كان السبب هو أن أحد الكتّاب الاقتصاديين في سوق أسهم مؤشر «داو ـ جونز» أساء فهم تقرير «بيرني» ومرّره كنشرة إخبارية. في الحال ظهر «شو» على الهواء وأوضح ما يعنيه التقرير، لكنه كان غاضباً. وقال: «لقد استغرق مني هٰذا التقرير (٣٠) دقيقة لكني لست مسؤولاً لما يريد الناس أن يعتقدوه ويؤمنوا به».

قلت متعاطفاً: «أنا أسمعك وأقف إلى جانبك، لكن هٰذه اللغة الناعمة تأتي بنتائج أفضل من الشك».

وأجرينا بعض التعديلات على النص، وأعاد «بيرني» بثّه ثانية في اللقطة الحيّة التالية ونحّى المسألة جانباً.

قال بات تايلر: «توقفت لأقول إنه وقت طويل . . سأغادر في الصباح . .».

ـ «هل جميعكم ستغادرون؟».

ـ «أعتقد ذلك: مراسلو صحف: الواشنطن بوست، لوس انجيلوس تايمز، بالتيمور صن، وول ستريت جورنال . . أعتقد أن الديلي تلغراف قد غادرت بالفعل، وسمعت أنّ اليابانيين سيغادرون غداً».

قلت وأنا أشير إلى الغرفة عبر الصالة: «تلفزيون «A.M» أيضاً سيغادر . . ننوي أن نأخذ هذا الفراغ . . وهذا سيوفّر لنا وضع آلات تصوير على جانبي الفندق».

سأل: «معنى ذلك أنك باقٍ بكل تأكيد؟».

ـ «يبدو الأمر كذلك».

ثم سأل بيرني: «وأنت هل ستبقى؟».

أجاب بيرني: «نعم».

ـ «ماذا عن صدام؟ هل تعلم متى ستتم مقابلتك له؟».

ـ قلت بلا مبالاة: «لا أعلم على وجه التأكيد . . إننا لا زلنا ننتظر».

قبل أن أحوّل المكالمة على الجهاز ذي الأربع أسلاك بلحظات، ظهرت على الخط اللهجة الجنوبية التي ألفتها. صاح تيد:

«على قدر اهتمامي بكم، إنكم جميعاً أبطال . . أنتم أبطال لصمودكم حتى الآن . . خاصة الآن ونحن اليوم ١٥/كانون الثاني أين أنتم أنا فخور بكم».

وشكر «بيرني» «تيد» لمساندته له ووعده أن ينقل رأيه إلى باقي أفراد الفريق. ثم أعطاني الخط.

قلت وأنا أحاول أن أجعل صوتي غير مقصود في نبرته: «تحياتي يا «تيد»».

ـ «أنتم تقومون بعمل جهنمي يا «روبرت» تهانينا».

ـ «شكراً . . اعتقد أنه من المهم أننا هنا . .».

قاطعني: «يجب أن يكون هناك. نحن شبكة عالمية أيضا . . إذا كانت هناك فرصة للسلام . . شخصياً . . أقول إنني خائف إن الوقت أصبح متأخراً جداً بالنسبة لذلك . . لكن إذا

كانت لا زالت فرصة فهي ستمر عن طريقنا . . يا للمأساة، كلا الطرفين لا يتحدثان إلى بعضهما لكنهما يتحدثان لـ سي . إن . إن، نحن علينا مسؤولية كبرى».

اتفقت مع «تيد» على أن الموقف لا يبدو فيه أمل وأخبرته أننا مستعدون للأسوأ.

صاح وقال: «حسناً . . إحرصوا على تأدية العمل جيداً . . لكم الحظّ الأوفر».

تناولت و«بيرني» عشاءً خفيفاً قبل أن يقاطعنا أحد وسألته: «هل تحدثت مع «ليندا» اليوم؟».

- «كيف تسير أمورها؟».

- «جيداً . . لكن الأمر صعب».

- «أنت تعلم يا «بيرني» أنت رصيد قيّم لهذه الشركة. أنا مشغول بشيء يحدث وهو أن ننقطع هنا إذا قامت الحرب».

اعترف لي بصورة كئيبة محزنة وقال: «هٰذا هو ما يحدث معي».

- «أنت تعرف بأن مقابلة صدام شيء لا يقاوم، ربما يكون من أهم أعمال الشبكة أن نعيدك إلى واشنطن لتجلس في مكتب استقبال البث».

- «ربما . . لكن لا زالت هناك إمكانية لإجراء المقابلة».

- «أفهم ذلك . . لكن انظر . . الحقيقة أن «بيتر» يمكنه إجراء المقابلة، و«جون» يمكنه إجراء المقابلة. وأنا أيضاً يمكنني إجراؤها وبكل وضوح الأفضل أن تقوم أنت بها، ولكني مهتم بصورة مخيفة ألّا تنحشر وتحاصر هنا. إنها مغامرة». .

- «حسناً . . ربما أذكر ذلك لـ «تيد» رغم أن عندي شعور بما سيقوله».

حالاً قبل أن يبث «بيرني» رسالته الحيّة الأخيرة الساعة الرابعة صباحاً، دخلت «تريسي» وأخذت ترتجف طالبة مرافقتها إلى المطار . . رغم أنها أمضت الليلة وهي تودّع أصدقاءها ورغم أنه لا يبدو أنها شربت، لكنها لم تكن على ما يرام . . كانت تقف مضطربة وقلقة، وكانت تتلعثم ويرتجف كلامها.

سألتها: «حبيبتي . . ما الذي حدث؟ . .» وحاولت أن أطمئنها وأقوي عزيمتها . . «هل شربت شيئاً؟».

بكت وقالت: «إنني خائفة جداً . . لقد أخذت بعض المهدّئات، لكنها لم تفعل شيئاً» . . وسقطت على الكرسي . . كان واضحاً أنها ليست في حالة تسمح لها بركوب الطائرة.

قلت: «يا للمصيبة» وأخذتها إلى غرفة التحرير.

وقالت: «آه «ويني» . . لا أريدك أن تموت . . أرجوك . . أخرج من هنا، أنت مجنون . . لا أريدك أن تموت».

قلت لها: «أنا لن أموت وكذلك أنت لن تموتي . . من الأفضل أن تستريحي وتنامي».

وعـرضت عليهـا بإصـرار: «يمكنـك أن تستخدمي غرفتي» . . وساعدتها في الوصول إلى الصالة . . ثم انهارت على فراشي.

قالت وهي تهمهم: «إلى أين ستذهب؟ . . لا أريدك أن تخرج من الغرفة يا «ويني»» . . قلت لتريسي إنني أريد أن أتأكد من الطائرة المستأجرة . . وقبّلتها على جبهتها.

قلت: «ساكون قربك في الصالة . . كل شيء سيكون حسناً. حاولي أن تنامي».

سألني «بيرني» قبل أن يعود إلى غرفته: «هل هناك شيء أستطيع عمله؟ أي شيء على الإطلاق؟».

ـ «لا أعتقد ذلك . . إنها بحاجة للنوم . . سأكلم «هومي» عن الطائرة المستأجرة، لكني قلق من حيث الأحوال الجوية» . . وغطّت بغداد طبقة كثيفة من الضباب.

أصرّ بيرني في قوله: «حسناً . . ارجو أن تعلميني إذا غيّرت رأيك . . لا تتردد في إيقاظي».

قال السيد رعـد ممثل شركة الأجنحة العربية للطيران عندما كلّمت المطار: «ضباب كثيف جداً . . لا تستطيع الطائرة القدوم من عَمان، ربما خلال ساعات». لعنت في سرّي هٰذا الحظ السيء . . ثم تذكّرت أن «تريسي» أكّدت حجزها على الخطوط الجوية العراقية.

كانت طائرتهم جاهزة على أرض المطار، ومن المقرّر إقلاعها بعد قليل في الصباح، فكّرت في إيصال «تريسي» عندما دخلت «هيلينا سانت جيمس» منتجة برامج في شبكة سي. بي. إس. وتوقّفت في مقر عملنا. كان المفروض أن تطير على طائرتنا المستأجرة، ووعدت أن أوصلها إلى المطار.

وصـاحت عندما أخبرتها عن الضباب: «يا للمصيبة . . لا أحب أن تسير الأمور على هٰذا النحو . . أظن الأفضل أن أحاول السفر على طائرة الخطوط الجوية العراقية . . لديَّ حجز مسبق».

سألتهـا ونحن نخـطو باتجـاه غرفتي: «هـل يمكنـك مسـاعـدة «تريسي»؟ . . إنها بِحاجة للمساعدة» . . وحاولنا أن نوقظ «تريسي»، لكن ذلك كان مستحيلاً.

اعترضت هيلينا وقالت: «لا يمكنها السفر هكذا. إذا رأوها في المطار، فمن أول نظرة سيظنون أنها تتعاطى المخدرات . . لا أريد أن أخاطر . . أنا آسفه». وقالت بعصبية وهي تتأكد من الوقت: «لكن الأفضل أن أستقلّ سيارة تاكسي».

رجعت إلى مقر العمل وطلبت «هومي» . وقال «بيتر» إنه سيظلّ على اتصال مع الأجنحة العربية وسيعود إلينا عندما تحصل الطائرة المستأجرة على الإذن بالمغادرة. أرهقت تماماً. وظللت أعمل طوال الليل وحتى الآن لا يوجد شيء أكثر أستطيع عمله، وتلاشت أعصابي وانهارت . . رجعت إلى غرفتي . . ثم ضبطت ساعة المنبّه ليضرب جرسها بعدّ ساعة. ثم نمت إلى جوار «تريسي».

قلت لأنغريد عندما انضمت إلي لتشاركني الإفطار: «لدينا مشكلة . . هل يمكنك اصطحاب «تريسي» إلى المطار؟ يقول «بيتر» إن الطائرة ستصل الساعة العاشرة. عليّ أن أقابل ناجي». ودعا راديو بغداد العراقيين للخروج إلى الشوارع لإظهار التأييد لصدام حسين.

في هذه الأثناء بدأت «تريسي» بنقل المؤن إلى الغرفة (٩٠٥) التي تطل مباشرة على الصالة . . إن الغرفة التي أخلاها تلفزيون «A.M» توفّر لنا رؤية موقع المدفعية المضادة للطائرات بصورة جيدة، وكذلك السطح المجاور.

قالت كريس: «لقد وضعت جميع الطعام والماء هنا . . من الأفضل أن نحفظه في مكان واحد».

قال مارك: «سأبدأ بتوزيع ماء الشرب . . أعتقد أنه من الأفضل لكل شخص أن يحتفظ بصندوق في غرفته» . . ثم نزل الدرج ليستعير عربة من الحمّال.

استمر «نِك» دون خبرة سابقة في إصلاح جهاز إنمرسات الذي جرّبناه بنجاح مساء أمس، وجاء إثنان من موظفي مركز الاتصالات للاطلاع على هذا الجهاز الغربي المتقدم تكنولوجيا والذي لم يسبق لهما الاطلاع على مثله وغادرا المكان مرتاحين. استمر «جون» و«بيتر» في العمل على جهازنا ذي الأربعة خطوط وباقي عملنا، بينما رجعت إلى غرفتي لأخذ حمّاماً وأبدل ملابسي. وبقي على الانتهاء للإنذار أقل من (٢٤) ساعة فقط.

وبقينا خلال اليوم ملتفّين حول جهاز الاستقبال بينما تواصل أتلانتا تزويدنا بآخر التطورات. وآخر دفعة من النشاط الدبلوماسي تمثلت في الجهود الفرنسية التي فشلت، حيث أعلنت باريس أن وقت المحادثات قد انتهى. وفي واشنطن تمّ وصف الرئيس «بوش» بأنه جاد ويطيل التفكير في الأمر. أفاد مراسلنا في البيت الأبيض «شارلز بيربور» أن الرئيس أمضى وقته يتجوّل في حديقة المنزل حتى الفجر . . ثم التقى مع كبار المستشارين «ويمكنني القول إن الرئيس «بوش» راضٍ عن نفسه، وأنه على استعداد لاتخاذ القرارات الحاسمة إذا لزم الأمر». هذا ما نقله «شارلز» عن المتحدث باسم البيت الأبيض «مارلين فيتزووتر». كما قال البيت الأبيض إن العمل العسكري سيكون من الأفضل القيام به على وجه السرعة. في عَمان أعلن الملك حسين بحزن في نفس الوقت أن الحرب قائمة لا محالة، وقال إنها ستؤدي إلى كارثة مروّعة.

وبالطبع، كنا نتابع أخبار بغداد أولاً وهم يهتفون: الكويت لنا . . الهزيمة لـ «بوش» المجرم. في نشرة أخبار المساء عرض التلفزيون العراقي جانباً من المتظاهرين وهم يحرقون الأعلام الأمريكية، وأخذ المذيع يعدّد أسماء المدن والمحافظات التي جرت فيها المظاهرات. بغداد نفسها أحيت «ليلة التحدي» بحفلات اشترك فيها العراقيون وهم ينشدون الأغاني الوطنية، ويمدحون الرئيس العراقي. وتواصلت حفلات الرقص حتى الصباح ومن مفردات الأغاني «أنت رمز قوتنا وتحدّينا» . . كانت هٰذه الأغاني هي التي تردد على (مسرح بابل) . . وقد كان رسم الدخول للذين يسهرون فيه يدفعون ما قيمته ستون دولاراً.

لم يكن العراقيون وحدهم الذين يحتفلون في ذلك اليوم. فبعد خمسة شهور من وصولي لبغداد، وقبل ساعات فقط من انتهاء مهلة الإنذار الدولي تلقت الـ سي. إن. إن التصريح بإحضار سيارة البث المباشر . .

قال ناجي: «آسف لطول فترة الحصول على الإذن» لقد كنا مشغولين جداً.

قلت بعفوية: «لا توجد مشكلة» . . محاولاً أن أخفي حماسي قبل أن أضع التليفون.

قلت لنفسي . . وهكذا نجحنا في سعينا . . قفزت إلى غرفة العمل وجلست خلف جهاز البث (ذي الأربعة خطوط) وتحدثت مع «إيسون» و «بيتر هومي».

صحت: «لا زلت بحاجة إلى المولد الكهربائي . . «هوليمان» ليس قوياً بما فيه الكفاية لتشغيل سيارة البث المباشر. على أي حال، هل كل شيء جاهز بالنسبة للطائرة؟». وكانت معدات سيارة البث المباشر قد شحنت في (٢٠) صندوقاً منفردة».

قال بيتر: «أظن أننا بحاجة إلى رحلتين».

قلت: «دقّق الأمر ثمّ أخبرني . . علينا أن نحضرها غداً».

كانت تغطية الـ سي. إن. إن الخاصّة عن العد التنازلي لانتهاء مهلة الإنذار شيئاً غير عاديٍّ عبر رسالة تلفزيونية. كانت مصادر الشبكة تعمل في حالة طوارىء في شتّى أنحاء المعمورة؛ من الولايات المتحدة إلى الشرق الأوسط إلى أوروبا إلى الاتحاد السوفيتي وإلى آسيا، بالتغطية الحية وعبر التقارير المصورة، والمقابلات والتحليلات والبيانات الرسمية ورد فعل الشارع، استحوذت الشبكة على الجو العام والوقت بكل دقّة وإتقان.

كان وصول الـ سي. إن. إن إلى كل المصادر مؤثّراً ومميزاً . . ولكن كنت أعرف أن هناك موعداً واحداً ومقراً واحداً عليه الاعتماد والمعول . . فعندما يلفت مركز الإرسال الرئيس أنظار والمشاهدين بعبارته: «ننتقل بكم الآن لنقل رسالة حيّة من بغداد مع مراسل الـ سي. إن. إن في بغداد «برنارد

شو» أشعر أنني أعيش . .

قال بيرني محـدّثاً لاري كنج قبل (٣) ساعات فقط من انتهاء مهلة الإنذار: «لا أعتقد أن الحرب ستنشب» . . «كنت متردّداً في التعبير عن وجهة نظري الشخصية حول الأزمة. كنت أتجنّب أن أناقض تقاريري التي أبثها بوجهة نظري الشخصية . . لكنني الآن قرّرت أن انتهز الفرصة لأعبر عن بعض الأفكار، والسبب هو عبارة (لا أعتقد أن الحرب ستنشب) . . وانطباعاتي عن صدام حسين» .

وقـال بيرني كذلـك: «إنَّ صدام حسين ليس بالرجـل الذي يدمّر ما بناه جهد وجدّ وعمل دؤوب . . هٰذا الرجل يطمح لأن يكون زعيم العرب . . إنه يريد أن يرى العراق القوة المؤثّرة في المنطقة. لو أغفلت نوع السلاح الذي حشد جنوب الكويت، فإنك تخاطر بالتدمير . . هٰذا ما قالته الولايات المتحدة للحكومة العراقية مرّات ومرات. المشكلة أن الأمور تعرض هنا من جانب واحد، والتوقّع المحتمل في هٰذه الحالة أن تكون محكوماً لهذا العرض. والإدراك السائد هنا يقوم على ملاحظة السياسة المزدوجة التي تتبعها الإدارة الأمريكية نحو إسرائيل . . ها قد حان الوقت . . وسوف نرى . . هل أنا متفائل؟ نعم أنا متفائل» .

بعـد أن أمضيت الليل مستيقـظاً استمع إلى «بيرني» وهو يبعث بالأخبار والحالة العامة في العاصمة العراقية . . اقترب موعد الإنذار النهائي من الساعة الثامنة صباحاً. بدا كل شيء في جو غير ملائم. وحملقت من النافذة . . كانت العاصمة لا زال يغطيها الضباب، بينما الناس يملأون الشوارع، خرج «آرنت» وباقي الطاقم ليصوّروا بعض المشاهد على جهاز فيديو تيب لبثّها عبر نشرة الصباح. وبعد أن تحوّلت الأمور. كانت هي اللقطات الأخيرة التي أمكننا تصويرها لعدّة أيام قادمة.

بينما كان «بيرني» بدون فائدة يحاول أن يغفو قليلاً . . حل «جون» محلّه ليصبح رسمياً رئيس النَّـوبة هبطت الدرج لإحضار صحيفة «بغداد أوبزيرفر». كان لدي توقع بصورة متوسطة أن أرى العنـاوين الصارخة حول انتهاء مهلة الإنذار، لكني تذكّرت قول الوزير جاسم عن يوم الخامس عشر، إنه يوم يختلف عن باقي أيام السنة. وكالمعتاد كانت صورة صدام تتصدّر الصفحة الأولى، لكن لم يكن هناك شيء بتاريخ ١٦/كانون الثاني/١٩٩١، الطبعة التاريخية لهذا اليوم. كانت العناوين الرئيسة للصحيفة:

مظاهرات الاحتجاج ضد الولايات المتحدة تجتاح العراق ـ الوثائق تثبت أن السعوديين كانوا يعارضون سياسة آل الصباح النفطية ـ البرازيل تحذّر من عواقب حرب الخليج ـ اغتيال (٣) زعماء فلسطينيين في تونس ـ اليمنيون يطالبون العراق بتحرير فلسطين ـ موجة استنكار الحرب تعمّ العالم.

كان المقال الافتتاحي: مسألة مبدأ وليس سياسة . . الرئيس الأمريكي بوش يقول: «إن مبادرة السلام يجب أن تأتي من جانب العراق» . . «يبدو أن سياسة العصا الغليظة استحوذت على تفكير «بوش» فلم يدرك حقيقة أنه لا العراق ولا العرب سيخضعون للتهديد الأمريكي . . لأن ذلك انتهى إلى الأبد. هناك فجوة كبيرة بين الأعمال القائمة على المبادىء والأعمال التي تحكمها السياسة الضيقة التي تتحكّم فيها المصالح . . للأسف فإن «بوش» يبدو غير قادر على تمييز الآراء عن كيفية معالجته للأمور باعتباره القوة الوحيدة بين القوى العظمى في العالم».

وللذكرى، فقد قامت الأوبزيرفر على الصفحة الخامسة برصد القطع الموسيقية المشهورة طبعاً لأحسن عشرين أغنية. كانت الأكثر شهرة والأولى هي أغنية «مادونا»: «كن عادلاً في حبي».

يقول هومي: «هناك مشكلة طارئة بخصوص الضمان وحق الإنزال . . هٰذا ما نقلته إلى «هوليمان» . . «ونظن أن الأمور ستسوّى مع نهاية هٰذا اليوم. لكن من المحتمل ألّا نستلم سيارة البث المباشر قبل غد» . . مع انتهاء مهمة الإنذار فإن رسوم التأمين (الضمان) للرحلات المستأجرة، وفي الحقيقة جميع أجور الطيران الخاص والتجاري قد ارتفعت بشكل هائل، وهناك إمكانية مؤكّدة أن تدفع الشبكة فاتورة بمبلغ (١,٥) مليون دولار للحصول على الطائرة . .

ـ «الدجاج يلتقط غذاءه» . . قلت ضاحكاً لـ «أنغريد» تعليقاً على أسعار الأجور «إن مسألة سفرك أكبر من ذلك».

طلبت ناجي تليفونياً لأسئله بخصوص مقابلة «بيرني» مع صدام حسين. نحن نأمل أن تتم خلال ساعات. قال لي: «أخشى أنها غير ممكنة اليوم، عليك أن تكلّمني غداً» . . كان «بيرني» غير قادر على النوم، لذلك أخذ يتطوّح ويتدحرج إلى مقر العمل كل نصف ساعة وهو يلبس بيجامته القرمزية اللون ـ كريستيان ديور. كنا نشد أزر بعضنا البعض ونحن ننتظر توقيت المقابلة . . عندما أطلّ علينا «إيسون» عبر جهاز الاستقبال ذي الأربعة خطوط ليقول:

«ألحّ «فيتزووتر» على خروج جميع الصحفيين حالاً . . وقال إنه يضايقه رؤية زملائه يبثّون للتلفزيون من بغداد. حتى إنه قال: «كان الله معكم».

الجزء السادس

١٦ ـ كانون الثاني ـ ١٩٩١ ـ ٢٣ ـ كانون الثاني ـ ١٩٩١

٢٢

كنت موجودا أنا و«بيرني» فقط في مكان العمل عندما شاهدت وهجاً أحمر اللون، وأعقبه انفجار مفاجىء في السماء خلف البرج الواقع في منتزه الزوارق والذي كنا ندعوه (الفطر العملاق). أدركت أن الحرب قد بدأت ولكني لم أتقبل هٰذه الحقيقة لأوّل وهلة ولمدّة لم تدم سوى جزءاً لا يتجزأ من الثانية، فقد ظننت أنه مجرد تدريب ليس إلا. وبعد ذلك مباشرة، فتحت بطاريات المدافع المضادّة للطائرات نيرانها من على أسطح الأبنية المحيطة بالفندق، مالئة السماء بحاجز من نيران المدافع ذات الضوء الأبيض الوهاج، ولم يبق أدنى شك بأنها الحرب المنتظرة. وتوالت الانفجارات والأضواء اللامعة المتوهجة من الألوان البيضاء والحمراء والخضراء والتقت عيناي بعيني «بيرني» برهة، ثم اندفع كلانا إلى جهاز الخط الرباعي.

وصاح بيرني: ««بيرني شو» يتكلم، هناك شيء ما يحدث في الخارج»، وتمنيّت من أعماقي أن يسمعنا مكتب أتلانتا.

وتناهى إلى سمعي أصوات صرخات آتية من الممر حيث خرج نزلاء الفندق من غرفهم مندفعين بذعر ورعب إلى مكان السلم. وخفّضت رأسي منحنياً عندما دوّى في الغرفة صوت متواصل لأحد المدافع المضادّة للطائرات، وتملّكني خوف شديدٌ من أن يصيب المدفع المنصوب على سطح البناية المجاورة مكان العمل المتواجدين فيه. وأخذ صدري يتحرك صعوداً وهبوطاً وشعرت بصعوبة في التنفّس من فرط الخوف.. ولمحت «مارك» خلفي وهو يدبُّ على الأرض بحذرٍ باتجاه آلة التصوير، وكان «بيتر آرنت» خلفه.

صاح بيرني بصوتٍ مرتعشٍ: «إنضمَّ إليّ يا «بيتر آرنت». لنبدأ في وصف ما نشاهده لمشاهدي شبكتنا.. سماء بغداد متلألئة متوهجة.. وإننا نرى لمعاناً وأضواء برّاقة في كل مكانٍ من السماء.. «بيتر»..».

بيتر: «حسن. إن نيران المدافع المضادة للطائرات ترتفع عالياً في السماء.. وعلى أية حال، فنحن لم نسمع صوت القنابل السّاقطة لكن هناك وميض هائلٌ في السماء، وله مظهر يشبه وميض البرق. تحدّث يا «بيرني»».

بيرني: «يساورني شعور بأن العراقيين يطلقون نيران مدافعهم باتجاه السماء من دون أن يعرفوا أو يروا ماذا يوجد في السماء. هٰذا شيء غير طبيعي وغريب. إن الأنوار ما تزال مضاءة، وجميع أنوار الشوارع في مركز المدينة ما تزال مضاءة.. هناك انفجارات في السماء تشبه النجوم. نعم يا «بيتر»».

بيتر: «الآن تطلق صفارات الإنذار دويّها.. أطفىء الأنوار».. وصرخ «بيتر» في وجه «كريزمانك». وأضاف بصوت هادىء: «نحن نقوم بإطفاء الأنوار في الفندق الذي نتواجد فيه، بينما لا تزال أنوار الشوارع مضاءة، وإطلاق النار مستمر وصفارات الإنذار تدوّي».

وسلّم «بيتر» الميكروفون إلى «هوليمان» الذي دخل الغرفة راكضاً.

هوليمان: «مساء الخير يا سادة.. أو صباح الخير» وتحدّث وكأنه جالس أمام شرفته وليس في منطقة وبؤرة الخطر. «لا أستطيع رؤية أية طائرة في السماء.. وهناك كمٌّ هائل من القذائف الخطّاطة ترتفع إلى السماء، ولكن لا توجد طائرات إلى هٰذه اللحظة..».

وانقطعت الكهرباء فجأة غامرة الفندق بظلام دامس وصرخت عالياً: «لقد توقّف جهاز الخط الرباعي، توقف الخط الرباعي»، وانطفأ الضوء الأصفر الصغير أيضاً من على الجهاز، وأضفت: «صل الجهاز بالبطارية بسرعة، هيّا».

وصاح جون هوليمان بينما كان يتلمّس طريقه في الغرفة المظلمة: «أين البطارية؟». واستغرقنا مدة قصيرة في وصل البطارية، وهز الفندق انفجار كبير، صرخ جون على إثره: «يا للهول.. كان ذلك انفجار ضخم لقنبلة وهي في الهواء.. لقد أنار السماء».

وقاطعه بيتر معلقاً: «وأظنّ يا «جون» أن ذلك الانفجار قد دمّر مركز الاتصالات. بإمكانك الآن سماع انفجارات القنابل. إذا كنتم ما تزالون معنا أعزائي المشاهدين، فيمكنكم سماع انفجارات القنابل الآن، إنها تضرب مركز مدينة بغداد».

كانت الانفجارات تصمُّ الآذان. وزحفت قريباً من النافذة لأحصل على رؤية أفضل، ولكنّي كنت أتراجع في كل مرة يتردّد فيها في الهواء صوت انفجار مكتوم. وأخرجت آلة تسجيلي وبدأت أتحدّث مسجّلاً ما يدور حولي، ذلك أني لم أكن أعلم إلى متى سيظلّ الخط الرباعي يعمل وبدأت أسجّل بصوت لاهث: «هٰذا «روبرت وينر» يتحدث إليكم من بغداد.. لقد بدأ الهجوم. إن السماء ملأى بالقذائف الخطّاطة التي تنير الليل. هناك عدد هائل من المدافع المضادّة للطائرات والمدافع الرشّاشة تطلق نيرانها. وقد نصح البيت الأبيض المراسلين في وقت سابق من هٰذا اليوم بأن يغادروا العاصمة بغداد، وشعر العديد من المراسلين أن أمامهم متّسع من الوقت حتى

يغادروها . . ولكن في الواقع لم يحدث ذلك ولم يغادروها. ينتشر الآن في أرجاء السماء وميض ولمعان، وهي صورة معكوسة تماماً لما حصل في الرابع من شهر تموز . . » .

نظرت إلى موقع العمل فرأيت «هوليمان» و«آرنت» جاثمين على الأرض وهما يحدّقان من خلال النافذة. وتساءلت عن مكان بقية أعضاء الفريق. إن كان ينبغي عليّ تفقّدهم والاطمئنان عليهم. زحفت على يدي وركبتي حتى وصلت الممر ثم اندفعت راكضاً باتجاه المصعد وحانياً جسمي إلى الأمام، ووجدت «بيرني» عند المصعد وحقيبة يده إلى جانبه.

اعتذرت له قائلاً: «آسف جداً يا صديقي، أنا في الحقيقة آسف»، ذلك أن أسوأ مخاوفي من ترك «بيرني» في بغداد قد تحققت آنذاك.

أجاب بيرني بشيء من الامتعاض: «هٰذا ليس خطأك. يجب علينا البحث عن ملجأ نحتمي فيه».

كان هناك مصعد واحد فقط لا يزال يعمل من بين بقيّة المصاعد، وحذّرته بالرغم من ذلك ذاكراً: «يجب عدم استخدام المصاعد. سنكون في أمان أكثر إذا ما استخدمنا السلالم». وهبطنا من الدور التاسع ثم توقّفنا في ردهة الفندق. كانت الأنوار جميعها مطفأة، وقال أحد العراقيين مشيراً إلينا بمشعله الكهربائي اليدوي: «إنزلا إلى الأسفل».

كانت الملاجىء تغصُّ بالنّاس، فقد وجد مئات من الناس ملاذاً أميناً لهم في الدّور السّفلي الغائر في الأرض: نزلاء الفندق، والصحفيون، والعاملون في فندق الرشيد مع عائلاتهم، وموظفو وزارة الثقافة والإعلام، وأفراد من الميليشيا [الجيش الشعبي]، وأعضاء من فريق السلام (السلام في الخليج)، وعدد قليل من دبلوماسيي دول من العالم الثالث، وناس آخرون، دخلت الملجأ مع «بيرني» بحذرٍ شديد متلمّسين درجات السّلم، ووجدنا هناك «أنغريد» و«مارك» و«كريسي» و «نِك».

مشينا على رؤوس أصابعنا متجاوزين عشرات الأشخاص المتمدّدين على الأرض، واندهشت من هٰذا المشهد الغريب. وصالح مارك: «تعالا إلى هنا، لقد حجزنا لكما مكاناً».

نظرت أنغريد إليّ وهزّت رأسها، إذ كانت مكتئبة، وقالت: «أنا لا أُصدّق ما يحصل، الحقيقة أني لا أصدّق ما يحصل».

سألت نك الذي كان وجهه ممتقعاً كصحيفة من الورق الأبيض: «هل أنت بخير؟».

نك: «لم أشاهد في حياتي ما أشاهدته اليوم. آمل الا أكرر ما فعلته إذ لم أغادر بغداد».

أجبت: «أعتقد أنّنا سنظلّ نشاهده لفترة من الزمن، غير أننا في أمانٍ هنا».
وشعرت بحاجة إلى التدخين فنهضت على رجلي وغادرت غرفة الملجأ.

بعد أن رجعت من تجوالي في أنحاء الدور السفلي، كان «بيرني» قد غادر الملجأ. وقال مارك: «أظنه عاد إلى مكان العمل في الأعلى». وشرعت أرتقي السلم عائداً إلى مكان العمل ومعتقداً أن الغارة ربما تكون قد انتهت، ولكن ما إن وصلت الدور الثالث حتى دوت من جديد انفجارات القنابل وأصوات المدافع المضادّة للطائرات، واستمرّت هكذا في عنف شديد. زحفت إلى الطابق التاسع وأخذت أدبُّ في الممر الذي كان خالياً، ثم وصلت إلى مكان العمل. وبدا الضجيج والانفجارات أكثر قوّة وعنفاً مما كان سابقا، ووجدت هناك «بيرني» و«جون» و«بيتر» متجمّعين حول الخط الرباعي، وهم ينقلون على الهواء مباشرة ما يرونه بأعينهم، ويتبادلون الميكروفون فيما بينهم. وبدأت أشعر بعد عشرة دقائق أنه لا فائدة من البقاء هناك وأنا أراقبهم يتحدثون، ورغبت في الخروج من الفندق وتسجيل تقارير إخبارية بنفسي، ولكن ذلك بالكاد بدا ضرورياً، فقد وصف «ديفيد فرينش» من أتلانتا «بيرني» و«جون» و«بيتر» بأنهم مجموعة ممتازة ورائعة في عملها، وأطلق عليهم اسم (صبية بغداد)، ولهذا السبب ارتأيت أنّ إخراج التقارير لوحدي سيكون غير مناسب وفجّ، أما إشتراكنا فيها سويّاً فسيخلق جواً من الخوف المطلوب، ويقدّم حقائق أكثر، ويأتي بالإثارة المرجوّة، وسيتمّ نقل كل هٰذه الأمور إلى مشاهدي شبكتنا. وهكذا، زحفت خارجاً من الغرفة وعدت أدراجي إلى الملجأ.

ما إن وصلت إلى الدّور السّفلي حتى أدركت أنّني قد ارتكبت خطأ. كانت أبواب الملاجىء آنذاك تحت حماية عراقيين مسلّحين لم أشاهدهم من قبل، ولم يسمحوا لأحد بمغادرة الملجأ. وصرخ أحدهم في وجه مراسل بريطاني يحمل آلة تصوير قائلاً: «هٰذا الإجراء من أجل سلامتك». ودفعني ببندقيته الرشّاشة قائلاً: «أنت، ابتعد عن الباب». ورجعت إلى الوراء بصورة غريزية لأن الحراس كانوا في حالة يستحيل معها مناقشتهم والتّفاهم معهم حول خروجي. ورجعت إلى الملجأ وحاولت الاسترخاء والهدوء.

فكرت بـ «إيلين» وتساءلت في نفسي عمّا كانت تقاسيه آنذاك بسبب وجودي في بغداد. وكنت قلقاً أيضاً على والديَ، فأبي لم يكن بصحّة جيّدة، ولا يعلم إلا الله أن أمرى كان يشكل عبئاً عليه ويزيد من مرضه. وكنت أخرج إلى الدّور السّفلي كل بضعة دقائق من أجل تدخين سيجارة حيث استطعت أحياناً سماع الصَّوت المكتوم للقنابل وهي تسقط من الجو. وأخذ العديد من الأشخاص في الملجأ ينامون ويغفون لفترات قصيرة، ومن بينهم زملائي. أمّا أنا فكنت متوتّراً ومتعب الأعصاب بحيث لم أستطع أن أخلد إلى الرّاحة. وشعرت بذنبٍ وبشيءٍ من الحمق، لأنني لم أنضم إلى

«بيرني» و«جون» و«بيتر» في الدّور التاسع فوق. وطفت حول الدّور السّفلي محاولاً العثور على أيٍّ منفذ إلى الخارج، ولكن المخارج كانت كلها محروسة بحرّاس يحملون البنادق. وتجمّعت في نهاية الممر أعداد من المراسلين الصحفيين ليستمعوا إلى مذياع صغير كان يعمل على الموجة القصيرة. كانت شبكة بي. بي. سي قد التقطت بث شبكة الـ سي. إن. إن حيث كان (صبية بغداد) مستمرّين في سرد التقارير الإخبارية الحيّة من الغرفة رقم (٩٠٦)، وكانت تغطية فريدة لم تستطع أي شبكة أن تسبق شبكة سي. إن. إن إليها. وقلت: «هٰذا شيء رائع»، وأجاب الجميع على نحو ذلك.

سمح لنا العراقيون بالصعود إلى الفندق في حوالي الساعة السادسة صباحاً. وحملت حقيبة «بيرني» وبدأت عملية صعود طويلة كنت أتوقّف خلالها كلّ عدة مجموعات من درجات السلم لكي ألتقط أنفاسي كان الإجهاد بادياً على «بيرني» و«بيتر» و«جون»، ولكنهم ابتسموا عندما دخلت إلى مكان العمل.

قال بيتر فاتحاً ذراعيه حولي: «كنت ستسعد بما أنجزناه يا «روبرت». كان شيئاً رائعاً إذ أمضينا الليل بطوله ونحن نبثّ الوقائع على الهواء مباشرة. ويقول مركز أتلانتا إن كلّ الشبكات الإخبارية قد سارعت إلى التقاط بثّ شبكتنا. إنهم لم يروا شيئاً مشابهاً لما رأوه حالاً».

هوليمان: «أجل، لقد كان شيئاً استثنائياً وفريداً من نوعه».

قال بيرني مشيراً إلى آرنت: «إنه البطل الحقيقي. عندما حاول العراقيون إجبارنا على الدخول إلى الملجأ، أخذ «آرنت» يمشي من دون أن يردّ عليهم وكأنه شخص مجنون».

بيتر: «لقد أخبرتهم أني مجنون». ووضع أصبعه على رأسه وقام بحركة دائريّة اعتاد عليها ثم أضاف: «منذ أن كنت في فيتنام والملاجىء تشعرني بالجنون والحمق».

انضم مارك إلينا بقوله: «لقد أخذوا منا آلات التصوير وفقدنا آلتي التصوير اللتين تحملان باليد، وانتزعوا أيضاً الأشرطة من أجهزة تسجيل سوني».

هوليمان: «أعرف ذلك، ولكنّهم قالوا بأنهم سيعيدون كلّ شيءٍ في وقت لاحقٍ من هٰذا اليوم».

صحت صيحة الظفر قائلاً: «ماذا أقول لكم؟ أنا فخور بكم يا زملائي كلّ الفخر».

قال بيتر: «أنت الذي جعلت هٰذا يحدث ويتحقّق بأن جلبت إلى الشبكة ذلك الخط الرباعي الرائع. لقد اتّصل «بيرني» مع «بروكاو» وأجرى مقابلة معه، وذكر مركز أتلانتا أن «راذر» يريد التكلم مع «بيرني» أيضاً».

أطلقت صفرة وقلت: «ربّاه!! لقد سمعتكم جميعاً من محطّة شبكة بي. بي. سي. يجب أن

نصغي ونختصر كل شيء سجلناه . . » .

قاطعني بيرني ذاكراً : «بالمناسبة ، تعرف أتلانتا أنك بخير ، وطلبنا من مكتبنا هناك أن يتّصل بعائلاتكم ليطمئنها عنكم» .

هتف هوليمان : «يا لها من ليلة عظيمة ! » .

وجلست إلى طاولة الخط الرباعي واتصلت مع مركز أتلانتا .

قال إيسون : «يجب أن نجد طريقة ما لتريح أفراد الطاقم ، ولكن نريد أن يتواجد واحد منكم على الدوام لاستمرارية الاتصال فيما بيننا» .

أجبته : «لا توجد مشكلة بشأن ذلك ، وسوف نتناوب على العمل ، كيف ظهر عمل الشبكة؟ » .

إيسون : «لن تصدّق ما أنجزناه ، لقد نلنا شهرة واسعة وصنعنا تاريخاً بأيدينا» .

لم أدرك مغزى كلمات «إيسون» تلك بشكل عميق وكامل إلّا في وقت لاحق ، ذلك أن وسائل الإعلام في كافة دول العالم تناقلت وبثّت التغطية الإخبارية لبداية حرب الخليج ، تلك التغطية التي حققت للشبكة شهرة واسعة بفضل مراسليها في بغداد . وعلى سبيل المثال ، حوّلت محطات التلفزة برامجها المعتادة في كل من بريطانيا وألمانيا وفرنسا وإسرائيل والبرازيل والسويد إلى برنامج شبكة الـ سي . إن . إن . وحدث نفس الشيء في الولايات المتحدة الأمريكية . واعتمدت الشبكات الإخبارية الفرعية في أنحاء العالم على التّغطية التي بثّتها شبكة الـ سي . إن . إن بدلاً من الاعتماد على تغطية فرقها الصحفية . وفي مدينة ليتلتون الواقعة في ولاية نيوهامبشاير الأمريكية ، على سبيل المثال ، كنت ترى اسم (سي . إن . إن) على المحطات التي كانت تحمل عادة اسم (إن . بي . سي) . ولم يكن بمقدورك أن تشاهد في أتلانتا (عاصمة ولاية جورجيا الأمريكية) إلّا قنال الـ سي . إن . إن لأن فروع الشبكات الإخبارية (إن . بي . إس) و(سي . بي . إس) و(إيه . بي . سي) في هٰذه الولاية كانت تقوم بنقل بث شبكة الكوابل الإخبارية . (سي . إن . إن) . «أعظم شبكات العالم أهمية» . وجاء في مذكّرة نائب مديرها بول آموس : «هزمت شبكة سي . إن . إن لأول مرة في التاريخ شبكات الكوابل الإخبارية الثلاث جميعاً في خلال أربع وعشرين ساعة ، في عالم هيمنت عليه سي . إن . إن . فكان عالم سي . إن . إن آنذاك» .

دخل آلن بيزي مكان عملنا وسأل : «أما زلتم تبثّون على الهواء مباشرة؟ إنني لا أستطيع الاتصال مع نيويورك» .

تكلّفت الابتسام وأجبته : «لا تقلق بشأن ذلك . أعتقد أن «راذر» سيجري مقابلة مع «بيرني»» . وأدركت لحظة أن تفوهي بهذا الجواب أنه كان تعليقاً قاسياً تعوزه الرّقّة والإحساس ، لكن «بيزي» استدار على عقبيه وغادر المكان قبل أن أتمكن من الاعتذار إليه .

ضحك بيرني بخفوت وقال: «لقد كنت شديد الفظاظة في حديثك معه».

أضفت معلقاً: «أجل، أنت على صواب. ولكن ابن . . هٰذا وكلامه عنا ووصفه لنا بأننا مجانين لبقائنا في بغداد، كل ذلك كان أحد الأسباب التي أثّرت على «تريسي» وجعلها تتردّد في البقاء هنا». ثم تنهدت وقلت: «ما حدث قد حدث وانتهى».

قرّرنا أن يأخذ «بيتر» و«بيرني» قسطاً من الراحة بينما يظل «جون» يعمل على جهاز الخط الرباعي. واستمعنا إلى الـ سي. إن. إن عندما كان «وولف بليتزر» يتحدّث من البنتاغون الأمريكي [وزارة الدفاع]، حيث ذكر أنه تم تدمير السبعمائة طائرة حربية التابعة لسلاح الجو العراقي، والقضاء المبرم على القسم الأعظم من الحرس الجمهوري، صفوة الجيش العراقي. وذكر «وولف» أنه أعطبت جميع القواعد الثابتة لصواريخ سكود العراقية [صواريخ الحسين والعباس] وجميع مواقع الصواريخ الباليستية [أي الصواريخ ذاتية الدفع]، وجميعها أصبحت غير صالحة للاستخدام. وأضاف أنه تم تدمير ترسانة الأسلحة الذرية والكيميائية والجرثومية في العراق. ونقل عن أحد مسؤولي البنتاغون قوله أنه يعتقد بإمكانية استسلام العراق فعليا خلال «عدة أيام».

وبعد مدّة قصيرة، تحدّث الرئيس صدام حسين عبر إذاعة بغداد، وقال: «لقد بدأت معركة أم المعارك والنصر قريب جداً منّا».

ونظر «جون» من النافذة ونقل ما شاهداه على الخط الرباعي بأنه يلاحظ دماراً وأضراراً قليلة، إلا أن رائحة لاذعة وحادة تملأ الجو، وأضاف أن هناك غيمة ضخمة من الدخان الأبيض مصدرها على الأغلب من حريق كبير في بناية تبعد عدّة أميال عن الفندق حيث يتصاعد الدخان إلى عنان السماء. وأحصى سبع سيارات فقط على الطريق السريع الذي يمر من أمام فندق الرشيد».

لم يستطع «بيرني» أن ينام، وظل يتردّد على الغرفة رقم (٩٠٦) لينضم إلى «جون» ويتحدث على الهواء مباشرة، وقال في إحدى المرات: «كانت ليلة جهنّمية. توالت موجات الطائرات موجة إثر موجة، وأدخلت الرعب في قلوبنا. إذا كان ذلك هجوم جراحي بالقنابل، فأنا لا أحب الاقتراب كثيراً من طاولة العمليات هٰذه».

وجاء مسؤولان عراقيان إلى موقع عملنا وطلبا منا مرافقتنا إلى مبنى التلفزيون، وذكرا أن باستطاعتنا بث الأشرطة المصورة التي صودرت ليلة أمس إضافة إلى رسالة تلفزيونية مصوّرة موجّهة من الرئيس صدام حسين. ونظراً لعدم وجود خدمة هاتفية في فندق الرشيد بعد الهجوم، فقد ذهبت «كريس» مع «نك» إلى مبنى التلفزيون على أن يعودا كما أمرتهما في أقرب وقت ممكن ليطلعانا على موعد البثّ الإخباري للتقارير والذي سيحدّد لاحقاً. عادت «كريس» بعد حوالي نصف ساعة. كانت تواجهنا مشكلة تتعلق بالإتصالات.

وقالت بغضب وسخط: «أعتقد أنه لا يجب على أي أحد منا التواجد هناك. إنه ليس المكان الأكثر أماناً في العالم».

أجبتها: «أنت على صواب». وغادرت المكان لأبحث عن «نك».

لم يمض وقت طويل على خروجي من باب الفندق حتى بدأت المدافع المضادّة للطائرات تطلق قذائفها، وسمعت من بعيد الصوت المكتوم وغير الواضح للقنابل الساقطة. لم تدم فترة الهدوء طويلاً، وبدا أن الحلفاء أرادوا الاستمرار في عمليات القصف الجوي على مدار الوقت بأكمله. ولم أجد أحداً من السائقين العاملين معنا، غير أن رجلاً أراه لأول مرة وافق على إيصالي إلى محطة التلفزيون وانتظاري هناك مقابل خمسين دولاراً. وأخذت يداي ترتعشان عندما انطلقنا بسرعة في الشوارع وشققنا طريقنا بشكل متعرّج بين السيارات التي كانت تسير في الطرقات بعجلة واضطراب وكيفما اتفق.

كان مبنى التلفزيون العراقي محاطاً بالدبابات، وعند وصولنا إلى المدخل صحت بالسائق: «توقف هنا»، ولكن قوات الحماية أشارت لنا بيدها لكي نتابع الطريق، وصرخت في وجه السائق: «كلا . . توقف . . توقف». نزلت من سيارة الهوندا وإذا بثلاثة جنود يشهرون بندقياتهم في وجهي متأهبين لإطلاق النار. ووضعت يداي فوق رأسي ببطء وتعمّدٍ واقتربت منهم صارخاً باللغة العربية: «أنا صحفي . . أنا صحفي». وأشار إليّ الجنود بالتوقّف في مكاني، لكنني تابعت السّير باتجاههم مكرّراً القول: «أنا صحفي . . أنا صحفي». وانضم إليهم بعد برهة أحد الضباط، ولوّح لي بيديه مشيراً إلى أنه من غير المسوح لي دخول المبنى.

وتوسّلت إلى الضابط قائلاً: «أنا صحفي يجب أن أدخل إلى المبنى».

أجابني بالإنكليزية: «انتهى، انتهى النقاش».

ـ «أنت لا تفهم. هناك زميل لي في الداخل».

كرّر قائلاً: «انتهى، انتهى».

اقتربت من الباب شيئاً قائلاً: «لو سمحت، لو تكرّمت ودخلت معي، إن المسؤولين هنا يعرفونني»، وضربت بيدي على صدري ضربات خفيفة مشيراً إلى الباب.

دخل الضابط إلى المبنى آمراً إياي: «انتظر هنا». وبعد لحظات، خطا خارج الباب وأشار إليّ لاتبعه قائلاً: «أنت، تعال معي».

لم أعرف أحداً من أولئك الحراس، وأفهموني بعد خمس دقائق من الشرح بلغة إنكيزية مكسّرة ولغة الإشارة بأن «نك» قد غادر مبنى التلفزيون، لم أطمئن إلى الموقف الذي كنت فيه، ولكنهم

كانـوا مصـرّين على عدم السماح لي بتجاوز الردهة إلى الدّاخل، فشكرتهم وتركتهم عائداً إلى السيارة وسط الابتسـامـات المشدوهة لطواقم الدبابات العراقية. ولاحظت في طريق العودة إلى الفنـدق أن بضعة أطباق مايكروويف على برج الاتصالات المجاور كانت محطّمة، إضافة إلى إلحاق أضراراً مصاحبة ببناية مدنية مجاورة. واضطررنا إلى الرجوع والاستدارة لسلوك طريق آخر بسبب أنقاض البناية التي سدّت الطريق.

كان المـــواطنـون يسيرون في الشـوارع، ولكن الجـو المحيط لم يكن طبيعياً: كانت كل المحلات التجارية التي مررنا بها مغلقة باستثناء كشك لبيع السجائر، وكانت السماء مصبوغة بلونٍ رماديٍّ وملبّدة بالغيوم، مما شكل إطاراً مثالياً لمشهدٍ كئيبٍ.

دخلت مكان العمل من غير أن أشاهد «نك» داخله، فسألت والقلق ينتابني: «أين «نك»؟» وهزّت «كريس» رأسها مجيبة بالنفي. وبدأت أقلق بشكل حقيقي. وما أن أوشك مركز أتلانتا على إجراء حديث معي على الهواء مباشرة لوصف ما شاهدته، حتى ظهر «نك» في الغرفة. لم يستطع «نك» أن يبثّ الأشرطة المصوّرة لكنه كان يحمل أخباراً يمكنه نقلها، ذلك أنه شاهد الرئيس صدام حسين في مبنى التلفزيون.

وقام جون بتقديم نك إلى الشبكة، ثم تحدّث نك عبر الخط الرباعي قائلاً: «قابلت أولاً وزير الإعلام لطيف جاسم عندما كنت أنتظر في مكان الإرسال التلفزيوني عبر الأقمار الصناعية، ثم شاهدت الرئيس صدام حسين يمُر بقرب المكان، وأعتقد أنه أراد تسجيل رسالة مصوّرة للشعب العراقي. لقد شاهدته خلال الساعة الأخيرة.. وأظنّ أن التلفزيون العراقي يحاول الاتصال مع تلفزيون عَمان في الأردن، ولكنَّ الاتصالات مقطوعة».

سألت سوزان روك من أتلانتا: «بماذا تستطيع إخبارنا عن حالة صدام؟ ماذا كانت انطباعاتك؟».

نك: «لقد بدا شديد العزم، ووجدت تصميماً وإصراراً في طريقة مشيه.. كان الأشخاص المرافقون له يمشون بسرعة من أجل اللحاق به»، وتناوب «هوليمان على الحديث فقال: «لقد ظفرت بذلك. إن زميلنا «نك روبرتسون» هو الصحفي الغربي الوحيد الذي شاهد الرئيس صدام حسين منذ اندلاع الحرب».

بدأ القصف الجوّي من جديد في حوالي الساعة العاشرة قبل الظهر، وعاد «جون» إلى البث المباشر. وقال لمعتمد مركز أتلانتا «باتريك غرينلو»: «أتمنى لو كنت غير مضطر لأخبرك بأنه وقع انفجاران هائلان هزانا هزّاً هنا في وسط بغداد.. ليس بإمكاني إخبارك بما حصل، غير أننا أُصبنا بالرعب والهلع قليلاً.. هناك صوت كقصف الرعد صادر من جهة الغرب ويشبه صوت قطيع من

الخيل. أسمع الآن صوتاً مثل صوت القنابل الضخمة الساقطة، ولكني لا أشاهد شيئاً وإنما أسمع صوت دمدمة أيضاً . . هناك أصوات كثيرة كصوت الرعد صادرة عن طائرات الحلفاء، وليس من السماء».

هرولت إلى الغرفة (٩٠٣) وحدّقت النظر من النافذة، وناديت على جون قائلاً: «لقد أصابوا شيئاً».

جون: «يقول مخرجنا «روبرت وينر» إن هناك بعض الأضرار، ولا أستطيع نقل الميكروفون إلى مكان «روبرت» . . يجب أن تأتي إلى هنا يا «روبرت» لكي تصف لنا ما تشاهده . .».

اتجّهت إلى جون وأمسكت بالميكروفون معلقاً: «تمّت مهاجمة شيء ما يقع خلف مبنى وزارة الخارجية. توجد غيوم من الكتل المتدافعة الكثيفة من الدخان الأسود وتبعد عنّا مسافة بعيدة. وبطارية المدافع المضادّة للطائرات المتمركزة على سطح البناية المقابلة لنا هي بطارية نشطة ومتيقّظة، وقد أطلقت نيرانها طيلة جولات عدّة وبشكل جماعي. لا أدري يا «جون» فيما إذا كان باستطاعتك سماع ذلك من الجهة الأخرى للفندق، غير أن هؤلاء الرجال يستعدون لصدّ هجوم مقبل . . .».

دفعت آخر جولة من إطلاق النار الكثيف «بيرني» إلى العودة ركضاً إلى مكان العمل، وشرح ذلك على البثّ المباشر وعلى مسامع العالم أجمع، فقال: «أنا خائف من أن أغطّ في النوم لسببين: الأول أني لا أحب الذهاب إلى النوم والقنابل تتساقط . . والثاني أنني كصحفي لا أحب أن يفوتني شيء من الأحداث».

ولكن «بيرني» كان مرهقاً جداً إلى درجة أنه وخلال مقابلة مع نائب وزير الخارجية الإسرائيلية «بنيامين ناتينياهو»، بدأ «بيرني» ينتقل إلى حالة من الحالات التي تدعى «مسيل الوعي» حيث بدا أنه أقرب إلى شخص يتحدّث أثناء نومه منه إلى شخص يجري مقابلة. وطلب «بوب فيرناد» خلال فترة استراحة قائلاً: «خذه من فضلك إلى السرير». ولكنه كان من المستحيل إبقاء «بيرني» في غرفته، واستمر في تجواله جيئة وذهاباً طوال اليوم وهو في حالة نشوة تقريباً.

لم أر سبباً يدعوني إلى المغامرة بالذهاب مرة ثانية إلى مبنى التلفزيون العراقي، وفكرت في نفسي أنه بافتراض تشغيل الاتصالات ـ وكان افتراضاً مشكوكاً فيه ـ فليس لدينا تقارير جديدة لكي نبثّها ولم يسمح لنا العراقيون باستخدام آلات التصوير خارج الفندق، مما اضطرنا إلى الاعتماد على جهاز الخط الرباعي فقط في تغطيتنا للأحداث. وأمضى «جون» فترة ما بعد الظهر برمّتها وهو ينقل أخبار الغارات الجّوية التي بلغ عددها حوالي (١٧) غارة عند غروب الشمس. وقال بيتر بسخرية تشوبها مرارة: «يحاول «جون هوليمان» رؤية كل قنبلة ساقطة إرضاءً لمشاهدينا. مضى

على الغارة الجوية التي تتعرّض لها الآن حوالي سبع أو ثماني دقائق، وتدوم مثل هٰذه الغارات عادة ربع ساعة من الزمن». وكان «بيرني» و«بيتر» ينضمّان بين الفينة والأخرى إلى «جون» للتحدّث على الهواء مباشرة عبر القمر الصناعي.

أمضينا أوقات فراغي خلال فترات هدوء الحرب الجوية في فتح معلّبات سمك التونة وإعداد لفات الطعام. وكان الطعام والشراب متوفرين بكمّياتٍ لا بأس بها، غير أن المشكلة تمثّلت بصعوبة إعداد القهوة الساخنة نظراً لانقطاع الكهرباء. وأنهى «نك» هٰذه المشكلة في آخر الأمر بأن أوصل مولد كهربائي ثمنه (٣٠٠) دولار بسلك حلزوني موصل للكهرباء، يبلغ ثمنه خمسة دولارات ويستعمل في تسخين الماء. وهكذا عدنا إلى العمل بسرعة بعد إعداد القهوة. وزارنا السيدان علاء وناصر من وقت لآخر للاطلاع على سير عملنا، وبدا أن حاجتيهما إلى سجائر (المارلبورو) وقهوة (نسكافه) كانتا تدفعهما إلى زيارتنا. وليس الالتزام بواجبهما الرسمي. وعلى أية حال، لم يصدر عنهما أي اعتراض عندما غادر «جون» الفندق في جولة في أنحاء بغداد مستخدماً السيارة.

وعاد «هوليمان» بعد جولته تلك، وشاهد أضراراً لحقت بأهداف منتخبة فقط. وصرخ على الهواء قائلاً: «لم تصب هٰذه المدينة بالدمار، ولم يضرب أي مكان ديني مقدّس».

ووافقه بيرني مضيفاً: «إذا كان هٰذا القصف الجوي عشوائياً ومن غير تمييز، فصدّقوني تماماً أيها السادة والسيدات أن العالم ما كان ليتمكن من سماع ما تسمعونه الآن. اسألوا أنفسكم هٰذا السؤال: لماذا تتمكّن شبكة الـ سي. إن. إن من بث تقاريرها الإخبارية هٰذه . . »، وأضاف مشيراً إلى القصف الجوي: «إذا كان هٰذا يحدث أثناء النهار، فماذا سنتعرّض له ونمرّ به خلال الليلة هٰذه؟».

وحسب ما ذكره البنتاغون، فقد تمّ تنفيذ ألف غارة جوية على العراق.

وذكر بيتر مستنجاً: «أظن أن سبب تمكننا من البث هو التقدير والشكر الاستثنائي للدور الذي تلعبه شبكة سي. إن. إن في منطقة الشرق الأوسط، وهٰذا على أقل تقدير. تخبرني سلطات الدولة التي أعمل فيها عادة أنها تتابع مشاهدة قنال شبكة سي. إن. إن من أجل معرفة ما يفكر به حلفاؤها وأعداؤها».

ولسوء الحظ، كان البثّ الحيّ، والبثّ الإذاعيُ غير المراقب لشبكة سي. إن. إن يقترب من نهايته، ذلك أن علاء أطلعني على وجوب حضور اجتماع طارىء في ردهة الفندق.

بعد مصافحته بادبٍ واحترام، قال سعدون: «يجب عليك وقف البثّ في الحال». وكان في ذلك الاجتماع كل من: «جون سيمبسون» من شبكة بي. بي. سي، و«برينت سادلر» من شبكة آيْ. تي. إن، والمراسل «توم أُسْبِل» من شبكة إن. بي. سي التي كانت تستخدم جهاز إنمرسات

التابع لشبكة بي . بي . سي وأضاف سعدون: «ويجب عليكم أنتم الثلاثة أيضاً وقف اتصالاتكم الهاتفية عبر الأقمار الصناعية. سَنُعِدُّ نظاماً جديداً وسنراجع تقاريركم التي يجب أن تُعدّوها مسبقاً».

سأله أسْبِل: «وماذا بشأن شبكة سي . إن . إن . هل ستراجعون وتدقّقون تقاريرها أيضاً؟».

شرح سعدون بقوله: «سيخضع الجميع لنفس القوانين والقواعد. وسنحدد الأوقات التي تتمكّنون فيها من تسجيل تقاريركم . . وهي مرّة أو مرتين في اليوم الواحد . . ويجب إغلاق خطوط الهاتف عبر الأقمار الصناعية بقية الوقت».

قال أسبل بهدف مضايقتي: «ماذا بشأن شبكة سي . إن . إن؟ إن خطهم الرباعي مفتوح دائما، وهم ليسوا بحاجة إلى سحب الهاتف إلى الخارج، لماذا لا نقوم جميعاً باستخدام خط شبكة سي . إن . إن؟ إنه موجود ومركّب الآن وهو أكثر ملائمة؟».

وأخذ سعدون يفكّر بما قاله «أسبل»، ولكني لم أدعه يكمل التفكير.

أجبّت مشيراً إلى أسبل: «أنت ستقدّم لشبكتك خدمة عظيمة إذا تركت شبكة سي . إن . إن وشأنها وأبديت اهتماماً أكبر بشبكة إن . بي . سي. لن تستخدم أنت ولا أحد غيرك الخط الرباعي إلا إذا وجدت دواعٍ إنسانية تستوجب ذلك».

وفتح سعدون ذراعيه وهز كتفيه مستهجناً الوضع، وقال: «أقفلوا من فضلكم باب الحديث عن كل شيء».

وغادر «أسبل» والآخرون الردهة لإطلاع شبكاتهم عن المستجدّات الطارئة.

قلت لسعدون: «يجب التوصّل إلى نظام أفضل. لماذا لا تسمح للسيد علاء بالتواجد في غرفة عملنا عندما نكون على اتصال مع أتلانتا؟ نحن لا ندرك مغزى ولا نتقبل تسجيل تقاريرنا الإخبارية مسبقاً. باستطاعتنا إطلاعك على نصّ التقرير، ولكن لماذا لا نستطيع قراءته على الهواء مباشرة؟».

سعدون: «هٰذه هي القوانين . .».

قاطعته مضيفاً: «أنا أعرف أن هٰذه هي القوانين، ولكن بصراحة: ماذا سيكون الفرق بين قيامنا بالبث الحي وبين بث الشريط المسجّل إن كنت سترى نسخته مقدّماً؟».

سعدون: «أنا أدرك ذلك ولكن . .».

ـ «لن أقوم بخداعك والتحايل عليك بعد أن قطعنا شوطاً طويلاً في هٰذا المضمار. لقد كنت مستقيماً دوماً في تعاملي معك . .».

سعدون: «ليس السبب أنت يا «روبرت»، ولكننا نحن خاضعين لأوامر من الهيئة العامة للاتصالات؟».

علاء: «سأصعد لأطلب من طاقم سي. إن. إن التوقّف عن البث الإذاعي . . ».

أوقفت علاء قائلًا: «انتظر لحظة، سأصعد معك. أعطني مهلة دقيقة أو دقيقتين لأنهي حديثي مع سعدون».

وأشرت إلى سعدون لنمشي سوياً في الردهة ريثما أحاول التفكير بحلّ وسطٍ قد يقبله.

قلت له: «إن الأشخاص الآخرين يحاولون النّيل منا بسبب حيازتنا جهاز الخط الرباعي، وقد رأيت بنفسك ما حصل للتو. الحقيقة أنّ علينا التزامات ومهام أكبر بكثير ممّا لديهم هم. نحن نبث على الهواء مباشرة طيلة ساعات اليوم، أي على مدار الأربع والعشرين ساعة . . ».

سعدون: «أجل، أعرف هٰذا . . ».

ـ «لماذا إذن يتمّ التضييق علينا إذا لم يكن بحوزتهم معدّات فنّية متطوّرة مثلما لدينا، أو إذا لم يكن بمقدورهم إعطاء التقرير الإخباري وقتاً كافياً للبثّ مثلما نعطيه نحن؟ لا بد بالتأكيد من وجود طريقة أفضل بهذا الشأن».

سألني سعدون بحزن: «ما هي آخر الأخبار؟».

وبدا سعدون قبل ذلك مغلوباً على أمره ومنكسر الفؤاد عندما أخبرته أن البنتاغون قد صرّح بأنه تم القضاء المبرم على معظم قوات الحرس الجمهوري وسلاح الجو العراقي.

أجبته: «قامت طائرات الحلفاء إلى وقتنا هٰذا بتنفيذ ألف غارة جوية . . وأعلن أن جميع مواقع صواريخ سكود والمنشآت النووية والكيميائية والجرثومية قد تمَّ تدميرها. وهٰذه هي البداية فقط . . ».

تنهّد سعدون: «يا إلهي».

ـ «كيف حال أسرتك؟».

سعدون: «إنهم بخير والحمد لله. إنهم خارج المدينة».

ـ «يا لها من فوضى، أليس كذلك؟».

سعدون: «أنت تدري أننا لم نكن البادئين . . ».

ـ «من فضلك، ليس هٰذا وقتاً أو مكاناً مناسباً لنبدأ من جديد في الجدل والنقاش حول هٰذا الموضوع السخيف». وقد أصررت على كلامي هٰذا عندما بدأت صفارات الإنذار تدوي منذرة بغارة جوية جديدة.

سعدون: «كلا، كلا، أنت محقّ . . ولكن أوقف البث الإذاعي في الحال يا «روبرت» وسوف نتكلّم عن ذلك في وقتٍ لاحقٍ».

وعدت إلى فوق صاعداً الأدوار التسعة، وأحسست أنني قمت بأفضل ما يمكنني عمله بشأن

مسـألة البث الإذاعي والتلفزيوني وبشأن التوصّل إلى حلٍّ وسطٍ مع سعدون. وسبقني علاء في الصّعود فصحت به: «انتظر عندك، أنا أكبر منك سنّاً وأحتاج إلى وقت أطول للصعود». وعندما وصلت إلى غرفة العمل، كان علاء قد أشار إلى «جون» و«بيتر» بالتوقّف عن بثّ التقارير، غير أنهما كانا لا يزالان على الهواء في بثٍّ حيٍّ.

قال جون بينما كنت ألتقط أنفاسي: «لقد وصل مخرجنا التنفيذي «روبرت وينر» للتّو ودخل المكان. أخبرنا يا «روبرت» ماذا يجري الآن؟».

ـ «لقد صدرت الأوامر إلينا لسوء الحظّ بقطع البث الإذاعي. وتمّ إخبارنا بأننا لن نستطيع بعد الآن القيام ببثٍّ مباشرٍ وحيٍّ إلى مستمعينا، وأن الأشرطة المسجّلة ستخضع مستقبلاً للرقابة الحكومية».

هوليمان متحسّراً: «هٰذا هو ما حصل. من الواضح أنه شيء بغيض ونمقته جميعاً. سوف نتكلم معكم عبر شبكتنا في أقرب فرصة ممكنة».

أمسك بيتر بالميكروفون وظهر مشابهاً تماماً لألكساندر هيج (مدير موظفي البيت الأبيض السابق)، وقال: «وهكذا، تعلن شبكة سي. إن. إن من بغداد عن وقف إرسالها. هنا «بوب وينر»، و«جون هوليدوي» أو «جون هوليمان»، و«بيرني شو»، وأنا «بيتر آرنت». نأمل استئناف إرسالنا في القريب العاجل».

كانت الساعة آنذاك السادسة و(٥٩) دقيقة بعد الظهر بتوقيت بغداد، وكنا قد أمضينا (١٧) ساعة متواصلة في بثٍّ حيٍّ ومباشرٍ من دون انقطاع.

سمعت «إيسون» ينادي عبر الخط الرباعي: «مرحباً بغداد، مرحباً بغداد». رمقت علاء بنظرة طويلة، وكرّر «إيسون» نداءه: «مرحباً بغداد!».

وتحدثت مع علاء شارحاً الموقف: «أستطيع بكل تأكيد التحدّث مع مركز الشبكة. هٰذا ليس بثّاً إذاعياً». وتردّد علاء قليلاً ثم هزّ رأسه ببطء مشيراً إلى موافقته.

أجبت على النداء: «من بغداد إلى أتلانتا. تحدّث يا «إيسون»».

إيسون: «يجب عليك يا «روبرت» أن تخرج كل الأشخاص من الفندق حالاً وعلى الفور. لقد علمنا للتّو أنه سيتم قصف فندق الرشيد. يجب إخلاء الجميع الآن».

وصرخت عالياً في وجه الحاضرين في الغرفة: «رباه. نحن في طريقنا إلى الخارج. ليخرج الجميع.. ليخرج الجميع. سنلتقي في الردهة في الأسفل». والتقطت مصباح اليد الكهربائي وركضت في الصالة باحثاً عن «بيرني»، وصرخت قارعاً بابه بعنف: «أحضر حاجياتك، يجب أن

نترك الفندق حالاً». وأخذت أهبط السلم مفكراً بالمكان الذي يمكن أن نذهب إليه. وحل الظلام عندئذ ولم نعثر على سائق السيارة، ولو عثرنا عليه لما استفدنا كثيراً إذ كان عددنا ثمانية أشخاص. واتجهت مسرعاً من الردهة المظلمة إلى مدخل الفندق. وحدّقت في الظلام متحدّثاً مع نفسي أن ذلك وضع بائس، إذ لم أجد أي مكان آخر خارج الفندق، وتفوّهت باللعنات بصوت عال، وعندها سألني سعدون حيث شاهدني عند الباب: «ما هي المشكلة يا «روبرت»؟ تبدو خائفاً جداً».

أجبته: «أنا خائف فعلاً. لقد تلقّينا للتو أنباء تفيد بأن الفندق قد يتعرّض للقصف. ألا يوجد مكان آخر لكي . . .».

صاح سعدون: يا إلهي، لماذا يقومون بفعل هٰذه الأشياء؟ لا يوجد هنا غير المدنيين والمراسلين الصحفيين».

ـ «أنا لا أدرى عن الموضوع شيئاً، ولكن هٰذا ما سمعناه . . .».

حثّني مضيفاً: «أسرعوا إلى الملجأ، سأخبر الموظفين والمسؤولين . . .».

وعدت إلى زملائي الذين كانوا ينتظرون عند الطرف الآخر من الردهة وقلت لهم: «سنتوجّه إلى الأسفل ونجلس هناك. ليس لدينا في الواقع أي خيار أو تبديل آخر».

بيتر: «هٰذه الملاجىء جيدة وحصينة. وما لم يقذفوا بشيء ما مباشرة من الجو إلى عمود التهوية، فسنكون بخير وأمان».

وبدأت صفارات الإنذار تطلق دويّها، وقلت في نفسي إن فكرة الملجأ هنا هي فكرة مريحة لا بأس بها. وهبطنا بسرعة على السلالم إلى الملجأ.

جلسنا على الأرض سويّاً مع مئات من الناس الآخرين الذين تجمعوا في ملجأ فندق الرشيد. ووضع سعدون يده على كتفي قائلاً: «هكذا إذن، سوف نموت جميعاً». وبعد برهة رددت جنبات الطابق السفلي صدى انفجار قنبلة في الخارج تزن (٢٠٠٠) باوند.

أطلقت صفرة معلّقاً: «ربّاه: كان هٰذا الانفجار قريباً منّا». ونظرت إلى «أنغريد» التي أخذت تقلّب عينيها من جهة إلى أخرى. وقال سعدون: «لقد أنقذت أرواحاً عديدة من الأشخاص بإطّلاعي عما سمعته، ولولا ذلك لما تمكّنا من إحضار هؤلاء الناس إلى الملجأ بهذه السرعة». وأصبح الملجأ آنذاك مكتظاً بالناس، أما الذين لم يجدوا مكاناً مناسباً في الملجأ فقد جهّزوا وأعدّوا مكاناً لأنفسهم على أرض الدور السفلي الصلبة مستخدمين أغطية جلبوها من غرفهم. وكان عدد الأطفال الرضّع والصبية الصغار أكبر من المرّة السابقة، وقد أحضر العديد من المسؤولين من مختلف الوزارات أسرهم معهم إلى الملجأ، وشاهدت من بينهم السيد فؤاد الذي عمل في مكتب سعدون.

وحمل «مارك» آلة التصوير وصوّر بعض المشاهد. وتجمّع العديد من العراقيين حول جهاز تلفـزيون قديم ليشاهدوا الرئيس صدام أثناء صلاته، وكان واضحاً أن محطة التلفزيون ما زالت تعمل، ولكن إلى متى؟ وانشغل الآخرون في قضم الفواكة مع الخبز ببطءٍ وتأنٍّ استعداداً لقضاء الليل.

وتواجد في الملجأ أيضاً معظم المراسلين الصحفيين الذين لم يغادروا العراق. واتجهت إلى مكان «جون سيمبسون» الذي ظهر بملابس ومظهر حسنٍ جدّاً بالرغم من تلك الظروف السِّيئة، وسألته:

ـ «هل سمع زملاؤك بقصة الفندق واحتمال قصفه؟».

جون سيمبسون: «أجل، هٰذا ما حصل حقاً. لقد غادرنا فندق الرشيد فعلاً، ولكننا بعد ربع ساعة من التنقل في السيارة أدركنا أنه لا وجود لمكان آخر، وعدنا أدراجنا إلى هنا».

ـ «ما هو مصدر هٰذه القصة الّلعينة؟».

جون: «لست متأكداً من ذلك، فقد تلقى مكتبنا في لندن مكالمة هاتفية من أحد الأشخاص. وأعتقد أن الذي اتصل هو شخص من شبكة إن. بي. سي».

ـ «حسن، لقد ملأ هٰذا الخبر قلوبنا بالخوف».

جون: «ونحن أيضاً كذلك».

وشاهدت معه مذياعه العامل على الموجة القصيرة، فسألته: «ما الأخبار التي تذيعها شبكة بي. بي. سي؟».

جون: «أطلق العراق عدداً من صواريخ سكود على تل أبيب. ولم يذكر شيئاً عن الخسائر والإصابات حتى الآن».

ـ «لقد نفّذ صدام ما وعد به إذن؟! إذا تدخّل الإسرائيليون في الحرب فلن يصبح هٰذا المكان جيّداً ومناسباً للإقامة».

مرَّ الوقت ببطءٍ أكبر من المرَّة السابقة، وشعرت خلال ساعتين من المكوث في الملجأ وكأنّني قضيت الدّهر كله هناك. وغطَّ فريق عمل شبكتنا آنذاك في نومٍ عميقٍ: «بيتر، وجون، ونك، ومارك»، حيث تمدّدوا في إحدى زوايا الغرفة. بينما غلب النعاس «كريس»، و«أنغريد» الّلتين كانتا بجوارهم.

همست لبيرني قائلاً: «أنا أدرك أن قصة قصف الفندق مجرد هرطقة وكلام فارغ، ولكني من

ناحية أخرى سعيد جداً لأنّهم قطعوا الإرسال من جانبهم من أتلانتا . . ولو لليلة واحدة على الأقل. نستطيع الآن الحصول على قسطٍ من الراحة خلال هٰذه الفترة».

بيرني : «رأيي مطابق لرأيك. لقد حصلت على شيء من الراحة والهدوء. بالمناسبة، أظنّ أن علينا التخطيط ليتمكّن أحدنا من مغادرة العراق غداً. إنني أرغب شخصياً في المغادرة في أسرع وقتٍ ممكنٍ».

ـ «أجل، أنت على صواب. لقد غادر اليوم عشرون صحفياً متوجهين إلى عَمان، ومن بينهم فريقا شبكتي سي . بي . إس وإيه . بي . سي» . . وفتح حقيبة يده وقدّم لي بعض قطع البسكويت الرّقيق والجبن، وقال: «لقد سمعت بهذا. يجب أن نحذو حذوهم يا «روبرت» ».

امتنعت عن قبول ما قدّمه بيرني من طعام وأجبته: «أنا متأكّد تماماً من أن «بيتر» سيبقى هنا، ولا شيء يعيقني من البقاء معه. وأظنّ أنّ «نك» سيرغب في البقاء أيضاً».

بيرني : «هٰذا الأمر عائد إليك في طبيعة الحال، ولكن يجب أن يكون أول شيء نقوم به غداً هو تأمين السيارات لمن يريد المغادرة منّا».

كان من المستحيل أن أنام على الرغم من شدّة التّعب والإعياء، وحاولت إغماض عينيّ لأستلسم للنوم، غير أني لم أستطع محو وإبعاد أحداث الأربع والعشرين ساعة الماضية من ذهني. ويئست آخر الأمر ونهضت ثم تجوّلت في الملجأ مدخناً سيجارة، وانضمّ «بيرني» إليَّ بعد عدة دقائق. واقترب منّا شخص عراقي عندما كنا نتجاذب أطراف الحديث، ولم أكن متأكداً من أنني رأيته سابقا في وزارة الثقافة وإعلام. وقدّم نفسه لنا. ثمَّ سألنا عما سمعناه من أخبار الحرب. وعندما أخبرته عن سحق الحرس الجمهوري وسلاح الجو العراقي، لم يصدّق ذلك وقال متمتماً: «ذلك مستحيل، يوجد الكثير منهم هناك».

أجبته: «إذا قصفتهم طائرات (ب ـ ٥٢)، فهناك احتمال أن تكون التقارير الإخبارية صحيحة».

سأل الرجل: «هل هٰذه الطائرات قوية إلى هٰذا الحد؟».

بيرني : «أجل، وقوية جداً. لقد استخدمت هٰذه الطائرات في حرب فيتنام . . ولكن يمكنك الاختباء في الأدغال، أما في الصحراء فلا مكان لتختبىء فيه».

قلت متحسّراً: «هل تستطيع تخيّل أولئك الجنود وهم جالسون هناك والقنابل تتساقط فوقهم؟».

بيرني : «إذا كان هٰذا ما حصل بالفعل، فلا فرصة لهم بالنجاة. الطائرات تحلّق على ارتفاع شاهق جداً بحيث لا تستطيع سماع صوتها إلا عندما تصل فوقك تماماً. وفي الحقيقة، لست متأكداً

من قدرتك على سماعها عندما تكون فوقك . . إذ بعد لحظات . . تفاجىء بسقوط القنابل. عندما أفكر بجميع هؤلاء الرجال . . الآباء، والأزواج، والأبناء، والأخوة . . » وبدا «بيرني» في البكاء، وأضـاف: «إنهم لا يمـوتون مثلما يموت الجنود، إنهم لا يموتون كرجال مقاتلين، وإنما يلقون حتفهم وهم جالسون في مواقعهم. إنهم لم يعرفوا أبداً ما الذي أودى بحياتهم». واخرج منديله ليجفّف دموعه وعينيه، وقال بهدوء ورقّة: «إنهم لم يعرفوا أبداً ما الذي ضربهم».

سألت جون بعد عدّة ساعات: «أين كنت؟».

أجابني هامساً: «كنت فوق وأعلمت مركز أتلانتا أننا بخير».

ـ «كيف استطعت خداع الحرس؟ لم يمض وقت طويل على سماحهم لك بالخروج؟!».

جون: «كلّا، لقد حاولت أن أشرح لهم حاجتي إلى الدواء، غير أنهم لم يصدّقوني، ولم تنطلِ عليهم الحيلة. ثم جاء سعدون وساعدني بعد أن وعدته بأني سأبثّ فقط رسالة شخصية، وطلب من الحراس السماح لي بالصعود إلى مكان العمل».

ـ «هذا شيء رائع، وإني معجب جدّاً بك. ماذا يجري في الخارج؟ هل القصف الجوي ما يزال مستمراً؟».

جون: «إن الوضع هادىء الآن، ولكن من يدري إلى متى سيظل كذلك».

تمكّنت بطريقة ما من النّوم في حوالي الساعة السادسة بعد الظهر، ولكنّي استيقظت على صوت إمرأة كبيرة في السّنّ وهي تعتذر لي بعد أن داست على يدي، وكان الجميع يوضّب حاجياته استعداداً لمغادرة الملجأ. وتناولت زجاجة الماء الصحي لأشرب فوجدت أن شخصاً ما قد شربها كلها. كان مذاق فمي كريهاً، وعظامي تؤلمني، وشعرت بتوقٍ شديد للاغتسال، ووجدت ثيابي دبقة وسخة، وأقسمت لنفسي أن أغيّر جوربي مهما سيكون الوضع، سواء كانت هناك غارة أم لم تكن.

وخرجت من الدور السفلي أمشي مترنحاً ثم صعدت إلى ردهة الفندق لألتقي وجهاً بوجهٍ مع السّـائق جاسم الذي كان قابعاً في أحد الكراسي. وصافحني هازّاً يدي صعوداً ونزولاً، وقال: «صباح الخير يا «روبرت»».

أجبت: «كيف حالك؟».

جاسم: «كل شيء جيّد الآن. لن أذهب مع الجيش لعدّة أيام».

ـ «أنا سعيد لسماع ذلك. هل تستطيع يا جاسم أن تحضر لنا عدداً من السيارات من أجل السفر إلى عمان؟».

جاسم: «هل ستسافر اليوم إلى عَمان؟».

ـ «أنا لن أسافر، بل سيسافر «بيرنارد شو» وآخرون معه».

جاسم: «أستطيع تدبير أمر السيارات، ولكن السفر إلى عَمان باهظ التكاليف . . ونحتاج إلى مبلغ يتراوح ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف دينار لكل سيّارة».

ـ «حسن، سنتكلّم عن هٰذا الموضوع فيما بعد. أنا بحاجة إلى ثلاث سيارات ومن ضمنها سيارتك، وتأكّد من وجود البنزين الكافي للسفر».

جاسم: «سأجلب معي أوعية معدنية عسكرية مليئة بالوقود. هل تريد أن أذهب الآن؟».

ـ «أجل . . وارجع إلى هنا في أسرع وقت بعد تأمين كل ما يلزم».

اجتمعنا في الصباح في مكان العمل من أجل تناول الفطور، وقال بيتر: «أنا أتّفق معك يا «روبرت» في أن العراقيين سيسمحون لنا ببثّ التقارير تلفزيونياً مرّة أو مرّتين في اليوم. ولا مبِّرر لوجودنا جميعاً هنا».

جون: «أنا مستعد للبقاء هنا، وأنت تعرف يا «روبرت» قاعدتي في العمل. كل ما عليك هو أن تخبرني بما تريد عمله . .».

أجبته: «أنا أقدّر ما تقوله، ولكن لا أرى حاجة تستدعي وجود مراسلين إثنين. إضافة إلى ذلك، من يعلم إلى متى سيظل الطريق العام إلى عَمان مفتوحاً وسالكاً؟ أرى أنه من الأفضل أن تذهب يا «جون» . . ما دام الذهاب هو أمر جيد».

بيرني: «وجهة نظري مطابقة لذلك. أريد أن ننطلق بالسيارات في أقرب فرصة سانحة».

قلت: «سيأتي جاسم بالسيارات . . أحتاج إلى تجديد تأشيرات الخروج، ثم تصبحون بعدها قادرين على السفر فوراً».

بيتر: «وماذا عنك أنت يا «نِكْ»؟».

نك: «بكل تأكيد، فلديَّ كمية كبيرة من الكوابل».

ضحكت معلقاً: «جميل جداً. لنستقر إذن في مكان الحانة في الأسفل، ولسوف أجعلها موقع قيادة مثالي».

صاح بيتر: «في الحانة؟! كم أحبّ ذلك!».

قال مارك موجّهاً كلامه إلى نِكْ: «سأساعدك في نقل جهاز الخط الرباعي إلى الأسفل. ربّما يتوجّب علينا أيضاً أن نأخذ معنا بعض المعدّات الأخرى لنعيدها إلى الأردن».

قلت محذراً: «لنترك معظم المعدّات هنا. سوف ننقلها فقط إلى الأسفل. وبرغم كل ذلك،

فإننا لن نغادر بغداد، وإنّما نقوم بتخفيض طاقم العمل وتقييم عمل الشبكة هنا وما ستحتاجه في هٰذه الظروف».

قالت أنغريد فجأة: «إني لست متأكدة من رغبتي في مغادرة الفندق. لقد بدأت أتكيّف تدريجياً على العيش هنا».

أجبتها: «سأشتاق إليك يا عزيزتي. لا ضرورة لوجود مخرجين إثنين هنا في حين لا يعمل حالياً إلا مراسل صحفي واحد. وسأشعر بارتياح أكبر عندما أعلم أنك تقودين بقيّة فريق عملنا إلى عمان. إن معرفتك بالطريق ستساعدهم وتيسّر السفر».

بيرني: «أجل، هٰذا صحيح».
ابتسم هوليمان مضيفاً: «وأنا أيضاً أوافقكما الرأي».
قاطعته أنغريد قائلة: «حسن، هٰذا ما تقولونه، ولكني مستعدة الآن أن أبقى هنا . . ».
ضحكت معلّقاً: «ملاحظة ممتازة، وسأنبّه المؤرخين لكي يضعوها في حسابهم».

نظراً لتوقّف المصاعد عن العمل، فقد استغرقنا عدّة ساعات لنقل جهاز (إنمرسات) والمولّد الكهربائي وجهاز (ستل ستور) ومعدات أخرى إلى الدور الأول، إضافة إلى إعادة وصل الخط الرباعي. وشعرت بالشّفقة على العتّالين عندما شاهدتهم يحملون الحقائب بجهد ومشقّة، واضطروا إلى الصعود إلى الدور التاسع والنزول منه أكثر من عشر مرات لكي ينقلوا كل الحاجيات. وعندما باشرت حزم أمتعتي، اكتشفت سرقة مذياعي الذي يعمل على الموجة القصيرة وساعة المنبّه. ولا بدّ أنه تمّ الاستيلاء على ملابسي التي أرسلتها آخر مرّة إلى محل تنظيف الملابس، وذلك نظراً لإعجابهم بها. وتم ترتيب المكان في آخر المطاف، وألصقت رمز شبكة سي . إن . إن تحت اللوحة المكتوب عليها (حانة شهرزاد) . . وهكذا حصلنا على مكتب العمل. واختبرت جهاز الخط الرباعي حيث اتصلت مع مركز أتلانتا وبحضور السيد علاء الذي وقف بجانبي، وبدا «إيسون» في حالة أفضل. وأطلق «إيسون» تنهيدة ثمّ ذكر: «لقد تعرّض فرع الشبكة في القدس إلى مهزلة ليلة أمس، إنه لشيء مخجل حقاً مقارنة بالعمل الرائد الذي بدأ به في بغداد».

وكمثال تقليدي على سوء التخطيط والتنظيم الهزيل، تمكّن رئيس مكتب القدس ويدعى «لاري ريجستر» من تشغيل طاقم العمل بصورة مضبوطة هناك قبل بدء الحرب، ولكن المكتب كان خالياً من طاقمه وموظفيه عندما تعرّضت إسرائيل لهجوم بصواريخ سكود العراقية. وقام «لاري» ببثّ حيّ ومباشر لوقائع الهجوم لوحده فقط وبأسلوب غير مناسب على الإطلاق، إذ كان مصاباً بصدمة الرعب والهلع. وكانت هٰذه لحظة بالغة السوء ولطخة سوداء في تاريخ البث التلفزيوني (وقد خلدت هٰذه اللحظة لاحقاً. حيث نشرت رسوم هزلية تسخر منه، وتصوّره مرتدياً القناع المضاد

للغازات السامة وهو يشبه آكل النمل الإفريقي).

وأطلعت «إيسون» على آخر خططنا في العمل قبل أن ينقل الحدث إلى «توم جونسون» الذي كان قلقاً حول عدد من المسائل، وقال لي: «من الضروري جداً يا «روبرت» أن أعرف لون ونوعية السيارات التي تقـل «بيرني» والآخرين. وأحتاج أيضاً إلى معرفة الترتيب المحدد الذي تسير به السيارات على الطريق، ويجب عدم الخروج بتاتاً عن هٰذا الترتيب ومخالفته. هل تفهم ما أعنيه؟».

والحقيقة أنني كنت أفهم ما يرمي إليه «توم»، وافترضت أن شبكة سي. إن. إن ستحاول تأمين حماية لقافلة السيارات.

وأجبته: «إنهم سيسافرون في ثلاث سيارات كبيرة من نوع هوندا، وألوانها هي: الأبيض.. أزرق ميتاليك.. والأحمر».

توم: «هل تسير وفقا لهذا الترتيب؟».

- «أجل، في هٰذا الترتيب، وسنطلعك عليه إن قرّرنا تغييره».

توم: «كيف حالك يا «بيتر»، وما أخبار «نِكْ»؟».

ضحكت قائلاً: «عظيم جداً، لقد أعدنا مكان العمل في الحانة!».

توم ضاحكاً: «هٰذا ما سمعته للتّو. وبغضّ النظر عن الأمور الواضحة الأخرى يا «روبرت»، لماذا اخترت هٰذا المكان؟».

اخترته لسبب وحيد يا «توم»، وهو قربه من الملجأ. إنك تجد فيه الماء وتستطيع النوم على المقاعد الطويلة المنجّدة. إنه ليس موقعاً سيئاً».

توم: «أعتقد أننا لن ندع «آرنت» يقدّم التقارير للمشاهدين وهو في الحانة، ولكن يبدو أنّك اخترت المكان الأمثل. متى ستكون قادراً على بث التقرير الإخباري القادم؟».

- «ربّما بعد ظهر هٰذا اليوم. إننا ندرس التفاصيل الآن..».

قاطعني علاء ملوّحاً بيديه: «هٰذا يكفي.. هٰذا يكفي».

قلت لتوم: «يطلب مني الآن إنهاء الاتصال. سأتصل بكم لاحقاً».

توم: «أعلم ذلك. نحن في الانتظار».

تجّمعنا كلنا أمام فندق الرشيد، وخاطبتهم قائلاً: «يجب التقاط صورة جماعية لنا. هيّا لنأخذ صورة يتناقلها جيل بعد جيل».

سلّمت «كريس» آلة تصويرها إلى المصورة «جانا شنيدر» من شبكة (سيبا)، وقالت: «أريد

صورة لي معكم أيضاً».

وأخذت جانا تلتقط صورة إثر صورة وهي تقول: «صورة أخرى . . صورة أخرى» ثم أعادت لنا آلات التصوير.

عانقت بيرني قائلاً: «حسن، هٰذا كل ما في الأمر. أتمنّى لك رحلة سعيدة وسأتّصل معك حالما تصل».

بيرني: «كن حذراً يا «روبرت». لا تبق هنا مدة أطول مما ينبغي».

وتحدّث مارك بعد أن قفز إلى سيارة جاسم وجلس بجوار بيرني: «نأمل أن نراك في الأردن».

طوّقت كريس بذراعي وقلت: «إعتنِ بنفسك يا «كريس»».

فأجابت باكية: «أنا آسفة، أنا أشعر بالأسف من أعماق فؤادي».

فقلت: «صه. ليس هناك داعٍ للقلق. شكراً على تواجدك هنا».

ضحك جون عندما تبادلنا القبلات والعناق، وذكر: «مثلما أشرت آنفاً يا «روبرت»، فالوضع كما يقولون هنا: ممتاز. سأتصل مع «إيلين» عندما أصل إلى عَمان».

وقالت أنغريد متألمة: «لا أريد المغادرة يا «روبرت»». فرسمت على خدّيها قبلة الوداع وهمست في أذنها: «أريد التأكّد من أنهم سيصلون الأردن بسلام وأمان. باستطاعتك العودة إلى العراق في أيِّ وقت تشائين، لا بل سيتوجّب عليك العودة» ثم ضحكت مضيفاً: «لقد نفذت زجاجات الفودكا، وليس لديَّ إلا زجاجة واحدة فقط لأشربها».

وتابعت أنا و«نِكْ» و«بيتر» التلويح لهم إلى أن قطعت السيارات مسافة كبيرة على الطريق الفرعي إلى الطريق الرئيسي.

عدنا إلى الحانة، وفرقع «بيتر» بإصبعيه قائلاً: «أنا مسرور لانتهائنا من هٰذا الأمر. سيكون الوضع الآن أسهل بعد أن أصبحنا ثلاثة أشخاص فقط». وبالرغم من المدّة التي قضيناها معاً وانسجامنا، فقد أحسست أن ملاحظة «بيتر» وتعليقه ذاك عديم الإحساس وغير رزين، وأعتقد أن ملامح الإنزعاج قد ظهرت على وجهي، فقال بيتر شارحاً الموقف:

«لا تسيء فهمي يا «روبرت». كان من الرائع وجود «بيرني» و«جون» معنا هنا، ولكن لا ضرورة لوجودهما الآن. وبما أن العمل راكد وقليل، فإنه يكفي وجود مراسل صحفي واحد . . وتستطيع أنت بالطبع أن تعمل كمراسل أيضاً إذا ما رغبت في ذلك».

ضحكت معلّقاً: «إني أرغب الآن في تغيير جواربي وتناول طعام الغداء». وأعلن مسؤولو الفندق أنهم يقدّمون وجبة الغداء.

تجمّع عدد منّا حول ناجي لتسجيل تصريحه المرتجل. وكان قد أتى إلى الفندق مرتدياً بزّة عسكرية نظامية فاتحة اللون، ولبس فوقها معطفاً مدنياً بني اللون. وبدا عليه الإنهاك الشديد، وكانت تلك أول مرّة أراه فيها منذ أن تعرفت عليه وهو بحاجة إلى حلاقة شعر لحيته النابت. وبيّن قائلاً: «هٰذا أول بلاغ رسمي صادر عن القيادة العامة للقوات المسلحة. في الساعة الثانية والنصف من صباح اليوم السابع عشر من شهر كانون الثاني، قام العدو الأمريكي الصهيوني الغادر وبتشجيع من خائن الحرمين الشريفين وخادم الأعداء، الملك فهد، ببدء هجومه على دولة العراق . . وقام الأشرار خلال غاراتهم الجوية بضرب بعض المناطق ذات الكثافة السكانية العالية في بغداد، كما استهدفوا عدداً من القواعد الجوية العسكرية. بالرغم من الغارات الكثيفة، فقد أجبر رجالنا الشجعان طائرات العدو على الصعود إلى ارتفاعات متوسّطة وعالية لكي تتجنب النيران الغزيرة لوسائل دفاعنا الجوي. ونحن نحمدُ الله على نصره، ونثني على ثبات أبطالنا وشعبنا الذي سيحبط كيد الأعداء والكافرين» . .

وأضاف ناجي قائلاً بأن هٰذا البلاغ الرسمي يعتبر «رسالة مفتوحة» إلى شعب الولايات المتحدة الأمريكية. واستمرّ البلاغ الرسمي إلى أن وصف الرئيس «بوش» بصفات قبيحة وأكثر قساوة من أي وقت مضى، وجاء فيه: «إن الحرب هي منازلة مع الشيطان . . ولقد دفع «بوش» الوضع بما يطابق اعتباراته وأحاسيسه الخاصة، وكأنه صراع شخصي. لقد أهمل جميع الفرص التي أتحناها له، وفي مقدّمتها مبادرة العراق في ١٢/آب، والتي لو قبلها واستفاد منها لكان قد أنقذ نفسه من المأزق ولوجد طريقة ما لحفظ ماء وجهه».

وزعم ناجي أنه تم إسقاط (٤٤) طائرة للحلفاء و(٢٣) صاروخاً من صواريخ كروز، وقال إنه طلب من المواطنين العراقيين عدم قتل الطيارين الناجين بعد تحطم طائراتهم.

أعدت سرد المعلومات تلك على مسامع «بيتر»، ولم يكن بمقدورنا بثّ الأخبار. وقرّر المسؤولون العراقيون في نهاية المطاف أن يسمحوا لنا بالبثّ مرّتين في اليوم. المرة الأولى ما بين الظهر والساعة الثانية بعد الظهر، والمرة الثانية في الفترة ما بين الرابعة والنصف بعد الظهر والسابعة مساء. وكان الوقت آنذاك هو الثالثة بعد الظهر، وزارنا سعدون في البار ثم أكّد لي بقوله: «ستحصل على أخبار أكثر في وقتٍ قادم حيث سيعقد وزير الثقافة والإعلام مؤتمراً صحفياً».

سألته: «هل سيأتي وزير الإعلام إلى هٰذا المكان؟» . . كنت متخوّفا من أن يعقد المؤتمر الصحفي في إحدى المباني الحكومية، وهي آخر مكان أرغب في التواجد فيه نظراً لخطورته.

أجاب سعدون مؤكداً: «كلا، سنذهب نحن إلى الوزارة بعد ساعة من الآن» ثم انطلق ليخبر بقيّة المراسلين الصحفيين.

قلت لبيتر: «لا أعرف ماذا أتصرّف حيال ذلك؟!».

اقترح عليّ بيتر قائلاً: «من دواعي سروري أن أذهب لوحدي إن شئت، وبإمكانك البقاء هنا».

ـ «كلا، أنا لا أريد الامتناع عن الذهاب، ولكنني لا أحب مثل هٰذه المؤتمرات».

بيتر معترفاً: «بصراحة، أنا لا أحبها أيضاً. ولكن ليس أمامنا أي خيار آخر».

وكان طبيعياً أن ينعقد المؤتمر الصحفي ويبتدىء مع بدء دوي صفارات الإنذار. وبدا الوزير لطيف جاسم غير مكترث بالغارة الجوية، وعلى عكس البعض منا. وأكد للمراسلين أن بإمكانهم البقاء في بغداد، وأشار إلى أننا سنجري مقابلات مع الطيارين الأسرى في وقتٍ لاحقٍ. وعقب انتهـاء المؤتمر، أسرع الصحفيون إلى ساحة وقوف السيارات بينما شبك الوزير يده بيدي وسار معي، وقال: «هل غادرت شبكة سي. إن. إن العراق اليوم؟».

أجبته: «لقد غادر قسم صغير من طاقمنا. ولكني سأبقى هنا مع «نِك» و«بيتر»».

الوزير: «هٰذا حسن»، وربت على خدي برفق ومودّةٍ مضيفاً: «يجب أن تبقى هنا يا «روبرت». نحن نرحب بك هنا».

وعندما وصلت مع «آرنت» إلى ساحة وقوف السيارات، لم نجد أثراً للسيارة التي قدمنا بها.

وصرخت: «يا لها من فوضى». وشعرنا ونحن واقفان في الخارج بالخطر والشؤم من صفارات الإنذار العالية الصوت.

بيتر: «ربما استطعنا الصعود مع أحدهم».

قلت: «يبدو أن هٰذا هو الاحتمال الوحيد . . .».

وصاح أحد العراقيين من ساحة السيّارات: «أيها السيد . . أيها السيد»، وسرعان ما وثبنا إلى داخل السيارة. وشعرت بجوع شديد في طريق العودة إلى الفندق، وكان باستطاعتي سماع القنابل تسقط على مسافات كبيرة. ووصلنا إلى الفندق بعد دقائق، ولكن أعصابي أصبحت مشدودة ومتوتّرة بالرغم من المدّة القصيرة التي استغرقناها للوصول إلى الفندق. وقلت لبيتر بأنينٍ: «ربّاه . . ما حاجتنا إلى هٰذه الرحلة إلى الوزارة؟». ثم اتجهنا مباشرة إلى الملجأ حيث وصل إليه «نِكْ» للتو وكان ينتظرنا.

راجع «بيتر» ملاحظاته واستمع إلى الأخبار في الدور السفلي من فندق الرشيد. وادّعى العراق آنذاك إسقاط (٧٢) طائرة حربية للحلفاء، وهي زيادة كبيرة جداً منذ أن أعلن السيد ناجي قبل ذلك عن إسقاط (٤٤) طائرة. وصعدت مع «بيتر» بعد ذلك لنبدأ بثّ التقارير الإخبارية. وراجع السيد

علاء التقارير، ثم سمح لـ «بيتر» أن يقرأها على الهواء مباشرة، وما إن استهلَّ «بيتر» القراءة حتى دوت صفارات الإنذار.

ورفعت مصباحي الكهربائي اليدوي فوق نسخة التقرير، بينما باشر «بيتر» القراءة، وذكر: «من الجيّد أن نعاود الاتصال بكم من بغداد. تستمر حرب الخليج لليوم الثاني على التوالي، وبدأ للتو إطلاق صفارات الإنذار محذرة من وقوع غارة جوية. نحن الآن في ردهة فندق الرشيد، وقد طُلب من الآخرين النزول إلى الملاجيء، وهم يتوقعون هجوماً وشيكاً في أية لحظة». وأضاف:

«وقعت صباح هذا اليوم سلسلة من الهجمات على ضواحي بغداد ضد أهداف نجهلها نحن. وكان القصف الجوي خلال مساء اليوم الماضي قريباً من مركز المدينة بحيث هزّت الفندق الذي نقيم فيه. ويقـول مسؤولون في الحكومة العراقية إن القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية قد اصدرت بياناً عسكرياً رسمياً. ويدّعي البلاغ هذا بأن وسائل الدفاع الجوي العراقي أسقطت (٧٢) طائرة حربية تابعة للولايات المتحدة والدول الحليفة الأخرى منذ الغارات الجوية الأولى التي بدأت في ساعات الصباح الأولى من يوم الثلاثاء. وادّعى العراق اليوم أنه أسقط سبع طائرات؛ خمساً منها على جبهة القتال، واثنتين داخل الأراضي العراقية. ويقول البيان الرسمي أيضاً أن العراق وجّه ضربات مؤثرة على العدو وأشعل النيران في الأهداف التي ضربها موقعاً إصابات عديدة ـ وتلك كلمات البيان كما وردت.

تحدّثنا للتّو مع وزير الإعلام الذي عقد مؤتمراً صحفياً. وقد طلبت منه الشبكات الإخبارية تمكينها من مشاهدة بعض الأماكن المدمرة على أرض الواقع، وسُئِل عما إذا كان هناك طيارون أمريكيون من بين الأسرى، وهل توجد إمكانية الالتقاء بهم. وصرّح أن هناك طيارين أمريكيين أسرى، وباستطاعتنا الالتقاء بهم في وقت قريب، ولم يذكر الوزير أية إيضاحات أخرى.

تعمل فرق الصحافة الأجنبية الآن تحت إشراف جهاز الرقابة الحكومية الذي مارس مهامه ابتداء من اليوم. وطبقا لهذه السياسة، يتوجّب علينا تقديم التقارير الإخبارية إلى المسؤولين في وزارة الثقافة والإعلام لقراءتها سلفاً قبل بثها. وسُمح للمراسلين بالتجوّل في أنحاء العاصمة. وقد خفضت شبكة الـ سي. إن. إن من عدد أفراد طاقمها من تسعة إلى ثلاثة أعضاء، بينما استمرت فرق الصحافة الدولية في التضاؤل تدريجيا. وأصبح فندق الرشيد قبلة للرعايا الأجانب وملاذاً آمناً لهم ـ وقد وقع البعض منهم ومن دون قصد في أعمال واستفزازات عدائية ـ وهم يحاولون الآن السفر براً إلى الأردن. هذا «بيتر آرنت» من شبكة سي. إن. إن وفي تقريرٍ حيٍّ على الهواء من بغداد».

وشكر مذيع مركز أتلانتا «بيتر»، وكان قد مضى جزء من الليل. وصرح بيتر عندما استمر دوي صفارات الإنذار: «يا له من توقيت رائع. لقد كان وقتاً مثاليّاً يا «روبرت»، مثاليّاً بكل ما في الكلمة من معنى. إني أحب هٰذا»، وأخذ يضحك أثناء توجّهنا إلى الملجأ.

عدنا إلى مكان العمل في الحانة بعد انتهاء الغارة الجوية. أشعلت عدة شمعات ثم فتحت آخر زجاجة لدي من خمر الفودكا، وأوصلت المسجل من نوع (ووكمان) مع مكبّري صوت إثنين قابلين للحمل خاصين بزميلي «نِكْ»، ثم جلست جلسة استرخاء. وانضمَّ إلينا سعدون بعد حوالي ساعة، وكذلك السيد علاء، وناصر، والمراسل الصحفي البريطاني «باتريك كوكبيرن» من صحيفة الإندبيندنت، ومراسل آخر من صحيفة (آيرش تايمز). وجال «بيتر» ببصره في المجموعة ثم قال: «سنحتاج إلى مزيدٍ من الشراب. لديَّ بعضٌ من الويسكي الاسكتلندي في غرفتي».

لم يسمع العراقيون أبداً بالمغنّية «باتي أوستن» أو بأغنيات مثل: (الدخان يدخل في عينيك)، و(إبك عليَّ دموعاً مثل نهر) أو (لا يستطيعون أخذ ذلك بعيداً عني). وحملتنا الأنغام بعيداً لنتذكّر أوقاتاً أفضل في ظروف أفضل، وقال علاء مازحاً: «هٰذا رائع، كما تقولون أنتم بالإنكليزية». كانت هٰذه لحظات مميزة. وتحدثنا بصدق وصراحة عن عائلاتنا، وتبادلنا الأحاديث الودّية عن أسلوب حياتنا. وانقضت ساعات من غير أن نهتمَّ بعدها كثيراً بالقصف الذي بدأ من جديد. ولم يستعجل أحدٌ منّا العودة إلى الملجأ.

وبعد أن غنى «بيلي إيكستاين» أغنية (فصل الصيف) التي ضربت على الوتر الحسّاس وحرّكت مشاعرنا، قال ناصر: «أعد أداء هٰذه الأغنية من فضلك». وسأل بكآبة ممزوجة بتوق شديد: «لا أدري كم سينقضي من الزمن قبل.. قبل أن نقدر على العيش براحة ويسر؟».
فأجبته بحزن: «أعتقد أنه سينقضي وقت طويل قبل أن تتمكن من الحصول على عيش رغيد».

لا أذكر متى غلبني النوم وأنا متمدّد على مقعد طويل منجّد، بينما كان «هاري كونيك» يغني برقة في الخلف. غير أني أذكر أن تلك الليلة كانت من أفضل الليالي التي قضيتها على الإطلاق في أي مكان آخر. إنها مناسبة فريدة من نوعها، ولها صفة مميزة وطعم خاص لا ينقضي على مرِّ الدَّهر.

٢٣

قال الناطق العسكري العراقي في آخر تصريح له: «كان ردّنا باستخدام صواريخ أرض ـ أرض من أجل تحرير فلسطين والانتقام لمقتل أبي جهاد. إننا قادمون لنحررك يا فلسطين. أجدادنا فرحون في قبورهم عندما يرون احفادهم يدافعون عن فلسطين».

بعد قليل من قيام «بيتر» بتسليم تقريره الأول لذلك اليوم سرت في فندق الرشيد إشاعة بأن العراقيين على وشك أن يأمروا كل الصحفيين بمغادرة العراق. كان رد الفعل الأولي عندي هو الشعور بالارتياح، إذ لن أحزن لأني سأغادر. على الرغم من ذلك فإن آثار القصف الجوّي المستمر بدأت الليلة الماضية تؤدي إلى أعداد كبيرة من الضحايا. كنت أشعر أنها مسألة وقت فقط قبل أن يُضرب الفندق. تجوّلت داخل الحديقة لأجد سعدون. كان يجلس قرب أحد أجهزة هاتف الأقمار الصناعية المسمى «INMARSAT»، بينما كان «سيمبسون» و«سادلر» و«أسبل» يسلّمون تقاريرهم الصباحية. وسألته: «هل صحيح أن على الجميع أن يغادر؟».

فردَّ هامساً: «نعم، نعم، ولكن يجب أن نتحدّث، سآتي لأراك بعد قليل».

قلت لبيتر بينما كنت مسرعاً نحو البار: «هٰذه هي النتيجة، إنهم يطردوننا كلنا، سأُحضّر بعض السيارات».

فقال بغضب واهتياج: «اللعنة، كنت أعرف أن هٰذا ربما يحدث ولكن ليس بهٰذه السرعة».

فقاطعنا ناصر قائلاً: «أرجو أن لا تقلقوا، هناك أخبار سارة لكم، يجب أن تصبروا».

قلت لبيتر: «حسناً، سأحاول إيجاد بعض العربات بأي طريقة، فإن كان علينا أن نغادر، يفضّل أن نجد وسيلة المواصلات».

وأثناء سيري في الممر استوقفتني السيدة نهاد وقالت لي بحزن: «هل ستغادرون فعلاً؟ أرجوك يا سيد «روبرت»، إن ذهبتم أنتم فسنموت جميعاً».

فسألتها محذّراً: «ما الذي يجعلك تقولين ذلك؟».

ـ «السبب الوحيد أن الفندق لم يقصف هو وجودكم هنا.. بدون وجود صحفيين سيقتلوننا كلّنا».

ـ «لا أظن أن ذلك سيحدث». قلت محاولاً طمأنتها ولكني لم أكن واثقا مما أقول.

كان ناجي داخلاً إلى فندق الرشيد بينما كنت في طريقي إلى خارج الفندق، قال لي والتعب بادٍ عليه: «صباح الخير يا «روبرت»، كيف أنت اليوم؟».

قلت له مازحاً: «لا زلت حياً أُرزق. ما الذي سمعناه بخصوص وجوب مغادرة الصحفيين».

فقال موضّحاً: «إنه إجراء مؤقّت فقط، وفي الوقت الحاضر لا تتوفر لدينا الوسائل والإمكانات للعناية اللائقة بالعديد من المراسلين، وربما خلال عشرة أيام سنسمح لهم بالعودة. طبعاً يا «روبرت» بإمكان الـ سي. إن. إن البقاء. هل أبلغك سعدون بذلك؟».

ـ «لم يبلغني بعد، ولكن اظنّه كان سيفعل ذلك. قل لي يا ناجي لماذا يسمح لشبكة الـ سي. إن. إن بالبقاء؟».

ـ «لقد ثبت لنا أن تغطيتكم كانت دائماً متوازنة وغير متحيّزة. منذ أول أيام تواجدكم في بغداد كنتم غير منحازين...».

ـ «هل تعلم بأن ذلك سيطير صواب الآخرين...».

فردّ قائلاً: «هٰذه ليست مشكلتنا، نحن نمنح هٰذا الإذن لكم أنتم فقط».

همست في اذن «بيتر» قائلاً: «أظن أننا باقون حتى نهاية الشوط، كان الله في عوننا».

فصاح قائلاً: «هٰذه اخبار عظيمة، أي فرصة رائعة منحت لنا!!».

قال سعدون محذّراً: «أرجوكم، يجب عدم إبلاغ الآخرين، فذلك سيسبب مشاكل كبيرة. عليكم أن تذهبوا إلى غرفكم عندما يغادرون في الصباح. لا تقفوا هنا قرب البار بحيث يشاهدونكم ويبدأون بطرح الأسئلة والاستفسارات».

فقلت له: «لن يمكنكم إبقاء ذلك سرّاً. فأنتم تتعاملون مع صحفيين هنا».

«أرجوكم، سنبذل قصارى جهدنا». ثم قال واضعاً سبّابته على فمه: «ولا كلمة».

استمرّت الغارات الجوية على موجات، ربما ليس بنفس كثافة أول يومين، ولكنها كانت كافية لجعلنا نهرول مسرعين إلى الملجأ في مناسبات عدّة، وخلال إحدى هٰذه الغارات قطع خطنا الرباعي مع امريكا. كنت اتحدث مع أتلانتا أنقل بعض الرسائل الشخصية عندما قطع الخط فجأة. لم يعد هناك أي وشوشة أو طنين. لا شيء. وسألت «نك» الذي عبث بالوحدة قليلاً ليصل سريعاً إلى نفس النتيجة: «ما رأيك؟».

فأجاب: «قطع الخط».

ـ «سأتفحّص بعض الأشياء في الخارج وسأعود بعض دقائق». وذهبت مهرولاً إلى الغرفة (٩٠٦) ونظرت عبر النافذة. لقد تغير المنظر في الخارج. كان ثمّة شيءٌ مفقوداً. خلف السحابة الضخمة كان مبنى الاتصالات العام قد اختفى، لقد دمرّ عن بكرة أبيه. فقلت لنفسي «ضربة صاعقة، حسناً.. هٰذا ما كنّا نتوقعه». توقّفت في الغرفة (٩٠٣) وتناولت بعض زجاجات المياه المعدنية في الوقت الذي عدت فيه إلى البار كانت الغارة الجوية قد انتهت. قلت لـ «نك»: «أطلب

من شبكة الـ إن . بي . سي أن يرسلوا لنا رسالة بواسطة جهازهم الإنمرسات». هنا شاهدت منتج الـ إن . بي . سي «فكتور سايلوس» على العشب الأخضر «وبيِّن لهم أن خطّنا الرباعي قطع بينما كنا نتكلّم مع أتلانتا، وربما يكون المكتب هناك قلقاً علينا. قل له أن يبلغهم أننا سنتصل بهم بواسطة الإنمرسات حالما يتم تركيبه». وبدأت بإعادة ترتيب زجاجات المياه المعدنية وسط أغراضنا ومستلزماتنا الأخرى.

بعد أقل من دقيقة عاد «نك» وبدا مصدوما، وقال: «ذلك الشخص «فكتور» دفعني جانباً، وقال أنه لن يساعد الـ سي . إن . إن في شيء».

ـ «هل فهم أننا نريد إرسال رسالة إنسانية؟».

ـ «نعم فهم ذلك، وكذلك سعدون، فقد كان بالقرب منه».

قلت غاضباً: «ذلك الملعون!»، وشاهدت «فكتور» داخلاً إلى بهو الفندق فصحت عليه: «أنت! يا ابن الملعونة، كيف تجرؤ على دفع «نك»؟ وكيف تجرؤ على رفض إرسال طلب إنساني . . ؟».

فاعترض قائلاً: «لم أدفع «نك» . . ».

ـ «كاذب! قال «نك» إن سعدون كان هناك وشاهد كل ما حصل، ولماذا ترفض إرسال الرسالة . . ؟».

ـ «نحن لسنا ملزمين بمساعدتكم . . ».

«ملزمين؟ ملزمين لإرسال رسالة إنسانية؟ إسمع يا لعين من تظنّ نفسك؟ أُقسم لك يا «فكتور»، لا أعرف كيف، ولا أعرف متى . . ولكن أعدك أنني يوماً ما سألقّنك درساً. حتى لو ذهبت أنا شخصياً إلى «بروكاو» أو إلى «غارتنر» (وهو «مايكل غارتنر» رئيس شبكة الـ إن . بي . سي نيوز) أو أيّ كان، أعدك أن العالم سيعرف يوماً ما أنك أنت «فكتور سايلوس» حقير من الدرجة الأولى؟» . . وأضفت حتى أكمل البهدلة والتأنيب له بأن عليه أن يذهب ويطمّ نفسه وعدت إلى البار.

استغرق تركيب الإنمرسات عدّة ساعات، ورغم أن الوحدة الفعلية كانت في الخارج إلا أن «نك» ربط الأسلاك بطريقة تمكّننا من المهاتفة من البار. نقل تقرير «بيتر» الثاني والنهائي لذلك اليوم عن الناطق العسكري العراقي قوله بإسقاط (١٠١) طائرة من طائرات الحلفاء منذ بدء الحرب. وطلبت إذاعة بغداد من الناس أن يبحثوا عن الطيارين، وقالت إن الحكومة ستدفع عشرة آلاف دينار «لأي عراقي أو عربي» يمسك طيّاراً وعشرين ألف دولار لأي أجنبي يسلّم طيّاراً. وقال الناطق العسكري «ابحثوا عنهم. ولكن لا تؤذوهم». وفي تلك الليلة أظهر التلفزيون العراقي صوراً

لمنازل مدنية دمّرتها صواريخ كروز، وقال العراق إن «عشرات من صورايخ كروز» تمّ إسقاطها من قبل الدفاعات الجوية العراقية. لم يسمح لنا بإذاعة أن مبنى الاتصالات قد تمّ تدميره.

بدت الغارات الجوية في تلك الليلة التي قضينا معظمها في الملجأ أعنف من المعتاد. وفي تلك الليلة كان «برينت سادلر» يتمشّى وسألني مباشرة إن كان سمح لشبكة الـ سي. إن. إن بالبقاء في بغداد. كان هو والآخرون من المقرر أن يغادروا في الصباح. لم أجد مبّرراً للكذب وقلت له الحقيقة.

وسألني: «اسمع يا «روبرت». هل هناك طريقة ما يمكنك أن تطلب من العراقيين السماح لنا بالبقاء أيضاً؟».

فقلت له: «أرجو أن تعذرني، فذلك ليس من صلاحياتنا، ونحن لا نعمل مع العراقيين...».

- «أعرف، ولكن ربما لو طلبت...».

فقاطعته قائلا: «معذرة، فإنا لا أستطيع ذلك، أرجو أن تقدّر الوضع».

في صباح اليوم العشرين من كانون ثاني/١٩٩١ كانت كامل شبكات وفرق الصحافة الأجنبية قد انسحبت فعليّاً من بغداد. ولم يبق سوى الـ سي. إن. إن وعدد قليل من الصحفيين الأردنيين ومن بينهم ميشيل حاج، ومصور حروب متمرّس تابع لشبكة دبليو. تي. إن، وصحفي إسباني اسمه «الفونصو روجو». وأعطي الإذن بالبقاء لشبكة الـ سي. إن. إن والأردنيين، أما «روجو» فلم يسمح له بالبقاء في البداية. لقد تجنّب عملية الرحيل الجماعي بأن مكث في غرفته بكلّ بساطة متمارضاً. وقبل أن تغادر القافلة إلى عمان كتبت ملاحظة لإرسالها إلى «بيتر هومي». ورغم أننا سنبلغ أتلانتا بواسطة الإنمرسات إذا تعطّلت الاتصالات ولكني أوردت أن أوضّح الأمور. كتبت في الملاحظة ما يلي: «وجهت الدعوة إلى كل من «روبرت وينر»، و«بيتر ارنت» و«نك روبرتسون» للبقاء في بغداد لإكمال التغطية الإعلامية لشبكة الـ سي. إن. إن، إنها فرصة صحفية فريدة من نوعها وقد قرّرنا أن نستغلها. سوف نقيّم الوضع يوماً بيوم ونقرّر الخطط المستقبلية بناء على ذلك. سوف نبلغ أتلانتا هذا القرار عبر الهاتف، ولكن من باب الاحتياط.. نطمئنكم، نحن جميعاً بخير ومعنوياتنا عالية».

ولكن تلك المعنويات العالية لم تستمر طويلاً. بدأت من بعيد كنوع من القعقعة التي ازدادت تدريجيّاً باقترابها، وخلال ثوان تحوّلت القعقعة إلى صفير عالٍ مندفعٍ عبر الهواء. نظرت إلى الخلف ثمّ اتجهت صوب «نك» الذي كان يقف على بعد خطوات، وفي نفس الوقت كنت ابتعد غريزياً عن النافذة. لم أخطو أكثر من خطوة واحدة عندما حطّم انفجار يصم الآذان أعلى من أي شيء سبق أن سمعته في حياتي زجاج النافذة وقذفني بعنف عبر البار. في تلك اللحظة القصيرة تمّ

فعليا رفعي وقذفي من أحد جانبي الغرفة إلى الجانب الآخر، وكان هبوطي على معدتي وذراعاي ممدودتان، وقد التقطت حقيبتي التي كانت لحسن الحظ في متناول اليد. ثم هرولت أنا و«نك» مسرعين نحو الملجأ وكأن حياتنا كانت تعتمد على ذلك.

لقد كنت خائفاً، ولم أستطع أن أمنع يديّ من الارتعاش، كنت أستعمل يدي اليسرى لتثبيت اليد اليمنى وأستعمل اليد اليمنى في تثبيت اليد اليسرى. لم تكن هٰذه هي المرّة الأولى التي أتواجد فيها تحت القصف ولم تكن المرة الأولى التي أتعرض فيها للقتل، ولكن قوة صاروخ توماهوك التي أثرت على فندق الرشيد وفجرت أو على الأقل أدّت إلى تطاير كل زجاج النوافذ في الردهة والبار وضعتني وجهاً لوجه أمام فنائي، وهو شيء لم يسبق لي أن مررت به من قبل. في خلال تلك اللحظة المرعبة والرهيبة والخطرة، رأيت «ألين» و«جيسي» و«جيك» وكل شيء أحببته. تناولت سيجارة ولم أتمكّن من وضعها في حاملة السجائر، كنت متوتراً ومحطماً. قال لي نك وهو يهز رأسه: «لو أنك رأيت نفسك، لقد سبحت بالفعل عبر الغرفة. هل أنت بخير؟».

قلت له متنهّداً: «أظن ذلك».

ـ «لو أنك لم تبدأ بالتحرك لكنت الآن في خبر كان، أو لتعرضت على الأقل لجروح بليغة بسبب الزجاج».

ـ «أخبرني ماذا حدث. يا إلهي، ما هٰذا الكابوس!».

كان الكل يركض نحو طابق التسّوية الآن بينما الغارة الجوية مستمرة. اهتزّ الفندق عندما سُمع صوت انفجارين آخرين في الخارج. لم يكونا قريبين كالانفجار الأول، ولكن قوتهما كانت كافية لتهز طمأنينة الواحد منا بالنسبة للأمان الذي يمكن أن يوفره الملجأ. سمعنا صوت أنين أحد أعضاء فريق السلام يقول: «يا إلهي، يا إلهي، أوقفوا هٰذا». وبعد بضعة دقائق ظهر «بيتر»، إذ كان نائماً في غرفته عندما بدأ القصف.

ـ «يبدو أن هٰذه غارة كبيرة أيها الرفاق»، قال «بيتر» ذلك بينما كان فندق الرشيد يهتزّ من صوت الانفجارات، ثم سألني: «هل أنت بخير؟» لقد خمّنا أن شيئا ما غير طبيعي، وربطنا أنا و«نك» ذلك بما حدث فوق قبل قليل . .

ـ «ولكنك على ما يرام، أليس كذلك؟».

ـ «لم أصب بأذى إن كان ذلك ما تعنيه ولكني . .».

وهنا صاح سعدون من الطرف الآخر للملجأ: «لقد أسقطنا طائرة! لقد أسقطنا طائرة!، إن ذلك حقيقة يا «روبرت»، لقد أسقطنا طائرة خلف ملاعب التنس». كان سعدون مبتهجاً كالطفل

الذي حصل على ما يريده بالضبط من أجل العيد. وقلت في نفسي: يا إلهي! هٰذا أسوأ من منطقة الشفق (من حيث الحيرة في الانتماء)، ماذا يفترض أن أقول هل أقول مبروك؟

ثم سأله بيتر: «كيف عرفت أنها طائرة وليست صاروخ كروز؟».

قال سعدون مصرّاً: «إنها طائرة، رآها جنودنا وأسقطوها».

بعد قليل قال ميشيل حاج هامساً: «إنه صاروخ لقد رأيته يسقط عندما كنت في غرفتي».

- «هل تمّ إسقاطه؟».

- «من الصعب معرفة ذلك. ربّما تم إسقاطه، ولكن قد يكون ضلّ هدفه . . أنا متأكّد أن بعض الناس قد قُتلوا رغم ذلك. لقد نزل في وسط مساكن العمال (عمال الفندق)».

- «اللعنة . . ».

صاح سعدون قائلاً عندما دخل إلى الملجأ إثنان من موظفي وزارة الثقافة والإعلام مسرعين يحملان قطعاً محترقة من حطام الطائرة: «هٰذه يا «روبرت»، هٰذه هي الطائرة، انظر بنفسك، هنا، انظر إلى الأرقام المتسلسلة. هٰذا دليل! بإمكانك أن تأخذ صوراً لها».

في هٰذا الوقت كانت الغارة الجوية قد انتهت. سألنا سعدون إن كان بإمكاننا رؤية الطائرة «بأنفسنا، وسألنا بعد ذلك عن الطيار وأين هو الآن. وَعَدَنا سعدون قائلا: «فيما بعد، المنطقة مغلقة الآن . . لأسباب أمنية».

همس نك قائلا: «كلام فارغ، هل بالإمكان أن نتحدث قليلا؟».

قلت له بينما كنا نسير مبتعدين عن الآخرين: «طبعاً، ما الأمر؟».

- «لقد بدأت تأتيني أفكار أخرى حول وجودنا هنا . . ».

قاطعته قائلا: «وأنا كذلك، ولكن دعنا نناقش ذلك فيما بعد . . بهدوء، وبعيداً عن كل هٰذا . . ».

قال نك: «حسنا، طالما أنك تحسُّ بذلك».

لا حاجة للقول أن البار كان مليئا بالزجاج المكسور، حتى إن قوّة الانفجار انتزعت بعض النباتات وجعلتها تطير في الهواء عبر النافذة. عندما قمنا بمعاينة الأضرار استنتجت أنني فعلاً كنت محظوظاً، وقد وافق «بيتر» و «نك» على ذلك. كان يمكن أن يكون الأمر أسوأ من ذلك بكثير.

قال بيتر عندما جلس ليبدأ الكتابة: «أخبروني أيها الرفاق ثانية ماذا حدث، سوف يكون موضوعنا الرئيسي مغادرة زملائنا الصحفيين ثم نتحدث عن هٰذه الغارة الأخيرة. لن أقول إن الذي

تمّ إسقاطه طائرة. إذ لا يوجد دليل على ذلك، أنت توافق على ذلك يا «روبرت»، أليس كذلك؟».

ـ «طبعا، ولكن أظن أن من الأفضل أن تسمّيه صاروخاً، وفوق ذلك «ميشيل» يقول إنه رآه . . ».

ـ «نعم أنت على حق فيما تقول» . . قال ذلك بينما تابع الضرب على الآلة في كتابة النص.

راجع السيد علاء التقرير وبثّه «بيتر» على الهواء مباشرة. عجبت كيف سيكون ردّ فعل عائلتي عندما سمعوا «بيتر» يصف كيف أن «مخرج الـ سي. إن. إن «روبرت وينر» طار عبر الغرفة»، رغم أنه تابع بسرعة قائلاً إنني لم أصب بأذى، إلا أنّ النبأ كان مقلقاً. كنت لا زلت متوهّجاً من تأثير النجاة، وجعلت استمع بوصف «آرنت» لآخر بطولة لي.

في وقت لاحق من تلك الظهيرة قال ناجي: «نعتقد أن من الأفضل أن تغادروا الفندق، وهٰذا من أجل سلامتكم، سوف نأخذكم إلى مكان آخر وبإمكانكم الاستمرار في عملكم من هناك».

فسألته: «وأين ذلك!».

ـ «لا أستطيع أن أخبرك عن الموقع، هناك مواقع مختلفة حتى إن بعضها خارج بغداد ولكنها كلها آمنة»، قال ذلك بإصرار ونظر حول البار ثم تابع «سوف تتجنبون شيئاً كالذي حدث اليوم، أعدكم بذلك».

لم تعجبني فكرة مغادرة فندق الرشيد وأستطيع أن أقول إنها لم تعجب «نك» أيضا. أما «بيتر» فقد بدا من ناحيته غير مكترث.

فقال نك: «ليست العملية مجرد أن نحمل أغراضنا ونرحل، لا تنس أننا سنستعمل جهاز الإنمرسات، إننا نحتاج إلى إحداثيات معينة حتى نجد القمر الصناعي، فإذا ما غيّرنا الموقع تتغير تلك الإحداثيات تلقائياً، كما أننا نحتاج إلى مولّد الكهرباء . . ».

قال ناجي: «سنحمل كل شيء على شاحنة، ولن تكون هناك مشكلة».

فقلت: لا أعرف يا ناجي، أنا لا أحب فكرة الانتقال من مكان إلى آخر دون معرفة إلى أين سنذهب . . ».

ضحك ضحكة خافتة وقال: «ليس مهمّاً أن تعرفوا أين أنتم ذاهبون، المهم أن تكونوا في مأمن».

قاطع بيتر بلباقة قائلا: «هٰذا أمر نحتاج إلى مناقشته فيما بيننا». ثم سأل عندما أصبحنا نحن الثلاثة لوحدنا: «أيها السادة، إن كان لا يوجد عندكم مانع . . ما الذي يقلقك يا «روبرت»؟».

ـ «الذي يقلقني هو أن نحمل في عربات ونلف البلاد لأسابيع دون أن نعلم إلى أين نحن ذاهبون . . ».

قال نك : «وأنا أوافقك الرأي ، إذ بمجرد أن نغادر الفندق نصبح معتمدين عليهم بالكامل، خاصة أنه لا يوجد عندنا سائقون ولا أي شيء آخر بالفعل . . ».

قال بيتر مغامراً : «إنها ستكون تجربة ممتعة ، وقصة مثيرة جداً . . ».

قال نك : «هٰذا إن استطعت أن تنقلها ، أشك في أن لك أن تقول أين أنت . . ».

ثم سأل بيتر : «حسناً أيها الرفاق ، ماذا تقترحون أن نفعل؟».

ـ «أريد أن أقــول لك يا صديقي ، رغم أني لا أحب أن أقــول ذلــك، ولكني أميل إلى الانسحاب، وذلك ليس بسبب ما حدث لي هٰذا اليوم فقط ، إلا أنني أيضا لا أستطيع أن أضع عائلتي في قلق بسبب عدم معرفتهم أين أنا إذا ما تنقّلنا من مكان إلى آخر في العراق . فذلك يقلقني يا «بيتر» ، يقلقني حقيقة . أنت تعلم ، أنني كنت دائماً أقول إن عليّ أن أتبع ما تقوله لي نفسي والآن أشعر أنني أريد أن أغادر وذلك على الأقل الآن».

قال نك : «وأنا عندي نفس الشعور، ولم أكن كذلك يا «بيتر» لكنت مكثت معك هنا».

قال بيتر : «هٰذا جيد بما فيه الكفاية أيها الأخوة ، إني أُقدّر ما تقولون ولكني أعتقد أن من المهم أن يبقى أحدنا وأنا لا زلت مستعداً لذلك سواء كنا هنا في فندق الرشيد أم لا ، فهذه فرصة كبيرة جداً يصعب تركها ، ولكن ماذا بالنسبة لجهاز الإنمرسات؟ عليكم أن تعلموني كيف أستعلمه».

قال نك : «ذلك سهل جداً ، يمكنك أن تتعلم ذلك ظهيرة هٰذا اليوم» .

قلت ضاحكاً : «يفضّل أن تجرب ذلك مرّتين ، إن «بيتر» لم يأخذ جائزة بولتزر بسبب الهندسة».

صاح بيتر قائلا : «جائزة بولتزر للهندسة ، رائع جداً!» .

سألني توم جونسون عندما خابرت أتلانتا هاتفياً : «كيف أنت شخصياً يا «روبرت»» ، هل أصبت بأذى على الإطلاق؟» .

ـ «أنا بخير يا «توم» ، لقد أُصبت برعب شديد فقط ، هٰذا كلّ ما في الأمر، ولكني أنا و«نك» سنغادر غداً ، أما «بيتر» فسيمكث هنا» .

ـ «هل تحتاج إلى أية مساعدة؟ هل أتصل بـ «ألين»!» .

ـ «ساحاول الاتصال بها بعد هٰذه المكالمة . . » .

قال توم : «أريد أن أعرف نوع ولون السّيارة أو السيارات ، والوقت الذي تنوون فيه المغادرة . .

أظنك تعلم أن الطريق إلى عَمان أصبحت خطرة جداً، فهناك على جانبي الطريق كل أنواع الأشياء التي تثير اهتمام التحالف . . » .

ـ «فهمت، سوف نغادر في حوالي الساعة السابعة والنصف صباحاً في سيارتي هوندا؛ السيارة الأولى حمراء اللون والثانية بيضاء. سنصل طربيل إن تيسرت الأمور في حدود الساعة الواحدة» .

قال توم : «سنتأكد أن مكتبنا في عَمان سيرسل واحداً لاستقبالكم» .

أبلغت «توم» عن موضوع مغادرة الفندق ووضعت «بيتر» على الخط، الذي قال لـ «توم» إنه مستعدّ للبقاء من أجل هٰذا الأمر مهما كانت الظروف. عندما استمعت إلى «بيتر» شعرت بالإعجاب تجاهه، وقلت في نفسي إنه لا يوجد مراسل في العالم يقوم بما يقوم به، ولا أوفيه حقّه لو قلت إنه فريد من نوعـه. كان دائمـاً يقول إنه يأمل أن ما يقوم به سوف يكون حافزاً للأجيال القادمة من المراسلين. ولكن فيما يتعلق بمعاصريه من المراسلين فإن «بيتر» لا مثيل له.

«يا إلهي! ما هٰذا؟» . . صحت على «بيتر آرنت» عندما ظهرت الصور على الشاشة، كانوا سبعة طيارين أسرى ظهروا واحداً تلو الآخر. ثلاثة منهم أمريكيون وبريطانيان وإيطالي واحد وآخر كويتي، وقد ظهروا في مقابلة معهم على التلفزيون العراقي. كان منظراً يهتزّ له الوجدان عندما كان الطيارون يجيبون على الأسئلة وهم لا زالوا يلبسون بزّاتهم العسكرية ومنظرهم يبدو كالحيوانات المصطادة التي لا زالت دائخة ويجري تجهيزها للذبح. وكان أحدهم ملازم طيار بحري عرّف نفسه باسم «جيفري زاون» بدت حالته سيئة بشكل خاص، كانت بوجهه رضوض كثيرة، وعجبنا إن كانت جروحه ناتجة عن سقوط الطائرة أم أنه تعرَّض للتعذيب. قال زاون بنغمة متكلّفة ورتيبة : «لقد أخطأ قادتنا وشعبنا بمهاجمتهم شعب العراق الآمن» .

أما ضابط البحرية «غاي هنتر» الابن الذي كانت عينه اليسرى متوّرمة حتى بدت مغلقة فقد قال : «أنا أُدين العدوان ضدّ العراق الآمن، وأعتقد أن هٰذه الحرب من الجنون بحيث يجب أن لا تحدث» .

وهنـاك ملازم طيار بريطاني اسمه «جون بيترز» بدت حالته الأكثر سوءا. وعندما ظهر على الشاشة كان لون وجهه أسود وأزرق، ورأسه متدلّ إلى أسفل وعيناه تتجنّبان النظر إلى الكاميرا ظننت أنه فقد إحدى أذنيه، قلت لبيتر: «اللعنة، هل من الممكن أن يكونوا قد قطعوها؟ ولكن بعد قليل اعتدل «بيترز» وظهرت أُذنه غير مبتورة. وعندما شرح كيف تم إسقاط طائرته بصاروخ أرض ـ جو كانت معنوياته محطّمة. قلت لبيتر: «إنني حقيقة أشعر مع هؤلاء الأشخاص، إنهم خائفون إلى درجة الموت» .

قال بيتر مستذكراً: «ذلك ليس سهلاً، إني أذكر المقابلة مع الأسرى الأمريكيين في هانوي، كان ذلك شعوراً غريباً».

ثم سألت سعدون: «هل يمكننا الحصول على نسخة من هٰذا الفلم، أريد أخذه إلى عَمان».

قال سعدون: «سيقوم السيد الحديثي بإحضار الأفلام إلى الفندق الآن، وستحصل عليها بعد قليل».

قال نك مقترحاً: «كما تعلم يمكننا إرسال الصوت إلى أتلانتا الليلة، إن كان لدينا جهاز أشرطة بال «PAL». إذ سيكون من السهل نسبيّاً ربطه بجهاز الإنمرسات».

قال ميشيل حاج متطوّعاً: «يمكنك استعارة جهازي». كانت أجهزة دبليو. تي. إن متطابقة مع أجهزة التلفزيون العراقي.

فقال نك: «عظيم!» ثم ذهب مع ميشيل لإحضار الجهاز إلى البار.

أظهرت الأخبار صوراً لما قال عنه المذيع كنيسة مارتوما في مدينة الموصل شمال العراق. قال سعدون موضّحاً: «هٰذه من أقدم الكنائس الكلدانية في كافة أنحاء العراق، انظر كيف تمّ قصفها». وصل ناجي بعد قليل ومعه الأشرطة وقمنا بإرسال مقابلة الطيارين إلى أتلانتا. طبعا.. أُصيبت الشبكة بالارتعاد. كان بث الفلم مقصوراً أيضاً على شبكة الـ سي. إن. إن فقط، وكان دليلاً على أن الطيارين المفقودين لا زالوا أحياء. وبالرغم من ظروفهم الباعثة على اليأس إلا أن ذلك سيسبب الارتياح لعائلاتهم.. ولكن ذلك أدى إلى تفجير موجة أُخرى من الانتقاد لشبكة الـ سي. إن. إن التي ادّعى منتقدوها أنها تستعمل كأداة من قبل صدام حسين.

قال ناجي: «هكذا إذن يا «روبرت»، ستغادرنا غداً صباحاً..».

ـ «أظن ذلك، ولكن ليس بدون هواجس».

ـ «طبعا يمكنك أن تعود وقتما تشاء، وسيمنحك سعدون إذناً خاصاً».

ـ «لا أقدر أن أشكرك على مساعدك يا ناجي، كما تعلم سوف أشتاق لبغداد.. ليس بالضرورة في ظروف كهذه.. ولكن هٰذه المدينة وشعبها أصبحت لها خصوصية عندي».

فقال ضاحكاً: «ونحن أصبحنا أصدقاء».

ـ «لقد وفيت بكل ما وعدتنا به وكنت لطيفاً معنا، ولا أستطيع أن أطلب من صديق أكثر من ذلك. أنا واثق أنك ستفعل الشيء نفسه مع «بيتر»».

ـ «طبعاً..» قال ذلك وتقدم صوبي وعانقني.

قلت بصوت خافت: «قلبي معك ومع عائلتك، أرجو الله أن تكتب لنا النجاة جميعاً».

- «أتمنى لك رحلة آمنة. سنرسل ناصر معك للتأكد من عدم مواجهتكم مشاكل على الحدود».

فقلت ضاحكاً: «خدمة ممتازة حتى النهاية».

وقال: «هٰذا قليل نفعله من أجل صديق».

٢٤

كان السائق كريم خارج الفندق في تمام الساعة السابعة والنصف، لكن سائقنا الثاني تأخّر عن الحضور. قلت لكريم: «تبّاً، إذا لم يحضر خَلَف إلى هنا خلال (١٥) دقيقة فسوف نحضر شخصاً آخر». ثم تذكرت أننا كنا مقيدين بألوان السيارات . . ثم قلت بشيء من الهمهمة: «اللعنة! لنلتقط بعض الصور».

ووقفنا أنا و«بيتر» و«نك» أمام جهاز الإنمرسات «Inmersat» في حين كان عمّال الفندق في غفوة. قلت لآرنت: «من الواضح أن الأمر متروك لك، لكني في الحقيقة قد أفكّر مليّاً قبل مغادرتي الفندق. ما زلت أعتقد أنها ليست بالفكرة الحكيمة».

قال آرنت: «سنرى، قد تكون مصيباً». لقد تحدثنا في الأمر مرّة أخرى في الليلة الماضية في الملجأ، لكن «بيتر» كان مصمّماً على تحمّل مشقّة الأمر بصرف النظر عن المكان الذي قد ينقله إليه العراقيون. ووجدت نفسي ثانية معجباً بثباته وشجاعته. وحينما وصل خَلَف أخيراً إلى فندق الرشيد قال: «أرجو المعذرة، لقد كان من الصعب جداً أن أجد وقوداً . . جميع الأماكن مغلقة».

- «علينا التوقّف ربّما في الرطبة».

- «وهل ستكون محطة الوقود مفتوحة؟».

فأكّد لي كريم قائلاً: «أجل . . ليست هناك مشكلة».

- «حسناً، إذن لننطلق». وودّعنا «بيتر» والسيد علاء والعديد من العراقيين الذين تجمّعوا على الأدراج خارجاً. واستقلينا أنا و«نِك» وناصر في سيارة كريم في حين كان خَلَف ينقل الأمتعة. وأعتقد بأن الشمس كانت تبزغ من خلال السُّحُب فيما كنا ننسحب مبتعدين، لكني لست واثقاً من ذلك.

كانت الطريق السريع الموصلة إلى عَمان مهجورة بشكل خاص، وبعد حوالي (١٠) دقائق من خروجنا من البلدة مررنا بكتلة هائلة من الركام كانت سابقاً بناية ضخمة قبل أن تفجّر، وكان الدخان ما يزال ينبعث من قضبانها الفولاذية الملتوية والضاربة إلى السواد. سألت ناصر: «ماذا كانت هٰذه البناية؟». قال: «مصنع للأقمشة». ولم يكن لديّ وسيلة تمكنني من معرفة حقيقة ذلك، لكني لاحظت أنه لم يكن هناك أهداف استراتيجية على طول الطريق، وكانت جميع أبراج الاتصالات ما تزال منتصبة وبارزة بصورة تدل على عدم مساسها بأي أذى. وبين الحين والآخر كنّا نصادف سيارة تسير بالاتجاه المعاكس. ومما يثير الدهشة، ذلك العدد الكبير من الشاحنات الكبيرة القادمة من الأردن. فرغم الحرب والحظر إلّا أن التجارة كانت مستمرة.

قال ناصر: «إنهم يجمعون مالاً وافراً هٰذه الأيام، الكثير الكثير من المال».

قاد كريم السيّارة بسرعة عالية مطّردة. وكنت دائم النظر للوراء للتأكد من وجود خَلَف وراءنا. وبين الحين والآخر كنت أخرج رأسي من النافذة لأتفحّص السماء بدقّة. واعتماداً على ما قاله «توم»، اعتبرت أننا كنا مراقبين. وقد سمعت في مكان ما أن لدى الولايات المتحدة أقماراً صناعية جبّارة قادرة على التقاط صور لأرقام لوحات السيارات. وكنت آمل أن يكون هٰذا صحيحاً.

توقّفنا للتزوّد بالوقود في بلدة الرطبة على بعد حوالي (١٤٠)كم من الحدود الأردنية. وكانت محطة الخدمات الوحيدة في المدينة قريبة من مرافق مواصلات كبيرة. وفيما نحن نصطف وراء ما يزيد على اثنتي عشر سيارة تنتظر تعبئة خزاناتها بالوقود قلت لناصر «لا أصدق ذلك». فقال ناصر: «ثق بي، هٰذا ليس بالمكان الذي نريد أن نكون فيه». وقفز من السيارة، وبعد حديثه مع عامل المحطة أشار لنا بأن نتجاوز الصف. لقد نجحت بطاقته الصادرة عن وزارة الثقافة والإعلام في القيام بالخدعة. فلو لم يكن معنا لما عرفت ماذا كان سيحدث. وفي هٰذه الأثناء كنت متوتّراً للغاية بحيث اعتقدت بأن صوت منشار إحدى ورشات الأثاث هو صوت صفارة الإنذار من غارة جوية. ويقول «نك» إنني قفزت من على مقعدي.

وصلنا إلى طربيل بعد الواحدة بقليل. كانت الحدود مكتظة بالمئات ممن يحاولون العبور، وكان الكثيرون منهم هنوداً وباكستانيين، لكن الأردن التي كانت تعجّ باللاجئين أغلقت حدودها. وقد ساعدنا ناصر في الإجراءات الجمركية والمغادرة. ودفعت لكل من كريم وخلف بضعة آلاف من الدولارات، وأعطيت لكل منهم، بما فيهم ناصر، إكرامية كبيرة؛ فقد خاطر كل منهم بحياته من أجل سلامتنا. ثم قلنا وداعاً.

وأقلّتنا سيارة تابعة لشبكة دبليو. تي. إن مسافة تقرب على الأربعين ميلاً عبر الأراضي الخالية الفاصلة بين طربيل ونقطة التفتيش الأردنية في الرويشد حيث كان بانتظارنا «دان فرناد» وهو أحد

المنتجين العاملين معنا في عَمان وإثنان من سائقي الـ سي . إن . إن وبعدما بدا وكأنه زمن لا ينقضي أمضيناه في الجمارك ودائرة الهجرة، خرجنا ثانية إلى الطريق ووصلنا العاصمة الأردنية بعد حلول الـظلام. وحينمـا دخلت مكتب الـ سي . إن . إن في الطابق العاشر من فندق فيلادلفيا ضحكت أنغريد قائلة: «هنا يا «وينريش»، أعتقد أنّه بإمكانك تناول كأس من هٰذا» . . وقدّمت لي كأساً طويلة من مشروبي المفضل.

وبكت تريسي وهي تضمّني: «أهلاً بعودتك يا «ويني»». وقالت كريس: «إنه لأمر رائع أن نراك ثانية». وبعـد التـرحيبـات الحـارّة والعنـاق مع بقية أفراد الطاقم التقطت الهاتف واتصلت بـ «ألين». تنفّستْ «ألين» الصعداء وهي تقول: «أنت حقّاً في عَمان، أوه، إنني مسرورة للغاية . . وفخورة جداً. وهل أنت بخير؟».

ـ «أنا بخير . . وكيف الأولاد؟».

ضحكت قائلة: «إنهم بخير . . كالمعتاد».

لكن ضحكتها كانت عصبية، وسألتها: «هل هناك أمر سيء؟ . . صوتك يبدو غريباً».

قالت بلطف: «الأمـر يتعلق بوالدك، لقد أصابته نوبة قلبيّة وهو الآن في المستشفى. لقد تحدّثت بالطبع مع والدتك وسأزوّدك بكل ما لديَّ من معلومات، لكن يجب أن تتأكد بنفسك من الطبيب». وأعطتني رقم الهاتف في فلوريدا.

ـ «يا إلهي، متى حدث ذلك؟».

قالت: «منذ يومين، لقد فكرت أن أرسل لك رسالة إلى بغداد، لكن . . ».

ـ «أنا مسرور لأنك لم تفعلي ذلك، فلم يكن بمقدوري استلام أو إرسال رسائل من هناك». وأخبرت «ألين» أنني سأعاود الاتصال بها فيما بعد، واتصلت بعد ذلك بالرقم الذي أعطتني إياه. كانت حالة أبي خطرة وكان يتنفّس بواسطة جهاز تنفّس. وقالت الممرضة: «إننا نحاول تخليصه من حالته، وهو يتحسّن بشكلٍ مطّرد».

قال إيرل كاسي قبل تحويل المكالمة لمكتب توم جونسون حيث كان إدْ وإيسون هناك أيضاً: «إنني فخور بتعرفي عليك يا «روبرت». وحينما أخبرت «توم» عن حالة والدي سألني قائلاً: «هل تريد السفر إلى فلوريدا الليلة؟».

قلت: «لا، سوف أتصل بالمستشفى في الصباح، وأتولىّ الأمر من هناك».

ودخل إدْ على الخط مقاطعاً: «حسناً، إذا احتجت لأي شيء أعلمنا به فقط».

قال توم: «لقد وصلتنا أخبار من «بيتر» في وقت سابق، سوف يبقى في فندق الرشيد بعد كل

ما حدث. لقد أخبر العراقيين بأنه لن يغيّر موقفه. ويقول «بيتر» . . إنه ما يزال بإمكاننا إحضار أجهزة الإرسال، ما رأيك؟».

ـ «أعتقد أن علينا القيام بذلك. يجب أن لا تكون التأشيرات مشكلة. لديّ كتاب خاص من ناجي يتضمّن بشكل أساسي أنني و«أنغريد» يمكننا الحصول على تأشيرة لأي شخص نريد. سوف أعرج على السفارة هنا في الصباح وأقابل الشخص المسؤول عن الصحافة».

سأل إيسون: «ومن هو الذي تقترح إرساله؟».

ـ «لا أدري بعد، يجب أن أفكر بالأمر. قد أذهب بنفسي وذلك اعتماداً على ما يقوله «بيتر»، لكني قلق بشأن والدي . . ».

وقاطعني توم: «يجب أن يكون ذلك أول أولوياتك، لكن إذا كان بإمكانك المساعدة في تنظيم الأمور . . ».

ـ «هذا أمر مفروغ منه . . سنتحدث بالتفاصيل في الصباح . . ».

وقبل أن أثمل تماماً هاتفت سايندي في تكساس. فانتحبت قائلة: «أوه «ستيمي»، إنني مسرورة بسماع صوتك». وأخبرتها عن والدي وسألتها عن صحة والدتها. فقالت: ««روبرت»، سوف أقول لك هذا مرّة واحدة فقط ولذلك يحسن بك أن تتذكر ما سأقوله جيداً. سوف أحبك دوماً لأنك أنقذت حياة والدتي. فلولا إصرارك على مغادرتي بغداد لكانت قد ماتت. لكني جلست على سريرها وأمسكت يدها واعتنيت بها وعاشت. والآن عليك القيام بالشيء نفسه مع والدك».

قلت لبيتر هومي: «أريد دهان هذه الشاحنة كعربة السيرك، خطوط ملونة، نجوم . . ، وحتى شمس صفراء كبيرة. وطباعة سي. إن. إن على جميع أنحاء العربة، فحينما تنطلق هذه العربة الحمقاء على الطريق أريد أن يعرف كل طيّار من الحلفاء ماهيتها». وقبل مغادرتي لفلوريدا أردت عمل ثلاثة أمور: اختيار الطريق الذي سيذهب لبغداد، والتأكّد من أن الشاحنة التي ستنقل معدات الإرسال يمكن تمييزها من الجو، ومقابلة الملك حسين للحصول على إذن منه بنقل معداتنا عبر ما يعتبر من الناحية التقنية منطقة عسكرية أردنية وهو ما كان لغاية الآن، ومن الواضح أن الملك هو الشخص الوحيد القادر على تحقيق ذلك.

خلال يومين كان كلّ شيء جاهزاً. «فيتو ماجيولو»، رئيس مكتب توظيف الشبكة في واشنطن وافق على أخذ مكاني في بغداد، وسيكون المصور «ديف رست» وهو زميل قديم من لوس أنجلوس. كان الله في عون «نِك» حيث سيعود لبغداد مع خطيبته المراسلة «مارغريت لوري». وإذا دعت الحاجة يمكن لـ «مارغريت لوري» أن تدعم «بيتر» وتعمل كمنتجة ثانية. كما أن «جاي

إيرس» وهو مهندس يعمل بشكل مستقل مع الـ سي. إن. إن يمكن أن يقدّم التقنية لـ «نِك».

اتصلت بالسكرتير الصحفي للملك وحدّدت معه موعداً فأخبرني بأن القصر سيرسل سيارة لتأخذني. استقبلني الملك حسين والملكة نور في صالون صغير أنيق الأثاث تزيّنه طاولة معروض عليها صور فوتوغرافية لبعض رؤساء الدول، وكانت صورة صدام حسين هي الأكثر بروزاً بينها. (وكل من صور البابا و«بوش» تقبع وراء صورة «فيليب» أمير إنجلترا). كانا يرتديان ملابساً عادية؛ فالملك يرتدي كنزة سوداء وسترة رياضية، والملكة ترتدي ملابس رياضية حريرية من بلوز وبنطال فضفاض. وكان كلاهما على درجة عالية من الفضول لمعرفة الوضع في بغداد، وبدا عليهما القلق بشأن عواقب الحرب طويلة الأمد. قال الملك بضجر: «هنالك اعتقاد في الغرب بأنني أيّدت صدام حينما غزا الكويت، وببساطة فإن هٰذا غير صحيح. فالأردن أدان الغزو والعنف الذي لحق بذلك الغزو. لكن ماذا بإمكاني أن أفعل؟».

وأوضحت الملكة نور قائلة: «لقد علقنا في الوسط، فنحن نشترك في الحدود مع العراق، وغالبية شعبنا من الفلسطينيين. هناك حقائق سياسية مؤكدٌة . . ».

فقلت: «كان من المفيد لو أنكم أجريتم لقاءً آخر مع الـ سي. إن. إن حتى تساعدو على وضع الأمور في نصابها الصحيح».

قالت الملكة مؤيدة: «يجب عليك . . كما تعلم».

تنهّد الملك قائلاً: «ليس الآن، هٰذا ليس بالوقت الملائم. المهم، كيف يمكنني مساعدتك؟».

فشرحت له أننا بحاجة لإذن منه وحرس عسكري لمرافقة شاحنتنا للحدود العراقية. فقال الملك: «لك ذلك» ودوّن ملاحظة لديه وقال: «ليتّصل مكتبك بسكرتيري الصحفي السيد أيوب». ثم تحدّثنا بالمزيد حول الوضع في المنطقة وتطلّعات السلام. ويؤيد الملك أن ما كانت الحاجة تدعو إليه هو وجود قادة واسعي الأفق، قادة يمكنهم المخاطرة من أجل السلام. كنت قد طلبت لقاء لمدة عشرة دقائق ولكن حينما أشار الملك بأنه حان وقت المغادرة كان قد مضى على وجودي في القصر ساعة كاملة.

وبعد المقابلة قلت لتوم جونسون: «حصلنا على موافقة من الملك . . وطالما يمكنني اتخاذ القرار فإن كل شيء في نصابه. فبعد أن تقلّني الطائرة إلى أثينا سوف تذهب إلى قبرص لإحضار «فيتو ورست»، أعتقد أنك في أيدٍ أمينة».

قال توم: «سأرسل سيارة لمقابلتك في فلوريدا، أريدك أن تبقى على اتصال بي، وإذا

احتجت لأي شيء . . ».

ناديت على «جيمس» و«مارك بيبلو» اللذين كانا يرافقاني في الطائرة وقلت: «لنذهب!» . . وكان كلاهما سيستقلان الرحلة الصباحية المنطلقة لبرلين، في حين كان عليّ التوقّف لمدة (٣) ساعات في اليونان قبل لحاقي بطائرة أخرى في لندن ومن ثم الكونكورد إلى ميامي . وركبنا السيارة وانطلقنا إلى المطار.

ضحك مارك قائلًا: «هٰذا ليس سيئاً». وذلك بعد فترة بسيطة من انطلاقنا حينما تذوّق قطعة أخرى من الخبز المحمّص المفروش بالسالمون المدخن والكافيار، وأضاف قائلًا: «وهل هٰذا مشمولٌ مع سعر الطائرة؟».

ضحكت قائلًا: «هٰذا ما قالوه لي، ويفضل أن يكون هٰذا صحيحاً، وإلا فسيندم «إيسون» على ذلك».

وأعلن الطيّار قائلًا: «لقد اجتزنا لتوّنا الأجواء الأردنية، ويمكنكم جميعاً أن تتنفّسوا الصعداء». وسكبت لنفسي كأساً آخر وحدّقت خارج النافذة. ولأول مرة منذ أشهر يمكنني أخيراً البدء في الاسترخاء. لكني لم أتمكن من إبعاد صور زملائي من ذاكرتي. لقد أعجبت بشجاعة الفريق العائد إلى بغداد، وكنت آسفاً بعض الشيء لعدم الذهاب معهم.

في غضون أيام ستعود الـ سي. إن. إن للعمل في بغداد . . وهٰذه المرّة مع وجود معدّات الإرسال ولأوّل مرّة في التاريخ سيتم بث صور حيّة على الهواء مباشرة للعالم أجمع من خلف خطوط الأعداء عن حرب دائرة الرحى. لا بدّ وأن «مورو» سيحب ذلك!

* * *



رقم (٣٠): فيض من غيض ما لم ينقله «وينر».



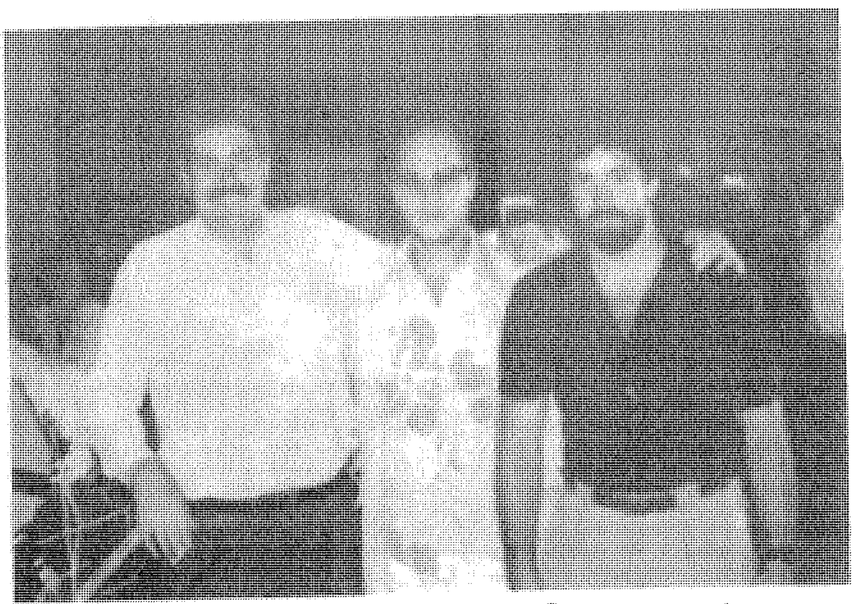
رقم (٣١): من مشاهد كثيرة لم تنقلها الـ "C.N.N" .



رقم (١): فيتنام عام ١٩٧٠. آرت هيغبي من وكالة الصحافة الدولية المتحدة والمؤلف يحتميان في حفرة سببتها إحدى القذائف على الطريق السريع رقم/ ١٣.



رقم (٢): الثورة الرومانية. المؤلف في ساحة القصر في بوخارست، كانون الأول ـ ١٩٨٩.



رقم (٣): أول من يذهب.. آخر من يعلم: من اليسار: المراسل جيم كلانسي، والمؤلف، ومارك بيلو، ينطلقون إلى بغداد في ٢٣ ـ آب ـ ١٩٩٠.



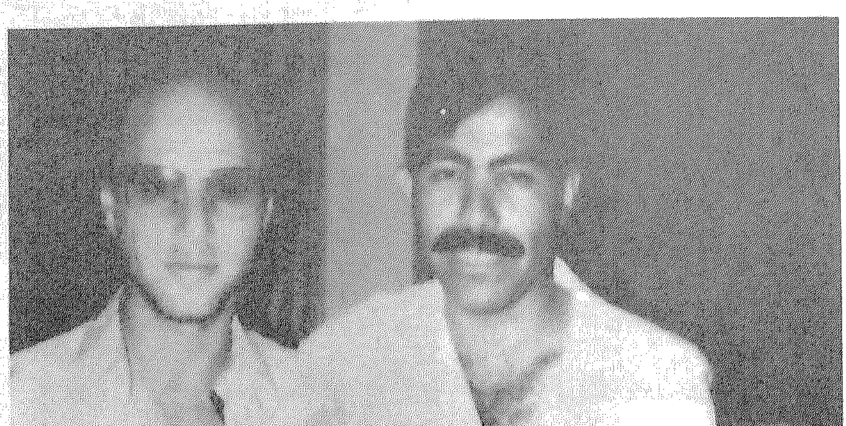
رقم (٤): القائم بأعمال السفارة الأمريكية جو ويلسون خارج السفارة الأمريكية وهو يحمل بيده شريط فيديو مسجلاً عليه خطاب الرئيس جورج بوش إلىٰ الشعب العراقي.
١٥ ـ أيلول ـ ١٩٩٠.



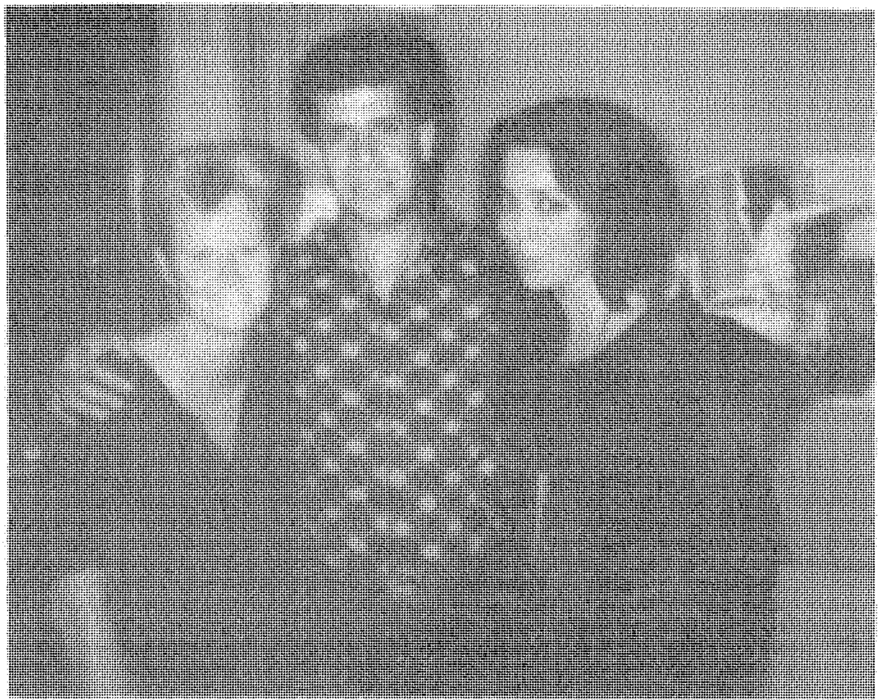
رقم (٥): مجموعة (دي إس بي) الرباعية. من اليسار: حامل آلة تيرون إدواردز، وجيم كلانسي، وإنغرد فورمانك، وريتشارد بليستون في لحظة انسجام تام. تشرين الأول ـ ١٩٩٠. قبض علىٰ تيرون فيما بعد واحتجزه العراقيون مع حوالي أربعين صحفياً آخرين عندما كانوا مسافرين من الكويت إلىٰ البصرة في نهاية الحرب.



رقم (٦): «طيف الأحلام: التلفزيون في أرض المعركة». المُلَصَّقة التي نمت باطراد.



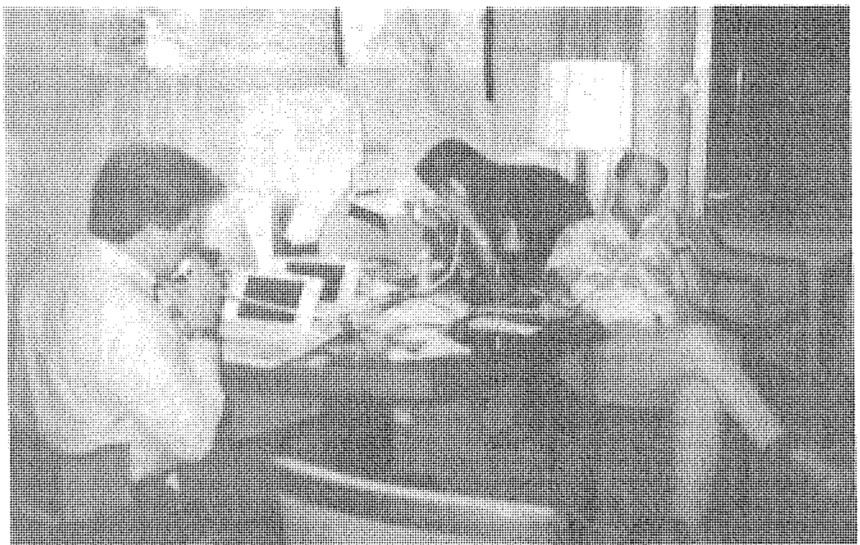
رقم (٧): مسؤول المتابعة العراقي مازن مع المؤلف في أوائل شهر أيلول.



رقم (٨): السيد كريم، سائقنا المخلص، محاطاً من جانبيه بإنغرد (على اليمين) وتري عمل كريم مع فريق سي. إن. إن منذ آب - ١٩٩٠ وحتىٰ نهاية الحرب، وغدا صديقاً للجميع.



رقم (٩): ناجي الحديثي، مدير عام وزارة الثقافة والإعلام. الجمهورية العراقية.



رقم (١٠): مرحباً أتلانتا!! من اليسار: جيم كلانسي وإنغرد فورمانك والمؤلف يتصلون في مكان العمل في فندق الرشيد. قبل تركيب جهاز السلك الرباعي، كان الاتصال مع الولايات المتحدة أحد نقاط العمل المعيقة.



رقم (١١): عيد ميلاد سيبل. محررة أشرطة الفيديو تريسي فليمنغ مغلوب على أمرها نتيجة حفلة عيد ميلاد مفاجئة. ولم يكن عيد ميلادها، وإنما حفلة كان الهدف منها رفع معنويات سيبل.



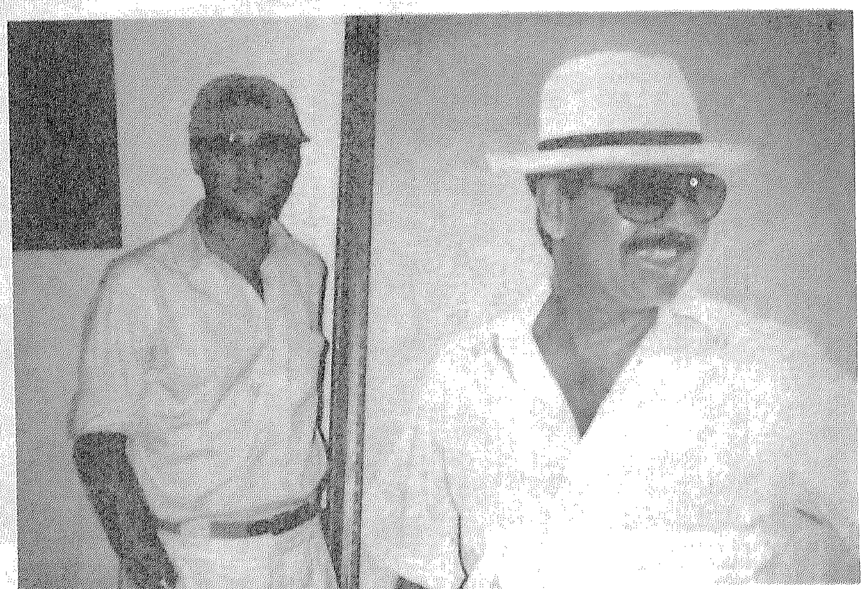
رقم (١٢): من اليسار: المخرجة إليزا غامبينو، وفني الصوت جوان كالديرا من شبكة سي. بي. إس، وسيندي ستراند في بغداد. اعتقل كالديرا بعد اندلاع الحرب مع المراسل بوب سيمون على الحدود السعودية ـ الكويتية، واحتجزهما العراقيون (٤٠) يوماً.



رقم (١٣): حفلة صاخبة. المؤلف محاطاً بزملائه في بغداد ـ أيلول/ ١٩٩٠ في إحدى غرف عشتار ـ شيراتون. من اليسار: ديفيد هيبرلن، ستيوارت كلارك، دوغ جيمس، سيندي ستراند، رود نينو، الآنسة إنغرد.



رقم (١٤): التحقق في سير العمل. المؤلف يتصل مع مكتب سي. إن. إن في أتلانتا من مكتب السفيرة الأمريكية آبريل غلاسبي ـ آب/١٩٩٠.



رقم (١٥): المؤلف إلى جانب الصورة المفضلة لديه وهي صورة للرئيس صدام حسين في مبنى وزارة الإعلام.



رقم (١٦): فريق سي . إن . إن في بغداد في ٢١/كانون الثاني ـ ١٩٩١ . من اليسار: المؤلف، وبيتر آرنت، ونك روبرستون، وجهاز (إنمارسات) الذي تستخدمه شبكة سي . إن . إن للاتصال وبث المعلومات عن طريق الأقمار الصناعية . وقد غادر جميع الصحفيون بغداد ما عدا صحفي إسباني وعدد قليل من المراسلين الأردنيين . من مجموعة صور المؤلف .



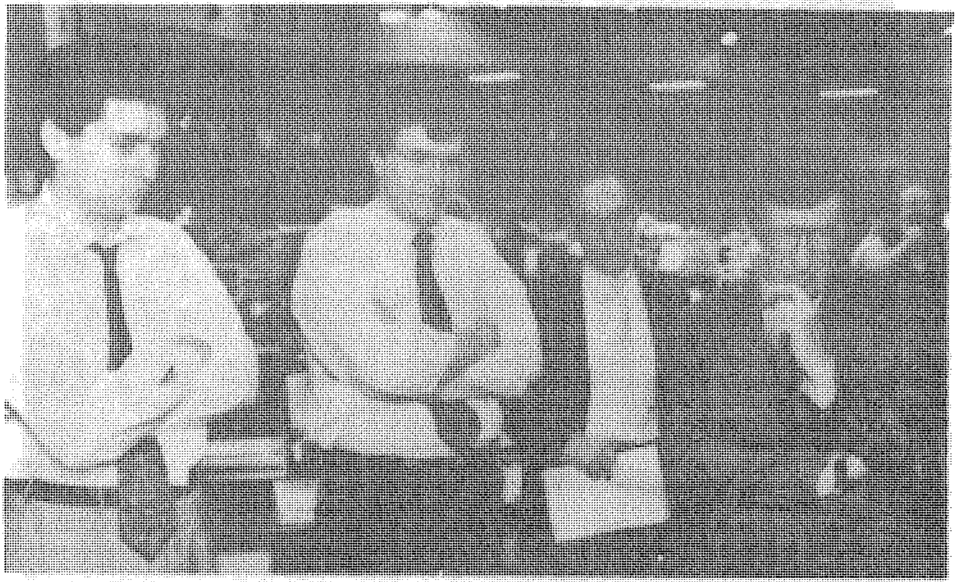
رقم (١٧): لا تطلق النار. إننا هنا. شاحنة فريق شبكة سي . إن . إن تغادر عَمان متوجهة إلىٰ بغداد . صورة من شبكة سي . إن . إن .



رقم (١٨): مسؤولون عراقيون ومنهم الدكتور سعّاد (في الوسط) رئيس الرقابة في التلفزيون العراقي، وسعدون الجنابي (على اليمين) في وزارة الإعلام، وهم يعرضون قطعاً من صاروخ توماهوك الجوال أمام المراسلين في ملجأ فندق الرشيد - ٢٠ - كانون الثاني - ١٩٩١.

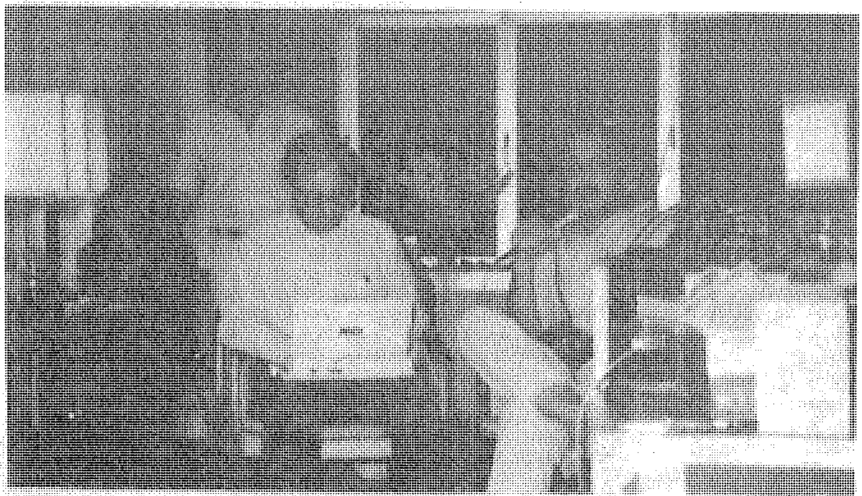


رقم (١٩): فريق سي. إن. إن في بغداد بتاريخ ١٩/كانون الثاني - ١٩٩١. من اليسار: نك روبرستون، إنغرد فورمانك، المؤلف، بيرنارد شو، مارك بيلو، كريس مانسك، جون هوليمان، بيتر آرنت. وهم يقفون أمام فندق الرشيد في بغداد.

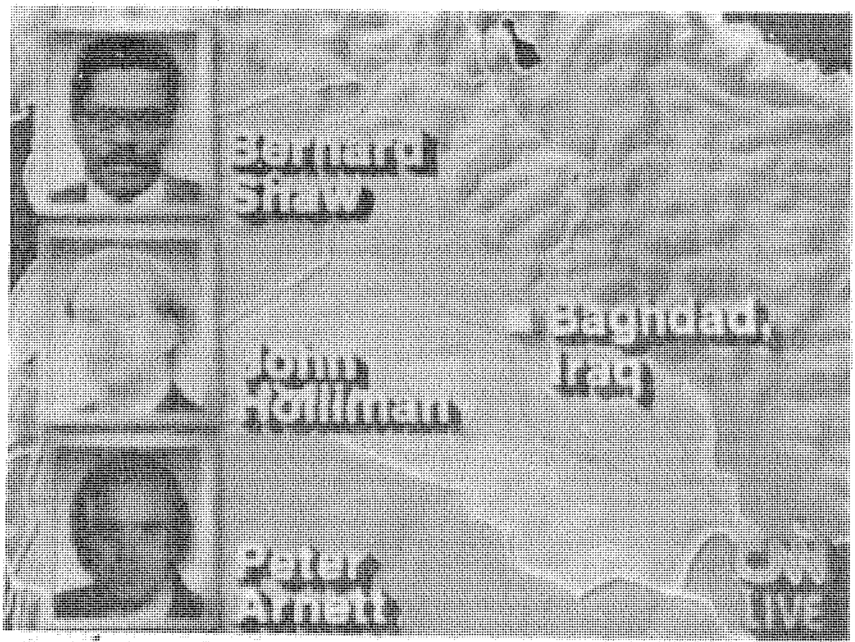


رقم (٢٠): إثبات الوجود على ساحة الأحداث. من اليسار: إيسون جوردن وهو نائب رئيس مؤسسة الأخبار العالمية، وتوم جونسون رئيس المؤسسة، وإد تيرنر نائب الرئيس في شبكة سي. إن. إن. وهم مجتمعون في غرفة الأخبار في مركز سي. إن. إن في أتلانتا لمشاهدة التغطية الإخبارية في بغداد.

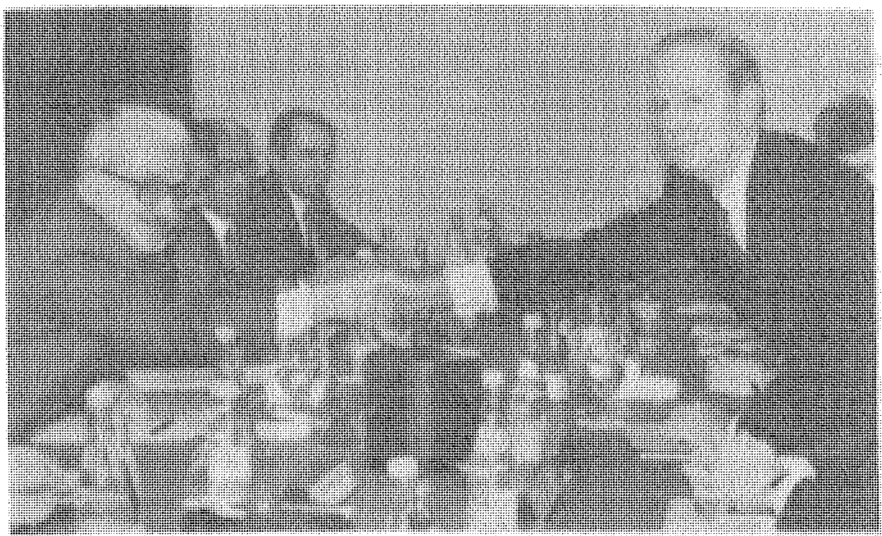




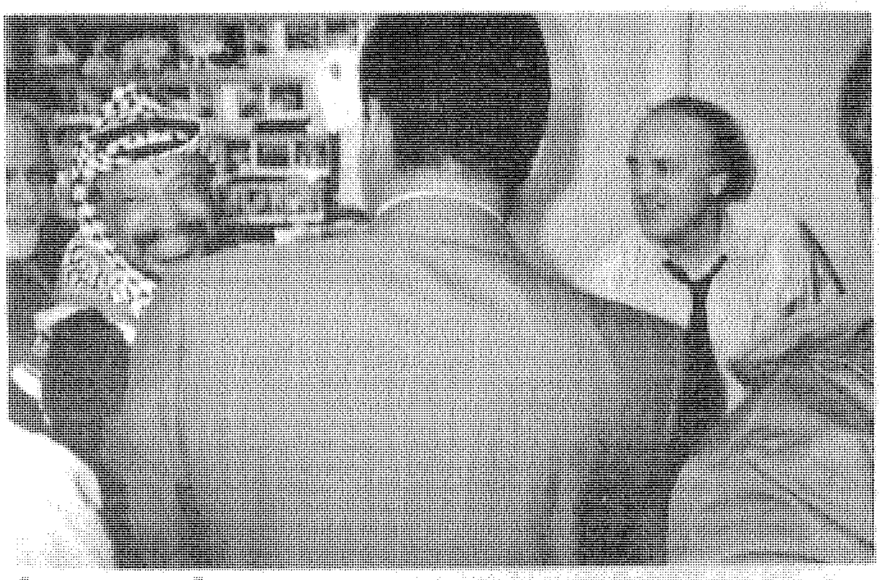
رقم (٢١): ترجمة حديث الرئيس صدام حسين. المؤلف وانغرد فورمانك ينظـران، بينما جون هوليمان ينسخ والسيد علاء من وزارة الإعلام يقوم بالترجمة الفورية متحدثاً عبر جهاز الخط الـربـاعي. وكـان يتـرجم حديث الـرئيس صدام في مؤتمـر صحفي مع صحفيين عراقيين في ١٤ ـ كانون الثاني ـ ١٩٩١.



رقم (٢٢): فتيان بغداد. قام بيرني وجون وبيتر طيلة سبع عشرة ساعة تقريباً بنقل الوقائع الأولية لحرب الخليج من الغرفة رقم (٩٠٦) في فندق الرشيد ومن دون الخضوع للرقابة العراقية.



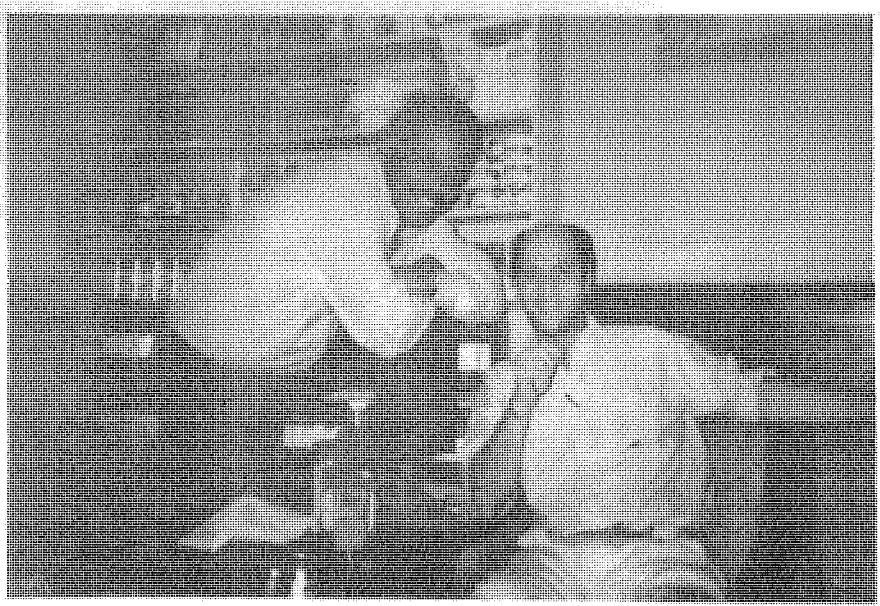
رقم (٢٣): وزير الخارجية العراقي طارق عزيز ووزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر يتصافحان في بداية اجتماعهما في جنيف بتاريخ ٩ ـ كانون الثاني ـ ١٩٩١.



رقم (٢٤): الرئيس ياسر عرفات (من اليسار) وبيرنارد شو (ظهره إلى آلة التصوير) وبيتر آرنت يتبادلون الحديث بعد انتهاء المقابلة الحية التي أجراها بيرني مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات في ١٣ ـ كانون الثاني ـ ١٩٩١.



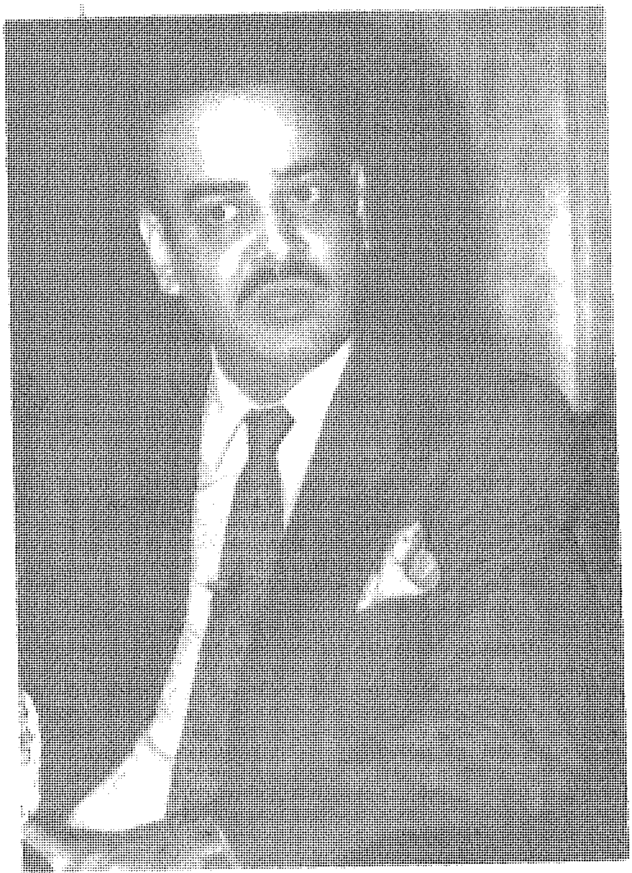
رقم (٢٥): في ردهة فندق الرشيد. من اليسار: فني الصوت بن كُريت، والمراسل ريتشارد روث، ومسؤولة آلة التصوير سيندي ستراند.



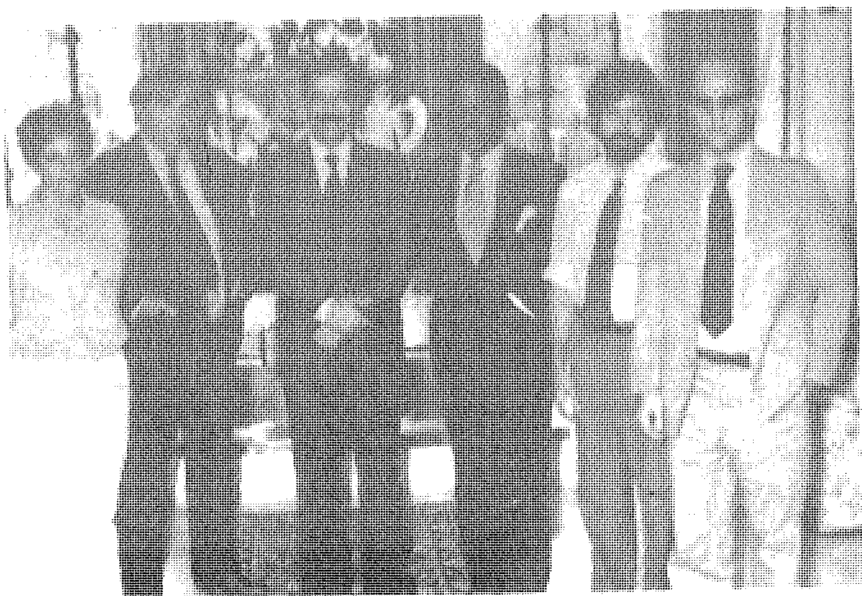
رقم (٢٦): بيرنارد شو ومؤلف الكتاب في غرفة التموين قبل أيام من بدء الحرب.



رقم (٢٧) : الرئيس العراقي صدام حسين (من اليسار)، ووزير الثقافة والإعلام لطيف نُصيِّف جاسم، والمؤلف في يوم ٢٩/تشرين أول/١٩٩٠ .



رقم (٢٨): نائب وزير الخارجية العراقي نزار حمدون.



رقم (٢٩): المقابلة مع الرئيس العراقي صدام حسين. من اليسار: سيندي ستراند، ريتشارد بليستون، الرئيس صدام، بيرنارد شو، مارك بيلو، والمؤلف. والتقطت الصورة بعد انتهاء المقابلة مع الرئيس صدام يوم ٢٩/تشرين الأول/١٩٩٠. من مجموعة صور المؤلف.

الفهـــرس

يوميات من بغداد

الأهلية للنشر والتوزيع